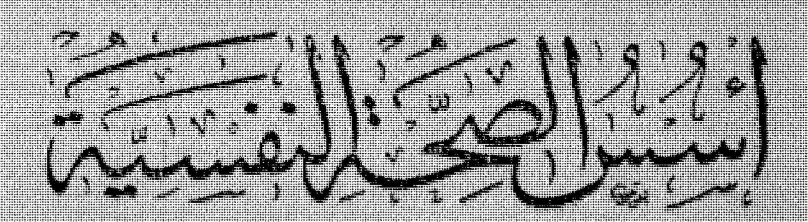


أسس الصحة النفسية

الدكتور عبد العزيز القوصي

أستاذ علم النفس بمعهد التربية للمعلمين
ومدير المعهد وزميل بالجمعية البريطانية لعلم النفس

الطبعة الرابعة

منقحة

(١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م)

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة



أسس الصحة النفسية

الدكتور عبد العزيز القوصي

أستاذ علم النفس بمعهد التربية للمعلمين
ومدير المعهد وزميل بالجمعية البريطانية لعلم النفس

الطبعة الرابعة
منقحة
(١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م)

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن ويوسف محمد وإخوتهما
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

أسس الصحة النفسية :

الطبعة الأولى : ١٩٤٥

الطبعة الثانية : ١٩٤٦

الطبعة الثالثة : ١٩٤٨

الطبعة الرابعة : ١٩٥٢

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سنتناول فى هذا الكتاب — كما يتبين من عنوانه — مايسمى « أسس الصحة النفسية » . وهو يتضمن خبرة شخصية بدأت منذ سبع عشرة سنة تقريبا ، وقد استقيت هذه الخبرة من الحالات التى قمت أنا وزملائى بدراستها فى العيادة الطبية السيكولوجية الملحقة بمعهد التربية للمعلمين ، ومن حالات الأحداث التى درستها فى أثناء عملى كاختصاصى نفسانى بمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة ، وقد استمر عملى به أربع سنوات تقريبا . ويكاد النظام الذى يسير عليه كل من مكتب الخدمة الاجتماعية وعيادة المعهد يكون واحدا . ويجدر بنا أن نشير اشارة سريعة الى نشأة كل منهما .

يرجع انشاء العيادة السيكولوجية فى مصر الى عام «١٩٣٤» ، حين قام المعهد بانشاء أول عيادة من هذا النوع . وقد ظهرت الحاجة اليها بعد أن أنشأ المعهد فصولا تجريبية[1] لتطبيق بعض الأساليب الحديثة فى التربية ولاجراء بعض التجارب ، اذ لاحظ المشرفون على هذه الفصول أن عددا من التلاميذ فيهم نوع من الشذوذ يتناول السلوك الاجتماعى فى بعض الحالات ، والتقدم الدراسى فى البعض الآخر . وكان هذا الشذوذ أكبر من أن يتمكن المدرس العادى من معالجته ، لأن مواجهته تتطلب دراسة عميقة شاملة من النوع الذى لا يتسع له وقت المدرس ، ولا تمكنه منه

(١) كانت هذه الفصول النواة الأولى للمدرستين النموذجيتين بالقبة والأورمان .

خبرته • وقد قامت بعض الهيئـات فى انجلترا وأمريكا وغـيرهما بانشاء العيادات السيكولوجية لدراسة هذا النوع من الحالات ومعالجته ، وعلى نظام هذه العيادات أنشئت عيادة المعهد • فكان العمل فيها يقوم على أساس تضافر جهود المتخصصين فى النواحى المختلفة التى تهمنا معرفتهـا لفهم الحالة ، والتمكن من معالجتها • وكان التلميذ يدرس من الناحية النفسية لمعرفة ما لديه من ذكاء واستعدادات أخرى ، ولمعرفة ما لديه من صفات نفسية : مزاجية ، وخلقية ، وما الى ذلك • كما كان يفحص من الناحية الطبية فحصا دقيقا ، لأن كثيرا من أنواع الشذوذ يرجع كله أو بعضه للعلل المزمنة أو الحادة ، أو للخصائص الجسمية الأخرى ، وما الى ذلك •

ومن الضرورى لنجاح العلاج بحث العوامل البيئية المختلفة التى تؤثر فى التلميذ سـواء أكانت هذه العوامل كامنة فى المنزل ، أم فى المدرسة ، أم فى الرفقاء ، أم فى المجال الذى يقضى فيه التلميذ وقت فراغه ، أم فى غير ذلك • وفى كل هذا يجب الوقوف على هـذه المؤثرات بكافة أنواعها : نفسـية ، أو صحية ، أو بيئية ، ماضيها وحاضرها • لذا كان من الضرورى الاستعانة بجهود سيدة مدربة تدريبا خاصا تتصل بالمنزل لجمع المعلومات [1] التى يصح أن يكون لها علاقة بمشكلة الشـذوذ • وتقوم هـذه السيدة أو الباحثة الاجتماعية بعد ذلك بزيارات متعددة لتنصح من فى المنزل بما يجب عليهم اتباعه مع الناشىء •

ويشـترك مع هـؤلاء المتخصـصين الثـلاثة — النفسـانى والطبى والاجتماعى — فى كثير من الأحيان مدرسون ومتخصصون فى المسـائل التربوية ، لوضع الخطة اللازمة لمواجهة الشذوذ أو علاجه على ضوء المعلومات التى جمعت من الميادين المختلفة •

سار العمل على هذا المنوال ، وقامت العيادة بدرس عدد من حالات التهتهة ، والسرقة ، والتأخر الدراسى ، وفقد الثقة بالنفس ، والاضطراب النفسى والغضبى ، والمشاكسة ، وما الى ذلك • وقد نجحت نجاحا كبيرا مع

(۱) يستعان الآن فى بحث ذلك بخريجات وخريجى معاهد الخدمة الاجتماعية

عدد من الحالات ، ولم تنجح هذا النجاح فى بعضها • ولم تكن الحالات التى كان نجاحها جزئيا أو منعدما أقل أهمية — من الناحية العلمية — من الحالات التى كان النجاح فيها كبيرا ، اذ تمكنت العيادة — مع ذلك كله — من الوقوف على الكثير من العوامل التى أدت الى ظهور السلوك المشكل ، ووقفت كذلك على العوامل التى أدت الى عدم النجاح فى مواجهتـه ، مما يساعد كثيرا فى وضع الأسس الوقائية والعلاجية •

وماكاد العمل يسير فى هذه العيادة الناشئة حتى زاد الضغط عليها من جهات متعددة ، فقام كثير من الآباء والنظار بارسال أطفال وتلاميذ بسبب ما ظهر عندهم من مشكلات فى السلوك • ولم تتمكن العيادة فى بدء أمرها من مواجهة الضغط ، لعدم تفرغ أعضائها للعمل بها تفرغا كاملا ، فكانت تقبل فى كل عام من أعوامها الأولى عددا قليلا من الحالات يتراوح بين خمس عشرة وخمس وعشرين • وبهـذا تمكنت فى السنوات العشر الأولى من درس « ٢٢٠ » حالة • وقد مكنتنا الظروف من دراسة الكثير من هذه الحالات باستيفاء ، على حين لم تمكنا من ذلك فى بعضها •

وفى أوائل سنة «١٩٤٠» أنشىء مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة ، وبدأ هذا المكتب يدرس من يرسل اليه من الأحداث المشردين أو مرتكبى الجرائم المعروفة باسمهم • وكان من نصيبى أن اخترت فى أول صيف «١٩٤٠» لأكون الاختصاصى النفسانى لهذا المكتب ، وبقيت فى هذا العمل زهاء أربع سنوات قمت فيها بدراسة ثلثمائة حالة تضم أعمارا مختلفة ، وجرائم وذنوبا مختلفة ، قام بها صبيان ، وعدد صغير من البنات •

وتمكنت فى حالات عيادة المعهد ومكتب الأحداث معا — وهى تزيد فى مجموعها على خمسمائة حالة — من دراسة ظروف كل حالة ، وفى هذا درسنا البيئة ، والأهل والاخوة ، والوالدين ، والرفقاء ، ومعـاملات المدرسين ، وأصحاب الأعمال وغيرهم • وبذلك اتسع ميدان الدراسة اتساعا كبيرا شمل بيئات تختلف فيما بينها اختلافا شاسعا ، وشمل صنوفا مختلفة فى السلوك ، والمزاج ، والعقلية ، والمستوى الاجتماعى ، والثقافى ، والعمر ، والجنس ، وما الى ذلك •

يضاف الى كل هذا أننى قضيت صيفين فى العيادات السيكولوجية بلندن ، وذلك فى عامى «١٩٣٤» و«١٩٣٦» وكنت ملازما فى هذين الصيفين للدكتور « هاملتون بيرسون » رئيس قسم الأطفال فى معهد لندن لعلم النفس الطبى ، ودرست معه عددا من حالات الصغار والمراهقين التى كانت تحال الى ذلك المعهد .

وقد جمعت نتائج كل هذه الخبرة فى الطبعة الأولى من هذا الكتاب ، وأضفت الى طبعاته الأخرى بعض ما تلا ذلك من خبرات .

ويحتوى هذا الكتاب على ثلاثة أجزاء : الجزء الأول منه يشمل القواعد العامة للصحة النفسية ، وأغلبها قواعد نظرية مدعمة بالأمثلة العملية المشتقة من الحالات النفسية التى درسناها ، ويدخل فى ذلك أثر الناحية الصحية وأثر الوراثة . كما يشمل نزعات الطفل الفطرية ، وتعدل هذه النزعات مما يؤدى الى تكوين خلقه ، وعواطفه ، وميوله ، واتجاهاته .

وأما الجزء الثانى فانه يشمل بيئة الطفل الاجتماعية ، وقد قسمناها الى جزئين : البيئة المنزلية وتشمل الوالدين والاخوة ، والبيئة المدرسية ويدخل فيها التلاميذ والمعلمون .

والجزء الثالث منه يشمل بعض المشكلات التى تعرض للآباء والمعلمين والقائمين بتربية الأطفال ، وتدرجنا فى شرح كل هذا مبتدئين بالمشكلات الأولى من نوم وتغذية ، وبينا أسبابها وآثارها النفسية ، وأهميتها فى نشأة الفرد ، وتدرجنا الى مشكلات الطفولة المتأخرة ، ثم الى مشكلات المراهقة ، فعرضنا للمشكلات الجنسية . ثم ختمنا الكتاب بفصل عن التربية الجنسية اكتفينا فيه بعرض عام غير مفصل لما يجب أن يعمل ، وببيان تفصيلى عما يعمل فى الخارج مما يمكن أن نسميه « التربية الجنسية المقصودة » ولعل دراسة ما يعمل فى الخارج قد توحى الينا بما يمكن عمله فى مصر (١) .

وقد حرصنا عند استشهادنا بحالات مما درسنا ألا يتمكن القارىء

---

(١) قمت بالفعل مع زميلى (الدكتور أحمد طنطاوى) بوضع كتاب يقرؤه المراهقون فى هذه الناحية ، وسميناه « قصة الحياة فى جميع الأحياء » .

العادى من معرفة أصحاب هـذه الحالات ، وضحينا أحيانا بالاشارة الى بعض الحالات الطريفة ، لا لسبب سوى أن شرحها قد يسهل الاستدلال على معرفة أصحابها .

وأجزاء الكتاب موضوعة بحيث يمكن قراءة كل منها مستقلا عن الآخر ، ويجدر بالذين يدرسون على النفس دراسة منظمة أن يقرءوها جميعها . وقد راعينا فى فصول الجزء الأول الاختصار والوضوح والشمول والدقة العلمية . ويتحتم على من ينشد دراسة فصوله دراسة وافية أن يكمل قراءته من مراجع أخرى أكثر استيفاء . ومن هنا رأينا تذييل كل فصل بثبت واف لخير مراجعه . وليس معنى هذا الثبت أن كل مرجع قد استعملناه استعمالا صريحا فى صلب الكتاب ، ولكننا استعملنا كل هـذه المراجع استعمالا ضمنيا كافيا فى أهم ما جاء فيها . والغرض الأساسى من ايرادها فتح ميدان القراءة لمن يهمهم البحث والاطلاع .

ولا يسعنى فى ختام هذه المقدمة الا أن أشكر جميع من عاونونى فى تجهيز مادة هذا الكتاب ، وأخص بالذكر منهم زملائى أعضاء العيـادة السيكولوجية بمعهد التربية ، وأعضاء مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة . وأرى لزاما على أن أنوه بفضل أستاذى الجليل اسماعيل محمود القبانى بك ، فهو أول من علمنى علم النفس ، وملأنى اهتماما به ، وتحمسا له ، وكان يقوم دائما بتشجيعى وتهيئة الظروف لاتمام هذا الكتاب، وقد أفدت من ملاحظاته القيمة التى أخذت بها ، وكان لها فى تحسين هـذا الكتاب أثر كبير . وهناك اثنان يخجلنى أن أشكرهما ؛ اذ لا يفى حقهما أى شكر مهما عظم ، وهما صديقاى : الأسـتاذ أحمد حسن عبيد والأستاذ السيد محمد على عثمان . وأقدم شكرى كذلك الى حضرات أساتذة المعهد وطلابه وخريجيه فقد أفدت منهم فى ذلك فائدة كبيرة .

وأشكر السيدة زوجتى ؛ اذ لم تقتصر مساعدتها على تهيئة الجو الصالح للعمل المثمر ، وانما امتد فضلها الى المعونة الفنية والعملية فى كل جزء من أجزاء هذا الكتاب .

عبد العزيز القوصى

معهد التربية فى مارس سنة ١٩٥٢

فهرس

الباب الأول

المبادىء العامة لعلم الصحة النفسية

الفصل الأول : معنى الصحة النفسية . (٣—١٢)

تعريف (٣) ، الشذوذ والصحة النفسية (٨) نسبية الصحة النفسية (١٠) ، ميدان الصحة النفسية (١١) ، المراجع (١٢) .

الفصل الثانى : الوراثة والبيئة . (١٣—٢٧)

مقدمة (١٣) ، الآراء المختلفة فى الوراثة والبيئة (١٤) ، المقصود بالوراثة والبيئة (١٥) ، بعض الأدلة على أثر الوراثة والبيئة (١٧) ، دراسة العظماء والموهوبين (١٧) ، دراسة المجرمين وضعاف العقول (١٧) ، دراسة التوائم (١٩) ، الوراثة والصفات العقلية والخلقية (٢٠) ، الذكاء والوراثة (٢١) ، الخلق والوراثة (٢٣) ، صعوبات البحث فى الوراثة والبيئة (٢٤) ، الوراثة (٢٧) .

الفصل الثالث : الجسم والعقل وأثر كل منهما فى الآخر (٢٩—٥٩)

مقدمة (٢٩) ، التطور فى الجسم والعقل (٣٠) ، الجسم والعقل فى عمليات الادراك الحسى (٣٠) ، الانفعالات (٣١) ، أنواع الشخصية وعلاقة الجسم بها (٣٣) .

أثر الجسم فى العقل : التأخر العام فى النمو الجسمى (٣٥) ، العاهات وأثرها (٣٦) ، الأثر المباشر للجسم على العقل (٤٠) ، أثر التوكسينات والمخدرات والميكروبات (٤١) ، أثر الغدد (٤٤) ، البنكرياس (٤٥) ، الغدة الدرقية وجاراتها (٤٦) ، الغدة النخامية (٤٧) ، الغدةالتناسلية (٤٩) ، الغدة الفوق الكلوية (٥١) ، غدتا الطفولة (٥٢) ، الاتزان الغددى (٥٢) .

أثر العقل فى الجسم (٥٣) : الحالات الانفعالية (٥٤) ، أمثلة من تحقيق الجسم للنزعات العقلية (٥٥) ، أثر الايحاء (٥٧) ، خاتمة (٥٨) ، المراجع (٥٩) .

الفصل الرابع : الغرائز والحاجات . (٦١ — ٨٤)

مقدمة (٦١) ، الغرائز (٦٣) ، النزعات الفطرية العامة (٦٨) ، الحاجات النفسية (٧٢) ، الدوافع والقدرات العقلية (٧٦) ، طرق تعدل الغرائز (٧٨) ، الطريقة الأولى (٧٨) ، الطريقة الثانية (٧٩) ، الطريقة الثالثة (٨٠) ، الاعلاء والقلب (٨٠) ، الابدال (٨٢) ، خاتمة (٨٢) ، المراجع (٨٤) .

الفصل الخامس : تكامل الشخصية « العواطف والخلق » (٨٥ — ١٠١)

معنى (٨٥) ، أنواع العواطف (٨٦) ، العواطف وتنظيم الدوافع الفطرية (٨٧) ، العاطفة السائدة (٨٨) ، تكامل الشخصية (٨٩) ، الصراع النفسى وعاطفة اعتبار الذات (٩٠) ، نشوء عاطفة اعتبار الذات (٩٢) ، العوامل الاجتماعية فى تكوين الخلق (٩٤) ، رأى فى السعادة (٩٨) ، المراجع (١٠١).

الفصل السادس : انحلال الشخصية « اللاشعور » . (١٠٣ — ١٢٧)

خلاصة ومقدمة (١٠٣) ، الـ « أنا » (١٠٥) ، الذات العليا (١٠٦) ، الـ « هى » (١٠٨) ، الـ « أنا » والقوى المؤثرة عليها (١٠٩) ، الصراع

والكبت وتكوين العقد (١١٢) ، العواطف والعقد (١١٧) ، مظاهر اللاشعور (١١٩) ، الأحلام (١٢١) ، المراجع (١٢٧) .

الفصل السابع : العمليات العقلية اللاشعورية . (١٢٩ — ١٤٣)

مقدمة (١٢٩) ، الكبت والنسيان (١٢٩) ، النكوص (١٣١) ، الاسقاط (١٣٢) ، التحويل (١٣٤) ، التقمص (١٣٥) ، التبرير (١٣٦) ، التعويض (١٣٨) ، الأعراض المرضية والدفاعية والهروبية (١٤١) ، خاتمة (١٤٢) ، المراجع (١٤٣) .

الفصل الثامن : مراحل النمو . (١٤٥ — ١٦٢)

مقدمة (١٤٥) ، التقسيم الى مراحل (١٤٦) ، السنتان الأوليان (١٤٩) ، المرحلة من سن ٢ الى سن ٥ (١٥٠) ، المرحلة من ٥ الى ١٢ (١٥١) ، المراهقة والبلوغ (١٥٤) ، التغيرات الجنسية (١٥٥) ، التغيرات الوجدانية (١٥٦) . التغيرات الاجتماعية والخلقية (١٥٧) ، تحرر المراهق من السلطة ونمو فرديته (١٥٩) ، النمو العقلى (١٦٠) ، الكبار وموقفهم نحو المراهق (١٦١) ، المراجع (١٦٢) .

الباب الثاني

الطفل فى بيئته الاجتماعيـــة

الفصل التاسع : الطفل ووالداه . (١٦٥ — ١٨٣)

اعتماد الطفل على والديه وتحريره منه (١٦٥) . مدى تدخل الآباء فى حياة الأبناء (١٧٠) ، التدخل اللاارادى للآباء فى حياة الأبناء (١٧٢) ، جزاءات الآباء (١٧٦) السياسة الثابتة والطاعة (١٧٩) ، الروابط بين الوالدين (١٨١) ، المراجع (١٨٣) .

الفصل العاشر : الطفل واخوته . (١٨٥ — ٢٠٨)

مركز الطفل بين اخوته (١٨٥) ، الطفل الأول والثانى (١٨٥) ، الطفل الأخير (١٨٨) ، الطفل الوحيد (١٨٩) ، دراسة حالات (١٩٠) ، خاتمة (٢٠٧) ، المراجع (٢٠٨) .

الفصل الحادى عشر : المدرسة ومشكلات النشء . (٢٠٩ — ٢٢٨)

مقدمة (٢٠٩) ، المدرسة وعلاقتها بكل من المنزل والمجتمع (٢٠٩) ، الغاية من المدرسة وأثر الامتحانات (٢١٢) ، قيمة العمل المدرسى (٢١٥) ، طرق التعليم المتبعة (٢١٧) ، الشعور بالنجاح (٢١٩) ، الحياة الاجتماعية (٢٢٣) ، نوع المعاملة السائدة فى المدرسة (٢٢٤) ، المدرسة ومشكلات النشء (٢٢٥) ، المراجع (٢٢٨) .

الفصل الثانى عشر : المعلم وعلاقته بالتلميذ (٢٢٩ — ٢٣٩)

مقدمة (٢٢٩) ، درجة شعور الطفل بالحاجة للمدرس (٢٣٠) ، درجة اغتباط المعلم بعمله (٢٣٠) ، قسوة المعلمين (٢٣٢) ، مشكلات المعلم ومشكلات المتعلم (٢٣٣) ، المعلم كقائد أو مرشد للطفل (٢٣٥) ، المراجع (٢٣٩).

الباب الثالث

مشكلات تربيـــة النشء

الفصل الثالث عشر : المشكلات المتعلقة بالتغذية (٢٤٣ — ٢٦٤)

مقدمة عامة (٢٤٣) ، حالات (٢٤٥) ، أنواع المشكلات وطرق تحديدها (٢٤٩) ، كيف تدرس مشكلات التغذية (٢٥١) ، البطء فى تناول الطعام (٢٥٤) ، موقف الآباء وما يترتب عليه (٢٥٤) ، الشره (٢٥٨) ، القيء (٢٥٩) ، خاتمة (٢٦٠) ، المراجع (٢٦٤) .

الفصل الرابع عشر : المشكلات المتعلقة بالنوم (٢٦٥ — ٢٧٧)

مقدمة (٢٦٥) ، الحاجة الى النوم عند الأطفال (٢٦٦) ، نظام النوم (٢٦٨) ، بعض المشكلات العادية (٢٧١) ، التقلب والمشى والكلام فى أثناء النوم (٢٧٥) ، المراجع (٢٧٧) .

الفصل الخامس عشر : التبول اللاارادى (٢٧٩ — ٢٩٧)

مقدمة (٢٧٩) ، الأسباب الجسمانية وعلاجها (٢٨٠) ، الأسباب النفسية (٢٨٢) ، مصاحبات التبول (٢٨٧) ، العلاج والوقاية (٢٨٩) ، التبول فى أثناء اليقظة (٢٩٢) ، خاتمة (٢٩٥) ، المراجع (٢٩٧) .

الفصل السادس عشر : الحركات العصبية : مص الأصابع ، وقرض الأظافر (٢٩٩ — ٣١٣)

مقدمة (٢٩٩) ، العصبية العامة وانعدام الاستقرار (٣٠٠) ، مص الأصابع (٣٠٤) قرض الأظافر (٣٠٨) ، اللزمات العصبية (٣٠٨) ، خاتمة (٣١١) ، المراجع (٣١٣) .

الفصل السابع عشر : صعوبات النطق ٣١٥ — ٣٣٣

مقدمة (٣١٥) ، بعض الحالات (٣١٧) ، التشخيص والعلاج (٣٢٣) ، عوامل ظهور صعوبات النطق (٣٢٥) ، مصاحبات التهتهة (٣٢٦) ، المدرسة والتهتهة (٣٢٨) ، علاج التهتهة (٣٢٩) ، خاتمة (٣٣١) ، المراجع (٣٣٣) .

الفصل الثامن عشر : الخوف وضعف الثقة بالنفس (٣٣٥ — ٣٦٠

الخوف العادى والشاذ (٣٣٥) ، أنواع المخاوف (٣٣٧) ، مخاوف الأطفال ومصادر تكوينها (٣٣٨) ، الخوف من الموت (٣٤٤) ، الخوف من الظلام (٣٤٥) ، القلق والخوف العام (٣٤٦) ، واجب الآباء ازاء مواقف

الخوف (٣٤٧) ، ضعف الثقة بالنفس (٣٤٨) ، الثقة عند الطفل الصغير (٣٤٩) ، بعض العوامل الطبيعية للشعور بالنقص (٣٥٠) ، القصور الجسمانى العقلى (٣٥١) ، أثر الموازنات (٣٥٢) ، اعتماد الطفل على نفسه وعلى غيره (٣٥٤) ، السلطة الوالدية (٣٥٥) ، العلاقات بين الوالدين (٣٥٦) ، التربية والروح الاستقلالية (٣٥٧) ، مظاهر ضعف الثقة بالنفس (٣٥٨) ، خاتمة (٣٥٩) المراجع (٣٦٠) .

الفصل التاسع عشر : الكذب : (٣٦١ ــ ٣٧٧)

الكذب (٣٦١) ، الاستعداد للكذب (٣٦٢)، الكذب الخيالى (٣٦٣) ، الكذب الالتباسى (٣٦٤) ، الكذب الادعائى (٣٦٥) ، الكذب الغرضى (٣٦٦) ، الكذب الانتقامى (٣٦٧) ، الكذب الدفاعى (٣٦٧) ، كذب التقليد (٣٧٠) ، الكذب العنادى (٣٧٠) ، الكذب المرضى أو المزمن (٣٧٠) ، بعض القواعد العامة (٣٧٢) ، العوامل المدرسية التى تشجع على الكذب (٣٧٥) ، خلاصة (٣٧٦) ، المراجع (٣٧٧) .

الفصل العشرون : السرقة (٣٧٩ ــ ٣٩٣)

حالة فى السرقة (٣٧٩) ، حالة أخرى فى السرقة (٣٨١) ، السرقة والاستعداد لها (٣٨٢) ، الشعور بالملكية وانماؤه (٣٨٣) ، الدوافع للسرقة (٣٨٦) دراسة حالات السرقة (٣٩٠) ، بعض القواعد العامة (٣٩٢) ، المراجع (٣٩٣) .

الفصل الحادى والعشرون : الميل للاعتداء والتشاجر ونوبات الغضب (٣٩٥ ــ ٤١٣)

مقدمة (٣٩٥) ، دراسة حالات (٣٩٨) ، حالة فى نوبات غضب لطفل فى سن الخامسة (٤٠١) ، حالة غضب ومعاندة لتلميذ فى السادسة عشرة (٤٠٤) ،

أسباب الغضب فى الحالات الشاذة (٤٠٣) ، مشاجرات الأخوة (٤٠٧) ، بحث حالات الغضب والتشاجر (٤٠٩) ، بعض القواعد العامة (٤١١) ، خاتمة (٤١٢) ، المراجع (٤١٣) .

الفصل الثانى والعشرون : التخريب (٤١٥—٤٢٧)

ميل الأطفال الى الفحص والتخريب والحركة (٤١٥) ، بعض الظروف التى تعارض ميل الطفل الى اللعب (٤١٩) ، عوامل التخريب (٤٢٠) ، التدمير وعقاب الذات (٤٢٤) ، خاتمة (٤٢٥) ، المراجع (٤٢٧) .

الفصل الثالث والعشرون : الغيرة (٤٢٩ — ٤٤٣)

معنى الغيرة (٤٢٩) ، الغيرة والثقة (٤٣١) ، كيف تنشأ الغيرة (٤٣١) ، بعض الحالات (٤٣٣) ، الغيرة عند الطفل الوحيد (٤٣٦) ، الغيرة من المولود (٤٣٧) ، الغيرة بسبب الموازنة (٤٣٨) ، خاتمة (٤٤٠) ، المراجع (٤٤٣).

الفصل الرابع والعشرون : التأخر الدراسى (٤٤٥ — ٤٦٢)

مقدمة (٤٤٥) ، تحديد معنى التأخر الدراسى (٤٤٦) ، بعض الحالات فى التأخر الدراسى (٤٤٩) ، العلاقة بين التأخر الدارسى والتأخر العقلى (٤٥٦) ، طريقة بحث حالات التأخر الدارسى (٤٥٧) ، مصاحبات التأخر الدراسى (٤٥٩) ، المراجع (٤٦٢) .

الفصل الخامس والعشرون : المشكلات الجنسية (٤٦٣ — ٤٧٨)

أنواع المشكلات الجنسية (٤٦٣) ، الناحية الجنسية فى مراحل النمو المختلفة (٤٦٤) ، بعض الحالات (٤٦٦) ، الاستمناء (٤٧٢) ، تلخيص المشكلات الجنسية وأسبابها (٤٧٦) ، المراجع (٤٧٨) .

الفصل السادس والعشرون : التربية الجنسية (٤٧٩ — ٥٠٥)

مقدمة (٤٧٩) ، موقف الطفل من المسائل الجنسية (٤٨١) : موقف الآباء من الأطفال فى المسائل الجنسية (٤٨٠) ، التربية الجنسية للآباء (٤٨٥) ، قواعد عامة للتربية الجنسية (٤٨٧) ، بعض المحاولات فى التربية الجنسية (٤٩٠)، التربية المختلطة (٤٩٤) ، تجارب فى التعليم الجنسى بالمدارس(٤٩٩)، المراجع (٥٠٥) .

ثبت بالمصطلحات : ٥٠٧ — ٥١٦

للمؤلف (مؤلفات) أخرى : ٥١٧

الباب الأول

القواعد العامة لعلم الصحة النفسية

الفصل الأول : معنى الصحة النفسية .

الفصل الثانى : الوراثة والبيئة .

الفصل الثالث : الجسم والعقل وأثر كل منهما فى الآخر .

الفصل الرابع : الغرائز والحاجات .

الفصل الخامس : تكامل الشخصية « العواطف والخلق » .

الفصل السادس : انحلال الشخصية « اللاشعور » .

الفصل السابع : العمليات العقلية اللاشعورية .

الفصل الثامن : مراحل نمو الفرد .

الفصل الأول

معنى الصحة النفسية

تعريف الصحة النفسية :

تخطر ببالنا فكرة الصحة النفسية ، عندما يقف الواحد منا أمام مشكلة بارزة من مشكلات السلوك . فاذا لاحظنا أن شخصا ما ، لا يصدر عنه السلوك الملائم فى أثناء تعامله مع ما يحيط به من الأشخاص والكائنات ، فاننا نلاحظ أن هذا السلوك غير الملائم يكون غالبا مصدرا لمشكلات وصعوبات. وسلوك الفرد فى أثناء تعامله مع ما يحيط به من الأشخاص والكائنات لا يخرج عن كونه نوعا مما يسميه علماء الحياة « تكيف الكائن الحى للبيئة المحيطة به ».ومعروف أن الكائنات الحية بمختلف صنوفها تتفاعل مع البيئة، وتتكيف لظروفها تكيفا غايته ضمان الحياة واستمرار النمو وبقاء النوع . كذلك الانسان عندما يتعامل مع بيئته المادية والاجتماعية ، فاننا نجده يفصح عن سلوك لا يخرج عن كونه نوعا من أنواع التكيف للبيئة . وهذا النوع من التكيف يمكن تسميته « التكيف النفسى » . فان كان هناك شخص لا يكيف نفسه التكيف النفسى المناسب لبيئته المادية والاجتماعية ، قلنا عادة اننا نشك فى صحة حالته النفسية . ومن أمثلة التكيف النفسى المناسب خوف الانسان من موقف يضر حياته ، كوقوعه أمام حيوان مفترس . والتكيف النفسى فى هذه الحالة هو أن يسلك الانسان طريقة تمنع الخطر عنه ، فيهرب مثلا من الحيوان ولكن اذا ظهر خوف الانسان البالغ من حيوان عادى نألفه كقط أو أرنب — أو ما شابه ذلك — اعتبرنا مظاهر الخوف تكيفا نفسيا غير مناسب . ونعتبر عادة — كما قلنا — أن حالات التكيف المناسب دالة

بوجه عام على الصحة النفسية ، وأما حالات التكيف غير المناسب ، فانها تفصح عن انحراف فى الصحة النفسية •

ومن المفيد أن نقيم بعض الموازنة بين الصحة النفسية والصحة الجسمية — من حيث مناهج كل منهما — حتى نفهم الأولى على ضوء الثانية • فالصحة الجسمية نصل اليها بمناهج ثلاثة : أولها المنهج العلاجى (Remedial) وهو ما يتبعه الفرد العادى للتخلص من مرض أو انحراف • وثانيها المنهج الوقائى (Preventive) وهو ما يتبعه الفرد عادة لكى يتجنب الاصابة بمرض ما • وثالثها المنهج الانشائى أو الايجابى (Positive or Constructive) ، وهو ما يتبعه الفرد العادى حتى تقوى صحته ، ويزيد نشاطه ، ويتمتع بالشعور بالقوة الحيوية • وهذه المناهج الثلاثة ليست منفصلة تماما عن بعضها ، ولكنها متداخلة تداخلا كبيرا •

كذلك الصحة النفسية لها ثلاثة مناهج كالسابقة تماما • فهناك المنهج العلاجى ، وهو ما يتبع لعلاج الفرد من الانحراف فى الصحة العقلية حتى يعود الى حالة الاعتدال ولدينا المنهج الوقائى ، وهو الطريق الذى يسلكه الفرد مع نفسه ومع غيره حتى يقى نفسه وغيره الوقوع فى حالة اضطراب نفسى • وهناك المنهج الانشائى ، وهو ما يحتذيه المرء ليزيد شعوره بالسعادة ، وليزيد كفاءته الى أقصى حد مستطاع • ومن أمثلته ما يقوم به بعض الناس من محاولات لتقوية الذاكرة ، أو الخيال ، أو الارادة ، أو الشخصية • وهذه المحاولات سواء أكانت صحيحة أم غير صحيحة من حيث الأساس العلمى الذى تستند عليه الا أنها موجودة للغرض الانشائى • ويقابلها فى الناحية الجسمية ما أشرنا اليه من محاولات زيادة الحيوية والقوة عن طريق التغذية والرياضة والتمرينات الموضوعة خصيصا لذلك •

وعلى ضوء ما تقدم يمكن فهم معنى الصحة النفسية فهما تقريبيا • ولزيادة الايضاح نعود مرة أخرى الى الصحة الجسمية فنعرفها بالتعريف الآتى :

الصحة الجسمية هى التوافق التام بين الوظائف الجسمية المختلفة ،

مع القدرة على مواجهة الصعوبات العادية المحيطة بالانسان ، ومع الاحساس الايجابى بالنشاط والقوة والحيوية .

ونقصد بالتوافق أن تكون الوظائف الجسمية متعاونة تعاونا تاما لصالح الجسم كله ، فلا يجوز فى الحالة الصحية ، أن يقوم عضو من الجسم بنشاط أكبر أو أقل مما يتطلبه الجسم كله ، والا نشأت حالة مرضية ، تختلف فى شدتها ، ومدة بقائها باختلاف نوعها وظروفها ، فاذا زاد أو قل نشاط غدة من الغدد عما يتطلبه الجسم كله كوحدة أدى ذلك الى حالة مرضية ، فزيادة نشاط الغدة الدرقية مثلا عما يستدعيه الاتزان الكلى لمجموع نشاط الغدد يترتب عليها عادة الحالة المعروفة باسم (Exophthalmic Goitre) وانخفاض نشاط الغدة الدرقية عن الحد الذى يتطلبه اتزان مجموع نشاط الغدد ينتج عنه حالة (Myoedema) كذلك قد تستقل فى النمو مجموعة من خلايا الجسم — لسبب ما — عن بقية الأنسجة المحيطة بها ، فتتحول الى خلايا خبيثة ، لا تقوم بوظيفة ما فى الجسم سوى الدمار للخلايا الطبيعية ، وتسحب عندئذ كثيرا من نشاط الجسم وغذائه لحسابها الخاص ، وهذه هى الحالة المعروفة بالسرطان[1] . من هذا كله يتضح المقصود بالتوافق ، وهو أن تعمل أجزاء الجسم متعاونة لصالح الجسم كله .

واذا عدنا الى التعريف الذى نحن بصدده ، نجد أنه ينص على قدرة الجسم على مواجهة الصعوبات العادية التى تحيط بالانسان ، فيجب أن يكون بحيث يقاوم التغيرات المألوفة فى درجة حرارة الجو مثلا ، وأن يكيف نفسه لتغيرات فى التغذية ، ومواعيدها وألوانها ، بحيث تقع هذه التغيرات فى حدود معينة . وأساليب التكيف الجسمى لهذه التغيرات كثيرة ومعروفة ، منها : ارتفاع درجة الحرارة ،واسراع القلب فى أداء عمله . وهجوم الكرات البيضاء أحيانا على نقطة الاصابة ، وغير ذلك . وهناك حالات تكون فيها التغيرات الطارئة أقوى مما يمكن أن يقاومه الجسم ، مهما تضافرت قواه فى هذا الاتجاه . وهنا يصل الى حالة اعتلال أو وفاة .

---

(١) راجع هذه النقطة ووافق على ما جاء بها الدكتور ابراهيم أبو سنة الاختصاصى فى علم العلاج بالأشعة بكلية الطب بالعباسية .

وواقع الأمر أن الجزأين السابقين من التعريف ، وهما : التوافق والقدرة على مواجهة الصعوبات ليسا منفصلين ، وانما هما جزء واحد • فالتوافق بين وظائف الجسم المختلفة هو التعاون بين أعضائه ، لتساعد هذه الأعضاء الجسم على الحياة فى البيئة الطبيعية ، وعلى مواجهة الصعوبات الناشئة من التغيرات الواقعة فى حدود معينة •

أما الجزء الأخير من التعريف وهو الاحساس الايجابى بالنشاط والقوة والحيوية فهو واضح لا يحتاج الى شرح • وله وظيفة ترتبط بالجزأين السابقين ، فوجود هذا الاحساس يدل الفرد على تمتعه بالتوافق ، وغياب هذا الاحساس يدله على حاجته الى القيام باعادة هذا التوافق •

وان صح القياس بين الحياتين الجسمية والنفسية ، أمكن — قياسا على ما تقدم — أن نعرف الصحة النفسية بالتعريف نفسه الذى قدمناه للصحة الجسمية مع ابدال كلمة « النفسية » بكلمة « الجسمية » • وعلى هذا تكون الصحة النفسية هى التوافق التام أو التكامل[1] بين الوظائف النفسية المختلفة ، مع القدرة على مواجهة الأزمات النفسية العادية التى تطرأ عادة على الانسان ، ومع الاحساس الايجابى بالسعادة والكفاية •

ومعنى التوافق التام بين الوظائف النفسية المختلفة هو خلو المرء من النزاع الداخلى كوقوعه بين اتجاهين مختلفين ، كأن يتردد بين تحقيق كرامته فى نظر نفسه ، واشباع جوعه عن طريق السرقة • أو كما يحدث فى موقف يتنازع ارادة الشخص فيه أمران : تضحية بنفسه وأولاده لانقاذ الوطن ، أو تضحية بالوطن لانقاذ نفسه وأولاده • هذه حالات واضحة يبدو فيها النزاع الداخلى النفسى • والواجب أن يكون المرء بحيث لا يقع فى نزاع نفسى ، أى أن يكون قادرا على الجسم فى مشكلاته بناء على فكرة أو فلسفة

(١) تستعمل أحيانا كلمة تكامل Integration ويلاحظ أن هذه الكلمة مشتقة من Integer ومعناها العدد الصحيح أو الكمية الكاملة ، ولهذا نعتبر أن كلمة تكامل كلمة مناسبة • كذلك كلمة صحة وهى مصدر الصفة المشتقة من صحيح أى غير مقسم • فالصحة فيها معنى الوحدة وعدم الانقسام سواء أكان ذلك فى صحة الأجسام أم فى غيرها •

معينة ٠ فخلو المرء من النزاع وما يترتب عليه من توتر نفسى وتردد ، وقدرته على حسم النزاع حال وقوعه هو الشرط الأول للصحة النفسية ٠ ويمكن الوصول اليه عن طريق فلسفة دينية أو اجتماعية أو خلقية أو غير ذلك من الاتجاهات المحدودة ٠

ووظيفة الحياة النفسية بمختلف عناصرها هى تكيف المرء لظروف بيئته الاجتماعية والمادية ٠ وغايتها تحقيق حاجات الانسان ، وهى تتحقق عادة بالتعامل مع البيئة ٠ وهذه البيئة متغيرة ، وهذا التغير يثير مشكلات يقابلها الانسان بحالات التفكير والانفعال ومختلف أنواع السلوك ٠ ولكن التغيرات التى تحدث قد تكون شديدة لدرجة خارجة عن الحد الذى يقوى عقل الفرد على مقابلته والتكيف له ٠ وهنا تنشأ الحالات المرضية ٠

لهذا كان لا بد من تعاون الوظائف النفسية المختلفة ٠ ولا بد من تقويتها لمقاومة التغيرات العادية ٠ وضرورى فوق ذلك أن يكون هناك شعور ايجابى بالسعادة والكفاية ٠ وهذا الشعور هو فى العادة دليل الفرد على كونه فى حالة جيدة من حيث الصحة النفسية ٠

وهناك تعريف آخر لا يختلف فى جوهره عن التعريف السابق ، مؤداه أن الصحة النفسية هى الشرط أو مجموع الشروط اللازم توافرها حتى يتم التكيف بين المرء نفسه وكذلك بينه وبين العالم الخارجى ، تكيفا يؤدى الى أقصى ما يمكن من الكفاية والسعادة لكل من الفرد والمجتمع الذى ينتمى اليه هذا الفرد ٠

وهذا التعريف لا يختلف — كما قلنا — فى جوهره عن التعريف السابق، غير أنه يؤكد فكرة العلاقة بين الفرد وبيئته توكيدا أشد مما فى التعريف السابق ٠ وهو فوق ذلك يتضمن ضرورة ايقاظ القدرات العقلية الطبيعية عند الانسان ، واستغلالها الى أقصى حد مستطاع يؤدى الى سعادة الفرد وسعادة غيره ٠ وبهذا نصل الى تطابق تام بين الغايات النهائية للتربية وغايات الصحة العقلية ٠

يتبين من كل ما تقدم أن الصحة النفسية ليست مجرد الخلو من المرض ،

لأننا نلاحظ أن مجرد الخلو من المرض لا يحتم قدرة المرء على مواجهة الأزمات العادية • ولا يتبعه الشعور الايجابى بالسعادة • ولا يمكننا كذلك أن نعتبر أن الصحة النفسية هى ما تترتب عليه الكفاية والسعادة الفردية • فالنتائج الفردية — اذا كانت هى الغاية الوحيدة — لابد أن تصطدم مع رغبات الآخرين اصطداما قد ينقصها أو يقضى عليها ، الا اذا اعتبرنا أن شرط الكفاية والسعادة الاجتماعية داخل ضمنا لتحقيق النتائج الفردية • ومعنى هذا أن مراعاة التعامل الاجتماعى واجبة بحيث تؤدى مع تحقيقها الأهداف الاجتماعية الى ضمان تحقيق الأهداف الفردية فى الوقت نفسه • كذلك لا يمكن أن نعتبر أن الصحة النفسية هى مجرد العمل لسعادة المجتمع ، لأن هذا بدوره لا يحتم سعادة الفرد وكفايته • الا اذ اعتبرنا أن النقص فى سعادة الأفراد وكفايتهم يترتب عليه حتما نقص فى السعادة والكفاية الاجتماعيتين •

ويعترض على فكرة السعادة والكفاية الاجتماعيتين ، والتكيف بين المرء والمجتمع بأن المجتمع نفسه ليس — دائما — مجتمعا صالحا • فالتكيف الصحيح للمجتمع كثيرا ما يتطلب فى الوقت نفسه اعلاء للمجتمع ذاته أى أنه يتطلب ألا يقوم الأفراد بمجرد التلبية للمجتمع كما هو ، وانما يحاولون أن يقوموا بأنصبتهم فى احداث تغيير فى المجتمع ، ينقله الى حالة أحسن مما هو فيها • وبهذا يمكن الوثوق من أن كلا من الأفراد والمجتمع يعمل على رقى نفسه ورقى الآخر رقيا مستمرا مطردا •

لهذا كله لا يمكن أن نعتبر أن الصحة النفسية هى الحالة التى تمكن الفرد من تقدير سلوكه وسلوك غيره على نفس المستوى الذى يقدره عليه بقية المجتمع لأن معنى هذا كما قلنا أن موقفنا ازاء المجتمع سيصير موقفا سلبيا جامدا محافظا لا موقفا ايجابيا مجددا مطرد التقدم •

الشذوذ والصحة النفسية :

يعتقد بعض الناس أن الشذوذ واختلال الصحة النفسية أمر واحد ، ولكن اذا علمنا أن الشذوذ هو الخروج عن المألوف ، كان هناك تفريق

بين الشخص العادى أو المتوسط ، والشخص الصحيح العقل • لنأخذ مثالا من الناحية الجسمية ؛ فالشخص قد يكون عاديا فى طول قامته ، وقد يكون شاذا من حيث قصره أو طوله • وكذلك يكون عاديا فى لون بشرته أو شاذا بسبب شدة بياضه أو شدة سواده ؛ ولكن هذه الأنواع من الشذوذ ليس معناها المرض • كذلك فى الناحية النفسية قد يكون الشخص عاديا فى ذكائه ، وقد يكون شاذا عن العادى فى فرط ذكائه أو فرط غبائه • وهذه الأنواع من الشذوذ العقلى ليس معناها المرض أيضا •

لهذا لا نعترف أن الشذوذ مرادف لاختلال الصحة النفسية أو الجسمية • ولكن يلاحظ أن الشذوذ فى التكوين الجسمى أو التكوين العقلى يعرض صاحبه لصعوبة احداث التكيف بينه وبين المجتمع • فالشخص العبقرى والشخص الضعيف العقل (القليل الذكاء) لكل منهما صعوباته فى التكيف • ولهذا يخلط الناس عادة بين العبقرية وما يصاحبها من نتائج ثانوية ، وضعف العقل وما يتسبب عنه بطريق غير مباشر •

ولكن اذا أخذنا الوظائف النفسية المختلفة يمكن أن تتخذ الشذوذ فيها دليلا مبدئيا لفرض احتمال اعتلال الصحة النفسية ، على شرط ألا نقبل هذا الفرض الا بناء على ما نجريه بعد ذلك من ملاحظات ودراسات ؛ فاذا أخذنا الغضب مثلا ، فاننا نعلم أن كل شخص لابد أن يغضب فى بعض الظروف • وأما الذى لا يغضب اطلاقا أو الذى يغضب لأتفه الأسباب ، فانه لا شك شاذ • ومن الجائز أن يكون عنده بعض الانحراف — القليل أو الكثير — فى الصحة النفسية • كذلك اذا أخذنا الشك ؛ فمعروف أن كل شخص عادى تثور شكوكه فى مناسبات معينة ، ولكن الذى لا يستثار عنده الشك بحال من الأحوال ، أو الذى يقضى حياته معذبا بالشك دائما ، فانه أيضا شاذ ، ويغلب كذلك أن يكون به بعض الاضطراب من ناحية الصحة النفسية • وهكذا اذا أخذنا مظاهر الحياة العقلية كلها ، من خوف ، وتدين ، ووحدة ، وكلام ، وميل جنسى ، وضحك ، ونوم ، وأكل ، وميل للظهور ، واتجاه للتملك ، وميل للفرح ، وشغف بالراحة ، وغير ذلك ، وجدنا أن

لكل منها مظهرا عاديا ، ولها فى الوقت نفسه مظاهر شاذة ، يمكن أن تتخذ دليلا مبدئيا يرجح لدرجة ما وجود اختلال فى الصحة النفسية •

ولكن المقياس العلمى للصحة النفسية هو — كما قلنا — التوافق الداخلى المصحوب بحسن التكيف مع البيئة ، بحيث يؤدى الى أقصى درجة ممكنة من الكفاية والسعادة • ولابد لنا أن نستدرك أنه ولو أن الشذوذ ليس مرادفا لاختلال الصحة النفسية بدرجاته المختلفة ، الا أن العكس ليس صحيحا • فالانحراف فى الصحة النفسية شذوذ • وعلى ذلك فالفرد قد يشذ عن العادى — أو ينحرف — بالنسبة لنفسه ، أى بالنسبة لما ينتظر منه ، وأحيانا ينحرف أيضا عن العادى بالنسبة لغيره من الناس •

نسبية الصحة النفسية :

واذا أخذنا الصحة النفسية واختلالها وجدنا أن الأمر فيها نسبى كما هو فى الشذوذ فكما أنه لا يوجد حد فاصل بين الشاذ والعادى ، كذلك لا يوجد حد فاصل بين الصحة النفسية والمرض النفسى • والصحة النفسية شبيهة فى ذلك بالصحة الجسمية ، فالتوافق التام بين الوظائف الجسمية المختلفة لا يكاد يكون له وجود • ولكن درجة اختلال هذا التوافق هى التى تبرز حالة المرض عن حالة الصحة • كذلك التوافق التام بين الوظائف النفسية المختلفة — عند فرد ما — أمر يكاد لا يكون له وجود • ودرجة اختلال التوافق هى التى تميز حالة الصحة عن غيرها •

ومن أركان الصحة النفسية التى أثبتناها — الى جانب انعدام النزاع الداخلى — نجاح التكيف مع البيئة ، ونجاح التكيف هذا أمر نسبى كذلك • فليس هناك حد فاصل ندرك عنده الفرق بين حالتى تحقق التكيف مع البيئة ، وانعدام تحققه •

ونلاحظ أن التكيف مع البيئة نسبى من ناحية أخرى ، وهى الناحية المتوقفة على النمو • فالطفل الصغير يعتبر فى حالة صحية عادية ، اذا رضع ثدى أمه حتى سن الثانية من ولادته ، ولكنه لا يعتبر كذلك اذا استمر يرضع الى سن السادسة • كذلك الأنانية تعتبر حالة عادية من حيث الصحة

النفسية فى السنوات الخمس الأولى ، ولـكنها لا تعتبر كذلك فى دور المراهقة . كذلك الميل الجنسى الناضج يعتبر عاديا بعد المراهقة ، وغير عادى اذا ظهر فى الطفولة وهكذا ...

ميدان الصحة النفسية :

سبق أن أشرنا الى أن علم الصحة النفسية يبحث فى تكوين الأفراد ، وفى علاجهم وفى وقايتهم من العيوب السلوكية أو النفسية فى مراحل نموهم المختلفة . لهذا يتحتم علينا لدراسة هذا العلم أن ندرس الفرد فى أسرته ، وفى أثناء تعلمه بالمدرسة ، وفى أثناء اضطلاعه بعمله فى الحياة ، وكذلك ندرسه من حيث علاقاته بالمجتمع . وعلينا أن ندرس فى كل هذا مجموعة القوى التى تؤثر فيه ونتبين الحال التى يجب أن تكون عليها هذه القوى بحيث ينمو على أحسن نمط ممكن .

ولكن من الأمور الثابتة ، أن هذا النوع من الدراسة ، يكون أقرب منالا اذا قمنا به عن طريق فحص مشـكلات السلوك فى مراحل النمـو المختلفة ، لأن درس هذه المشكلات يجعلنا نصل الى كيفيـة ظهورها ، وأساليب معالجتها ، وطرق تجنب وقوعها وهذا بدوره يهدينا الى درس العوامل المختلفة التى تؤثر عادة فى سلوك الفرد ، ومعرفة الطرق التى يعمل بها ، واستنباط أمثل الوسائل لضبط هذه العوامل وتوجيهها لصالحه وخيره.

المراجع

Bannister : Psychology and Health.
Burham : The Wholesome Personality.
Burham: The Normal Mind. Ch. II.
Groves & Blanchard : Introduction to Mental Hygiene.
B. Hart : Psychology of Insanity.
Home and School Council of Great Britain:
Advances in Understanding the Child. Ch. I.
Howard : Mental Health.
Kirkpatrick : Mental Hygiene and Effective Living. Chapters I & II.
Ragsdale : Modern Psychology and Education. Ch XVI.
Rees : The Health of the Mind. Ch. I.
Shaffer : Psychology of Adjustment. Ch. XV.
Wallin : Personality Maladjustment.
White House Conference : The Handicapped Child, p. 261.

الفصل الثانى

الوراثة والبيئة

مقدمة :

عندما تعرض لنا مشكلة من مشكلات السلوك نجد أن كثيرا من الأفراد عندهم استعداد لتفسير المشكلة على أساس بسيط . فاذا ظهر على طفل سرعة الغضب ، أو ظهر عنده ميل الى الكذب ، أو السرقة ، أو التخريب ، أو غير ذلك ، واتصلنا فى الوقت نفسه بشخص له بالطفل صلة وثيقة ، كوالده ، أو معلمه مثلا ، نجد أن هناك اتجاها لتقديم تفسير بسيط لسبب الحالة ، ففى بعض الحالات يقدم سبب جسمانى ، كالجوع أو البرد العادى ، أو اختلال فى افراز بعض الغدد . وفى البعض الآخر يقدم تفسير مبنى على الفكرة العلمية عن الوراثة ، فيقال ان الولد قد أخذ الغضب أو السرقة بالوراثة عن أبيه ، أو أمه ، أو جده ، أو غير ذلك . ونلاحظ عادة أن الذى يقدم رأيه فى الحالة — ان كان ينسب ما بها من شذوذ الى أصل وراثى — فانه ينسبه عادة الى الأصل البعيد عنه . ففى احدى الحالات تقول الأم ان نوبات الغضب عند الابن راجعة الى أن الأب عصبى . وأما الأب فانه يقول : ان ابنه عاق ، ويميل الى معاشرة الأشرار ، لأن أخوال الولد كذلك . وانه يخشى اليوم الذى يرى فيه ابنه قد تطور ووصل الى ما عليه أخواله الآن من سكر وسرقة ومقامرة وغير ذلك .

ولمثل هذه التفسيرات البسيطة خطرها فى موقفنا ازاء الحالة ، فقيام الشخص المسئول — معلما كان أو والدا أو غير ذلك — بنسبة الشذوذ أو السلوك المشكل الى أصل وراثى دون الاستناد فى ذلك الى الدراسة العلمية الكافية معناه أن يقوم الشخص المسئول عن رعاية الحالة بابعاد

التبعة عن نفسه • وقد يتضمن كذلك أنه يعتبر الشذوذ أمرا حتميا يجب الاستسلام له ، ولا تجدى محاولة علاجه بحال من الأحوال •

الآراء المختلفة فى الوراثة والبيئة :

نرى مما تقدم أنه لا بد لنا من أن نتمكن من تقدير الأثر النسبى للوراثة والبيئة ، حتى يمكننا أن نضع خطة لمعالجة الحالات ، وتربية الأطفال على أساس دقيق • ولكن يلاحظ أن معلوماتنا عن الجزء المتعلق بتوارث الصفات الجسمية والخصائص الفسيولوجية قد تقدمت بدرجة محسوسة ، لأن الباحثين قد قطعوا أشواطا بعيدة فى جمع الحقائق المتعلقة بها • ولأنهم لم يختلفوا كثيرا فى جوهر تفسيراتهم لها • أما الناحية التى تهمنا — أكثر من هذه — وهى المرتبطة بالحياة العقلية ، بما فيها من عادات ، وخلق • وصفات شخصية ومستوى ثقافى ، ومهارة عقلية ، وكفاية اجتماعية ، وغير ذلك ، فما زال فيها بعض الخلاف • ولعل هذا يرجع الى شـدة مرونة الصفات العقلية ، وقابليتها للتأثر بالعوامل المحيطة ، والى تعدد العوامل التى تؤثر فيها ، وصعوبة تحديد هذه العوامل ، وصعوبة بيان الوزن الذى يمكن أن ينسب لكل عامل على حدة •

فعلماء الوراثة أمثال جولتون (Galton) وبيرسون (K. Pearson) يؤكدون أهمية الوراثة • وأما المصلحون الاجتماعيون فانهم يؤكدون عادة أهمية البيئة • وكل من الفريقين ، ولو أنه على شىء من الصواب ، الا أنه أيضا على جانب من الخطأ لا يجوز اغفاله • فلم يكن بيرسون مصيبا تماما عندما قال : « ان الناس » يرثون عن آبائهم القـدرة ، والخجـل ، والمشاعر ، والحالات النفسية بالطريقة نفسها التى يرثون بها الشـكل ، واللون ، وطول القامة ، وغير ذلك »[1]• كذلك « هنرى جورج » لم يصب كبد الحقيقة عندما ذكر أن العوامل الوراثية التى يبالغ الناس الآن فى أهميتها

(1) Quoted by D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child, p. 3 & 4.

لا قيمة لأثرها اذا قورن بأثر العوامل التى تؤثر فى الانسان ، من هـذا العـالم [1] .

ونجد أيضا فى الدراسات المرتبطة بأصل الخلق مثلا خلافا كبيرا بشأن أثر كل من الوراثة والبيئة فيه . فالذين يؤكدون الأصل الوراثى للخلق فيما يسمونه بالحاسة الخلقية (Moral Sense) هم بعض فلاسفة الأخلاق ، الذين يتكلمون عن هذه الحاسة كأنها ملكة توجد فى الشخص ، فتساعده على التمييز بالفطرة بين الخير والشر . ومن ممثلى هذا الرأى جون لوك (J. Locke) لورد شافتسبرى (Shaftesbury) . ولكن أثبت المحدثون من علماء النفس الذين بحثوا فكرة الملكات بصورتها القديمة خطأ هذا الرأى ورغم هذا فما زال قليل من الفلاسفة يؤكدون فكرة « الضمير الخلقى » الموجودة بالفطرة ، وجعلوا هذه الفكرة محورا لنظرياتهم فى علم الأخلاق .

وقد أثرت فكرة « الحاسة الخلقية » و « الضمير الخلقى » فى بعض علماء الطب العقلى فى انجلترا ، أمثال مودسلى ومرسير (Maudsley & Mercier) فكثير منهم يؤكد وجود نزعات اجرامية وراثية فى بعض الأفراد ، وقد تكلموا أحيانا عن بعض هذه النزعات الاجرامية باسم النقص الخلقى (Moral Defect) . وظل هذا الاصطلاح يكتسب قوة الى أن احتل مكانا بارزا فى صلب القانون الانجليزى[2] . وهـذا على الرغم من قيام علماء النفس ببيان ما فيه من خطأ .

يتبين من هذا كله مدى الخـلاف الموجود فى قيمة كل من العوامل الوراثية والعوامل البيئية من حيث أثرها فى السلوك .

المقصود بالوراثة والبيئة :

المقصود بالبيئة : جميع العوامل الخارجية التى تؤثر فى الشخص من بدء نموه ، والمقصود بالوراثة : جميع العوامل الموجودة فى الكائن الحى

(1) Quoted by D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child, p. 3 & 4.

(2) C. Burt : The Young Delinquent, Chapter II.

من اللحظة التى تتم فيها عملية تلقيح الخلية الأنثية بالخلية الذكرية • وقد أثبت علماء الحياة أن بالخلية خيوطا فى شــكل العصى اسمها الصبغيات أو الكروموسومات (Chromosomes) ، وأن هذه الخيوط يمكن تقسيمها الى مناطق متعددة ، وافترضوا على ضوء الحقائق العلمية أن على كل منطقة منها ما يسمى بالجينات (Genes) • وأثبت علماء الوراثة أن هذه الجينات هى حوامل الاستعدادات الوراثية • فالخلية الناتجة بعد التلقيح تحمل كروموسومات جينات بعضها من ناحية الأم ، وجينات بعضها من ناحية الأب • ثم تبدأ الخلية تتكاثر مكونة الجنين • ولأجل أن تتكاثر الخلية وتنمو ، وتبدو فيها مظاهر الحياة ، لا بد لها من بيئة • والبيئة فى حالة الطفل الآدمى هى الموجودة فى داخل الرحم ، بما فيها من حرارة ، ورطوبة، ووقاية ، وتغذية وغير ذلك • ولولا هذه البيئة واستيفاء شروط معينة متعددة فيها لما تمت عملية النمو • فكأن عوامل البيئة من الخارج وعوامل الوراثة من داخــل الكائن الحى تعمل كلها معا منذ اللحظة الأولى فى الحياة • ويستمر الكائن الحى ينمو ويتأثر بالظروف المحيطة به ، ثم يخرج من الرحم الى العالم الذى يعيش فيه • وهنا أيضا ينمو فى نواحيه المختلفة نموا يتأثر بآلاف الظروف التى تحيط به • ويمكن أن يقال ان الفروق بين الأفراد ترجع الى مجموعتين من العوامل : المجموعة الأولى هى الاســتعدادات الوراثيــة الكامنة فى الجينات ، والمجموعة الثانية هى مجموعة الظروف المحيطة بالفرد من تغذية ، وحرارة ، ومعاملة ، ووقاية وتعليم ••• وغير ذلك • ومن المستحيل الفصل — الا نظريا — بين هذه العوامل ، بحيث يظهر أثر كل مجموعة منها قائما بذاته • فبالنسبة للحياة النباتية والحيوانية بمراتبهما المختلفة وصورهما المتعددة نرى مظاهر هــذه الحياة كمحصلة نهائية لهذه العوامل مجتمعة • فمن هذا نرى أن الوراثة والبيئة يعملان جنبا الى جنب فى كل مظهر من مظاهر الحياة •

لهذا كان ضروريا للوصول الى القواعد العامة لأثر العوامل الوراثية والبيئية أن نلجأ الى منهج خاص من مناهج البحث العلمى ، فنعمد الى

تسوية ظروف البيئة ما أمكن ، فتكون الفروق الناتجة بين الأفراد فى مظاهر الحياة راجعة الى فروق فى الوراثة • أو نعمل على تسوية العوامل الوراثية ؛ وبذا تكون الفروق البادية فى مظاهر الحياة راجعة الى فروق بين آثار مختلف البيئات • وهذا المنهج على قدر ما يبدو فيه من بساطة الا أنه عند محاولة تطبيقه تظهر أمامه صعوبات تستنفد جهودا كبيرة من أئمة الباحثين •

وقد كان لنتائج البحوث التى أجريت على أعداد كبيرة أثرها فى انارة الطريق لنا فى أثناء دراسة الحالات الفردية •

بعض الأدلة على أثر الوراثة والبيئة :

(١) دراسة العظماء والموهوبين :

للاستدلال على أثر الوراثة قام جولتون (Galton) بدراسة أقارب العظماء فى انجلترا ، من القضاة الى رجال السياسة ، الى رؤساء الوزارات ، الى البارزين من قادة الأدب ، والعلم ، والتصوير ، والموسيقى ، ••• الى غير ذلك • وخلص من بحثه الطويل الى أن للعظماء فى العادة أقارب عظماء من بين الآباء ، أو الأجداد ، أو الأبناء أو الأحفاد ، أو الأعمام ، أو ما شابه ذلك • ولكن يعاب على بحث جولتون أن عوامل البيئة وعوامل الوراثة فى حالاته التى درسها تكاد تعمل بدرجة واحدة • فالعظماء وأقاربهم متشابهون فى أصل السلالة ، أو يكادون يتحدون من حيث العوامل الوراثية • وهم متشابهون أيضا فى أن البيئات التى يعيشون فيها — هم وأقاربهم — تكاد تكون عادة فوق المتوسط من حيث المؤثرات الثقافية وغيرها • وبذا لا يسهل الوصول الى نتيجة حاسمة فى جانب الوراثة أو فى جانب البيئة •

وقد قام ترمان (Terman) حديثا بدراسة أدق من هذه لأقارب ما يزيد على الألف من الأطفال الموهوبين ، ووازن نتائجه بمثلها على الأطفال غير الموهوبين ، ووصل الى نتائج تدعم نتائج جولتون •

(٢) دراسة المجرمين وضعاف العقول :

ومن الدراسات الكلاسيكية فى هذه الناحية دراسة أسرة الجوك (The Jukes) وأسرة الكاليكاك (The Kallikaks) أما أفراد أسرة الجوك

فقد نشأ أجدادهم فى بقعة مرتفعة مغطاة بالغابات تبعد عن نيويورك بمائتى ميل تقريبا • وقد لفت أفراد هذه الأسرة — ومن يمت اليهم بصلة القرابة — نظر الباحثين بسبب كثرة الجرائم الصادرة منهم • فقام أحد الباحثين بتتبع أفراد هذه الأسرة ، ودرس منها ٩ طبقات من الأجيال تحوى ما يقرب من ثلاثة آلاف فرد • ووجد أن نسبة الاجرام فيها ٣٤٪ ورغم كبر هذه النسبة استنتج الباحثون — ومنهم جولتون — أن الجريمة ليست متأصلة فى نفوس أفراد هذه الأسرة • ولكن ما حدث — فى رأيهم — هو أن طبيعة هؤلاء الناس لم تلائمها مدنية أمريكا ، لا سيما أنهم احتفظوا بطريقــة الغجر فى معيشتهم(Gypsy Life) بالقرب من مدنية أخرى مخالفة لأسلوب نشأتهم ، ولكن بتفريق هؤلاء الناس ، وادماجهم فى المدنية الأمريكية ، وبحسن توجيههم ، زالت اتجاهاتهم الاجرامية ، مما يدعم الفكرة التى تنفى أن أصل الجرائم وراثى •

وأما أسرتا كاليكاك ، فقصتهما أن جنــديا يدعى مارتن كاليكاك كان قد أنجب طفلا غير شرعى من فتاة ضعيفة العقل ، وأمكن تتبع ٤٨٠ فردا من ذرارى هذه البنت فى أجيال متعاقبة ، ووجد أن من بينهم ٦٤ شخصا فقط يمكن اعتبارهم عاديين ، وأما الباقــون فبينهم حالات الصرع ، والاجرام ، والبغاء والادمان على الخمر • وضعف العقل ، ••• وغير ذلك • وبعد مدة من الزمن كان مارتن كاليكاك قد تزوج بفتاة عادية من أسرة طيبة • وأمكن تتبع ٤٩٦ فردا من ذرارى هذه السيدة فى طبقات الأجيال المتعاقبة • فكأن لدينا مجموعتين من الأفراد تختلفان اختلافا واضحا فى الأصل الوراثى من ناحية الأم ، وعلى ذلك يمكن موازنتهما بعضهما ببعض • وقد وجد بين أفراد المجموعة الثانية أن عدد العاديين ٤٩١ فردا ، نجح كثير منهم فى الحياة نجاحا ظاهرا • أما الخمسة الباقون فبينهم حالة ضعف عقلى واحدة ، وحالة استهتار جنسى ، وحالتا ادمان على الخمر ، وحالة جنون التدين[1] •

يتبين من دراسة الأسرة الأولى والأسرتين الثانيتين أن كلا من الوراثة

(I) Goddard : The Kallikak Family.

والبيئة له وزنه الظاهر فى احداث حالات الاجرام والضعف العقلى ، ولو أن علاقة الوراثة بكل من الاجرام والضعف العقلى تحتاج الى دراسة مستفيضة .

(٣) دراسة التوائم :

وقد قام الباحثون بدراسات متعددة على التوائم بحكم أنهم متحدون — عادة — فى الوراثة ، ولكن النتائج التى أدى اليها البحث ، وهى شدة اتفاق التوائم فى الصفات العقلية المختلفة يعترض على الأخذ بها والتصديق بكمال صحتها ، لأن التوائم متفقون أيضا فى البيئة منذ النشأة الأولى — داخل الرحم . فأى تشابه يعزوه أحد الباحثين الى الوراثة ، يمكن أن يعزوه آخر للبيئة .

وقد فرق الباحثون فى دراستهم بين نوعين من التوائم : وهما التوائم المتحدة أى الناشئة من تلقيح بويضة أنثية واحدة ثم انقسامها الى أكثر من جنين واحد والتوائم المختلفة ، وهى الناشئة من تلقيح أكثر من بويضة أنثية واحدة . وظاهر أن التوائم المتحدة تكون متفقة تماما من حيث جيناتها (Genes) أى حملة الاستعدادات الوراثية فيها .

وقام هولزنجر (Holzinger) [1] بايجاد درجة التشابه (بحساب معامل الارتباط)[2] للصفات الجسمية (الطول والوزن ... الخ) ، والصفات العقلية (الذكاء والتحصيل الدراسى ... الخ) ، والصفات الخلقية (قوة الضبط والاندفاع فى تنفيذ الرغبة ... الخ) فى مجموعة التوائم المتحدة فوصل الى النتائج الآتية :

---

(1) K. Holzinger : The Relative Effect of Nature and Nurture Influences on Twin Differences; Journal of Educational Psychology, Vol. 20.

(٢) راجع مبادىء الاحصاء الجزء الأول للدكتور عبد المنعم ناصر الشافعى ، وقياس الذكاء للأستاذ اسماعيل القبانى بك — ص ١٨٠ .

الصفات	متوسط معامل الارتباط للتوائم المتحدة (١)	متوسط معامل الارتباط للتوائم المختلفة	الفرق
جسمية	٩٤ر٠	٥٨ر٠	٣٦ر٠
عقليـة	٨٨ر٠	٦٤ر٠	٢٤ر٠
خلقيـة	٤٧ر٠	٤٥ر٠	٠٢ر٠

وتدل هذه الأرقام على أن الفرق بين مجموعتى التوائم يرجع بعضه الى الوراثة ، وتدل كذلك على أن بعض الصفات العقلية أكثر خضوعا لآثار البيئة من الصفات الجسمية ، وأن الصفات الخلقية أكثر من كل من الجسمية والعقلية قابلية للتأثر بالبيئة .

وقد قام بعض الباحثين بالفصل بين التوائم بعد الولادة ، ووضعهم فى بيئات مختلفة من حيث المعـاملة ، والتعليم ، والمسـتوى الاقتصادى ، وغير ذلك . وجاءت النتائج كلها معززة للنتيجة السابقة : وهى ثبات التشابه الجسمى والعقلى بدرجة كبيرة وتغير نسبى فى الناحية الخلقية . ويمكن أن يقال : ان التشابه العقلى يبدو فيه الثبات بدرجة كبيرة ولكن غير تامة ، لأن كثـيرا من البحوث[٢] التى أجريت فى أمريكا أثبتت أن التوأم الذى يعيش فى بيئة حسنة يتفوق قليلا فى الذكاء على زميله الذى يعيش فى بيئة رديئة . هذا قد يكون صحيحا ، وقد يرد عليه بأن تفوق الذكاء فى البيئة الطيبة قد لا يكون هو الذكاء الطبيعى ، وانما الذكاء كما تقيسه اختبارات الذكاء . وهناك فرق بين الاثنين لا مجال للتوسع فيه هنا .

الوراثة والصفات العقلية والخلقية :

ويهمنا أن نعرف ما يولد به الانسان موروثا ، وما يكتسبه من البيئة من الصفات العقلية والخلقية ، والذى نعرفه الى الآن أن الانسان يرث الذكاء

(١) لحساب معـامل الارتباط نفرض أن التـوائم هم (س ١ ، ص ١) ، (س ٢ ، ص ٢) ، .. ونفـرض أن نتـائج قياسـهم فى صـفة معينة كالطول هى (ا س ١ ، ا ص ١) ، (ا س ٢ ، ا ص ٢) ، .. فى هـذه الحـالة نحسب معامل الارتباط بين اس١ ، اس٢ ، اس٣ ، .. وبين اص١ ، اص٢ ، اص٣ ، ..

(2) F. S. Freeman. Individual Differences.

عن والديه ، ويرث كذلك ما يمكن أن نسميه المزاج أو الطبع • ويعتقد علماء النفس أن هاتين الناحيتين تخضعان لقوانين الوراثة المعروفة •

الذكاء والوراثة •

عملت عدة دراسات لمحاولة معرفة المدى الذى يورث به الذكاء ، وأول هذه المحاولات كانت محاولات جولتون التى أشرنا اليها فى دراسة النوابغ ، وجودارد لدراسة أسرتى كاليكاك • ولكن من أدق ما عمل فى هذه الناحية ، هو ما عنى بدراسة التوائم • وقد قام جولتون نفسه بدراسة التوائم بطريقة الاستفتاءات • ثم جاء ثورنديك[1] وأخذ خمسين توأما واخوتهم ، وطبق عليهم عدة مقاييس ، بعضها لصفات جسمية ، وبعضها لصفات عقلية ، وقد وضع ثورنديك مشكلته بالصورة الآتية :—

اذا كان الشبه بين التوائم يرجع للوراثة أكثر مما يرجع للبيئة فان درجة التشابه (وتتبين من معامل الارتباط) فى سن مبكرة تكون أكبر منها فى سن متأخرة ، ودرجة التشابه بين التوأم تكون أكبر منها بين الاخوة •

واذا كان العامل المهم هو عامل البيئة فلا بد أن درجة التشابه بين التوائم فى سن متأخرة تكون أكبر منها فى سن مبكرة لطول مدة اتحادهم فى بيئة واحدة • وكذلك درجة التشابه بين الاخوة تكون مساوية لها بين التوائم •

وباستعمال الاختبارات العقلية وحساب معامل الارتباط وصل الى النتائج الآتية :—

متوسط معامل الارتباط للتوائم	= ٧٨ر•
متوسط معامل الارتباط للاخوة	= ٣٠ر•
متوسط معامل الارتباط للتوائم الصغار	= ٨٣ر•
متوسط معامل الارتباط للتوائم الكبار	= ٧٠ر•

وقد أجريت عدة تجارب شبيهة بالسابقة نلخص منها نتائج التجارب التى قام بها ونجفيلد[2] وزملاؤه ، وقصدوا ايجاد درجة الاختلاف فى الذكاء باختلاف القرابة • ووصلوا الى النتائج الآتية :—

---

(1) Thorndike : Educational Psychology, Vol. III. 1014, pp. 247-251.

(2) wingfield quoted by R.' Knight : Intelligence and Intelligence Testing, p. 71.

معامل الارتباط فى الذكاء بين التوائم المتحدة الأصل والجنس Sex
= ٩٠ر٠

معامل الارتباط بين التوائم المختلفة لكنها متحدة الجنس = ٨٢ر٠
معامل الارتباط بين التوائم المختلفة ومختلفة الجنس = ٥٩ر٠
معامل الارتباط بين الاخوة = ٥٠ر٠
معامل الارتباط بين أبناء العم = ٢٧ر٠
معامل الارتباط بين من لا قرابة بينهم = ٠٠٠

تدل هذه البحوث على أن الذكاء يورث ، وأن أثر البيئة فى تغييره قليل ، بدليل أن الأخوة يعيشون معا فى بيت واحد ، ولكن درجة التشابه بينهم أقل كثيرا منها بين التوائم • وزيادة على ما تقدم فقد ثبت أن التوائم المتحدين يتساوون الى درجة كبيرة فى ذكائهم فىمراحل العمر المختلفة حتى ولو غيرت بيئاتهم تغييرا واضحا[١] •

ولبحث وراثة الذكاء درس الكثيرون العلاقة بين ذكاء الآباء وذكاء الأبناء بأساليب مختلفة ، أهمها ايجاد العلاقة بين ذكاء الأطفال ومهن الآباء • وقد وجد الباحثون من هذا الاتجاه الأخير أن أبناء المشتغلين بأعمال فنية أو ادارية أذكى فى مجموعهم من أبناء المشتغلين بأعمال بسيطة أو يدوية أو آليـــة[٢] ،[٣] فلو رجحنا أن الآباء المشتغلين بالأعمال الفنية والادارية يكونون فى العادة أذكى من الآباء المشتغلين بأعمال آلية أمكننا أن نستنتج أن أبناء الأذكياء يكونون غالبا أذكياء •

ووقوفنا على وراثة الذكاء أمر مهم ، لأن الذكاء عامل أساسى فى التكيف بين الشخص والمحيط المادى والاجتماعى • وسنجد أن كثيرا من المشكلات ترتبط ارتباطا مباشرا أو غير مباشر بمقدار الذكاء • فمقدرتنا على قياس

(1) Hirsch : Identical Twins Reared Apart : Readings in Psychology, edited by Skinner p. 205.

(2) C. Burt : Mental & Scholastic Tests p. 190-192.

(٣) قياس الذكاء فى المدارس الابتدائية بالقاهرة للأستاذ اسماعيل محمود القبانى بك من ص ٨٨ ـــ ٩٥ .

الذكاء تجعلنا قادرين على توجيه الفرد توجيها له قيمة كبيرة فى جميع المشكلات التى يكون فيها مقدار الذكاء عاملا أساسيا .

الخلق والوراثة :

وهناك عامل آخر يؤثر فى سلوك الانسان وفى مقدرته على تكييف نفسه للبيئة وهو الخلق . ويلاحظ أن الخلق نفسه نتيجة لتفاعل الفرد مع بيئته ، وهو بدوره يحدد — الى درجة ما — الصورة التى يحدث بها تكيف المرء لبيئته بعد ذلك . ويمكن أن يقال : ان الخلق هو سلوك الانسان فى مجموعه ، وتدخل فى تحديده عوامل وراثية من أنواع مختلفة . وللخلق أساسان وراثيان مهمان غير الذكاء ، وهما الغرائز والمزاج .

فالغرائز يعتبرها البعض أمثال مكدوجل[1] وبرت[2] أنها وحدات وراثية . فالانسان يرث غرائزه بدرجات متفاوتة فى الشدة . لهذا نجد فى بعض الأحيان تشابها بين جرائم الآباء والأبناء خصوصا فى جرائم السرقة وترتبط بغريزة التملك ، والجرائم الاعتدائية وترتبط بغريزة المقاتلة ، والهرب وترتبط بغريزة التجول ... الى غير ذلك .

ولكن اذا كان الانسان يرث غرائزه بقوة معينة فان توجيه الغرائز نحو الخير أو الشر مرتبط بالتعليم والبيئة . فكأن أساس الخلق وراثى ، ولكن اتجاه الخلق فى الطريق المقبول أو غير المقبول متوقف على البيئة .

وأما المزاج فهو مجموع الخصائص الفسيولوجية المؤثرة فى الخلق . وهذه الخصائص ناتجة من مجموع افرازات الغدد ، ومما بالدورة الدموية من خصائص ومركبات ، ومن المميزات الطبيعية للمجموع العصبى نفسه . وهذه الصفات المزاجية التى تلون خلق الانسان لها أساس جسمانى تتحكم فيه الوراثة الى حد بعيد[3] .

ويلاحظ أن الغرائز أو الصفات المزاجية تساعد فى حالة التطرف على عدم

---

(1) Mc Dougall : An Outline of Psychology p. 104.

(2) C. Burt : The young Delinquent p. 58.

(3) Hadfield : Psychology and Morals ch. II.

حدوث التكيف السوى بسهولة بين المرء وبيئته المادية والاجتماعية • ولكن ليس معنى هـذا أن التطرف فى شدة الغرائز أو الصفات المزاجية يحتم حسن السـلوك ، أو سوء السلوك • فهذا بالذات متوقف على التوجيه والتعليم كما أوضحنا •

صعوبات البحث فى الوراثة والبيئة :

رغم ما تقدم فانه ليس من السهل — عادة — فى دراسة الحالات أن ننسب السلوك الى الوراثة أو الى البيئة ، فاذا أخذنا مثلا سرعة الغضب ، أو الجبن ، أو عدم الاستقرار ، أو غير ذلك ، فانه ربما كانت الصفة الخلقية راجعة فى أساسها الى صفة وراثية مزاجية • وربما كانت قد انتقلت الى الطفل من الكبار المحيطين به • فمن طريق المحاكاة غير المقصودة بأنواعها المختلفة من تأثر بالايحاء ، والمشـاركة الوجدانيـة ، والتقليد ، تنتقل الآراء ، والانفعالات ، وأنواع السلوك ، من فرد الى فرد ، ومن الآباء بنوع خاص الى الأطفال •

كذلك معاملة الآباء للأبناء تختلف من طفل الى طفل اختلافا كبيرا ، وتبعا لاختلاف المعاملة تتأثر شخصيات الأطفال الأخوة ، بينما يكون المعتقد أنهم جميعا عاشوا فى بيئة مختلفة من حيث المعاملة •

وحتى اذا اتحدت المعاملة — ظاهريا — من جانب الأب والأم ، فان موضع الطفل فى أسرته له فى الطفل أثر واضح ، فكون الطفل هو الأول ، أو الثانى ، أو الأخير ، أو كونه الطفل الوحيد ، أو الذكر الوحيد ، أو الأنثى الوحيدة ، أو مجيئه بعد عدة وفيات ، أو مجىء عدة وفيات بعده ، أو سرعة تتابع الأطفال فى الولادة ، أو بعد المسافة الزمنية بين طفل وآخر ، كل هذا يجعل من المستحيل اعتبار طفلين فى أسرة واحدة خاضعين لظروف بيئية متفقة تمام الاتفاق •

كذلك التغيير فى المستوى الاقتصادى للأسرة ، والتغير فى سن الولدين بالنسبة للأطفال المختلفين ، كل هذه توجد عوامل بيئية مختلفة بالنسبة لأطفال الأسرة الواحدة •

لهذا كان من الصعب الفصل بين أثر الوراثة وأثر البيئة للأسباب المتقدمة ونلخصها فيما يأتى :—

(١) تعمل البيئة منذ اللحظة الأولى التى تعمل فيها الوراثة ، ولا يمكن أن يظهر أثر الوراثة الا فى البيئة • فمظاهر الحياة فى أى لحظة هى محصلة مجموعتى عوامل الوراثة وعوامل البيئة •

(٢) عوامل المحاكاة والمعاملة تغطى آثار الوراثة ، بحيث يصبح من الصعب الفصل بين أثر الوراثة ، وأثر المعاملة والمحاكاة ، وهذان من عوامل البيئة •

(٣) البيئة بأوسع معانيها لا تتحد بالنسبة لشخصين بحال من الأحوال • فمجرد اختلاف المعاملة ، واختلاف ترتيب الولادة • وغير ذلك يجعل اتحاد البيئة بالنسبة لشخصين أمرا مستحيلا •

الوراثة والتربية :

علمنا أن الكائن الحى عنده — عن طريق الوراثة — استعدادات تظهرها وتنميها البيئة ، وعلمنا أن أى مظهر من مظاهر الحياة ما هو الا نتيجة مجموعتين من العوامل ، وهما الوراثة والبيئة • ومن الجائز أن تكون البيئة بحيث لا يظهر فيها أثر العوامل الوراثية فى أبعد مدى ممكن لها • فاذا زرعنا نوعا جيدا من النبات فى بيئة غير ملائمة ، فان الناتج لا يكون بالجودة المنتظرة من هذا النوع • ولكن اذا تحسنت الظروف المحيطة به فان النتيجة تكون أحسن ، واذا هيأنا أحسن ظروف ممكنة فاننا نحصل على أحسن نتيجة يمكن الحصول عليها فى حدود نوع النبات ، أى فى حدود استعداده الوراثى • ولا يمكن مهما ارتقينا بظروف البيئة بعد ذلك أن تتعدى الحدود التى وضعتها الوراثة •

ففى حالة ولدين نسبة ذكاء[1] أحدهما ٨٠ ونسبة ذكاء الآخر ١٢٠

---

(١) نسبة الذكاء هى النسبة بين العمر العقلى والعمر الزمنى مضروبة فى ١٠٠ فالشخص الذى عمره الزمنى ١٠ سنوات وعمره العقلى يساوى العمر العقلى لطفل عادى عمره ٨ سنوات يكون عمره العقلى ٨ سنوات . وبذلك تكون نسبة ذكائه ٨٠ وأما الشخص المتوسط الذكاء أى الذى عمره العقلى يساوى العمر العقلى لطفل عادى من سنه ، فان نسبة ذكائه تكون ١٠٠ لأن عمره العقلى يكون مساويا لعمره الزمنى •

نستطيع أن نضع الثانى فى بيئة تسمح له بأحسن نمو ممكن فى حدود ذكائه، ولا يمكن أن تتعدى هذه الحدود . ويمكن بالطبع اهمال تعليمه واساءة معـاملته ، ووضعه فى ظروف لا تسمح باستغلال كل ما عنـده من ذكاء . كذلك الولد الأول يمكن توجيهه ، وانماؤه فى حدود نسبة ذكائه المنخفضة وهى ٨٠ ، ولكن لا يمكن مهما أدخلنا من التحسينات على ظروف بيئته وعلى تعليمه أن تتعدى النتيجة التى يؤهلها لها ذكاؤه المنخفض .

من هذا نخلص الى أن البيئة المثالية للفرد هى البيئة التى تهيىء للوصول الى أحسن نمو ممكن فى الحدود التى وضعتها العوامل الوراثية . فالتغذية والرياضة البدنيـة وما اليهما لا تخلق من الأقزام مثلا عمالقة . والعناية التعليمية ، والدروس الخصوصية ، وحبك النظم ، لا يخلق من ضعاف العقول مثلا عباقرة ولا عاديين . وانما يمكن أن نهيىء البيئة بعواملها المختلفة بحيث نحصل على أحسن نتيجة يمكن الحصول عليها حسب الاستعداد الوراثى .

النتيجـة :

علينا اذن فى دراستنا للأفراد أن نضع نصب أعيننا الفروق الوراثية من ذكاء ، ومزاج وتكوين جسمى ، وما شابه ذلك . وعلينا كذلك أن ندرس الظروف المختلفة المتعددة التى عاشوا فيهـا ، وهـذه الدراسة تفيدنا فى التشخيص كما تفيدنا فى التوجيه والعلاج .

المراجع

C. Burt : The Young Delinquent. Ch. II.
Freeman : Individual Differences. Ch. III & IV.
Goddard : The Kallikak Family.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
O. Macguinnes : Environment and Heredity.
Murchison : Handbook of Social Psychology.
Murphy : Experimental Social Psychology.
Sandiford : Educational Psychology Ch. I.
E. Schuster : Eugenics.
Spearman : Abilities of Man. Ch. XXII.
Starch : Educational Psychology. Ch. VI
D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child Ch. I.
Thomson : Instinct, Intelligence and Character. II.
Thorndike : Educational Psychology. Vol. III.
Valentine : The Difficult Child.

الفصل الثالث

الجسم والعقل
وأثر كل منهما فى الآخر

مقدمة :

ذكرنا فى بداية الفصل السابق أن الناس فى غالب الأحيان عندهم ميل لأن ينسبوا حالة الشذوذ فى السلوك الى سبب بسيط واحد كالوراثة ، أو الرفاق . والمرض الجسمانى أو الحالة الجسمية على وجه العموم تحتل مكانا بارزا عند الناس فى هذه الناحية . فحالات الخمول أو القلق أو انعدام القدرة على التركيز أو ضعف الهمة كثيرا ما تنسب — بشىء من التسرع — اما الى سوء التغذية ، أو تعاطى المكيفات ، أو الى امساك ، أو الى خراج ، أو الى غير ذلك . وهذا النوع من التفسير قد يكون له نصيب من الصحة فى بعض الحالات . ولكن فى البعض الآخر قد تزال جميع العوامل الجسمية المحتملة دون حدوث أى تحسن .

لهذا كان ضروريا أن ندرس ما بين الحياة الجسمانية والحياة العقلية من رابطة . وليس معنى هذا أننا ننوى أن نبحث كنه العلاقة بين الحياة الجسمية والحياة العقلية فهذا بحث تحطمت أمامه جهود أئمة الباحثين[1] ، لا سيما ديكارت ومن أتى بعده ، ولم يصلوا فيه الى الآن الى نتيجة مرضية . ولكن الذى نقصد اليه هو أن نبين أن هناك علاقة ، وأن نتبين على قدر الامكان

(١) يمكن الاطلاع على بحث واف يلخص هذه الجهود فى احد الكتب الآتية :

Mc Dougall : Body and Mind. Joad : The workings of the Mind
C.Fox : The Mind and Its Body. Bode : How we learn.
Aveling : Personality and Will.

مدى هذه العلاقة ، حتى يمكننا أن نستفيد من هـذا فى تشخيص بعض الحالات وفى محاولة معالجتها •

التطور فى الجسم والعقل :

ولعل أقوى ما يلفت النظر فى ميدان العلاقة بين الجسم والعقل ما نجده بين التطور الجسمى والتطور العقلى من موازاة ، فنجد أن التطور الجسمى يسير جنبا الى جنب مع التطور العقلى • ففى التطور العضوى والجسمانى نلاحظ أن الكائنات الحية تترقى من الدنيئة ذات الخلية الواحدة الى المتعددة الخلايا ، ثم نجد — كما ارتقينا فى سلم التطور — تنوعا وتعددا فى أعضاء الكائن الحى • وهذا التنوع والتعدد يتبعه تخصص فى الوظائف • فاذا انتقلنا من ذوات الخلية الواحدة تدريجيا الى الأسماك ، ثم الى الزواحف ، ثم الى الثدييات بدرجاتها المختلفة التى تنتهى بالقردة ثم بالانسان ، نجد أن هناك تطورا جسيما يصـاحبه عادة تطور عقلى يبـدأ بالبسيط وينتهى بالمركب أو الراقى • معنى هذا أن الكائنات الحية البسيطة نجد لها حياة عقلية بسيطة، وبالتدرج الى الكائنات الحية الراقية نجد أن لهذه حياة عقلية راقية •

ويلاحظ أن مظهرا هاما من مظاهر التطور الجسمى ما ثبت وجوده فى المجموع العصبى من ترق تدريجى من البسيط الى المركب فى مراحل التطور المختلفة • وقد استنتج البعض بسبب هذا التوازى والتناظر أن الحياة العقلية وظيفـة للمجموع العصبى فاذا كان المجموع العصبى بسيطا كانت الحياة العقلية بسيطة ، وان كان المجموع العصبى مركبا كانت الحياة العقلية مركبة• أى أن الحياة العقلية فى نظر هؤلاء نتيجة مباشرة للمجموع العصبى ، أى أنها نتيجة مباشرة للجسم • ولكن ليس هناك من المبررات العلمية ما يكفى لقبول هـذه العلاقة البسيطة ، مع تسليمنا بأن هنـاك نوعا من العـلاقة على أى حال •

الجسم والعقـل فى عمليات الادراك الحسى :

ويبدو وجود العلاقة واضحا بين الحياة الجسمية والحياة العقلية أيضا فى الادراك الحسى الذى هو الخطوة الأولى اللازمة لبقية العمليات العقلية الادراكية الأخرى • ففى الادراك الحسى تتأثر الأطراف العصبية والحاسة

بمؤثر معين ، سواء أكان هذا المؤثر تموجات حرارية ، أم ضوئية ، أم ضغطا ، أم غير ذلك ، ثم ينتقل هذا التأثير بوساطة الألياف العصبية الى مركز من مراكز المخ ، وهنا تنتهى مجموعة عمليات ميكانيكية وفسيولوجية سابقة وضرورية لعملية الادراك الحسى . ثم تبدأ عملية عقلية صرفة هى عملية الادراك الحسى نفسها . فلأجل أن تتم عملية الادراك الحسى — وهى كما ذكر عملية عقلية صرفة — لابد من تعاون ظواهر بعضها جسمية وبعضها عقلية . أما كنه العلاقات بين الحوادث العقلية والجسمية فى عملية الادراك الحسى فانه أمر نجهله الآن جهلا تاما .

الانفعـالات :

ووجود العلاقات بين الجسم والعقل يبـدو جليا كذلك فى الحالات الانفعالية . فكل حالة من هذه كالخوف ، أو الغضب ، أو التقزز ، يمكن تحليلها الى عناصر ثلاثة ، ففى حالة الخوف مثلا نجد ما يأتى :

(ا) احساسات وادراكات صادرة من الموقف أو الموضوع المسبب للخوف .

(ب) الشعور النفسى الخاص المعروف بالخوف .

(جـ) حالة نزوعية ترمى للتخلص من الموضوع أو الموقف المسبب للخوف

والى جانب هذا توجد تغييرات فسيولوجية مصاحبة للانفعال ، ويوجد ادراك لبعض هذه التغييرات .

فلدينا اذن فى الحالة الانفعالية التى نحن بصددها نواح ادراكية تسبقها وتصحبها . وكذلك توجد تغيرات جسمية نشعر ببعضها ، كجفاف اللعاب وسرعة دقات القلب وسرعة التنفس ، وكثير من مثل هذه التغيرات يمر دون أن نشعر به اطلاقا .

ولدينا كذلك الحالة النزوعيـة التى تتخلص فى الرغبة فى الخـلاص من الموقف أو الموضوع بطريقة ما . وهى فى العادة طريقة الهرب .

ومن التجـارب التى أجراها كانون[1] (Cannon) لملاحظة ما يصحب

(1) Cannon : Bodily Changes in Pain Hunger, Fear and Rage.

الانفعال من تغيرات أنه فحص بأشعة « اكس » قطة بعد أن تناولت غذاءها ، فرأى أن المعدة تقوم بحركتها المنتظمة فى عملية الهضم . ثم أظهر أمام القطة كلبا كبير الحجم ، فلاحظ كانون أنه بعد ادراك القطة للكلب ، ظهرت عليها علامات الخوف المعروفة ، ولاحظ فى الوقت نفسه أن عملية الهضم وقفت دفعة واحدة . ووصل بملاحظاته الاكلينيكية الى أن الأوعية الدموية انقبضت فى المعدة ، واتسعت فى أطراف الجسم ، وأن ضغط الدم قد زاد زيادة كبيرة فى هذه الأطراف ، وأن تغيرات عدة طرأت على افرازات الغدد مما أدى الى أن يزيد العرق ويقل اللعاب ، ويزيد الأدرنالين الذى يساعد على رفع نشاط الجسم كله الى درجة كبيرة . فمن وظائف الأدرنالين مثلا مساعدة الكبد على اخراج السكر المخزون الى الدم ، وهـذا السكر يحترق أثنـاء نشاط الكائن الحى ، فيمد بالطاقة والقدرة على الاستمرار فى نشاطه .

وقد أثارت التغيرات الجسمية المصاحبة للانفعال نقاشا وبحوثا كثيرة ، منها النظرية المشهورة لجيمس ولانج[1] التى أشارت بأن الحالة الانفعالية هى الاحساس بالتغيرات الفسيولوجية . ولكن الأدلة التى قدمها كانون وأمثاله ترجح أن الانفعال حالة تنشأ فى شعور الكائن الحى بعد ادراكه نفسه فى مجال معين . وترجح كذلك أن التغيرات الفسيولوجية تتبع ذلك مباشرة ، ووظيفتها على حسب رأى مكدوجل[2] أنها تساعد الفعل الغريزى ليتم على أكمل وجه ممكن . فاذا ما أثيرت غريزة الهرب ، فان غرض الغريزة يتحقق بسرعة الهرب . ولأجـل أن يتم ذلك على أكمل وجه ممكن ، فان الأعضاء الداخلية تتكيف لتساعد هذه العملية وهى عملية الهرب ، فيسرع القلب فى عمله ليوزع الدم على أجزاء الجسم ، وتسرع الرئتان فى عملهما لأخذ الهواء النقى وطرد الفاسد ، حتى تتم عملية الاحتراق بسرعة . ويتوزع الدم بحيث يترك المعدة والأمعاء اذ يمكن لهاتين أن تكفا عن عملهما بعضه أو كله فى هذه اللحظة ، وذلك لأن الجسم فى حاجـة الى كل ما به من

---

(1) James : Principles of psychology, Vol. II

(2) Mc Dougall : An outline of psychology Ch. XI.

نشاط[1] ويتوزع الدم أيضا بحيث ينتشر فى المخ وفى العضلات الكبيرة التى تساعد الفرد على الهرب • كذلك تقوم الغدد فوق الكلوية (الكظرية) بزيادة افراز الادرنالين الذى ينشط العضلات كلها بما فيها عضلات القلب • وعن طريق غير مباشر ينشط العضلات الكبيرة للأيدى والأرجل وبذلك تتمكن هذه العضلات من مواصلة النشاط الذى يساعد على اتمام الفعل الغريزى • كذلك يأخذ الدم من الكبد كمية من السكر المختزن به بعد تحويله بحيث يصبح سهل الاحتراق • وبذلك تكسب العضلات نشاطا كبيرا يساعدها فى أداء عملها •

وهذا الرأى الذى قال به مكدوجل عن وظيفة التغيرات الفسيولوجية المصاحبة للانفعال يتفق كثيرا مع رأى كانون (Cannon) [2] ورأى داروين (Darwin) [3] الذى يسمى هذه التغيرات بالأفعال المساعدة المصاحبة (Serviceable Associated Actions)

يدلنا ما ذكرناه هنا عن الانفعال على أن الحالات الانفعالية وهى حالات نفسية صرفة يصحبها ويتبعها مباشرة تغيرات فسيولوجية ضرورية للحالة النفسية • أى أن هناك علاقة قوية بين الحالات النفسية والجسمية عند حدوث الشعور الانفعالى ، ولو أننا لا نعلم على وجه التحقيق كنه هذه العلاقة •

أنواع الشخصية وعلاقة الجسم بها :

وهناك سلسلة طويلة من المحاولات بذلت لفهم اتجاه العلاقة بين الجسم والعقل ، بحيث يمكن فهم الحياة العقلية من معرفة حالة الحياة الجسمية • فمنذ ألفى عام تقريبا قام حكيم من حكماء الاغريق وهو جالينوس بوضع نظرية الأمزجة • وكان قد سبقه أبقراط فى ذكر أمزجة الجسم الأربعة (الدم ،

---

(1) عمليات الاستثارة والكف المصاحبة للانفعال يقوم بها المجموع السمبتاوى The Sympathetic Nervous System والباراسمبتاوى The Parasympathetic واستثارة احد المجموعين الى درجة كبيرة يتطلب كف الآخر

(2) Cannon : Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage.

(3) Darwin : The Expression of Emotions in Man and Animals.

والبلغم ، والصفراء ، والسوداء) ، ولكن جالينوس هو أول من ربط بين الفروق فى الشخصية والفروق فى الأمزجة •

وقد ظلت نظرية الأمزجة المعروفة حافظة لكيانها مع تغيرات بسيطة جدا الى أن جاء العهد الحديث ، حيث ظهرت نظريات متعددة لأنواع الشخصية • بعض أصحاب هذه النظريات يرى أن يقسم الشخصيات الى أنواعها بحسب السلوك الظاهر • وبعضهم يرى أن يربطهـا بسرعة تأثر المجموع العصبى أو بطئه • وبعضهم يرى أن يربطها الى حد ما بافرازات الغدد ؛ وممن غالوا فى التحمس لهذا الرأى الأخير برمان [1]،[2] (Berman) الذى قال : ان كيمياء الخلية هى بعينها كيمياء النفس • ويتلخص رأيه فى أن نواة الشخصية تكونها حالة المجموع العصبى وحالة الغدد الهرمونية (ذات الافراز الداخلى)•

ونحن نميل الى الأخذ بالرأى الذى يعتبر الحالة الجسمية كعامل من العوامل المتعددة التى تتدخل فى تلوين الشخصية باللون العام الذى يسمى عادة مزاجا (Tempérament)

ومن الآراء التى كان لها دوى كبير رأى كرتشمر الذى يربط بين صفات الشخصية ، والصفات الجسمية الظاهرة ؛ كأبعاد الجسم والنسب بينها ، وشكل العضلات والجلد ، والعظم ، والشعر ، وغير ذلك • وقد قسم الناس الى ثـلاثة أنواع رئيسـية وهى : الهـزيل (The Asthenic) والرياضى (The Athletic) ، والسمين (The Pyknic) والنـوع الأول — وهو يشبه الثانى بدرجة أقل — يميل الى أن يكون هادئا ، محافظا جادا ، قليل الاجتماع بغيره ، قليل التقلب بين حالة انفعالية وأخرى • وأما النوع الأخير فهو نوع صريح ، يميل الى المصادقة مرح ، سريع التقلب بين حالة انفعالية وأخرى •

---

(1) Berman : The Glands Regulating Personality.
Or ,, : The Personal Equation.
(2) Miller : Types of Mind and Body.

ونوع الشخصية الأولى يسميه كرتشمر[1] بالمنطوى (Schizoid) ، أما النوع الثانى فيسميه بالمنبسط أو المتقلب (Cycloid)

أثر الجسم فى العقل

التاخر العام فى النمو الجسمى :

عرفنا مما تقدم أن هناك محاولات للربط بين حالة الجسم والحالة العقلية ، بحيث يمكن اتخاذ الجسم — لسهولة ملاحظته — دليلا على الحالة العقلية . وهذه الدراسات أفادت كثيرا ، ولو أنها لم توصلنا الى ما كنا نأمله منها . ونزداد يقينا مع مضى الزمن بأن خير الطرق لدراسة الحياة العقلية لا يكون بدراسة الصفات الفسيولوجية أو الجسمية ، وانما يكون بدراسة الحياة العقلية نفسها ، وبحث مظاهرها فى سلوك الانسان وفى تصرفاته . وليس معنى هذا أننا ننادى باهمال درس النمو الجسمى ، فهذا يمكن اتخاذه — لا سيما فى الأدوار الأولى من الحياة — دليلا ، ولو أنه غير قاطع فى صحته ، على النمو العقلى . فنحن نلاحظ أن ضعاف العقول (Mentally Defectives) والمتأخرين أقل على وجه العموم فى نموهم ، من حيث الوزن والطول من زملائهم العاديين والمتفوقين فى الذكاء . وهم متأخرون عن زملائهم الأذكياء كذلك فى سن المشى ، وسن الكلام ، ووقت التسنين ، وغير ذلك . هذه ليست قاعدة مطردة ، ولكنها فى غالب الأحيان صحيحة . وقد وجد الأستاذ برت[2] (C. Burt) أن معامل الاتفاق بين العمر العقلى والطول ٥ر. ومعامل الاتفاق بين العمر العقلى والوزن ٤ر. اذا جعلنا العمر الزمنى ثابتا فى الحالتين[3] . وهذان المعاملان ايجابيان كبيران يدلان على أن النمو فى الوزن والطول يتمشى عادة مع النمو العقلى .

---

(1) Kretschmer : Physique and Character.

(2) C. Burt : The Backward Child p. 138.

(٣) ويكون ذلك بتطبيق معادلة يول لمعامل الارتباط الجزئى (U. Yule's Partial Correlation Formula)

ولحالة النمو أثرها بطريق غير مباشر فى حياة الفرد المتعلقة بشخصيته ٠ فاذا كان مستوى الشخص فى النمو أقل أو أكثر مما هو متوقع له بشكل واضح ربما يؤثر هذا فى معاملة الناس له ونظرتهم نحوه ٠ وهذا بدوره قد يؤثر فى نظرته نحو نفسه ، وموقفه من الناس ٠ وكثير من أنواع الشذوذ كالتعاظم ، أو الشعور بالضعة ، أو الشعور بالحقد ضد المجتمع ، سببها الأصلى الشذوذ فى النمو الجسمى العام ٠

العــاهات وأثرها :

يلاحظ كذلك أن العاهات التى تنتاب الشخص كفقد البصر ، أو السمع ، أو النطق ، أو فقد ذراع ، أو رجل ، أو اصابة عضو باصابة شديدة تقلل من كفــايته فى أداء وظيفته قد يكون لها آثارها المبــاشرة فى النمو العقــلى ، والتحصيل الثقافى ، والكفاية المهنية ٠ ولهذه العاهات فوق ذلك آثارها غير المباشرة ٠ فصاحب العاهة يقابل عادة من غيره بأنواع متباينة من المعاملة ، فبعض الناس يهزءون به ، وهذا قد يثير نقمته عليهم ، ثم قد يحدث انتشار أو تحويل لهذه الحالة النفسيه ، فتصبح نقمته عليهم نقمة على المجتمع عامة ٠ وبعض الناس يعطفون على صاحب العاهة الذى قد تثور نفسه على هــذا العطف ، اذ أنه يشعر بالضعف ويذكره بعاهته باستمرار ، وكثيرا ماتكون نتيجة هذا العطف الحصول على امتيازات يرفض صاحب هذه العاهة أن يتنازل عنها فيما بعد ٠ وتنشأ عن هذا الرفض مشكلات عدة ٠ وفى أحوال غير قليــلة يستغل صاحب العاهة — دون قصد — ضعف الناس نحو ضعفه ، وقد يؤدى هذا الى نمو جبروته وقوته الى درجات كبيرة ٠ وليس من الضرورى أن تتجه هذه القوة فى الاتجاه الهدمى ، فقد تتجه أحيانا فى الاتجاه الذى يعده المجتمع اتجاها منتجا ٠

ولتوضيح أثر العاهة نذكر حالة ولد فى الثالثة عشرة من عمره ضبط يبيع جلبابا مسروقا فى سوق المؤيد بالقاهرة ٠ واعترف الولد اعترافا جريئا صريحا خاليا من كل خجل ٠ وكان الولد أصم أبكم ، ولكنه كان واضحا

فى تعبيره بالاشارة وضوحا كبيرا • وقد بينت الدراسة أن الولد ابن أحـد التجار الذين كانوا قد نزحوا الى القاهرة ، ثم اشتغل الوالد بعمل حكومى يتقاضى منه ما يقرب من ثمانية جنيهات • وقد تزوج الرجل عـدة مرات مما جعل عنايته بأسره موزعة على عدد غير قليل من الأفراد •والولد هو الذكر الأول بعد بنت ، وبعد مولود مات فى السنة الأولى ، وبذا كان له عند والديه مركز ممتاز للغاية ، وولد بعده ولد ، ثم مولود مات صغيرا ، ثم بنتان • هذه هى ذرية والد الحدث وللوالد ذريات أخرى من زوجاته الأخريات • أصيب هذا الولد فى سن الخامسة بحمى قيل انها النخاعية الشوكية ، وشفى منها غير أنه فقد على أثرها سمعه ونطقه • وقد فشلت المحاولات الكبيرة الكثيرة التى بذلت لمعالجة سمعه ونطقه ، وبدأ يتكلم بالاشارة ، ويفهم عن طريقها ، أو بالنظر الى حركات شفاه الناس حين يتكلمون • لهذا بدأ بعض أناس من طبقة العمال فى الحى الذى تعيش فيه الأسرة يتخذونه تسلية لهم • ثم أغـروه على سرقة بعض أدوات من المنزل ، كالأطبـاق ، والمـلاعق ، والسكاكين ، وكان يعطيها لهم نظير دريهمات قليلة • أو يعطيها لبائع حلوى جائل نظير بعض الحلوى • واستمر الصبى هكذا حتى وقع فريسة لأحد كبار الأشرار فى الحى ، فقطع فى السرقة من منزل والده ومن منازل الناس أشواطا بعيدة ، واكتسب فيها خبرة كبيرة ، ووصل به الأمر الى أنه سرق ملابسه الخاصة به من المنزل لبيعها ، واضطرّ والده لشراء غيرها ، وسرق حلى والدته وباعها بثمن بخس • وكثيرا ما كان يسطو على منازل الجيران ، واستفحل أمره ، ومع ذلك كان والده يحميه فيدفع عنه كل ما يحدث منه حتى لا يقع الولد فى أيدى « البوليس » فيرسل الى الاصلاحية • وكان والده أحيـانا يضربه ضربا مبرحا ، فكانت الأم تحميه ، أو تبكى بكاء مرا • ولهذا كانت تتستّر عليه فيما يبدر منه •

ولما اشتد الوالد على ولده ، ورفض شراء ملابس له لأنه يبيـع عادة

ما يشترى له ، هرب الولد من الحى الذى يعيش فيه واشتغل فى مصنع ، وسرق من المصنع كثيرا من الأدوات وباعها • وفى أثناء هذا تشرد ، وجمع الأعقاب ، وأغرم بالذهاب الى السينما ، وأولع بركوب العجل ، وتقلب فى أعمال كثيرة ، ولكنه فى أثناء هذا كله كان يسرق باستمرار تقريبا • ومن أبرز ما فعل أنه كان يسطو على الموتى الحديثين فى مدافنهم فيأخذ ما بأيديهم من حلى ، ويقال انه اذا أعجزه خاتم من الذهب مثلا ، فلا مانع عنده من كسر الأصبع بطريقة ما للحصول على الخاتم • وكان يفهم من اشاراته أنه يريد أن يقول ان الحى أولى من الميت بهذه النفائس •

ويلاحظ أن حالة الولد تطورت بهذه الصورة بفعل عوامل متعددة ، ولكن يبدو أن العامل الرئيسى الأول هو فقدان السمع والنطق • وأما العوامل الأخرى من ظروف المنزل ومعاملة الوالدين ، وغير ذلك فهى عوامل مساعدة ربما كانت قليلة الأثر لولا هذا العامل الرئيسى •

ومثال آخر حالة ولد فى سن الحادية عشرة ، وسيم الوجه ، جميل الطلعة ، حاد العينين ، عليه كل علامات اليقظة ، والنشاط ، وخفة الحركة • هـذا الولد فقد ذراعه اليمنى بسبب قفزه فى الجانب الأيسر من الترام • وكان فى ذلك الوقت يعمل مع صانع أحذية بأجر طيب بالنسبة لسنه • ولكنه من وقت فقد ذراعه ترك العمل وبدأ يتسول • وللولد أقارب من ناحية أمـه كجدته وأخواله وخالاته ، وهؤلاء كانوا يدللونه قبل هذه الحادثة ، ولكنهم بعد الحادثة أخذوا يسرفون فيما يعطونه من نقود • وكان الولد طول حياته مدللا من والديه • اذ كان هو الذكر الأول والوحيد بين أربع أخوات • ولما ساء سلوك الولد بعد الحادثة أراد الوالد أن يشتد عليـه فلم يتمكن لمرضه واصابته بالسل واضطراره فى الوقت نفسه للعمل كحارس فى حى رطب حتى يكسب قوته وقوت أولاده البالغ ١٦٠ قرشا فى الشهر • جمح الولد فى سلوكه ، وكان يخرج للتسول مبرزا ما بقى من ذراعه ملتصقا بكتفه ،

وتمكن من تعلم بضع جمل انجليزية ، استعملها فى استدرار عطف الجند الانجليز عليه • وبلغ ما يصل الى يده عن طريق التسول عشرين قرشا تقريبا فى اليوم • وجد الولد متعة فى خفة عقول الناس وسهولة اعطائهم اياه ما يطلب من نقود ، وكان يعتبر أن كسبه من التسول أحسن بكثير من كسبه من العمل • ومن العجيب أن الولد يصرف مما معه من النقود على مأكله ، ثم يذهب آخر النهار للسينما ، وكثيرا ما يدعو أصدقاءه من المتشردين للذهاب معه على حسابه الخاص ، ثم يقضى ليلته بعد ذلك تحت مقعد فى الشارع العام ليستأنف عمله فى اليوم التالى على الأسلوب الذى فصلناه •

وكانت فى هذه الحالة حادثة فقد الذراع الفاصل الظاهرى بين حياتين احداهما مستقيمة والأخرى معوجة ، وكانت — كما بينا — عاملا هاما فى تغيير سلوك الطفل •

ومثال ثالث حالة ولد أصيبت رجله اليمنى اصابة شديدة جعلتها فى نهاية الأمر أقصر من أختها اليسرى بدرجة واضحة • وهذا الولد فيه كثير من صفات الولد صاحب الحالة السابقة فهو جذاب ، حسن الحديث ، مملوء بالحيوية • نمت فى هذا الولد ناحية عدم الاستقرار فى العمل ، والميل الى الخطف ، فهو يخطف الفاكهة من عربات الباعة ويجرى • والباعة فى العادة يرثون لحاله فيتركونه وشأنه ، وأصبح الولد فى سن الحادية عشرة كثير السرقة ، والخطف ، قليل الاستقرار ، يميل الى لعب القمار • وللولد ظروف أخرى منها أنه الذكر الأول فى الأسرة ، ولو أنه ليس الذكر الوحيد •ومنها أن العلاقة بين والده ووالدته كانت على أسوأ ما يكون خشونة وقسوة وأنانية من جانب الوالد • ومنها كذلك أن الوالد كان يتفنن فى تعذيب ولده الى حد كبير ، ومع كل ذلك كانت حالة الولد الجسمية عاملا رئيسيا فى توجيه سلوكه الوجهة التى بيناها •

والحالات التى فحصناها من هذا النوع تربو على العشرين ، ولكن من بينها حالة واحدة لولد كان على أسوأ ما يكون من السلوك من تشرد وسرقة وعدم استقرار فى العمل • وأصيب فى رجله يوما ما اصابة بالغة تركت عنده عاهة مستديمة • ومن ذلك الوقت استقام ونظر الى هذه الاصابة كأنها عقاب سماوى أنزله الله به وبدأ حياة جديدة مستقيمة أدت الى جمع شتات والدته واخوته •

تدلنا هذه الدراسة على أن التأخر الجسمى أو الاصابة بعاهة لها فى العادة آثارها أو مصاحباتها فى سلوك الفرد • ولكن هذه الآثار لا تأتى بطريق مباشر ، فقد تكون مثلا ردا على شعور بالنقص ناشىء من موقف غيره ازاء العاهة ، وقد تكون ثورة على عطف غير مطلوب ، وقد تكون استغلالا لضعف الناس ازاء العاهات •• الى غير ذلك • ولكن الجسم له أيضا أثره المباشر على الحياة العقلية •

الأثر المباشر للجسم على العقل

يؤثر الجسم فى الحياة العقلية عن طريق الفعل المباشر للدم ، فالتغيرات الطارئة على حالة ما يصل الى المخ من الدم ، أو ما يحمله الدم من مركبات تصل اليه عن طريق الأدوية كالاستركنين ، أو المكيفات كالقهوة ، والشاى ، أو المركبات التى تفرز فى الدم مباشرة بواسطة الغدد ، أو تأتيه من مصادر التوكسينات مثلا ، كلها تؤثر فى الحالة العقلية للفرد تأثيرا واضحا معروفا • وأما التغيرات الطارئة على ما يصل الى المخ من دم ، فيمكن ملاحظة تأثيرها فى الحياة اليومية بعد أكلة ثقيلة ، اذ يشعر الانسان بعدها بخمول ، وميل الى النوم • ويمكن ملاحظتها كذلك من نوع الجلسة التى يجلسها الانسان ، وأثر ذلك على نشاطه العقلى ، ففرق بين درجة النشاط العقلى التى تصاحب جلسة متراخية على كرسى لين مريح منخفض ، وتلك التى تصاحب جلسة

منتصبة على كرسى خشبى مرتفع . والفرق بين الجلستين يؤدى الى الفرق بين ما يصل من الدم الى المراكز العصبية العليا فى كلتا الحالتين .

وهناك فرق كذلك بين الحالات العقلية المختلفة المصاحبة لأنواع ضغط الدم المختلفة ، ففى حالة الضغط العالى نلاحظ ميلا الى قلة النوم ، وكثرة العمل العقلى وسرعته ، وسرعة الانفعال . هـذا بخلاف حالة الضـغط المنخفض ، فنلاحظ معها ميلا الى الخمول ، وعدم القدرة على التركيز فى أثناء العمل العقلى ، وبطء العمليات العقلية ، وبطء التأثر الانفعالى[1] .

أثر التوكسينات والمخدرات والميكروبات :

أشرنا فيما تقدم الى أثر المخدرات والمكيفات ، اشارة بسيطة ، ومعروف أن الخمر لها آثار تختلف من درجة الى أخرى ، ومن شخص الى آخر ، فالخمر بكميات قليلة جدا له أثر منشط ، ولكنه بكميات كبيرة يكون مهبطا ، فتتعطل العمليات العقلية العليا ، ويفسد تفكير الشخص ، وتختل الأحكام التى يصدرها ، وتضطرب ادراكاته . والخمر يدفع بعض الناس للبكاء ، وبعضهم للانقباض ، وبعض ثالث للمرح ، ويدفع فريقا من الناس للغضب والهياج ، وفريقا آخر للمبالغة فى التأدب نحو غيرهم . وللادمان على الخمر فى بعض الحالات نتائج عقلية دائمة كضعف الذاكرة ، وتأخر فى القدرة على التفكير المنطقى المنظم ، وتسلط الأوهام والوساوس .

وللمكيفات الأخرى من شاى ، وقهوة ، وكوكايين ، وأفيون ، ومورفين ، وهروين ، وحشيش ، وغير ذلك ، آثارها المعروفة فى الحياة العقليـة ، فالمنبهات تؤخذ لتنشيط الحياة العقلية ، وأما المخدرات فانها تؤدى الى حالة تراخ وكسل ، وتمر على الشخص أثناء التأثر بها خيالات يقال انهـا لطيفة ، وبزوال الحالة السارة الطارئة يصبح الشخص قلقا ، غير مستقر ، سريع القابلية للتهيج . ولذا يحدث تعاطى هذه المخدرات ميلا الى الادمان

(1) Rees : Health of the Mind pp. 61-63.

فى أخذها . والادمان عليها يؤدى كمـا ذكرنا فى حالة الخمر الى نتـائج عقلية دائمة .

ومن الحالات التى يظهر فيها أثر التوكسينات حالات التعب الناشىء من العمل العقلى والجسمى ، فنتائج الاحتراق كحامض اللبنيك (Lactic Acid) وثانى أكسيد الكربون قد تتراكم فى الأنسجة فتعطل الاستمرار فى العمل . ولذا كان التخلص من هذه التوكسينات شرطا ضروريا لتجديد النشاط . وهذه التوكسينات الناتجة من الاجهاد تعطل العمليات العقلية من انتباه وتفكير وغير ذلك . ونتائج التعب لا تعزى كلها لتراكم التوكسينات ، وانما يعزى بعضها لفقد الطاقة من الأنسجة والألياف العصبية والعضلية بسبب العمل نفسه .

والتوكسينات فى حالة خراجات الأسنان ، أو اللوزتين ، أو التهـاب الجيوب الموجودة خلف الأنف ، أو الخراجات المعدية أو المعوية ، أو غير ذلك كلها لها أثرها فى الحالة العقلية من حيث تخفيض الشعور بلذة الحياة ، وتقليل القدرة على العمل العقلى ، والتخفيض من سرعته ، وزيادة الشعور بالقلق ، وعدم الاستقرار ، والقابلية لسرعة التهيج ، وما شابه ذلك .

وبخلاف ما تقدم من التوكسينات بأنواعها توجد الميكروبات أو البكتريا فى حالة الأمراض المعدية . ففى الزهرى سواء أكان مكتسبا بعد الولادة أم قبلها[١] نجد أن من بين أعراضه الخطأ فى الحكم والميل الى المغالاة والتأخر العقلى . ويرى جوردون[٢] وهيلى[٣] أن نوعا من جنوح الأحداث من أعراضه الهرب والسرقة والعناد يرجع الى الزهرى الولادى ، وتدل الحالات

(١) الزهـرى الولادى Congenital Syhlis هو المكتسب قبـل الولادة وتسميته بالزهرى الولادى أصح من تسميته بالزهرى الوراثى . وهذا يتفق مع رأى المختصين فى علم الوراثة .

(2) Gordon : Juvenile Delinquency ch. VIII.

(3) Healy : The Individual Delinquent.

القليلة التى درسناها من هذا النوع لجرائم الأحــداث فى حالة الزهرى الولادى أنها نتيجة ثانوية وليست نتيجة أولية للزهرى نفسه •

وقد وجد ستراتون[1](Stratton)من فحصه ٩٠٠ طالبا أن الذين كانوا قد أصيبوا بأمراض معدية فى حياتهم الأولى أكثر قابلية للتهيج الانفعــالى من غيرهم • وأن لبعض الأمراض أثرا أثبت فى الشخصية من غيرها ، فالحمى القرمزية بحسب رأيه لها أثر فيما يظهر فى حياة الشخص من ميل للغضب •

ولكن ليس معنى هذا أنه يمكننا أن نصل الى نتيجة مقطوع بصحتها فى هذه الناحية فالنتائج كلها رغم ما ذكرنا من الأدلة تعتبر تخمينية الى درجة غير قليلة • ويرجح أن الأمراض المعدية التى من شأنها أن ترفع درجة حرارة الجسم رفعا غير عادى قد تؤثر فى المجموع العصبى ، وبالتالى تؤثر فى الصفات العقلية والخلقية لا سيما اذا حدثت الاصابة فى سن مبكرة •

مثال ذلك حالة لطالب فى مدرسة ثانوية ، يتصف بالكسل ، والقذارة ، والجشع والعنف ، والتأخر الدراسى ، والميل لمخالطة من هم أقل منه فى المستوى الاجتماعى والثقافى بكثير • يمارس العادة السرية ويتصل بالخدم اتصالا جنسيا • ووالداه يعاملانه معاملة معقولة ، وسبل الحياة الطيبــة ميسرة له ، ولم نجد عنصرا بارزا فى حياته أكثر من الأمراض التى انتابته • ففى سن الخامسة أصابه التيفويد وكان شديد الوطأة ، وأعقبته الحصبة بعد قليل ، ثم أعقبها السعال الديكى مباشرة بعد ذلك •

ونعتقد أن هذه الأمراض ربما كانت عوامل مساعدة وليست عوامل أصيلة • فيحتمل أنها سببت تراخيا وتدليلا من جانب الوالدين ، فخلقت حول الطفل ظروفا ساعدته على انماء هذه الصفات الدالة على تواكله وتدلله وعجزه عن مقاومة شهواته الغذائية والجنسية •

---

(1) Quoted by Shaffer : Psychology of Adjustment.

وهكذا نجد مع الكثير من الحالات مرضا أو عدة أمراض بعضها معد كالحصبة والتيفويد ، والجديرى ، والدفتريا ، والحمى النكفية ، والسعال الديكى • وبعضها غير معد لكن يصحبه رفع شديد لدرجة الحرارة ، كالنزلات المعوية ، والمعدية ، والخراجات •

والنتائج السيكولوجية التى أشرنا اليها قد تنشأ من هذه الأمراض ، ولو أن كثيرا من الأطباء يَشُكون فى صحة هذا ، وقد تنشأ هذه النتائج من تأثر الطفل بموقف أهله ازاءه أثناء مرضه فالقلق الذى يصيب الوالدين ، وما يصحبه من مظاهر الذعر التى يحسها الطفل عادة ، تهز ثقته فى نفسه وفى والديه • والعناية الشديدة التى تعطى للطفل فى أثناء المرض تصحبها عادة امتيازات أخرى من التدليل والمعاملة الخاصة يتمسك بها الطفل غالبا تمسكا شديدا بعد شفائه ، ويصعب على الوالدين تحويله عنها ، الا اذا وضعوا لأنفسهم سياسة ثابتة فى هذا الاتجاه •

لهذا كان من الواجب ألا يعطى الطفل من العناية فى أثناء المرض أكثر مما يستلزم التمريض ، ويجب أن يشغل قدر الامكان بعمل ملائم يسليه حتى ينصرف عن التفكير فى نفسه ، وحتى يسهل تحريره من التعلق بمن يرعاه فى مرضه عند شفائه منه • وبالجملة يجب العمل على عدم اعطاء الطفل فى أثناء مرضه امتيازات يعز عليه أن يتحرر من التمتع بها بعد شفائه •

أثر الغدد :

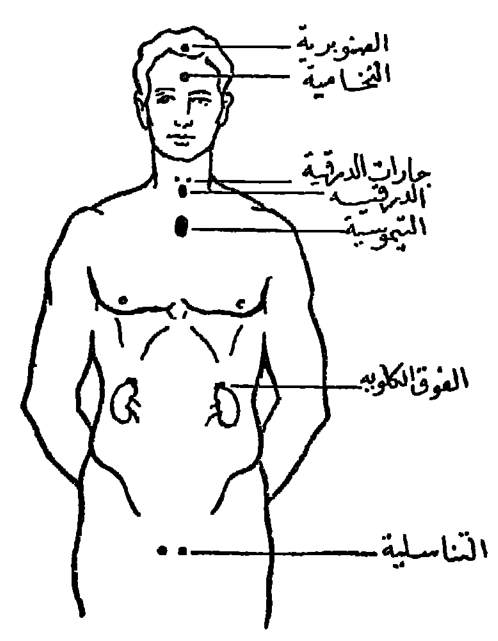
وهناك مصدر مهم للطريقة التى يؤثر بها الجسم مباشرة فى الحياة العقلية عن طريق الدم •وهذا المصدر هو الغدد التى تفرز هرمونات (Hormones) تصب مباشرة فى الدم • وسبق أن ذكرنا أنه أمكن بدراسة الغدد العثور على ما يحقق بعض ما فى النظرية القديمة السائدة عن أنواع الخلق ، وهى التى تقسم الناس الى أنواع هى : الدموى ، والصفراوى ، والليمفاوى ،

والسوداوى • وذلك بحسب ما يسرى فى الدم من مركبات كيماوية أو أمزجة كيماوية •

ورغم كثرة ما اكتشف عن الغدد فان ما نحس أننا نجهله عنها ما زال كثيرا جدا • والغدد على العموم ثلاثة أنواع : نوع يقذف بافرازاته الى الخارج ، كالغدد اللعابية ، والدمعية ، وغدد العرق ، وغير ذلك • ونوع يقذف بافرازاته مباشرة فى الدم ، كالغدة النخامية ، والدرقية • ونوع له افرازان ، كالبنكرياس ، والغدد التناسلية • وسنذكر الآن نبذة قصيرة عن بعض الغدد التى لها أهمية فى التأثير على سلوك الفرد : —

١ — البنكرياس : له افرازان أحدهما خارجى يصب فى الاثنى عشر ، ويساعد عملية الهضم • والآخر داخلى ويسمى بالأنسولين ووظيفته تنظيم اختزان السكر فى الكبد والعضلات بعد تحويله الى نشا حيوانى •

وتنظيم هذه العملية يتوقف عليه ما يستعمل من السكر لعملية الاحتراق اللازمة لنشاط الحيوان أو الانسان • والأنسولين ان كان مقداره أكبر من



صورة تبين مواضع الغدد الأساسية

اللازم تنتج الشعور بالجوع ، والرعشة ، والقلق ، وكثرة التعب • وان كان أقل مما يلزم تنتج الخمول ، ومعه شعور بالهبوط العام • وأحيانا تزداد نسبة السكر فى الدم ، وأحيانا أخرى يظهر السكر فى البول • ويصاحب هذا ما يصاحبه من خمول ، وشعور بالهبوط ، وقابلية للتعب وما شابه ذلك •

٢ — الغدة الدرقية وجاراتها :

وهى أسفل الرقبة أمام القصبة الهوائية ، ووظيفتها افراز مركب يعرف بالثيروكسين (Thyroxin) • يقوم هذا المركب بتنظيم نشاط الأنسجة من هدم وبناء (Metabolism) ، ولهذا نجد أنه فى حالة عجز الدرقية عن قيامها بوظيفتها تبدو على الشخص السمنة الزائدة ،وقلة النشاط ويبدو الشخص بطيئا ، خمولا ، كثير النسيان قليل القدرة على تركيز الانتباه أو على سرعة التفكير • وعلى وجه العموم يبدو الشخص قليل النشاط ، وضعيف الحيوية• وأما اذا زاد افراز الدرقية عن الحد الضرورى فان الشخص يبدو قليل الاستقرار ، كثير الاستفزاز ، قلقا مضطربا فى نومه وتكثر فى العادة أفكاره وأوهامه التى تتوارد على ذهنه بسرعة كبيرة • وتزداد ضربات القلب ، ويرتفع ضغط الدم ، ويخف الوزن •

وفى حالات كثيرة لا تكون اصابة الدرقية أثناء الحياة ، بل يولد الشخص بدرقية ضعيفة ، كما فى حالة نوع من الناس يكونون صغار الأجسام (cretins) ناقصى النمو من كل ناحية ، سواء فى ذلك الناحية الجسمية ، أم الناحية العقلية • فالضعف الولادى فى الدرقية يصحبه عادة نقص عقلى • ولكن العكس ليس صحيحا ، فليس كل نقص عقلى ولادى أو وراثى يصحبه ضعف فى الدرقية[1] •

---

(١) وقد قمنا فى العيادة السيكلوجية بدراسة حالات ضعف عقلى تمثل النوعين : نوع يتميز بخموله الشديد ، والنوع الثانى يتميز بكثرة نشاطه وعدم استقراره .

ويمكن قياس درجة نشاط الغدة الدرقية بصعوبة كبيرة باستعمال اجهزة اخرى خاصة تعين نسبة ما يأخذه الفرد فى الشهيق من هواء نقى الى ما يخرجه من مواد محترقة فى الزفير ويسمى الاختبار(Basal Metabolism Test وصعوبة قياس نشاط الدرقية يجعلنا غير متأكدين من نتائج هذا القياس خصوصا فى حالات الضعف العقلى .

ويوجد قريبا جدا من الغدة الدرقية أربع غدد صغيرة الحجم تعرف بجارات الدرقية (Parathyroids)، ووظيفتها تمثيل الكلسيوم والفوسفور ، وهى تعادل بعملها نشاط الغدة الدرقية • فاذا أزيل جزء من جارات الدرقية كان الشخص سريع التهيج شديد العصبية ، وكان عرضة للرعشة اذا ما ارتفعت حرارته •

٣ — الغدة النخامية : (The Pituitary)

وموضعها فى الشق الأسفل بين نصفى الكرتين المخيتين ، وهى صغيرة الحجم ، ووزنها فى العادة نصف جرام تقريبا • وهى تعتبر من أعقد الغدد وأهمها ، اذ يسميها البعض سيدة الغدد (The master Gland) والسبب فى ذلك أن لها تأثيرا على أغلب الغدد الأخرى ، فهى تؤثر فى الدرقية ، والتناسلية ، والفوق الكلوية والبنكرياس ، وربما كانت تؤثر فى بقية الغدد أيضا • ومن بين هرمونات الفص الأمامى للغدة ما ينظم عملية النمو ، ولذا كان الاختلال فيه مسببا للتقزم أحيانا وأحيانا أخرى يسبب طول العظام[1] •

ويظهر أن هرمونات النخامية بعضها يوازن البعض الآخر ، فالهرمونات

---

(١) وللنخامية فصان رئيسيان : الفص الامامى ، والفص الخلفى . وقد ثبت ان كلا من الفصين والوصلة التى تربطهما يفرز هرمونات خاصة . وقد ثبت كذلك أن الفص الامامى يفرز ١٢ هرمونا على الأقل ، والفص الخلفى يفرز كذلك اكثر من هرمونين . واحد هرمونات الفص الأمامى ينظم عملية النمو فالنقص فيه يسبب القزم ، ولكنه قزم يختلف عن القزم الناشىء من النقص الوراثى او الولادى فى الغدة الدرقية . فالقزم فى حالة النقص فى هرمون النخامية لا يصحبه ضعف عقلى . والزيادة فى هذا الهرمون نفسه تسبب زيادة فى النمو . فاذا وجدت هذه الزيادة منذ الطفولة سببت ضخامة عامة واما اذا وجدت بعد اكتمال النمو ، سببت نموا فى عظام الأطراف كالأيدى والأرجل والأنف .

ويكون مصاحبا للزيادة فى نشاط الغدة النخامية عادة ورم يمكن احيانا مشاهدة نتائجه بمشاهدة الزيادة الناشئة فى الغلاف المحيط بها والمعروف باسم (Sella Tursica) ويتم هذا بالكشف باشعة رونتجن .

ولا يجوز أن ننسى أن ننوه بشدة التعقيد فى وظيفة النخامية ، وشدة علاقتها بالكثير جدا من الوظائف الجسمية الاخرى ، مما أثار فى السنوات الأخيرة مئات البحوث فى افرازاتها .

الجنسية الناتجة من النخامية تضاد فى عملها هرمونات النمو ، بدليل أن عملية ازالة الخصيتين ينتج عنها ابطال الوظيفة التناسلية ، وايقاف الهرمونات الجنسية النخامية تبعا لذلك ، اذ أن هذه الهرمونات تصبح غير مطلوبة ، ويتبع ذلك زيادة فى النمو كما نلاحظ فيمن بقى من الأشخاص الذين خضعوا لهذه العملية والمعروفين فى الشرق الآن باسم الخصيان (الأغاوات) •

وليس من السهل أن نحدد تحديدا تاما العلاقة بين بعض مظاهر السلوك ، والاختلال فى افرازات النخامية : ولكن من الأمراض المعروفة (Frohlich's Disease) وينسب فى العادة الى اختلال فى بعض هرمونات النخامية • هذا المرض يظهر فى الصبيان ، ويكونون عادة متأخرين فى نمو العظام ، وعلى درجة كبيرة من السمنة ، ويكسو الدهن بنوع خاص المنطقة الحوضية ، وما فوق الصدر • ويكون هؤلاء الصبيان على درجة كبيرة من الضعف الجسمى ، والتأخر الجنسى ، مما يغرى أحيانا رفقاءهم الأقوياء باستغلالهم جنسيا •

ومن أمثلة اختلال الغدة النخامية حالة ولد أحيل للعيادة بحجة أنه مشاكس ، وغير قابل للتعليم • ولكن بمجرد النظر اليه لوحظت أعراض المرض (Frohlich's Disease) السابقة الذكر • والولد فوق هذا قليل الشعور بالمسئولية ، يميل الى الجولان ، والتسكع فى الشوارع ، وعدم التركيز فى عمل واحد ، ويحب الأعمال المتغيرة البسيطة • نسبة ذكائه حسب الاختبار ٥٠ ، أى أنه حين كان عمره ١٢ سنة كان المستوى العام لعقله لا يزيد عن المستوى العام لعقل طفل عادى عمره ٦ سنوات • وكان يهرب من كل مدرسة يلحق بها لعدم قدرته على متابعة العمل الذى يتوقعه منه أهله ومدرسوه وأصحابه بحسب سنه• وهو متأخر فى نموه الجنسى بدليل صغر خصيتيه ، وعدم سقوط واحدة منهما فى الكيس الخاص لذلك • ولوحظ كذلك أن نمو الشعر على العانة ، وتحت الابطين متأخر جدا بالنسبة لسنه •

وبعد فحصه جسميا وعقليا ، أمكن توجيه أهله لمحاولة علاجه طبيا عند

أحد الأطباء الاختصاصيين فى الغدد ، ولعدم ارهاقه بالتعليم التقليـدى المعروف فى مصر ، والاكتفاء بتعويده عادات بسيطة فى حدود عقليتـه ، والكف عن معاقبته جسميا ، وعن حبسه كما كانوا يفعلون • وأمكن بهذا التوجيه حل كثير من مشكلاته ومشكلات أسرته •

ومن الحالات التى ظهرت فيها الزيادة فى النمو ، وتختلف عن السابقة اختلافا بينا حالة ولد أرسل الى العيادة وعمره ١٤ سنة ، ولكن وجد أن نسبة ذكائه ٦٨ ، أى أن مستوى ذكائه لا يزيد عن مستوى ذكاء طفل عادى عمره تسع سنوات ونصف وكان طول الولد ١٧٨ سم ووزنه ٧٠ ك ج ؛ أى أنه فى طول شخص بالغ النمو • والولد متلاف ، عنيف ، غير متزن فى حركاته ، خامل ، مشاكس ، عنيد ، ميال للظهور ، ولم يتمكن من الاستفادة من التعليم • عنده شيء كثير من عدم المبالاة بما يقول أو يفعل • وقد ظهرت فى غلاف الغدة النخامية زيادة واضحة جدا عن الحجم العادى •

وقد نصحنا الوالد بأن يقلع عن فكرة التعليم النظرى المعروف ؛ بل يعطيه عملا آليا فى الهواء الطلق ، يستدعى منه حركة جسمه كله ، كالعمل فى حديقة صغيرة • وبالفعل وضعه والده فى عمل من هذا النوع واستراح من الكثير من متاعبه • واستراح الولد كذلك من الكثير من مضايقات والديه •

وهناك حالة أخرى لطالب بالسنة الرابعة الابتدائية عمره خمس عشرة سنة طوله ١٧٥ سم ووزنه ١١٠ ك • ج • وكما يبدو من وزنه وطوله فهو ضخم جدا رغم صغر سنه ، وهو لا يميل مطلقا للعمل العقلى ، وقد تكرر رسوبه فى الشهادة الابتدائية رغم المجهودات الجبارة التى بذلت معه •

٤ — الغدد التناسلية : (Gonads)

والغدد التناسلية هى الخصيتان فى الرجل وتفرزان الحيوانات المنوية ، والمبيضان فى المرأة وتفرزان البويضات • وهاتان المجموعتان من الغدد تفرزان هرمونات أهم وظائفها الخواص الجنسية الثانوية ، ومن هـذه

الخواص فى الرجل خشونة الصوت ،ونمو الشعر على العارضين والشفة العليا • وكذلك من الصفات السيكولوجية الميـل الاستقلالى ، والميـل للاعتداء ، وحب الزعامة ، والميل للمخاطرة والانتاج ، والميل نحو الجنس الآخر • ومن الصفات الجنسية الثانوية فى المرأة نمو الشعر على العانة ، وتحت الابطين ، وكبر الثديين ، ونشاط الغدد اللبنية ، والميل نحو الجنس الآخر وهذه الهرمونات بنوعيها موجودة فى كل من الرجل والمرأة غير أنه تتغلب الهرمونات الذكرية عند الرجل ، والأنثية عند الأنثى • ويعزى لهذا فى نظر بعض المفكرين وجود الصفات الأنثية عند بعض الرجال ، وبعض صفات الرجولة عند بعض النساء •

وقد كان للغدد الجنسية حظ وافر من التجارب العلمية ، فأجريت على الحيوان تجارب تتعلق بالنشاط الجنسى ودوريته ، وسلوك الكائن الحى فى أثناء هذا النشاط. وقد أجرى (Vornoff) تجارب على اعادة الشباب بوساطة مستخرجات الخصية من القردة ، ولاحظ مع عودة الشباب رجوع الخصائص السيكلوجية المصاحبة عادة لذلك • وقد أجرى (Steinach) تجارب عدة على الحيوان منها أنه نقل الغدد الذكرية الى أنثى الخنزير الهندى من الخنزير الذكر ، والغدد الأنثية الى ذكر الخنزير الهندى من الخنزير الأنثى ، ولاحظ تغير صفات الخنزير تغيرا واضحا تبعا للغدد التى نقلت اليه •

ويلاحظ أن الخصيان « الأغاوات » يفقدون بازالة خصاهم صفات كثيرة من صفات الرجولة ، فتـجدهم فى مجموعهم على شىء من نعومة الصوت ، والخمول ، والانصراف عن النزعات الجريئة ، وعن العمل لتحقيق أغراض جـدية •

وقد لوحظ فى الحالات المعروفة بالجنون المبكر (Dementia Praecox) التى تتصف بالخور التام ، والاستسلام ، والشعور بالنقص،أن تشريحها بعد

الوفاة يدل على ضمور فى الخصيتين . ولا يمكننا أن نستنتج من هذه الحقائق فقط اذا كان ضمور الخصيتين سببا أو نتيجة للحالة العقلية المذكورة[١] .

٥ — الغدة الفوق الكلوية (الكظرية) (Supra-Renal Glands)

وهناك غدتان كل منهما فوق احدى الكليتين ، وتتكون كل غدة من جزأين : خارجى ويسمى بالقشرة (Cortex) ، وداخلى ويسمى باللب Medulla وكل من هذين الجزأين يختلف عن الآخر فى تركيبه ووظيفته . فهرمون القشرة يساعد على مواصلة بذل الجهد العضلى ، وعلى مقاومة العدوى . وزوال هذه القشرة يتسبب عنه الوفاة ، وضعفها يترتب عليه الضعف ، والكسل ، وعدم الاهتمام بالجنس الآخر ، وهبوط عام فى الحيوية وفساد الحكم ، وعدم الميل للتعاون وقلة الصبر[٢] . أما الزيادة فى نشاط القشرة فيترتب عليه زيادة مظاهر الرجولة سواء فى المرأة أو الرجل . وهذه المظاهر تتناول الناحيتين العقلية وبعض النواحى الجسمية أيضا .

أما هرمون اللب واسمه الأدرنالين فيسبب فى حالة زيادته عن حد الاتزان ازدياد ضربات القلب ، وازدياد عمل الرئتين ، وازدياد افراز السكر من الكبد ، وازدياد افراز العرق ، واتساع حدقة العين ، واندفاع الدم للمخ والعضلات ، بحيث ينشط العضلات الخارجية ، ويحدث تأثيرا مضادا على بعض الأعضاء الداخلية كالمعدة . فكأن وظيفة الأدرنالين هى تنشيط الكائن الحى تنشيطا عاما ، وغايتها أنها فى حالة وقوع الكائن الحى فى مأزق يريد التخلص منه اما بالهرب أو بالمقاتلة تساعده على سرعة الخلاص ، أو سرعة المقاتلة ؛ فالأدرنالين يزيد من كفاءة الكائن الحى لتحقيق هذه الغاية .

وقد أشار برمان (Berman)[٣] الى ما سماه (The Adrenal Centred Type)

(1) Sir Fredrik Mott as Quoted by Recs : The Health of The Mind p. 68.

(2) Woodworth; Psychology (4th edition); Henry Holt p. 175.

(3) Berman : The Personal Equation p. 278.

وهذا النوع يكون سريع الاستفزاز ، نشطا ، سريع الغضب ، يبدو دائما متوتر الأعصاب ويكون عنده ضغط الدم مرتفعا ، ويصاحب هذا الارتفاع ما يصاحبه عادة من اضطراب النوم ، وسرعة توارد الأفكار ، وكثرة الهواجس وغير ذلك .

٦ — غدتا الطفولة :

وهناك غدتان تعرفان بغدتي الطفولة ، وهما الغدة التيموسية أو الصعترية (Thymus) وتقع فوق القلب ، والغدة الصنوبرية (The Pineal Gland) وتقع فى الدماغ خلف النخامية . وتسميان غدتى الطفولة لأنهما تضمران عادة قبل البلوغ . واذا لم يحدث هذا الضمور فالفرد يبقى رغم نموه كالطفل فى سلوكه وموقفه ، ويعيش ضعيف الارادة بطىء التفكير نحيف الجسم طويله دقيق التقاطيع رفيع الصوت .

ويقال : ان عمل هاتين الغدتين مضاد لعمل الغدد التناسلية ، فنشاطهما يكف من نشاط التناسلية ويساعد على النمو فى الطول والوزن . وأما ضمورهما فانه يعطى الفرصة للغدد التناسلية لتظهر أثرها من حيث الخواص الجنسية بجميع أنواعها .

الاتزان الغددى :

لاحظنا أن كثيرا من الغدد لها مقابلها فى الوظيفة ؛ فلغدة ما وظيفة ، ولغدة أخرى وظيفة مضادة . ومن أمثلة ذلك الدرقية وجاراتها ، وكذلك التناسلية وغدد الطفولة ، وكذلك بعض هرمونات الفص الأمامى للنخامية تضاد بعض هرمونات الفص الخلفى . لاحظنا كذلك أن بعض الهرمونات من غدة معينة تثير هرمونات غدد أخرى ، كما هو حادث بين النخامية والدرقية ، أو بين النخامية والتناسلية . لهذا نجد أن الهرمونات المتعددة مثلها مثل عدد كبير من القوى المعروفة فى علم « الميكانيكا » والتى تؤثر على جسم ما ، والنتيجة النهائية فى حالات الاتزان العادية هى سكون

الجسم تحت تأثير القوى المختلفة . ولذا فانه ليس من السهل اذا لاحظنا سلوك شخص ما أن تنسب حالته للزيادة أو النقص فى افراز غدة معينة . فيكفى أن يختل الاتزان الغددى بأى طريقة كانت فنحصل على أعراض قد نخطىء وننسبها الى زيادة فى نشاط الغدة الدرقية أو النخامية أو غير ذلك .

وليس معنى ما ذكرنا عن الغدد هو محاولة استيفاء الموضوع ، أو الاشعار بأن من وظيفة المعلم أو الوالد أو الباحث النفسانى أو الاجتماعى أن يتدخل فيها تدخلا ايجابيا . وانما معناه أن يكون يقظا لاحتمال تأثيراتها ، فيوجه الحالات فى الاتجاه الصحيح الى اختصاصى فى الغـدد ليقوم بدراستها ومعالجتها اذا لزم الأمر . والى جانب العلاج الطبى تحتاج الحالة فى بعض الأحيان الى علاج نفسانى .

وقد ذكر شيفر[1] حالة (لويز) وهى بنت كان أبوها يتوقع لها تقدما فى التعليم ، فخابت ظنونه ، ووقف منها موقف الناقد المقرع ، مما زاد حالتها سوءا . ولما عرضت حالتها على الاختصاصى النفسانى ، ورأى الى جانب الأعراض الأخرى بطئا شديدا فى التفكير رغم سلامته ، اقترح عرض الفتاة على اختصاصى فى الغدد . وبالفعل وجد الأخير أن الغدة الدرقية فى حاجة الى تنشيط ، وعولجت من هـذه الناحية ، ولكن الى جانب العلاج الطبى كانت الفتاة فى حاجة الى تصحيح موقفها نحو نفسها ، وكانت الحالة تستدعى أيضا تصحيح موقف الوالدين نحو الفتاة ، وهذا الجزء من العلاج قام به الباحث النفسانى بنجاح كبير .

أثر العقل فى الجسم

لعل التصديق بأن الجسم يؤثر فى العقل أسهل بكثير من التصديق بأن العقل يؤثر فى الجسم ، فمن السهل على الناس أن يصدقوا كيف أن شرب

(1) Shaffer : Psychology of Adjustment p. 335

الخمر يسبب « الهلوسة » المؤقتة ، وكيف أن أكلة ثقيلة تؤدى الى الشعور بالخمول ، وكيف أن حالة الزكام أو الامساك ، يترتب عليها شعور بالضيق والانقباض ، ولكن المشاهدات العديدة تدلنا كذلك على أن الحياة العقلية لها أثر قوى على الحياة الجسمية ، ولا ننوى الدخول فيما نسمعه عن مقدرة بعض الهنود مثلا على اخضاع جسومهم لارادتهم الى الحد الذى يمكنهم من وضع أذرعهم مثلا فى النار دون أن تحترق ، أو السير على أسنة مدببة دون أن تدمى أقدامهم العارية ، ولكن نكتفى بما يلاحظ فى الحياة اليومية والميادين العلمية المألوفة •

الحالات الانفعالية :

سبق أن تكلمنا عن الانفعال على أنه حالة عقلية صرفة يترتب عليها تغيرات جسمية واضحة • ولعل كثيرا من الناس يلاحظون أن شعورهم بالقلق النفسى ينتج عنه حالة امساك ، وحالة الامساك بدورها تزيد من حدة الشعور بالقلق ، وهذه الزيادة تزيد من حالة الامساك ، فكأنه تنشأ أحيانا فى مثل هذه الحالات حلقة مفرغة لابد من قطعها فى نقطة ما حتى يمكن التخلص من حالتى الامساك والقلق فى وقت واحد •

ونعرف كذلك ما لحالات الغضب والخوف من آثار • فاذا كان الغضب متكررا نتجت حالة مزمنة من سوء الهضم ، وارتفاع ضغط الدم ، ثم تنشأ الدائرة المفرغة التى يزيد تبعا لها كل من الحالتين الجسمية والنفسية •

ومن الحالات التى يشير اليها كانون[1] • حالة سيدة سافرت من الريف الى المدينة ليجرى عليها اختبار الغذاء ، حتى يساعد هذا الاختبار على تشخيص حالة معدتها • وطريقة ذلك هى اعطاء وجبة غذائية أول الأمر فى الصباح ، ثم استخراج جزء منها بعد مدة معينة بواسطة أنبوبة طويلة تولج فى المعدة من الفم • وكانت السيدة قد حضرت الى المدينة فى اليوم السابق ،

(1) Cannon : Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage.

وقضت الليلة فى فندق ، ثم ذهبت فى الصباح الى الطبيب المختص ليجرى عليها الاختبار • ولكنه وجد باستخراج « العينة » من المعدة أن معها كثيرا من طعام عشاء الليلة السابقة لم يهضم بعد وبالاستقصاء اتضح أنه بعد أن تناولت هى وزوجها طعام العشاء • خرج الزوج القادم من الريف ليمتع نفسه بشرب الخمر فى المدينة ، فقلقت الزوجة عليه ، وتألمت من عمله • وكانت نتيجة الحالة الانفعالية أن بطل عمل المعدة فى هضم طعام بقى ما يزيد على اثنتى عشرة ساعة ، وكان فى الظروف العادية لا يبقى منه شىء فى ظرف ساعتين أو أكثر من ذلك بقليل •

امثلة من تحقيق الجسم للنزعات العقلية :

هناك حالات عادية تمر علينا كل يوم يمكن تفسيرها بعد تأملها • ومن هذا مثلا حالة شخص كان ينتابه صداع شديد فى أيام الجمعة عند الاستيقاظ من النوم • واستمر يظهر هذا الصداع عنده مدة طويلة • واتضح بعد ذلك أن ظروفه كانت تفرض عليه واجبا عائليا لابد أن يؤديه يوم الجمعة • وهذا الواجب ليس فى الحقيقة محببا الى نفسه ، ولكن التقاليد والمجاملات تحتم عليه ابداء سروره من قيامه بهذا الواجب • فانتابته لهذا حالة صداع يستيقظ به يوم الجمعة • ويساعده بالطبع على الاعتذار عن أداء هذا الواجب دون أن يشعر بتأنيب الضمير لفراره من واجب بغير سبب وجيه • وهناك اعتقاد بأن أوجاع الرأس والأمراض التى تنتاب التلاميـذ فى الفترة السابقـة للامتحان لا ترجع كلها للانهاك ، أو لسبب جسمانى ، وانما يرجع قسط كبير منها عادة للخرف اللاشعورى من مجابهة الاختبار الذى لا مفر من مجابهته •

وهناك حالة أخرى لسيدة تزوجت بشخص ينتمى لأسرة متدينة محافظة • فلما حل شهر رمضان عقد الزوج وزوجته نيتهما على أداء فريضة الصوم ، فلما جاء ميعاد الوجبة التى تؤخذ قبل الفجر (السحور) شعرت السيدة فجأة بآلام شديدة حادة فى أوراكها ، وانهمرت دموعها من شدة التألم •

وانقضى الوقت دون أن تتناول طعامها ، وأصبح لديها بذلك عذر مقبول يبرر عدم الصوم • ولما جاء الوقت الذى يكف فيه كل صائم عن الأكل وهو قبيل الفجر أفاقت السيدة اذ ذاك من حالتها ، وأصبحت كأن لم يكن بها ألم بالمرة • فالألم الجسمى فى هذه الحالة — وكان حقيقيا لا ادعاء فيه — أدى وظيفة هامة ، وهى حماية هذه السيدة من الصوم دون المساس بتقاليد الأسرة الجديدة •

وحالة ثالثة وهى لطالب أرسله والده الى العيادة السيكولوجية وسنه تسع عشرة سنة بشكوى أن الولد تنتابه نوبات عصبية شديدة مصحوبة بغيبوبة • والولد على درجة كبيرة جدا من الذكاء والحساسية وصحتـه العامة فى مجموعها حسنة ، ما عدا بعض الضعف الناشىء من وقت بدء النوبات مما يرجح فكرة أن النوبات لا ترجع لسبب جسمى ، وانما ترجع لسبب عقلى ، وقد أمكن الوصول الى هذه النتيجة بعد فحص الشاب فحصا طبيا دقيقا للغاية شمل مع النواحى العادية المعروفة نواحى تحليل الدم والبول والبراز • ثم اتجه البحث بعد ذلك لدراسة حالته النفسية ، فتبين أن والده كان قد اختلف مع والدته فطلقها وتزوج بغيرها • وفى أحد الأيام كان الطالب جالسا مع زوجة أبيه فأخذت تحدثه عن علاقتها بأبيه وكيف اتفقا على الزواج ••• الى غير ذلك • وشعر الولد فى ذلك الوقت أنه ممزق بين أمرين : أحدهما وجوب حسن الاستماع تأدبا منه ، والآخر نفوره من الاستماع لقصة مبغضة الى نفسه ، لعلاقتها بما ينغص معيشته ومعيشة أمه • وبعد هنيهة نادى خادمته واحتد عليها بلا سبب كاف ، ثم بكى وضاق صدره وأغمى عليه ، وتكررت بعد ذلك نوبة الاغماء فى ظروف يطول شرحها فى هذا المقام • وقد أمكن معالجة الولد من النـوبات الى أن انقطعت تماما وذلك بتركه يتحدث ويربط حاضره بماضيه • ويجعله يواجه ظروفه وصعوباته مواجهة أقوى مما سبق له أن يفعل •

وحالة أخرى وهى حالة بنت عمرها احدى عشرة سنة أصاب ابصارها فجأة ضعف شديد واتضح أنه لم يكن هناك سبب عضوى يفسر هـذا الضعف • ولكن البنت كانت تعيش فى وسط يهتم بأخيها وبأختها أكثر منها بكثير • وقد نجح هذا الضعف فى أداء وظيفة هامة للبنت ، وهو أنه حول اهتمام الأسرة كلها اليها بدرجة شديدة • أما العلة فى أن الحالة النفسية للبنت تعبر عن نفسها بهذه الصورة فشرحهـا يحتاج الى افاضـة ليس هذا مكانها •

وهناك حالات كثيرة من هذا النوع يقوم فيها عضو أو أكثر من أعضاء الجسم بخدمة الفرد عن طريق المرض المؤقت أو الدائم • ومن أمثلة ذلك حالات الشلل فى الجند لحمايتهم من الحرب دون أن يفقدوا شرف الجندية ، وحالات الشلل بين العمال بصورة تريحهم من العمل ومن تحمل المسئولية ، وتذهب بهم الى حيث يجدون العطف والرعاية ، وحالات الحمل الكاذب عند السيدات اللواتى طالت بهن مدة الزواج دون أن يحملن وهن يتمنينه أحيانا ارضاء لرغباتهن أو رغبات أزواجهن • وهناك حالات فى الصمم والعمى وغير ذلك يمكن تفسيرها بنفس الطريقة •

أثر الايحـاء :

وأثر الايحاء فى الحالات الجسمية أمر معلوم ، ففكرة الصحة ، أو المرض ، أو الغثيان يمكن أن تؤدى الى الصحة ، أو المرض ، أو الغثيان • وقد أجرى أحد الأطباء النفسيين واسمه ساتو (Satow) (1) تجربة قال انه ندم بعض الندم بعد اجرائها • كان ساتو يعالج مرضاه الى حد كبير بالايحاء الجمعى ، وفى يوم من الأيام وزع على مرضاه كئوسا من النبيذ ، وبعد أن شربوا بقليل عاد اليهم ، واعتذر وأبدى أسفه الشديد ، وقال (بغير حق) انه كشف أن الذى أعطاه اياهم لم يكن نبيذا ، وانما كان دواء مقيئا ، وقد أخطـأ

(1) Satow : Suggestion and Hypnotism.

لتشابه الزجاجات عليه ، وبعد قليل قام أحد المرضى ليتقيأ ، ثم تبعه ثان ، ثم ثالث الى أن تقيئوا جميعا .

والعلاج الطبى يرجع قسط كبير من نجاحه الى ما يصاحبه من ايحاء بالشفاء ، واذا توافرت العقيدة أمكن الوصول أحيانا الى الشفاء دون أخذ الدواء وطريقة كوى (Coué) قائمة على هذا الأساس . وعلى سبيل المثال أذكر حادثا وقع لكاتب هذه السطور ، فقد كان عنده يوما ما صداع شديد ، ولم يرد أن ينقطع عن العمل ، فأخذ معه فى جيبه قرصا من « الأسبرين » ، ولكنه نسى أن يبتلعه ، واعتقد أنه أخذه ، وشعر فعلا بالدفء والانتشاء الذى يصاحب أخذ «الأسبرين» ، واكتشف بعد ذلك أن « الأسبرين » ما زال كما هو بجيبه .

وحادث آخر لشخص كان مصابا بالربو (Asthma) ، وكان يسكن بأحد الفنادق فاستيقظ بالليل ضيق الصدر ، شاعرا بالحاجة الى هواء نقى ، فقام يتلمس مفتاح النور فلم يعثر عليه ، فأخذ يتلمس مكان النافذة ، وأخيرا أحس بملمس الزجاج ، فحاول فتحه فلم يتمكن ، فدفعه بيده بعد أن وقاها بملابسه وكسره وأخذ نفسا عميقا ، واستراح مما كان عنده من ضيق ، ونام هادئا مسرورا . واستيقظ فى الصباح فوجد أن زجاج النافذة ما زال مغلقا وأن الذى كسره هو زجاج ساعة كبيرة معلقة فى الحائط . وأنه لم يستنشق فى واقع الأمر ما ظن أنه استنشقه من هواء نقى[1] .

خاتمة :

بحثنا فى هذا الفصل أهم النواحى التى توضح وجود علاقة بين الحياة الجسمية والحياة العقلية للفرد ، ووجدنا أن من اللازم عند دراستنا لمشكلات الصحة العقلية أن ندرس الناحية الجسمية دراسة مستفيضة . فكثير من الأعراض الجسمية يمكن أن نعثر له على عوامل عقلية . وكذلك الأعراض العقلية يمكن فى كثير من الحالات أن نعثر لها على عوامل جسمية .

(1) Recs : The Health of the Mind p. 78.

المراجع

Aveling : Personality and Will.
Bannister : Psychology and Health. Ch. XIII & XIV.
Berman : The Glands Regulating Personality.
Berman : The Personal Equation.
C. Bloor : Temperament.
Bode : How We Learn.
C. Burt : The Young Delinquent. Ch. V & VI.
C. Burt : The Backward Child. Ch. VI & VII.
Cannon : Bodily Changes in Pain, Hunger, Fear and Rage.
Firth : Human Types.
Fox : The Mind and Its Body.
Gordon : Juvenile Delinquency. Ch. VIII.
Joad : The Workings of the Mind.
Kretschmer : Physique and Character.
Mc Dougall : Body and Mind.
McDougall : An Outline of Psychology.
Miller : Types of Mind and Body.
Rees : The Health of the Mind. Ch. II & III.
Shaffer : Psychology of Adjustment.
Starling : Principles of Human Physiology.
Woodworth : Psychology : The Study of Mental Life.

الفصل الرابع

الغرائز والحاجات

مقدمة :

لكى نفهم مشكلات الصحة العقلية — أو مشكلات السلوك بوجه عام — يلزمنا أن نفهم أولا السلوك العادى ، ونتقصى دوافعه والعوامل التى تفسره ، ونقف على تطوراته ، وكيفية تأثره . وتطلق كلمة سلوك على الأفعال التى يأتيها الفرد ويكون لها بالحياة النفسية أو العقلية عنده علاقة ، ولذا تطلق كلمة سلوك عند أغلب علماء النفس الحديثين على السلوك العقلى (Behaviour) ، ولهذا نخرج من حسابنا الأفعال العشوائية والأفعال المنعكسة . والأفعال العشوائية (Random Movements) هى تلك الأفعال الآلية التى نلاحظها فى صغار الأطفال من تحريك اليدين والرجلين حركات مختلفة مستمرة لا يبدو لنا فيها نظام أو توافق . وربما كان لهذا حكمة فى تمرين عضلات الطفل ، وفى ايصاله بالعالم الخارجى عن طريق الاصطدام الذى لابد أن يحصل بين هذه الأعضاء وبين أجزاء العالم الخارجى . وأما الأفعال المنعكسة (Reflex Actions) فهى مجموعة ردود أفعال تصدر عن الانسان بطريقة آلية ثابتة ، ومن أمثلتها انقباض حدقة العين ، وضيق فتحتها بازدياد الضوء الواقع عليها ، واتساعها بقلته ، وكالسعال ، والعطس ، وسيلان اللعاب ، وغير ذلك من الأفعال الآلية . وكل من الأفعال المنعكسة والأفعال العشوائية يمكن أن تتم دون تدخل من الشعور أو الحياة العقلية ، ولكل منها حكمة لا يقصدها الكائن الحى أثناء صدورها منه .

أما ماعدا ذلك من الأفعال فيطلق عليها اسم السلوك العقلى ، وهو يتميز بصفة هامة ، وهى أن الكائن الحى عند قيامه بها يرمى الى تحقيق غرض معين • وهذا الغرض (الموجود فى عقل الكائن الحى) ، والذى يرمى الى تحقيقه يعطيه صفة هامة وهى صفة التلقائية (Spontaneity) ؛ فالانسان أو الكلب أو القط يتحرك من تلقاء نفسه لغرض يرمى الى تحقيقه ؛ كالنزهة، أو اللعب ، أو تناول الطعام ، أو غير ذلك • والكائن الحى يتأثر عادة فى سلوكه بالمؤثرات الخارجية ، ولكن ليس كل ما يقوم به الكائن الحى من سلوك عبارة عن رد آلى للمؤثرات الخارجية • وانما يدل السلوك على أن هناك مجموعة من القوى أو الدوافع أو المحركات التى تدفع الكائن الحى للقيام بسلوك يرمى الى تحقيق غرض معين •

وبالموازنة بين سلوك الانسان وسلوك الحيوان ، وكذلك بالموازنة بين أنواع سلوك الانسان فى مراحل النمو المختلفة وصل علماء النفس الى أن الدوافع الأولية للسلوك واحدة فى الانسان والحيوان الراقى • وهـذه الدوافع فطرية وراثية • والذى سهل كشف هذا هو ما بين سلوك الانسان والحيوان من تشابه لا يصعب ادراكه فى كثير من الأحيان • فالمرء اذا جلس فى حضرة شخص عظيم استشعر الخضوع ، وبدا على عضلاته بعض الترهل ، ولم يجرؤ على رفع صوته أو الاحتداد ، أو تقطيب الوجه ، كذلك الكلب الصغير مثلا فى حضرة الكلب الكبير ، تبدو عليه علامات الذلة والخشوع كتهدل العضلات ، وانخفاض الذيل واختفائه بين الأرجل الخلفية وما الى ذلك • وأما الكلب الكبير فيبدو عليه فى مثل هذا الموقف التيه والتعاظم ؛ كما يختال الانسان ويتيه فى حضرة من هم دونه • وكما أن الأم تهيىء لطفلها المكان والملابس وكل اللوازم قبل الوضع وتعنى به بعد الولادة ، وتحميه من كل خطر تتوقعه ، فكذلك الحمامة ، تعد عشها ، وتهيئه بالقش وتثبته عادة فى مكان آمن بعيد ، ثم ترقد على بيضها ، وتبدى عنايتها الشديدة به ،

وتحنو على صغارها وتدفع عنهم الأذى • وهكذا نجد تشابها كبيرا بين الحيــوان والانسان فى الحالات المعــروفة بالخوف والغضب والجــوع والاجتماع الجنسى والاستطلاع والاستنجاد وغير ذلك •

وهذا النوع من الدراسة التتبعية (Genetic Method) الذى نتتبع به السلوك فى الحيوان بمراتبه المختلفة الى أن نصل الى الانسان ، ونتتبع به سلوك الانسان فى أدوار نموه المختلفة ، أدى الى سهولة كشف الدوافع الفطرية للسلوك •

وتنقسم هذه الدوافع الفطرية بحسب رأى مكدوجل[1] الى نوعين :

(أ) النزعات الفطرية الخاصة أو الغرائز •

(ب) النزعات الفطرية العامة •

الغــرائز :

الغرائز عند الانسان هى ما لديه من استعدادات فطرية تدفعه للقيــام بسلوك خاص اذا ما أدرك نفسه فى موقف أو مجال معين ، ومن الغرائز التى أثبت وجودها مكدوجل ما يأتى :

١ — غريزة الخلاص : وهى استعداد يستثار فى الانسان اذا ما أدرك نفسه فى موقف خطر ، ويشعر ازاءه بانفعال الخوف ، ويرمى اذ ذاك الى تخليص نفسه بالهــرب ، وهذه الغــريزة موجودة بالطبع عنــد الانسان والحيوان ، ولا يتعلمها الكائن الحى ، وتظهر فيه منذ الطفولة •

٢ — غريزة المقاتلة : وهى استعداد يستثار فى الانسان اذا ماأدرك نفسه ازاء عائق يقف فى سبيل تحقيق رغباته ، ويشعر ازاء هذا العائق بشعور الغضب ، وينزع الى تهشيم العائق والتخلص منه عن طريق هجومه عليه

(١) راى مكدوجل هو اكثر الآراء شــيوعا واقواها الى الآن ، ولم نرد أن نتوسع فى التعرض لآراء الآخرين أمثــال ثورنديك والسلوكيين وائمة مدارس التحليل النفسى ومدارس الجشتالت وأمثال شنيدر وترتر وتانسلى وغيرهم لعدم ملاءمة المجال لعرض نقط جدلية ولمناقشة نظرية صرفة •

ومقاتلته اياه . وغريزة المقاتلة موجودة عند الانسان والحيوان ، وتظهر فى الطفل دون أن يعلمه اياها أحد .

٣ — غريزة الوالدية : وانفعالها المصاحب هو الحنو ، وهى تستثار عند ادراك الضعف فى الآخرين وحاجتهم الى المساعدة . وهى تظهر متأخرة عند الانسان ، أى أنها لا تظهر على الأقل فى السنوات الأولى : وتتجه بصورتها الفطرية نحو حماية الذرية ، ولكنها بصورتها المعدلة تتجه الى موضوعات أخرى كالفقراء أو العجزة أو الحيوان أو المجتمع .

٤ — غريزة الاستطلاع : وتستثار اذا وجد الانسان نفسه أمام موقف يهمه ، مألوف منه جزء بالنسبة اليه ، فينزع الى استطلاع بقيته . وهـذه الغريزة هى التى تدفع الأطفال الى العبث بكثير مما يقع تحت ناظرهم .

٥ — غريزة البحث عن الطعام : وهى ظاهرة معروفة عند الكبار والصغار سواء فى ذلك الحيوان أو الانسان ، وتظهر بعد الولادة مباشرة .

٦ — غريزة الاستغاثة : وتظهر عند شعور الانسان بالضعف ، والعجز ، والحاجة الى المعونة ، ومظهرها البدائى الصراخ عند الحيوان والانسان . وتظهر فى الأطفال كذلك دون سابق تعليم .

٧ — غريزة النفور : وتستثار فى الأصل من دخول بعض المواد الغريبة فى الفم ، ولكن يستثيرها فى الكبر منظر مقزز ، أو سلوك شائن .

٨ — الغريزة الجنسية : وغايتها الأصلية هى الاتصال الجنسى المؤدى الى التكاثر وتظهر فى الانسان مكتملة النمو فى دور المراهقة .

٩ — غريزة السيطرة : وتظهر اذا وجد الانسان نفسه فى موقف يشعره بالقوة ، ونشاهدها فى الأطفـال ، وفى الحيوان ، كالخيـل والطاووس ، وغير ذلك .

١٠ — غريزة الخنوع : وتظهر اذا وجد الانسان نفسه فى موقف يشعره

بالعجز ، ويترتب على هذه الغريزة وسابقتها تقسيم الجماعات الى زعماء وتابعين • كما يترتب عليهما — الى حد ما — الشكل الذى تتخذه فكرة المرء عن نفسه •

١١ — غريزة التملك : وغايتها حيازة الأشياء ، وتظهر فى الطفل منذ مد يده للقبض على ما يراه • ولكنها تظهر بصورة قوية فى الأطفال بعد سن الخامسة ، عندما تجد جيوبهم محشوة بمختلف الأشياء • وهى موجودة عند الحيوان وتظهر بوضوح فى السنجاب والنمل • ولو أنها فى الحيوان تخدم — بصورة واضحة — غرائز أخرى كالبحث عن الطعام •

١٢ — غريزة الحل والتركيب ، أو الهدم والبناء : وهى تبدو فى عبث الانسان بيديه بالأشياء لمجرد العبث ، وهى ظاهرة فى الأطفال ، وفى الكبار بدرجة أقل • وقد يقوم نشاط هذه الغريزة بخدمة أغراض غريزة الاستطلاع •

١٣ — الغريزة الاجتماعية : ومظهرها ميل الانسان الى الاجتماع ببنى جنسه وهى بارزة فى الحيوانات الضعيفة كالغنم ، والجاموس ، والطيور غير الجارحة • وهى ضعيفة فى الحيوانات القوية ذات العضلات القوية والمخالب والأنياب الحادة • الا أن انتقال الحيوانات القوية الى حالة الضعف يثير عندها هذه الغريزة •

١٤ — غريزة الضحك : وقد اختلف العلماء فى تفسير الضحك تفسيرا واضحا الا أنهم اتفقوا على أنه سلوك غريزى فى الانسان •

وتوجد بضعة غرائز أخرى يرتبط أغلبها بالحاجات الجسمية العادية كالنوم والتبول وغير ذلك •

واذا حللنا سلوك الانسان فانا نصل فى النهاية الى غريزة أو مجموعة غرائز ؛ فالتدخين مثلا قبل أن يصبح عادة يمكننا أن نقول : ان مصادره هى غرائز السيطرة ، والاجتماعية ، والاستطلاع • فالسيطرة تفسر تدخين الولد

عندما يفعل ذلك خصوصا فى سن المراهقة ويشعر بذلك أنه كبير ، أو يريد أن يعتبر نفسه كبيرا ، وأن التدخين أسلوب يصل به الى مصاف الكبار ، والاجتماعية تفسر كيف أن التدخين أسلوب بسيط للسلوك ، اذا قام به أكثر من فرد واحد فى مكان واحد ، فانه يربطهم بعضهم ببعض . والاستطلاع يفسر كيف أن أول (سيجارة) يدخنها الفرد ، انما يدخنها للاستطلاع ، والتجريب ، ولمعرفة طعم الدخان ، وكيف توقد (السيجارة) ، وكيف تنتهى .. الخ . ويلاحظ أن السيطرة والاجتماعية والاستطلاع كلها هنا دوافع ، أو قوى ، تدفع الانسان للقيام بالتدخين . ولم نقصد فى هذا المقام أن نستكمل تفسير التدخين بعد التعود ، وانما قصدنا الى ذكر أهم الدوافع الأصلية التى تجعل التدخين محببا الى المرء أول الأمر .

والدوافع للسلوك تكون فى أحيان كثيرة دوافع غير مباشرة ؛ فحب العلم والانكباب على طلبه قد يكون حقيقة بدافع الاستطلاع ، وقد يكون من بين الدوافع اليه دافع المقاتلة ، وذلك اذا واجهت المرء مشكلة تتحداه وأراد التغلب عليها . ولكنه قد يكون كذلك بدافع كسب الرزق للبحث عن الطعام ، وبدافع تحسين الذات ، حتى يروق المرء فى نظر شخص آخر يميل اليه ، وفى هذه الحالة قد يكون الدافع الجنسى سببا غير مباشر فى الانكباب على طلب العلم . ونعلم أن العالم الرياضى — نيوتن — كان متأخرا جدا فى سنى دراسته الأولى ، وفى يوم تشاجر مع تلميذ آخر ، وهزم هزيمة منكرة ، فصمم على التغلب على خصمه فى الدراسة . وبالفعل شد عزيمته ، وركز اهتمامه فى الدراسة ، وكان له ما أراد . ومن ثم تدرج من نجاح الى آخر ، حتى وصل الى ما نعرفه عنه من وضع أسس العلوم الرياضية والفلكية الحديثة . فكأن الدافع الأول لنيوتن على العمل والبحث كان مزيجا من دافعى السيطرة والمقاتلة . ليس معنى هذا أن الدافع وحده يفسر تفوق نيوتن ، فلابد مع وجود الدافع من توافر المقدرة على تحقيق غايات هذا الدافع .

لنأخذ مثلا آخر : المدرس الذى يضرب تلميذا ضربا عنيفا ، لأنه لم يؤد واجبه المنزلى • يحس احساسا غامضا بأن عدم أداء الواجب المنزلى مظهر من مظاهر العصيان • وهذا يصطدم مع غريزة السيطرة عند المدرس • وربما يكون عند المدرس احساس غامض آخر بأن عدم أداء الواجب المنزلى قد يؤدى الى تأخر التلميذ ، وهذا بدوره قد يؤدى الى سوء نتيجة الامتحان فى الفصل ، أو سوء تقريرات المفتشين عن المدرس ، مما قد يؤثر — ولو الى حد — فى كسب المدرس لعيشه ، فيصطدم الموقف بذلك — ولو اصطداما جزئيا — بغريزة البحث عن الطعام • أو قد يؤثر فى شعور المدرس بكرامته ، فيصطدم الموقف بذلك مع غريزة السيطرة • هذا مع العلم بأن المدرس لو لجأ الى التفكير المنطقى لسلك سبيلا أخرى •

تدلنا كل هذه الأمثلة على امكان ارجاع سلوك الانسان الى الدوافع الأولية الفطرية المسماة بالغرائز • وهذه الغرائز هى القوى أو المحركات الأساسية للسلوك • وقد أدى كشفها الى تغيير موقف المربى ازاء عمله ، فبعد أن كان الطفل عندما يولد ينظر الى عقله كأنه صفحة بيضاء ، ينقش عليها المربى كل ما يريد ، أصبح من المعروف أنه يولد وعنده قوة تدفعه للقيام بأنواع من السلوك يخدم كل منها غاية حيوية معينة • وبذلك أصبح لدى المربى نقط أساسية يمكنه أن يبدأ منها عند محاولته توجيه الطفل أو تربيته ، أو محاولة فهم سلوكه • وقد أصبح للتربية معنى جديد ، فبعد أن كان المفروض أن يقوم المربى بكل العمل لتكوين الطفل بالصورة التى يريدها ، أصبحت مهمته هى تهيئة الظروف لانماء القوى الموجودة فعلا فى الطفل على أحسن وجه ممكن • وهذه القوى هى الخامات أو المواد الأولية التى تستعمل فى تكوين الفرد فى نواحيه العقلية والخلقية المختلفة •

النزعات الفطرية العامة :

والى جانب الغرائز يقرر علماء النفس وعلى رأسهم مكدوجل أن هناك مجموعة نزعات يسميها بالنزعات الفطرية العامة وهى[1] : —

١ — القابلية للاستهواء Suggestion

٢ — المشاركة الوجدانية Sympathy

٣ — التقليد Imitation

٤ — اللعب Play

والمشاركة الوجدانية هى أن الكائن الحى يشعر بالحالات الانفعالية التى تجرى فى كائن حى آخر من نفس النوع عند ادراكه المظاهر الخارجية لهذه الحالات الانفعالية فاذا سمع الانسان شخصا يضحك ، فانه يشعر بشعور الطرب ، ويضحك أو يبتسم ؛ أى أن شعور الفرح أو الطرب ينتقل من شخص الى آخر ، بعد ادراك الأخير لمظاهر التسلية فى الأول، بسماعه ضحكه أو رؤيته ابتسامه . والمشاركة الوجدانية تزيد بازدياد الرابطة الاجتماعية . وهى نفسها عامل أساسى فى تقوية الروابط الاجتماعية . وتنتقل الانفعالات فى الجماعات الكبيرة أسهل مما تنتقل فى الجماعات الصغيرة ؛ فالنكتة التى تنتقل فى وقت ما من شخص الى شخص واحد فقط لا تثير فى العادة كمية الضحك التى تثيرها اذا سمعها جمهور من خطيب . وكمية الضحك فى هذا الجمهور اذا كانت تربط أفراده علاقة تكون أكثر وأقوى غالبا مما اذا لم توجد بينهم علاقة ما . والجو المنزلى ، أو المدرسى ، الذى تسوده حالة انفعالية ما ؛ كالكآبة أوتقدير الجمال ، أو الكراهية ، أوالحنو ، أوالاعجاب بالعظماء ، أو غير ذلك ، تجد أن من يعيشون به من الصغار يتأثرون به تأثرا سريعا عميقا ، لا سيما اذا كان المصدر الأول لهذه الحالات الانفعالية هو الكبار المهيمنون على هذا الجو . وفى الانسان ما يساعده على التعبير

---

(١) لا يتسع المقام هنا لتفصيل أسباب تسميتها بالنزعات الفطرية العامة ، وسنفصل هذا ان شاء الله فى مناسبة أخرى .

الانفعالى ، كالصراخ ، والضحك وتقطيب الوجه ، والجرى والرقص ، وتحريك اليدين وغير ذلك • وفى زميله الانسان ما يساعده على ادراك هذه التغييرات ، والشعور توا بما وراءها من انفعالات ، مما يؤدى الى تكوين وحدة فى الشعور الانفعالى بين جماعات الناس ، ومما يساعد على فهم الشخص المتأثر للحالة النفسية الداخلية عند الشخص المؤثر •

والتقليد هو انتقال السلوك من كائن حى الى كائن حى آخر يكون غالبا من نفس النوع • فالولد يقلد أبويه فى الكلام ، والمشية ، وأسلوب المعيشة ، وغير ذلك • والمواطنون يقلد بعضهم بعضا فى الملبس ، وطرق التحية ، وأساليب التعامل بوجه عام • وأنواع السلوك التى يقوم بها أفراد أمة نوعان : تقاليد ثابتة كالأديان وأخرى متغيرة كأشكال الملابس • والتقليد يكون مصحوبا بمشاركة وجدانية فى أحيان كثيرة ، أو مصحوبا باعجاب المقلد بالمقلد • ويدفع للتقليد شعور الفرد بالاعجاب بالشخص ، ولهذا نقلد العظماء والكبراء والآباء ، والمدرسين ، أو شعور بالاهتمام بالعمل نفسه ، فاذا رأيت شخصا يقوم بحركة معقدة ، فقد أنزع الى تقليدها لكى أفهمها أو لكى أتقن أداءها ، أو رغبة فى تحقيق الغاية التى يرمى اليها هذا العمل • والصغير شديد التقليد لمن هم أكبر منه لشعوره بأن التقليد يجعله فى مصاف الكبار ، والطفل ميال للسيطرة والنمو •

والقابلية للاستهواء هى استعداد الشخص لتقبل فكرة من آخر مع عدم استيفاء الأسباب المنطقية الكافية لذلك • فيكفى أن نسمع خبرا من حجة فنصدق هذا الخبر ، ويكفى أن نقرأ رأيا فى كتاب، أو خبرا فى جريدة يومية، فنصدقه أو على الأقل نميل الى تصديقه • ويتقبل الأطفال كثيرا من آراء الكبار المحيطين بهم ، ويأخذونها أحيانا عقائد راسخة • فتقبل الطفل لعقيدة والديه، أو لكثير من مبادئهما ، يأتى عن هذا الطريق • ويسهل امتصاص الأفكار من الزعماء ، والقادة ، والآباء، والمعلمين المحبوبين لوجاهة مراكزهم وصيتهم •

وهذه النزعات الثلاث تسمى بالنزعات الاجتماعية ، لأنها تكون أظهر ما يمكن فى المجتمعات • وهى التى تعمل فوق ذلك على تقوية الروابط

الاجتماعيـــة ، وزيادة الانسجام العقلى فى الجماعات • ومن الضرورى الاهتمام بها فى تكوين الوعى الاجتماعى • ومن المهم جدا كذلك مراعاتها فى دراسة الأطفال ، وطرق تربيتهم •

والنزعة الرابعة هى نزعة اللعب ، والفرق الأساسى بين الجد واللعب أن العمل الجدى لا يقصد عادة لذاته ، وانما يقصـد لغاية خارجة عنه • وأما اللعب فانه يقصد لذاته • ولعب الأطفال فى مراحل نموهم المختلفة له وظائف هامة فى حياتهم • ففى اللعب فرصة طيبة للتعبير عن غرائزهم التى لا يعبرون عنهـا التعبير الكافى فى حياتهم الجدية الواقعية • ففى اللعب الايهامى يقوم الطفل بدور المدرس أو الوالد أو الطبيب ، ويسيطر على زملائه كأنهم جميعا أصغر منه • وبذلك يعبرعن السيطرة التى لا تتاح له الفرصة فى الحياة الواقعية لأن يعبر عنها تعبيرا كافيا • وفى اللعب فرصة طيبة يستغلها الفرد ليمرن عضلاته ويمرن عقله ويمرن نفسه على فهم غيره ، وعلى حسن الاتصال به • وقصارى القول يمكن أن يمرن الفرد — عن طريق اللعب — قواه واستعداداته كلها للحياة المستقبلة •

وهذه النزعات الأربع كلها نزعات فطرية ؛ الثلاث الأولى منها كما قلنا اجتماعية•أما اللعب فانه يمكن أن يكون فرديا ، ويمكن أن يكون اجتماعيا• ويضاف الى ذلك أن التقليد ، والمشاركة ، واللعب كلها موجودة لدى الحيوان بشكل واضح • وأما القـابلية للاستهواء فانهـا يغلب أن تكون لدى الانسان فقط •

ويضيف بعض علماء النفس نزعة فطرية خامسة وهى الميل للتكرار ، وبنوع خاص التكرار الايقاعى(Rhythm)• والذين يلاحظون الأطفال يجدون أنهم يكررون قذف كرة مثلا مئات من المرات،أو النطق بكلمة ما أو بصوت ما مرات عديدة كذلك • ويعلل هذا الميل للتكرار بأنه يؤدى الى سهولة الأداء، وبذا تصحبه لذة السيطرة والشعور بالقدرة • فقيام الطفل بحركة ما ، ورغبته فى اتقانها ، تدفعه الى تكرارها • والنجاح فى الاتقان يدفعه الى تكرار الحركة• ولا مانع من اعتبار الميل للتكرار نزعة عامة خامسة أو اعتبارها داخلة فى

النزعة للعب • ويمكن أن تفسر بالميل للتكرار المنتظم ميل الأطفال الى الرقص والموسيقى والرسم الزخرفى البسيط وما الى ذلك •

وقد اختلف علماء النفس فى تقسيمهم للنزعات الفطرية اختلافات كبيرة• فقد أكد فرويد (Freud) مثلا أن الغريزة الجنسية هى مصدر الطاقة البشرية• ولكن فرويد توسع فى معنى الغريزة الجنسية توسعا أخرجها عن معناها المعروف • ففى رأيه أن كل لذة أو سرور انما مصدره الغريزة الجنسية ، التى تبدأ تعمل بصورة ما منذ الولادة • ففى رأى فرويد أن التلذذ من الامتصاص ، ومن التبرز ، والتبول ، والاحتضان ، — وكلها تحدث فى السنة الأولى — انما هو تلذذ جنسي • ويوجه الى هذا الرأى اعتراضات وجيهة ، لعل أهمها الرأى القائل بأن هذه العمليات لها قيمة بيولوجية هامة• وعلى ذلك فانها يجب أن تكون لذيذة حتى تتم على وجه مفيد • فتناول الطعام ومضغه لذيذ ما دام الانسان جائعا لقيامه بسد حاجة بيولوجية • فاذا ما شبع الانسان قد تصبح أشهى أنواع الأطعمة مقززة ممجوجة • هذا الرأى قال به سبنسر (Spencer) • وأخـذه عنـه من علماء النفس الحاليين كثيرون أمثال هادفيلد[1] (Hadfield) • واعتراض آخر أن تفسير فرويد[2] وأتباعه لأنواع السلوك بالغريزة الجنسية يستلزم كثيرا من اللف والدوران، فليس من السهل أن تفسر ميل شخص للعلوم الرياضية وعدم ميله للعلوم اللغوية مثلا على أساس الغريزة الجنسية بتفسيرات قريبة المنال •

ومن الآراء التى ظهرت فى هذا الميدان وأصبح لها شأن كبير رأى آدلر (Adler) الذى يعتقد أن الدافع الوحيد لدى الانسان فى كل أنواع سلوكه هو دافع السيطرة • وهذا الرأى شبيه بسابقه فى أنه يصدق فى حالات كثيرة، ولكن تفسيره لكل أنواع السلوك بدافع واحد وهو السيطرة يبدو فى كثير من الأحيان صناعيا متكلفا •

---

(١) محاضرات الدكتور هادفيلد فى الصحة العقلية لطلبة جامعة لندن سنة ١٩٣٣ •

(٢) لا يقلل هذا النقد من قيمة فرويد فهو كما سماه مكدوجل — وهو من أكبر ناقديه — أكبر عالم نفسى ظهر بعد أرسطو .

ومن الاتجاهات المتطرفة اتجاه « ثورنديك » وأتباعه الذين يؤمنون بالسلوك الغريزى (Instinctive Behaviour) ويهملون فكرة الغرائز • وبذلك يضعون قوائم مطولة تصل أحيانا الى ما يقرب من المـــائة • وكذلك اتجاه « ديوى » ، «وينج» وأمثالهما وهم لايتعرضون لأى تقسيم ؛ بل يتكلمون عن الطاقة الحيوية العامة • وبذلك يبدون أشد احتياطا من غيرهم •

وقيمة الرأى الذى أثبتناه وهو رأى مكدوجل تنحصر فى أنه عملى من الناحية التطبيقية • فقد ثبت فى ميادين التربية أن من المفيد الاعتراف بغرائز مكدوجل ومحاولة توجيهها ، ومن المفيد استغلالها فى تفسير السلوك سواء فى ذلك سلوك العاديين أو سلوك الشواذ[1] •

الحاجات النفسية :

وقد وجد بعض المشتغلين بدراسة الأطفال فى العيادات السيكولوجية أن الغرائز وان كانت تفسر سلوك الأطفال،الاأنه لا يسهل دائما لمس غاياتها وادراكها • ووصلوا الى تفسيرات أخرى أكثر وضوحا وأكثر لمسا من الغرائز، وسموها بالحاجات النفســية (Psychological Needs) فالطفل يعبث مثلا بما يحيط به من الأشياء ، ويرى مكدوجل أن الذى يدفعه الى ذلك هو الميل للاستطلاع ، والميل للحل والتركيب والميل للعب • ولكن أصحاب فكرة الحاجات يقولون ان الطفل يرغب فى الشعور بالأمن فى بيئته التى يتعامل معها • ومما يزيد شعوره بالأمن الوقوف على أسرار هذه البيئة • ولذا نجده دائم البحث فى محتوياتها • والذين رأوا تفسير ســلوك الأطفال بالحاجات اختلفوا فى عدد هذه الحاجات وأسمائها •

وفى نظر بعض الباحثين توجد ثلاث حاجات أساسية[2] وهى :

١ — الحاجة للنمو Growing up

٢ — الحاجة الى أن يكون للفرد ميول Loving

٣ — الحاجة الى أن يكون الفرد نفسه موضوع ميل Being Loved أو حب من الآخرين •

---

(1) Is the Instinct Theory Dead ?; A Symposium; Brit. Journ. of Ed. Psych. 1940-1943

(2) Miller : Advances in Understanding the Child, ch. I.

والمقصود بالحاجة للنمو هو النمو من جميع النواحى ، فهناك النمو الجسمى ، ونمو المعرفة ، وغير ذلك . ويمكن أن تفسر الحاجة للنمو بغرائز عدة : كالبحث عن الطعام ، وغريزة حب الاستطلاع ،وغريزة الحل والتركيب ، وغير ذلك .

وأما حاجة المرء لأن يكون له ميول ، فانها تبدو فى رغبة الطفل فى تكوين الأصدقاء ، وفى تكوين الهوايات ، وغير ذلك . وأما الحاجة الى أن يكون هو موضوع ميل ، فمعناها أن يكون محبوبا من والديه وزملائه ،ورؤسائه ، ومرءوسيه ، ومواطنيه ، وغيرهم ممن يتعامل معهم . ولا شك أنها أيضا حاجة أساسية يمكن تفسيرها بالغريزة الاجتماعية والسيطرة وما الى ذلك . والذين يدرسون الحالات الفردية ذات المشكلات السلوكية يمكنهم استغلال هذه الحاجات الثلاث فى فهم سلوك الأطفال ومحاولة توجيههم الى السلوك السوى .

ويرى بعض الباحثين أن الحاجات الأساسية اثنتان : وهما الحاجة للأمن ، والحاجة للمخاطرة ، وهاتان النزعتان ظاهرتان فى المجتمع . فالمجتمع يبدو كأن فيه قوة للمحافظة ، أو صون التقاليد ، وأخرى للتجديد ، والابتداع ، والمخاطرة . وهاتان القوتان تتنازعان المجتمعات والأفراد بشكل واضح . ويمكن تفسيرهما وتفسير ظواهرهما على أساس الغرائز التى وضع قائمتها مكدوجل . ويسهل علينا أن نتبين فى سلوك الأطفال تعبيرا عن هاتين الحاجتين . فبحث الطفل عن الطعام ، والتصاقه بوالديه وهربه من الخطر ، واجتماعه بزملائه ، انما هو اتجاه نحو الأمن . وأما اتجاه الطفل الى المقاتلة ، وحل الأشياء وتركيبها ، والتجول ، فانه اتجاه نحو المخاطرة . ويرى بعض الباحثين أنه يمكن الاستغناء عن التفسير المبنى على الحاجة للمخاطرة ، واعتبارها نتيجة للشعور بالأمن . فالميل للمخاطرة يزداد ويبرز اذا ازداد توافر الشعور بالأمن . فالطفل الذى يهاجم غيره انما يفعل ذلك لوثوقه من قوته . والفرد الذى يكسب عيشه من عمل معين ، لا يقدم بجرأة على الاستقالة منه عادة الا اذا وثق من عمل آخر أو من احتمال وجود مورد

آخر للرزق • أى أن الحاجة للأمن هى الحاجة الأساسية فى نظر هؤلاء الباحثين • ومن المفيد تذكر هذه الحقيقة فى تربية الأطفال ؛ وهى أن الصغير لايشعر بالاطمئنان الذى يساعده على معالجة المشكلات الصعبة — مما يساعده على التقدم المدرسى — الا اذا كان متقنا للمبادىء الأساسية واثقا من نفسه فيها • ولايجرؤ على الاتصال الاجتماعى الناجح الا اذا كان مطمئنا الى مقدرته على ذلك اطمئنانا مشتقا من فكرته عن نفسه فى المواقف الاجتماعية السابقة • ويلاحظ أن الشعور بالأمن يترتب عليه النزوع للمخاطرة ؛ ونجاح هذه يكسب الشخص ثقة فى نفسه ، مما يزيد من ميله للمخاطرة ، وهكذا مما يبين أن المخاطرة والأمن يمكن النظر اليهما كحلقة متصلة الأجزاء يؤثر كل منها فى الآخر •

ومع وجود هذه العلاقات يعتبر بعض الباحثين أن اختزال الحاجات كلها الى الحاجة بالأمن فقط يجعلها غير مفيدة من الناحية العملية الشاملة لنواحى فهم السلوك ومحاولة توجيهه فى الفرد[1] •

ولهذا أيضا تقسيم آخر أكثر تفصيلا وأكبر فائدة من الناحية العملية ؛ سواء فى ذلك التفسير أو العلاج ، وتبعا لهذا التقسيم تكون الحاجات الأساسية ستا وهى :

١ — الحاجة للأمن Security
٢ — الحاجة للمحبة Affection
٣ — الحاجة للتقدير Recognition
٤ — الحاجة للحرية Freedom
٥ — الحاجة الى النجاح Success
٦ — الحاجة الى سلطة ضابطة أو موجهة Control

(١) ولكن من المفيد أيضا فى بعض الأحيان اختزال جميع الاتجهات النفسية الى اتجاه واحد فأساس الاصلاح الاجتماعى الأمن الاجتماعى • فاذا اطمان الفرد فى المجتمع الى قضاء حاجاته الأولية أمكن اعتبار أساس التقدم الاجتماعى ثابتا • وفكرة الأمن هى أساس اتجاه الأوضاع الاجتماعية الحديثة القومية منها والفردية • ويمكن أن تقوم الدراسة المقارنة بين النظم الرأسمالية المتطرفة وغيرها أو بين النظم الديمقراطية وغيرها حول فكرة واحدة وهى فكرة « الأمن » وما مشروع بفردج الذى ظهر فى انجلترا أخيرا الا قائم حول فكرة واحدة وهى مقدار « الأمن » الذى تقدمه الدولة للفرد •

والحاجة للأمن تبدو فى النواحى الجسمية والعقلية • فالطفل يريد أن يأوى الى والدته ويريد أن يتغذى،ويريد أن يأمن من البرد والحر وغير ذلك• والحاجة الى الأمن العقلى تبدو فى خوف الطفل من كل غريب ، ورغبته فى فحصه ، ومعرفته اذا أمكن ، حتى يتيسر له — بناء على معرفته به — أن يطمئن اليه ، أو يبتعد عنه نهائيا • فالرغبة فى الأمن رغبة كيدة ، ولا يتقدم الطفل بسهولة — فى ميدان ما — الا اذا اطمأن اليه ، وشعر بالأمن نتيجة لفهمه الموقف • وفقدان الأمن يترتب عليه القلق والخوف وعدم الاستقرار• وقد يترتب عليه تكوين الكراهية لمصدر الفقدان وتوجيه النزعات الاعتدائية اليه •

وأما الحاجة للمحبة فتبدو فى أن الطفل يريد أن يشبع من حب أمه وحب من حوله له ، ويريد كذلك أن يعبر لهم عن حبه نحوهم ، ويخطىء بعض الآباء اذ يربون أولادهم تربية يظنون أنها مبنية على العقل والمنطق • وقد تكون فى الواقع مؤسسة على مجموعة من القواعد الجافة الخالية من كل لون • بينما يريد الطفل أن يشعر شعورا كاملا بحبه لوالديه ، وبحب والديه له • وهذا أحد أسباب أفضلية التغذية الطبيعية مثلا من ثدى الأم على التغذية الصناعية • ففى الأولى تحضن الأم طفلها ، ويتمتع الطفل بأمرين : هما الغذاء والحنان • وأما التغذية الصناعية فانها تخلو غالبا من شعور الطفل بحنان أمه ، ولذا يحسن فى حالة الأطفال الذين تضطرهم ظروفهم الى تغذية صناعية أن تحملهم أمهاتهم عند تغذيتهم الى صدورهن ، وأن يضعنهم فى الوضع الخاص الذى ينصح به أطباء الأطفال [1] •

وسنجد أن كثيرا من الحالات كحالات السرقة أو الهروب من المنزل سببها جفاف الآباء وخلو الجو المنزلى من العطف •

وأما الحاجة الى التقدير فانها تبدو فى شغف الأطفال لأن يعترف بهم ، ويعاملوا كأفراد لهم قيمتهم • فاذا كلمنا الطفل فيحسن أن نلتفت اليه ، ولا نقدم عليه غيره فى كل مرة أو نهمله • ويستحسن أن نثق به ، ونكل اليه

(١) راجع مؤلفات الدكتور خليل عبد الخالق والدكتور مصطفى الديوانى

أعمالا تشعره بقيمته عندنا وتشعره بقيمته فى نظر نفسه • وحاجة الكبير لتقدير المجتمع الذى ينتمى اليه تلعب دورا هاما فى تصرفاته •

وميل الطفل الى الحرية يبدو فى أبسط صورة من غضبه اذا قيدنا حركاته ومن شغفه باللعب ، والتسلق ، والتزحلق ، والجرى ، وميله للحرية فى الحركة • ويتبعه ميله لحرية التعبير ، وحرية الكلام ، وحرية التفكير • والحرية من العوامل الهامة التى تساعد على النمو ، غير أننا نلفت النظر الى أن الطفل يتضايق من الحرية التامة • فهو يود أن يعلم من آن الى آخر حدوده وما يراد منه عمله • ويريد أن يكون متأكدا من سلوكه ان كان يوافقه عليه الغير أم لا • ومن هذا ينشأ الميل الى عامل موجه أو سلطة ضابطة ، ترشد الطفل وتوجهه ، ولكنها لاتقيده بقيود جامدة ، تحد من حرية نموه • وتلعب هاتان الحاجتان دورا هاما فى علاقة الأفراد الكبار بما ينتمون اليه من مجتمعات •

كذلك يميل الطفل للنجاح ، ويتطلع له • والنجاح هو الذى يجعله يثق بنفسه ويشعر بالأمن ، ويقوم بمحاولات أخرى لتحسين سلوكه • فالنجاح فى أول خطوة يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشى هو الذى يدفعه الى محاولات أخرى • ويتضاعف معنى هذا النجاح عنده اذا شجعه من حوله وأظهروا سرورهم به • ولذا لا يجوز وضع الطفل فى مجال يتكرر شعوره بفشل محاولاته فيه • ولا يجوز أن نحفز الطفل للوصول الى مستوى بعيد عنه بحيث يتكرر فشله فى محاولة الوصول الى هذا المستوى •

وهذه الحاجات التى ذكرناها ليست مقصورة على الأطفال وانما هى تفسر بسهولة سلوك الكبار والأطفال على السواء • وكل ما تمتاز به الحاجات عن الغرائز هى سهولة استغلالها فى تفسير السلوك وتوجيه العلاج ، ولكن لنتذكر أن الحاجات ليست مصادر أولية للسلوك ، وانما يمكن تفسيرها بالغرائز التى تعتبر المنابع الأولى للطاقة البشرية •

الدوافع والقدرات العقلية :

وعلينا أن نميز بين مأرين : وهما الدوافع للسلوك ، والقدرة على أدائه ،

اذ كثيرا ما يتوافر الدافع ولكن لا تتوافر القدرة لتحقيق هذا الدافع . ففرق بين الدافع للمقاتلة والقدرة على المقاتلة . والدافع للتفوق الدراسى والقدرة على التفوق الدراسى يختلفان كذلك بعضهما عن بعض .

ويمكن أن تشمل القدرات النواحى الجسمية كسرعة العدو والقوة العضلية ، أو القدرات الاحساسية كدقة السمع أو قوة البصر ، أو القدرات العقلية كالقدرة على التفكير أو التذكر أو غير ذلك .

ومن أهم ما يدخل تحت القدرات العقلية الذكاء ، ويعرف بأنه القدرة على تكيف الكائن الحى تكيفا شعوريا للمواقف الجديدة[1] . وقد أجريت تجارب وملاحظات عديدة على حيوانات راقية كالكلاب والقردة ، وعلى حيوانات أقل منها فى مرتبة الرقى ، وثبت منها أن هناك قسطا من الذكاء يزيد كلما ارتقينا مع الكائنات الحية فى سلم التطور .

ومن التجارب المشهورة تلك التى أجراها كهلر Kohler [2] ، ففى تجربة منها تمكن « الشمبانزى » سلطانSultan من أن يصل عصاتين من الغاب بوضع طرف احديهما فى ثقب طرف الأخرى حتى يجعل منها عصا كبيرة ، ويتمكن من احضار موزة بعيدة عنه لم يمكنه احضارها بكل عصا على حدة . فسلوك « الشمبانزى » فى هذه التجربة يدل على الذكاء ، ولكن الذكاء يعمل فى خدمة الغرائز ، فالشمبانزى لجأ الى ذكائه ليحصل على الطعام الذى يندفع الى الحصول عليه بغريزة البحث عن الطعام .

ومن الملاحظات العديدة التى أجريت على الانسان وعلى أنواع الحيوان، يمكن أن يقال : ان الغرائز هى القوى الدافعة ، وأما الذكاء فهو القدرة المرشدة،أى التى ترشد الكائن الحى حتى يحقق الغاية التى يندفع لتحقيقها .

ولا يتسع المجال هنا لتحديد كنه الذكاء ، وحقيقة علاقته بالغرائز . ولكن من المسلم به أن غرائز الانسان — نظرا لوفرة ذكائه واقتداره على

---

(١) « شعوريا » هنا يقصد بها استبعاد التكيف الفسيولوجى الذى يحدث فى المواقف الجديدة كشدة البرودة أو الجوع أو غير ذلك .

(2) Kohler, Mentality of Apes.

الافادة من سابق خبرته — تتعدل كثيرا فى ضوء تجاربه•وتعدلها فىالانسان هو الذى يجعلنا نحكم على أعماله بأنها خير أو شر • بخلاف أعمال الحيوان فاننا فى العادة لا نصدر عليها هـذا النوع من الحكم وذلك لقلة احتمال خضوعها للتعدل •

طرق تعدل الغرائز :

وقد حصر مكدوجل طرق تعدل الغرائز فى أربع[1] وهى :—

١ — تعدل من ناحية المثير ، فبعد أن كانت الغريزة تستثار بمثيرات فطرية تصبح استثارتها ممكنة بموضوعات أخرى غير المثيرات الفطرية • وكذلك قد تفقد بعض المثيرات الفطرية قدرتها على اثارة الغرائز •

٢ — تعدل من الناحية النزوعيـة ، وبعبارة أدق من ناحيـة أسلوب السلوك الذى يحقق الغرض الغريزى •

٣ — تعدل بسبب استثارة غرائز مختلفة فى وقت واحد •

٤ — تعدل ناشىء من تنظيم الغرائز وانفعالاتها حول موضوعاتمعينة لتكوين ما يسمى بالعواطف •

وسنشرح الآن الطرق الثلاث الأولى ، أما الطريقة الرابعة فسنعالجها فى الفصل القادم •

الطريقة الأولى :

نلاحظ فى كثير من الأحيان أن بعض ما كان يستثير الغريزة قد تضعف قدرته على استثارتها • فالصوت العالى مثير طبيعى لغريزة الخلاص وانفعال الخوف • ويستثار الخوف بالأصوات العالية سواء أكان مقترنا بخطر يؤذى الفرد أو لا يؤذيه • ولكن قـد يتعلم الفرد بالتجربة أن الصـوت العالى غير مقترن بخطر فيسمعه دون خوف كما يحدث فى المحاجر والمنـاجم • كذلك الدواب التى تعيش فى القرى يبدو عليها الخوف عند أول حضورها الى المدينة وتعرضها لحركة السيارات السريعة وأصواتها العالية • ولكن

(1) Mc Dougall; Social psychology p. 27.

بتعود الدواب السير فى المدينة تفقد سرعة حركة السيارات وما تصدره من الأصوات العالية مقدرتها على اثارة الخوف .

كذلك يحدث أن الموضوعات التى لم تكن تثير غريزة ما تصبح قادرة على اثارتها . فالمعلم بطبيعة كونه انسانا لايثير الخوف فى الطفل ، ولكن ان كان المعلم يضرب الطفل يصير مثيرا للخوف . ذلك لأن الضرب يثير الخوف ، والمعلم يقترن فىذهن التلميذ بالضرب فيصيرالمعلم مثيرا للخوف.

فاستثارة الغريزة تتعدل عن طريق الترابط بنوعيه ، وهما : الترابط بالاقتران ، والترابط بالتشابه . ومن أمثلة الترابط بالاقتران ماذكرناه من اقتران المعلم بالضرب فى ذهن الطفل . ومن أمثلة الترابط بالتشابه خوف الطفل من كل شخص يرتدى كسوة رسمية سواء آكان من رجال المطافىء أو البريد أو غير ذلك لأنه سبق له أن خاف من شرطى . وهناك مثال آخر لطفل خاف عند رؤيته رجلا أسود لأنه كان يخاف الظلام ، وصرح فعلا بأنه يخاف الرجل الأسود لأنه خرج له من الظلام .

ويلاحظ أن ادراك علاقة التشابه عملية عقلية خاصة بالحيوان الراقى . والانسان بحكم رقيه قادر على ادراك علاقات تشابه دقيقة ومتعددة . وهذا مما يجعل احتمال تعدل غرائز الأنسان كبيراجدا ؛ فقدرته علىالربط عن طريق التشابه تفتح أمامه ميادين واسعة لتعديل غرائزه .

الطريقة الثانية :

وأما النوع الثانى من التعدل وهو الخاص بالناحية النزوعية وبالطريقة التنفيذية لهذه الناحية النزوعية فانه واضح فى حياة الانسان . لنأخذ لذلك مثالا غريزة المقاتلة . يثير هذه الغريزة كل ما يقف فى سبيل تحقيق الغرائز الأخرى . فاذا دفع الجوع بحيوان الى البحث عن طعام ثم وجده ، وقبل أن يتناوله اختطفه منه حيوان آخر ، فان الحيوان الأول يغضب ويثور وينقض على الحيوان الثانى لضربه وعضه ومقاتلته اذا تمكن منه . كذلك الطفل الصغير قد يثور ويضرب ويعض من يمنعه عن لعبته . ولكن بحكم الخبرة الشخصية وبالتوجيه يتعلم أساليب أخرى لتحقيق أغراضه . ومن

أساليب المقاتلة المكتسبة غير الفطرية السب ، والهجاء ، وتدبير المؤامرات ، والايقاع وترويج الشائعات ، وحرب الأعصاب ، وغير ذلك .

ويمكن أن يخضع الأسلوب الذى يتبعه الفرد لتحقيق غاياته الغريزية لتعديلات متعددة ، فاشباع غريزة البحث عن الطعام يمكن أن يتم بأساليب متعددة ، بعضها فطرى وبعضها مكتسب ، كذلك موقف المرء ازاء حق انتزع منه يمكن أن يتخذ اتجاه المقاتلة ، ويمكن أن يتخذ اتجاه الاستعانة بالسلطة الحاكمة وغير ذلك .

وأساس هذا النوع من التعديل أن أسلوب السلوك الذى ينجح فى تحقيق الغاية الغريزية يثبت ، وأما ماعداه فانه ينمحى . لهذا كان السلوك الفطرى فى بعض الأحيان غير ناجح لأنه يتعرض فى البيئة المحيطة به لعوامل تجعله فاشلا . لهذا ينمحى ويحل محله أسلوب آخر أكثر منه نجاحا .

الطريقة الثالثة :

أما الطريقــة الثالثة فهى تعدل الغريزة بسبب استثارة غرائز أخرى فى نفس الوقت . فاذا رأى شخص جائع طعاما مغريا ليس له فيه حق ولكنه فى متناول يده فان غريزة البحث عن الطعام تدفعه لتناوله ؛ ولكن الخوف يمنعه — أى أن غريزة الهرب قد تدفعه الى الكف عن ذلك خوفا مما يقع عليه من عقاب — ولهذا يتردد فى تلبية دافع البحث عن الطعام بسبب استثارة الدافع الغريزى الآخر . كذلك اذا اقترف طفل صغير جرما ما ؛ فان هذا قد يستثير فى الوالد انفعال الغضب وغريزة المقاتلة ، ولكن قد يمنعه من ايقاع العقوبة استثارة الحنو وغريزة الوالدية . فبدلا من أن يضرب الوالد ابنه يكتفى بتوبيخه والتوبيخ أخف من الضرب والذى خفف من حدة المقاتلة ظهور الوالدية فى نفس اللحظة .

الاعلاء والقلب :

سبق أن أشرنا الى أن امكان تعدل الغرائز عند الانسان هو الذى يجعلنا نحكم على سلوكه بأنه خير أو شر . وتوجيه الطاقة الغريزية فى اتجاه راق

صالح يقره المجتمع يسمى اعلاء أو تصعيدا للغريزة • فبدلا من سير الغريزة فى المسالك الطبيعية غير المهذبة تسير فى مسالك راقية •

والذين يعملون مع الناشئين يحاولون فى كثير من الأحيان تشخيص الشذوذ على أنه ناشىء عن انحراف فى بعض النواحى الغريزية • فغريزة حب السيطرة قد يظهر شذوذها فى محاولة احتقار النظم القائمة وعدم تنفيذ الأوامر المدرسية ، ومعاكسة الزملاء ، والحط من قيمتهم وغير ذلك • وقد تسهل معالجة هؤلاء الأطفال اذا أسند اليهم جانب من حفظ النظام، وأصبحوا مسئولين عن بعض اخوانهم الضعفاء ، واذا اقتنعوا بأن السيطرة عن طريق الآداب العالية ، ودماثة الخلق ، والتفوق الدراسى هى السيطرة ذات القيمة الحقيقية • بهذا نكون قد حولنا المجرى الغريزى الى مجرى راق صالح لكل من الفرد والمجتمع ، ويسمى هذا التحويل اعلاء •

وكل غريزة من الغرائز يمكن توجيهها فى مسلك اجتماعى صالح • فالغريزة الاجتماعية يمكن أن تكون أساسا للتنظيم الاجتماعى • وغريزة المقاتلة يمكن أن تتجه لمقاتلة المفاسد ومحاربة الأمراض وغير ذلك •

وقد أخذت كلمة الاعلاء عند فرويد وأنصاره معنى خاصا لا مجال لاثباته فى هذا المقام •

وأما اذا كان المجرى الذى يسير فيه السلوك الغريزى مضادا لصالح المجتمع ولصالح الفرد فان هذا النوع من التحويل يسمى قلبا (Perversion) ومن أمثلة القلب تخريب ممتلكات الغير فى حالة المقاتلة أو الحل والتركيب ، وكالسرقة فى حالة حب التملك ، والاستهزاء بالناس واحتقارهم لاشباع حب السيطرة ، ومزاولة العادة السرية وما شابهها لاشباع الغريزة الجنسية•

ويطلق القلب عادة على الحالات الشاذة•ومن الأمثلة البارزة لها شخص يغسل يديه على فترات متقاربة جدا ، ويطلب أن يغسل كل ما يقدم اليه ، ولا يقرأ كتبا تناولها الغير بأيديهم الا اذا مسح غلافها بمادة مطهرة ، وهو لايقرأ الجريدة ، ولايصافح الناس ، وان اضطر لمصافحتهم غسل يديه مرارا وتكرارا بعد ذلك • وهو لا يتسلم نقودا من شخص آخر الا بعد غسلها

بالماء والصابون قبل أن تمس جيوبه ويخلق له هذا الأتجاه مشكلات متعددة فى حالة النقود غير المعدنية وعنده لكل موقف حلول خاصة ٠ هذا السلوك قلب فى غريزة التقزز وفى غريزة الخوف كذلك ٠ ويرجعه أصحاب مدارس التحليل النفسى الى قلب فى الغريزة الجنسية ومتعلقاتها ٠

الابدال :

وهناك اتجاه آخر يؤخذ ازاء الغرائز — ولو أنه لايتناولها مباشرة — ويسمى الابدال ٠ ومعناه أن تشغل وقت الفرد بعمل نافع حتى ينصرف عن نشاط غريزى معين ، فالطفل الذى يحاول الحصول على لعبة طفل آخر قد تلهيه عنها بأمر آخر ٠ كذلك الرياضة البدنية وتكوين الميل للمطالعة والموسيقى وغير ذلك يمكن أن تكون كلها ابدالا للغريزة الجنسية فى دور المراهقة ٠

ويحسن على وجه العموم فى حالة صعوبة اعلاء الغريزة أن نعمل على الاقلال من مثيراتها الخارجية ، وأن نثير ميولا أخرى يشغل نشاطها وقت الفرد ، فالغريزة الجنسية مثلا ليس من السهل اعلاؤها ، لأن الاعلاء معناه الارضاء بالطرق التى يوافق عليها المجتمع ٠ وهذا تقابله صعوبات تنشأ من كبر المسافة الزمنية الواقعة بين سنى النضوج الجنسى والنضوج الاقتصادى ٠ لهذا وجب أن تكون فى النشء قبل المراهقة ميول مختلفة يمكن استغلالها لشغل وقت الفراغ عند الناشىء ٠ وهناك حلول أخرى سنعرض لها عند البحث فى التربية الجنسية ٠

خاتمة :

يتبين مما تقدم أنه من المستحسن توجيه الغرائز والحاجات مع مراعاة مسايرتها ، اذ لا يجوز الوقوف فى وجهها ٠ فمهمتنا يجب أن تنصب على اعلاء الغرائز وتوجيهها الوجهة المقبولة ٠ ولا يجوز أن تصبح مهمة المربى محاولة بتر الغرائز والحاجات أو اقتلاعها ٠ فان كان لدينا طفل وبرز عنده الميل للظهور أو لاثبات الذات فعلينا أن نوجه هذا الميل وجهة مقبولة مفيدة للطفل وللمجتمع ٠ من أمثلة ذلك أن بعض الأطفال يؤلفون قصصا عن أعمال

ومخاطرات لم يقوموا بها ، وانما ينسجونها منخيالهم ويقصونها على غيرهم، ويسرهم ما تحدثه فى نفوس سامعيهم من أثر • فبدلا من أن ننهر هؤلاء الأطفال ، نتذكر أنهم انما فعلوا ذلك بدافع قوى ، وهو الميل الى اثبات الذات ، أو الحاجة الي التقدير • وواجبنا اذ ذاك أن نوجههم بطريقة عملية الى القيـــام بعمل حقيقى يمكنهم أن يفخروا به • فبدلا من أن يشبعوا سيطرتهم عن طريق التخيل والكذب يشبعونها عن طريق الحقيقة المطابقة للواقع وهـــذا الطريق يوافق عليه المجتمع ويقره ويعتبره راقيا كالتمثيل والأدب القصصى •

ويجب أن تتذكر أن الاعلاء كحل لمشكلات النشاط الغريزى يمكن أن يكون حلا دائما • وأما الابدال فيحسن اعتباره حلا مؤقتا ، ولكن ليس معنى هذا أن نهمله • ولكل غريزة أو حاجة أوجه خاصة بها من الاعلاء والقلب والابدال •

المراجع

أولا — الاستعدادات الفطرية

Aveling : Personality and Will, ch. VI.
Banks : Conduct and Ability ch, III.
Burt and Others : Is the Instinct Theory Dead, Brit. J. Ed. Psy 1941, 1942
Drever : An Introduction to the Psychology of Education.
Flugel : A Hundred Years of Psychology Part IV ch. VII.
Garnett : The Mind in Action
Heath : How we Behave.
McDougall : Energies of Pen. chs. III, IV, V, VI, & VII.
McDougall : Social Psychology. chs. II, III, & IV.
McDougall : An Outline of Psychology, ch. V.
Murphy : Modern History of Psychology, ch. XX.
Ross : Groundwork of Educational Psychology, ch. IV.
Stout : Groundwork of Psychology : 2nd Ed. chs. XV & XVIII.
Thouless : Social and General Psychology.
Valentine : Psychology of Early Childhood.

ثانيا — الحاجات النفسية

Healy : New Light on Delinquency.
Gates and Others : Educational Psychology, pp. 628—631.
Miller : Advances in Undertstanding the Child.
Miller : The Growing Child and its Problems.
Trow : Educational Psychology.
Valentine : The Difficult Child.

الفصل الخامس

تكامل الشخصية — « العواطف والخلق »

معنى العاطفة :

لا تبقى الدوافع للسلوك عادة بصورها الفطرية ، وانما تنتظم وتتعدل وينتج عنها أحيانا ما يسمى بالعواطف . فالذى يدفع المرء لسلوك خاص مع والده هو عاطفة تكونت مركزها الوالد . والذى يدفع المرء لمحاربة الرذيلة هو عاطفة كراهية الرذيلة .

وتتكون العواطف نتيجة الخبرة المتكررة بموضوعات هذه العواطف . فالطفل بعد ما يولد تظهر انفعالات مختلفة سريعة التغير من لحظة الى أخرى، ويصحب هذه الانفعالات سلوك الصراخ الدال على الغضب أو الخوف ، وسلوك الابتسام الدال على الرضا أو السرور . ونظرا لأن الأم فى السنة الأولى تقوم بقضاء حاجات الطفل الأولية ، فانه يمر فى خبرات متعددة تتكرر فى كل منها الأم . فهى موجودة لديه عند اشباعه ، وموجودة عند ازالة ألم عنه ، وموجودة عند تغطيته ، وموجودة عند تسليته . فكأن ظهور الأم يصحبه عادة عند الطفل ارتياح واشباع لحاجاته وغرائزه المختلفة . وبذلك ترتبط الأم — فى العهد الأول — فى ذهن الطفل بخبرات فى جملتها سارة .

نلاحظ بعدئذ أن الأم اذا بعدت غضب الطفل ، أو خاف وصرخ . واذا ظهرت هلل وفرح ، وعندما يكبر يتألم اذا مرضت ، ويغضب اذا أهينت ، ويحنو عليها اذا ضعفت ، ويسر اذا فرحت . ويتبع هذه الانفعالات — وهى الغضب والخوف والتألم والحنو والسرور — السلوك الملائم الذى يتطلبه

الموقف من دفاع ومساعدة وتمريض ومرح • وفى هذا نقول : ان الطفل تكون لديه عاطفة حب الأم ، أى تكونت لديه عاطفة مركزها الأم • وأصبح لديه استعداد مكتسب يستثار فى مواقف مختلفة تكون الأم عنصرا هاما فيها • ويستتبع هذه الاستثارة الشعور بانفعال يختلف باختلاف الموقف ، والقيام بسلوك معين يختلف كذلك باختلاف الموقف •

انواع العواطف :

والعواطف الرئيسية هى عواطف الحب والكراهية • فالموضوع الذى بتكراره يرتبط بخبرات فى مجموعها سارة تتكون حوله عاطفة حب ، والموضوع الذى بتكراره يرتبط بخبرات فى مجموعها مؤلمة تتكون حوله عاطفة كراهية • ومن العواطف المألوفة فى حياتنا عواطف الاحترام ، وعواطف الاعجاب ، وعواطف الصداقة ، وعواطف الاحتقار ، وغير ذلك • وكل عاطفة يتمركز فيها موضوع معين • فالطفل سرعان ما تتكون عنده عاطفة نحو أمه ، وأخرى نحو أبيه ، وعاطفة نحو كل من اخوته ، وعاطفة نحو لعبته ، وعاطفة نحو كلبه ، أو قطه • • • وهكذا •

والعواطف على وجه العموم مادية ومعنوية فالمادية تتمركز فيها المحسوسات كالأشخاص والأشياء • وأما المعنوية فتتمركز فيها المعنويات • ومن هذه عاطفة حب الجمال ، والصدق ، والشرف ، وكراهية الرذيلة والاستبداد • • • وتتطور العواطف مع نمو الشخص ، ونمو خبرته ، فباتساع دائرة خبرات الشخص تتسع دائرة عواطفه أو ميوله • ففى الأشهر الأولى من حياة الطفل قد تقتصر عاطفة الطفل على أمه ، ثم تتسع فتشمل الأب ، ثم بقية أفراد الأسرة ، ثم الأقارب ، ثم زملاء اللعب • وبعد ذلك قد تتسع فتشمل المدرسة ، فالبلدة ، فالوطن كله • ويصح أن تتسع فتشمل العالم بأسره • والعاطفة نحو العالم بأسره هى أوسع دائرة للعواطف وأرقاها ، وهى عاطفة نحو الانسانية وخيرها عامة •

والعواطف المادية نفسها نوعان : مادية فردية ، ومادية جمعية . فالمادية الفردية تكون نحو فرد . وأما المادية الجمعية ، فانها تكون نحو مجموعة أفراد من نفس النوع عادة . فالمادية الفردية كعاطفة المرء نحو كتاب معين ، أو حيوان معين . والمـادية الجمعية كعاطفـة المرء نحو الكتب عامـة ، أو الحيوانات عامة . والعواطف المادية بنوعيها الفردية والجمعيـة خطوة ضرورية لتكوين العواطف المعنوية السابقة الذكر تكوينا ثابت الأساس . ولهذا التطور فى عواطف الفرد –كما نرى – قيمة كبيرة فى انماء شخصيته وتوسيع مجالاتها .

العواطف وتنظيم الدوافع الفطرية :

العواطف كما رأينا عبارة عن نوع هام من الدوافع المكتسبة للسلوك ، ويترتب على تكوينها تعديل السلوك . وتنظيم الدوافع الفطرية وتوجيهها وجهات معينة مقيدة بقيم تتحدد بعناصر البيئة المحيطة . ويعتبر تكوينها من أهم أنواع ملاءمة عقل الفرد للبيئة التى تحيط به .

والعواطف تكسب الفرد قسطا كبيرا من الثبات والاستقرار ، وتجعلنا قادرين على التنبؤ بسلوكه ، لأن الفرد بعد أن كان قابلا للاتجاه أية وجهة مرتبطة بما يستثير غرائزه ، أصبحت لاتستثار غرائزه الا مرتبطة بموضوعات معينة تهمه ، كالأولاد والعلم والوطنية وأشخاص معينين وأماكن معينة . . وهكذا . . ولنوضح هـذا بمثال : نفرض أن تلميذا ما عوقب من أحد مدرسيه ، فان طريقة مقابلته لهذا العقاب يتحدد اتجاهها بنوع عاطفته نحو المدرس ، فان كان يحب مدرسه تقبل العقاب ، وربما استفاد منه . وأما ان كان يكره المدرس ، تذمر من العقاب ، وثار فى وجهه ، ولم يستفد منه شيئا مهما حسن قصد المدرس . ويمكننا أن نتنبأ بموقف التلميذ اذ ذاك متى عرفنا عواطفه . والقدرة على التنبؤ بسلوك الشخص – فى موقف ما – دليل على ثبوته واستقراره ووحدة اتجاهه .

وتوجد عادة لدى الفرد عاطفة سائدة ، فعاطفة نحو المال ، أو نحو العلم ، أو نحو الوطن أو نحو أولاده ، أو نحو ذاته . واذا وجدت عاطفة سائدة فانها توحد وجهة العواطف والنزعات الغريزية المختلفة . فاذا تصورنا شخصا يحب المال حبا شديدا ، ولا يفضل على ذلك أمرا آخر . فان هذا الشخص يصادق من يساعدونه على ذلك ، ويكره من عداهم ، ويحب أولاده اذا شاركوه اتجاهه ، وساعدوه على تحقيق غاياته ، ويكرههم اذا هم عملوا ضد ما يسيطر على عقله ، ويغضب غضبا شديدا اذا تأخر عليه مدينوه في دفع ما عليهم . وقد لا يغضب لكرامته فى المواقف التى يغضب الناس فيها عادة لكرامتهم ؛ أى أن نشاطه العقلى يسير كله نحو غاية واحدة وهى اشباع عاطفته السائدة .

وفى شخص آخر قد تكون العاطفة السائدة هى عاطفة حب الذات ، فتجد جهوده كلها موجهة نحو ذاته لتعظيمها وارضائها . فهو يحب من يتحدثون عنه بالمدح ، ويعطف عليهم ، ويكرمهم ويكثر من التشدق بالحديث عن نفسه ، وتشتاق نفسه لأن يكون هو مركز الانتباه والاعجاب . وقد يكون مغرما بالتأنق ، واطالة النظر فى المرآة ، أو فى صورة نفسه التى يملأ بها أركان منزله . وقد يكون مغرما برؤية امضائه أو اسمه على الورق أو صورته فى جريدة أو كتاب . وبعبارة أخرى تجد نشاطه موجها نحو ذاته ، وهذا ما يجعله سعيدا . وهذه الظروف نفسها تسبب الضجر والسآمة لفرد آخر عاطفته السائدة تتمركز فى نشر العلم أو نصرة الانسانية ، أو خدمة المجتمع ، أو ما شابه ذلك . فاذا عرفنا العاطفة السائدة عند شخص ما تتمكن من التنبؤ بسلوكه فى مواقف عدة ، لأننا نعرف الاتجاه الموحد الذى تتخذه نزعاته وغرائزه وعواطفه .

والوحدة التى يتصف بها اتجاه النزعات الفطرية والمكتسبة عند الفرد

. دون الخضوع أو احتمال الخضوع للتغير والتناقض سنسميها مبدئيا تكامل الشخصية •

تكامل الشخصية :

العناصر الأولية التى تتكون منها الشخصية هى ما يأتى :ــ

١ ــ الاستعدادات الفطرية المختلفة وما يتكون منها من عواطف وعقد وعادات وغير ذلك •

٢ ــ الصفات الجسمية والمزاجية المختلفة •

٣ ــ القدرات العقلية المختلفة بما فيها من ذكاء وقدرات خاصة فطرية ومكتسبة •

وكل عنصر من هذه العناصر يوجد عند الفرد بقدر معين ، فغريزة المقاتلة مثلا تختلف فى قوتها من شخص الى آخر • وافرازات الغدد وما يترتب عليها تختلف كذلك من شخص الى آخر • وكذلك يختلف الذكاء •

واذا أخذنا أى فرد فيمكننا أن نشبه ما لديه من الاستعدادات الغريزية والمزاجية والعقلية والجسمية ــ الفطرية منها والمكتسبة عن طريق التعامل مع البيئة المادية والاجتماعية ــ بعدد كبير من الأشخاص الذين لا يصح أن نطلق عليهم اسم جماعة ؛ الا اذا ربطتهم بعضهم ببعض رابطة متينة • فالذى يقف عند ملتقى شارعين كبيرين مثلا من شوارع القاهرة ، فانه يلاحظ عادة أنه ليست هناك علاقة خاصة تربط المارة بعضهم ببعض • ولهذا يصعب عليه التنبؤ بما يمكن أن يحدث من هؤلاء الأفراد من سلوك • والسبب فى هذا أن كل فرد يتجه لتحقيق غرض خاص • وتعدد الأغراض لا تتأتى معه وحدة المجموعة ؛ ولكن اذا اتحد غرض هؤلاء الأفراد ، أمكن النظر اليهم كجماعة ، وتعتبر الجماعة قوية أو ضعيفة بقدر ما بين أفرادها من روابط ، وبقدر اتحاد الغرض الذى يرمون الى تحقيقه مجتمعين[1] • كذلك تعتبر

---

(١) راجع الفصل الأول فى معنى الصحة العقلية •

الشخصية قوية ، اذا ارتبطت عناصرها واتجهت لغرض واحد فى الحياة • فان هذا الترابط والتوحيد فى عناصر الشخصية وأغراضها ، يسمى كما قلنا تكامل الشخصية[1] •

وقد يحدث تعارض بين بعض النزعات وبعضها الآخر عند الشخص الواحد ، كما يحدث أحيانا فى الحرب عند بعض الجنود ، الذين يتنازعهم الميل الى المحافظة على حياتهم ، والرغبة فى الظهور بمظهر الوطنى المخلص الذى لا بد له أن يخاطر بنفسه فى ظروف الحرب • فالميل الى المخاطرة يتنازع هنا مع الميل الى المحافظة على الحياة • ويسمى التنازع بين ميلين بالصراع النفسى (Mental Conflict)

الصراع النفسى وعاطفة اعتبار الذات :

وعند حدوث صراع نفسى بين عدد من النزعات — لنفرض أنها على سبيل التبسيط نزعتان مثلا — فان المرء يتردد بينهما ترددا يطول أمده أو يقصر على حسب موقفه من النزعتين • ولا يصل المرء الى حالة سكون أو استقرار ، الا بعد اختفاء احدى النزعتين أو كليهما اختفاء لا اراديا (أى غير مقصود) •

ولمجرد التوضيح نأخذ مثالا بسيطا : لنفرض أن شخصا ما لديه حاجة ملحة شديدة الى النقود ، ولنفرض أن صديقا له أعطاه نقودا ليسلمها لشخص ثالث ، فانه قد يتخذ واحدا من المسالك الثلاثة الآتية [2] :—

١ — يسلم النقود لصاحبها بغير تردد •

٢ — يأخذ النقود لنفسه بغير تردد ، ولا يسلمها ، أو يؤجل تسليمها لما بعد قضاء حاجته •

---

(١) التكامل هنا شبيه بالتكامل الرياضى لأن التكامل فى العلوم الرياضية هو التوحيد بين عدد كبير من العناصر الصغيرة لتكون وحدة كبيرة .

(٢) هذه لا تستنفد كل الاحتمالات وانما تقتصر على الأكثر شيوعا منها .

٣ — يحدث صراع تقع فيه نفسه بين الرغبة فى قضاء حاجته ، والرغبة فى أن يكون أمينا،وينتج عن هذا الصراع تغلب احدى الرغبتين على الأخرى •

فان سلم النقود لصاحبها فهذه لأن فكرته عن نفسه من حيث الأمانة فكرة سامية لا يزعزعها وصول النقود الى يده ، وفكرته عن نفسه فى هذه الحالة توجه سلوكه وجهة معينة •

أما اذا أخذ النقود لنفسه ، فهذا لأن فكرته عن نفسه من حيث الأمانة فكرة ضعيفة أو معدومة •

وأما حدوث الصراع فمعناه وجود قوتين متقاربتين ، يسمح لهما المرء بالوقوف وجها لوجه ، ويكون الحسم فى الموقف عادة بالرجوع الى فكرة المرء عن نفسه ، بأن يقول الشخص لنفسه : هذا لا يليق ، أو هذا لا يتناسب مع الكرامة ، أو غير ذلك •

نجد فى هذا المثال الفرضى أن لدينا نزعتين : احداهما خلقية ، والثانية غريزية ، والفصل بينهما يرجع الى الفكرة عن النفس • وهذه الفكرة عن النفس تعمل صريحة فى حالة التردد والنزاع ولكنها تعمل بطريقة ضمنية فى غير هذه الحالة •

والعاطفة التى مركزها فكرة المرء عن نفسه ، اسمها «عاطفة اعتبار الذات» • وهى التى تستثار فيشعر الانسان بالغضب من نفسه ان فعل أمرا لا يرتضيه لنفسه ، ويشعر بالسرور اذا حقق لنفسه ما يريده لها • • • • الى غير ذلك •

وينظر مكدوجل الى « عاطفة اعتبار الذات » ، على أنها المنظم الأساسى للسلوك ، أو القائد الأعلى لبقية النزعات • وهى التى تتوقف عليهــا قوة الشخصية ، ووحدة أفعالها ، وتكامل نزعاتها •

وفى دراستنا للحالات نحس عادة ما عند الفرد من عواطف سائدة ،

ونحاول أن نختبر قوة عاطفة اعتبار الذات • ففى بعض الحالات كنا نجد أن العاطفة السائدة هى حب الولد « للسينما » ، أو « لركوب العجل » ، أو لفتاة ، أو لوالدته ، أو لنفسه • وكنا نلجأ لهذه العاطفة السائدة ، ونوجهها توجيها حسنا ، أو نستغلها لحسن التوجيه • ففى حالة ولد كان يسرق ليذهب « للسينما » أمكن أن نجد له عملا مربحا فى دار من دور السينما • وفى حالات أخرى كثيرة أمكننا أن نكشف الى أى حد يمكن استغلال عاطفة اعتبار الذات فى توجيه صاحبها الى السلوك الصحيح • فاذا قام بعمل طيب نذكره له ، ونشجعه على مثله • واذا قام بعمل سيىء ، فقد نقول له اننا لم نكن ننتظر عملا كهذا من شخص مثله • وبهذا نقوى فكرته عن نفسه فى الوقت الذى ندفعه ليحجم عن سلوك غير مرغوب فيه • ونستغل نفس العاطفة لدفع صاحبها للقيام بعمل آخر يرتضيه المجتمع ويقدره من أجله •

نشوء عاطفة عتبار الذات :

يتوقف نشوء هذه العاطفة على التفاعلات المستمرة القائمة بين الفرد والمحيطين به • فعاطفة اعتبار الذات تنشأ من أثر الثواب والعقاب ، والمدح والذم ، وعلامات الرضا والاستياء ، ومن التفكير الشخصى أيضا ؛ أى انها نتيجة تفاعل الشخص مع البيئة الاجتماعية • ويمكن أن نفصل نشوءها فى المراحل الأربعة الآتية :—

١ — المستوى الغريزى الذى نجد فيه مواقف بسيطة ، تتعدل باللذة أو بالألم الذى يصحب الفعل الغريزى • وهذا المستوى نجده فى صغار الأطفال ، فالطفل الذى يمسك كل ما تقع عليه يده ، ويضعه فى فمه ، يقلع عن ذلك فى حالة الأشياء التى يجد أن طعمها مر مؤلم ويصر على أكل ما يجده لذيذا حلوا ، فنجد هنا أن الفعل الغريزى يثبت فى الناحية التى تجلب اللذة ويضعف فى الناحية التى تسبب الألم ، وهناك من الأمثلة مالا حصر له •

٢ — المستوى الغريزى الذى يتعدل فيه السلوك بالثواب والعقاب •

وهذان يناظران اللذة والألم اللذين ذكرناهمافى المستوى السابق • فبعدأن يكبر الطفل قليلا عن سنتين نثيبه عادة بقطعة من الحلوى أو بلعبة أو بفسحة ان كان منتظما فى أكله مثلا • لا يطلبه فى غير الميعاد ، ولا يطلب منه أكثر مما يعطى له • ونعاقبه ان فعل غيرذلك ، أو اذاضرب ولدا آخربغير حق •• الى غير ذلك فهنا تتعدل أعمال الطفل عن طريق اللذة والألم ، الصادرين عن الثواب والعقاب اللذين يوقعهما المجتمع المحيط به فيتكيف سلوك الطفل تبعا للتفاعلات التى تقع خاصة بينه وبين المجتمع • وأنواع السلوك التى توجه عادة بالثواب تكون غير محببة بطبيعتها للطفل • وأما أنواع السلوك التى تمنع عاة بالعقاب فانها تكون عادة محببة بطبيعتها[1] •

٣ — والمرحلتان السابقتان ضروريتان للوصول الى المرحلة الثالثة ، وفيها نجد مستوى الأعمال معدلا بالمدح والذم ، أو بعلامات الرضا والغضب أو السخط ، فاثابة الطفل على بعض الأعمال تكون عادة مصحوبة بعبارات المدح وعلامات الرضا • وكـذلك العقاب يكون معه بعض عبارات الذم وعلامات التألم والغضب • ويكفى لبعض الأطفال أن نظهر لهم عدم ارتياحنا ليقلعوا عن بعض الأعمال ، ونبين لهم علامات الاغتباط ، فيستمرون فى أداء بعضها الآخر • وكثير من الأطفال عند شروعهم فى عمل ما ينظرون الى وجوه أهليهم علهم يرون علامات خاصة يسترشدون بهـا للاستمرار فى العمل ، أو الانقطاع عنه • وبعد ذلك يهتم بالسلوك بناء على موافقة الجماعة التى ينتمى اليها ، ونتيجة لكل ما تقدم يحدد الطفل بعض الأعمال بأنها تتفق معه ، والبعض الآخر بأنها لاتتناسب معه • والأولى هى التى كانت تجلب رضاء المجتمع (بمعناه الواسع) ، والثانية هى التى كانت تجلب له سخطه ، ثم يكون الشخص فكرة عن نفسه مشتقة من تفاعلاته مع المجتمع فيرضى لعمل من

---

(١) من هنا نرى بدء فكرة الفصل والكبت مما سنشرحه فى الفصلين التاليين •

الأعمال لأنه يتفق مع فكرته عن نفسه • ولا يرضى عن الآخر لأنه لا ينسجم مع هذه الفكرة (١) •

وهذه المرحلة التى يكون فيها المرء فكرة عن نفسه مشتقة من رضاء المجتمع أو سخطه يقف عندها كثير من الناس فلا ينمون بعدها ولا يعملون الا على ارضاء المجتمع • وهذا يفسر محافظة بعض الناس على بعض العادات والتقاليد رغم اقتناعهم — أثناء مناقشتهم مثلا — بفسادها • فخوفا من سخط الغالبية المحيطة بهم يستبقونها وفكرة هؤلاء فى رضائهم عن أنفسهم مشتقة مباشرة من فكرة رضاء المجتمع عنهم •

٤ — وهناك مستوى أرقى من المستويات الثلاثة السابقة ، وفيه يقوم الانسان بعمله بناء على فكرة خاصة أو تحقيقا لغرض أو مبــدأ خاص ، بصرف النظر عما قد يقع عليه من ثواب أوعقاب أو يتجه اليه من مدح أو ذم وبصرف النظر عن رضاء المجتمع عنه أو غضبه عليه • وهذا ما يتصف به ناشرو المبادىء الدينية ، أو الخلقية ، أو الوطنية • وهم عادة يصممون على السير فى عملهم رغم المقاومة الشديدة التى يلقونها فى بعض الأحيان • ومن بين الأنبياء والفلاسفة وقادة الاصلاح الاجتماعى أمثلة متعددة يسهل ايراد بعضها لمن يريد •

العوامل الاجتماعية فى تكوين الخلق :

وننتقل الآن الى بيان السبب الذى يجعل للعوامل الاجتماعية أثرا فى تكون فكرة المرء عن نفسه • هذه العوامل أولها عامل السلطة ، ويؤثر هذا العامل عن طريق الثواب والعقاب فى ادماج الشخص مع المجتمع • ومن المبادىء الأولية فى نفسية الجماعات ، أن أفراد الجماعة ميالون الى الانسجام

---

(١) كثيرون من الأطفال ، يقول الواحد منهم عن نفسه : انه يفعل هذا لأنه « عفريت » ولأن كل النــاس يقولون عنه انه « عفريت » وفى مثل هذه الحالات يرى الطفل فى نفسه نوعا من البطولة أو المهارة أو المقدرة على مضايقة الناس دون تمكنهم من ايقافه عند حد .

والاندماج مع الغالبية • فيميل المجتمع دائما لأن تكون عناصره متشابهة • ولهذا فهو يميل الى نبذ العناصر التى تشذ عنه • وذلك يفسر كراهية المجتمع للعباقرة ، ونبذه للمعتوهين والمجانين ، كما يدعم المثل القائل « ان الطيور على أشكالها تقع » • فالثواب والعقاب هما أداتان تستعملهما السلطة لمن يشذ عن المجتمع الذى ينتمى اليه حتى تدمجه فيه ، وتجعله ينسجم مع الباقين فى سلوكه وخلقه •

وأما العامل الثانى فهو عامل المشاركة الوجدانية ، وهذه هى النزعة العامة التى تثير فى الناس حالة وجدانية واحدة ، وهى التى تفسر لنا اجتماع الناس لفرح ، واجتماعهم للبكاء فى المآتم ، واجتماعهم للاحتجاج وآظهار التألم والاستياء • فالمشاركة الوجدانية اذن عامل آخر يرمى الى انسجام المجتمع ، وهى من أهم العوامل التى تربط أعضاءه بعضهم ببعض •

فهذان العاملان : عامل السلطة ، والمشاركة الوجدانية هما اللذان يدفعان المرء للاهتمام برأى المجتمع عنه • فالمرء يحب أن يتأكد عادة ان كان مرضيا عنه أم لا ، أى ان كانت لديه المؤهلات الانسجامية أم لا • فان لم يكن حائزا للرضا — الذى هو أهم المؤهلات الانسجامية — كان مهددا بالعقاب أو بالفصل أو بالنبذ •

ولهذا كان سلوك كثير من الناس محددا بهذين العاملين ، وهما اللذان سبق الكلام عنهما فى تكوين فكرة المرء عن نفسه • وفكرة المرء عن نفسه هى التى تعمل على توجيه نزعاته ورغباته ، وهى التى تقوم بتوحيدها — أى بتكاملها •

ولكن عاملى السلطة والمشاركة لا يؤديان الى أعلى مراحل التكامل • فهناك الفلاسفة والعظماء والأنبياء الذين يلاقون من تعذيب السلطةواهاناتها لهم الشىء الكثير ، وهم كثيرا بالاضافة الى ذلك لا يجدون مشاركة فى الشعور ، ولا عطفا من غالبية المجتمع • ومع ذلك فاننا نعتبر أنهم وصلوا

الى أعلى المراحل الخلقية . وهم عادة يشعرون بالسعادة أو بما يسمى راحة الضمير رغم التعذيب ، والاهانة والنقد ، وعدم العطف . ويشعرون بهذه السعادة لاعتقادهم فى صحة آرائهم ، دون الاكتراث بآراء الغير . ويشعرون بالسعادة كذلك متى أدوا رسالتهم أو جاهدوا فى أداء هذه الرسالة التى يشعرون بها ، ويعتقدون فى صحتها .

من ذلك نرى أنه لاستكمال الخلق يجب أن يعمل الفرد على تحقيق مثل أعلى أحيانا فى مستواها المثل التى تحددها المجتمعات ، وذلك للأسباب الآتية :

١ — اهتمام المرء برأى المجتمع فحسب يمكن أن يعتبر دافعا أنانيا غير راق .

٢ — تقاليد المجتمع ومستوياته الخلقية قد تختلف من وسط الى وسط ، وفى الوسط الواحد قد تختلف من وقت الى آخر .

٣ — يسهل على المرء أحيانا أن يخدع المجتمع فيوهمه بأنه شخص طيب الخلق ، جدير برضائه عنه ، وذلك بأن يظهر الشخص غير ما يبطن ، ويبدو أمامه بغير خلقه الحقيقى .

ولهذا السبب الثالث ندرك أثر الاعتقاد فى وجود قوة الهية كبرى ترصد جميع الأعمال وتعلم ما يظهر منها وما يخفى ، وتحاسبنا على نياتنا وضمائرنا ، لا على أعمالنا الخارجية ؛ أى تؤاخذنا بالدوافع الداخلية لا بسلوكنا الخارجى .

وهذه الأسباب الثلاثة فى مجموعها هى التى تحتم وجوب محاولة المرء الانتقال الى مرحلة أعلى من مرحلة رضاء المجتمع عنه . وهذه المرحلة العليا ، ولو أنها تبدو مستقلة عن رأى المجتمع ورضائه ، الا أن الوصول اليها متوقف على العوامل الاجتماعية السابقة الذكر .

ولو أمكن للانسان أن يتجرد من جميع الدوافع الشخصية ، سـواء اهتمامه بالثواب والعقاب ، أو ذم المجتمع ومدحـه ، فانه يكون لنفسه مستوى خاصا به يؤمن به ايمانا راسخا ويحاول تحقيقه • وهذا المستوى الخاص يختلف عند الناس بعضهم عن بعض فالمستوى الذى يأخذ به زعيم يرمى الى تحرير وطنه من انقسام ، أو من استعباد أو غير ذلك ، تجده يوجه جميع نزعاته ورغباته لخدمة هذا الغرض • ولذا نجده يتساهل مع نفسه فى الماديات البسيطة ، كتوافر النقود ، أو التأنق فى الملبس • ونجده لا يهتم بما يقع عليه من عقوبات النفى والسجن • وتجرد زعيم « كغاندى » من هذه الماديات مثلا ، واهتمامه بتحسين حال مواطنيه • أدى الى تقدير الهنود له تقديرا يقرب فى شكله من العبادة • ومثل « غاندى » سعيد فى أى زمان ومكان ، ما دام يعمل ناجحا لتحقيق غايته •

والذين يعملون على افادة أكبر جزء ممكن من المجتمع الانسانى يعتبرون أرقى الشخصيات جميعا ، وهم فى الغالب أقربها الى أعلى درجات التكامل •

ويمكننا أن نقول على وجه التقريب : ان درجة تكامل الشخصية تتناسب تناسبا طرديا مع اتساع دائرة المجتمع الذى يرمى الفرد الى اسعاده • فأقلها تكاملا التى يسعى صاحبها فقط لاسعاد ذاته ؛ اذ لابد أن تتعارض نزعاته الذاتية مع نزعاته الاجتماعية فى تحقيق غاياته الذاتية • ويليها من يسعى صاحبها فقط لاسعاد أسرته وأولاده • ثم يليها من يعمل صاحبها على اسعاد أقاربه • ويليها من يعمل صاحبها على اسعاد هؤلاء وأصدقائه • ويليها من يعمل صاحبها على اسعاد أهل بلده أجمعين • وهكذا الى أن نصل الى من همه الأول والأخير اسعاد المجتمع بأوسع معانيه • وهنا قد نصل الى مرحلة ربما تبدو مجردة كالبحث عن الحقيقة ومناصرة العدل وخدمة الانسانية • وهذا يتفق مع رأى مارشال سمطس[1] فى أن تكامل الشخصية له درجات

---

(1) Quoted by Burnham : The Wholesome Personality p. 7. from Smutts : Holism and Evolution.

التكامل التي يمكن أن يصل اليها الانسان ، والتي يترتب عليها ما يسماه سمطس التوافق والأمن الداخلي (Harmony and Internal peace) ، ولا بد أن نشير هنا الى أن غرض الاسعاد ليس من الضروري أن يكون واضحا صريحا في كل حالة •

رأى فى السعادة :

يرى مكدوجل أنه لفهم معنى السعادة علينا أن نفرق أولا بين معاني كل من اللذة (Pleasure) ، والسرور أو الطرب (Joy) ، والسعادة (Happiness) فهذه المظاهر تمثل فى رأى مكدوجل مراحل تصاعدية لأمر واحد • فاللذة قصيرة المدى وزائلة • وكثيرا ما ترتبط بالناحية المادية الجسمية ، كاللذة الصادرة من المأكل والملبس والمشرب وغير ذلك • وأما السرور فانه أطول مدى ؛ ويتصف بأنه نفسي متصل ببعض العواطف ؛ فالانسان يسر من مقابلة صديق ، أو من شفاء قريب • وأما السعادة فانها أطول عادة فى عمرها من كل من اللذة والسرور ، وقد تستمر مع الشخص مدى حياته • والانسان يسعد عادة لقيامه بواجب يؤمن به • ومتى ظهرت فكرة الواجب الذى يؤمن به الشخص ظهرت فكرة عاطفة اعتبار الذات ؛ أى فكرة أن أداء هذا الواجب يحقق فكرة المرء عن نفسه ، ويشعره بالسعادة تبعا لذلك • فالسعادة نتيجة لتحقيق الذات (Self Realisation) وبعبارة أخرى هى نتيجة لوضع النزعات التى تعتز بها الذات موضع التنفيذ العملى •

من هذا نرى ارتباط فكرة السعادة — بهذا المعنى — بعاطفة اعتبار الذات ، التى هى المنظم الأعلى للشخصية • وعلى ذلك فالسعادة ترتبط بتكامل الشخصية • وهى تنشأ من الوحدة أو التوافق التام الموجود بين نزعات الشخص وعواطفه • ووجود هذه الوحدة يضمن توجيه الطاقة البشرية النابعة بالطبع من الاستعدادات الغريزية لتحقيق غرض واحد أمام الشخص • فالسعادة اذن — حسب رأى مكدوجل — فى تكامل الشخصية[1]

(١) قال مكدوجل فى ص ١٣٤ من كتابه علم النفس الاجتماعى •
Happiness arises from the harmonious operation of all the sentiments of a well-organised and unified personality, in which the principal sentiments support one another in a succession of actions all of which tend towards the same or closely allied and harmonious ends.

ويمكننا الآن أن نتتبع مستويات السعادة من أدناها الى أعلاها : فالطفل مثلا سعادته وقتية ، فهو سعيد اذا كانت حاجته الجسمية ونزعاته الغريزية مشبعة ، بأن يتحقق له الشبع والراحة واللعب وما شابه ذلك . وهذا المستوى من السعادة يصح أن نسميه مستوى اللذة ، وهي وقتية قصيرة العمر . كذلك سعادة الحيوان (ان صح هذا التعبير) نجدها من هذا النوع . وهناك الأشخاص الذين يجدون سعادتهم فى ارضاء لذاتهم الوقتية ، أو عمل ما تعودوه ، فهم مدفوعون بنزعاتهم الفطرية أو الاعتيادية ، لا بمبادىء أو أفكار سامية . وأرقى من ذلك قليلا من لا يجد السعادة الا فى اسعاد أولاده ، فان لم يكن قادرا على ذلك ، أو ان ماتوا جميعا ، أصبح شقيا لا يجد السعادة فى أمر آخر . فكأن هذا النوع من السعادة محدود العمر ، ولا يرتبط بأعلى مراحل التكامل الخلقى . ولكن السعيد حقا هو ذو الشخصية القوية الذى يعمل دائما لتحقيق غرض سام خاص ، والذى لا تتعارض نزعاته مع صالح الانسانية . وربما كان أقرب الأمثال لذلك الأنبياء الذين لم يسعدهم المآكل والملبس ، ولم يشقهم الجوع والطرد والاهانة ، ولم تسعدهم كثرة الأولاد ، ولم يشقهم فقدهم . وانما كان يسعدهم أمر واحد ، وهو الجهاد والسعى لتحقيق الفكرة السامية . وكذلك رجل مثالى « كابراهام لنكولن » الأمريكى الذى قضى قسطا كبيرا من حياته لا يفكر ولا يعمل الا لأمر واحد وهو محو الرق . وقد ضحى بالكثير من رغباته وملذاته الأخرى فى سبيل تحقيق فكرته . وقد أفادت أمريكا خاصة والعالم عامة من مثاليته فى نواح عدة . ويظهر أمثال لنكولن فى مختلف نواحى الحياة وبمختلف الدرجات فمنهم « محمد فريد » و « مصطفى كامل » وغيرهما .

ولا شك فى أن وجود فكرة واضحة شاغلة لذهن الفرد يوجه جهوده لتحقيقها ، يترتب عليه أرقى أنواع التكامل الخلقى ، وفيه أيضا السعادة

الحقيقة . فاذا كان هذا الرأى فى السعادة صحيحا ، فاننـا نستنتج أنه لازدياد سعادة شخص ما لا يجوز أن نزيد فقط مجموع لذاته ، وانما نعمل أيضا على تحسين شخصيته ، وتقويتها ، وانسجام عناصرها ، وربطها ، وتوحيد وجهاتها .

وهنا يمكننا أن نوفق بين آراء علماء التربية ، فبعضهم يرى أن الغرض من التربية الخلقية هو تكوين شخصيات قوية متماسكة ، وبعضهم الآخر يرى أن الغرض منها هو الزيادة فى سعادة الانسانية عامة . ومما تقدم نرى أن أحد الغرضين نتيجة طبيعية للآخر . ويدل ما تقدم على ما يوجد من اتفاق تام بين غايات التربية وغايات الصحة العقلية ، ما دام كل منهما قائما على أسس معقولة .

المراجع

Allsop: Educational Psychology. Chs. II. & VIII.
Aveling : Personality and Will.
Banks : Conduct and Ability. Ch. V.
Burham : The Normal Mind Ch. VI.
Ch. II. Burham : The Wholesome Personality Ch. Vl.
Fox : The Body and its Mind. Ch. VI.
Granett : The Mind in Action.
Hadfield : Psychology and Morals. Ch. III.
Jung : Integration of Personality.
McDougall : Energies of Men. Ch. XXIV.
McDougall : Social Psychology. Ch. V, VI, VII, VIII, & IX.
McDougall : An Outline of Psychology. Ch. XVII.
McDougall : Abnormal Psychology. Chs. XXXIII & XXXIV
Morrison : Basic Principle in Education. Ch. VII.
Ross : Groundwork of Educational Psychology Ch. VII.
Shaffer : Psychology of Adjustment. Ch. XIII.
Stout : Groundork of Psychology. 2nd Ed. Chs. XVII & XIX.
Taylor : Readings in Abnormal Psychology.
Thouless : Social and General Psychology. Ch. VI.

الفصل السادس

انحلال الشخصية

« اللاشعور »

خلاصة ومقدمة :

تكلمنا الى الآن عن تكامل الشخصية ، وأشرنا الى العوامل المتعددة من دوافع فطرية ، الى قدرات عقلية مختلفة ، الى عوامل جسمانية ومزاجية . وكل عنصر من هذه العناصر يظهر بقدر يختلف من شخص الى آخر . ومركبات العاطفة الواحدة فى الشخص الواحد تختلف فى قدرها من موضوع الى آخر . فمقدار الحنو الداخل فى تركيب عاطفة حب شخص نحو أمه غيره نحو أبيه ، أو نحو ولده ، أو نحو صديقه . وبذلك تكون العواطف التى يمكن تكوينها متعددة جدا . ولكن مع ذلك فهذه كلها تترابط أو تتكامل عند الشخص الواحد تحت تأثير عاطفة اعتبار الذات . والتكامل سنة مظاهر الحياة الجسمية والعقلية فى الكائن الحى الواحد[1] .

ولكن سبق أن ذكرنا أن التكامل التام كثيرا ما لا يوجد . ومثل العناصر التى يتكون منها الكائن الحى مثل الأفراد الذين تتكون منهم جماعة من الناس ، اذا حصل بينهم شىء من النزاع والانشقاق ، فان العناصر المنشقة تعمل دائبة متخفية ضد بقية الجماعة ، وتنتظر هذه العناصر المنشقة حالات

(١) بل هو سنة نظام العالم أجمع بكل مظاهره كما أوضح المارشال سمطس فى الخطاب الافتتاحى للمجمع البريطانى لتقدم العلوم سنة ١٩٣١ .
The Scientific World Picture of Today : British Association for the Advancement of Science 1931, p. 5.

الغفلة عند بقية الجماعة ، ليزيد نشاطها الظاهر ضدها • فكأن الجماعة لا تشعر بفعل العناصر المنشقة عنها •

كذلك فى الحياة العقلية كثيرا ما يحدث صراع أو نزاع يترتب عليه انفصال بعض العناصر النزوعية ، ولا تشعر الشخصية عادة بوجود هذه النزعات المنفصلة ، ولكن مع ذلك لا تنعدم هذه النزعات ؛ بل تظل تحاول التأثير فى سلوك الفرد بأشكال مختلفة ، وبقية الشخصية تعمل على ابعادها عنها • فكأنه قد أصبح لدينا شخصية شعورية ، وقوة أخرى أو مجموعة قوى لا شعورية • أما الشخصية الشعورية فهى تمثل العناصر المنسجمة بعضها مع بعض • وأما القوى اللاشعورية فانها النزعات التى لا تنسجم مع الشخصية الشعورية • ووجود مجموعتين من القوى المتعارضة فى الشخصية الواحدة أدى الى افتراض وجود الفصل (Dissociation)، وادى الى افتراض « قوة » تمنع القوى اللاشعورية من التأثير فى الشخصية الشعورية • هذه القوة المانعة أو الضاغطة سماها « فرويد » بالرقيب (Resistance or Censor) ووظيفة الرقيب فى الحياة العقلية لا تختلف عن وظيفة الرقيب المعروف فى المجتمع • فالرقيب وقت الحرب مثلا ينتقى الأخبار التى يسمح بنشرها • وأما مجموعة الأخبار التى تعارض سياسة المجتمع وتعرقله ، فانها تحبس ، وتمنع ، ويضغط عليها حتى لا تظهر • ولكن مع ذلك فان كثيرا من الأخبار يتسرب خفية أو فى أشكال مقنعة الى أذهان الشعب • ومن هذه الأشكال التنكرية الصور الرمزية والكاريكاتورية ، وما شابه ذلك • ومثل الرقيب فى الحياة العقلية كذلك مثل الأب الصارم فى الحياة المنزلية ، فاذا وجد الأب — وكان يقظا — كان الأولاد عادة على أحسن ما يكون من الأدب أو النظام ، وأما اذا غاب الأب أو نام أو غفل قليلا فان الأولاد يهيجون ، ويلعبون ، ويمرحون ، ويخربون ، ويفسدون النظام • وهكذا يكون موقف الرقيب والنزعات العقلية كل منهما تجاه الآخر •

لهذا وصل فرويد من دراسته للمظاهر العادية والشاذة للحياة العقلية الى أن عناصر الشخصية الهامة ثلاثة ، وهي :

١ — ال « أنا » أو الذات ، أو الشخصية الشعورية (The Ego)

٢ — ال « هي » ، أو القوى اللاشعورية (The Id)

٣ — الذات العليا (The Super-Ego) ، وتسمى أحيانا بالرقيب •

ال « أنا » :

أما ال « أنا » فهي تلك الشخصية التي نعرفها في أنفسنا ، ونشعر بها • « فأنا » أحب والدي ، و « أنا » أحب اخوتي ، و « أنا » أحب الصدق ، و « أنا » أحترم من يتمسكون بمبادئهم ، و « أنا » أكره الكذب ، و « أنا » أكره الاعتداء ، و « أنا » أعرف في نفسي كل ذلك • فهذه ال « أنا » هي صاحبة العواطف والميول ، وهي منطقية معقولة ، متصلة بعالم الواقع اتصالا مباشرا ، وهي حلقة الاتصال بين النزعات الغريزية و مثيرات العالم الخارجي ، وهي خلقية ترعى التقاليد • وهي تغفل في ساعات النوم • وأما في ساعات اليقظة فانها تشعر بما لديها من خبرة •

وطريقة تكون ال « أنا » أن الطفل الصغير يكون مدفوعا بما يسميه البعض عوامل الحصول على اللذة والابتعاد عن الألم وما يسميه البعض الآخر « غرائز » • ولكن اتفق الجميع على أن المنبع الأساسي لهذه الدوافع أو العوامل هو الطاقة الغريزية • ويمكننا أن نقول ان الطفل الصغير من الناحية النفسية ما هو الا مجموعة دوافع فطرية ، ويريد الطفل أن يحقق هذه الدوافع • وهي لا تتحقق عادة الا باتصاله بالعالم الخارجي وعن طريق تفاعلاته مع هذا العالم ، ومع ما فيه من قوى ومقاومات وأشياء ساكنة ، وأخرى متحركة ، وكائنات حية ، وأخرى ميتة ، وسلطات فردية ، وأخرى اجتماعية ، تارة تعاقب ، وتارة أخرى تثيب • وهي توقع عقابها وثوابها

بأساليب مختلفة • يؤدى التفاعل مع كل هذا ومع غيره الى تكوين النفس الشعورية أو الـ « أنا » • وأقوى عوامل التفاعل الأولى هى الأم ثم الأب •

فكأن الـ « أنا » انفصلت من الطاقة الغريزية بعد اتصال هذه بالعالم الخارجى • وطريقة تكوّن الـ « أنا » شبيهة الى حد ما بطريقة تكون عاطفة اعتبار الذات فى نظر مكدوجل • ووصف فرويد للـ « أنا » شبيه بوصف مكدوجل لعاطفة اعتبار الذات[1] •

الذات العليا او الضمير اللاشعورى (Super-Ego)

علمنا أن الـ « أنا » تتكون بتميزها من الدوافع الغريزية بعد اتصال هذه بالعالم الخارجى • وهناك جزء آخر يتكون بانفصاله من الـ « أنا » وهى فى مراحل تكونها الأولى • واسم هذا الجزء الذات العليا • وطريقة تكونه أن الطفل فى أثناء اتصاله بالعالم الخارجى وتكوّن الـ « أنا » عنده يتصل شعوريا بمصادر السلطة الثابتة ، وأهمها سلطة الأب أو من يمثل الأب • وسلطة الأب هذه توجه السلوك ، فهى تمنع أنواعا من السلوك وتسمح بأخرى • والطفل يعجب بهذه السلطة لقوتها ، ويحبها لحمايتها له ، ولقيامها على اشباع رغباته • لهذا نجد الطفل يتمثل بخصائص السلطة ، ويقلدها بأن يجرب أساليبها • فالطفل ان قيل له : ان من العيب أن يكشف عورته ؛ ففى أول فرصة يجد أخاه الأصغر منه يفعل ذلك ينهره كما نهره والده من قبل ، أو قد ينهر دميته فى موقف تمثيلى شبيه بالمواقف التى ينهره فيها الأب •

ويلخص علماء النفس هذه العملية بأنها عملية امتصاص واسقاط (Introjection & Projection) أى امتصاص الطفل لخصائص السلطة واسقاطها على الخارج • وعمليتا الامتصاص والاسقاط مهمتان لتكوين

---

(1) Wm. Brown says « The Ego bears some relation to the more idealistic conception of the self-regarding sentiment of Mc Dougall » : Psychology & Psychopathology, p. 70.

هذه الذات العليا . ثم يقوم الطفل بعد ذلك — دون أن يشعر — بتحكيم هذه السلطة فى سلوكه الخاص به . فاذا فرضنا أن فردا اشتاقت نفسه لاشباع غريزة من الغرائز بطريقة لا يقرها العرف ، فقد تقوم الذات العليا بعملية المنع أو بعملية السماح لا « أنا » بالتمتع باشباع هذه الغريزة بطريقة أخرى يقرها العرف . فكأن الذات العليا تقوم بتنظيم الصلة بين الغرائز من ناحية و الـ « أنا » من ناحية أخرى .

والفرد عندما تتكون عنده الذات العليا يكون كأنما قد نصب على نفسه رقيبا أو حاكما أو والدا يتصرف فى نزعاته ، ويوجهها وينظم علاقتها بالـ « أنا » أو النفس الشعورية .

وتتصف الذات العليا بأنها تتصل اتصالا كبيرا بالطاقة الغريزية ، وفى نفس الوقت تسيطر على الـ « أنا » ، ولو أنها تتكون أصلا بانفصالها منها ، وهى الناقد الخلقى الأعلى لا « أنا » . وهى التى تشعرها بالذنب شعورا شديدا ان صدر منها ما لا يروقها . وقد لخص فرويد وظيفتها بأن سماها « الضمير اللاشعورى » (The Unconscious Conscience) وقد لخص براون نفس الوظيفة بقوله : انها الناقد اللاشعورى الأعلى لعقل الانسان . (The Unconscious higher critic of the mind) (1و2و3)

وأما السبب الأساسى فى أن الذات العليا تتصف بأنها لا شعورية فانه أمر يحتاج الى شرح مطول نكتفى بتلخيصه فى أن الذات العليا تمثل سلطة الأب . وسلطة الأب نفسها مكروهة لوقوفها فى سبيل التعبير عن الغرائز بصورها الفطرية ، ولكنها فى نفس الوقت مقبولة لأنها سلطة الأب الذى يعطى ، ويحمى ، ويشبع الكثير من الحاجيات الأولية . فالذات العليا تمثل السلطة التى تعطى وتمنع ، وتثيب وتعاقب ، وتحمى وتؤذى الى غير ذلك

(1) Freud : The Ego and The Id. ch. III.
(2) Freud : New Introductory Lectures to Psycho-Analysis.
(3) Wm. Brown : Psychology and Psychopathology.

من الأفعال التى يجلب بعضها المحبة ، ويجلب بعضها الآخر الكراهية • ونتيجة هذا التناقض الوجدانى (Ambivalency) ابعادها من الشعور • ولكنها مع ذلك تظل فى غاية القوة • وهناك سبب هام آخر يجعلها لاشعورية ، وهى أنها سلطة غير منطقية على عكس الخصائص التى تتطلبها النفس الشعورية ، فهى تنزع لأن تبدو للعالم الخارجى بأن لها كيانا منطقيا • وهذا سبب آخر من أسباب فصلها وابعادها عن الشعور •

والتسليم بوجود الذات العليا يوقفنا على أسباب التمسك الجامد بما يسمى التقاليد والذوق والقيم الخلقية وبعض الأمور الدينية ، مع عدم وجود الأسباب المنطقية الكافية لذلك • وكثير من الناس يؤمنون مثلا بأفضلية السفور على الحجاب ، ومع ذلك لا يطيقون السماح لذويهم بالسفور • وكثير لا يرى مانعا علميا أو منطقيا فى جمع البنين مع البنات فى المراحل الأولى من التعليم الابتدائى ، ولكنهم مع ذلك لا يستسيغون تنفيذه ، ولا يعملون سببا صريحا لاتخاذهم هذا الاتجاه •

الـ « هى » (The Id) أو الطاقة الغريزية :

ذكرنا فيما تقدم جزأين من النفس : وهما الـ « أنا » والـ « أنا العليا » أو الذات العليا • وهناك جزء ثالث لا يمكن الوصول اليه فى العادة • ووصلنا الى معرفة ما به من دراسة الأحلام ، ودراسة مسالك الأطفال والبدائيين ، ومن التحليل النفسى للحالات المرضية والعادية • وهذا الجزء من النفس يسمى بالـ « هى » • وهى تحتوى مجموعة نزعات مختلطة بعضها مع بعض • وهى مضطربة قوية هائجة تندفع نحو اشباع النزعات الغريزية على أساس تحقيق اللذة وابعاد الألم • وقد تكون متناقضة العناصر دون اتجاه للتوفيق أو التقريب • وهى بعيدة عن المنطق • ولا يدخل فى حسابها الطيب أو السيىء • وليس عندها للقيم الأخلاقية أو المعايير المعروفة لنا أى اعتبار •

فالـ « هى » تحوى مجموعة القوى أو النزعات بصور غير خلقية ، وغير

منطقية ، وغير منظمة ، وغير شعورية ، وهى تندفع بقوة لتحقيق اللذة .

ولكن يلاحظ أن ال « أنا » وهى خلقية منطقية تساير التقاليد تكونت بانفصالها من ال « هى » . فكأن ال « هى » تشمل النزعات التى هى أساس السلوك الخلقى ، وتشمل النزعات بصورها غير الخلقية ، ولكن صور النزعات التى لا تتفق مع ال « أنا » تكبت وتستبعد . وكذلك تكبت النزعات التى يترتب على تحقيقها ايلام الشخص ويكون مقرها ال « هى » . فال « هى » تحوى النزعات المكبوتة بمختلف أنواعها .

ويرى فرويد أن عناصر ال « هى » الأساسية هى النزعات الجنسية . ولكن تدل جميع الدلائل على أن ال « هى » تشمل النزعات الغريزية الأخرى التى تكلم عنها آدلر ومكدوجل وغيرهما .

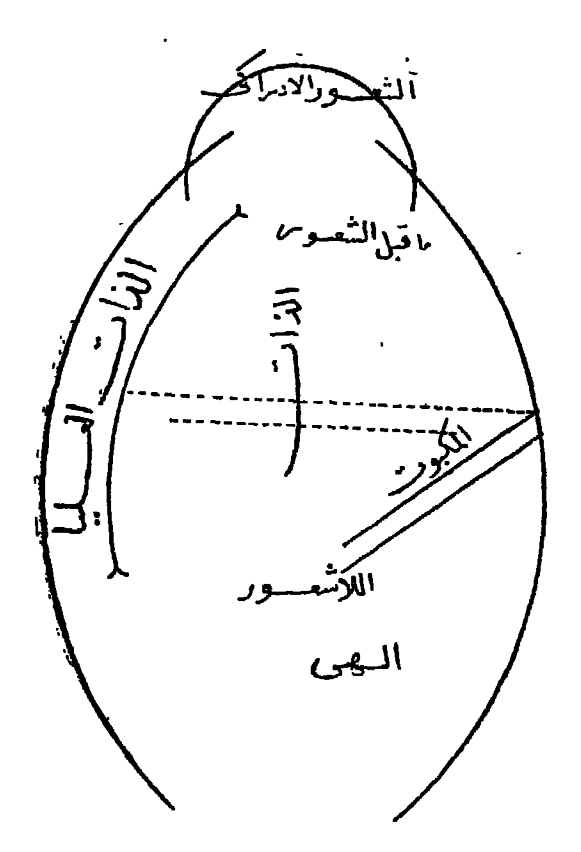
ال « أنا » والقوى المؤثرة عليها :

من كل ذلك نرى أن الشخصية الشعورية الظاهرية المألوفة لنا التى نحس بها وهى ال « أنا » — تقع فى كل شخص تحت تأثير ثلاث قوى فى غاية الشدة وهى :

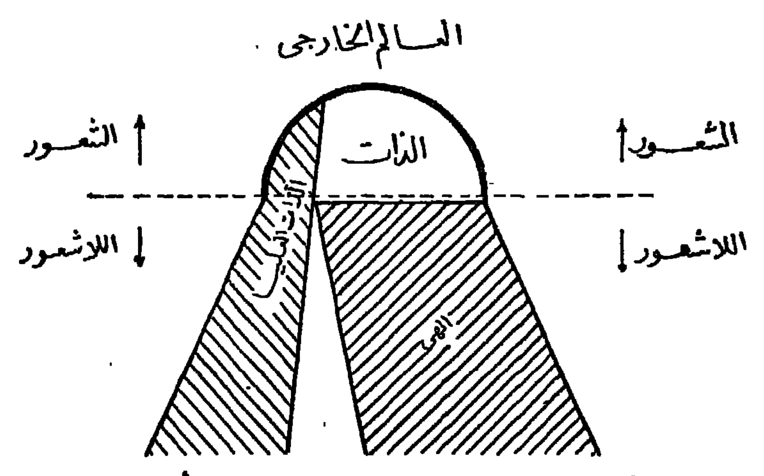
١ — ال « هى » بقواها النزاعة للتعبير عن نفسها ، وأهم القوى النزعات الجنسية فى صورها المشروعة التى وضعها المجتمع ، والنزعات الاعتدائية . والى جانب الناحيتين الجنسية والاعتدائية نجد النزعة للسيطرة ، والتملك ، وما الى ذلك . كل هذا بصور فطرية غير مقيدة بقيود المجتمع وتقاليده .

٢ — الذات العليا بتحكمها فى الشخصية الشعورية والسماح لها بقبول بعض نزعات ال « هى » بصور خاصة ، وعدم قبول بعضها اطلاقا . والذات العليا تتحكم فى الشخصية تحكما جائرا لا منطق فيه .

٣ — العالم الخارجى أو عالم الواقع (The Reality) بمغرياته ومثيراته وتقاليده ، فالعالم الخارجى فيه الأشـخاص الذين يمنحون ويمنعون ،



شكل يبين مكونات الشخصية
كما يراها فرويد مأخوذ من :
Freud. New Introductory
Lectures ot Psycho-Analysis
p. 501



شكل آخر يبين مقومات الشخصية الشعورية واللاشعورية مأخوذ من :
Cattell : Crooked Personalities in Childhood and After; p. 29.

والأشياء التى تغرى ، والتقاليد الموضوعة المقيدة التى تضايق الناس • وفيه النقد ، وفيه المنطق ، وفيه الأسس الأخلاقية ، وفيه التقدير ، وفيه الرضا والسخط والثواب والعقاب ، والعدل والظلم ، والقسوة والرحمة •
فالشخصية الشعورية المتكونة قبل أن تسمح لنفسها بالتمتع بالتعبير عن نزعة معينة لابد لها أن تزن ما يترتب على هذا الافصاح من أثر متبادل بينها وبين عالم الواقع •

فال « أنا » تتنازعها قوى ثلاث • وهى الذات العليا ، والواقع ، وال « هى » • ولأجل أن تكون الشخصية الشعورية — أو ال « أنا » — فى حالة اتزان ، لابد أن تحقق من النزعات ما يسمح به العالم الواقعى بعد موافقة الذات العليا عليه • وللحصول على هذه الموافقة يلزم أحيانا تبرير هذه النزعات ، أو تقنيعها ، أو التحايل عليها بشتى الوسائل التى سنشير اليها فى الفصل التالى •

ويمكن على حسب رأى فرويد[1] تشبيه العقل بحجرتين : احداهما صغيرة ظاهرة واسمها الشعور أو ال « أنا » ، والأخرى كبيرة جدا غير ظاهرة واسمها اللاشعور أو ال « هى » • أما الحجرة الأولى فانها مرتبة مقبولة تستعمل عادة لاستقبال الضيوف من العالم الخارجى ، ويؤخذ أحسن ما فى المنزل ليرتب فيها لهذا الغرض • وأما الثانية فانها غير مرتبة ، مليئة بألوان وأشكال من الحشرات الدائمة الحركة ، القذرة غير المقبولة • وبين الحجرتين ممر يقف به ما يسمى بالرقيب (Censor) • ومحتويات الحجرة الكبيرة تحاول النفاذ الى الحجرة الصغيرة الظاهرة • ولكن الرقيب لا يسمح بالمرور الا لأشياء معينة ، ولابد أن تستوفى شروطا شديدة • ولكن تفلت أحيانا من الرقيب بعض الأشياء ، وتخرج للحجرة الصغيرة من الحجرة الكبيرة • وهذا الإفلات يحدث باستغفال الرقيب ، كما يحدث فى الأحلام ،

(١) لم يذكر فرويد كل ما ورد تحت هذا التشبيه بالنص •

وفى فلتات اللسان ، وفلتات القلم ، والنكات غير المقصودة وبعض الحركات الارادية ، وغير ذلك من أنواع السلوك العادي والشاذ •

الصراع والكبت وتكوين العقــد :

لننتقل بعد هذا لشرح بعض الأمثلة التى تبين كيف أن العقل يفصل النزعات الى شعورية ولا شعورية • لنأخذ حالة مألوفة ، وهى أنك وأنت سائر مع أصدقائك فى الطريق مثلا نبح عليك كلب كبير • فالطريق الطبيعى الذى تتبعه هو أن تتخلص من خطره ، ولكنك تحاول أن تظهر أمام أصدقائك اذ ذاك بمظهر الشجاعة ، والشجاعة والخوف لا يتفقان ، فتحاول أن تخفى الخوف • وقد تجد نفسك تبالغ بغير قصد فى اظهار الشجاعة • ومحاولة الاخفاء هنا قد تكون شعورية • ويلاحظ أنك تخفى وراءها من النزعات ما لا يقبله المجتمع • وتستبقى ما يؤيده فالصراع بين الشجاعة والخوف ينتهى هنا باستبقاء الشجاعة واخفاء الخوف •

ومن الحالات الكلاسيكية[1] فى هذا الصدد حالة ذلك الطبيب العسكرى الذى كان يقاسي منذ طفولته قلقا — يصل أحيانا الى خوف ظاهر — اذا ما وجد نفسه فى مكان ضيق • وكان يعتبر هذا شيئا طبيعيا ، وكانت تظهر عليه فى بعض الأحيان أعراض اضطراب عصبى وتلعثم فى الكلام •

وعمل فى أثناء الحرب فى الميدان ، وكان يتحتم عليه بحكم عمله قضاء معظم وقته فى حجرات الخندق (dug outs) ، ولكنه لم يطق ذلك فكان يترك حجرته ويستمر طوال الليل يتجول فى الخندق ، وهنا تحقق للمرة الأولى أن خوفه لم يكن طبيعيا • وكان أن أرسل الى المستشفى بتقرير ذكر فيه أنه يعانى الأرق والتلعثم والأحلام المزعجة والاكتئاب والصداع وما اليها •

وطلب اليه محلله أن يسجل أحلامه وأن يحاول استرجاع ذكرياته القريبة

(1) Rivers : Instinct and The Unconscious p. 170.

التى تتصل بهذه الأحلام • وبعد بذل جهد قليل فى هذه السبيل تذكر خبرة مرت به فى سن الرابعة ، لم يتح له تذكرها فى محاولاته السابقة لتعليل حالته •

وكانت الحادثة التى تذكرها زيارة لمتّجر فى الأشياء القديمة اعتاد أن يعطى من يذهب اليه من الأطفال ومعه سلعة مما يتجر فيه مبلغا ضئيلا من المال • كان هذا التاجر يسكن قريبا من منزل الطفل ، وصادف أنّ وجد شيئا فذهب به اليه ، وكان منزل التاجر يقع فى منتصف ممر مظلم ضيق ، دخله الطفل وباع الرجل ما كان معه وخرج • وصادف أن كان فى نهاية الممر من الجهة الأخرى كلب كبير ، وعندما ذهب الطفل الى مدخل الممر وجده مغلقا فأسقط فى يده ، وحينئذ بدأ الكلب ينبح نباحا عاليا فانتاب الطفل ذعر شديد • وكان من أثر ذلك أنه كان يخاف — دون وعى منه — أن يمر بدار هذا الرجل بعد هذا الحادث •

ونسيانه للحادثة قد تم بالطريقة الآتية : وهى أن الولد يتعلم أن يكون شجاعا وألا يخشى الحيوانات العادية كالكلاب والقطط وما شابه ذلك ولما حدث له هذا الحادث ، تولاه صراع بين الخوف الطبيعى والشجاعة التى غرسها فيه المجتمع • فاستبقيت الشجاعة وكبت الخوف من الكلاب ونسى نسيا تاما • ولكن الولد استبقى نوعا من الخوف لا يقوم المجتمع بتعنيفه من أجله كثيرا ، وهو أنه لا يحب المرور فى الممرات الضيقة ، أو المكث فى الأماكن المقفلة ، ويلاحظ أنه يدعى أنه لا يحبها ، ولا يقول : انه يخافها •

فالخوف من الكلب ، وما أحاط به من ذكريات ترتبط بظروف الحادث ، كبت فى اللاشعور • ولكن ظل الخوف يعمل فى صورة أخرى ، وهى الخوف من الأماكن المغلقة • فكان الضابط كلما دخل نفقا أو خندقا شعر بخوف شديد • ولكن يتحدث هنا كبت من نوع آخر ، وهو أن الخوف فى الخندق يتنافى مع واجب الجندية ، أو واجب الدفاع عن الوطن ، أو فكرة الشجاعة ، ولكن لا يلبث أن يتكرر الموقف ، ويتكرر نجاح انفعال الخوف فى الظهور ،

وينجح هو فى كبته . ولكن يأتى وقت يطغى فيه الانفعال المكبوت على الشخص ، ويصبح الانسان فى حالة مرض عقلى ، أو انهيـار عصبى ، أو ما شابه ذلك .

وأغلب الظن أن الكبت هنا لاشعورى ، فليس من المعقول أن يكون الطفل قد كبت الخوف كبتا شعوريا . والكبت فى هذه الحالة هو المقاومة التى أدت الى فصل انفعال الخوف مع الذكريات المرتبطة به من الشعور الى اللاشعور . والخوف المكبوت وما يحيط به من ذكريات يسمى عقدة (Complex)

وتعريف العقدة : أنها مجموعة الأفكار والذكريات ، المصطبغة بصبغة انفعالية مؤلمة ، والمكبوتة فى اللاشـعور . ويتلخص العلاج على طريقـة فرويد ، فى ابراز العقدة بمكوناتها للشعور وادماجها فيه . فاللاشعور اذا يحتوى على الذكريات المؤلمة ، وعلى النزعات التى لا تنسجم مع تقاليد الحياة وآدابها المعترف بها .

لنأخذ حالة أخرى وهى من أولى الحالات التى عالجها فرويد[1] مع زميله بروبار (Breuer) . وهى حالة فتاة كانت مصابة « بالهستيريا » ، ومما كان لديهـا من أعراض ، شلل فى بعض أطراف الجسم ، وفقـدان الاحساس فى النصف الأيمن من جسمها . وأصيبت أيضا بخوف من الماء وصل بها الى عدم المقدرة على الشرب . وفى يوم أرادت أداء الصـلاة ، وكانت فى حالة رعب شديد ، فلم تتذكر الا قطعة كانت قد حفظتها بالانجليزية ، ومنذ ذلك الوقت نسيت لغتها الأصلية — وهى اللغة الألمانية — ولم تتكلم سوى الانجليزية .

وبطبيعة الحال فحصت الفتاة أولا من الناحية الجسمية فحصا دقيقا ، أدى الى التأكد من عدم وجود أية اصـابة جسمانية كافية لظهور هـذه

(1) Freud : An Autobiography, chapter II.

الأعراض • فلجأ فرويد وزميله بعد ذلك الى أساليب نفسية كالمحادثة والايحاء تحت تأثير التنويم المغناطيسى • وفى يوم من الأيام — والفتاة فى جلسة من جلسات العلاج — تذكرت أنها كانت ذات مرة تعبة منهكة تشعر بعطش شديد • وكانت اذ ذاك تستريح فى حديقة منزلها • فأعطتها مربيتها كوب ماء لتشرب منه ، فأصاب البنت جزع وتقزز شديد ، لأنه سبق لها أن رأت كلبا يلعق هـذا الكوب ، ولكن مربيتها الانجليزية هى التى قدمت لها الكوب ، وكانت تخافها وتكرهها فى قرارة نفسها ، ولكن لا تجرؤ على مخالفة أمرها ، فشربت الماء متألمة ، وضغطت على شـعور التقزز ، ثم نسيت الحادثة كلها نسيانا تاما • ولكنها بعد ذلك — رغم نسيانها للحادث الأصلى — ظلت تتقزز من رؤية الماء ، ولا تقوى على ابتلاعه •

الانفعال المؤلم هو التقزز ، وما تجمع حوله من أفكار هو ، المربية ، والكلب ، والكوب ، والظروف المحيطة كلها ، والحادث نفسه • هذا كله كعقدة واحدة كبت فى اللاشعور • ولكن ظلت القوة الكامنة فى الانفعال تعمل فى صورة تقزز من الماء •

بعد أن ذكرت الفتاة كل هذا وبعد أن مرت بالخبرة الانفعالية السابقة من كره وتقزز وخوف وما اليه ، طلبت كوب ماء ، وشربت منه بشره شديد • وتمكنت فى ذلك الوقت من التمتع بشرب الماء ، ومن التكلم بلغتها الأصلية وهى الألمانية • أى أن العلاج قد تم بسحب العوامل اللاشعورية ، وابرازها فى الشعور وادماجها فيه • وللحالة ظروف وملابسات أخرى عديدة ، كل منها يحتاج الى تحليل طويل جدا • فنكتفى بما ذكرناه •

ولأجل أن نفهم الطريقة التى تمت بها عملية النسيان أو الفصل من الشعور — أو كما يطلق عليها اصطلاحيا الكبت — نعود الى الحادث الأصلى ، فنجد أن التقزز كان مرتبطا فى ذهن الفتاة بكوب الماء لأن الكلب

كان قد لعقه . والمربية هى التى قدمت اليها الكوب . فوقعت الفتاة اذ ذاك بين أمرين : فهى اما أن تقبل الكوب منها ، متأثرة بدافع الطاعة ، أو التأدب ، أو الخوف ، أو ترفضه مجيبة بذلك نداء طبيعيا ، وهو رفض ما تتقزز منه نفسها . وحدث اذ ذاك فى نفس الفتاة صراع مؤلم عنيف بين أمرين ، كلاهما يشق عليها التغلب عليه ، أحدهما الطاعة وقبول الماء الذى تعافه نفسها ، والآخر رفض الماء ،والظهور بمظهر عدم التـأدب والعصيان . وانتهت المعركة النفسية بقبول الماء وشربه ، وكبتت الفتاة رغبتها الطبيعية فى رفض ما تجزع منه نفسها . وانتهاء المعركة النفسية فى هذه الحالة لم يكن الا انتهاء مؤقتا ، فالتقزز الطبيعى مما تعـافه النفس لم يمت ، وانما انحـدر الى « اللاشعور » ، وظل هناك قويا فعالا . وظهرت فاعليته فى أن أصيبت الفتاة بمرض عصبى من أعراضه عدم القدرة على شرب الماء .

ويصح أن نورد هنا بيانا مختصرا جدا لبعض العقد ، فمن العقد الشائعة المعروفة عقدة النقص(Inferiority Complex)ومنشؤها الأصلى تكرار النقد والاذلال . وكل الأجواء والمعاملات التى تؤدى الى شعور بالنقص يكبت ويترتب عليه الظهور بمظهر الذلة والخضوع أو الظهور بمظهر العظمة . وعقدة الأب(Father Complex) ومنشؤها قسوة السلطة ، وصرامتها ، وشدة الجو المنزلى . ويترتب على قسوة السلطة ، وامتصاص الطفل لها أن يعكسها على نفسه ، ويعكسها على الناس . وعندما يعكسها على نفسه يكون قاسيا عليها شديد النقد لها ، كثير التبرم منها ، غير راض عنها ، شاعرا بخطئه على الدوام ، يخشى لوم الناس ونقدهم ، ويحسب لهم ألف حساب . وعندما يعكسها على الناس يكون أيضا شديد النقد لهم ، قاسيا عليهم ، يتمتع بابراز خطاياهم . وأما عقـدة الأم (Mother Complex) فمنشؤها عادة التدليل الشديد ، الذى يترتب عليـه أن يصبح الشخص اتكاليا أنانيا ، يعامل نفسه كمـا تعامل الأم الضعيفة ابنها . وقد يظهـر

الشخص بنوع خاص من القوة لتغطية الضعف الذى أشرنا اليه حتى لا يكون مكشوفا للمجتمع ، وليس من الضرورى أن يكون منشأ عقدة الأم هو الأم نفسها ، ولا أن يكون منشأ عقدة الأب هو الأب نفسه •

وهناك عقدة أديبوس (Oedipus) وهى تتميز بعنصرين : حب الولد لأمه ، وكراهيته لأبيه • أما عقدة الكترا (Etectra) فانها تتميز بحب البنت لأبيها وكراهيتها لأمها • وهاتان العقدتان احداهما أو كلتاهما ضروريتان — كما يرى فرويد[1] لتكوين ما يسميه بالذات العليا •

العواطف والعقد :

بينا باختصار كيف تتكون العقد ، وسبق أن بينا قبل ذلك كيف تتكون العواطف • ونظرا لما بينهما من تشابه عظيم يرى بعض علماء النفس الانجليز أن يطلق عليهما اسما واحدا وهو (Complex) بالنظر الى تركيبهما• ونرى لهذا أن نقيم بينهما موازنة قصيرة توضح معنى كل منهما •

الأساس الأول فى تكوين العقد هو الكبت نتيجة للصراع ،وأما الأساس فى تكوين العواطف فهو الاندماج والانسجام مع الـ « أنا » ، التى تقبل هذه العواطف • ينتج عن هذا أن تكون العقد لاشعورية ، وأما العواطف فانها شعورية • ولهذا السبب الأخير تخضع العواطف للتجارب الجديدة ، فتتعدل بها • وأما العقد فانها لا تتعدل بالتجارب العادية • فاذا كانت لدى عاطفة حب أو احترام لشخص ما ، فان عاطفة الحب هذه يمكن انماؤها ، وتغذيتها ، أو يمكن أن تتعدل من نفسها على ضوء المعرفة الجديدة • وأما العقدة فانها فى الغالب ثابتة ، فالضابط الذى كان يخاف الأماكن المقفلة ، لم يتعدل سلوكه رغم معرفته بعدم وجود أساس لمخاوفه •

وتؤثر العاطفة عادة فى سلوكنا كل الوقت تقريبا ، وهى ضرورية لسلوكنا • وأما العقد فانها تظل عادة كامنة ، الى أن يأتى الظرف

(1) Freud : The Ego and The Id; ch. III.

المناسب لاظهارها ٠ وهى ليست ضرورية لتوافق الحياة العقلية ٠ ولها فوق ذلك قوة خاصة بها ، بخلاف العواطف فهى فى قوتها تابعة لبقية الشخصية الشعورية ٠ فبينما تتعاون العاطفة مع بقية عناصر الشخصية فى حكم الفرد ، نجد أن العقدة ثائرة من نفسها على بقية عناصر الشخصية ٠ ومن أمثلة ذلك أن يعيش المرء فى حياته عيشة هادئة معقولة ، وفجأة يجد نفسه فى موقف يثير فيه الخوف الشديد ٠ ونجد أن هذا الخوف الشديد لا يتفق مع معلومات الفرد ، ولا تفكيره السليم ، ونجد أيضا أن له قوة عظيمة خاصة به ، يطغى بها على بقية الشخصية ٠ فالعقدة هنا قوة ديناميكية عظيمة مستقلة تؤثر فى الفرد ٠ وهناك من حالات الأمراض العقلية من الأمثلة ما لا حصر له ، مما يدل على صحة ما تقول ، فمن هـذا مثال القسيس الايرلندى الذى خرج من منزله فى لندن صبيحة يوم من الأيام ، وبدلا من أن يذهب الى الكنيسة ركب القطار وسافر الى ادنبره ، ووجد نفسه فجأة فى شوارع بلدة غريبة ٠ وحاول أن يتذكر اسم نفسه والجهة التى جاء منها ، فلم يتمكن ٠ ثم سلم نفسه للبوليس ، وأخذ هذا فى البحث واذاعة النشرات، حتى عرف كل شىء عن هذا القسيس ٠ هذه حالة اقتبستها من محاضرات الأستاذ هادفيلد (Hadfield) فى جامعة لندن ، وكان قد أتى بها ليدلل على ما يسمى عادة حالات فقـد الذاكرة المصحوبة بالابتعـاد عن المكان الذى يعيش فيه الانسان (Fugue states) وتدل هذه الحالة على أن الحياة الدينية التابعة لـ « أنا » (The Ego Life) ، لا تتفق مع نزعاته الفطرية التابعة لـ « هى » (The Id) ٠ وزيادة على ذلك فان الرقيب أو الضمير اللاشعورى أو الذات العليا (Super Ego) لم يكن بحيث يوفق بين الـ « أنا » والـ « هى » ومطالب العالم الخارجى ٠ بذلك طغت الـ « هى » على الـ « أنا » ٠

وهناك مثال آخر اقتبسته أيضا من محاضرات الأستاذ هادفيلد ، وهو مثال لتاجر مشهور فى سيلان من تجار الشاى ، وكان قد اختفى عن أنظار أهله وأصدقائه فى يوم من الأيام ٠ وبعد البحث وجدوه هائما على وجهه ، ينام على ضفاف القنوات المائية فى الهواء الطلق ، ويأكل أى شىء يقابله

من حشائش وغيرها . وكان اذا اقترب منه أو شاكسه أحد قابله بالعويل والصراخ . وبالجملة فانه وجـد يعيش عيشة تمزج بين عيشتى الفطـرة والطفولة . ولكنه لما أعيد الى مزارعه أمكنه أن يتذكرها وعادت اليـه حالته الأولى . فهـذا التاجر ولو أنه كان ناجحا فى الظاهر الا أن تحمل المسئولية — الذى هو وظيفة النفس الشعورية — لم يكن فى لحظة ما قادرا على مقاومة المحتويات اللاشعورية . فكان من السهل على اللاشعور أن يسيطر على حياة هذا التاجر سيطرة تعفيه من المسئولية [1] .

وهذه القوة الديناميكية المستقلة المخالفة فى اتجاهها لبقية الشخصية ، تفسر تناقض الأشخاص فى سلوكهم ، وتفسر اندفاعهم بما لا يقصدون من حركات وألفاظ . ويشكو الآباء كثيرا من هذا التناقض ، فيقول الواحد منهم مثلا ان ابنه يكون أحيانا هادئا لطيفا ، يتكلم بعقل . وأحيانا أخرى يكون هائجا ، معاكسا ، معاندا لغير سبب ظاهر . وكثير من حالات اجرام الأحداث التى بحثناها كان السلوك الاجرامى يصدر فيها بقوة لا حيـلة للحدث فى مقاومتها ؛ فالحدث أحيانا يسرق ، أو يكذب ، أو يهرب ، أو يعتدى مندفعا بقوة غريبة عنه . ويعبر عنها مخلصا بأن الشيطان هو الذى دفعـه الى ذلك . وقال لى أحد الصغار الذين درستهم لمحكمة أحداث القاهرة ما معناه : انه كان يسمع الشيطان وهو يوسوس له فى أذنه اليسرى ويدفعه للسرقة .

مظاهر اللاشعور

من أهم خواص اللاشـعور اندفاعه لتحقيق رغباته ، ويتبع فى ذلك أسـاليب متعددة . فأحيانا يحققها عن طريق فقد الذاكرة ، مما يساعد على ابعاد الشخص عن تحمل مسئولية لا يريد أن يتحملها . وشبيه بفقدان الذاكرة حالة الاغماء ، ففيها يفقد الانسان شعوره ، فلا يحس بالموقف

(١) يشبه هاتين الحالتين تماما حالة القسيس Ansel Bourne المشروحة فى كتاب :
B. Hart : Psychology of Insanity, p. 49.

الذى لا يمكنه تحمله • وكذلك شبيه بهذين كثرة النوم ، فالنوم يبعد الانسان عن مواجهة الواقع • ومن أمثلة ذلك نوم بعض السيدات فى أثناء وجودهن فى منازلهن • ويصاحب هـذا النوم انهاك وهمى ، ويساعد على اعفائهن من رؤية أزواجهن أو أولادهن أو القيام بمسئولياتهن المنزلية • ويحقق اللاشعور دوافعه كذلك عن طريق النسيان ، فالمرء ينسى ما يحدث الألم أو عدم الارتياح ، فينسى ما عليه من دين ، ولو أنه لا ينسى عادة ما له ، حتى ولو لم يدونه فى مذكراته • وينسى بعض المواعيد التى لا يرغب فى قرارة نفسه فى الذهاب اليها ، وهو ينساها رغم تذكير نفسه بها مرارا وتكرارا • وينسى شيئا ما فى منزل صديق لأنه يود عدم الابتعاد عنه فيعود ليأخـذ ما نسى • وينسى فى الصباح ، وهو خارج الى عمله ، شيئا ما يضطره للعودة الى المنزل لأنه لا يبغى ترك المنزل ، أو لا يبغى الذهاب الى العمل • وتنسى السيدات مواضع المفاتيح فيعفين أنفسهن من بعض العمل بالمنزل • وينسى المرء أسماء بعض الناس لارتباط هذه الأسماء بانفعال مؤلم اما بأصحابها ، أو بمشابهاتها • وقد لاحظت مرة أننى حفظت أسماء تلاميذى فى سنة من السنين حفظا جيدا ، ما عدا اسما واحدا ، رغم محاولاتى المتعددة فى أن أعلقه بذهنى • ولما فكرت فى المسألة وجدت أن اسم هذا الطالب يستدعى الى ذهنى اسما مشابها آخر لقريب لى كنت — على ما يظهر — أكرهه كراهية شديدة رغم اضطرارى للتعامل معه • ومن ذلك الوقت لم أنس اسم هذا الطالب رغم مرور السنوات العديدة على ذلك •

وتتحقق رغبات اللاشعور فى الحياة اليومية فى النكات غير المقصودة ، وفى فلتات اللسان • ومن أمثلة فلتات اللسان أن شخصا معينا أراد أن يقول: ان الكتاب أخذته (زاهية) • فقال : ان الكتاب أخذته (داهية) • وكان متغيظا بحق من أخذ هذه السيدة للكتاب ، ومن حجزها اياه مدة طويلة • ويحقق اللاشعور رغباته فى أخطاء المطالعة وأخطاء الادراك ، وغير ذلك من أنواع الخطأ التى بينت الدراسة الحديثة أنه لا يرجع لمحض الصدفة ، وانما هو فى الغالب نتيجة حتمية لقوى يمكن معرفتها •

كذلك يحقق اللاشعور غاياته فى المظاهر المرضية الجسمية كالصداع والتهتهة ، وبعض حالات الصمم ، والعمى ، والشلل ، وفقد الاحساس ، والانهاك العصبى ، والحمل الكاذب ، والتهاب القولون ، وغير ذلك من الظاهرات المرضية ، التى كثيرا ما تؤدى وظيفة هامة لرغبات الانسان بطريقة لا شعورية .

ومن وظائف هذه المظاهر أنها تحمى الانسان من موقف مؤلم ، فالمرض قد يدفع المرء للاعتذار عن ميعاد أو أداء امتحان أو تحمل مسئولية أو ما شابه ذلك[1] .

ومن الظواهر الشبيهة بالظواهر السابقة الأحلام بنوعيها : أحلام النوم ، وأحلام اليقظة ووظيفتها الأساسية تحقيق رغبات الانسان .

الأحلام

ومن الظروف الملائمة لظهور نشاط اللاشعور الظرف الذى تتخدّر فيه الحالة الشعورية باستعمال المخدرات أو المسكرات[1] أو الحالة التى ينام فيها الانسان . واذا أخذنا بفرض فرويد يمكن أن نقول ان الرقيب أثناء النوم يكون أقل تحكما منه فى حالة اليقظة ، وبذلك تتاح الفرصة للرغبات المكبوتة فى اللاشعور فتعبر عن نفسها تعبيرا صادقا الى حد كبير .

ويستثير الحلم عادة مثير خارجى ، كخبر أو فكرة أو مشاهدة فى أثناء حياة اليقظة ، أو مثير حسى فى أثناء النوم . فقد تقوم مناقشة حادة بين عدة أشخاص عن يوم القيامة والحساب والعقاب وما شابه ذلك ، فيحلم الشخص فى أثناء نومه حلما محوره يوم القيامة كما سنرى . وقد يكون هناك مثير حسى فى أثناء النوم ، فيحدث الحلم مباشرة . فوخز ابرة قد تثير حلما بأن

---

(١) قام المحدثون بافراد قسم من علم الطب يدرس هذه النواحى وسموه Psycho-Somatic Medicine

(2) W. Brown in his Psychology and Psychotherapy says : « With a very depressed person one find that the super-ego is ruling with excessive severity which alcohol can relieve ».

الشخص يعذب بدق المسامير فى جسمه • والشعور بالتبلل فى القدمين قد يثير حلما بأن الشخص يخوض فى الطين • وسقوط قطرات المطر بانتظام وتتابع على زجاج النافذة قد يثير حلما فيه باستماع أصوات المدافع الرشاشة وضغط الغطاء على الفم قد يثير حلما بأن الشخص يختنق ، وهكذا • ومن الخطأ أن ينتهى تفسير الحلم عند هذا • ولكن هذا الجزء من الحلم يدخل عادة تحت ما يسمى بالمحتويات الظاهرة (Manifest Content) وهي الوصف الظاهر للحلم ، وله بالخبرات أو المثيرات الخارجيه القريبة أو الحسية المباشرة علاقة ظاهرة • ولكن الحلم فى العادة له معنى أعمق من هذا ، فالمحتويات الظاهرة ما هى الا صور مقنعة (أو تنكرية أو رمزية) لأمور أخرى • مثال ذلك ما يحدث عادة من أن والدا يشتد على ولده مثلا بأن يضربه ، فالرد الطبيعى على هذا هو أن يغضب الولد ، وأن يرد على هذا بالأساليب الفطرية غير المهذبة • ولكن الآداب العامة وتقاليد المجتمع تحتم عليه أن يقابل هذا بالرضا ، وتحتم عليه أن يعتبر أنه انما يعمل لصالحه ، وأنه يجب عليه أن يحب والده • هذا كله يفرضه المجتمع على ال « أنا » فيضطر ال « أنا » ازاء هذه النظم والتقاليد أن يكبت —بمساعدة الذات العليا — كراهية الأب • والنزعة الى الانتقام منه • وفى ليلة ما قد يحلم أنه قتل أسدا ، أو ثعبانا ، أو صار ملكا ، أو قتل ملكا • وصور الأسد أو الثعبان أو الملك كلها صور رمزية أو مقنعة يمكن أن تمثل الوالد • فالحلم يعبر عن نزعات الفرد المكبوتة ، لا تعبيرا صريحا ، وانما تعبيرا رمزيا أو مقنعا •

ومن أمثلة ذلك : ولد فى سن السابعة ، كان والده قد توفى فجأة وتركه فى الثالثة • وكان الوالد وابنه متعلقين كل منهما بالآخر تعلقا شديدا ، وبعد ٤ سنوات من الوفاة ابتدأت الأم تفكر فى الزواج • فتغير الولد لهذا ، وكرهته أمه واعتبرته (على ما يظهر) عائقا فى سبيل زواجها • وكانت له أخت أصغر منه دللتها الأم ، وكانت تشجعها على اهانة الولد • وكان كثير

من أحلام الولد يدور حول الثعابين ، واعتدائها عليه . ونعتقد أن الثعابين تمثل زوج الأم المعتدى . وكان الولد يتبول فى أثناء نومه ، وكان اذ ذاك يسمع وهو يتكلم فى الحلم غاضبا ، مهددا ، شاتما . وكل هذا موجه نحو سيدة لعلها أمه ، أو من يمثلها .

ومثال آخر : لشاب فى سن التاسعة عشرة من عمره ، وكان على درجة كبيرة من العناد والتمسك برأيه . وكانت علاقته بوالده قد ساءت الى حد أن أصبح الوالد يجاهر بأنه يعتبر أن لا ولد له . وكان الولد شديد التململ من جفاء والده نحوه . فاذا غاب الولد عن المدرسة وأرسلت المدرسة لوالده خطابا تسأله عن سبب الغياب ، أرسل الوالد هذا الخطاب مع الخادم لولده يسأله عن سبب الغياب . والأمثلة المتعددة من هذا النوع من المعاملة الجافة كانت تحز فى نفس الولد بشدة ، وكان الولد فوق هذا معجبا بوالده ؛ يجمع صوره ، وكتاباته ، ويتتبع أخباره . وللولد ظروف عديدة لا مجال للدخول فيها هنا . ولكنه رأى فى الحلم — ذات ليلة — أن يوم القيامة قد حل ميعاده . ورأى الله سبحانه وتعالى جالسا على عرش كبير عال . ورأى أهل الكتاب من مسلمين وغيرهم يمرون عليه . ورأى الله يرمى على المسلمين سائلا أبيض كاللبن ، ويرمى على غير المسلمين سائلا أحمر ساخنا ، ويكتفى بهذا كعقاب ، ثم يصفح عنهم جميعا .

وبعد أن قص الشاب حلمه صمت قليلا ، ثم تنهد تنهدا عميقا ، وقال من تلقاء نفسه بشىء من التأثر : « ولا أدرى لم لا يكون الوالد هكذا ؟ لماذا يستمر الوالد فى تجهمه وجفائه استمرارا لا يقطعه شىء ما ؟ ... الخ » . نرى من هذا أن « الله » فى هذا الحلم رمز للوالد . وأن الولد يحقق لنفسه فى الحلم ما كان يود أن يحققه لنفسه فى الواقع بشأن والده .

يبين هذان المثالان معنى المحتويات الظاهرة والباطنة ، ومعنى الرمزية أو التقنع (Symbolism) والرمزية فى نظر فرويد قائمة على النواحى الجنسية

بأعضائها وعملياتها وظروفهـا المختلفة ،ممـا يتفق مع نظريتـه عن الطاقة الغريزية • ولكن ليس هناك ما يحتم ترجمة الرموز بهذه الصورة • ففى الحالة الأخيرة السابقةكان الشاب يرى عيونا تحدقفيه ، وكانيخاف منها• واتضح أن هذه العيون تمثل الذات العليا نفسها ، وهى ترقبه ، وتنقده ، وتزعجه ، وتشتد عليه •

ومن حيل الأحـلام حيلة التكثيف[1] (Condensation) وتتحقق بها رغبتان أو أكثر فى وقت واحد • ومن الأمثلة البسيطة لهذا حلم الطالب[2] الذى كان يدرس الطب ، وقام من نومه فى ساعة مبكرة ، ولكنه أحس برغبة شديدة فى النوم ، وهذا لا يتفق مع وجوب الذهاب الى المستشفى ، وأحس فى نفس الوقت برغبة فى الذهاب الى المستشفى ، وهذا يتعارض مع الرغبة فى النوم • فنام قليلا ، وحلم أنه مريض ونائم على سرير المستشفى • هذا مثال للتكثيف الذى حقق به الطالب رغبتين فى نفس الوقت، وهما النوم والذهاب الى المستشفى • ومعظم الأحلام — ان لم تكن كلها — تكثيفية •

ويلاحظ أنه كثيرا ما تكون الأحلام صورا مضطربة خالية خلوا تاما من اتباع المنطق ، ومراعاة التـقاليد • ونظرا لأنها هى نفسها ناشئة من اللاشعور ، فانه سرعان ما يتولاها الكبت والنسيان • فالأحلام تنسى بغاية السرعة • ولذا وجب لمن أراد دراسة أحلامه ، أن يكتبهـا مباشرة بمجرد استيقاظه ، وأن يتحاشى عوامل النسيان ، وعوامل التعديل ، التى يدخلها الـ « أنا » ، حتى يبدو الحلم على شىء من الاتفاق مع المنطق والأخلاق ، وحتى لا يبدو بالسخف الذى يحدث به الحلم • هذه العوامل كلها تبعد الحلم عن حقيقته • ولذا كان الانسان فى حاجة الى التمرن ، حتى يمكنه

(١) ويظهر أثر التكثيف كحيلة لا شـعورية فى الحياة العادية ، فنجد واحدا يكثر الكلام بدافعين متناقضـين : أحدهمـا الرغبة فى اثبات الذات ، وثانيهما الدفاع عن الذات حتى لا يقوم المستمع بتوجيه أسئلة أو اعتراضات •

(2) Valentine : The Psychology of the Unconscious p. 99. quoted from Freud.

أن يدون حلما أو يقصه كما حــدث بالفعل • والدارسون لعلم النفس ، المقدرون لهذه النقطة صعوبتها ، يشكون فى صحة كثير من الأحلام التى تقص عليهم • وكثير من النــاس يقولون انهم لايحلمون مطلقا ، وانهم ينسون جميع أحلامهم • ولكن ببعض التمرين يمكنهم أن يلاحظوا أنهم يحلمون بكثرة ، وأنهم يمكنهم تدوين هــذه الأحلام بشىء من الدقة • ويختلف تذكرنا للأحلام باختلاف بُعد وقوع الحلم من فترة الاستيقاظ ، وباختــلاف عمق النوم • ويلاحظ أن النوم ان كان عميقا ، وقع الحلم بصورة جدية • ولكن فى حالات النوم الخفيف يقع الحلم ، وكثيرا ما يعرف الشخص أنه يحلم •

وشبيه بأحلام النوم أحــلام اليقظة ، وهى الأفكار والخيالات التى يسترسل فيها الشخص عندما يقال انه شارد الذهن • فالطفل قــد يضع أصبعه فى فمه ويسترسل فى خيالاته • وكذلك البالغ يسترسل فى كثير من أحلامه فى أثناء اليقظة • ويتم فى أحلام اليقظة اشباع كثير من الرغبات ، كالرغبة فى التخلص من الأب ، أو الأم ، أو المدرسة ، أو حالة العزوبة ، أو تحمل المسئولية ، أو الحصول على الغنى ، أو الشــبع ، أو الزواج ، أو الشهوة ، أو غير ذلك مما تشتاق اليه النفس ، ولا يسهل أحيانا تحقيقه فى الواقع •

والطفل فى لعبه كثيرا ما يحقق رغباته بطريقة شبيهة الى حد ما بما يتبع فى أحلام النوم أو أحلام اليقظة • فالأطفال لا يلعبون عبثا ، أو لهوا ، لمجرد قتل الوقت • وانما يلعبون ليصيبوا أهدافا معينة • وهم يقومون فى ذلك بأدوار تمثيلية ، يعبرون فيها عن رغباتهم ومخاوفهم • والذين يفهمون هذه اللغة الخيالية للأطفال يكشفون فى العادة الأشخاص والحوادث التى يرمز لها فى هذه الأدوار • ومن أمثلة ذلك الطفل الذى يمثل وضع « القطرة » فى عينى دميته انما ينفس عن رغبة كامنــة فى نفسه ، لأن أمه أمسكته ، وضغطت عليه ووضعت « القطرة » فى عينيه • وهذا فى مجموعه عملية غير

سارة لا يرضاها ، وانما يقبل الاذعان لها تحت الضغط فهو يود لو ينتقم ممن حوله . ولكن من له بهؤلاء حتى ينتقم منهم ؟ فيقوم بتمثيل هذا الدور ، وفيه الفرجة الكافية عن نفسه ، والاشباع لرغبته فى الانتقام . كذلك الطفل الذى يجلس دميته أمامه ، ويطلب منها أن تسمع الكلام ، وألا تتحرك ، وأن تجلس هادئة ، انما يبين بصورة أخرى ثورته على مثل هذه الأوامر التى تلقى عليه من وقت لآخر ، ويريد أن يشعر بالسرور والنشوة اللتين يشعر بهما الكبار عند اخضاعه لأوامرهم . والطفل الذى يجمع لعبه ويسمى كل واحدة منها اسما ويلاعبها جميعا ألعابا مختلفة ، هو فى الغالب طفل وحيد تتوق نفسه الى الزملاء من سنه ليؤنس وحشته بهم ، ولكنه لا يجدهم فى الواقع فيخترعهم من « مخيلته » . وهذه كلها أنواع من الأحلام ، نلمس من ذكرها أهميتها فى دراسة عقل الفرد للتعرف على طريقة تكونه من ظروفه وماضيه .

أما علاقة الأحلام بالمستقبل فيمكن أن نفسرها بما نسميه التوقع اللاشعورى ، ومعناه أن هناك دلالات مرت بالعقل يمكن أن تؤخذ لما يصح أن يقع فى المستقبل . فان كان لى قريب مريض جدا فهذا دلالته يمكن أن نتوقع معها ما يصح أن يحدث من وفاته . وتختفى هذه الدلالة عادة فى اللاشعور لأسباب عدة منها محبة هذا المريض أو الانشغال بالحياة اليومية ، أو ما الى ذلك . وربما يحلم النائم بوفاة قريبه فيتحقق الحلم فى الواقع بعد ذلك . فيظن أن الحلم يساعد على التنبؤ مما سيحدث . وقد أورد الأستاذ محمد فتحى بك[١] بضعة حالات تؤيد هذا الرأى . وأما ما عدا ذلك مما يقال عن علاقة الأحلام بالمستقبل دون رجوع الى التوقع اللاشعورى الذى أشرنا اليه فليس بحثا من مباحث علم النفس كما نفهمه ، وان كان حولها مباحث متعددة فى ما يسمى بالعلوم الروحية ، ولا نعلم عن قيمتها التحقيقية شيئا[٢] .

---

(١) محمد فتحى بك : علم النفس الجنائى صفحة ٢٤٨

(2) H. G. Wells, G. P. Wells, J. Huxly : The Science of Life Book 8 chapter IX.

المراجع

Bannister : Psychology and Health.
Brown : Science and Personality.
Brown : Psychology and Psychotherapy Chs. II, III, IV & V.
Brown : Suggestion and Mental Analysis.
Burnham : The Normal Mind. Chs XII, XIV.
Burnham : The Wholesome Personality Ch. VI.
Cattell R. : Crooked Personalities in Childhood and After.
Coster : Psycho-Analysis for Normal People.
Anna Freud : An Introduction to Psycho-Analysis for Teachers.
S. Freud : New Introductory Lectures in Psycho-Analysis.
Freud : The Ego and the Id.
Freud : Psychopathology of Everyday Life.
Freud : Beyond the Pleasure Principle.
Freud : An Autobiographical Study.
M. Nicol : Psychopathology.
Valentine : The New Psychology of the Unconscious.
محمد فتحى بك : علم النفس الجنائى

الفصل السابع

العمليات العقلية اللاشعورية

(الحيل اللاشعورية)

مقدمة :

ذكرنا أن الـ « أنا » أو الشخصية الشعورية تقع تحت تأثير ثلاث قوى: وهى الـ « هى » (اللاشعور) « والذات العليا » (الضمير اللاشعورى) والواقع (العالم الخارجى) • وتحت تأثير هذه القوى الثلاث لا بد أن تصل الـ « أنا » الى حالة اتزان أو استقرار ترتاح لها ارتياحا ولو مؤقتا • وقد أشرنا فى مظاهر اللاشعور الى بعض الحيل التى توصل الـ « أنا » الى حالة الارتياح ، فأشرنا الى النسيان ، وفقد الذاكرة ، والاغماء ، والاحلام ، والحالات المرضية ، وغير ذلك •

ويمكن تلخيص هذه الحيل فى أنها حيل دفاعية (Defence Mechanism) كالتعاظم لتغطية النقص ، أو حيل هروبية (Escape Mechanism) كالانكماش والابتعاد فى حالة النقص ، أو حيل كبتية (Repression Mechanism) كابعاد الخبرة المؤلمة نفسها من الشعور • وفى هذا التقسيم كثير من التداخل ، ولكن يصح أن نفصل بعض هذه الحيل فيما يأتى :

١ ـ الكبت والنسيان (Repression)

اذا وجد فى الحياة العقلية عنصران متعارضان ، فقد يترتب على هذا التعارض كبت أحد هذين العنصرين • فاذا كان لدى ميعاد فلا بد أن أحافظ عليه • ولكن اذا كان هذا الميعاد مع شخص أتضايق من مقابلته ،

فكثيرا ما يحدث أن ينسى هذا الميعاد • وعملية فصل هذه الفكرة من الشعورالى اللاشعور تتم عادة بطريقة لاشعورية ، وبدون قصد • ولذلك يكون الشخص فى الغالب مخلصا عند اعتذاره بالنسيان ، ولكن الطرف الآخر وان قبل الاعتذار ظاهريا ، الا أنه لا يقبله بينه وبين نفسه قبولا كاملا على الأقل • ولا بد لنا أن نفرق بين نوعين من النسيان : أحدهما النسيان بالترك وهذا يحدث بالتدريج ، كما يحدث فى نسيان كثير من المعلومات • وأما الثانى فهو النسيان بالكبت وهذا يحدث بسرعة كبيرة ، وبطريقة شبه فجائية •

ويلاحظ أن الدروس والنصائح والأوامر التى ترتبط بنوع من الايلام ، كالعقاب البدنى أو التوبيخ أو غير ذلك ، تكون مكروهة • وينزع العقل عادة الى كبتها ونسيانها هى وما يتعلق بها •

ومن أمثلة الكبت ما يحدث للأحلام من أن حوادثها وتفاصيلها سرعان ما تكبت وتنسى ، الا اذا بذل مجهود خاص فى الاحتفاظ بها وتدوينها بمجرد الاستيقاظ •

والكبت ظاهرة يتكرر وقوعها فى معظم الحالات ، ولنورد مثالا من هذه وهو مثال الطالب الذى أشرنا اليه سابقا (صفحة ١٢٣) ، والذى رأى فى حلمه أن القيامة قد قامت ، ورأى ربه وشاهده كيف يعامل الناس على اختلاف أديانهم • ذكر هذا الطالب فى احدى جلساته أنه تذكر فجأة حادثة مؤلمة حدثت له وهو صغير ، وذكر أنها مع ذلك تافهة ، ولا يمكن أن يكون لها قيمة • ذكر أنه يوما ما قبل أن يرسل الى الروضة — أى عندما كان فى الرابعة — كان يلعب مع أخيه الأكبر منه بثلاث سنوات فى فناء المنزل ، ودخل الوالد ومعه دمية (عروسة سوداء اللون) وزهرية • واعتقدالولد أن الدمية له ، ولكنه كان هادئا ، وكان أخوه — على حسب

تقريره هو — أكثر منه حيوية ونشاطا • فتقدم الأخ من أبيه ، فسلمه الدمية • فقال الأصغر وماذا أحضرت لى ؟ فقال الوالد انه أحضر له الزهرية• وسلمه اياها لحظة • ثم سحبها بسرعة حتى لا يكسرها • ويقول الأخ الأصغر — أثناء هذه الجلسة — انه تألم جدا من هذا الحادث ، ونسيه ولم يتذكره الا فى أثناء الجلسة • وقال تعليقا عليه ، ان والده لم يكن يوما ما يعتبر له وجودا • هذا حادث كبت ونسى ، ولو أنه ظل يؤثر فى سلوك الولد وموقفه نحو أبيه •

ومثال آخر لطالب يتعثر فى حديثه ، وبدأ هذا فى سن الخامسة بعد أن دخل دورة المياه وأغلق بابها عليه ، ولم يتمكن هو من فتحه ، ولم يتمكن أهل المنزل أيضا من فتحه ، وذعر الولد ذعرا شديدا • وبعد فتح الباب وخروجه منه بدأ يتعثر فى حديثه • أما الحادث نفسه فقد نسى نسيانا تاما •

٢ — النكوص (Regression)

هو رجوع المرء الى الأساليب التى كان يتبعها فى مراحل نموه الأولى للتعبير عن دوافعه الغريزية[1] • وهذا يحدث عادة اذا فشل الانسان فى تحقيق بعض رغباته • ونلاحظ أنه اذا فشل رجل فى حبه ، فانه فى بعض الأحيان يضرب عن الاتصال بالمرأة والزواج ، ويقنع نفسه بأنه يجب أن يعيش فى كنف أمه ، أو احدى قريباته ، أو سيدة عجوز تعطف عليه • فكأن هذا الفشل فى الحب الذى هو وظيفة طبيعية للانسان البالغ نتيجته رجوع الى حالة الطفولة ، التى يكون الانسان فيها فى حماية أمه ، أو من يقوم مقامها • ومن أوضح أمثلة التراجع ، ما نشاهده فى الفتى الذى يتطلع عند زواجه الى زوجة لا تقوم منه الا مقام الأم الحنون ، والفتاة التى تتطلع عند زواجها الى رجل لا يقوم منها الا مقام الأب المرشد الشفيق • وكذلك

(1) Regression is a tendency on the part of the libido to revert to some channel of expression which belongs to an earlier phase of Libido Development (cf. Warren : Dictionary of Psychology).

البنت التى تخشى كبر السن قبل أن يتحقق لها الزواج فتظهر بمظهر الفتيات الصغيرات فى ملبسها وحركاتها وحديثها ونغمة صوتها الى غير ذلك •

وكان يونج (Jung) أول من تكلم عن النكوص على أنه العملية الوحيدة التى يقابل بها الفرد المواقف التى تصل صعوباتها الى حد لا يمكن التغلب عليه • ولذا نرى يونج يتوسع كثيرا فى معنى النكوص ، فيجعله شاملا لجميع أساليب مقابلة المواقف التى يفشل أمامها الانسان • ويلاحظ أن الكبار أنفسهم اذا واجهتهم صعوبات كبيرة فقد يقابلونها بالبكاء ، أو بأحلام النوم أو بأحلام اليقظة • واذا شعر الطفل بغيرة شديدة من أخ أصغر منه ، فانه أحيانا يعود الى الحبو ، وعدم القدرة على ضبط نفسه فى التبول والتبرز ، وكثرة الصراخ ، ومص الأصابع وما شابه ذلك • ويحدث هذا النوع من النكوص عادة فى أبناء الأمهات اللاتى يعملن لكسب عيشهن • ويؤدى هذا السلوك وظيفة هامة وهى الرجوع لمرحلة سابقة تستلزم رعاية الأم وعدم ابتعادها •

٣ — الاسقاط (Projection)

وعملية الاسقاط شبيهة باسقاط الصورة من داخل الفانوس السحرى على (ستارة) أو حاجز موجود فى الخارج • فالصورة لا تنتمى فى الأصل الى الحاجز الذى أسقطت عليه ، وانما تنتمى الى الفانوس من داخله • والاسقاط الذى نحن بصدده هو تفسير أعمال الغير بحسب ما يجرى فى نفوسنا • فصفتان كالبخل أو الغرور نجد فيهما أن البخيل أو المغرور أكثر الناس اتهاما لغيره بهما • كل صفة من هذه يخجل المرء من نسبتها الى نفسه فقط ، فيريح نفسه بأن ينسب لجميع الناس الصفة الموجودة فى نفسه ، أو ينسبها لغيره ، ويبرىء نفسه منها • وفى كثير من الحالات نجد رجلا سيىء الخلق الى أقصى حد يستطاع تصوره ، ومع ذلك يتهم زوجته البريئة مرارا وتكرارا بسوء الخلق • وفى كثير من الحالات التى نجد فيها الشخص متدينا الى حد بعيد ، ويتهم الناس باستمرار بالكذب ، أو عدم الأمانة ، أو التوجه

الجنسى ، أو ما شابه ذلك ، ويشتد على أولاده وزوجته فى هذه الناحية ، نجد أنه فى قرارة نفسه ميال الى كل ذلك . أما التدين فهو صفة النفس الشعورية ، ويساعد على كبت الرغبات الأخرى فى اللاشعور .

وقد ذكر برنارد هارت[1] مثالا مما سماه جنون العوانس ، حالة لسيدة طيبة محترمة ، كانت تشكو من أحد معارفها أنه يحاول جذب انتباهها ، ومداعبتها . وأكدت أن الرجل مشتاق للتزوج منها ، وهو يتبعها فى كل مكان ، وبلغ بها الأمر أنها كتبت للرجل فى يوم ما خطابا شديدا تؤنبه فيه على سوء سلوكه . وأتبعت ذلك بابلاغ الأمر « للبوليس » . وقد أخذ التحقيق مجراه ، وتبين منه أن الرجل برىء من كل ما نسب اليه ، ولم يظهر ما يدل على أن الرجل كان عنده أقل ميل نحو هذه السيدة ، اذ لم يكن يشعر بوجودها كثيرا . وأدت كل هذه الحوادث الى اثبات أن المرأة مصابة بنوع من الجنون ، والى وضعها فى مستشفى الأمراض العقلية . ولتحليل هذه الحالة نقول : ان النزعات الجنسية لم تجد لنفسها منفذا طبيعيا عند هذه السيدة . وبعد طول المدة أدى هذا الى الكبت ، ولكن أمكن للغريزة الجنسية أن تعبر عن نفسها بأسلوب غير مباشر عن طريق الاسقاط . فالسيدة كانت تحب هذا الرجل ، وتعجب به ، وتتمنى أن يتزوجها . ولكن الرغبة الجنسية مكبوتة لأسباب متعددة ، فمن طريق الاسقاط اتهمت الرجل بأنه يضايقها رغبة منه فى مداعبتها والتزوج منها ، فأسقطت بذلك الرغبة اللاشعورية القوية الموجودة عندها فى هذا الرجل . وبذلك تشبع رغباتها دون أن تمس كرامة الـ « أنا » .

ونلاحظ فى بعض الحالات أن ولدا ينسب السرقة التى ارتكبها الى اغراء شخص آخر له ، رغم تعدد سرقاته هو . وفى احدى الحالات كان يشعر صاحبها بضيق الصدر والتبرم وعدم القدرة على تركيز نفسه فى عمله

(1) B. Hart : Psychology of Insanity p. 122 (Old Maids Insanity).

ويرجع هذا الى ضيق ذات يده ، وشدة رغبته الجنسية المكبوتة ، كما دلت على ذلك أحلامه وقراءته • ولكنه كان يرجع حالته كلها الى أمه • ونلاحظ كل يوم فى أنفسنا وفى غيرنا أننا ننسب مثلا سوء الخط الى القلم الذى نكتب به أو الى نوع الحبر ، وننسب قلة المهارة فى اللعب الى المضرب الذى نستعمله ، وننسب التأخر عن العمل الى سوء المواصلات • ومن أمثلة الاسقاط أننا نحاسب الناس بشدة على تأخرهم فى عملهم ، أو عدم ضبطهم لمواعيدهم ، ونحن أكثر الناس اتصافا بهذه الصفات ، وأننا لا نطيق عدم وضوح التفكير فى الغير ، ونحن أكثر الناس اضطرابا فى التفكير[1] وأن نكثر من نقد السيدات على خلاعتهن وتبرجهن ، ونحن أكثر الناس شوقا الى الاستمتاع بكل ذلك • وهكذا مما لا نهاية له من الأمثلة التى نلاحظها كل يوم فى الحالات العادية ، أو غير العادية •

٤ ـ التحويل (Transference)

ومعناه أن الحالة الانفعالية اذا وجدت عائقا فى موضوعها ، فانها قد تتحول الى موضوع آخر يغلب أن يكون به بعض الشبه أو الصلة بالموضوع الأول • فكراهية تلميذ لمعلمه قد تكون ناشئة من كراهيته لوالده التى لا يمكنه أن يعبر عنها تعبيرا صريحا • وكراهية التلميذ للسلطة الأولى وهى سلطة الوالد ، قد تتحول الى كراهية سلطة المدرسة فيهرب منها ، والى كراهية سلطة المجتمع والقانون ، وبذلك قد تبدأ النزعات الاجرامية من سرقة واعتداء وغير ذلك • وكثير من التلاميذ يكرهون مادة دراسية معينة ، ويكرهون معلميها ، لأن أول من علمهم اياها كان مكروها لهم • فتتحول هذه الكراهية لديهم منه الى المادة وأحيانا الى بقية معلمى نفس المادة • وكثيرا ما نجد فتاة تكره الرجال أجمعين ، ولا تثق بهم ، واذا حللت ما عندها

---

(1) Bernard Hart Says : The one thing that a muddle-headed man cannot tolerate is a lack of clear thinking in other people ». p. 114 ibid.

تجد أن المبرر الوحيد لذلك ، هو أنها تكره أباها ولا تثق به ، أو لأن أخاها الوحيد عومل معاملة ممتازة ، لأنه ذكر ، ونال امتيازه هذا على حسابها . ولو أنها لا تجرؤ على أن تعبر عن كراهيتها الأصلية ، ولكن يمكنها أن تعبر عن كراهيتها الناتجة منها عن طريق التحويل . ويفسر جزء كبير من الحب والكره على أساس التحويل المبنى على بعض التشابه . وليس من الضرورى أن يكون الشبه واضحا لكل انسان ، فقد يكون الشبه موجودا فقط بصورة لاشعورية فى ذهن من يحب ويكره ، وقد يكون شبها تافها جدا . وكثير من الشبان قد يحبون لتشابه مع أمهم ، أو يكرهون لتشابه مع أمهم ، وكذلك الحال فى الفتيات[1] بالنسبة للرجال .

ويحدث عند التحليل النفسانى أن يكره المريض من يعالجه ، أو يحبه حبا شديدا . والمريض فى موقفه هذا يرى عادة فى الذى يعالجه شيئا من الشبه بوالديه أو بأحدهما ، ويسمى المحللون التحويل المصحوب بالكراهية تحويلا سلبيا ، وأما التحويل المصحوب بمحبة فانهم يسمونه تحويلا ايجابيا .

ولا يشمل التحويل حالتى المحبة والكراهية فقط ، وانما يتعداهما الى جميع الحالات الانفعالية . فقد يغضب الرجل من زوجته فيحول غضبه هذا على من يعمل معهم ، أو يتقابل معهم خارج المنزل . وقد يحترم المرء شخصا ما ثم يقابل شخصا آخر يشبهه أو يمت له بصلة القرابة فيحترمه . وبعض الناس لا يسهل عليهم تلقى العلم من سيدة لأنهم يشعرون بقوتهم بالنسبة اليها ، أو بضعفها الشبيه (فى نظرهم) بضعف أمهاتهم أو أخواتهم .

٥ ــ **التقمص** (Identification)

وهو أن يمتص المرء مجموعة من صفات شخص يعجب به . وامتصاص هذه الصفات يتضمن الحسن منها والسيىء . فالمرء يقلد دون أن يشعر

---

(1) N. Haire : Encyclopaedia of Sexual Knowledge; Love is no longer a Mystery Ch. XI and The Alchemy of Love Ch. XXVIII.

حركات أستاذ يعجب به . ويقلد أسلوبه فى الخطابة ، والالقاء ، والمعاملة ، وأسلوب المناقشة وغير ذلك . ولا حظنا أن كثيرا من الخطباء فى مصر كبارهم وصغارهم كانوا يقلدون سعد باشا زغلول حتى فى قلب القاف كافا فى أثناء النطق بها . وأعرف طالبا كان له فى دور المراهقة أستاذ يده اليمنى أقصر من يده اليسرى ، فكان يقلده — وهو فى ذلك الدور — دون أن يشعر ، فى حركات يده القصيرة . أما كون عملية التقمص حيلة لاشعورية فهذا سببه أن التقمص فيه تسليم ضمنى بالنقص ، وفيه تكميل للنقص عن طريق التقمص . فالنقص والاعتراف به أمران لا يقبلهما الـ « أنا » فيبقيان لاشعوريين .

والتقمص فى السنوات الأولى ضرورى لنمو الطفل . فعليه يتوقف كسب الطفل للغة ، ولهجتها ، ونغمة الصوت ، ونوع المشية ، وأسلوب المعاملة ، والاتجاهات نحو الدين والتقاليد ، وغير ذلك . وتقمص السلطة المحيطة بالطفل عامل مهم فى تكوين الذات العليا . وقد سبق أن بينا ذلك (ص ١٠٦) .

٦ — **التبرير** (Rationalisation)

هو بمعناه الواسع تعليل السلوك بأسباب منطقية يقبلها العقل ، مع أن أسبابه الحقيقية انفعالية . ولتوضيح ذلك نفرض أن شخصا ما أهانك ، فأنت قد ترد هذه الاهانة ردا مضاعفا ، وبسرعة . وتقول : انك فعلت ذلك حتى لا يفعل مثله مع غيرك . والواقع أنك فعلت هذا من غيظ لا غير . كذلك قد أكره شخصا ما الى حد بعيد ، وأحاول دائما ذكر أسباب منطقية معقولة لهذه الكراهية ، فأقول : انى أكرهه لأنه مغرور ، أو غير مؤدب ، وربما يكون السبب الحقيقى أنى أكرهه لأنى أشعر أنه أقوى منى فى ناحية ما . فاعطاء أسباب منطقية لما هو مبنى فى الواقع على أسباب انفعالية يسمى تبريرا .

وأعرف سيدة تصف شخصا معينا بسعة العقل ، وكثرة الخبرة ، وحدة التفكير ، والواقع أنها ترى فيه ذلك لأنه يعيرها اهتمامه . وهذه السيدة نفسها تصف شخصا آخر بضيق العقل والغباوة . والسبب الحقيقى الذى ألمسه تماما ، هو أن هذا الفرد قوى الشخصية لا يسمح لشخصيتها بالظهور على شخصيته . كذلك اعتناقنا لدين من الأديان قد نبنيه فى الظاهر على أسباب منطقية ، والواقع أن تمسكنا به قد لا يخرج سببه الأول عن كونه تحيزا ناتجا من العادات والتقاليد والتأثر باتجاه الأسرة التى نشأنا فيها . ويحدث أحيانا أن رجلا يؤدى الفرائض الدينية على أحسن وجه ، ولكنه يبتز الأموال فى أعماله التجارية بطريقة غير شريفة . هذا كما يظهر لنا نحن، وليس كما يظهر له هو . فاذا ناقشته أجابك بأن هذه أصول التجارة . ورجل آخر يركب الترام مثلا ولا يجد مانعا من عـدم الدفع اذا أمكنه ذلك ، ويقول : ان هذا عمل له ما يبرره ؛ فشركة الترام شركة أجنبية ، أو هذا المبلغ البسيط لا يضر الشركة عدم دفعه ، الى غير ذلك من الأسباب التى تظهر — عادة — بعد نجاحه فى الافلات من الدفع .

والتبرير يسهل على الـ « أنا » (النفس الشعورية) قبول السلوك ما دام يستند الى أسباب منطقية . فكأن وظيفة التبرير ايصال الـ « أنا » الى حالة ارتياح عن طريق خداعها ، والتمويه عليها . ويمكن معرفة التبرير فى مناقشة ما اذا لاحظنا أن الانفعال الظاهر فى المناقشة أكثر مما تتطلبه المناقشة المنطقية الهادئة . فالمناقشة التى تجرى بين شخصين يعتنقان دينين مختلفين حول موضوع دينى يظهر معها انفعال شديد . ونفس هذا يحدث فيما يجرى من مناقشة بين شخصين ينتميان لحزبين مختلفين حول موضوع حزبى . وهذا بعينه ينطبق على جميع حالات التحيز التى لا تستند فى منشئها على أساس منطقى ؛ وانما تستند على أساس « شخصى » .

ونظرا لكثرة التجاء العقل لهذه الحيلة يعتبر المشتغلون بعلم النفس أن الأسئلة المباشرة التى توجه لشخص ما ، لمعرفة أسباب قيامه بعمل معين ،

لا تؤدى عادة الى نتائج صحيحة ، وانما تؤدى الى تبريرات فقط ، رغم اخلاص الشخص ومحاولته اعطاء الأسباب الصحيحة . ولذا يلجأون عادة الى طريقة الحديث الحر المرسل الذى يتصف بالانطلاق وعدم التقيد بأى قيد منطقى أو خلقى ، والذى لا يترتب عليه الاحتياط فى الاجابة من جانب الطرف الآخر .

٧ ـ التعويض (Compensation)

التعويض هو الظهور بصفة ما بقصد تغطية صفة أخرى . والصفة الظاهرة فى العادة صفة طيبة مقبولة عند الشخص . وأما الصفة المستترة فانها صفة غير مقبولة . ويكون هناك فى الغالب شىء من المبالغة (over-compensation) فى الصفة الظاهرة . ووظيفة المبالغة هى الوصول بعملية التغطية الى درجة النجاح . فاذا كان لدينا مثلا طفل يضربه أبوه ضربا شديدا ، فالنتيجة الطبيعية أن يكره الطفل أباه . ولكن حيث ان الطفل فى حاجة الى أبيه ، وقد جرت العادة أن يحب كل طفل أباه ، وحيث ان الطفل لا يمكنه أن يكره أباه ويحبه فى نفس الوقت ، فلا بد اذن من كبت الكراهية لأنها لا تتفق مع منطق الـ « أنا » المشتق من منطق المجتمع وتقاليده وآدابه . ولأجل أن ينجح كبت الكراهية واخفاؤها لابد من المبالغة فى اظهار الحب . كل هذه العمليات تتم بطريقة لاشعورية . فالطفل يكون مقتنعا بينه وبين نفسه اقتناعا تاما بشدة حبه لوالده . فظهور الحب الذى يؤدى الى تغطية الصفة الأخرى يعتبر تعويضا لها . ويشك بعض الناس أحيانا فيما يظهر ممن يتصلون بهم بمظهر الأدب الجم ، أو الكرم الحاتمى ، أو التقوى الشديدة ويعتقدون أن هذه الصفات قد تغطى صفات أخرى مخالفة لها . وبنفس الطريقة يمكن تفسير ما يظهر من شدة المبالغة فى الحزن العلنى على وفاة بعض الأقارب كالوالد الذى يتصف بالشدة والصرامة والذى يعامل أولاده مهما كبروا فى السن معاملة صغار الأطفال .

ويرى آدلر أن الأصل في التعويض هو تغطية شعور بالنقص — أي للوصول الى الشعور بالتفوق[1]— وهذا صحيح الى حد ما • فمن الحالات التي يكون فيها صحيحا حالات الذين لا ينجحون في أعمالهم الدراسية ، ويحاولون الظهور في الألعاب الرياضية مثلا ، أو في الحيـــاة الاجتماعية بصورة ما من صورها المختلفة • فالشعور بالنجاح في الألعاب يغطي الشعور الناشيء من الفشل في الدراسة • وكثيرا ما يؤدي الفشل في الحياة الدراسية الى الجنوح الى السرقة ، والاعتداء ، وما شابه ذلك • والمتصفون بالغرور هم في العادة الذين يتصفون في قرارة نفوسهم بالشعور بالضعف • فاحساس القدرة الظاهرة في الغرور يغطي احساس الضعف • وكثيرون من الناس يدعون علنا حيازة المال ، أو القوة ، أو العلم • وهذا النوع من الكذب المسمى بالادعائي ، انما يستعمل كثيرا من غير قصد لتغطية نقص • ويرى البعض اعتبار مظاهر الغرور عقدة من نوع خاص يطلقون عليها عقدة التفوق (Superiority Complex) ، ولكن هذه المظاهر لا تعدو أن تكون أعراضا لنقص مكبوت •

ومن المصادر الأساسية في كثير من اجرام الأحداث النقص الجسماني • فحالات فقد الذراع ، أو فقد الرجل ، أو فقد السمع ، أو فقد النطق ، كثيرا ما يصحبها نزوع الى تعويض النقص الناشيء عنها • وقد أشرنا الى بعضها عند بيان الأثر المتبادل بين الجسم والعقل (ص ٣٦—٤٠) •

ومن الحالات التي يظهر فيها التعويض بوضوح حالة سيدة[1] أصيبت بالسرطان ، واكتأبت من التفكير فيما قد يؤول اليـــه أمر زوجها وأولادها بسبب هذا المرض • وبعد مدة زال اكتئابها ، وانقلب رقصا ، وغناء وضحكا ومرحا ، وسرورا يكاد لا ينقطع • وهكذا يفسر المرح الشديد الذي يظهر به بعض المصابين بأمراض فتاكة لا أمل في الشفاء منها •

(١) ويرى أن الشعور بالنقص في أول الحياة هو شعور بالنقص العضوي Organic Inferiority
(٢) Bernard Hart : Psychology of Insanity; p. 105.

ومن أمثلة التعويض الواضحة حالة شخص كان يعمل بوابا فى أحد مبانى القاهرة • وعضوه التناسلى به شيء غير قليل من النقص ، ورغم أن الرجل عمره اثنتان وأربعون سنة ، الا أن جهازه التناسلى كجهاز طفل حديث الولادة ، وله خصية واحدة فى حجم الحمصة • ويعتقد فى نفسه أنه من أولياء الله الصالحين ، وان الله خلقه هكذا ليخلصه من فتنة النساء • لذلك يتظاهر بالفخر بما عنده من نقص جسمانى • ولا يتسع المقام هنا لذكر تفاصيل حياته ، ومتناقضاتها • ولكن مما حدث له أن أخاه عيره يوما ما بنقصه ، فخاصمه منذ عشر سنوات ولم يصالحه الى الآن • واستقال من عمله مرة ، لأن أحد السكان — فى سياق حديث — قال له انه ليس برجل وهو الآن لا يسير الا وفى يده عصا غليظة ثقيلة • وأصبح يشبه « الفتوات » فى ملبسهم ، وسهرهم ، وأغانيهم • وتقتصر هذه الأغانى عنده على أغانى عنتر بن شداد ، والزناتى خليفة ، وأمثالهم من شجعان الرجال • وقضى وقتا طويلا يصاحب المقامرين ، ورواد الحانات • ثم عاد واعتكف ليكفر عن سيئاته ، ووقف نفسه على غسل دورات المياه لثلاثة مساجد مشهورة • واعتكف كذلك مدة من الزمن عارى الجسد فى مقبرة من مقابر الامام الشافعى عله يعاقب نفسه ويكفر بذلك عن سيئاته •

هذه الحالة يظهر فيها التناقض الشديد ، وتظهر فيها مواجهة النقص الجسمى بتعويض يصل به أحيانا الى اعتبار نفسه من أولياء الله ، وأحيانا أخرى يصل به للسكر والمقامرة والتشبه بأقوياء الرجال مما قد يوصله بحسب تفكيره الى مراتب الأبطال من الرجال •

وحالة أخرى لتلميذ قبض عليه بمدينة القاهرة متلبسا بسرقة لمبات الترام مع آخرين • وبدراسة حالته اتضح أن عمر الولد يقع بين الحادية عشرة والثانية عشرة ، ومع ذلك فهو فى السنة الأولى الابتدائية ، وليس متقدما فيها • أى أن مستواه التعليمى هو مستوى ولد متوسط عمره بين الثامنة

والتاسعة تقريبا . أما مستوى ذكائه فبقياسه اتضح أنه يقع أيضا بين الثامنة والتاسعة . أى أن مستوى تحصيله ومستوى ذكائه متفقان .

ولعل تأخره العقلى عن زملائه هو أحد العوامل التى تدفعه للهرب من المدرسة ، والاختلاط بأمثاله ، وارتكاب ذنوب أخرى غير السرقة خارج المدرسة . وهناك عامل آخر يشعره بالنقص الشديد ، وهو أن أخاه الأصغر منه موجود فى نفس المدرسة ، ومتقدم عنه فى الفرقة الدراسية .

كل هذه عوامل اذا أضيفت اليها عوامل أخرى ، كمعاملة المنزل ، وتعيير والديه له ، أمكننا أن نفهم أن سلوك الولد يعوض عن فشله فى نظر نفسه .

الاعراض المرضية والدفاعية والهروبية :

وفى كثير من الحالات يحقق اللاشعور رغباته بطريقة ظهور أعراض جسمانية . وهذه الأعراض تكون دائما مؤقتة ، وتؤدى وظيفة هامة للحياة العقلية . والأعراض ولو أنها تتناول وظيفة العضو ، الا أنه لا يكون لها أصل جسمانى كاف لتفسيرها . ولذلك تسمى أعراضا وظيفية (Functional symptoms) ومن أمثلة هذه ما ذكرناه من حالات الصداع التى تنتاب الطلبة قبل الامتحان ، والحالات التى ذكرناها فى الصفحات (٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧) وحالات الصمم والعمى والاغماء وغير ذلك .

ونذكر حالة[1] بنت فى سن الثامنة عشرة لم تكن محبوبة فى المنزل ولا فى مقر عملها . ويوما ما بعد مقابلة غير سارة مع رئيسها فى العمل زلقت رجلها وهى تنزل السلم فانثنى المفصل الكعبى قليلا . ولكن بدل أن تشفى بعد بضعة أيام كما هو منتظر ، أصابها شلل فى رجلها كلها . وبذلك نجحت فى ألا تذهب الى عملها ، وأن تلقى عناية خاصة من كل من فى المنزل .

---

(١) لقد وقع فى خبرتنا أكثر من هذا النوع . ولأسباب فنية نحجم عن ذكرها ونقتبس حالة مشابهة تماما من كتاب Rees : Health of the mind; p. 100

خاتمة

ليس معنى ما تقدم أن العمليات العقلية السابقة تظهر كل منها منفردة ؛ وانما نجد أنه يتجمع منها اثنان أو أكثر عادة فى وقت واحد . فاذا أخذنا حالة الولد الأصم الأبكم (ص ٣٦) الذى عود نفسه السرقة من المنزل ومن محل عمله ، ووصل به الحد الى السرقة من قبور الموتى ، نجد أنه يجيب الناس بأنه يسرق خواتم الموتى لانعدام فائدتها لهم ، ولأن أحدا لن يستفيد منها بعد ذلك . هذا تبرير يفسر به عملا اعتدائيا يقوم به ليشعر بمهارته فيعوض بذلك عن فكرته عن نقصه لصممه وبكمه .

المراجع

Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Gillespie : Psychology and Life.
Hadfield : Psychology and Morals.
Haire, N. : Encyclopaedia of Sexual Knowledge.
Hart, B. : The Psychology of Insanity.
Jung : Analytical Psychology.
Meninger : The Human Mind.
Pear : Remembering and Forgetting.
Rees : The Health of the Mind.
Shaffer : Psychology of Adjustment.
Wallace : Personality Maladjustements and mental Hygiene.
Warren : Dictionary of Psychology.

الفصل الثامن

مراحل النمـــو

مقدمة :

يسير الطفل فى نموه فى مراحل مختلفة ، كل مرحلة منها لها خصائص تتميز بها . ووجود هذه الخصائص يحتم على القائمين بتربية الطفل من آباء ومدرسين ، أن يجعلوا معاملتهم للطفل ملائمة لها . فلا يصح مثلا أن نحاول التعجيل بالنمو اذ أن هذا غير ممكن ، ولا أن نفرض خصائص مرحلة ما على مرحلة أخرى . فاذا كان الطفل فى مرحلة رياض الأطفال مثلا ، وجب أن نلاحظ الخواص التى تلائم هذه المرحلة من التربية والتعليم . فلا يجوز أن نقوم بتعليم الطفل فى الروضة وهدفنا الأساسى الوحيد هو اعداده لمرحلة التعليم الابتدائى ، اذ أن الطفل اذا نما نموا كاملا فى مرحلة الرياض ، أعده هذا اعدادا طبيعيا للمرحلة التالية . ولا يجوز اذا بدأ الطفل يبلغ أشده مثلا أن نستمر نعامله كطفل ، بل يجب أن نلائم معاملتنا له مع خصائصه الجديدة ، ونحرر أنفسنا مما تعودناه معه فى سنى الطفولة الطويلة . وهكذا يجب أن نلائم بين أساليب المعاملة والتربية والتعليم وأجواء هذه كلها ، وخصائص الفرد وحاجاته واستعداداته فى المرحلة التى تتناوله فيها .

ويلاحظ أن مرحلة الطفولة هى مرحلة نمو مستمر للفرد فى جميع نواحيه . وتبعا لذلك نجد أنها مرحلة مرونة وقابلية للتربية والتعليم . وهى الوقت الذى يكسب فيه الطفل العادات والمهارات ، والاتجاهات العقلية ، والاجتماعية والجسمية . ومدة هذه الطفولة فى النوع الانسانى أطول منها

فى أى نوع آخر • وهى تختلف عند أنواع الحيوان قصرا وطولا باختلاف مكانته فى نظام التطور • فكلما ارتقى الحيوان فى سلم التطور طالت فى العادة مدة طفولته •

يلاحظ كذلك أن غريزة الوالدية التى تكون عندالوالدين ازاء أولادهما ، والتى ترمى الى حماية الصغار حتى يكبروا ، أرقى عند الانسان منها عند الحيوان • فرعاية الوالدين لطفلهما تبلغ أقصاها عند الانسان ، وتنخفض فى الحيوان ، وتختلف عند الحيوان باختلاف نوعه • فكلما ارتقى الحيوان زادت مرونته ، وزاد ضعفه عند ميلاده ، وطالت مدة طفولته ، وارتفعت غريزة الوالدية عنده • وهذه الغريزة توجد بالقدر اللازم لخروج الكائن الحى من طفولته الى اكتمال نموه •

وتوجد ظاهرة أخرى تتمشى مع كل هذه الظواهر ، وهى أن ارتقاء النوع الحيوانى يصحبه عادة قلة فى التوالد • فكثرة التوالد فى الأنواع الدنيئة يصحبها قلة الوالدية ، وتعرض لعــوادى الطبيعة • على حين أن الحيوانات الراقية نجد التوالد فيها قليلا ، والوالدية أوسع مدى وأعمق أثرا • وهذه كلها ظواهر تتمشى جنبا الى جنب ، وتدل على ما يمكن أن نسميه اتزان الطبيعة •

التقسيم الى مراحل :

يلاحظ على وجه العموم أن الطفل ينمو من الناحية الجسمية الظاهرة بعد ولادته نموا سريعا ، ثم يبطىء نموه عند السابعة أو الثامنة ، ويستمر نموه بطيئا الى الثانية عشرة تقريبا ، ثم يسرع نموه مرة أخرى الى الثامنة عشرة تقريبا ، ثم يبطىء نموه الى أن يستقر فى سن الخامسة والعشرين على وجه التقريب ، فكأن نمو الفرد يحدث على فترتين ، يتبع كلا منهما دور شبه استقرار • ويمكننا اذن أن نقول ان مراحل النمو هى الطفولة الأولى (من الولادة — ٧ سنوات) تقريبا ، فالمتأخرة (٧ سنوات — ١٢ سنة)

تقريبا ، ثم المراهقة (١٢ سنة — ١٤ سنة) تقريبا ، ثم البلوغ (١٤ سنة — ٢٠ سنة) تقريبا ، ثم اكتمال النمو (٢٠ سنة تقريبا — ...) وتقسيم الطفل الى مراحل أخذ صورا أكثر تفصيلا ، وأكثر دقة من هذا كما سنرى .

وهناك تقسيمات عديدة يختلف كل منها باختلاف وجهة النظر الى الفرد فى التقسيم ، وباختلاف الخبرة الشخصية والعلمية لصاحب التقسيم . فقسم جرين[1] عند دراسته لأحلام اليقظة مراحل النمو الى أربعة أقسام أساسية بحسب الاهتمام الرئيسى الذى يشغل الفرد وهى :

الأولى — مرحلة التغذية ، وهى تمتد من الولادة الى السنة الثالثة .

والثانية — مرحلة نمو الفرد ، أو نمو الذات ، وتمتد من الثالثة الى العاشرة .

والثالثة — مرحلة نمو الاهتمام بالجماعة من رفاق وماشابه ، وتمتد من العاشرة الى الثالثة عشرة .

والرابعة — مرحلة نمو الاهتمام بالنواحى الجنسية ، وتمتد من الرابعة عشرة الى ما بعد ذلك .

ويقسم كل مرحلة من هذه الى ثلاث مراحل ، وهى مرحلة عدم الاهتمام (diffidence) ثم مرحلة الصعوبة (difficulty) ، مرحلة الثقة والاستقرار (confidence)

ويقسم فرويد وأتباعه[2] نمو الفرد الى مراحل بحسب الاهتمام الجنسى الغالب . فهناك قبل المراهقة مرحلة اللذة الذاتية (Auto-erotic stage) وفيها يشتق الطفل لذة من مختلف أجزاء جسمه ولا سيما الأجزاء ذات الفتحات المغطاة بالأغشية المخاطية . ومرحلة عشق الذات (Narcissistic stage) ثم مرحلة حب الفرد للوالد من الجنس المخالف ، ثم تأتى مرحلة تسمى بالدور

(1) G. H. Green : The « Day Dream ».

(2) Flugel : Psycho-Analysis.

الكامن (Latency stage) ، وعند انتهائها فى سن المراهقة تتكرر المراحل السابقة كلها بصورة أخرى أكثر تركيزا حول العضو التناسلى • هذا اذا أدمجنا نواحى النمو الجنسى المختلفة تبعا لمناطقها فى الجسم وتبعا لموضوعاتها بحسب رأى أتبـاع فرويد ؛ فان فرويد نفسه لم يضـع مراحل مفصلة ، الا أن أتباعه أمثال جون وكريتون ملر وغيرهما لهم محاولات فى هذا الاتجاه لا تفيد الاطالة فيها فى هذا المقام •

وظهرت كذلك تقسيمات عدة منها تقسيم كيركباتريك[1] ، وهوايت[2] ، وكلاباريد[3]، وستانلى هول[4]، وجونس[5]، وكريتون ملر[6]، وبياجيه[7]، وغـيرهم •

وسنأخذ التقسيم الذى يبدى بعض الخصائص الظاهرة فى كل مرحلة ، وهو الذى يقسمها الى المراحل الآتية :

١ — سن المهد ، وهو ينتهى فى العادة بالتقريب بعد نهاية السنة الأولى وقبل نهاية السنة الثانية •

٢ — الطفولة الأولى ، وهى تنتهى تقريبا فى سن الخامسة •

٣ — الطفولة المتأخرة ، وهى تنتهى فى سن الثانية عشرة على وجه التقريب •

٤ — المراهقة أو المراحل الأولى من البلوغ وما قبله مباشرة •

٥ — البلوغ •

---

(1) Kirkpatrick : The Science of Man in the Making.
(2) White : Mental Hygiene of Childhood.
(3) Claparede : Experimental Pedagogy.
(4) Hall : Adolescence.
(5) Jones : Some Problems of Adolescence, B. J. p. 1923, XIII 31.
(6) C. Miller : The New Psychology and the Teacher.
(7) Piaget : The Child's Conception of the World.

السنتان الأوليان :

فى خلال السنتين الأوليين تحدث — الى جانب الولادة — عدة حوادث هامة فى حياة الطفل ، وهى الفطام ، والتسنين ، والمشى ، والكلام • والفطام حادث له أثره عند الطفل ، لأنه انتقال من طعام له خواص معينة ثابتة من حيث درجة الحلاوة والسيولة والحرارة ، وهو لبن الأم ، الذى يرضعه أيضا فى ظروف معينة ، تشبع فيها روحه المتعطشة الى الحنو • والانتقال من هذا الى أطعمة صلبة أو نصف سائلة ، تختلف كثيرا فى نوعها ، وطريقة تعاطيها ، عن لبن الأم ، يصحبه غالبا انفعالات ، وأزمات نفسية شديدة • لهذا كان واجب الأمهات دقيقا جدا ، من حيث مراعاتهن التدرج ، الذى لا يؤدى الى ظهور الأزمات الانفعالية • وتتضح أهمية ذلك اذا تذكرنا أن تناول الطعام هو أهم ما يشغل الطفل فى هذه المرحلة •

ولنشاط الفم فى هذه السن أهمية خاصة ، فهو الأداة التى يفحص بها كل شىء ، وهو أداة اشباع الرغبات ، وأداة الانتقام ، وأداة الاتصال بالعالم الخارجى ، وأداة الوصول الى الادراك والمعرفة • وهو أول جزء يشتق منه الطفل خبرة متكررة ذات قيمة فى نموه • ومما يجعل للفم قيمة خاصة ظاهرة التسنين ، وعند حدوثه ينتقل الطفل الى حالة القوة بعد الضعف • فيمكنه أن يأكل الأشياء الصلبة • ويمكنه أن يعض وينتقم • وتتسع بذلك دائرة خبرته ، اذ يتسع مدى الأشياء التى يمكن أن يتعامل معها عن طريق الفم • ويتسع أيضا مدى المقدرة التى يمكن أن يبديها عن طريق الفم •

أما الكلام والمشى ، فانهما — فوق أنهما دلالتان للنمو — عاملان مهمان لما يتلو ذلك من النمو • فالطفل يستطيع عن طريق الكلام أن يتصل بغيره ، ويتفاهم معهم لتحقيق رغائبه • ولا شك أن عقله ينمو وتزداد خبرته بالتخاطب ، والمشى يجعله قادرا على الانفصال عن أمه ، والاستقلال عنها

بعض الشيء • وبه يكتشف العالم المحدود المحيط به ، فيدرك المساحات ، والمسافات ، والارتفاعات ، والعلاقات المكانية ، وبعض العلاقات الزمنية المختلفة • هذه خبرات لا يكتسبها الطفل صحيحة ، الا عن طريق الجرى والمشى ، والحركة ، وبوساطة هذه الانتقالات يتصل بغير أمه فتتسع دائرة خبرته بالناس •

المرحلة من سن ٢ الى سن ٥ :

والمرحلة التالية ، تتميز بالميل الى الحركة ، واللعب ، واجراء التجارب فى الأشياء المحيطة • وذلك لأن العالم جديد بالنسبة للطفل ، فهو يميل الى فهمه بالتجربة الشخصية ، مما يسميه الكبار أحيانا تخريبا أو تجريبا أو هدما أو بناء أو لعبا ، أو غير ذلك • وعن طريق هذا اللعب يكتسب خبرة ، ويكتسب مهارة ، ويصبح أكثر ثقة فى نفسه وأكثر اطمئنانا الى بيئته •

ولا يقتصر نشاط الطفل على اختلاف ضروبه على تعامله مع البيئة المادية ، بل يتعداها الى الأشخاص من سلطة وزملاء • وبذلك يفهم غيره ويفهم نفسه ، ويبدأ الطفل تكوين فكرة عن ذاته ، وفكرة الـ « أنا » ، أو فكرة « الفردية » • وهى — كما رأينا — لا تنمو الا بالتعامل مع البيئة • والطفل عن طريق التقليد ، وتقمصه للسلطة المحيطة ، وتجريبه هذه السلطة على الخارج ، يتضح رأيه فى نفسه ، وفى غيره (راجع ص ٩٢ ، ١٠٥) •

وتجد الطفل فى هذه المرحلة شديد التقليد ، كثير اللعب التمثيلى ، أو الايهامى ، الذى قد يساعده على أن يعوض ما ينقصه فى الواقع • وهو عنيف فى انفعالاته ، كثير المخاوف ، شديد الغيرة • وفى أخريات المرحلة تكثر أسئلته الدالة أحيانا على تعطشه للمعرفة والكشف ، وأحيانا على ما وراءها من قلق وخوف • فهو يسأل عن أسماء الأشياء ، وأسباب الظواهر المتعددة ، ويسأل من أين ولد ؟ وكيف يكبر ؟ والى أين يذهب ما يأكله؟ •• الخ•
هذا النشاط المتعدد النواحى يزيد من مهارة الطفل وخبرته المتعددة

الأوجه . واذا أمكن توجيه الطفل وتهيئة البيئة بما يتفق مع المبادىء العامة للتربية ساعد هذا على تكوين الطفل تكوينا هادئا متزنا . فمعاملتنا للطفل فى هذه السن بنوع خاص يجب أن تكون ثابتة ، لا تذبذب فيها . اذ أن التذبذب يوقع الطفل فى حيرة وارتباك ، فلا يجوز أن نشجع الطفل اذا اعتدى على غريب بالضرب أو الشتم ، ثم نعاقبه اذا اعتدى على أخيه أو والدته . بل يجب أن نقابل اعتداء الطفل على غيره بأسلوب ثابت . كذلك لا يجوز أن تنهره اذا عبث بما يخصك ، ثم تشجعه اذا عبث بما يخص غيرك . فالمعاملة الثابتة توقف الطفل على ما يجب عليه عمله وما يجب عليه الكف عنه . ويلاحظ أن الطفل نفسه لا يحب الحرية المطلقة[1] ، لأنه يميل الى الاسترشاد والى معرفة ما يصح أن يفعله وما لا يصح أن يفعله . وبهذا النوع من التوجيه المبنى على أسس ثابتة يصل الطفل الى تقدير قيم السلوك بالنسبة للمستويات الثابتة التى وضعها أهلوه أمثلة له ، ومصادر لتوجيهه . وثبوت المعاملة من العوامل التى تؤدى الى تكوين الفردية بنجاح وسرعة ، على أن تكون هذه المعاملة الثابتة فى جو ملىء بالعطف والحنان بعيد عن الجفاف غايته صالح الطفل .

ويبدأ الطفل فى الأجزاء الأخيرة من هذه المرحلة ، يبحث عن رفاق من سنه تقريبا . ويجب أن نوفر له هذا ، حتى يتعامل معهم على أساس الأخذ والعطاء . فهذا أسلم لتكوينه من تعامله دائما مع من هم أكبر منه أو أصغر منه . وتعتبر هذه كلها من أسس التربية الاجتماعية الصالحة .

المرحلة من سن ٥ الى سن ١٢ :

هذه مرحلة اتقان للخبرات والمهارات اللغوية والحركات العقلية السابق اكتسابها . وبهذا ننتقل هنا تدريجيا من مرحلة الكسب الى مرحلة الاتقان . والطفل فى هذه المرحلة ثابت ، قليل المشكلات الانفعالية ، كثير النشاط . ويميل فى منتصف هذه المرحلة الى الانتقال من مرحلة الخيال والابهام

---

(١) راجع حاجات الطفولة ص (٧٢ — ٧٦) .

والتمثيل الى مرحلة الواقعية ، أو الموضوعية[1] • فالطفل من سن ٨ الى سن ١٢ مخلوق عملى ، واقعى ، على وفرة من النشاط • ويميل الى جمع الأشياء وادخارها ، وتنظيمها • ويميل ميلا شديدا الى الملكية التى تبدأ تنمو قبل ذلك بكثير • ويتجه قرب نهاية هذه المرحلة الى الانتماء الى الجماعات المنظمة ، بعد أن كان يميل ميلا شديدا قبل ذلك لمجرد الاجتماع بمن هم فى سنه • ويحب التنافس والتفاخر فى النواحى الجسمية والحركية بنوع خاص •

ولما كانت هذه المرحلة مرحلة اتقان لما سبق كسبه من حركة ولغة وتفكير ، فيمكن الاكثار فى المدارس من دروس الأشغال ، والموسيقى ، والغنـاء ، والأناشيد ، والألعاب الجمعية ، والرقص والتمثيل وغير ذلك • فهذه كلها تشبع فى نفس الطفل الحاجة الى الاتقـان والتنافس والشعور الواقـعى بالنجاح •

ويقسم بعض الباحثين هذه المرحلة الى اثنتين : احداهما تنتهى فى سن الثامنة ، والأخرى تنتهى فى سن الثانية عشرة تقريبا • والمرحـلة الأولى استمرار للمرحلة السابقة • فهى كما قلنا مواصلة للنمو الحركى ، وزيادة فهم العالم المحيط بعناصره المادية والاجتماعية ، وهى مرحلة يبدأ فيها ظهور بعض مبادىء الاستقرار الانفعالى • وأما المرحلة الثانية التى تبدأ فى سن الثامنة وتنتهى فى العاشرة ، فهى مرحلة استقرار فى النمو الجسمى ، واستقرار فى الحياة الانفعالية ، وهى مرحلة اتقان للمهارات الحركية ، والعقلية • وتكون فيها القدرة على الاستفادة من التمرن والتكرار كبيرة جدا • وهى كما قلنا مرحلة الوقاية ، والاصرار على التمسك بالحقيقة ، فيضعف عندها التلذذ

---

(١) أو بحسب رأى بياجية ينتقل الطفل من التمركز الذاتى Ego centrism الى الغيرية أو الموضوعيا (Realism or objectivity or Allo-centrism) حوالى سن الثامنة •

من اللعب الايهامى ، ويبدأ الاهتمام باللعب والتمثيل القريبين من الواقعية .
والطفل فى هذه المرحلة يحب اللعب الجمعى ، ولو أنه لا يهتم باللعب الجمعى المنظم فى شكل فرق (Teams) اهتماما كبيرا الا فى أخريات المرحلة . وميل الأطفال الى التجمع غير المنظم فى هذه المرحلة جعل بعض العلماء [1] يسمونها (The Red Indian Age) أو (The Gang Age) وتبدأ الاتجاهات الاجتماعية تظهر فى هذه المرحلة كالزعامة أو الميل للمساعدة أو الميل للحنو أو الميل الاستبدادى أو حب التهكم أو غير ذلك .

وهى مرحلة قليلة المشكلات فى العادة اذا قورنت بالمرحلة التى قبلها والتى بعدها . ولكن المشكلات لا تلبث أن تظهر اذا أهملنا خصائص الطفل فى هذه المرحلة من ميل الى الكشف والمعرفة والتجول والمخاطرة والمصادقة والاهتمام بالعالم الخارجى من مواد وأشخاص اهتماما لم يسبق له عنده مثيل [2] .

وبطء النمو الجسمانى فى هذه المرحلة يجعل الطفل حسن الصحة ، قليل القابلية للتعب ، شديد الميل للحركة والنشاط ، قادرا على التحمل ومواصلة العمل ساعات طويلة .

أما من الناحية العقلية فكل القوى العقلية من تذكر وتفكير وانتباه وغير ذلك تبدأ تنضج فى هذه المرحلة خصوصا بعد سن التاسعة . ولذلك يرى علماء النفس أن الفكرة القديمة القائمة على أن يحفظ الطفل حفظاً آلياً كثيراً من مواد الدراسة فى هذه المرحلة خصوصاً قبل العاشرة فكرة خاطئة ، ويجب الاعتماد على البحث والتفكير ، وعلى الذاكرة المنطقية ، وعلى تحفيز الطفل للعمل والتكرار عن طريق ميوله ومصادر الشوق لديه .

---

(1) Hollingworth : Mental Growth and Decline.

(2) « If at this stage contact with reality is firmly established, then the risks of morbid day-dreaming and of over-stimulated imagination, to which the adolescent is often prone, would be largely reduced »; The Primary School : Board of Education Report p. 41.

المراهقة والبلوغ

تنتهى الطفولة عادة عند الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة تقريبا . ويبدأ الفرد يدخل بعد ذلك فى دور جديد تظهر فيه تغيرات كثيرة ، بعضها ظاهر ، وبعضها خفى . ومن التغيرات الظاهرة مثلا : استطالة القامة ، وبدء نمو الشعر على العارضين ، وعلى الشفة العليا عند الولد . وينمو الشعر كذلك على العانة وحول الأعضاء التناسلية ، وتحت الابطين عند كل من الولد والبنت . وتنمو بعض أجزاء الجسم بنسب تختلف عن النسب التى كانت تنمو بها قبل ذلك ، والثديان عند البنت مثال لهذا النوع من النمو . ومن الظواهر الهامة بدء تضخم الصوت عند البنين ، ومرحلة الانتقال يتكسر فيها الصوت عادة بين الرفيع وغير الرفيع . أما التغيرات الخفيفة فأهمها ما يطرأ على بعض الغدد من ضمور كما يحدث فى الغدة التيموسية والصنوبرية ، وما يطرأ على بعض الغدد الأخرى من نمو ونشاط كما يحدث فى الغدة النخامية والغدد التناسلية . وافرازات الغدد ترجع اليها التغيرات الجسمية الظاهرة التى أشرنا اليها ، كما يرجع اليها كثير من الظواهر النفسية التى تظهر فى هذا الدور .

وهذه المرحلة على وجه العموم مرحلة نمو سريع فى الوزن ، والطول ، ويصحبها مؤقتاً شىء من رعونة الحركة ، وفقدان بعض الدقة والتوازن فى الحركات . وينتج عن هذه المظاهر وما يشبهها حساسية شديدة فى النشء ، وحالات انفعالية تحتاج لرعاية . فبعض البنات والأولاد يخافون على أنفسهم خوفا شديدا ، اذ يظنون أن هذا النمو قد يستمر استمرارا مطردا ، وبعضهم يمشون على أطراف أصابعهم حتى لا يرجوا المكان ويزعجوا من فيه . وبعضهم لا يجرءون على التكلم أمام الناس ، لعدم ثقتهم فى أصواتهم ان كانت ستخرج مألوفة أو غير مألوفة . وبالجملة فان الطفل فى هذه المرحلة

ينتقل من الطفولة الى اكتمال النمو ، وعلى هذا الممر الواقع بين المرحلتين يمر الطفل فى دور المراهقة والبلوغ ، وهى مرحلة مليئة بالصعاب بالنسبة للناشيء ، ويكون فيها الفرد فى أشد الحاجة الى المعونة ممن حوله •

التغيرات الجنسية :

أهم مافى هذه المرحلة نشاط الغريزة الجنسية ، واستيقاظ الحاسة الجنسية عند الناشيء • ويصاحب الغريزة الجنسية — كما قلنا — تغيرات شديدة فى افرازات الغدد ، يصاحبها مشاعر وانفعالات جديدة • وسبب كثير من صعوبات المراهقين أنه لا توجد مطابقة بين سن النضج الجنسى ، والسن التى تسمح فيها تقاليد البيئة بالاشباع الجنسى ، اذ أن البيئة لا تسمح بهذا عادة الا عند اكتمال سن الاستقلال الاقتصادى • وحكمة التشريع الأولى فى هذا التقليد أن الاتصال الجنسى يؤدى الى التوالد ، ولابد من حماية الأولاد ورعايتهم فى جو الأسرة • ويحتاج جو الأسرة ورعاية الأولاد الى كيان اقتصادى معين لابد من الوصول اليه •

لذلك نجد أنه كلما زادت المدنية تعقدا بصورتها المألوفة لنا ، وكلما قلت الفرص أمام الناشئين فى الحياة ، طالت المدة الواقعة بين النضج الجنسى ؛ وامكان الاشباع المشروع للغريزة الجنسية ، وزاد بذلك احتمال زيادة صعوبات المراهقين والبالغين •

وتحاط الغريزة الجنسية وما حولها من أعضاء تناسلية ، ووظائف جنسية ، وغيرها ، بكثير من التكتم ، والغموض ، والخوف ، والاشعار بالقذارة أو الخطيئة والاجرام ، أو احاطتها بالتقديس الذى يجعلها فوق كل مناقشة • كل هذا يؤدى الى صعوبة فهمها أو استحالة هذا الفهم على الشخص أحيانا الا اذا كان على أبواب حياة زوجية • والاتجاهات العقلية التى يتخذها الكبار نحو المسائل الجنسية تظهر عادة ازاء الناشئين صغارهم وكبارهم ، مما يغرس الكثير من بذور المشكلات الجنسية فى الأطفال منذ السنوات

الأولى • ومن أمثلة ذلك أن والدا كان يناقشنى فى حالة أولاده ، ونصحته بأن يأخذهم فى نزهة خارج المنزل ، حتى يتسع أفقهم • وضربت له أمثلة بالمتحف الزراعى : أو الأهرام ، أو حديقة الحيـوان ••• فذعر الرجل للاقتراح الأخير ، ورفضه من أساسه • وكانت حجته أنه يخشى أن يرى أولاده القردة فى اجتماعاتهم الجنسية • فقلت له : أولا يرون ذلك من الكلاب فى الشوارع ، أو من الدجاج ، أو غير ذلك ؟ فقال : ولكنهم يرون ذلك رغم أنفى ••• ومثال آخر يبين مدى خوف الآباء من المسائل الجنسية ، ما كان يفعـله والد وصل به الأمر الى أنه يعلق فى غرفة بناته لوحة عليها رسوم بيانية لبناته الثلاث ويوضح فى هذه الرسوم مواعيد العادة الشهرية عندهن ، حتى يطمئن بذلك على صحة سلوكهن • وكان شديد الرقابة على كل صغيرة وكبيرة تصدر من بناته • وكان ينام معهن فى غرفة واحدة •

وموقف الكبار نحو المسائل الجنسية وموقف المجتمع عامة نحوها ، يؤدى الى الوقوف حائلا ضد قوة هائلة من قوى الطبيعة تنزع للتعبير عن نفسها ولهذا تظهر فى أدوار المراهقة والبلوغ مشكلات عديدة مختلفة فى مظاهرها ، قد ترجع الى الكبت الواقع على الغريزة الجنسية •

التغيرات الوجدانية :

يمر المراهق لهذه الأسباب ولغيرها فى حالات اضطراب انفعالى شديد • فقد تراه يثور على غير عادته على من حوله من والدين أو اخوة أو زملاء • وقد تراه يتذبذب بين الثوران والهدوء وقد تراه متناقضا على وجه العموم ، فهو أحيانا برم بالحياة يمقتها ويتمنى الموت ، أو ينتقد نفسه أشد انتقاد • وفى وقت آخر قد تراه راضيا عن الحياة ، سعيدا بنفسه ، ومعجبا بها كل الاعجاب • وأحيانا يكون منقبضا وأخرى منشرحا • وأحيانا يجنح للعزلة ، وأحيانا أخرى يميل الى الاجتماع بغيره • وتراه فى هذه المرحلة قد يبحث فى الدين ، ويمارس بعض ما يأمر به ، عله يجد فيه ملجأ لحل مشكلاته •

وأحيانا لا يجد فيه ما يحل مشكلاته ، فيتذبذب بين التدين وعدم التدين ، أو بين الايمان والكفر . ويصحب هذه التغيرات أزمات نفسية حادة تؤدى الى ظهور الأحلام بنوعيها . وتكون وظيفة أحلام اليقظة بنوع خاص الهرب من الواقع ، وتتمركز محتوياتها عادة حول تخيل الاشباع الجنسى ، وتخيل النجاح فى المستقبل المهنى ، والزواج ، والانتقام من السلطة ، أو القضاء على الذات . لهذا نجد أن فترة المراهقة والمراحل الأولى للبلوغ فترة ثورة وصراع نفسى شديد ، يزيد من ظهوره تعقد المدنية ، وبعد المسافة الزمنية بين سن البلوغ والسن التى يسمح له فيها بالاشباع الجنسى ، وسوء معاملة السلطة المحيطة بالمراهق له ، وانعدام الاطمئنان للمستقبل والمجتمع عامة .

التغيرات الاجتماعية والخلقية :

يتميز هذا الدور بالميل الى التحرر من المنزل والانتماء الى مجموعة من الزملاء وعند انفصال المراهق عن الانتماء النفسى للمنزل يميل الى البحث عن بطل يعجب به . ولعل سبب هذا هو تفتح ذهنه لآفاق جديدة ، واكتفاؤه بما عرفه عن والديه من خبرة ، وكراهية الخضوع لسلطتهما عليه ، خصوصا أن هذه السلطة تذكره بطفولته ، اذ يعامل الآباء المراهق عادة — ولو لفترة من الزمن — بنفس المعاملة التى تعودوها معه فى أدوار الطفولة الطويلة السابقة . يبدأ المراهق ينتقد والديه علنا ، أو سرا بينه وبين أصدقائه ، أو بينه وبين نفسه . وقد يعتبر والده رجلا رجعيا ، ضيق الذهن ، قليل الجرأة والميل الى التجديد ، قليل الحيلة .

يبدأ المراهق على وجه العموم يستقل عن المنزل ، ويتصل بالمجتمع . ويبحث عن شخص يتجسم فيه المثل الأعلى الذى يرتضى لنفسه أن يحتذيه . ويصل اعجابه بالبطل الجديد أحيانا الى درجة تشبه العبادة . وتسمى عادة عبادة البطل (Heroworship) وتصل عبادة البطولة الى درجة يصعب على الكبار تصورها . ففتاة فى مدرسة من مدارس البنات بالقاهرة كانت تكتب

لبطلتها — وهى معلمة بالمدرسة — الخطابات المطولة ، وترسل اليها بالهدايا التى تضحى فى سبيل الحصول عليها بالشىء الكثير • وفتاة أخرى فى مدرسة ثانوية لم تكن لديها وسائل الافصاح لبطلتها بالهدايا والمكاتبات ، فعكفت على حفر اسم بطلتها (المعلمة) على رسغها مستعملة سلاحا مدببا حادا ، مما أدى الى جرح رسغها ، وتقيح الجرح ، وكان الاسم فى غاية الوضوح حتى بعد تقيح الجرح • وتصل عبادة البطل عادة الى تقمص المراهق لشخصيته وامتصاص خصائصه •

ولهذا نجد المراهقة والبلوغ يكونان مرحلة مناسبة لتكوين المثل العليا • ولكن يجب أن يتطور المثل الأعلى الى أن يصبح « فكرة » بدلا من أن يبقى متجسما فى شخص • وهذا يكون عن طريق دراسة الأبطال ، والزعماء ، وقادة الفكر ، سواء فى ذلك الشخصيات المعاصرة أو التاريخية • ويجب ألا يبهر المعلم فى هذه الأحوال اعجاب المراهق به ، وعليه أن يساعده على كسب الخبرة الواضحة ببطولات أخرى وكشف بعض نواحى قصوره •

ويظهر فى هذه المرحلة — كما قلنا — ميل الفرد الى الانتماء الى البيئة الاجتماعية المحيطة • ويظهر هذا فى حساسية الفرد للجماعة التى ينتمى اليها ، وميله الى تقليد أفرادها • ويجب استغلال ولاء الفرد للجماعة وميله الى الجماعات المنظمة لانماء روح التعاون الاجتماعى ، وتقوية الشعور الاجتماعى عند الفرد • كذلك يجب أن نستغل ميل المراهق لارضاء المجتمع فى تكوين الخلق ، على أن تعتبر هذه خطوة للمرحلة التالية فى التكوين الخلقى ، وهى مرحلة العمل على ارضاء ضمير خلقى[1] •

ويلاحظ أن الاعتماد على رضاء المجتمع وسخطه ، وعلى بدء ارضاء مثل أعلى ذاتى من أهم الوسائل المؤدية الى تكوين الخلق • ولكن علينا أن نلاحظ أن المراهق قد يشتط فيشعر فوق كل ما تقدم بالحاجة الى

(١) راجع الفصل الخامس صفحة (٨٥) •

اصلاح المجتمع ، وينقد المسئولين عن المجتمع نقدا مرا ، ويضع أحيانا مشروعات كاملة لمجتمع كامل ، أو لمدينة فاضلة[1] ، أو لأى اتجاه يخطر على باله للاصلاح الاجتماعى •

تحرر المراهق من السلطة ونمو فرديته :

وينزع المراهق فى هذه المرحلة الى اكمال رجولته ، والاعتزاز بكيانه • ويعمل على الاستقلال فى فكره وعمله • ويجرب أساليب متعددة ، ليحقق لنفسه شعوره بخروجه من دور الطفولة ، واكتمال نموه واستقلاله • وفى أثناء تجريبه الأساليب المتعددة قد يقع فى نزاع مع السلطة المشرفة ، وقد يترتب على هذا نزاع نفسى أو سلوك غير مرغوب فيه • فتجد الميل الى الخروج على سلطة الوالدين والمعلمين وعصيانها ، واحتقار آراء الكبار ، والميل أحيانا الى الكذب بأنواعه من ادعائى للايهام بالعظمة والقوة والجاه ، أو وقائى لدفع أذى السلطة ، الى وفائى لوقاية الزملاء من أذى السلطة ، وكذلك الميل الى السرقة ، والتدخين والكلام بصوت مرتفع ، واستعمال العنف ، والقسوة ، والشدة مع الأخوة والزملاء ، واستعمال العنف فى الانتقام من السلطة ، والميل الى الهروب من المدرسة ، سعيا وراء تحقيق لذة خاصة يفهمها جماعة الزملاء على أنها من أعمال الكبار ، ويتهمون من لا يتبعونهم بالجبن •

هذا كله الى جانب النزوع الى متابعة اللذة الجنسية من استمناء أو استغلال جنسى للزملاء أو مغازلة الجنس الآخر ، فهذه كلها فى نظر المراهق أدلة على استكمال النمو والخروج من الطفولة •

والى جانب هذا السلوك قد يحدث لدى المراهق اغراق شديد فى أحلام اليقظة ، وتدور هذه — كما سبق أن بينا — حول مستقبله وعظمته وزواجه وتحرره من السلطة وغير ذلك مما يدور حول نمو فرديته •

---

(١) حدث هذا بالفعل من عدد غير قليل من المراهقين الذين درستهم جيدا

النمو العقلى :

يتم فى هذا الدور نمو الذكاء • ودلت البحوث المختلفة على أن نمو الذكاء يقف حوالى سن الخامسة عشرة • وليس معنى هذا أن النمو العقلى يقف • ولكن النمو العقلى — بمعنى نمو الخبرة — يستمر ما دامت عملية كسب الخبرة فعالة •

ويشتد الخيال فى هذه المرحلة ويأخذ اتجاهات واضـحة فى الرسم ، أو النحت أو الكتابة الأدبية أو الموسيقى ، أو الشعر • ويجد الخيال مجاله فى أحلام اليقظة التى سبق أن أشرنا اليهـا ، حيث يحلم الفتى بمستقبل ناجح ، أو زوجة جميلة أو انتحار ، أو وفاة أحد أصحاب السلطة عليه الى غير ذلك • ويصل اغراقه فى هذه الأحوال الى حد أنه يبكى فعلا أو يصفق لنفسه فعلا •••

وبالجملة فعقل المراهق أو الفتى الحديث البلوغ عقل خصب الخيال كثير الانتاج • ويفكر الفتى الناشىء تفكيرا فلسفيا ، فهو يفكر فى أسباب الظواهر الطبيعية وعللها ، وينتقل تدريجيا من التفكير فى المحسوسات الواقعيات ، الى المعنويات والأفكار المجردة • ولذا نجد ميلا الى الدقة والنقد • ويتسع أفق الفتى أو الفتاة فيفكر فيما وراء خبرته المادية المجسوسة ؛ يفكر فى الدين وفى مبدع الكون وفى أصل الكون ومصيره • ويزداد ميله الى البحث والاطلاع والسفر ومعرفة الشعوب ، وتزيد نفسه شغفا بالخبرات الجديدة زيادة واضحة •

وفى هذه المرحلة يبدأ ظهور الفروق فى الميول والاتجاهات العقلية أوضح مما كانت قبل ذلك ، ففى الأعمال الدراسية تظهر الميول اللغوية والرياضية والعلمية والعملية ، وتظهر الاتجاهات الى أنواع الفنون من تصوير وموسيقى وغير ذلك بصورة أوضح من ذى قبل •

الكبار وموقفهم نحو المراهق :

وموقف الكبار نحو المراهقين لا يرعى فى العادة لسوء الحظ ما يحدث لهم من تغيرات ، ولعل سبب هذا يرجع الى تعود الكبار معاملة المراهق على أنه طفل لمدة اثنتى عشرة سنة تقريبا قبل حدوث التغير • وقد يرجع الى تلذذ الكبار من استعمال السلطة وخوفهم من عدم التمتع بها اذا تحرر المراهق منهم • كذلك يرجع هذا الموقف الى أن الكبار نسوا كل ما حدث لهم فى دور المراهقة ، لطول المدة من ناحية ، ولخضوعها للكبت من ناحية أخرى ، اذ أن كثيرا من هذه الخبرات يكون مؤلما لعنفه أو فشله أو ارتباطه بالشعور بالخطيئة •

من هذا نرى أن موقف الكبار يجب أن يكون موقف فهم لتطورات عقلية المراهقين ، وعطف على أزماتهم ، وتوجيه صحيح لنزعاتهم •

المراجع

Averill : Adolescence.
Board of Education Reports on :
Infant and Nursery Schools Ch. III.
The Primary School Ch. III.
Secondary Education Ch. III.
Bridges : The Social and Emotional Development of the Preschool Child.
Brooks : The Psychology of Adolescence.
Brooks : Child Psychology.
C. Buhler : Testing Child Development.
C. Buhler : The First Year of Life.
C. Buhler : From Birth to Maturity.
M. Curti : Child Psychology.
J.A. Green : An Introduction to Psychology.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
G. Hall : Youth.
Hazlitt : The Psychology of Infancy.
Hollingworth : Mental Growth and Decline.
Hollingworth : The Psychology of the Adolescent.
S. Isaacs : Nursery Years.
S. Isaacs : The Children We Teach.
S. Isaacs : Social Development in Young Children.
Murchison : A Handbook of Child Psychology.
Pringle : Adolescence and High School Problems.
Slaughter : The Adolescent.
Valentine : Psychology of Early Childhood.
O. Wheeler . Youth.
O. Wheeler : Creative Education.



الباب الثاني

الطفل فى بيئته الاجتماعية

الفصل التاسع : الطفل ووالداه .

الفصل العاشر : الطفل واخوته .

الفصل الحادى عشر : المدرسة ومشكلات النشء .

الفصل الثانى عشر : المعلم وعلاقته بالتلميذ .

الفصل التاسع

الطفل ووالداه

اعتماد الطفل على والديه وتحريره منه

يتجه ذهننا عادة عند درس حالة ما الى بحث أنواع العلاقات التى ينشأ فيها الفرد وبخاصة فى السنوات الأولى . وأهم هذه العلاقات علاقاته مع والديه ، وأهمها جميعا علاقته مع أمه . وهذه العلاقات تتغير فى مجموعها تغيرا طبيعيا بحكم نمو الطفل ، وقلة حاجته بالتدريج للاعتماد على والديه . وتتغير كذلك بحكم ما يحدث فى بيئته من تغيرات ترجع الى ميلاد اخوة له ، أو الى تغير العلاقات بين والديه أنفسهم ، أو الى تغير والديه نحوه بسبب تغير المستوى الاقتصادى للأسرة ، أو غير ذلك .

واعتماد الطفل على والديه كبير جدا فى السنوات الأولى ؛ فالطفل له غرائزه وحاجاته التى يرمى الى اشباعها ؛ فهو يرمى الى المحافظة على نفسه ، ويرمى الى الراحة والدفء عند الشعور بالبرد ، وغير ذلك . والطفل يفوز عادة بجميع رغباته ، معتمدا غالبا على أمه ، فهى التى تطعمه ، وتدفئه ، وتقضى حاجاته ، وتوفر راحته ، وتجرى لاسعافه عند بكائه وغير ذلك . وعلاوة على كل هذا ، فهى لا تعاقبه ان أزعجها طول الليل بصياحه وعويله ، ولا تضربه اذا كسر أو أتلف شيئا ما . فحياة الطفل فى هذه السن حياة سعيدة محفوفة بالأمن والطمأنينة . والشعور بالأمن فى هذه السن هو بدء الثقة بالنفس . والانتقال من هذا الدور الى ما بعده يجب أن يكون انتقالا تدريجيا .

ومن عوامل استمرار ثقة الطفل بنفسه أن يتصل بعد أمه بأفراد الأسرة ، ثم يتصل برفاقه وأصحابه • ويمكننا أن ننظر الى نمو الطفل على أنه سلسلة من مراتب استقلالية ، تتحقق كل حلقة منها باتساع الدائرة التى يعيش فيها • فالطفل يستقل عن أمه ليصبح عضوا فى مجتمع الأسرة ، ويستقل عن مجتمع الأسرة ليندمج فى مجتمع الرفاق ، ثم يتسع هذا الى مجتمع المدرسة ، ثم الى المجتمع الأكبر • وهذه الخطوات متصلة ، ويجب أن تتذكر أن تحقيق أى مرحلة تحقيقا مرضيا لا يمكن أن يتم الا بتحقيق المرحلة السابقة • ويجب أن تتذكر مع مراعاة خصائص الطفل وهو فى مرحلة ما ، وجوب اعداده للمرحلة التالية • وفوق أن هذه الخطوات متصلة فهى متداخلة ، ولا يمكن أن نضع حدودا فاصلة ، فنقول : هنا تنتهى مرحلة الاعتماد على الأم ، وتبدأ مرحلة الاندماج فى مجتمع الأسرة • والسبب فى هذا التداخل هو أن لدى الطفل حاجتين تعملان دائما فى وقت واحد : وهما الحاجة للأمن ، والحاجة للمخاطرة • وهما موجودتان فى كل لحظة • وسبق أن قلنا : ان التعبير عن الحاجة للمخاطرة لا يتم فى أكمل صورة الا اذا أشبعت الحاجة للأمن • ومما يلاحظ فى لعب الأطفال مثلا أن الواحد منهم فى سن الخامسة تقريبا يميل الى الخروج للعب مع رفاقه ولكنه لا يبتعد كثيرا عن المنزل • فخروجه الى رفاقه يحقق النزعة للمخاطرة ، ولكن فى احتفاظه بالقرب من المنزل تحقيقا للنزعة الى الأمن •

فواجب الآباء اذن أن يساعدوا أطفالهم على اشباع حاجاتهم ، ولكن يجب عليهم ألا يبالغوا فى مساعدتهم الى الحد الذى يجعل الأطفال يفقدون القدرة على الاستقلال عنهم • فيجب أن يسارع الآباء مثلا بجعل أبنائهم يعتمدون على أنفسهم فى تناول الطعام وفى لبس ملابسهم بأنفسهم ، وفى المحافظة على لعبهم ، وأدواتهم ، وترتيبها بأنفسهم ، وفى قيامهم بأنفسهم بواجباتهم التى يكلفونها من المدرسة •

وبعض الآباء والأمهات يبدو عليهم انحراف خاص أحيانا فى شخصياتهم بسبب ظروفهم الأولى كالتنشئة على الأسباب الاتكالية ، أو ظروفهم الراهنة كتكرر فقد الأطفال أو عدم توافر الهناءة الزوجية أو غير ذلك • لذلك قد يشتقون لذة كبرى من أن أولادهم لا يعتمدون الا عليهم • وأحيانا يفاخرون بهذا ، ويصل الأمر ببعض الأمهات الى أنهم يضعفون فى أولادهم كل ميل للاعتماد على النفس ، ويقتلون فيهم القدرة على الاتصال بالغير اتصالا منتجا • ففى بعض الحالات التى قمنا بدراستها كانت الأم تصاب بالاغماء أو الانهاك الشديد أو غير ذلك من الأعراض المرضية ، اذا حاول الابن فى سنه المتقدمة أن ينفصل عن أمه ، ويستقل عن سلطانها بأى صورة كانت • وبعض الأمهات يهيئن للابن أساليب المرح ، وأحيانا أساليب الاتصال الجنسى غير المشروع ، حتى لا يلجأ الى الزواج ، أو الى البحث عن متعته بعيدا عن أمه • وهذا النوع من الأمهات يجد أولادهن عند اكتمال نموهم صعوبة شديدة فى التزوج • وحتى بعد التزوج قد يتوقعون من زوجاتهم أن يكن على شاكلة أمهاتهم • وتحدث كثير من المشكلات بسبب انعدام هذا التطابق • ويجد أبناء هذا النوع من الأمهات مشقة فى المخاطرة بوجه عام كالسفر البعيد أو غير ذلك •

وتسهيل اتصال الأولاد بآخرين يجعل كلا من الأخذ والعطاء فى حياة الأطفال أكثر حدوثا مما لو كان محيط الطفل مقتصرا على والديه ، الأمر الذى يترتب عليه أن الطفل يأخذ عادة من والديه ولا يعطى • وأما اتصاله باخوة أو بزملاء فانه يوجد مجالا لأن يأخذ الطفل فيه ويعطى كما يأخذ • فاذا اعتدى على غيره يعتدى عليه • واذا أخذ لعبة من زميل لابد أن يتنازل له عن لعبته فى مناسبة أخرى • ولذا كان اختلاط الأولاد بمن فى سنهم تقريبا من اخوة وزملاء أسلوبا طيبا لتعليم الأخذ والعطاء ، والسرور والألم ، وغير ذلك من الخبرات الضرورية لتعويد الطفل التحمل وصلابة العود وعدم

الأنانية • ولكسب الخبرة فى الأخذ والعطاء أهمية خاصة، فهو الفرصة الأولى لتعلم فكرة الحق وفكرة الواجب • واذا لم تتهيأ هذه الفرصة تهيؤا كافيا فقد يتعذر على الطفل عندما يكبر أن يكسب هذين الجانبين • وقد ينشأ شغوفا بما له من حقوق ناسيا ما عليه من واجبات • وهذا عيب خطير فى كثير من المجتمعات •

ولفصل الطفل فصلا جزئيا عن أمه واختلاطه بغيره ميزة أخرى ، وهى أن الطفل يكون عن نفسه فكرة صحيحة • ففكرة المرء عن نفسه تزيد درجة دقتها وقربها من الحقيقة بكثرة تعامل الفرد مع غيره • لنضرب مثلا تخيليا لتوضيح هذا : لنفرض أن شخصا ما يعيش مع أناس أقل منه باستمرار ، فانه قد يكون عن نفسه فكرة أنه شخص عظيم جدا • ولكنه اذا احتك بأناس أحسن منه بدرجات متفاوتة ، وأقل منه بدرجات متفاوتة ، فان الاحتمال أكبر فى أنه يكون عن نفسه فكرة أقرب الى الاعتدال من الفكرة الأولى • ولذلك كان اتساع دائرة اتصالات الشخص وتنوع عناصرها عاملا مهما فى تكوين المرء فكرة صادقة عن نفسه بعيدة عن تعظيمه أو تحقيره لها •

لهذا كله كان توسيع دائرة الطفل توسيعا تدريجيا عاملا مهما جدا فى تكوين شخصية الطفل تكوينا متماسكا مركزه فكرته عن نفسه •

وهناك طفل كان الذكر الأول بين اخوته ، وكان أبوه ذا صناعة لها مركز اجتماعى غير محترم • ويظهر أن الأم أرادت أن يتحقق لها فى ابنها ما لم يتحقق لها فى زوجها ، فعنيت بتعظيمه واحترامه ، وجعلته محور الأسرة كلها ، وأهملت والده • وكانت تدلل ابنها تدليلا شديدا جدا وتجيب له أغلب رغباته ، وتتلذذ من هذا تلذذا شديدا • وكان اذا احتك بأطفال آخرين أفهمته أنهم أطفال حقراء ، وأنه ليس مثلهم ، وأنه عظيم جدا ، وأنهم يشعرون بالغيرة منه ، الى غير ذلك • ثم كبر الولد وذهب الى المدرسة ، فاذا رسب — وكان كثير الرسوب — كانت تقول: ان المدرسين يفعلون ذلك عن قصد •

ثم خرج وشغل وظيفة من الوظائف الصغيرة ، وكان فى غاية الشدة على أمه ، يجبرها على تعظيمه واحترامه ، واجابة طلباته الى أن ضجرت نفسها • وكان يعتقد باستمرار أن زملاءه يعملون دائما ضـــده وأنهم يكيدون له ويدبرون المؤامرات لغـــيرتهم من ذكائه وقوة شخصيته • وكان يشـــكو باستمرار من خسة هؤلاء الزملاء ، وسوء أخلاقهم ، وكان يعمل دائمــا للاتصال — على قدم المساواة — بأناس يرتفعون عنه كثيرا فى المستوى العقلى والاجتماعى ، وكان يعتقد اعتقادا راسخا أنه عبقرية مدفونة ، غير مقدرة من هذا المجتمع الحانق الظالم •

وهناك حالة أخرى لتلميذ فى مدرسة ثانوية تقدمت الشكوى عنه بأنه يميل الى العناد ، والعصيان ، وعدم الميل الى المذاكرة ، ويميل الى الشره فى الأكل ، ويخالط من هم أقل منه فى المرتبة العقلية والاجتماعية ، ويجتمع بخادمات المنزل اجتماعا جنسيا وللحالة أعراض أخرى ، ليس هذا مقامها • وبدرس التاريخ الأول للحالة اتضح أن الولد هو الذكر الأول ، وأن الوالدين أغدقا عليه فى طفولته الأولى عطفا وتدليلا كبيرين جدا ، ثم انه ما كاد ينمو ويصل الى سن الثالثة حتى انتابه المرض تلو الآخر ، فانتقل من « تيفويد » الى «حصبة» الى «التهاب رئوى» ، مما زاد فى قلق والديه ، وزاد فى عنايتهما به ، فزادا فيما يغدقان عليه من امتيازات • ولكنهما لم يرتبا بعد شفائه أسلوب اتصاله بالآخرين ، فظل معتمدا على والديه فى جلب السرور لنفسه ، بل صار ملحا فى هذا الاتجاه ، مما جعلهما يخضعان لالحاحه ، ومما أفقـد الولد قدرته على الاعتماد على نفسه • فاذا خلع ملابسه ترك كل قطعة منها فى مكان • واذا كتب ترك قلما فى جهة وورقة فى جهة أخرى وكتابا فى جهة ثالثة • واذا أعطى واجبا منزليا فانه لا يعمله الا اذا ساعده فيه والده أو مدرس خصوصى • ومما زاد الطين بلة أن الولد أرسل فى سن الخامسة الى روضة الأطفال ورتبت له الدروس الخصوصية اليومية من أول سنة التحق فيها بالروضة •

أما اتصاله الجنسى بالخدم ، فقد يكون من عوامل ظهوره أن الولد لم يعرف كيف يقاوم رغبة له ، فاذا ما تحركت عنده النزعة الجنسية ، وهى احدى رغبــاته ، فهو لا يقاومها وانما يشبعها بأسهل الطرق وأقربها له • وهذا التفسير بعينه قد يبين سبب شرهه •

وحالة أخرى لطفل تقدمت الشكوى عنه بسبب التبول اللاارادى • ومن ضمن أعراضه حسب شكوى أمه منه : أنه لا يعتمد على نفسه قط ، وأنه يرهقها بمطالبه وظهر السبب فى هذا بمجرد سؤاله عن اسمه ، فقد تبرعت بالاجابة بدلا عنه • ثم بسؤاله عن عمره ، أجابت كذلك نيابة عنه • وهكذا فى السؤال عن اخوته ومسكنه ••• الخ فقد كانت اما أن تجيب عنه واما أن تتعجله الاجابة بتوبيخه ثم تجيب هى بالنيابة عنه بعد ذلك •

وهناك حالات كثيرة جدا ، أساس مشكلات السلوك فيها هو المبالغة فى اعتماد الطفل على والديه ، أو على واحد منهما • وفى عدد غير قليل من هذه الحالات نجد أن الوالد المعتمد عليه لا يطيق فقدان هذه الصلة •

مدى تدخل الآباء فى حياة الأبناء

من المسلم به أن الآباء قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من خبرة بعد تجارب طويلة فى زمن غير الزمن الذى يعيش فيه أبناؤهم • ووصلوا الى خبرتهم هذه بالمحاولة وارتكاب الأخطاء ، وتصحيح هذه الأخطاء • وكثير منهم يريد مع ذلك أن يفرض نتائج خبرته على أولاده ، وينسى أنها ربما لا تلائمهم مطلقا • وبعض الآباء يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى حياة أبنائه ، فيرتبون لهم مواعيد عملهم ، ومواعيد راحتهم ، وطريقة انفاق نقودهم ، ولون الملابس التى يختارونها ، والأصحاب الذين يخرجون معهم ، ونوع التعليم الذى يختارونه الى غير ذلك •

والأولاد الذين ينشئون فى هذا الجو يكبرون متصفين بالتردد وضعف الشخصية وعدم القدرة على القطع برأى فى موقف ما • وذلك لأنهم لم

يتدربوا التدرب الكافى على القطع برأى لأنفسهم ؛ اذ أن هناك من يفكر لهم باستمرار • ويخشى الآباء اذا تركوا أبناءهم يفكرون لأنفسهم أن يخطئوا ، ولكنهم ينسون أن المرء يتعلم من خطئه ، ويكفى أن يكون موقفهم ازاءهم موقف ارشاد •

وهنا نتساءل : الى أى حد يمكن للآباء أن يتدخلوا فى أعمال الأبناء ؟ بعض المربين ينادى بوجوب ترك الأبناء يتعلمون كل شىء بأنفسهم ، وذلك عن طريق احساسهم بنتيجة عملهم • فاذا كانت النتيجة مؤلمة ، كان طبيعيا للطفل أن يتجنب العمل الذى أدى الى الألم • وان كانت النتيجة سارة ، كان من الطبيعى أن يزاوله حتى يصبح عنده عادة • وهؤلاء هم الذين يؤمنون بما يسمى مبدأ (التربية الطبيعية أو التربية السلبية) ايمانا خاليا من المرونة • وليس فى امكاننا ترك الطفل يكتسب كل تجاربه بنفسه • ولكن يمكننا أن نتركه يكتسب كثيرا منها عن طريق خبرته الشخصية المباشرة • ويصح أن نذكر بعض المواقف التى يجب أن يتدخل فيها الآباء •

فمن أهم هذه المواقف تلك التى يكون فيها خطر على حياة الطفل أو صحته • فلا يجوز مثلا أن نتركه أمام النار لتحرقه ، أو الماء العميق ليغرقه ، أو السم ليقتله ، أو الطعام غير الصالح ليلحق به ضررا ، بحجة أننا نترك الطفل يتعلم بنفسه فقط ولنفسه فقط • فلا بد لنا من أن ننبه الطفل فى هذه المواقف وأمثالها الى ما يجب عليه عمله • وعلينا أن نعوده أن يطيعنا فى مثل هذه المواقف طاعة تامة •

ومن المواقف التى تتدخل فيها الأعمال الممنوعة لغير سبب ظاهر للأطفال أنفسهم ، وهذه تشمل عادة ما يسمى بالآداب العامة ، كوضع المرفقين على مائدة الطعام ، وكالشرب بصوت مسموع ، وكأن يضع المرء رجلا على أخرى بحيث يواجه أسفل حذائه وجه أحد الحاضرين ، أو تسليك الأسنان ، أو مص الأصابع ، أو تنظيف الأنف ، أو عصر حب الوجه ، أو قص الأظافر ،

أو استعمال السكين لايصال الطعام الى الفم ، أو غير ذلك من الأعمال التى يأتيها بعض الأفراد عفوا أمام الناس • هذه كلها أفعال ننبه الطفل الى تركها اذا أداها • وكل السبب الذى يمكن أن نبديه اذ ذاك أنها خلو من الآداب ، أو سلامة الذوق أو غيرذلك • وبعض هذه الأفعال ليس له سبب ظاهر للطفل كما قلنا ، وبعضها له سبب حقيقى ، ولكن يعجز الطفل عن ادراكه اذا نحن نبهناه اليه •

وهناك أعمال يأتيها الأطفال للعبهم وتسليتهم ، ولكن يصح أن يترتب عليها أحيانا تعكير صفو غيرهم ، واقلاق راحتهم ، كالصياح وكثرة الحركة ، والتخريب ، وما شابه ذلك • وهذه الأنواع من السلوك لا يجوز لنا أن نعمل على منع الطفل عنها بالطرق التقليدية • فاذا نحن نجحنا فى منع الطفل بهذه الطرق نشأ الطفل متصفا بالخجل والجبن ، أو زاد ميله الى التخريب والاقلاق • ولكن يصح أن ننبهه اليها ، وأن نخصص له مكانا منعزلا يمرح فيه كيفما يشاء ، وأن نيسر له اللعب والصياح والمرح معنا فى بعض الأحيان •

والقاعدة العامة هى أن يعطى الأطفال فرصة كافية للوصول بأنفسهم الى أحكامهم ، والى البت لأنفسهم بأنفسهم فيما يريدون ، الا فى بعض الحالات الشبيهة بما سبقت • ويجب أن تتخذ موقف الموجه الناصح لا موقف المتحكم المستبد •

التدخل اللاارادى للآباء فى حياة الأبناء

وعلى الرغم من اقتناع بعض الآباء بوجوب ترك الأبناء يتعلمون بأنفسهم ولأنفسهم الا فى بعض المواقف ، فاننا نجد الآباء مدفوعين الى التدخل فى حياة أبنائهم بعوامل خفية لا شعورية خارجة عن ارادتهم •

ومن هذه أن الآباء أحيانا يكونون مدفوعين ليحققوا فى أبنائهم ما لم يتحقق لهم — حسب رأيهم — فى أنفسهم • فنلاحظ مثلا أن بعض الآباء

يتجهون بشدة ليعلموا أبناءهم سواء أكان لديهم الدافع أم لم يكن ، وسواء أكان للتعليم قيمة حقيقية فى الحياة أم لا ، وسواء أكان لدى الآباء المقدرة المادية أم لا . فرجل يعتقد أنه لم تتح له فرصة التعليم الكافية ، فيدفع ابنه فى التعليم دفعا يحتاج لقوى ليست أحيانا فى متناول الأب أو الابن .

ومن أمثلة هذا حالة تلميذ فى سن الرابعة عشرة يتقاضى والده ثلاثة جنيهات شهريا ، وللوالد أسرة كبيرة يتكفل بها وتعيش معه فى جهة تعتبر ضاحية من ضواحى الجيزة . وقد أكمل ابنه التعليم الابتدائى بصعوبة كبيرة . فصمم والده على الحاقه بالمدارس الثانوية ، وحصل له على محل مجانى بعد جهاد عنيف . ولكن الولد لم يتمكن من السير فى التعليم وأخفق فيه ، واستمر الوالد مع ذلك مصمما على أن ابنه لابد أن يتعلم ، وأرهقه بالضرب والحبس والاشراف والدروس الخصوصية . وانتهى الأمر بأن سرق الولد أدوات زملائه بالمدرسة وباعها ، وأخيرا هرب من والده . ولم يعرف مكانه الا حديثا ، بعد أن اشتغل الولد بأحد معسكرات الجيش البريطانى براتب قليل . وبعد هذا كله ظل الوالد عاقدا نيته على أن الولد لابد أن يتم تعليمه . وكان الرجل فى حديثه يشير الى أن ابنه جزء منه ، وهو يمثله من بعده ، فلابد أن يمثله تمثيلا حسنا . ومن بين أسباب الفشل الدراسى فى هذه الحالة سوء الجو المنزلى من ناحية المعاملة ومن ناحية المستوى المادى . أما مستوى ذكاء الولد فانه يؤهله للنجاح فى التعليم الثانوى .

ومن قبيل تحقيق الآباء لرغباتهم المكبوتة عندهم فى أشخاص أولادهم أن يعطى الآباء أبناءهم حرية تامة ، لأنهم هم عوملوا فى صغرهم تحت ضغط شديد . ومن الحالات التى تمثل تحقيق رغبة مكبوتة للأب فى شخص الابن ، حالة ولد كان فى مدرسة ابتدائية ، وفى معرض من المعارض المدرسية أحضر من منزله أشغالا للعرض ، فيها كثير من مساعدة الكبار . وقد تكرر هذا على الرغم

من تكرار تنبيه الولد الى وجوب الكف عن ذلك • ولوحظ كذلك أن الولد لا يعبأ بالنظام اطلاقا ؛ فلا يتعاون كما يجب فى ملعب المدرسة ، وهو مصدر فوضى اذ أنه لا يلزم مكانه المرسوم له فى الملعب ، ويريد أن يكون فى موقف ممتاز • وقد اتضح بمقابلة الوالد وزيارة المنزل أن الوالد رجل ضعيف جدا ، وأن مركزه فى المنزل مركز ثانوى • ومن مظاهر ذلك أن غرفة الاستقبال مثلا لم توضع له صورة واحدة فيها على حين وضعت صور عدة لزوجته • وتدل أوضاع صور الزوجة على قوتها وطغيان شخصيتها على جو المنزل • وعلمنا أن الرجل يدفع بابنه الى الظهور ، ويترك له الحبل على الغارب ، ويعتبر أن هذا يكون شخصيته • فبين آونة وأخرى كنا نرى صورة الولد لمناسبة تافهة منشورة فى المجلات الأسبوعية ، ويجوز أن تدل هذه الحالة على أن الولد ربما اتجه فى الطريق غير السليم ليحقق فى ابنه ما لم يتحقق فيه من قوة الشخصية •

ويحدث أحيانا أن يعامل الآباء أبناءهم ، كما عوملوا هم من قبل ، فرجل يشتد فى معاملة ابنه أو يضربه لأقل سبب ، لأن هذه هى الطريقة التى ربى عليها هو • ولو أنه لا يذكر هذا السبب الا عرضا وعن طريق الصدفة •

فهناك اذن احتمال بأن يحقق الآباء فى أبنائهم مامنع عنهم ، وهناك أيضا احتمال آخر بأن يمنعوا عنهم ما منعوا هم عنه •

ويتجه الآباء أحيانا للتدخل فى شئون أبنائهم — على الرغم من ارادتهم — لمخاوف عندهم • فبعض الآباء تجدهم قلقين على مستقبل أبنائهم فى التعليم ، ويتجهون الى دفع أبنائهم للتعلم فى سن مبكرة قبل أن ينضجوا النضج الكافى • وقد ذكر لى أحد الآباء أن ابنه بليد وكسلان ، فلفت نظره الى أن عمر ابنه احدى عشرة سنة فقط ، وهو مع ذلك فى نهاية السنة الأولى الثانوية ، فقال ما معناه : ان الزمن يتقدم بغاية السرعة ، وان المستقبل سيكون غاصا بالمتنافسين ، وان زملاءه هو كانوا يأخذون الشهادة الابتدائية فى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ، وأصبح متوسط السن ينقص تدريجيا الى

أن أصبح الأولاد ينالون الشهادة الابتدائية فى عمر ينقص أحيانا عن عشر سنوات • وقال : ان هذا كله دليل على الاتجاه السريع نحو المنافسة •• الى غير ذلك • هذا الحديث يمثل الأسلوب العام للوالد ، ويمثل قلقه وخوفه من المستقبل ، ويفسر انكباب الوالد بشىء من العنف على الاشراف على ابنه وتربيته • وقد اصبح الولد على درجة كبيرة من الاضطراب العصبى ، وهو يتعثر فى نطقه بشكل مؤلم • وقد تكون هذه الأعراض نتيجة لما شرحناه من موقف الوالد نحو ولده •

وقد تتمركز المخاوف حول صحة الأولاد • ومن أمثلة هذا ، حالة طبيب مات أحد أولاده وكان من أعراضه قبل الوفاة فقدان الشهية • ومن وقت وفاة هذا الولد انحنى الأب على الولد التالى يريد أن يشرف على تغذيته ويريد أن يعطيه المقويات بأنواعها ، ويريد أن يمنعه من اللعب خوف الاجهاد الى غير ذلك • كل هذا يقوم به الوالد ، وعليه علامات القلق الشديد • وكانت نتيجة هذا أن الولد على الرغم من أنه كان عاديا جدا فى المدرسة ، كان شـديد الحساسية شديد التأثر مضطربا أمام والده فى كل جهة يكون فيها • هذه كانت حالة الولد من عامين ثم اعترتها تغيرات أخرى كان لحلول دور المراهقة بعض الأثر فى ظهورها •

وحالة أخرى لغلام يتعثر كثيرا فى نطقه ، وينام مع أمه فى سرير واحـد — مع أنه لا مبرر اطلاقا لهذا — الى سن الثالثة عشرة ، والأم تخاف عليه خوفا شديدا من خفة الملابس ، وتغير الجو ، وعبور الشارع ، وكثرة المشى ، على الرغم من أنه فى السنة الثانية الثانوية • ولعل سبب هذا ، أن الوالد كان قد مات بسبب تدرن فى العظام ، وكان قد ترك هذا الولد ضعيفا ونحيفا جدا ، فربطت الأم بين ضعف الولد وسبب وفاة الوالد فركزت همها وقلقها فيه • والولد على الرغم من أنه من المتقدمين جدا فى دراسته ، الا أنه يتلعثم بشدة ويخاف الظلام ، وهو على درجة كبيرة من الجبن عامة • ونعتقد أن حالة القلق عند الأم انتقلت الى الابن عن طريق الايحاء والمشاركة الوجدانية ، وأصبح الولد قلقا على نفسه فاقد الثقة بها •

وبعض الآباء تكاد تنعدم ميولهم ، وأوجه اهتمامهم ، فيصبون طاقتهم كلها على أولادهم يوجهونهم ، ويهتمون بأمورهم ، فيقتلون فيهم النزعات الطبيعية للنمو الحر ، ويتعذر على الأولاد بسبب ذلك أن يتكونوا تكونا استقلاليا .

جزاءات الآباء

يتدخل الآباء فى سلوك الأبناء عن طريق الجزاء ، وهو يشمل الثواب والعقاب . فالأطفال يثابون عادة على أعمالهم ، تشجيعا لهم ، وحثا لغيرهم . وأنواع الثواب هى الجوائز العادية ، كالنقود ، والحلوى ، واللعب ، والهدايا ؛ والجوائز المعنوية عن طريق اظهار علامات الرضا والاستحسان بالعبارات الطيبة ، أو بسط أسارير الوجه ، أو غير ذلك . ومن أنواع الثواب العفو عن ذنب سابق ، فاذا قام الطفل بعمل طيب ، وكانت له سابقة سيئة يصح أن يعفى من العقاب عن هذه السابقة اثابة له على العمل الطيب .

والقاعدة العامة فى الثواب أنه لا يجوز اثابة الطفل على عمل يجب عليه أداؤه . فهذا النوع من الاثابة يخلق من الطفل شخصا ماديا ، يتوقع فائدة شخصية مباشرة لكل عمل يقوم به . وانما يثاب الطفل اذا قام بعمل نافع ليس من الواجب المحتم عليه أن يقوم به . فلا داعى لاثابة الطفل لأنه يتناول الطعام فى المواعيد المقررة ؛ ولكن تجوز اثابته اذا أعطى لعبته لطفل آخر عن طيب خاطر ليلعب بها ويردها له وعلى العموم يحسن أن تحل الجوائز المعنوية تدريجيا محل الجوائز المادية . والاثابة المعنوية اذا أجيد تطبيقها تؤدى تدريجيا الى تكوين الضمير الحى ، والى انماء الشخصية القوية المطمئنة الى ما تأتيه من الأعمال[1] . ومعنى هذا أن الثواب سواء أكان

---

(١) راجع فصل تكامل الشخصية .

ماديا أم معنويا يجب ألا يكون غرضا فى ذاته ، وانما يعتبر وسيلة ليتعلم الفرد بها قيم السلوك •

وأما العقاب فانه يتضمن ايلاما • والألم الناتج من العقاب يجب أن يكون أكبر من السرور الحادث من ارتكاب الذنب • ولتوضيح هذا نأخذ مثالا حسابيا غير واقعى ، وهو أنه اذا سرق أحد الناس عشرة قروش ، وعوقب بغرامة قدرها ثمانية قروش ، فلا شك أن من مصلحته المادية على الأقل أن يثابر على السرقة ، لأنها تضمن له ربحا • وكثير من أطفال المدارس لا يقلعون عن ذنوبهم رغم عقابهم عليها ، ، اما لأن النشوة التى يحسونها عند ارتكاب الذنب أكثر بكثير من الألم الذى يحسونه من العقاب ، واما لأن العقاب مرغوب فيه ، لأنه الطريق الوحيد لتكوين صلة وثيقة بينه وبين شخص هو يحبه[1] •

فعلينا أن نتأكد — ان لم يكن من العقاب بد — أن الألم الناتج منه أكبر من السرور المشتق من ارتكاب الذنب • وزيادة على ذلك ، يجب أن يأتى العقاب مباشرة بعد وقوع الذنب • ويرى بعض الآباء وجوب تأجيل العقاب حتى يعطى الطفل فرصة للتحسن • وهذا معقول الا فى الحالات التى يكون فيها عند الطفل معرفة سابقة بوجه التحريم فى الذنب •

ومن أكبر أخطاء الآباء ، شدة انفعالهم فى أثناء العقاب ، وايقاعه بصورة يقوم عادة بتوقيع العقوبة[2] • ومن الخطأ كذلك تهديد الطفل بعقوبة اذا اقترف ذنبا ما ، ثم عدم تنفيذ العقوبة بعد وقوع الذنب • فهذا يضعف من سلطة الوالد وقد يقلل من قيمة تهديداته وأقواله عامة فى نظر الطفل •

---

(١) هذا فى رأى فريق من علماء التحليل النفسى هو احدى طرق نمو الماسوكية

(٢) وتكبت هذه الكراهية عادة ، وتعرف غالبا بمظاهرها غير المباشرة

وله تأثير فى شخصية الطفل نفسها فى اتجاه الضعف ، أو فى تجاه العنف ، لأن مثال القوة الذى يحتذيه الطفل قد ضعف فى نظره •

ويعتمد بعض الآباء والمدرسين على العقوبات البدنية ، وهى سهلة التطبيق ، وتتيجتها الظاهرية سريعة • فهى تؤدى فى المنزل والمدرسة الى نظام ظاهرى شكلى سطحى • وهذا منشأ الخداع والاغراء فيها ، فنتائجها الظاهرية السريعة تخدع الوالد أو المدرس بقيمتها وكفايتها ، وتغريه بوجوب الالتجاء اليها • ويمكننا أن نؤكد أنه ليس بالأمر العسير تربية الأطفال من أول الأمر تربية حسنة ، دون الالتجاء اطلاقا الى العقوبات البدنية من أى نوع • ويحسن بالآباء والمدرسين أن يعملوا قدر جهدهم على تربية الأولاد دون الالتجاء الى العقوبة البدنية• ويوقع بعض المدرسين عقوبات بدنية بحجة أن الأطفال يضربون فى البيت ، ولا يمكن تنشئتهم فى المدرسة دون اتباع نفس الطريقة ، وهذا ما لا نشجع عليه •

ويطلق على العقوبات غير البدنية العقوبات النفسية ، وكثيرا ما تكون هذه أقسى من البدنية ، لذا ننبه الى الحرص فى استعمالها • فلا يجوز تذكير الطفل بخطئه وتوبيخه عليه يوما بعد آخر • فتكرار التوبيخ على عمل مرت عليه مدة طويلة ، يجعل الطفل يمر عادة بمراحل ثلاث : أولاها مرحلة التألم من الشعور بالذنب • وبالتكرار تأتى مرحلة التضايق من التوبيخ والكراهية لمصدر التوبيخ • وبزيادة التكرار تأتى عادة مرحلة ثالثة وهى عدم اعارة التوبيخ أو مصدره أى اهتمام • فالواجب أن يعود الآباء والمدرسين أنفسهم نسيان كل ما يتعلق بالذنب ، بعد توقيع العقوبة بمدة قصيرة • فلا يجوز أن يسمح للذنب أن يترك فى نفوسهم أثرا باقيا مستديما •

وبعض الآباء يتطلبون من أبنائهم الندم والاعتذار بعد توقيع العقاب عليهم مباشرة • ولا يجوز ارغام الطفل على شيء كهذا ففيه اذلال له ، وعدم اعتبار لما يجب انماؤه فى الأطفال من الشعور بالكرامة وعزة النفس • والقاعدة

العامة هى أن يترك الطفل بعد وقوع العقاب عليه مباشرة فلا يناقش ، لأنه يكون اذ ذاك غاضبا • وليس من العدل أن تتوقع منه متابعة مناقشة منطقية وهو فى هذه الحالة النفسية الحادة •

وبلغ من عدم اعتبار الآباء للحالة النفسية عند الأبناء أن رأيت مرة والدا يضرب ابنه ضربا مبرحا ، لأنه أقلق راحته وبكى الولد عند ضربه بصوت مرتفع ، فاستمر الوالد فى ضربه ، طالبا منه عدم البكاء ، وصمم الوالد على الاستمرار فى الضرب حتى يسكت الطفل ، ولكن الولد لا يمكنه الا أن يبكى بصوت مرتفع للألم الشديد الذى يحسه من شدة الضرب الواقع عليه • ولما هالنى خروج الأب عن صوابه فى تلك اللحظة وقرب اختناق الابن من شدة البكاء ، تدخلت بين الوالد وابنه،وفصلتهما ، وأقنعت الوالد بأنه كان يطلب أمرا مستحيلا •

ويلجأ الآباء أحيانا الى تهديدات وهمية بالنسبة للطفل ، فيهددونه بأن الله سيعاقبه يوم القيامة (١) ، وسيحرقه فى نار جهنم أو يهددونه « بالحرامى ، أو بالعسكرى أو بالحبس فى غرفة الفيران ، أو بما يشابه ذلك » ولمثل هذه التهديدات نتائج سيئة ، فبعض الأطفال يدركون أنها تهديدات وهمية ، وبهذا تقل قيمة التهديدات وقيمة مصادرها ، وتصير فى نظرهم مجالا للسخرية• وبعض الأطفال يتأثرون بها فعلا ،و ينشئون على شىء غير قليل من الجبن أو الخوف (٢) •

السياسة الثابتة والطاعة

ويجب أن يتذكر الآباء ، وكل من له علاقة بتربية الأطفال ، أن خير طريقة

---

(١) يلاحظ أننا قلنا ان هذه التهديدات وهمية بالنسبة للطفل لا بالنسبة للبالغ •

(٢) لم نتعرض هنا لما للعقاب من دلالات سيكلوجية فى الوالد أو المعلم أو صاحب السلطة • فقد يدل العقاب على رغبة لا شعورية فى التعبير عن النزعات الاعتدائية ، وعلى رغبة لا شعورية فى التمتع بارتكاب الذنب الذى يقع ممن يوقع عليه العقاب ، أو على ما يسمى أحيانا الاحساس اللاشعورى بالذنب (Unconsciousness of guilt)

لتربية الأطفال ، هى أن تكون لهم سياسة ثابتة ، ليست على شىء من التذبذب بين رأى وآخر • فاذا أظهرت فى وقت ما أنك لا توافق على سلوك معين ، فلا يجوز أن تظهر فى وقت آخر أنك توافق عليه ، اللهم الا اذا بينت أسبابا قوية كافية ، تدعم وجوب الاختلاف فى الرأى • افرض أن طفلا ما صدر منه لفظ ناب فى وقت ما ، فلا يجوز أن تضحك منه ، ثم اذا تكرر منه اللفظ تعاقبه عليه ؛ بل الواجب أن تفهمه خطأه من أول مرة • وتقدير الطفل لقيم السلوك يتم بسرعة وفى الاتجاه الصحيح اذا كان موقف الآباء منه موقفا ثابتا غير متغير ؛ فالسياسة الثابتة الحازمة هى التى تساعد الطفل على سرعة الوصول الى الحكم الأخلاقى الصحيح • ويحدث أحيانا أن يعاقب الوالد ابنه فاذا بكى الابن ، تأثر الوالد ، وتصل الحالة ببعض الآباء أن يهبط الواحد منهم باكيا معتذرا • وهذا النوع من التذبذب والضعف يخلق فى الطفل القلق ، والاضطراب ، وضعف العزيمة ، وعدم القدرة على البت فى بعض المواقف • وهناك كثير من حالات الانهيار العصبى عند الشبان والناشئين ، يرجع سببها الأصلى الى هذا النوع من الضعف فى الآباء •

ويرى هادفيلد[1] أن الشدة الثابتة خير من اللين مع التذبذب • ولكن خير من هذا وذاك أن يكون هناك حزم وثبات مع عطف معقول • واذا رجعنا الى حاجات الطفل نجد أن هذا الرأى يتفق مع ما نعلمه عن حاجة الطفل الى سلطة ضابطة أو الى نوع من التوجيه • ولو أن لديه فى الوقت نفسه حاجة الى الحرية ، وحاجة الى العطف يجب مراعاتهما •

ونشير هنا الى أن السياسة الثابتة تسهل على الطفل طاعة السلطة • وعلى الآباء ألا ينظروا الى الطاعة كغرض فى ذاتها • فاذا هم فعلوا ذلك ، فانما يطلبون من الصغار الخضوع لهم لمجرد الخضوع ، ليشبعوا فى أنفسهم ميلا خفيا الى السيطرة قد يكون ناشئا من نقص مكبوت • وجرت العادة

(١) محاضرات الأستاذ الدكتور هادفيلد لطلبة جامعة لندن سنة ١٩٣٣

قديما أن يسمى الناس الطفل الذى يجلس هادئا ، منكمشا ، خاضعا بأنه حسن الخلق • وأما الطفل النشط ، الكثير الكلام ، الدائم الحركة ، فجرت العادة أن يسموه جامحا ، وقحا • ولكننا اليوم قد نسمى الأول جبانا ضعيفا • وأما الثانى فقد نسميه جريئا قويا ، على أنه ينبغى أن تتريث فى الحكم فى كلتا الحالتين •

والذين يستعملون قوتهم وسلطانهم ليضمنوا طاعة أولادهم ، وخضوعهم ، يشبعون كما قلنا حب القوة والسلطان فى نفوسهم • ولكنهم يضحون فى سبيل ذلك بالحب وتبادل العطف والثقة التى يجب أن توجد بين الآباء والأبناء ، وقد يضحون تبعا لذلك بقوة الشخصية فى أبنائهم •

وليس معنى هذا أننا نفضل التمرد على الطاعة • فالطاعة مرحلة يجب أن يمر فيها الطفل ، ويجب أن يخرج منها بعد ذلك مستقلا فى رأيه وعمله • الطاعة هى انقياد الطفل للكبير ، ليسترشد به فى الفكر والعمل ؛ حتى يكبر ، ويصير قادرا على الاستقلال بنفسه فيهما • اذا فهمنا الطاعة على هذا الأساس أدركنا أنها طريق لغاية أخرى فى صالح الطفل ، وليست غاية فى ذاتها •

الروابط بين الوالدين

وللروابط بين الوالدين أهمية خاصة فى تكوين الأبناء ، فتعاون الوالدين واتفاقهما والاحتفاظ بكيان الأسرة ، يخلق جوا هادئا ينشأ فيه الطفل نشوءا متزنا • وهذا الاتزان العائلى يترتب عليه غالبا اعطاء الطفل ثقة فى نفسه وثقة فى العالم الذى يتعامل معه بعد ذلك • وبدراستنا لما يزيد عن ثلثمائة حالة من حالات الأحداث المجرمين والمشردين تبين أن ٧٥٪ تقريبا من الحالات يرجع فيها الاجرام والتشرد رجوعا مباشرا الى انهيار صرح الأسرة ، مما يمكن أن يدل على أن تماسك كيان الأسرة له أثره القوى المباشر فى سلوك الأبناء •

ومن دواعى تفكك روابط الأسرة مشاجرات الوالدين ، واختلافهما •

وربما كان هذا راجعا الى سوء الحالة الاقتصادية ، أو الى الاختلاف على طرق تربية الأبناء ، أو الى سوء سلوك أحد الوالدين أو غير ذلك مما يضطر الطفل الى الانحياز الى أحد الوالدين ضد الآخر ، ومما يجعل جو المنزل أحيانا جوا ثقيلا لا يطاق ، فيهرب منه الطفل الى الشارع حيث يحتمل أن يبدأ سلسلة من سلوك غير مرغوب فيه • وان لم يتمكن من الهرب الى الشارع ، ففى أحلام اليقظة متسع لفراره من الواقع • وأحيانا يصب أحد الوالدين جام غضبه على الطفل نفسه ، وكل هذا يقلل من ثقة الولد فى قوة الكيـان العائلى ، ويحتمل بالتالى أن يقلل ثقته فى نفسه ، وأن يجعل ثقته معدومة فيمن يتصل بهم فى الحياة بعد ذلك •

وقد يحدث التفكك بسبب وفاة الأب ، أو فاة الأم ، أو وفاتهما معا • وقد تظهر للولد زوجة أب ، أو زوج أم ، أو اخوة غير أشقاء • وقد يحدث التفكك عن طريق الطلاق أو الانفصالات المؤقتة أو الدائمة ، واضطرار الوالدين للعمل خارج المنزل لكسب العيش أو غير ذلك •

وتختلف درجة متانة الروابط بين الوالدين اختلافات واسعة النطاق جدا • ويمكننا أن نقول انه كلما قلت هذه الاختلافات ، زاد فى العـادة احتمال صلاحية الجو العائلى لتربية الأطفال تربية صالحة • وتوافق الوالدين أو اختلافهما يتوقف الى حد كبير على عوامل قد تكون ظاهرة ، وكثيرا ما تخفى على الوالدين نفسيهما ، كما يحدث بسبب عدم التوافق فى العلاقات الجنسية • وهذا مبحث طويل لا مجال للدخول فيه هنا •

المراجع

A. Adler : Guiding the Child.
A.S. Neill : The Problem Child.
A.S. Neill : The Problem Parent.
C. Burt : The Young Delinquent.
C.W. Valentine : The Difficult Child and the Problem of Discipline.
D. Thom : Everyday Problem of the Everyday Child.
Foster & Anderson : The Young Child & his Parents.
F. Howard : Mental Health.
Groves & Blanchard : Introduction to Mental Hygiene.
J.C. Flugel : The Psycho-Analytic Study of the Family.
Kanner : Child Psychiatry.
R. Cattell : Crooked Pesonalities.
S. Gruenberg : Parent Education.
S. Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Sayles : The Problem Child at Home.
Shaffer : The Psychology of adjustment.
White : The Mental Hygiene of Childhood.

الفصل العاشر

الطفل وإخوته

مركز الطفل بين اخوته

والمجال الذى يعيش فيه الطفل يتدخل فى تكوينه عامل هام وهو الاخوة ، ومركز الطفل منهم ، وما يترتب أحيانا على هذا المركز من اتجاه الوالدين اتجاهات تختلف من طفل الى آخر • فمجموع العلاقات الموجودة فى مجال حياة الطفل تتأثر بكون الطفل هو الأول ، أو الثانى ، أو الأخير وتتأثر بعدد الأولاد ان كان كثيرا أو قليلا • وتتأثر بكون الطفل هو الذكر الأول مثلا وبعده عدد من الاناث ، أو بأنه الذكر الأول بعد عدة بنات؛ أى أنها تتأثر بالمركز الناشىء عن جنسه وجنس من قبله ومن بعده • وتتأثر كذلك بما يحدث بين الاخوة من وفيات ؛ فقد يجىء الطفل بعد عدة وفيات ، أو قد يجىء بعده عدة وفيات • وتتأثر كذلك بالفترات الواقعة بين الاخوة ، وتتأثر بالكثير من أمثال هذه التشكيلات •

والتشكيلة العامة للأسرة ومركز الطفل فيها عامل مهم يتدخل فى توجيه تكوين الطفل ولو أنه بالطبع ليس العامل الوحيد فى ذلك • ويرجع الفضل فى اهتمام علماء النفس بمركز الطفل فى الأسرة كعامل هام فى تشكيل شخصيته الى ألفرد آدلر (Adler) وأتباعه[١] •

الطفل الأول والثانى :

لنأخذ الطفل الأول ، وهو الغالب فى حالات العيادات السيكلوجية •

(1) Adler : Understanding Human Nature

يأتى الطفل الأول وليس فى الأسرة غالبا سوى والديه ، وفى العادة يجيبان كل مطالبه ، ويوجهان اليه كل حبهما واهتمامهما ، أو قلقهما ، أو غير ذلك من الاتجاهات • بهذا قد ينشأ الطفل كما لو كانت عنده الفكرة أنه فى هذا العالم يأخذ ولا يعطى • وفى كثير من الأحيان تمر فترة طويلة أو قصيرة ، ويأتى بعدها للأسرة طفل آخر ، فيحتل الطفل الثانى ، ولو بصورة جزئية ، مركزا كان يحتله الأول • وهذا قد يهز فى نفس الطفل الأول كثيرا من ثقته فى نفسه ، وكثيرا من ثقته فيمن حوله • وبهذا تنشأ الغيرة بأعراضها المختلفة المعروفة ، وينمو الطفل فى كثير من الأحيان شديد الأنانية ، شديد العناد ، كثير التحدى لمن حوله صغارا وكبارا • واذا حدث أن والدين أنجبا عددا من الأطفال ، ثم مضت فترة طويلة مدتها سبع سنوات أو ثمان مثلا ، ثم أخذا ينجبان بعد ذلك ، فان الطفل الجديد فى هذه الحالة قد يكون شبيها الى حد كبير بالطفل الأول كما وصفنا •

ونلاحظ فى أحيان كثيرة أيضا أن الطفل الثانى من ناحية السلوك أصلب عودا وأقوى بأسا من الطفل الأول • ولعل سبب ذلك هو أن الطفل الأول عندما يولد وتنشأ لديه مشكلة ما ، فان الطرف الثانى فى المشكلة يكون عادة أحد الوالدين • وشتان بين مقدرته ومقدرة والديه • وهذا الفرق الكبير قد يحدث عنده اليأس • وكثيرا ما يحدث أن يتبع الطفل الأول طرق اللف والدوران والمداهنة والمكر حتى يحل مشكلته • يأتى الطفل الثانى وكثيرا ما يكون الطفل الأول طرفا ثانيا فى مشكلاته والفرق بينهما قليل ، فيحاول التغلب عليه ، وكثيرا ما ينجح بالصياح وما شابه ذلك خصوصا اذا تدخل الوالدان فانهما ينصحان الكبير بالتسامح والاستسلام والتنازل لأنه أكبر ، ويترتب عادة على هذا أن يكون الطفل الأول أقل صلابة فى ارادته وتمسكا برغباته من الطفل الثانى • ولذلك كثيرا ما تجد الطفل الثانى أكثر نجاحا فى الحياة من الطفل الأول •

وعلى سبيل المثال نذكر حالة أخوين من حالات محكمة الأحداث • اتهمهما أبوهما بالمروق ، وطردهما من منزله ، وكانا يبيتان طول الليل تحت المقاعد فى ميدان من ميادين القاهرة • واتضح بالبحث أن الولدين هما الذكر الأول والذكر الثانى فى الأسرة • أما الذكر الأول فقد اتضح أنه كثير السرقة ، وأن الذى كان يغريه بها هو الطفل الثانى الأصغر منه ، وكان هذا عنيفا كثير الاعتداء على غيره بالضرب ، كثير الهروب ، يخطف من الناس أكثر مما يسرق • وعند محاولتنا توجيه الولدين كنا نجد استسلاما وقبولا من الطفل الأول ، ونجد مقاومة عنيفة من الطفل الثانى •

وحالتان أخريان من حالات العيادة احداهما الطفل الأول فى الأسرة ، وثانيهما أخوه الذى يليه فى الترتيب • وكان الأول يتعثر فى النطق ، وهذا من مظاهر ضعف الثقة بالنفس ، وكان يميل الى النقد والتهكم ، خصوصا مع من هم أقل منه • وكان الثانى ميالا الى العناد ، والتخريب ، والمقاومة ، وكان يعذب الحيوان ،وبلغ به الأمر أن احدى هواياته كانت أنه يمسك (بالسحالى) ويفتح فم (السحلية) ويمسك بفكيها ثم يشدهما الى أن تتمزق (السحلية) نصفين • وكان مغرما بتمزيق الحيوان والحشرات الصغيرة وهى حية • وقد قام مرة باشعال النار فى ورقة كبيرة كانت مفروشة على مائدة المطبخ تحت المواقد (الوابورات) • وقام مرة أخرى بتقطيع بعض الحبال الرئيسية فى خيام معسكر من المعسكرات التى أخذ اليها • كل هذا حدث منه ولم يكن قد وصل الى السابعة من عمره ، وكان أخوه كما يتضح مضادا له فى خلقه وسلوكه •

ويحدث فى أحيان كثيرة — كما قلنا — أن يعامل الطفل الأول على أنه كبير مكتمل النمو ، وأما الثانى والأخير بنوع خاص فانه يعامل على أنه فرد صغير • وقد يلاحظ بعض الآباء أن طفلهما الثانى والأخير مثلا فى سن الخامسة يكون أصغر فى أساليبه من طفلهما الأول عندما كان فى هذه السن •

ومن دراسات شارلوت بولر[1] ما قامت به من درس حالات عادية ، منها أن بنتا فى سن العاشرة لها أخت عمرها ست سنوات ، وكانتا تنتميان الى أسرة متوسطة الحال تعيش فى «ڤينا» . وكانت الأخت الكبرى قاسية فى معاملتها لأختها الى حد بعيد ، فاذا انفردتا معا فان الكبرى تؤنب الصغرى وتؤذيها وتقسو عليها ، على الرغم من طاعة الصغرى للكبرى ومحبتها لها . وبالبحث وجد أن سبب ذلك هو أن حالة الأسرة لم تكن تسمح بوجود خادمة ، وكانت الأم تقوم بطبيعة الحال بكل عمل المنزل ، وكانت لهذا مرهقة جدا . فما كادت بنتها الأولى تكبر حتى أشركتها فى عمل المنزل ، وحرمت عليها اللعب ، وهى ما زالت بعد فى دور طفولتها . أما الصغرى فقد سمحت لها الأم أن تظل طفلة تلعب وتمرح كما تشاء ، وكانت الكبرى على ما يظهر تحسد الصغرى على ما هى فيه من نعمة ، وتتمنى لو أنها استطاعت أن تكون مثلها . وكانت الأم لا تعلم بالطبع ما يدور بخلد بنتها الكبرى ، بل كانت تعتقد أن الكبرى لم تعد طفلة بعد . فكانت الكبرى تنتهز الفرص لتسيطر على أختها كما تسيطر أمها عليها ، وبذلك تثأر لنفسها من أمها فى شخص أختها الصغرى .

الطفل الأخير

تبين هذه الحالات أغلب الاحتمالات فى نوع شخصية الطفل الأول والطفل الثانى . أما الطفل الأخير فانه يشعر بأنه أقل قوة وأقل نموا وأقل قدرة على التمتع بالحرية والثقة ممن هم أكبر منه . وزيادة على ذلك فان الوالدين يعاملانه عادة على أنه طفل ، ولو لمدة أطول من المدة التى عومل فيها من أتى قبله على أنه كذلك . ولذلك فهو ينشأ مدللا شاعرا بنقصه . وقد يترتب على هذا اما تعويض ناجح لهذا الشعور بالنقص أو تعويض غير ناجح . ولهذا فانا نجد أن عددا كبيرا من الحالات بينها الطفل الأخير .

---

(١) من محاضرات الدكتورة شارلوت بولر لطلبة جامعة لندن سنة ١٩٣٣ .

ويشبه الطفل الأخير الى حد كبير الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد • فالطفل الوحيد يحاط برعاية أكبر بكثير من حاجته • ولا يختلط بمن فى سنه اختلاطا يؤدى الى احتكاكه معهم فى المصالح على قدم المساواة احتكاكا كافيا يؤدى الى صقله وتعويده العطاء كما تعود الأخذ • لذلك ينشأ الطفل الوحيد غالبا مؤمنا حق الايمان بحقوقه ، ولكن لا يشعر كثيرا بواجباته • وينشأ بسبب هذا غير قادر على التعامل الناجح فى الحياة • أما الطفل الشبيه بالوحيد فهو الطفل الذى يعيش مدة طويلة منفردا بمركز ممتاز جدا فى الأسرة • وهذا يحدث فى حالة طول الفترات الواقعة بين طفل وآخر ، وقد تكون الفترة طويلة بالطبيعة أو بالقصد أو بسبب الوفيات بين طفل وآخر •

وهذه الفترة تعطى الطفل مجالا للتمتع بما يتمتع به الطفل الوحيد عادة من رعاية زائدة وتدليل • ويشبه الطفل الوحيد كذلك الأنثى الوحيدة مع عدد من الذكور ، أو الذكر الوحيد مع عدد من الاناث ، ولو أن حظ الذكر الوحيد أعلى عادة من حظ الأنثى الوحيدة •

والتفضيل الواضح فى معاملة الذكور على معاملة الاناث يترتب عليه كثيرا نقمة البنت على أخيها نقمة تكبتها فى العادة • وهذا يفسر مبالغة البنت فى حبها لأخيها ، ونقمتها على الطبيعة التى جعلت منها امرأة • ويفسر كثيرا جدا من المظاهر الأخرى التى لا يتسع لها هذا المقام •

لنأخذ مثالا حالة سيدة كانت تميل الى السيطرة على زوجها حتى كانت لا تسمح له بالبت فى أموره الخاصة • وبلغ بها الأمر أنها كانت تحزن حزنا شديدا اذا خالفها فى أمرها • وتفاقم معها الحال ولم تر بدا من استشارة اختصاصى • وببحث حالتها اتضح أنها كانت محبوبة فى صغرها • ثم ولد لها أخ ، وكانت معاملة الوالدين له أحسن بكثير جدا من معاملتهما لها ؛

أى أن الولد اغتصب مكانتها • وفى أثناء دراستها ذكرت بعض أحلامها ، وكان منها أنها رأت فى بعضها أنها كانت تكلم زوجها ، فلما اقتربت منه وجدت أنه امرأة • وبذلك حققت فى الحلم رغبة كانت مكبوتة فى نفسها ، وهى الرغبة فى التخلص من جميع الرجال حتى زوجها ، الذى تخلصت منه بأن حولته الى امرأة •

دراسة حالات :

ولتدعيم ما تقدم فى هذا الفصل وفى الفصل السابق له ، رأينا أن نعرض ملخصا لبعض حالات العيادة السيكولوجية بمعهد التربية ، مشيرين فى كل حالة الى نوع الشكوى ، والى مركز الحالة فى الأسرة ، والى ملخص مختصر عن الوالدين ومعاملتهما وموقفهما ، وحذفنا من حالات العيادة كل حالات الضعف العقلى ، وحالات التأخر الدراسى المسبب من غباء طبيعى ، والحالات المسببة أعراضها من عوامل جسمانية كالزوائد الأنفية أو تضخم اللوز أو الديدان أو ما شابه ذلك • ولم نشر كذلك الى الحالات التى لم تتم دراستها لعدم تعاون الوالدين ، خصوصا بعد كشفهما أن الاستفادة من التوجيه يتطلب وقتا وصبرا ، ويتطلب منهما تغيير ما تعودا أن يعاملا به أطفالهما وهذا ليس عادة بالأمر السهل •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
١	ذكر	١٤	متأخر فى الحساب ولا يميل للألعاب ، قليل الثقة بنفسه .	الأخير	حازمان ومهتمان بصالح أولادهما .
٢	ذكر	٩	اغراق فى أحلام اليقظة اهمال ، تأخر دراسى راغم أن ذكاءه فوق المتوسط	الأولى بعد خمس وفيات وبعده بنت	الأم ضعيفة ،كثيرة المرض والأب رجل محافظ يهتم بأولاده .
٣	ذكر	١٤	كذب ، تبول ، تأخر دراسى .	الثالث	عاديان الا أن الوالد كثير التبكيت لأولاده .
٤	ذكر	١٠	تأخر دراسى على الرغم من ذكائه .	الذكر الأول والوحيد وبعده ثلاث بنات.	الأم ضعيفة جدا ، والأب مريض ، والولد مدلل منهما ومن خالته وجدته لأمه .
٥	ذكر	١٦	تمرد وعصيان وتأخر دراسى .	الذكر الأول والوحيد وبعده ثلاث بنات	الأم تستعمل مع أولادها الشدة ، واغلب وقتها تقضيه خارج المنزل . الأب توفى وعمر الولد ست سنوات بعد أن دلله تدليلا شديدا ،

رقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
					وقام فى حياته بوظيفة الأب والأم فى العناية بأولاده .
٦	ذكر	١٢	تغير من نشاط الى خمول وأصبح أميل الى الوحدة والاعتكاف	الذكر الأخير (الخامس)	تدهور تدريجى شديد فى موارد الأسرة نقلها من مستوى فى المعيشة الى مستوى آخر أحط منه بكثير ، أصبح الوالدان لهذا متوترى الأعصاب . الأب عنيف جدا ، الأم تحمى أولادها منه ، الولد مدلل .
٧	ذكر	١٢	تأخر دراسى رغم علو ذكائه ، صعوبة فى النطق وميل الى التفاخر .	الذكر الأخير بعد بنتين	الولد مشغول جدا ، ولكنه هادىء ، الأم قلقة جدا على الولد ، وتحوطه بأنواع الرعاية القلقة .
٨	ذكر	١٢	كذب .	الثانى وقبله بنت ، أى أنه الذكر الأول فى الأسرة .	الوالد عصبى غيور جدا محترم للغاية . قاس جدا يضرب أولاده الى أن يصلوا الى حالة قريبة من الاغماء ، يحرم على ابنه مصادقة زملائه . الأم ضعيفة تنفذ فقط أوامر الأب وتتستر أحيانا على الأولاد .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٩	ذكر	٧	تبول لا ارادى ـ عناد	الخامس	نفس الوالدين السابقين
١٠	ذكر	٨	عناد وتبول ٠	الثانى بعد بنت وبعده ولدان أى أنه الذكر الأول	الأم ضعيفة ، والوالد يعوض هذا بفرض اشرافه على الأولاد على الرغم من كثرة أعماله ، ويبالغ فى دقة هذا الاشراف ٠
١١	أنثى	١٤	عصيان ، وانقباض ، ومشاكسة ٠	الأولى	الأب شديد جدا ٠ يضرب بنته ويهددها بالارسال الى مستشفى المجاذيب ٠ الأم ضعيفة وعصبية ، تثور وتضرب الأولاد ، تبكى ضعفا أمامهم ٠
١٢	ذكر	١١	مشاكسة ٠ وصعوبة فى النطق ٠	الأول والوحيد تقريبا اذ ان له أختا غير شقيقة	الأب متوفى ٠ زوج الأم لا سلطة له ٠ الأم شديدة جدا فى معاملتها ٠
١٣	ذكر	٦	عصبية ٠ لعب مستمر تقريبا فى أعضائه التناسلية عنيد قليل التركيز وكثير الحركة كثير المشاغبة ٠	العاشر من اثنى عشر بين بنين وبنات	الوالد متوفى ٠ الأم ضعيفة تخشى سطوة الولد وتجيب له كل طلباته ٠
١٤	ذكر	١٣	تبول لا ارادى ، وخمول دراسى ٠	الأخير	ماتت والدته ـ مات والده وقتل أخوه الأكبر ويعيش مع بعض أقاربه الذين يطمعون فى ثروته الضخمة ٠

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
١٥	أنثى	١٠	العناد ـ الكذب ـ الغيرةوشدة الحساسية بذاءة اللسان	الأخيرة	الأم عصبية جدا وتاتيها نوبات • الوالد يهتم بأولاده ودلل البنت أول الأمر ، والآن يقسو عليها •
١٦	ذكر	١١	تأخر دراسي ـ يميل الى الأنوثة أكثر منه للرجولة •	الأخير	كان مدللا جدا من والدته وتوفيت ثم توفي والده الذي كان على درجة كبيرة من التعلق به • وقد أخذ بالشدة بعد وفاتهما •
١٧	ذكر	٢٢	تشتت انتباه ـ قلق ـ ضعف عام •	الوحيد	تزوج والده بغير أمه ، ثم تزوجت أمه بغير أبيه ، وأصبح الولد تقريبا بلا ملجأ من زمن غير قصير •
١٨	ذكر	١١	تهتهة • يعض جلد أصابعه وشفتيه •	الثاني بين بنتين أي أنه الذكر الأول والوحيد •	الوالد والوالدة في شجار وخلاف مستمرين ، مما أدى الى انفصالهما بالطلاق وكان الأولاد يستعملون للتنكيل بأبيهم •
١٩	ذكر	١٥	صعوبة في النطق •	الوحيد وله أخت غير شقيقة	الوالدة طلقت وهي حامل به وهي عصبية كثيرة التشكك والغيرة ، مضطربة في أحوالها ، الأب هادىء وزوجة الأب هادئة •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٢٠	ذكر	٩	تأخر دراسى ـ عناد ـ كذب ـ تمنع عن بعض المأكولات ••	الثالث وبعده وفاة ثم بنت ثم ولد أى أنه ظل الذكر الأخير مدة طويلة •	الأم لينة ـ مرهقة ـ الأب فى المعاش ـ مريض بأمراض الشيخوخة كالسكر وضغط الدم • تتردد المعاملة بين الشدة والتدليل والتراخى •
٢١	أنثى	٦٫٥	غيرة ـ حساسية ـ تشتت فى الانتباه ـ أحلام مزعجة عن أخيها بصوت مرتفع •	الأولى والوحيدة لمدة خمس سنوات جاء بعدها ولد اغتصب المركز الممتاز الذى اعتادته مدة طويلة •	الأب هادىء يدلل البنت ، الأم ضعيفة • عصبية تترك أغلب عنايتها بالأولاد للأب •
٢٢	ذكر	٧٫٥	شدة الخجل ـ بطء فى الاجابة ـ ميل الى الوحدة والتلهى بعمل يدوى فردى •	الأول وبعده بنتان •	الأم مرهقة ـ كثيرة الوساوس على صحة أولادها دللت الولد تدليلا شديدا • الأب كثير المشاغل •
٢٣	ذكر	٢٣	وساوس ـ انصراف عن العمل •	الثانى وبعده اخت أى أنه الذكر الأخير	عاديان فى الظاهر •
٢٤	ذكر	١٣	تأخر دراسى ـ خجل شديد •	الرابع والأخير	الأم لينة ـ محافظة ـ الأب محافظ ، شديد ـ يميل الى الانزواء •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٢٥	ذكر	١٢	تأخر دراسي ـ خجل .	الأول ـ بعده أختان أي أنه الذكر الأول والوحيد	الوالد ضعيف ـ والوالدة ضعيفة ويسيطر عليهما وعلى الولد الاخوال وهم كبار السن غير متزوجين . الوالدان مشغولان بالأمراض التي تجعل جو المنزل قاتما جدا .
٢٦	ذكر	١٠	تهتهة شديدة جدا .	الأول وبعده ثلاث بنات	الأم شديدة الخوف كثيرة الوساوس . الأب يستحث ابنه على الاتصاف بصفات الرجولة من الصغر .
٢٧	ذكر	١٠	تهتهة شديدة جدا . ميل الى النقد والتهكم	الأول وبعده بنتان وولدان	الأم تحب البنات أكثر من البنين . الأب يدلل أولاده الى سن معينة ، ثم يشتد عليهم جدا . ويقوم لهم بوظيفة المدرس الخاص ويضربهم ضربا موجعا في أثناء ذلك . شديد الحث لأولاده . هذا كله على الرغم من شدة انشغاله بأعماله الخاصة .
٢٨	ذكر	٧	عناد . تخريب . تعذيب للحيوان . ميل للشر عامة .		

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
٢٩	ذكر	١١½	تهتهة • مشاكسة •	الأول وبعده بنتان	الوالد قاس جدا مع ابنه (كان أبوه من قبل قاسيا معه) • يعطيه دروسا خصوصية يتخللها الضرب • الأم تضرب أولادها ومع ذلك فهم لا يخشونها •
٣٠	ذكر	٧	تبول لا ارادى - عناد	الأول وبعده بنت	الوالد توفى بعد أن دلل الولد ٤ سنوات تدليلا شديدا ، الأم تميل للبنت وتضرب الولد ، وشغلت بعد وفاة زوجها بزوج آخر •
٣١	ذكر	١١	سرقة - كذب •	الأخير بعد بنتين وولد	الأب شديد وأنانى وهو الكل فى الكل فى المنزل ، الأم ضعيفة ، ومسالمة ، حريصة للغاية •
٣٢	ذكر	٩½	التأخر الدراسى - الخمول - الخجل - الكذب - الغيرة - العناد - الجبن - التأفف من الطعام •	الثانى بعد بنت وبعده بنت	الأم كثيرة النقد والموازنة بين أولادها وأولاد غيرها تعطف علنا على البنات دون الولد. الوالد عادى. ولو أن معاملته لأولاده تتذبذب بين الشدة واللين •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
٣٣	ذكر	٨	عنيد ـ عنيف ـ له حركات عصبية ـ مخرب ـ قاس مع اخوته والخدم ٠	الأول وبعده ولدان	الوالدان قلقان ، وليس لهما ميول سوى الاهتمام بالأولاد ، وهذا القلق أشد فى الوالد منه فى الوالدة معاملتهما غير ثابتة ٠
٣٤	ذكر	١١½	تأخر دراسى على الرغم من ذكائه ، عناد ، وعصيان ، واهمال ، وزيادة مطردة فى الوزن ٠	الولد الوحيد وجاء بعده ولد مات فى حادث ترام ٠	يتدخل الوالد فى كل كبيرة وصغيرة من شئون الولد ، الوالد عصبى يعتريه انقباض ، الأم مريضة تخالف زوجها فى معاملته ابنها ٠ كل منهما يعتقد أن الآخر سبب فساد الولد ٠
٣٥	ذكر	١٠	كذب ـ عسر ـ سرحان تأخر دراسى ـ سوء معاملة للمدرسين والخدم ٠	الولد الأول وبعده بنت وولد ٠	الأب شديد التضييق على ابنه وعلى نفسه ، يقضى يومه كله فى المنزل ليشرف على مذاكرته ٠ فوق ذلك يوجد مدرس خصوصى ٠ الأم قست على الولد ثم تعامله الآن باللين ٠
٣٦	أنثى	٧	ـ تخريب ـ متقلبة فى أحوالها تقلبا شديدا عصبية مشاكسة ٠	الأولى بعد اجهاض وبعدها ثلاثة أولاد ٠	الأب تزوج مرتين ٠ الجد من ناحية الأب تزوج بأخت زوجة الأب الثانية ٠ هذه لم تلد ٠ أخذت

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
					البنت عندها وتعلقت بها حتى انها لا تقوى على مفارقتها • الأم عصبية وضعيفة . الوالد ضعيف• الخالة تتحكم فى الأب والأم والجد والبنت . تفضل البنت الاقامة مع والديها واخوتها لتلعب معهم •
٣٧	ذكر	١١	تهتهة شديدة — حساسية •	الأخير بعد ولد •	الأب توفى صغير السن جدا . بسل العظام . الأم قلقة وتصب اهتمامها كله عليه دون أخيه •
٣٨	ذكر	٧	تهتهة — تبول لا ارادى يخاف الظلام — عصبى	الخامس من بين ٧ ذكور واناث .	الأم تكثر من عقاب الأولاد وشكايتهم للوالد • ضعيفة لينة فى كثير من الأحيان الأخرى ، مرهقة ، الأب عصبى ، يتهتهه ، يهمه جدا تعليم أولاده على الرغم من ضيق ذات يده •
٣٩	ذكر	٧	التأخر الدراسى — العناد • العنف • غير محبوب من زملائه •	الأخير بعد ولدين والفترة بين كل ولد	الوالد توفى وكان يدلل هذا الولد كثيرا • الوالدة عصبية وضعيفة • اخوة

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الاسرة	بيانات عن الوالدين
				والآخر تزيد على خمس سنوات	الولد قسوا عليه بغاية الشدة بعدوفاة الأب الذى كان يدلله •
٤٠	ذكر	٥½	تأخر دراسى • تبول لا ارادى • تشتت انتباه •	الأخير بعد بنتين .	الوالد عصبى • قلق على أولاده ، بخلاف الأم •
٤١	ذكر	١٠½	عناد • عصبية • تأخر دراسى •	الرابع من سبعة بين بنين وبنات ولكنه الذكر الأول	الوالد كان لينا مع ابنه الى أن رسب مرة فانقلب الوالد دفعة واحدة عليه وعامله بالشدة والضرب • الأم ضعيفة أمام الولد • الولد سيد المنزل اذا غاب الوالد عنه •
٤٢	ذكر	١٢	تهتهة •	الثانى بعد بنت ؛ أى أنه الذكر الأول . وبعده ولدان .	الأب مهمل لأسرته • الأم ترى أن زواجها فاشل • والأب نفسه يتهته قليلا •
٤٣	ذكر	١٠	تأخر دراسى • تبول	الأخير من سبعة بينهم خمس بنات	الوالدان عاديان الا أنهما يعطيان المنزل جوا جادا لا مجال فيه للعب الأطفال وهرجهم ومرجهم •
٤٤	ذكر	١٠	خمول • تأخر دراسى رغم ارتفاع الذكاء •	الوحيد .	الوالدة عادية لكن الوالد لين وضعيف وقلق • ويميل الى شدة تدليل الولد •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٤٥	ذكر	٩	تأخر دراسى • مع ميل للعزلة والسرحان تبول • خوف من الظلام ومن الكبار عامة •	الأول •	الوالدان يعامل كل منهما الآخر بغير تسامح • قلقان من ناحية الولد • ويكلفانه دائما فوق طاقته
٤٦	ذكر	١٠ $\frac{1}{3}$	تهتهة •	الوحيد •	الأم تدلل الولد ، والوالد شديد جدا عليه ، ويضربه ويحرمه من مخالفة الآخرين •
٤٧	أنثى	١١	ضعف شديد مفاجىء في الابصار وصداع شديد مفاجىء • حساسية وسرعة بكاء	الأول بعد اجهاضين وبعدها وفاة ثم ولد وبنت	الوالدان يخافان الأمراض خوفا غير عادى ويعاملان أولادهما معاملة حسنة الا أن الأب مشغول جدا والاتجاه العام يرمى الى التحيز لبقية الأولاد دونها
٤٨	ذكر	١٩	نوبات عصبية • تمرد •	الأخير •	الأم مطلقة • ويعيش الولد مع أبيه وزوج أبيه • ويشعر أنه ضيف ثقيل عليهما • الجفاء مستحكم بينه وبين الوالد •
٤٩	ذكر	١١	عناد وهروب من المنزل •	الأول وبعده بنت واحدة	الأم مسيطرة على جو المنزل وتميل للبنت جدا على حين تكره الولد كرها ظاهرا • الوالد كثير النقد للولد •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
					مشغول جدا وأعصابه مرهقة • الأم أوربية والوالد مصرى •
٥٠	ذكر	١٨	تمرد • عناد • عدم رغبة فى التعليم • اعتداء لاغتصاب مال • تهديد بالقتل حتى لوالده •	الوحيد •	الأم متوفاة وهى أوربية الأصل • كانت مريضة طول حياتها تقريبا • الأب رجل ضعيف جدا معابنه ، ومعجب الى درجة كبيرة بذكائه وجماله وخفة روحه •
٥١	ذكر	$١٦\frac{١}{٢}$	تأخر دراسى ، خمول ميل للانوثة •	الأول	الأب رجل عادى ، وأما الأم فانها متشككة وتفرض ارادتها على المنزل بما فيه الأب الى حد ما ، وتقضى لأولادها حاجاتهم صغيرها وكبيرها ، لا تزور ولا تزار
٥٢	ذكر	$٩\frac{١}{٢}$	تأخر دراسى •	الثالث بعد ولدين ؛ بعده بنت وولد •	الأب والأم عاديان الا أن الأب يضرب أولاده أحيانا وهو عصبى نوعا ما •
٥٣	ذكر	$١٧\frac{١}{٢}$	تهتهة •	الثانى بعد ولد وبعده بنتان •	الأم ضعيفة جدا والأب شديد جدا ، كان سيىء السلوك واستقام أخيرا عندما أدركته الشيخوخة

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الاسرة	بيانات عن الوالدين
٥٤	ذكر	٥ $\frac{1}{2}$	عصبى • قليل الصبر • يميل للعناد والعصيان •	الأخير بعد ولدين وبنتين توفيت احداهما وهى التى قبله مباشرة	الأم متعلقة بالطفل تعلقا شديدا جدا ، ودللته كثيرا بعد وفاة البنت ، والأب رجل متساهل جدا كثير المشاغل •
٥٥	ذكر	٢١ $\frac{1}{2}$	صعوبة نطق اعترته بعد سن العشرين •	الأول •	جو المنزل قاتم حزين •
٥٦	ذكر	١٤ $\frac{1}{2}$	تأخر دراسى • كسل • عدم قدرة على التركيز • عنف شره • اهمال • استمناء اجتماع جنسى بالخدم •	الأول وبعده بنتان	دلل الولد تدليلا شديدا من والديه اللذين أشرفا على عمله ودراسته اشرافا تاما •
٥٧	ذكر	٢٠ $\frac{1}{2}$	اهمال للعمل • تضايق • عدم قدرة على ضبط النفس •	الاول •	هذا هو الأخ الأول لحالة رقم ٥٣ •
٥٨	ذكر	٩	احلام يقظة • فقد شهوة الطعام •	الأول بعد وفاة وبعده بنتان	الأم مرحة ومتساهلة ولكن الأب قلق شديد العناية والاهتمام بابنه بنوع خاص •
٥٩	ذكر	٥ $\frac{1}{2}$	عناد • عنف • تبول لا ارادى أحيانا • كثرة اللعب في العضو الجنسى لدرجة الادماء أحيانا •	الوحيد •	الأم انفصلت عن الوالد وهى حامل • الرجل مزواج مستهتر والأم من النوع المحافظ جدا •

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة فى الأسرة	بيانات عن الوالدين
					والولد يسكن مع أمه فى منزل به جده وجدته وأخواله ، والأم مسلوبة السلطة مع ابنها فى هذا الجو .
٦٠	ذكر	١٤	تهتهة من سن الخامسة	الرابع ومجموع الأولاد ثمانية	الرجل رقيق الحال ويشغله كسب العيش عن كل شىء . يعطف على أولاده . الأم ضعيفة ومرهقة .
٦١	ذكر	١٨	تهتهة .	الاخير .	عاديان ظاهريا .
٦٢	ذكر	١٨	اكتئاب شديد . ضيق صدر . افراط فى عملية الاستمناء لدرجة ينسى معها عدد مرات ممارستها فى اليوم أحيانا .	الثانى بعد ولد وبعده خمس أولاد وبنات	الوالدة توفيت وتزوج الوالد من بعدها . والوالد رجل هادىء مستقيم يحب أولاده حبا شديدا .
٦٣	ذكر	٢٠	ضيق صدر ، عدم القدرة على المذاكرة . كراهية المنزل .	الخامس بعد ولدين وبنتين وبعده بنت تصغره بست سنوات .	الوالد توفى وكان ميالا للهوالمستور ، وبعد وفاته فقط بدأ اخوة الولد يضربونه ، وكان الولد يحب والده . حدث بعد الوفاة تدهور اقتصادى شديد جدا نقل الأسرة من الغنى الى حالة أقل من المتوسط . الأم سيدة حازمة .

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
٦٤	ذكر	٢٠	ادمان للاستمناء •	الأخير •	الأب متدين جدا والأم عادية فى الظاهر •
٦٥	ذكر	١٩½	سرعة الغضب • كثرة الصياح •	الثانى وبعده بنتان ثم ولد	الوالد عصبى كثير الغضب والوالدة عادية •
			سرقة من زملائه بالمدرسة وهرب من المنزل وتأخر دراسى رغم توسط ذكائه •	الاول وبعده بنت •	الوالد شديد التدين غليظ القلب • يخافه كل من فى المنزل بما فى ذلك الأم — الوالد والوالدة يغاران بشدة على الأولاد ويتابعان بعنف مصالحهما المدرسية هذا على الرغم من رقة حالهما الى درجة كبيرة •
٦٧	ذكر	١٤	اهمال النظافة لدرجة تلفت النظر • السرحان التأخر الدراسى •	الاول وبعده ولد	الأم توفيت • الأب يعنى بالأولاد من ناحية الانفاق عليهما فقط وليس له بهما صلة أخرى •
٦٨	ذكر	١٢½	سرحان • تأخر دراسى شديد • ضعف جسمى •	الأول وبعده خمس بنين وبنات •	الزوج يكبر الزوجة بـ ٢٥ عاما ، تزوج قبل زوجته الحالية وطلقها لأنها لا تنجب أطفالا ، ثم جاء هذا الولد بعد وفاتين ، والوالد يدلله ويقلق لكل صغيرة وكبيرة خاصة به

الرقم	الجنس	العمر	نوع الشكوى	مركز الحالة في الأسرة	بيانات عن الوالدين
					الرجل شاذ في تصرفاته والأم مشغولة بأولادها .
٦٩	ذكر	١٧	حركات عصبية بالفم .	الثالث بعد بنتين وبعده ولد يصغره بسبع سنوات	الجو المنزلي عادي ، ويشتغل الوالد بالتجارة ، وتربية الأولاد متروكة كلها للأم .
٧٠	ذكر	١٦	اضطراب عصبي .	الأول .	الأم عصبية والوالد عصبي كلاهما شديد التدخل في حياة الابن .
٧١	أنثى	١٧	نوبات عصبية . انقباض .	الاخيرة .	الأب توفي وكان رجلا متدينا جدا ، والمنزل تشرف عليه الأم والأخوات الكبار وقد مات أخوهم أيضا .
٧٢	أنثى	١٩	ضيق شديد . بكاء بدون سبب ظاهر . قلق . شعور بالعجز عن مواجهة الحياة	الأولى	الأم عصبية شديدة ، وتعتقد أن زوجها أقل منها بكثير . الرجل يحاول ارضاءها في حدود كرامته .
٧٣	ذكر	١٥	تأخر دراسي مع استهتار شديد .	الأخير	من الأثرياء المشغولين .
٧٤	ذكر	١٧	ضيق صدر . اكتئاب . وساوس مع طموح وخيال وذكاء .	الاول بعد وفاة الاول .	الوالد توفي ، وكان عاجزا من الناحية الجنسية ، بعد حياة مليئة بالمغامرات ، الوالدة سيدة متمسكة .

ولأجل أن يكون لهذا البيان قيمة علمية واضحة ، كان من الواجب أن نقوم بدراسة احصائية ، الى جانب دراستنا لهذه الحالات ، لعدد آخر من الحالات العادية المشابهة لها فى الظروف ، حتى تكون هناك مجموعة للحالات ذات المشكلات ، وبجانبها مجموعة مساوية لها من الحالات التى لا مشكلات لها • ولكن لا مانع من أن نعرض نتائجنا اذ أن لها بعض الدلالة • فالطفل الأول ظهر فى مجموع الحالات بنسبة ٣٨٪ ، والطفل الأخير ظهر بنسبة ٢٦٪ ، والطفل الوحيد ظهر بنسبة ١١٪ ، والذكر الوحيد مع عدة أناث ظهر بنسبة ١٨٪ ، وأما الأنثى الوحيدة مع ذكور فقد ظهرت بنسبة ٣٪ •

يبدو من هذا كله أن مركز الطفل ان كان يعطيه امتيازا خاصا فى مجال الأسرة ، فان هذا الامتياز يحتمل أن يكون أحد العوامل الهامة فى خلق صعوبة تكيف الطفل مع بيئته التكيف المناسب •

وهذه النتائج تتفق مع نتائج دراسات آدلر ، وبعض الأرقام قريبة من أرقام الأستاذ «بيرت»[1] • فقد وجد بيرت فى دراسته للمجرمين الأحداث أن الطفل الوحيد يظهر فى حالاته بنسبة ١٢ر٢٪ ، على حين يظهر فى حالاتنا بنسبة ١١٪ ، والنسبتان قريبتان جدا احداهما من الأخرى • ويظهر الطفل الوحيد فى المجموعات العادية بحسب بحث «بيرت» بنسبة ١ر٧٪ ، ومن ذلك يتضح أن النسبة بين المشكلين والعاديين فى الطفل الوحيد هى ٦ : ١ •

خاتمـــة :

من كل هذا نرى أهمية دراسة مركز الطفل فى مجموعة الأسرة ، حتى نفهم سلوكه ونواحي شذوذه • ويستفيد الآباء من هذه الدراسة فى تحديد سياستهم نحو أطفالهم ، فيجب أن يعاملوا أطفالهم بحسب مراكزهم ، وبحيث لا يتعرض الطفل لما يتعرض له عادة نتيجة هذا المركز • ويستفيدون كذلك من حيث سياستهم فى انجاب الأطفال • فهل يكتفى الوالدان بطفل واحد أو بطفلين ، وماذا يكون طول الفترة التى تفصل طفلا عن آخر ؟ هذه كلها أسئلة يسهل الاجابة عنها على ضوء ما تقدم •

(1) C. Burt : The Youmg Delinquent, p. 64.

المراجع

A. Adler : Guiding the Child.
Adler : Understanding Human Nature.
Adler : Education of Children. Ch. VIII.
C. Burt. The Young Delinquent.
R. Cattell: Crooked Personalities.
J.C. Flugel : The Psycho-Analytic Study of the Family.
Foster & Anderson : The Young Child and His Parents.
Groves & Blanchard : Introduction to Mental Hygiene.
S. Gruenberg : Parent Education.
S. Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
F. Howard : Mental Health.
Kanner : Child Psychiatry.
Murchison : Handbook of Child Psychology.
A.S. Neill : The Problem Child.
A.S. Neill : The Problem Parent.
Sayles : The Problem Child at Home.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
C.W. Valentine : The Difficult Child and the Problem of Discipline.
Wexberg : Individual Psychology.
White : The Mental Hygiene of Childhood.

الفصل الحادى عشر

المدرسة ومشكلات النشء

مقدمـــة :

انتهينا من التكلم عن الطفل فى بيئته المنزلية بمختلف مؤثراتها من والدين واخوة ، وغيرهم . ولا يكاد الطفل يصل الى السادسة من عمره حتى يكون قد أرسل الى المدرسة ، حيث يقوم بقضاء جزء كبير من الوقت للتعلم ، وكسب المهـــارات بمختلف صنوفها ، ولتكوين الاتجـاهات الاجتماعية الضرورية لحسن تكيفه مع البيئة الاجتماعية الكبرى . معنى هذا أنه يضاف الى المؤثرات المنزلية مؤثرات مدرسية أو تعلمية ، تستمر فى الناشىء الى أن يخرج الى الحياة . لهذا كانت المدرسة كبيرة الأهمية لخطورة الأغراض التى تعمل لها ولطول مدة تأثيرها . ولهذا كانت تستحق بعض التفصيل فى بحث مؤثراتها فى تكوين النشء .

المدرسة وعلاقتها بكل من المنزل والمجتمع :

من المسائل المعروفة ، أن المدرسة هى تلك البيئة الصناعية ، التى خلقها التطور الاجتماعى ، لكى يمر فيها الطفل ، بحيث يصبح بعد ذلك معدا اعدادا صالحا للحياة الاجتماعية ، أى أن المدرسة حلقة متوسطة ، يمر فيها الطفل فى دور يقع عادة بين مرحلة الطفولة الأولى التى يقضيها الطفل فى منزله ، ومرحلة اكتمال نموه ، التى يضطلع فيها بمسئولياته فى المجتمع . لهذا وجب أن يكون هناك اتصال وثيق جدا بين الحلقات الثلاث ، وهى المنزل والمدرسة والمجتمع .
وواضح أنه لأجل أن ينمو الطفل نموا تدريجيا ، متعدد النواحى ، بحيث يحتفظ باطمئنانه ، بل بحيث يتسع شعوره بالأمن وينمو ، يجب أن يكون

هناك تدرج بين هذه البيئات الثلاث ، بحيث يسهل على الطفل الانتقال من واحدة الى التى تليها • وبطبيعة الحال يجب أن يتحقق التدرج فى النمو العقلى والاجتماعى ، فى داخل البيئة الواحدة • فيراعى على الأقل أن الانتقال يتدرج من البيت الى المدرسة ، ومن هـذه الى المجتمع ، بحيث يستوفى الطفل حاجاته فى المرحلة التى هو فيها ، مع تذكر البيئة التى سينتقل اليها بعد ذلك • مثال ذلك ، أنه لا يجوز المبالغة فى تدليل الطفل فى المنزل ، والا أحس بفقد امتياز التدليل عند انتقاله للمدرسة أو للمجتمع • ولا يجوز للمدرسة أن تغفل مثلا انماء المسئولية الاجتماعيـة ، أو الولاء الاجتماعى عن طريق الممارسة الشخصية ، لأن عدم الاتصاف بهاتين الصفتين يعرض صاحبهما لصعوبات فى علاقاته مع غيره فى المجتمع • ولا يجوز أن نكيف أسـاليب تربيـة الطفل ومعاملته بما يتطلبه الفرد عنـد اكتمال نموه فحسب ، فنهمل حاجاته وميوله واستعداداته فى المرحلة التى تتناوله فيها بالتربية •

ومعنى ما تقدم أنه يجب أن يتحقق للطفل فى جو المدرسة كثير مما يتحقق له فى جو المنزل الصالح ؛ من حاجة الطفل لعطف الكباروالأخوة ، وتقديرهم له ، وشعوره بالانتماء اليهم بصورة تحقق حاجته للشعور بالاطمئنان • ويجب الارشاد وانماء الاحساس بالمسئولية الاجتماعية • وأن يكون النشاط فى المدرسة متعدد النواحى ، وفى حدود مقدرة الطفل ، بحيث يعطيه فرصة اشباع الحاجةللشعور بالنجاح ولتقدير نفسه تقديرا مرضيا فى نظر نفسه • وبالجملة ، يجب أن يكون جو المدرسة ، بحيث يحقق النمو المتعدد النواحى ، مع شعور الطفل بالاطمئنان شعورا كاملا بقدر الامكان •

أما من حيث علاقة المدرسة بالمجتمع ، فيجب أن يكون هناك تدرج فى الصلة بينهما ؛ فلا يجوز أن تكـون هناك فجوة سحيقة ، أو أن يستدعى الانتقال من المدرسة للمجتمع من الناشىء قفزة يتعذر عليه أداؤها • ولأجل أن يتحقق هذا يلزم أن تكون المدرسة قطعة من المجتمع أو صورة منه ؛ فيجب أن تكون المادة المستعملة لاستثارة نشاط التلاميذ مستمدة من البيئة

المحيطة . وتختار هذه المادة بحيث تؤثر فى التلميذ تأثيرا يجعله قادرا على التكيف للمجتمع . ومع ذلك يجب أن يكون المجتمع المدرسى أكثر صلاحية من المجتمع الخارجى ، وبذلك تصبح المدرسة مركزا لتخريج الأفراد القادرين ، لا على التكيف للمجتمع فحسب ؛ بل على النهوض به ورفع مستواه أيضا . ومن ثم يجب أن نعتبر المدرسة بيئة ، تتغذى بنشاطها من البيئة المحيطة بما فيها من مجتمع ، وتغذى المجتمع بأفراد صالحين للنجاح فيه ، والنهوض به .

نرى مما تقدم أنه يجب أن يراعى فى جو المدرسة استمرار لروح جو البيت الصالح ؛ وعن طريق اتصال الآباء بالمدرسة ، واتصال المعلمين بالمنزل ، يمكن احداث التعديلات اللازمة لحل الصعوبات البسيطة ، التى تطرأ من آن لآخر . كما يجب أن يراعى فى أن يكون جو المدرسة أنموذجا صالحا لجو المجتمع ؛ أى لا يمثل المجتمع بصورته فحسب ؛ وانما يمثله أيضا بحيث يفضله ، حتى يهيىء من يمرون فيه الى النهوض بجو المجتمع . وان لم نراع هذا التدرج فى حياة الطفل بين المنزل والمدرسة والمجتمع ولا سيما فى اشباع الحاجات النفسية الأساسية كلها من أمن ، وعطف ، وتقدير ، وحرية مضبوطة موجهة ، ونجاح — فان الطفل يشعر بصعوبة فى ملاءمة نفسه ملاءمة مقبولة ، وقد ينشأ حينئذ كثير من المشكلات النفسية ومشكلات السلوك المعروفة .

ففى احدى الحالات نال تلميذ شهادة الدراسة التوجيهية فى سن مبكرة ، ثم دخل احدى كليات الجامعة ، فهاله التغير الفجائى بين الدراستين . فبعد أن كان تلميذا فى فرقة عددها خمسة وعشرون ، صار يحضر محاضراته فى مدرج ، به أكثر من ثلثمائة طالب . وبعد أن كان يفهم الدروس درسا درسا وبتؤدة . وتقدم له المادة مهضومة ، وما عليه الا أن يستوعبها ، صار يعطى المحاضرات غير الواضحة ، ويعطى لكل محاضرة عشرات من المراجع ؛

فيطلب منه أن يعتمد على نفسه فى البحث والاطلاع ، ولم يسبق له أن اعتمد على نفسه قط . وبعد أن كانت الكتب قليلة العدد ، وكل منها قليل الصفحات ، صار يكلف بمطالعة المجلدات الضخمة . وكان فى المدرسة الثانوية يشعر بعلاقة وثيقة بينه وبين مدرسيه ، وفى الكلية لايوجد شيء من هذه العلاقة ، بل لا أمل له فى تكوينها .

بدأ هذا الطالب يستذكر دروسه ، ولا يفهم أو يحفظ منها شيئا ، لأنه انتقل من حال كان يطمئن فيها الى نتيجة جهده ، الى حال يشعر معها أن جهده لن يوصله الى نتيجة . فبدأت تظهر عليه أعراض الانصراف عن المذاكرة ، والاكثار من النوم ، ثم ازدادت الأعراض بأن نقص مايأكله وازداد اعتكافه ، وازداد عدد الساعات التى يصرفها فى مضجعه لا هو بالنائم ، ولا هو باليقظ ، وبدأ يشكو الضعف العام . وللولد من تاريخ نموه وظروف حياته ما هيأه لهذه الأعراض . ولكن لعل هذه الأعراض ما كانت لتظهر لولا الانتقال الفجائى من جو مدرسى الى جو مدرسى آخر يختلف عنه تمام الاختلاف .

وهناك حالات كثيرة جدا من هذا النوع ، تظهر فى مراحل التعليم العالى فى مصر . ويمكن معالجتها أو منع ظهورها بطريقتين : أولاهما : الاستئناس بمطالب المجتمع الخلقية والثقافية والمهنية ، ومحاولة تحقيقها فى دور التعليم . وثانيتهما : ارشاد التلميذ الى مسالك الحياة ، وفرصها ، وظروفها ، وارشاده حسب استعداده الوراثى والمكتسب لما يصلح له منها . وقد قطعت دور التعليم فى الخارج أشواطا بعيدة فى هذا الاتجاه .

الغاية من المدرسة واثر الامتحانات :

من أهم العوامل التى تلعب دورا بارزا فى تكييف جو المدرسة ، الغاية منها فى نظر المشرفين على التعليم . هذه الغاية قد تكون صريحة أو ضمنية وقد تتعدد الغايات ، ويكون بعضها صريحا وبعضها ضمنيا ، وقد يكون

بين هذه الغايات تنافر يؤدى الى الفوضى فى التعليم • ومن الغايات المتفق عليها الاعداد للحياة عن طريق التعلم أو كسب المعرفة • ويقصد بهذا كسب نوع من المهارة العقلية يجعل الفرد أقدر على التكيف العقلى مع الحياة ، ويلاحظ أنه لابد مع عملية كسب المهارة العقلية من وجود نوع من الاختبار لمعرفة مدى استفادة المتعلمين ، ومدى صلاحية أساليب التعليم ، ومناهجه • ومن هنا نشأت الاختبارات ، وكانت النتيجة النهائية لهذه الاختبارات أنها تؤهل المرء لمركز ينظر اليه المجتمع نظرة تقدير واحترام • وبذلك اكتسبت الامتحانات أهمية كبرى ، فصارت هى هدف التلميذ ، والوالد ، وجميع أفراد الهيئة المشرفة على التعليم • وأخذت هذه الحالة صورة بارزة فى مصر ، ولو أن الأذهان قد تنبهت لها أخيرا وأخذت تعمل الآن على معالجتها • وما زالت الامتحانات فى مصر تستعمل سلاحا يتحكم فى مستقبل المتعلمين ، وكان الواجب أن تكون وسيلة لارشادهم وتوجيههم •

ومن ثم فقد أصبح هدف المتعلمين هو تحصيل المعرفة بصورة يسهل استعمالها يوم الامتحان • والمدرسون كذلك صار هذا هدفهم الذى يهيمن على اتجاه تفكيرهم • فكأن الغرض الضمنى للمدرسة هو تحصيل قدر من المعلومات بصورة يسهل الامتحان فيها بالطرق التى ألفها المعلمون والمتعلمون • لهذا حاول كثير من الآباء دفع أبنائهم دفعا الى التعليم على الرغم من صغر سنهم ، أو قلة استعدادهم ، اعتمادا على أن المعلومات يمكن دائما تبسيطها ، والمثابرة على حفظها ، أو مجرد تعليقها فى الذهن حتى يوم الامتحان •

وقد ترتب على هذا أشياء كثيرة جدا منها : أنه يكفى أن يذهب التلميذ الى المدرسة ، ويجلس أمام معلمه ليستقبل ما يعطى له من معلومات ، وبجانبه تلاميذ آخرون لا تربطه بهم أية علاقة ، وليست لديه الحاجة لأن تربطه بهم أية علاقة • والمدرس كذلك صار ولا ضرورة لأن تربطه بتلاميذه أية علاقة أكثر من علاقة التلقين • ومن ثم يمكن للتلميذ أن يذهب للمدرسة ، ويجلس

هادئا لا حراك به ، ويفتح حواسه لاستقبال مختلف ضروب المعرفة ، ثم يعود الى منزله آخر النهار • فكأن المدرسة يمكنها بهذه الصورة ، أن تستغنى عن جو اجتماعى فعال يشترك فيه التلميذ ويتفاعل معه ، ويندمج فيه ، وينتمى اليه • ويمكن للتلميذ عندئذ أن يبقى منتميا الى جو المنزل ، ويبقى هكذا الى أن يتم تعليمه ، دون أن يتقدم خطوة واحدة فى الكفاية الاجتماعية ، بل يبقى أيضا كما كان زضيع المنزل لم يفطم منه ، وعلاقته بالمدرسة علاقة سطحية مؤقتة ، قائمة على امتصاص بعض المعلومات • وهذا الجو التعليمى الذى تخلقه الامتحانات بصورتها المألوفة يقتل الحياة الاجتماعية ، بل قد يخلق معه أجواء اجتماعية غير صالحة ، ولا سيما أن التعليم بهذه الطريقة لايثير فاعلية التلاميذ ولانشاطهم • ولهذا نراهم يفصحون عما عندهم من نشاط وفير بطريقة غير موجهة فى التدخين ، والتخريب ، والاضراب ، وتكوين العصابات ، وأحلام اليقظة وغير ذلك •

وبسبب هذه النظرة للتعليم ، لم يكن هناك مانع من حشو الفصول الدراسية بأكبر عدد ممكن من التلاميذ ، مما زاد عدد التلاميذ فى المدارس زيادة لا يتأتى معها أي تعليم أو ارشاد مثمر • واستحال على النظار والمعلمين معرفة تلاميذهم معرفة حقيقية • ونعلم أن شعور التلميذ بأن مدرسيه يعرفونه ، يشعره بتقديرهم له ، مما يشبع فيه الحاجة الطبيعية للتقدير ، ويجعله يشعر بأنه ينتمى الى مجموعة قوية سواء أكانت منظمة أم غير منظمة ، مما يحقق عنده الحاجة للاطمئنان ، ومما يسهل ضبط سلوكه وتوجيهه الى حد بعيد ؛ اذ أن التلميذ يهمه اذ ذاك أن يكون عند حسن ظن معلمه به •

يتبين من هذا كله أهمية نظرة المتعلمين والمعلمين وولاة الأمور الى هدف التعليم ، وما يترتب على هذه من تعديل جو المدرسة ونظامها العام • وما يترتب على هذا كله من نتائج بالنسبة للتلاميذ أنفسهم • وترتبط أهداف التعليم أيضا بقيم المواد الدراسية وطرق تدريسها وغير ذلك •

قيمة العمل المدرسى :

وهناك عامل آخر يرتبط بأهداف التعليم ، ويؤثر فى الحياة المدرسية ، هو قيمة العمل المدرسى فى حياة التلميذ الحالية ، وفى حياته المستقبلة . فيجب أن نسأل أنفسنا دائما عما اذا كان العمل المدرسى يشبع فى نفس الطفل حاجة حقيقية من الحاجات التى سبق أن أشرنا اليها .

والعمل المدرسى يمكن أن يشبع الحاجة للأمن ، بأن يعطى التلميذ فرصة فهم أسرار العالم المادى ، والعالم الاجتماعى اللذين يحتك بهما . ويمكنه أن يهيىء للتلميذ فرصة التعبير الحر عن نزعاته المختلفة تعبيرا يساعد على زيادة نموه وكسبه للمهارات العقلية واللغوية والاجتماعية ، وغير ذلك من المهارات العديدة التى يشعر معها الطفل باحترام نفسه ، لازدياد قدرته على العمل والانتاج . ومعنى ذلك أن التلميذ يجب أن يشعر فى المدرسة بكسب حقيقى بالنسبة لعقليته وشخصيته يفيده فى صلاته بالبيئة التى لابد له من التعامل معها .

يضاف الى ما تقدم أن نوع المهارة الذى يكتسبه التلميذ من المدرسة يجب أن يكون بحيث يشعره بالاطمئنان الى المستقبل ؛ فيشعره على الأقل بأنه سوف يمكنه من كسب عيشه ويمكنه فى الوقت نفسه — أو فوق ذلك — من أداء خدمة للمجتمع الذى ينتمى اليه ، ويحافظ على نفسه فيه .

ويحدث أحيانا ألا يخرج عمل المدرسة عن أن يكون مجموعة معلومات أو مهارات لا تمت لحياة التلميذ بصلة ، وعلى ذلك فهو لا يشتق منها لذة ، ويترتب على اضطراره الى الانكباب عليها الانصراف عن النشاط الصادر من منابع الطاقة الحيوية . ولذلك يجب ألا ندهش لذبول حيوية الطفل كلما انغمس فى هذا النوع من العمل .

ويحدث كذلك أن ينظر التلميذ الى المجتمع الذى سيخرج اليه فى المستقبل ، فيجد أحيانا أن المدرسة لا تعده بحيث يجد لنفسه فى مستقبل

حياته فرصة العمل الناجح ، وبذلك يشعر بانعدام قيمة العمل المدرسى اذا نظر الى الحياة المستقبلة • فاما أن يرغم نفسه على مواصلة عمله المدرسى ويفقد ثقته فى المستقبل ، وبذلك يقع أمام نفسه فى صراع بسبب ارغامه لنفسه على عمل ما فى حين أنه لا يود فى قرارة نفسه أن يقوم بهذا العمل ؛ لأنه ليست له فى نظره قيمة فى المستقبل • واما أن يتخلى عن عمـله الدراسى تخليا تاما •

بهذين العاملين — وهما عدم اشباع العمل المدرسى حاجات التلميذ النفسية ، وعدم تحقيقه للأمن الاجتماعى فى المستقبل — قد يتحدد الاتجاه العقلى عند التلميذ • وبذلك يسهل تفسير بعض الظواهر ؛ كتشتت انتباه التلاميذ ، وانصرافهم عن الدروس ، وتلبية أول داع خارج العمل الذى يعمله فى المدرسة • ويسهل تفسير هروب التلاميذ من المدارس ، وأحلام اليقظة ، والكسل ، والخمول ، وسهولة انزلاقهم الى مثل التدخين ، أو العادة السرية ، أو الشره ، أو غير ذلك من ضروب الملذات الجسمية ، وسهولة قابليتهم للاضراب عن العمل لأتفه الأسباب التى ربما لا تعنيهم اطلاقا ، وازدياد الحاجة الى المجهود العنيف اللازم حتى يواصل التلميذ عمله ، مقاوما بذلك أثر المغريات الأخرى ، وغير ذلك من الظواهر العديدة •

وفى احدى الحالات التى يظهر مثلها كثيرا جدا ، تكرر رسوب التلميذ على الرغم من صغر سنه وارتفاع ذكائه • وتكرر فى نفس الوقت استهتاره ، وميله للتدخين ، ومتابعة المسائل الجنسية ، والهرب من المدرسة ، وما شابه ذلك ، وبمناقشته تبين أنه يعتقد اعتقادا راسخا فى أن المدرسة لا تخرج عظيما ، وضرب أمثلة بعض عظماء الرجال ، وأنهم تكونوا خارج المدرسة ، وكان مثله الأعلى فى ذلك هتلر •

وحالة أخرى لطالب تكرر رسوبه بالسنة الثانية باحدى المدارس الثانوية بالقاهرة ، وكانت حجته أنه لا يحب المذاكرة ، لأنه يعتقد أن النجاح فى الحياة

المصرية بأنواعها المتعددة ، يتوقف على عوامل أخرى غير عوامل الكفاية الحقيقية ، وهو يعد نفسه لاكتساب هذه الأساليب •

وحالة ثالثة ، سبق أن أشرنا اليها وهى لتلميذ فقير كان فى السنة الثانية بمدرسة ثانوية ، وتكرر رسوبه مرتين ، وارتكب حوادث سرقة متعددة من المدرسة ، وكان غير راغب فى العودة الى المدرسة ، وبالفعل التحق بخدمة الجيش البريطانى ، ليكسب بعض النقود ، ويجمع رأس مال ليبدأ به عملا حرا ، لاعتقاده الراسخ أن هذا السبيل هو أحسن وسيلة وأسرع أسلوب يمكن أن يعده لحياة ناجحة • ولكن والده أرغمه بعد كل هذا على العودة للمدرسة •

هذه الحالات الثلاث تمثل اتجاها غالبا على أذهان كثير من التلاميذ ، ولكنهم لا يفصحون بصراحة عما بأذهانهم ، وعن تشككهم فى قيم ما يدرسونه • وهنا يصح أن نسأل : وهل يتحتم أن يشعر كل تلميذ بقيمة كل علم يدرسه ؟ والجواب على ذلك ، أنه من المهم جدا أن يشعر التلميذ بالقيمة العملية المباشرة أو البعيدة لما يدرسه • وان لم يكن هذا ممكنا ، فيتحتم توافر شرط آخر ، وهو ارتباط ما يدرسه التلميذ بعاطفة ، أو بأى مصدر مباشر أو غير مباشر ، من مصادر الغرائز أو الحاجات النفسية ، واذا توافر الشرطان فى وقت واحد تحققت أمنية المعلم من عمله •

طرق التعليم المتبعة :

ومن أهم العوامل المؤثرة فى تكوين التلاميذ ، واستقرارهم ازاء عملهم وتقبلهم له ، واقبالهم بشغف عليه الطرق التى تتبع فى التعليم • فاذا كانت من الطرق التى تستثير نشاط التلميذ ، وتوجهه توجيها ينتج الى أبعد حدود الانتاج ، فان التلميذ يشعر اذ ذاك بالغبطة لنجاحه ، ويكسب ثقة فى نفسه ، واحتراما لذاته ، ويكتسب شغفا بمواصلة البحث والعمل ، والاهتمام الايجابى بالعالمين المادى والاجتماعى • وهذا الأسلوب المبنى على النشاط

الذاتى للمتعلم ، لا تظهر معه المشكلات التى تظهر عادة مع الأساليب المألوفة ، التى قد تكون مملة ، أو محلاة بحليات صناعية سطحية لا تلبث أن تزول • ونجد عادة فى التعليم المرتكز على نشاط المتعلم حياة ونشاطا ، وروابط قوية بين التلاميذ بعضهم وبعض ، وبينهم وبين مدرسيهم ، بخلاف نوع التعليم المرتكز على نشاط المعلم فحسب ، فنجد الجو مملا ، ذا روابط اجتماعية ضعيفة ، ونظام شكلى ظاهرى ، مبنى على الارهاب • ونجد التلاميذ خارج الفصول هائجين هياجا لا نظام فيه ، ويبحثون عن أنواع من اللذة غير الموجهة والتلميذ فى ذلك يتوقف ضلاله أو هداه على عنصر الصدفة لا غير •

وسواء فى ذلك قيم المواد المعطاة ، أو الطرق المتبعة أو نوع مواد الدراسة،فانها جميعا قد تحل لنا مشكلة الفراغ ، ولو حلا جزئيا ، اذ يحدث أحيانا أن ترتبط المهارة التى يكسبها التلميذ فى المدرسة — اما لنوعها ، أو لطريقة تكوينها عنده ، أو لقيمتها — برباط وجدانى سار يدفعه الى متابعتها، وانمائها فى وقت فراغه •

لهذا وجب مراعاة عنصر الشوق الذاتى (Intrinsic Interest) [1] فى مناهج التعليم وأساليبه ، ووجب اعطاء عناية خاصة لوقت الفراغ •

وهناك حالة لتلميذ كان يشكو من نوبات عصبية ، وقد تبين من دراسة مشكلته أنه الى جانب شكواه ، كان يدخن وكان يمارس العادة السرية بافراط شديد ، وكان يغازل الفتيات • وفى أثناء مناقشة مشكلاته هذه قال : انه ليس أمام التلميذ فى المرحلة الثانوية فى الصيف الا التدخين ، والمغازلة ، والعادة السرية • وليست هذه النواحى الا أساليب شغل بها التلميذ نفسه ، وما كانت لتظهر لو أنه وجد أساليب خيرا منها يملأ بها أوقات فراغه •

---

(1) J. Dewey : Interest and Effort in Education.

الشـعور بالنجـاح :

ويؤثر فى حياة التلميذ داخل المدرسة عامل مهم ، ينشأ عن نظرته الى مركز نفسه بالنسبة لبقية الأشخاص فى هذا الجو ، أو بالنسبة لما ينتظر منه حسب ما هو معروف عن مقدرته • وهذا العمل هو مقدار شعور التلميذ بنجاحه • ونقصد هنا النجاح الاجتماعى ، والنجاح الشخصى — وان كان النجاح الشخصى فى أصله نجاحا اجتماعيا • ويمكن أن تنظم المدارس بحيث لا يشعر التلميذ باخفاقه ، فتكون هناك مثلا وحـدات تعليمية متجانسة الاستعداد • وبذلك تمحى الفروق العقلية الكبيرة بقدر الامكان ، لأن هذه الفروق تشعر المتأخر بنقصه ، وعجزه عن مداركة هذا النقص أو علاجه • كما أنها قد تزيد المتفوق غرورا بنفسه • وكل من الشعور بالنقص والشعور بالغرور ، قد يؤدى الى ظهور مشكلات عدة كالمعاكسة ، وكثرة النقد ، والكسل ، وأحلام اليقظة وغير ذلك •

وليس المقصود نحو الفروق هو منع المنافسة؛ ولكن الواجب منعها اذا كانت بالصورة التى يمتلىء بها الجو المدرسى أحيانا • ويجب كذلك ألا يتعرض لها بعض الناس تعرضا فوق ما تحتمل طاقتهم ، أو تحت ما تحتمل بدرجة كبيرة ؛ اذ لا مانع مطلقا من أن تتنافس القوى المتقاربة • ولكن لا يجوز أن يوضع فى الفصل الواحد تلاميذ ذوو قوى متباعدة ، بحيث يغتر القوى ويكسل ، لشعوره بتفاهة العمل بالنسبة اليه • ولهذا السبب ينحدر كثير من الأذكياء فى مستوى تحصيلهم ، وذلك لأن العمل المدرسى ليس من القوة والكفاية ، بحيث يتحدى قواهم العقلية تحديا كافيا • أما الضعيف فسرعان ما يستولى عليه اليأس ، وينصرف عن العمل المدرسى الى عمل آخر •

علينا كذلك أن نتذكر أن نواحى النشاط الاجتماعى من تمثيل ، وألعاب ، وموسيقى ، وهوايات وغيرها ، يجب أن تكون بحيث يبرز كل تلميذ فى ناحية منها أو أكثر بحيث استعداده وميله • وبذلك يمكن لكل تلميذ أن يسدى

للمجتمع المدرسى ما يشعره بأنه فرد ذو قيمة اجتماعية ناجحة ، كما يشعره بأنه يعطى لهذا المجتمع كما يأخذ منه •

وكثير من التلاميذ لا يتقبلون الاخفاق العقلى ، أو الاجتماعى ، أو كليهما • فينزعون للتعويض عن أحدهما أو كليهما بطرق مختلفة كالكذب ، أو السرقة ، أو الانزواء ، أو الاعتداء ، أو غير ذلك • ولا شك أن جل الأجواء المدرسية بحالتها الراهنة ، لا بد أن ينقسم فيها التلاميذ الى طبقات عقلية أو اجتماعية • ولذلك نراهم يتجمعون فى وقت فراغهم فى مجموعات منفصلة بعضها عن بعض ، ونجد أن أفراد كل مجموعة متجانسون من الناحية العلمية أو الاجتماعية •

غير أن بعض التلاميذ ، كما يحدث فى مدارسنا المصرية ، يجدون صعوبة فى الانسجام مع المجموعة التى تلائمهم • وفى سبيل محاولتهم التغلب على هذه الصعوبة ربما انحرفوا عن السلوك السوى •

من أمثلة ذلك : حالة تلميذ فى احدى المدارس الثانوية ، تكرر رسوبه فى السنة الثانية ، وارتكب عددا من السرقات ، وكان اتجاهه أن يسرق كتب زملائه ، وأدواتهم ليبيعها ؛ وهذا التلميذ ابن لرجل لايزيد دخله على ثلاثة جنيهات ونصف ، ويعيش فى جهة بعيدة عن المدرسة ، بحيث يضطر الولد الى المشى الطويل ، والى ركوب الترام • والولد هو الابن الأكبر ، ولم يرزق أبوه من بعده غير بنت واحدة • ولم يقطع هذا الرجل من التعليم الا مرحلة التعليم الابتدائى • وكانت نفسه تشتاق الى أن يتم تعليمه • وازداد شغفه بالتعليم ، حتى رأيناه يقوم بتعليم زوجته الأمية ، كما كان يعلم أولاده بنفسه ، ويشرف عليهم اشرافا دقيقا ، يتخلله الضرب الشديد والايذاء •

وكان دخل الوالد عندما أنجب ابنه هذا فى مستوى أعلى من دخله الحالى بدرجة كبيرة ، وكان الولد مدللا ، تجاب له كل طلباته ، فنشأ الولد غير قادر على مقاومة رغباته الخاصة • فخرج الولد بعد انخفاض دخل الأسرة ،

وزيادة مسئوليات والده العائلية الى المدرسة محروما من تلبية رغباته ، غير متمرن على مقاومة نفسه • يضاف الى هذا أن انخفاض دخل الوالد ربما كان السبب فى حنقه وقسوته على أولاده عند ملاحظته اياهم •

قطع الولد مرحلة الدراسة الابتدائية فى مدرسة قريبة من المنزل ، ثم انتقل الى مرحلة التعليم الثانوى ، وفيها هبط مستواه بالنسبة لغيره من التلاميذ ، وربما كان سبب هذا الهبوط عدم ملاءمة ظروفه المنزليـة لأداء واجباته ، أو حالته الانفعالية السيئة الناشئة من فظاظة معاملة والده له • كان هذا الولد متوسط الذكاء وكانت معاملة والده له تختلف تمام الاختلاف عما يجب نحو شاب فى سن المراهقة • وبالاضافة الى ذلك فجو المدرسة خال من العمل المشوق ، وليس به نوع من الاتصالات الاجتماعية الصالحة بين التلاميذ بعضهم وبعض • أو بين هؤلاء ومدرسيهم ، فلا عطف ولا فهم ولا تقدير ولا توجيه ولا نجاح •

ويجب ألا ننسى أن الجو المدرسى كثيرا ما يسمح بظهور فوارق بين الطبقات يتميز فيها الفقر الشديد الى جانب السعة الواضحة • وتتضح عادة هذه الفروق وتبرز أهميتها حين يكون العمل المدرسى قليل التشويق ، عديم القيمة ، فتكتسب الفوارق بين الطبقات قيمة كبيرة فى نظر التلاميذ •

نرى مما تقدم أن هذا التلميذ لا يشعر بقيمته فى المنزل أو فى المدرسة من الناحية العلمية ، أو الاجتماعية ، فاندفع ليسرق • وربما التجأ الى السرقة كى يحقق مجموعة رغبات فى وقت واحد • فهو يسرق كتب زملائه انتقاما للناحية التى كان يود أن يتفوق فيها وهى الناحية العلمية ، ويبيع هذه الكتب ليشترى بثمنها لفافات (سجائر) وليذهب الى الخيالة ، مثل زملائه الأغنياء •

وتعليقا على هذه الحالة قد يقال : ان جو المدرسة ليس مسئولا عن السرقة ، وانما المسئول عنها هو معاملة الطفل فى منزله • غير أن المدرسة لو أعطت هذا التلميذ فرصة النجاح فى أى عمل ذى قيمة ، لشعر بالرضا

عن نفسه ، ولم يتجه الى السرقة • ويجب أن تتذكر أن بكل تلميذ نواحى طيبة ، يمكن كشفها وابرازها ، بحيث ينجح فيها ويشعر اذ ذاك بقيمة نفسه أمام اخوانه • فلا يجوز اذن ادخال التلميذ مدرسة ما ، الا اذا تمكنا من معرفة استعداداته وصلاحيته للنمو والترعرع فى جو هذه المدرسة •

ويلاحظ أيضا أن الشعور بالتمايز الاجتماعى ليس واضحا فى أنظار التلاميذ فى الصغر ، وأقل وضوحا فى المدارس الحديثة التجديدية منه فى المدارس المألوفة • ومن أسباب الظاهرة الأولى — على ما أعتقد — أن صغار الأطفال مشغولون عادة بلعب لذيذ ، صادر من غرائزهم الفطرية ؛ أى أنهم مشغولون عن أنفسهم بنشاط مشوق فى ذاته • ثم ان الشعور بالتمايز الاجتماعى شعور مكتسب ، توحى به البيئة المحيطة بطبقاتها المختلفة ، ويوحى به سلوك كل طبقة منها نحو غيرها من الطبقات • ولذلك فقد يكتسبه الطفل متأخرا فى حياته • أما الظاهرة الثانية ، ظاهرة انعدام التمايز الاجتماعى فى المدرسة الحديثة التجديدية ، فسببها — كما ذكرت — أن العمل المدرسى ان كان مشوقا فى ذاته ، وكان ذا قيمة حقيقية ، فانه يستغرق نشاط التلميذ وانتباهه وجهده ، ويكون هو الأساس الوحيد للتمايز • وينعدم بذلك التمايز القائم على أسس أخرى سطحية ، عرضية ، زائلة • ولذلك كان نظام المدرسة وجوها عاملين مهمين فى تثبيت القيم غير المادية أسسا للتمايز ، ومحو القيم المادية التى لا يجوز أن يقوم عليها •

وقد يعترض بأن مجتمعا كهذا الذى نعيش فيه ، والذى يبرز فيه التمايز الاجتماعى المبنى من أسسه على التمايز الاقتصادى ، لا يسهل فيه حل مشكلة الطبقات فى التعليم • ولكننا اذا غضضنا النظر عما يقترح أحيانا من انشاء مدارس خاصة ، أو تغيير شامل فى سياسة التعليم العامة كلها ، فان أية مدرسة يجتمع فيها تلاميذ من أوساط اجتماعية مختلفة ، يمكن أن تخفض قيمة التمايز الاجتماعى عند التلاميذ فيها الى أقل درجة ممكنة • هذا اذا خلقنا

جوا مدرسيا — عن طريق الأمثلة العملية وترسيخ التقاليد الدائمة — يحترم النواحى ذات القيم الحقيقية المبنية على المثل العليا الخلقية كالدقة فى العمل ، والأمانة ، والصراحة ، والاخلاص الاجتماعى ، وغير ذلك ، واذا ما أهمل القائمون بالأمر الفروق الناشئة عن التمايز الاجتماعى الاقتصادى تمام الاهمال • ويمكن كذلك أن نخفض قيم هذه الفروق عن طريق التفاعل الاجتماعى المستمر بين التلاميذ ، تفاعلا تسوده مصلحة الجماعة التى ينتمى اليها التلميذ ، ويقوم على العدل الاجتماعى بين أفرادها • ويلاحظ أن جميع القيم الاجتماعية التى نحتاجها فى المجتمع الأكبر يمكن غرسها بصورة راسخة فى مجتمع المدرسة وكذلك فى مجتمع المنزل •

الحيـاة الاجتماعية :

يترتب على كل ما تقـدم وجوب وجود جو مدرسى عام ، له وحـدة متماسكة تماسكا تاما ، ويسهل على الطفل أن يجد مكانا فيه كما يسهل عليه أن يتفاعل مع عناصره تفاعلا يترتب عليه فهمه لنفسه وفهمه لغيره على أساس صحيح • ويترتب عليه أيضا نشوء عاطفة حب وانتماء للمجتمع المدرسى ، يسهل عليه الانتقـال من الاتكال على المنزل ، ويحرره منه تدريجيًا حتى يندمج فى مجتمع المدرسة اندماجا لا يفقده احترامه لذاته ، ويحتفظ فيه بكيان فرديته • ويجب أن يكون هذا النوع من التفاعل ، بحيث يؤهل للاندماج فى البيئة الاجتماعية الكبرى خارج المدرسة ، كما يجب أن يكون بحيث يشعر التلاميذ بحبهم بعضهم لبعض ، وتقدير الواحد منهم للآخر • ويكون هذا النوع من المجتمع فى العادة مجتمعا سعيدا منتجا لا يثور عليه التلميذ (ولا يضرب عن العمل فيه لأتفه الأسباب) ، ولا يحاول أن ينتقم من أفراده ، أو يبتعد عنه ، بل بالعكس يحاول أن يندمج فيه ، ويعمل لصالحه • والمجتمع الذى ينتمى اليه الطفل فى المدرسة سواء أسميناه أسرة ، أو أى اسم آخر ، يجب أن يتصف بالحرية مع مراعاة صالح الغير ، وأن يتصف كذلك بالمساواة

فى مبدأ المعاملة ، والعدالة الاجتماعية ، والمعقولية ، والنشاط ، والحماس ، والانتاج ، والتقدم ، والترقى ، مع ثبوت المبادىء والتقاليد والدساتير التى يسير عليها المجتمع المدرسى •

ولا يمكن بالطبع أن نغفل كيف يتأثر الجو المدرسى بالجو الاجتماعى العام تأثرا فى الاتجاه السيىء أو الصالح • ومع ذلك فيجب أن ننظر الى الجو المدرسى على أنه وسيلة لاصلاح المجتمع • ويتوقف مبلغ نجاح المدرسة فى هذا الاتجاه على المدرسة نفسها وقـدرة من تخرجهم فى الاصـلاح الاجتماعى ، كما يتوقف أيضا على حالة المجتمع الأكبر ، وعلى مبلغ استعداده لقبول هذا الاصلاح •

نوع المعاملة السائدة فى المدرسة :

ومن أهم العوامل التى تؤثر فى الجو العام للمدرسة المعاملة السائدة من قبل النظار والمدرسين والمشرفين • ومن المعلوم أنه يجب أن تكون هنـاك سياسة ثابتة ، وهذه لا تنبنى على أساس السلطة الضاغطة ، التى لابد أن يترتب عليها نظام شكلى مؤقت • وقد يبدو هذا النظام كاملا ولكنه يزول عادة بزوال ما يعمل فيه من ضواغط ، وانما يجب أن تقوم سياسة المدرسة على التوجيه والارشاد المبنى على العطف على التلاميذ ، ومراعاة صالحهم ، وفهم نزعاتهم ، ودوافعهم الداخلية • وهذا العطف يجب أن يصحبه الحزم ، وألا يشوبه التراخى والتذبذب بين الشدة واللين • وهذا النوع من الدستور لا يمكن النظر اليه منفصلا عن الجو المدرسى العام وعوامله الأخرى من حياة اجتماعية ، وطرق تعليمية ، وتنظيم مدرسى ، وغير ذلك •

ولا يقصد بالسياسة الثابتة أن تكون هناك حلول معينة جامدة لكل مسألة ، وانما يقصد بها أن يكون هناك أسلوب واحد للروح التى تعالج بها المواقف المتشابهة ، فلا يجوز أن تعامل المواقف المتشابهة معاملات متناقضة •
ويترتب على ثبوت السياسة شعور بالعدل الاجتماعى داخل المدرسة •

وبوجود العدل الاجتماعى ينمحى أهم عامل يترتب عليه استهتار بعض التلاميذ ، وكراهية بعضهم الآخر لزملائهم ومدرسيهم ، وشعورهم بانعدام الاطمئنان للمدرسة وما فيها ، مما يترتب عليه كثير من أنواع السلوك الشاذ ، كالاعتداء واستعمال العنف • والسرقة والغش ، والحقد ، واثارة الاضطرابات وما شابه ذلك •

وللسياسة الثابتة أهمية أخرى ؛ هى أنها تسهل على التلميذ سرعة الوصول الى تقدير قيم السلوك • ولكن السياسة المتغيرة يضطرب الطفل غالبا أمامها ، فلا يعرف الفرق بين ما يجب أن يعمل وما لا يجوز أن يأتيه من أعمال •

أضف الى هذا أن الجو الثابت ، المشبع بالعطف مع الحزم ، يطمئن اليه الطفل ، ويكيف سلوكه وموقفه عادة نحو هذا الجو ، مهما كان تكوينه الأول فى المنزل • فالطفل الذى دلله والداه فى منزله قد يجد صعوبة فى أول الأمر ، ولكنه سرعان ما يتعود نظامه • والطفل الذى سبق له أن عاش فى جو جاف قاس ، لابد أن يرحب بما فى الجو الجديد من عطف •

واذا توافر ما ذكرناه من حزم ، وعطف ، وفهم ، وتقدير ، قلت الحاجة الى أساليب النظام الشكلى ، والى اهتمام السلطة بوجوب الطاعة العمياء وغير ذلك ، مما يتضمن عادة خوف السلطة على سلطانها •

المدرسة ومشكلات النشء :

يتبين مما تقدم ، ومن بضع الحالات التى أشرنا اليها ، أن للتلميذ حاجات أساسية ينزع الى اشباعها وهو يشبعها عادة فى أثناء تعامله مع البيئة التى يعيش فيها • ففى حياته الأولى قد يكون متمتعا ببيئة تشبع له حاجاته ، وقد يكون فى بيئة تعطل هذا الاشباع ، أو تقف دونه • وازاء هذه العقبات تحدث أساليب عديدة للتكيف • ويغلب أن تكون أساليب السلوك الشاذة

— سواء أكان ذلك كسلا ، أو عصبية ، أو سرقة ، أو كذبا ، أو غشا ، أو تدخينا ، أو تمارضا ، أو تمردا ، أو أغمالا جنسية ، أو غير ذلك — أساليب تعويضية أو دفاعية ، تشتق فكرتها الأخيرة من البيئة • وقد تكون هذه البيئة التى يجد فيها الطفل الفكرة ، هى البيئة الكابتة أو غيرها مما يشبهها •

مثال ذلك : حالة الطالب الذى كانت تصيبه نوبات عصبية ، ووصفته المدرسة بأنه عنيد جدا فهو لا يؤدى واجبا ، ويكثر من التغيب ، ويكثر من احراج المدرسين فى الأسئلة التى يوجهها اليهم • واذا وقع الناظر أو أحد المدرسين عليه عقابا يرفض تنفيذه ويحاول تبرير اتجاهه هذا بأن العقاب الذى توقعه عليه المدرسة ينبو عن المعقول • ولذلك تعقدت العلاقة بينه وبين معلميه وناظره تعقيدا أدى الى ضرورة التخلص منه ، فذهب الى مدرسة أخرى ، ثم الى ثالثة ، وهكذا •

ولعل سبب ثورة الولد على السلطة فى المدرسة هو تشابهها مع سلطة والده • وكان لأمر ما ثائرا عليها • فحدث تحويل من ثورته على والده — ولا يمكنه أن يعبر عنها اطلاقا — الى ثورته على السلطة على وجه العموم ، بما فى ذلك سلطة المدرسة •

وكان الولد فى أثناء مناقشته يعيب على المدرسين والنظار ، أنهم لا يحاولون فهم تلاميذهم ، وأنهم يعاملونهم « كقطع من الخشب » فلا يحترمونهم ولا يقدرونهم ولا يدركون أن بينهم فروقا من أى نوع •

والمشكلة هنا نابعة أصلا من المحيط العائلى • ولكن جو المدرسة ، وقد كان فى امكانه أن يخفف من أثرها ، زادها صعوبة وتعقيدا • والمدرسة لم تخلق فى هذه الحالة مشكلة جديدة ؛ ولكن المشكلة التى وضعت بذورها فى المنزل ، ساعدت المدرسة على ابرازها ، بدلا من أن تساعد على حلها • فالجو المدرسى اذا توافر فيه العطف ، واحترام شخصيات التلاميذ ، وعدم

وضعهم فى مآزق تسبب الاخفاق ؛ واذا كانت الطرق المتبعة معهم شائقة ، والعلاقات الاجتماعية علاقات متينة سعيدة يشعر التلميذ فيهـا بالانتماء للمجتمع المدرسى ، أمكن أن تقوم المدرسة بتخفيف أثر المنزل أو علاجه فى مثل هذه الحالات .

وتكون المدرسة أحيانا عاملا أصيلا فى ظهور الـكذب ، أو الغش ، أو أحلام اليقظة ، والبحث عن اللذة غير الموجهة ، لما قد يكون فيها من انعدام العدالة ، وسوء استعمال السلطة ، أو سوء أساليب التدريس ، أو عدم صلاحية المدرسين للتلاميذ أو غير ذلك مما سبق أن فصلناه .

والمدرسة اذا فهمت رسالتها فهما واضحا ، واذا أدرك من فيها حقيقة الصلة بين المدرسة والمنزل من ناحية ، وبينها وبين المجتمع الأكبر من ناحية أخرى ، فانه يمكن أن تهيىء جوها بحيث ينال التلميذ مرانا كافيا على الصفات الخلقية التى يحتاجها المجتمع والتى نشكو عادة أنهـا تنقصه . والدخول فى تفاصيل الكيفية التى ينفذ بها هذا يتطلب مباحث مطولة ليس هذا مكانها .

المراجع

Adler : The Education of Children.
Craig : School Life and Mental Instability.
C. Miller : The New Psychology and the Teacher.
G.H. Green : Psycho-analysis in the Classroom.
Gruenberg : The Guidance of Childhood and Youth.
Hildreth : Psychological Service for School Problems.
Neill : The Problem Child.
Neill : The Problem Teacher.
Neill : The Dreadful School.
Sayles : The Problem Child in School.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
Symonds : Mental Hygiene of the School Child.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
Valentine : The Difficult Child and the Problem of Discipline.

الفصل الثاني عشر

المعلم وعلاقته بالتلميذ

مقـــدمة :

سبق أن تكلمنا عن المدرسة وأثرها فى تكوين النشء . وحيث ان المعلم هو أهم عامل فى الجو المدرسى ، فمن الواجب أن نفرد له مبحثا خاصا . والمعلم هو العامل المفروض أنه يأخذ بيد الطفل ، ويعده أو يساعده على التهيؤ للحياة المستقبلة . ويعد المعلم لهذا العمل أحيانا بمحض رغبتــه ، وأحيانا تدفعه الظروف القاهرة دفعا لهذا الاعداد . وكذلك الطفل ، مخلوق يرسله البيت أول الأمر الى المدرسة على غير ارادته فى كثير من الأحيان . وهذان الطرفان عندما يتقابلان يكون كل منهما وحدة معقدة ، وراءها تاريخ طويل جدا . فالمدرس محمل بآثار طفولته ومشــكلاته فيها ، وما يطرأ فى أدوار نموه من مشكلات مختلفة . وهو متــأثر كذلك باختياره لمهنتــه أو اجباره عليها ، ودرجة حبه أو كراهيته لها . ويحمل فى نفسه نوع نظرته لمهنته ، من حيث انها مجرد أداة لكسب العيش ، أو من حيث شعوره بتوافر الكرامة لنفسه عن طريقها . ويحمــل كذلك درجة شعوره بمسئوليــاته ورسالته . وللمدرس فوق كل ذلك مشكلات حياته الخاصة ، وغير ذلك . ويأتى الطفل كذلك الى المدرسة يحمل آثار حبه لوالديه أو كراهيته لهما ، وغيرته من اخوته أو حبه لهم ، ويحمل آثار النمو الطليق أو النمو المقيد ، وغير ذلك من آثار نموه وصعوباته فى البيئة غير المدرسية . يتقابل هذان الطرفان المعقدان ، فيطلب منهما أن يكيف كل منهما نفسه للآخر ، تكيفا يكون فى العادة محدودا ومرسوما من قبل . وتحدث المحاولة للتكيف فى ظروف قد تكون أحيانا ملائمة ، وأحيانا غير ملائمة لنجاح التكيف المطلوب .

درجة شعور الطفل بالحاجة الى المدرس :

ولكن ما مبلغ حاجة الطفل النفسية للمعلم ؟ يهتم الطفل فى مراحله الأولى — كما نعلم — بالحاجات الأولية من مأكله ، وملبسه ، وحماية حياته . والى جانب ذلك يشعر بالحاجة للاتصال بالعالمين المادى والاجتماعى ، ليقف على أسرارهما ، حتى يكون أقدر على التكيف المطمئن لهما . أما الحاجات الأولية ، فانه يعتمد فيها غالبا على والديه ، وأما حاجته للوقوف على أسرار العالم المحيط به ، فانه يشبع كثيرا منها قبل مجيئه الى المدرسة عن طريق اللعب . ولذلك لا يشعر الطفل فى أول الأمر بحاجة قوية للمعلم ؛ ولكنه على الرغم من ذلك يوضع فى كنفه ، فيفرض المعلم سلطته عليه . وهنا توجد حاجة المعلم الى السلطة ، لأن ما يعطيه الطفل كثيرا ما لا يمت لنفسه بصلة كبيرة . ولكن المعلم الماهر ، المحب لعمله ولتلاميذه ، يمكنه أن يخلق الجو الذى ينمو فيه الطفل نموا يتفق مع طبيعته من ناحية ، ومع حاجات المجتمع من ناحية أخرى . وكلما كان الجو متفقا وطبيعة الطفل ، قلت الحاجة الى ما نألفه من السلطة المعروفة الضرورية لحفظ النظام .

درجة اغتباط المعلم بعمله :

ومما يؤثر فى علاقة المعلم بتلميذه درجة تحمس المعلم لعمله واغتباطه به ، ولكى نوضح هذا يجب أن نوازن بين عمل المدرس وعمل بعض أصحاب المهن الأخرى . فالمدرس يأتيه عدد من الأطفال مرغمين عادة ، فيجلسون فى غرفة واحدة ، يدرسون عليه أو يتعاملون معه . وعليهم فى العادة أن يتقبلوا ما يلقنهم ، والا ساءت نهايتهم . ولكن هب أن هؤلاء الأطفال يأتون بمحض ارادتهم ، فهل لو تركوا وحريتهم التامة ، يستمرون معه ؟ أغلب الظن أن الجواب يكون بالنفى . والمدرس يحس احساسا خفيا بهذا . ولهذا السبب يختلف موقفه عن موقف الممثل من عمله ؛ اذ أن الممثل يأتيه الناس من تلقاء أنفسهم ليستمتعوا به . ولذلك فلا حاجة به — ان كان

ناجحا فى عمله — الى محاولة حفظ نظام من أى نوع • ولهذا نجد أن كلا من الممثل والخطيب الحر يشعر باغتباط شديد من عمله • ولكن المدرس العادى الحالى لا شك أنه لا يشعر بنفس الدرجة من الاغتباط • واذا أراد أن يشعر بها حتى يتحمل عمله عن طيب خاطر ، بل ليقبل عليه متحمسا جادا أيضا ، وجب عليه أن يغير فى أساليبه ومناهجه ونظمه ••• الخ ، بحيث تكون التلبية من تلاميــذه جالبة للغبطة والحماسة • وهــذا ممكن الى حد بعيد •

وهناك أمر آخر يتميز به عمل المدرس دون كثير من الأعمال ، وهو أن أغلبها ذو نهاية محسوسة • فالمهندس مثلا يمكنه بعد فترة معينة أن يرى طريقه ، أو جسره ، أو منزله ، أو تصميمه ، أو غير ذلك • والطبيب كذلك يمكنه أن يرى نهاية علاجه بطريقة محسوسة • وعلى العموم نجد أن كثيرا من المهن يشعر صاحبها بأن قطعة محسوسة من عمله قد انتهت • ففكرة النهاية — وخصوصا النهاية الملموسة بالحواس — غير موجودة لدى المعلم ، ولذا كان احتمال اشتقاقه لذة من عمله فى الصورة التى تألفها اليوم أقل من احتمال اشتقاق المهندس أو الطبيب للذة من عمله • ولكن اذا علم المدرس هذا فى ضوء ما سبق ، يمكنه أن يمــارس عمله بحيث يستشعر نتيجتــه استشعارا يجلب له الغبطة • وتساعد الطرق الاحصائية والتجريبية الحديثة على تحقيق هذا ، اذ يمكن تطبيقها مع اشــتقاق لذة كبرى فى فهم العــلم لمشكلات التعليم عامة ، والمشكلات الخاصة التى تقابله فى كل يوم ، وفى شعوره بالنجاح عند كشفها وتحديدها ، وجمع الحقائق لفهمها ثم تفسيرها والتغلب عليها •

وهناك عامل آخر قد يقلل من درجة غبطة المعلم بعمله ، وهو التكرار ، وندرة التجديد ، فالمعلم قد يقوم بتدريس منهج معين سنة بعــد أخرى ، أو قد يعلم الدرس الواحد مرتين أو أكثر فى أسبوع واحد • وأحيانا يعلم الدرس أكثر من مرة فى اليوم الواحد •

هذه العوامل الثلاثة وغيرها ، تشترك فى تحديد ما يشعر به المعلم العادى من الغبطة فى عمله ، وتؤثر فى حالته النفسية • ولها كذلك أثرها فى علاقته بتلاميذه سواء فى ذلك العلاقة التعليمية أو العلاقات الأخرى •

ويلاحظ أن معرفة المعلم لهذه العوامل تجعله أقدر على التحكم فيها بدلا من الخضوع لها •

قســوة المعلمين :

أنتقل الآن الى نقطة شائعة ثابتة فى أذهان الناس ، وهى اقتران المعــلم بما يظهر منه أحيانا من قسوة وشدة ، وخوف المتعلم منه تبعا لذلك • ويمكننا أن نشير هنا الى ما سبق أن ذكرناه عن معاملة الآباء للأبناء ، ودرجة تدخلهم فى أعمالهم ، وموقفهم من الثواب والعقاب ، وما يجب أن يفهموه من معنى الطاعة ومعنى السياسة الثابتة المقرونة بالعطف المعقول • ونشير كذلك الى ما سبق أن ذكرناه عن نوع المعاملة التى يجب أن تسود جو المدرسة •ولكننا نقصد أن نخص بالذكر هنا ما يعرف عن قسوة المعلمين • يغضب المعلم عادة اذا حدث ما يمنع تحقيق رغائبه الخاصة • فهو يغضب اذا أهينت كرامته عن طريق مباشر أو غير مباشر ، أو اذا كان مصدر رزقه[1] أو ما يشبهه فى خطر جزئى أو كلى ، أو غير ذلك • وهو اذا ما غضب قد يثور ، وحينذاك يكره التلاميذ تصرفه ، ولا يستفيدون من غضبه هذا أية فائدة تعليمية • ويغضب المدرس أيضا متى كان هناك شعور خفى بعجزه عن تناول الموقف بأية طريقة أخرى • والغضب وما يتلوه من اعتداء يترتب عليه خلق روح العداء بين المعلم والمتعلم ، ويتبع ظهور هــذه الروح أن يقل أو ينعــدم ما يستفيده التلميذ من المعلم • والغضب بدرجاته المختلفة قد يكون منطويا على حب القسوة • وللقسوة تفسيرات كثيرة فى علم النفس ، منها أن الانسان

---

(١) راجــع الغــاية من المدرسة فى فصــل المدرسة ومشــكلات النشء (ص ٢١٢ ــ ٢١٥)

ـــ بما قد يكون عنده من نزعات شريرة مكبوتة ـــ قد يتولد عنده مايسمى « احساس الذنب » تتبعه رغبة لا شعورية فى عقاب الذات وعقاب غيرها . أو قد تكون القسوة نابعة من ميل مكبوت للانتقام يتكون فى حياة الطفولة . وليس لدينا من حالات المدرسين ما يمكننا تحليله لنصل الى هذه النتائج . ولو أن القسوة عند الآباء كما درسناها ، منشؤها الاحساس بالذنب أو حب الانتقام . وكل من هذين يتكون عادة فى الأيام الأولى من حياة المدرس أو حياة الوالد .

ولا يقتصر ظهور القسوة على صورة العقاب البدنى الشـديد لأقل سبب ، وانما تظهر أيضا فى صورة نقد ، أو تهكم ، أو توبيخ ، أو ابراز للأخطاء ، أو ارهاق بالعمل ، أو شدة فى وضع النظم وتطبيقها أو غير ذلك . ومهما كانت الصورة التى تظهر عليها القسوة ؛ فانه يترتب عليها غالبا كراهية لا تظهر عادة كرد مباشر للسبب الأصلى . وقد تظهر فى صـورة مستترة أو ظاهرة نحو المدرس وأمثاله أو ما يماثله من قوانين ونظم . فربما يظهر أثر القسوة فى الثورة العاجلة أو الآجلة نحو المعلم أو ما يشبهه ، أو يكون لها أثر الانكماش الذى يسمى الطاعة أحيانا . والقسوة من جانب المعلم ، وما يترتب عليها من الخوف أو الكراهية من جانب المتعلم ، تؤدى كلهـا الى عكس المقصود من غاية التعليم .

مشكلات المعلم ومشكلات المتعلم :

ويرجع جزء كبير من علاقة المعلم بالمتعلم الى عوامل خارجة عن ارادة كل منهما خروجا تاما ، وذلك لأن المعلم والمتعلم كما سبق أن بينا طرفان يتقابلان ، وكل منهما محمل بأثر الماضى والحاضر وبنوع نظرته للمستقبل .

فالتلميذ قد يأتى الى المدرسة كارها لأبيه مثلا بسبب قسوته عليه ، فيجد فى المدرسة منفسا لا يستطيع أن يجده فى المنزل . وقد تنتقل الكراهية الناشئة عن قسوة الأب الى المعلم بحكم ما بين المعلم والولد من أوجه شبه

فى عقل الطفل . وربما قام التلميذ بالثورة على المعلم ومعاكسته ، والاخلال بالنظام مدة طويلة ، ولغير مبرر كاف . فيلزم ألا يقابل المعلم سلوك التلميذ بما يزيد فى هذه الكراهية نحوه ، وانما ينبغى أن يقابله بما يخففها بالتدريج .
ويحدث أحيانا أن يكون لدى الطفل مشكلات حديثة العهد ، كشجار عائلى بين أمه وأبيه ، أو مرض أحد والديه ، أو تدهور اقتصادى ، أو سوء علاقة بينه وبين أبيه ، أو تأخر فى الصحة ، أو غير ذلك . فاذا ظهرت أعراض هذه الأحداث أمام المعلم ، وجب عليه أن يقابلها بالصبر والأناة والدرس والتفهم وحسن التوجيه .

أما المدرس فله أيضا مشكلات عدة تلقى بأثرها على المتعلم وعلى عملية التعليم . ومن هذه المشكلات نتائج التربية الأولى . فربما ينشأ المعلم وقد تكونت لديه من صغره دوافع خفية نحو الانتقام . فيجد فى صغار التلاميذ أمامه مجالا سهلا لهذا الانتقام يظهر — كما قلنا — فى الضرب وتقييد الحركة والارهاق والتشديد فى الامتحانات وغير ذلك .

وقد يكون عند المدرس من حياته عقدة نقص يحاول التعويض عنها فى مهنة التدريس ، وفى التدريس مجال لهذا التعويض قل أن يوجد فى مهنة أخرى .

وقد يكون المدرس كارها لمهنة التدريس على الرغم من ممارسته لهـا بسبب اخفاقه فيها ، أو بسبب خطورة مسئولياتها وكثرة صعوباتها ، وعدم تقديره درجة قصوره فيها عند بدئه ممارستها . وقد تظهر كراهيته للمهنة ضد الأطفال أنفسهم ، أو تظهر فى شكل حساسية شديدة فى العمل . وقد يفقد اتزانه تماما فى أثناء قيامه بعمله ، بحيلة من الحيل اللاشعورية .

هذه كلها مشكلات أسبابها قديمة فى تكوينها ، بعضها يرتبط بالمهنة ، وبعضها لا يرتبط بها ، ومع ذلك يكون لها أثر فى علاقات المعلم بالمتعلم وبالعكس .

وهناك فوق ذلك ظروف حاضرة تؤثر فى علاقة المعلم بتلاميذه عن طريق ما يسمى بالتحويل أو الاسقاط أو غيره (ص ١٣٢،١٣٤) • وقد يكون من هذا قلة المرتب والغبن وضغط الامتحانات والمفتشين والنظار •• الخ • وقد يكون من هذا أيضا ما يحدث فى نفسه من صراع بين أصول التربية الحديثة التى تعلمها فى أثناء اعداده ، والتربية المألوفة الشائعة التى يضطر لاتباعها دون الموافقة على شىء منها • وقد يكون من هذا أيضا درجة تقدير الدولة له ، وموازنة نفسه من حيث المكانة الاقتصادية أو الاجتماعية بأصحاب المهن الأخرى •

وقد يكون من هذا مشكلاته فى الأسرة أو فى العلاقات الزوجية والمشكلات الاقتصادية وغير ذلك •

ومن ثم يأتى المدرس محملا بهذه المشكلات ، بعضها أو كلها ، فيقف أمام نفر من الأطفال ، كل له مشكلته ، وتاريخه ، ويكلف حينذاك أن يظهر بأحسن خلق ممكن ، وأن يكون لتلميذه — مهما صدر منه — فى مقام المرشد والأخ الأكبر •

ليس معنى ما تقدم أن نرسم صورة قائمة عن الموقف ، ولكن الغرض هو أن نبين كيف أن علم النفس يساعدنا على أن نكشف مشكلاتنا بصورة صحيحة فنصبح أكثر مقدرة على التحكم فيها •

المعلم قائد او مرشد للطفل :

والمدرس فى ميدان التعليم قائد لأطفاله ، فبحكم خبرته ، ورجاحة تفكيره ، وبحكم وجوده معهم فى مجتمع واحد ، يصبح هو المتبرع ويصبحون التابعين • وفى هذه الحالة ننتظر أن تكون علاقة المعلم بتلاميذه اما علاقة من يأمر فيطاع ، واما كعلاقة الأخ الأكبر باخوته الصغار • أما العلاقة الأولى ، وهى علاقة من يأمر فيطاع ، فهى ان دامت ، فلفترة قصيرة • ويصح أن نسأل فى هذه الحالة : أيطيع الطفل معلمه لأن المعلم يريد منه أن يطيع ، أم أنه

يطيعه لأن الطفل نفسه يريد ذلك ؟ ويصح أن نسأل كذلك عما يقصد بمعنى الطاعة ؛ أيفهم منها مجرد الاستسلام والخضوع ، أم يفهم منها الاسترشاد وتقبل التوجيه المعقول ؟

وأما الحالة الثانية ، وهى التى تكون فيها علاقة المعلم بتلاميذه كعلاقة الأخ الأكبر باخوته الصغار ، يهيىء لهم الجو ، ويعيش معهم فيه ، ويشترك معهم فى كل نواحى نشاطهم ، فاننا ننتظر فيها أن يكون المعلم أقل صرامة منه فى الحالة الأولى ، كما يكون أقدر على مشاركة الأطفال فى حياتهم . ولكن الى أى سن يمكن المعلم العادى أن يعيش مع الأطفال بروح الطفولة أو بروح الأخ الأكبر ؟ تتوقف الاجابة عن هذا السؤال على عوامل عدة منها عمر الأطفال أنفسهم ، ومنها بعض العوامل النفسية الخاصة بالمعلم ، والتى قد تكون خارجة عن حياته المهنية ، وعوامل نفسية أخرى مشتقة من حياته المهنية نفسها . ويلاحظ أن المعلم أحيانا تقل قابليته ومقدرته على الاشتراك الفعلى مع الأطفال فى حياتهم كلما تقدم فى العمر بعد سن معينة ، وتقل تبعا لذلك مقدرته على قيادته لتلاميذه قيادة الأخ الأكبر لاخوته الصغار . وهناك حالات كثيرة لمعلمين يحتفظون بروح الطفولة ، وبالقدرة على حسن التعامل مع تلاميذهم الى أعمار متقدمة جدا وذلك بالنظر لقوة شخصياتهم وطول مرانهم وهؤلاء هم المثل الذى يجب احتذاؤه .

واذا كان المدرس قائدا يقتدى به الأطفال ، فهل يظهر لهم على طبيعته ؟ أم يظهر لهم كنموذج مثالى عال يصعب عليهم التمثل به ؟ وأعتقد أن المعلم يجب أن يظهر على طبيعته ، لأن الظهور بغير ذلك نفاق ورياء يحسه الأطفال فى العادة . ومتى أحس الأطفال بروح الرياء فى شخص ما . فانهم لا يطمئنون اليه ، ثم انهم قد يكسبون منه صفة الرياء ، وقد تتولد فيهم الكراهية له ، خصوصا اذا كانت هذه الصفة تتعارض تعارضا كبيرا مع وظيفته . وفوق ذلك فتكلف الظهور بمظهر نموذجى عال جدا قد يعطى الطفل صورة

يستحيل معها تحقيقها فى نفسه ، وبذلك قد ييئس من اصلاح نفسه ،ويترتب على هذا اليأس ما يترتب عادة من شعور بالنقص واحتقار للذات وما شابه ذلك من نتائج . ولذا وجب أن يظهر المعلم للأطفال على طبيعته فى حدود ما تتطلبه حياة الجو المدرسى القائم . واذا لم يمكن المعلم أن يفعل ذلك نظرا لتأصل بعض الصفات السيئة فى نفسه التى يصعب التغلب عليها ، والتى يتحتم ظهورها فى الجو المدرسى ، فليس خليقا به أن يمتهن التدريس اطلاقا .

تنقلنا هذه النقطة الى نقطة أخرى قريبة جدا منها ، وهى التكلف فى المظهر . فأغلب المدرسين يرون (أو كانوا يرون الى عهد قريب) أن مظهر الوقار ضرورى لهم ، والا فقدوا سلطانهم ، وساء النظام الضرورى لسير العمل . ولكن سيكلوجية الظهور بمظهر الوقار والتكلف بسيطة واضحة ، فالمرء يلجأ للوقار عادة بطريقة لا شعورية حتى يدفع عن نفسه مظنة معينة ، كالجهل أو التفاهة أو القصور فى أية ناحية من النـواحى . فالوقار هو ما يغطى الانسان به نفسه حتى لا يكشفه غيره . واذا كان المدرس وقورا جدا ، فانه لا يمكنه النزول عادة الى مستوى الأطفال ، ولا أن يندمج معهم ، لأن الوقار المصطنع والطفولة لا يندمجان بسهولة .

وبسبب تمسك بعض الناس بالظهور بمظهر الوقار نرى المجتمع الذى ينتمون اليه مقسما الى طبقات نميز فيها بين الضعة والتظاهر بالعظمة[1] ، ولذا كان التمسك بالتكلف منافيا لروح الديمقراطية فى التعليم .

والتخلص من غلاف الوقار يظهر المعلم طبيعيا صريحا مخلصا ، ولكن التكلف فيه ينفر التلميذ منه ، ويوحى اليه بأنه يتصف بطابع التمويه والرياء ، فاذا نجح المعلم فى التخلص من هذا الغلاف أوحى الى تلميذه بأنه يتخلق بالصراحة والاخلاص ، وجعله يشعر بالاطمئنان اليه . وعنـدما يكتشف

(١) لذلك يسهل فهم حكمة تقاليد الحج فى خلع الملابس العادية والاكتفاء بالازار ، لأنها تزيل غلاف الوقار الصناعى الظاهرى ، وبذلك يتحقق نوع من المساواة يحس به الحجاج ، ويطربون له أشد طرب .

التلاميذ نواحى القصور فى معلمهم يصح له أن يفسرها ، ويفسر ضررها ، وينصحهم بعدم التخلق بها ويبين لهم صراحة وجه صعوبة تخلصه هو منها ، ووجه تضايقه منها • ومثل هذا الاتجاه يمكن أن يؤخذ مثلا فى حالة التدخين على أن يكون المعلم مخلصا فى ذلك •

فكأن الصورة التى يجب أن يكون عليها المعلم هى أنه أخ أكبر ، مكشوف ، على طبيعته ، يسترشد به الأطفال ، ويطيعونه ، ويحبونه ، ويحيا معهم حياتهم ، ويبادلهم حبا بحب واحتراما باحترام ، ويشعرون أنه يعمل لصالحهم بحماس واهتمام •

المراجع

Adler : The Education of Children. Ch. X.
Craig : School Life Mental Instability.
Gates and others : Educational Psychology.
G.H. Green : Psycho-analysis in the Classroom.
Gruenberg : The Guidance of Childhood and Youth.
Hildreth : Psychological Service for School Problems.
C. Miller : The New Psychology and the Teacher.
Neill : The Problem Child.
Neill : That Dreadful School.
Neill : The Problem Teacher.
Sayles : The Problem Child in School.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
Symonds : Mental Hygiene of the School Child.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
Valentine : The Difficult Child and the Problem of Discipline.

الباب الثالث

مشكلات تربية النشء

الفصل الثالث عشر	: المشكلات المتعلقة بالتغذية .
الفصل الرابع عشر	: « « بالنوم .
الفصل الخامس عشر	: التبول اللاارادى .
الفصل السادس عشر	الحركات العصبية . مص الأصابع وقرض الأظافر
الفصل السابع عشر	: صعوبات النطق .
الفصل الثامن عشر	: الخوف وضعف الثقة بالنفس .
الفصل التاسع عشر	: الكذب .
الفصل العشرون	: السرقة .
الفصل الحادى والعشرون	: الميل للاعتداء والتشاجر ونوبات الغضب .
الفصل الثاني والعشرون	: التخريب .
الفصل الثالث والعشرون	: الغيرة .
الفصل الرابع والعشرون	: التأخر الدراسى .
الفصل الخامس والعشرون	: المشكلات الجنسية .
الفصل السادس والعشرون	: التربية الجنسية .

الفصل الثالث عشر

المشكلات المتعلقة بالتغذية

مقدمـة عامة :

شرحنا فى البابين السابقين أهم الأسس التى يمكن أن نستند عليها ، لتنير لنا السبيل لاقامة دعائم الصحة النفسية • وتفيدنا معرفة هذه الأسس فى حالات السويين والمرضى • ووضحنا ما أثبتناه من مبـادىء مستعينين بالحالات التى درسناها ، وبعدد قليل من الحالات اقتبسناه من دراسـات الآخرين • ونرمى فى هذا الباب الى دراسة بعض المشكلات التى تقابلنا فى تربية النشء • وحيث ان أهم المشكلات تنبع أصلا من تلك التى تظهر فى مرحلتى الطفولة والمراهقة ، فقد اقتصرنا على هذه ؛ اذ أن دراستها تمكننا من وقاية النشء ، مما قد يظهر عند اكتمال نموه من مشكلات أكثر رسوخا وأشد خطورة • وسنبدأ بمشكلات الطفولة الأولى ، وغايتنا أن يستنير الآباء ومن لهم صلة وثيقة بالأطفال فى هذه المرحلة فى طرق معاملتهم ؛ حتى يتمكنوا من مواجهة المواقف البسيطة بأسلوب حكيم يحل المشكلة ، والى جانب حلها ، يمنع ظهور ما هو أخطر منها فى المستقبل • وتبدأ مشكلات الطفولة الأولى من وقت الولادة مرتبطة بتغذيتهم ، ونومهم ، وعاداتهم ، وحالتهم الصـحية الجسمية ، وما الى ذلك • والتغـذية من أولى هـذه المسائل وأهمها •

وقد يسأل سائل : وما الصلة بين التغذية والصحـة النفسية ؟ ولكن سبق أن بينا بعض ما يجيب عن هذا السؤال ؛ عندما تكلمنا عن الأثر المتبادل

بين الحياة الجسمية والحيـاة النفسية • وكذلك عند تعرضنا لموضـوع الحاجات أثبتنا الوجه النفسى لأفضلية الرضاعة الطبيعية على غيرها • كذلك نعلم أن هناك فرقا بين الأثر الناتج من اجابة الطفل الى كل ما يطلبه من طعام وبأسرع طريقة ممكنة ، واجابته الى بعض ما يطلب ، وبشىء من عـدم الهلع فى الاجابة • يترتب على مثل هذه المواقف منذ اللحظة الأولى أساليب للسلوك يواجهها الطفل بها • من هذه : أسلوب العنف والالحاح ، وأسلوب التحايل ، وأسلوب الخضوع والتسليم • وأمثال هذه التشكيلات السلوكية أو الأساليب السلوكية قد تظهر مرتبطة بمواقف ، ربما تبدو لنـا بسيطة ضئيلة الأثر ، كمواقف التغذية على اختلاف أنواعها • ولكنها فى الواقع تترك أثرا راسخا قد ينتشر الى أنواع السلوك الأخرى عند التقدم فى العمر • وعملية التغذية عملية حيوية هامة بالنسبة للطفل ، اذ تكاد تكون الشىء الوحيد الذى يشغله فى الأشهر الأولى ، ويرجع أثرها الى تكرارها مرات عديدة كل يوم ، والى ارتباطها فى ذهن الطفل بالأم • وهى أول شـخص تتكون حوله عواطف الطفل • وتتكون هذه العواطف مرتبطة بعملية التغذية والانفعالات المصاحبة فى أثناء مواجهة مشكلاتها •

وهناك كثير من مشكلات السلوك تشتق أسبابها من مناسبات تنـاول الطعام • وأساس هذه المشكلات ما سبق ذكره من أن تناول الطعام له مواقف وله معاملات معينة ، تكاد تكون ثابتة ، من جانب الوالدين • ويرد الطفل على هذه المعاملات والمواقف بأسلوب أو أساليب معينة تكون فى الغالب لاشعورية • ونظرا لأن مناسبة تناول الطعام تتكرر منذ ولادة الطفل مرات عديدة فى كل يوم كما قلنا ، وترتبط فى ذهن الطفل بهذه المناسبات انفعالات الارتياح والتألم والتضايق وعواطف الحب وعواطف الكراهية ، فان الاحتمال قوى فى أن يكون لمواقف تناول الطعام أثر ثابت فى تكوين شخصية الطفل •

فاذا أخذنا عملية مص الثدى فى الأشهر الأولى ، نجد أنها أهم الخبرات

الحيوية عند الطفل • ونجد أنه يقابل فى مواقف الرضاعة مشكلات ، قد نستهين بها ، وقد لا نشعر بها على الاطلاق ؛ كتدفق اللبن أو قلته ، أو عدم القدرة على المص لعدم ملاءمة « الحلمة » ، وما الى ذلك • وقد يتوقف على طرق مواجهة الطفل مشكلات مواقف الرضاعة تكوين جانب كبير من طابع « الشخصية » الذى يلاحظه بعض الآباء ، مما يسميه آدلر بأسلوب الحياة أو طابع السلوك (Style of Life)

كذلك مواقف الفطام لها مشكلاتها ، ولها أزماتها عند الطفل • ويجب مقابلة هذه الأزمات بصورة تحل المشكلة ، وتمنع ظهور مشكلات أخرى فى حياة الطفل • ولأجل أن تمر فترة الفطام بسلام ، يجب أن يمهد لها من الأشهر الأولى ، بتمرين الطفل على تناول السوائل من ملعقة أو من كوب ، وأخذ بعض الأغذية التكميلية التى لابد أن تستوفى شروطا معينة •

وخلاصة ما تقدم أن تناول الطعام مناسبة لها أهميتها الكبرى عند المشتغلين بالدراسات السيكلوجية للأطفال فى مراحل نموهم المختلفة مبتدئين فى ذلك بالشهر الأول •

حالات :

من النادر أن تعرض على العيادات السيكلوجية حالات أساس الشكوى منها صعوبات تتعلق بالتغذية فقط • ولكن تظهر صعوبات التغذية عادة — كغيرها من الصعوبات — ضمن مشكلات أخرى تكون فى الغالب أكثر لفتا لنظر القائمين برعاية الطفل من مشكلات التغذية نفسها • وتظهر مشكلات التغذية ضمن مشكلات نوبات الغضب ، والغيرة ، والتأخر الدراسى ، وفقدان القدرة على التركيز ، وضعف الثقة بالنفس ، والقلق النفسى ، والاغراق فى أحلام اليقظة ، وما الى ذلك •

لنأخذ حالة ولد كان فى سن العاشرة من عمره ، وكانت شكوى والديه منه أنه خمول ، خجول ، عنيد ، شديد الغيرة من اخوته ، لا يميل الى العمل

الدراسى ، ميال الى الكذب ، وهو فوق ذلك كله يتأفف من الكثير من أنواع الطعام ، وقد استرعى نظر والدته تأففه بنوع خاص من بعض الخضروات الممتزجة أجزاؤها بعضها ببعض « كالقرع والسبانخ » وما شابه ذلك ، وبعض أنواع الفواكه كالموز • فكان لا يكاد يعض الموز بأسنانه حتى تظهر عليه علامات الاشمئزاز والتأفف ، ويصرخ ثم يقذفه من فيه • وكان يقبل على الأطعمة الواضحة الأجزاء كالبطاطس ، وبعض النشويات ، وبعض أنواع الحلوى ، والبيض ، واللبن •

هذا النوع من الصعوبة موجود عند أغلب الأطفال ، ولكنه يختفى عادة مع التقدم فى السن • ولكن هذا الطفل كان اشمئزازه يزداد مع تقدمه فى السن • ولعل من أسباب ذلك أن الأم كانت تلجأ الى طرق الاغراء المختلفة ، وكانت أحيانا تلجأ الى العقاب ، حتى ترغمه على تناول ما لا يحب •

وقد يكون بعض صعوبات هذا الطفل — لا كلها — راجعا الى مكانة الطفل فى المنزل • فالأم تعلن أنها تحب البنات أكثر من البنين ، وتفضل — بناء على ذلك — أخته عليه تفضيلا واضحا ، لا مراعاة لشعوره فيه •

وحالة أخرى كانت الشكوى الأساسية منها شدة الخجل ، والحساسية للنقد ، وفقدان الشهوة للطعام ، وطول المدة التى يقضيها الطفل على مائدة الطعام مع تناوله قسطا صغيرا جدا منه • وقد اتضح أن الوالد قلق على أولاده وعلى ما يأكلونه وكميته الى أبعد حدود القلق • ويحتمل أن يكون هذا القلق هو العامل الأساسى • وليس هذا مجال تفسير قلق الوالد ، وشرح نوعه وطريقة تأثيره فى الابن •

وحالة ثالثة أرسلت للعيادة لتأخر فى النطق • وقد تبين فى أثناء دراستها أن الولد يرفض كثيرا من أنواع الأطعمة • وهو فوق ذلك ميال الى الكذب والمعاندة ومخالفة الأوامر • ولعل السبب فى ذلك أن الولد يجاب له كل

طلب اشفاقا عليه . والبيئة غنية جدا بحيث يمكنها أن تلبى كثيرا من مطالبه . والولد لتأخر نطقه وسمعه وتأخره العقلى العام يجد فى اصراره على مطالب خاصة مجالاً طيبا لاثبات ذاته . وللولد مربية تعنى بأمره ، وهى شديدة قاسية ، مما قد يفسر ميله للمعاندة والكذب ومخالفة الأوامر . ولعل الحادثة الآتية توضح موقف المربية نحوه بوجه عام . هذه الحادثة هى أن الطبيب قد نصح الأسرة بأن تغذى الطفل « مخا » من آن لآخر ، ولكن الطفل رفض أن يأكله . فوضعت المربية المخ بين شطرين من الخبز ، وقدمته له على أنه « فراخ » ثم اكتشف الولد فى أثناء تناوله الطعام أنه « مخ » فرفض أن يأكله، ولكن المربية أجبرته على تناوله ، وأطعمته اياه رغم الاحتجاج والرفض .

ومن بين الحالات النادرة التى اتجهت الشكوى الأساسية فيها الى قلة الاقبال على الطعام ، حالة طفل فى الرابعة من عمره ، على جانب كبير من الذكاء — كما دل على ذلك اختبار ذكائه — جم النشاط والجرأة والظرف ؛ اذ تجده باش الوجه ، اجتماعيا ، حسن الحديث ، قليل الخجل . مليئا بالحيوية .

اذا جلس هذا الطفل الى مائدة الطعام فانه يكاد لا يأكل ، وكثيرا ما يضع اللقمة فى فمه ويتركها مدة طويلة يشرد فى أثنائها بذهنه . فاذا نبه الى ذلك فانه يشرب كمية كبيرة من الماء لتساعده فى عملية الابتلاع .

ويقول والده : ان ما يتناوله الولد من الطعام ضئيل جدا على الرغم من كل ما يبذله معه من محاولات الاغراء ، ومحاولات التهديد ، والاهمال أحيانا . ولعله من الواضح أن هذه المحاولات الايجابية هى التى تصرف الولد غالبا عن تناول الطعام .

وبدراسة ظروف الولد وحياته ، اتضح أنه يكاد يكون عاديا فى كل شىء ،لولا أن الأم تخاف الأمراض خوفا خارجا عن الحدود المعقولة . فاذا

سلم الولد على شخص غريب فلابد أن ترى بنفسها أنه غسل يديه جيدا بعد ذلك ، خوف احتمال انتقال عدوى مرضية • واذا جلس الولد ليأكل فان عملية الأكل تحاط بأشد الاحتياطات ، خوف الذباب والأتربة والتلوث وما الى ذلك • وفى أثناء تناول الطعام ينصرف الكل اليه يرجونه أن يأكل هذا ، وأن يأكل ذاك •

ويضاف الى ما تقدم أن كل من بالمنزل يتحدثون عن أن الولد لا يأكل ، وأنه فاقد الشهوة • ويشترك فى ذلك أحيانا الجيران والأصدقاء والخدم • ويحدث كثير من هذا على مسمع من الولد ، ويكون مصحوبا بعلامات التأثر من جانب الوالدين • هذا كله مع العلم بأن الولد فى صحة جيدة ، بحسب مظهره ، وبحسب الفحص الطبى الدقيق •

ويلاحظ كذلك أن الولد يعتمد على أمه فى أتفه المسائل من لعب ، ولبس ، ونوم ، وما الى ذلك •

معنى ما تقدم أن الولد مركز العناية فى المنزل ، وأنه نجح فى تحويل كل من بالمنزل الى التكلم عنه ، ومراقبته ، والمناقشة فى أمره • وبذلك أصبح بطل المنزل • واستغل — بطريقة لاشعورية — عملية الاضراب الجزئى عن الطعام للوصول الى هذه البطولة • على أنه يجب أن نعلم أن كل ما يجذب الانتباه فى أثناء تناول الطعام كفيل بأن يصرف الطفل عن تناول هذا الطعام •

وهناك ظروف أخرى ، لعلها ساعدت على جعل هذا الطفل مركز اهتمام الأسرة ، وهى أنه وحيد والديه • ويعيش فى نفس المنزل أولاد آخرون من زوجة أخرى • هذا الظرف يجعل للولد مركزا ممتازا ، لا لسبب الا لأن له والدين بالمنزل ، وأما بقية الأولاد فليس لهم فيه الا الوالد • وبحكم صغر سن هذا الولد تجده يتمتع بأغلب عطف أبيه • فهناك نوع من التميز الشديد يشعر به الولد • رغم كل ما يعمله الوالدان لازالة الفروق بينه وبين اخوته غير الأشقاء •

ولعل سائلا يسأل : وكيف يضمد الولد لكل هذا الجوع ؟ ولكن الواقع أن الولد يتناول كمية غير قليلة من الحلوى والأكلات الصغيرة المتكررة — شأنه فى ذلك شأن أغلب الأولاد المتميزين بمركز خاص •

وقد نصحنا الوالدين بوجوب اهمال كل ما يجعل الولد مركز اهتمام الجميع فيما يختص بتناول الطعام • ونصحنا الأم بمنع كل مراقبة فى أثناء الأكل ، وبوجوب انشغالها عنه قدر الامكان • نبهنا الوالدين كذلك الى وجوب تنظيم النزهة اليومية — وكانت معدومة تقريبا خوفا على الولد من الحوادث والأمراض • ونصحنا كذلك بوجوب تنويع الطعام ، وبوجوب تعويد الطفل تناول غذائه بين آن وآخر مع أطفال آخرين ؛ اذ يلاحظ أن أى طفل يأكل عادة مع زملائه وأصدقائه بشغف أكثر مما يفعل مع والديه •

ووجهنا الوالدين كذلك الى أن الاحتياطات الشاذة المصحوبة بخوف مستمر ، تضر بصحة الطفل النفسية والجسمية ، وتهزم الأغراض المقصودة منها • فالقلق الذى تظهره الأم بصورة واضحة مرتبطا بالطفل ، خصوصا فيما يتعلق بطعامه ، يجعل عملية تناول الطعام عند الطفل مرتبطة ببعض المخاوف • ونتيجة ذلك اما أن يكره الطفل عملية تناول الطعام وينفر منها ، واما أن يستغل مناسبة تناول الطعام للتحكم فى والديه ، ويحدث هذا كله غالبا بطريقة لاشعورية • لا يتحكم فيها الطفل تحكما اراديا صريحا •

أنواع المشكلات وطرق تحديدها :

يتبين من الحالات السابقة ، ومن غيرها ، أن من أبرز مشكلات التغذية فقدان الشهوة (Anorexia) • وعند بحث هذا النوع من المشكلات ، يجب أن نعرف ان كان فقدان الشهوة دائما أم مؤقتا • فان كان دائما يعزى الى عوامل مزمنة ، وان كان مؤقتا فانه يرجع الى عوامل طارئة • ويجب أن نعرف كذلك ان كان ظهوره فجائيا أم تدريجيا • ويكون الفقدان الفجائى فى غالب الأحيان مصحوبا بأعراض أخرى ظاهرة ، كارتفاع درجة الحرارة

أو التقزز أو الحالات النفسية الحادة كالغضب واليأس والحزن وما شابه ذلك . كذلك علينا أن نعرف ان كان فقدان الشهوة عاما يتناول جميع المأكولات ، أم خاصا يتناول بعضها دون بعضها الآخر . ويجب أن تتقصى لنعرف ما اذا كان ذلك يظهر فى جميع المناسبات أم فى مناسبات معينة كالأكل المنفرد ، أو الأكل على مائدة غير منسقة أو غير منوعة الأصناف أو غير ذلك .

ويظهر فقدان الشهوة بصورة مختلفة منها : انعدام الرغبة فى تناول الطعام ومنها البطء الشديد فى ذلك . ومنها التأفف وما الى ذلك .

والى جانب فقدان الشهوة بمختلف صوره نجد الشره ، فبعض الأطفال يزدردون الأكل ازدرادا ، وبعضهم يأكل كميات كثيرة جدا . وما ذكر هنا عن فقدان الشهوة يمكن أن يذكر عن الشره ، فيجب بحثه ان كان عاما أم خاصا ، فجائيا أم مؤقتا ... الى غير ذلك .

ومن المشكلات الحادة النادرة ما يرتبط بتناول الطعام ارتباطا شديدا كالتقيؤ أو الشعور بالغثيان وترجيع الطعام وغير ذلك .

ويجب أن نذكر عند بحث هذه المشكلات ، الصلة الشديدة بين النشاط الغددى العام ؛ وتمثيل الطعام والقابلية لأخذه . وعلينا كذلك أن نذكر ما بين الأجهزة الهضمية والتغيرات الجسمية المصاحبة للانفعال من صلة شديدة .

ومعروف أنه فى أثناء الانفعالات الشديدة لا يقوم الجهاز الهضمى بأداء عمله أو يؤديه ناقصا[1] . فالعصارة الهضمية يقل افرازها أو يقف . وتتعطل كذلك جميع العمليات اللازمة للهضم[2] (راجع حالة ص ٥٤) . ونلاحظ

(١) وعلى العكس من ذلك الجهاز التنفسى والجهاز الدورى فانهما يؤديان عملهما بغاية الكفاية فى أثناء التهيج الانفعالى : D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

(٢) ويلاحظ أن بعض الأمراض المعدية والمعوية قد اكتشف حديثا انها قد تكون سيكلوجية الأصل ـ أى ناشئة من حياة انفعالية غير سوية . مثال ذلك القرحة المعدية ، والتهاب القولون .

عادة أننا فى أثناء الحزن أو الغضب أو اليأس نفقد شهوتنا ازاء تناول الطعام • فيجب أن نؤجل للطفل وجبة طعامه ان كان فى حالة انفعالية شديدة حتى يهدأ منها • ويستثنى من الحالات الانفعالية حالات الضحك الخالى من التهيج الشديد • فهذا النوع من الضحك يكون مصحوبا بحالة تراخ • والوصول الى حالات تراخ قبل بدء تناول الطعام من العادات الطيبة •

كيف ندرس مشكلات التغذية :

بعد أن حددنا المشكلة تحديدا واضحا نتجه الى دراسة العوامل التى تؤدى الى ظهورها ولو أن دراسة العوامل وتحديد المشكلة يتداخلان أحيانا تداخلا كبيرا •

ففى فقدان الشهوة نتجه أولا لدراسة العوامل الجسمية ، فيقوم الطبيب المختص بفحص ما قد يكون هناك من امساك ، أو سوء هضم ، وما هناك من أعراض ظاهرة كالتقيؤ ، واتساخ اللسان ، وسقوط المعدة ، وما الى ذلك • كذلك عليه أن يدرس ان كان هناك اشتباه فى مبادىء سل ، أو ان كان هناك مصادر « للتوكسينات » تقلل من الحيوية العامة • كذلك تدرس حالة الغدد • وهناك فوق هذا بعض الخصائص الجسمية العامة التى تصاحب عادة فقد الشهوة • فصاحب الجسم الطويل الرفيع يكون قليل الشهوة ، بخلاف صاحب الجسم العريض الواسع • وقد وجد أحد الباحثين أن ٨٢٪ من الأطفال الفاقدى الشهوة للطعام من النوع الرفيع الطويل •

والأعراض الجسمية تكون فى حالة فقدان الشهوة أحيانا سببا لها وأحيانا نتيجة لها • وعلى أى حال يجب فحصها فحصا جيدا ، والعمل على تحديد الدور الذى تلعبه •

تتجه الدراسة أيضا فى مثل هذه الحالات الى نوع التغذية ، فيجب درس غذاء الطفل درسا جيدا ، لمعرفة درجة اتفاق ما يأخذه مع ما يحتاجه الجسم من «فيتامينات» ، وأملاح معدنية ، ودهنيات ،وما الى ذلك • ويلاحظ

أن كثيرا من الأطفال لا يجوعون فى الميعاد بسبب كثرة أكلهم للمواد الدسمة، التى تحتاج فى هضمها الى مدة طويلة ، أو لتناولهم مواد شديدة الحلاوة قبيل الأكل ، أو لعدم انتظام المواعيد ، أو للنقص فى « فيتامينات » معينة ، أو غير ذلك •

بعد دراسة الناحيتين السابقتين تتجه لمعرفة ما اذا كانت هناك عوامل مسببة للانهاك العصبى كقلة النوم وسوء التهوية وقلة الرياضة ، وكالعمل المستمر القليل التنويع • ويلاحظ أن تلاميذ المدارس يأكلون فى الاجازات الصيفية أكثر مما يأكلون شتاء فى أثناء العمل • هـذا على الرغم من أن حاجتهم للغذاء شتاء أكثر منها فى الصيف • وسبب ذلك : العمل المستمر القليل التنويع الخالى من فترات الراحة • ومما يؤدى الى الانهاك العصبى وجود الطفل فى بيئة تستثير فيه حالات حادة كالغيظ ، أو الضحك ، أو كثرة الكلام ، أو الضجيج ، وما الى ذلك بسبب ما يفعله الكبار أحيانا مع الصغار عادة لتسلية أنفسهم •

علينا فوق ما تقدم ، أن ندرس الحياة الانفعالية للطفـل من غضب ، أو حزن ، أو يأس ، أو غيرة ، أو فقدان للشعور بالأمن ، أو تضايق من تقييد للحرية ، أو ما شابه ذلك من حالات الانفعال ، التى لابد لدراستها من ملاحظة الطفل ، واعطائه فرصة التعبير الحر عما عنـده من اتجاهات نفسية ، ومن دراسة ظروف الطفل نفسها ، من حيث علاقته بوالديه واخوته ورفقائه ، وسلوكه فى أثناء لعبه وعمله بالمدرسة ، وما الى ذلك •

والوالدان من أهم ما يتجه اليه الذهن عند درس هـذه المشكلة ؛ فبعض الأمهات يضربن أسوأ المثل لأطفالهن ، بأن ينقطعن الى حد كبير عن تناول الطعام لتخفيف أوزانهن • وبعض الآباء لا يتناول وجبة الافطار • اما بسبب قصر المدة الواقعة بين الاستيقاظ ، وترك المنزل للعمل ، أو بسبب التدخين ، أو بسبب الانهاك الناشىء من السهر فى الليلة السابقة ، أو غير

ذلك • وبعض الآباء يكثرون من التنبيهات فى أثناء تناول الطعام ، فينتهزون فرصة تناول الطعام لتلقين الطفل آداب الأكل ، وتقاليده ، مما يصرف الأطفال عن الطعام نفسه • ويجب أن يذكر الآباء أن الطفل يتعلم آداب المائدة بمرور الزمن عن طريق المثال والممارسة المتدرجة ، لا عن طريق التلقين والشرح• كذلك يخطىء بعض الآباء اذ يقومون باغراء الأطفال، أو باجبارهم، أو باقناعهم بمختلف الأساليب لتناول الطعام عامة ، أو لتناول نوع معين منه ، وهذا النوع من الآباء يكون عادة قلقا ، اما على الطفل ، واما على نفسه • وفى الحالة الأخيرة يسقط قلقه الذاتى على الطفل • ويكون فقدان الشهوة لدى الطفل أحيانا حيلة شعورية أو لاشعورية لعقاب الوالدين ، أو لعقاب الذات ، وهذا يحدث اذا أذنب الطفل ، فقد يعاقب نفسه بالاقلاع عن الطعام • كذلك اذا عوقب الطفل من والديه ، فقد يقلع عن الطعام عقابا لوالديه ولنفسه فى الوقت عينه •

وتلخيصا لما تقدم نقول ، انه بعد درس جميع العوامل الجسمية المحتملة ، ندرس الظروف والمواقف التى تظهر فيها المشكلة ، وبنوع خاص الموقف الذى ظهرت فيه أول مرة ، وعلينا كذلك أن ندرس الوظيفة التى تؤديها المشكلة لصالح الفرد • أما المواقف ، فأهمها معاملة الوالدين للطفل عامة ، ومعاملتهما له فى أثناء الطعام خاصة • كذلك من المواقف ما يربط الطعام فى ذهن الطفل برباط منفر أو غير سار ، كأن يغرى الطفل على شرب شاى مثلا على أنه شاى خالص ، ثم يكتشف فى أثناء شربه له أنه مخلوط بزيت الخروع مثلا• أما الوظيفة التى يؤديها فقدان الشهوة ، فأهمها جذب الانتباه ؛ فمن الجائز أن تمنع الطفل — دون أن يقصد دائما — يثير حوله اهتماما من والديه لا يحصل عليه عادة بغير هذا التمنع • ومن الجائز — كما قلنا — أن اضراب الطفل عن الطعام يشعر الوالدين بذنبهما لايقاعهما عليه عقابا معينا•

البطء فى تنـاول الطعـام :

ويتصف بعض الأطفال ببطء شديد فى تناول الطعام • ولعل أهم سبب لذلك ، هو أن تناول الطعام ينظر اليه فى بعض الأحيان كنوع من اللعب يصرف الطفل فيه من الوقت ما شاء كيفما شاء • ولكن هناك الى جانب هذا ، صعوبات المضغ الناشئة من أسباب محلية فى الأسنان أو فى الفكين أو غير ذلك ، أو أسباب عامة كالتعب والانهاك • كذلك قد يرجع السبب الى عدم الرغبة فى تناول الأطعمة المعروضة ، أو استمرار تناول الطعام رغم الشبع ، أو انشغال الذهن ، أو الاغراق فى أحلام اليقظة وكثير من الأطفال يشغلون فى أثناء تناول الطعام بمشكلاتهم الخاصة ، أو بملاحظة ما يجرى حولهم من الكبار فى أثناء تناول الطعام • وجميع النواحى التى اتجهنا الى دراستها فى فقدان الشهوة يمكن أن نتجه اليها عند دراسة حالات البطء فى تناول الطعام •

موقف الآباء وما يترتب عليه :

وينظر الآباء للأكل ومواقفه نظرة خاصة ، ولهم ازاء ذلك اتجاهات معينة تكاد تكون محدودة فى كل والد • وسبب ذلك أن درجة اقبال الطفل على الطعام تعتبر عادة دليلا على الحالة الصحية • ويختلف الآباء بعضهم عن بعض فى درجة اهتمامهم بصحة الأطفال ، ذلك الاهتمام الذى يصل فى أقل درجاته الى الاهمال ، وفى أكبر درجاته الى القلق • ويختلف تبعا لذلك الاهتمام عناية الآباء بغذاء الطفل • ونظرا لأهمية الأكل فى نظر الأطفال أنفسهم ، فاننا نجد أن الأطفـال فى حالة اهمالهم قـد يحلون مشكلاتهم بأنفسهم • وأما فى حالة القلق على الطفل ، فاننا نجده يفقد ثقته فى والديه ، اذا أدرك ضعفهما ، وبذلك ينهدم المثال الأول للقوة الذى كان ماثلا أمامه • ويحتمل أن ينتقل قلق الآباء نحو الأبناء الى الأبناء أنفسهم ، فيصبح الابن قلقا على نفسه ضعيف الثقة فيها • وينظر الآباء عادة الى قلقهم هذا على أنه نوع من العطف يجب على أبنائهم أن يحمدوهم عليه • ويجب أن يعلم

الآباء أن حالات القلق عندهم تؤثر فى أطفالهم من أعمار مبكرة جدا ، لا عن طريق الادراك والتحليل والمعرفة الصريحة ، وانما عن طريق المشاركة الوجدانية البدائية[1] .

ويصاحب القلق عادة ما يمكن أن يسمى بالتقنين[2] (Standardisation) ويقصد به تحديد كميات الأكل اللازمة لكل فرد . ويلاحظ أن بعض الآباء يعتقد أن الطفل فى سن معينة لا بد أن يأكل كميات معينة . ويشغل الآباء أنفسهم بكمية الوجبة ، ونوعها ، وعدد الوجبات . ويشغلون أنفسهم بحيث اذا سقطت وجبة منها قلقوا ، وخافوا من عواقب هذا على صحة الطفل . ويجب على الآباء أن يتذكروا أن الأطفال يختلفون فى أوزانهم وفى سرعة نموهم ، وفى نوع نشاطهم ، وما يتطلبه نشاطهم من طاقة . والكمية التى يحتاجها الطفل تختلف عادة من طفل الى آخر . وتختلف كذلك فى الطفل الواحد من وقت الى آخر اختلافات كبيرة فى بعض الأحيان . وتتوقف هذه الاختلافات على الحالة الوجدانية ، وعلى نوع النشاط الذى يبذله وكميته ، وعلى الظروف التى يتناول فيها طعامه ، وعلى نوع الحياة التى يمر بها .. الى غير ذلك .

على أن نوعا من التقنين الخاص بنوع الأكل ،وكميته ، ومواقيته ، يجب أن يراعى ليحقق الغاية الأساسية ، وهى أن يأخذ الفرد طعامه ، بحيث يهضمه ، ويتمثله جسمه ويتحول الى قوة يستفيد منها فى نشاطه ، ويشترط ألا يكون تقنينا جامدا لا مرونة فيه . ولكن اذا لوحظ أن أكل الطفل قد نقص فى كميته وبعض عناصره وعدد مراته نقصا واضحا فانه حينئذ يجب البحث فى حالته .

والتشبث بالتقنين يكون ، كما قلنا ، مصحوبا بقلق من جانب الآباء .

---

(١) راجع صفحة (٦٨) .

(٢) D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

ويكون مصحوبا عادة بشيء من الاغراء ثم الارغام ، مما يربط الموقف كله — بما فيه من أكل ووالدين وأسلوب معاملة — برباط انفعالى غير سار ، وقد يترتب على هذا نشوء كراهية الطفل للوالدين ، مما قد يؤدى الى أعراض مرضية • ويلاحظ أن مراقبة الآباء للأبناء تصرف الطفل عن الطعام ، وتعطيه سلاحا قد يستغله بنجاح ضد والديه • وتنشأ هذه المراقبة عادة من قلق الآباء الناشيء بدوره من الخوف من الأمراض أو من الوفاة ، فكثيرا ما يحدث أن يموت للطفل قريب بمرض كالسل ، فيكون هذا الحادث بداية لحملة شديدة على الطفل فى التغذية • كذلك قد يحدث أن يموت قريب بمرض « التيفويد » فتحاط عملية الأكل باحتياطات شديدة جدا لمنع الذباب ، فتصرف هذه الاحتياطات ، ومصاحبات الخوف الطفل عن تناول الطعام • فضلا عن أنها قد تغرس فيه خوفا شاذا مرتبطا بالطعام ، وتؤدى الى ما قد تؤدى اليه من المشكلات العديدة الأخرى •

ويلاحظ أن شدة قلق الآباء تعطى الأطفال فرصة الشعور الزائد بأهميتهم ، واعتراف السلطة بهم • وهذه نتيجة تسرهم ، فتدفعهم أحيانا الى التمسك بما يثير هذا القلق • والطفل عنده بطبيعته نزعة قوية للسيطرة ؛ وذلك لضعفه ، وقوة من حوله • فهو يتلمس الفرص الى التعبير عن هذه النزعة للسيطرة • فاذا أضرب مرة عن تناول الطعام ، وأثار هذا الاضراب قلق والديه ، أو غضبهما ، أو حفزهما على ضربه ، فانه يصل بسلاحه هذا الى احداث حدث عظيم محسوس • لذا كان خير الطرق ازاء هذا التصرف من الأطفال الاهمال والهدوء التام من جانب الآباء •

وكثيرا ما يحدث أن تقوم الأم باغراء الطفل ، ورجائه ، والتوسل اليه • وأحيانا يجرى الطفل فى أرجاء المنزل ، والأم تجرى وراءه بغذائه عله يتناوله • هذا منظر يشعر الطفل بسيطرته وتملكه الموقف • وكثيرا ما تأمر الأم طفلها بتناول الطعام ، فان رفض تلجأ الى تهديده • فاذا صمم فقد تعود الى اغرائه ،

وتتنازل عن تهديدها . وهكذا قد تتأرجح الأم بين الأمر ، والاغراء والتهديد ، والاقناع ، والوعد بثواب ، أو الوعيد بعقاب ، وما الى ذلك من الأساليب المضطربة التى يترتب عليها أحيانا اضطراب الطفل نفسه ، وأحيانا يترتب عليها زيادة تمسكه بموقفه ، لأنه يشعر فيه بقوته . وأحيانا تشكو الأم حال طفلها الى جيرانها أو زوارها ، وتشفع شكواها بأن تقول : انها غلبت على أمرها معه ، ولا تدرى ماذا تفعل . وتحدث هذه الشكوى أحيانا على مسمع من الطفل ، الذى يشتق لذة كبرى من أنه وصل الى ما تشتاق اليه نفسه من القوة ، مما جعل شخصا كبيرا كأمه يفشل أمامه ، ويعترف بذلك . ويلاحظ أن رفض الطعام يكثر عادة فى الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد أو المدلل — أى الطفل الذى يحتمل أن تضعف الأم أمامه .

ويدفع القلق بالآباء أحيانا الى كثرة التكلم عن المرض والتسمم والأغذية الثقيلة والأغذية المفيدة وما الى ذلك . ويصحب التكلم عن هذه النواحى — خصوصا الخوف من المرض والتسمم — حالة انفعالية . ويسمع الأطفال هذه الأحاديث اما عرضا ، واما لأنها موجهة اليهم ، ولا يفهمون منها شيئا ، ولكنهم يتأثرون بما بها من اتجاه انفعالى ، يترتب عليه خوف وصدوف عن تناول الطعام فى غالب الأحيان .

ويؤثر الآباء فى أبنائهم دون أن يشعروا عن طريق الايحاء[1] ؛ فكثيرا ما يحدث أن طفلا يرفض اللبن ، لأن الأم قالت : انها لا تحب اللبن . أو يرفضه لأنه رفضه مرة ، فقالت الأم : ان ابنها لا يحب اللبن . بذلك تثبت لديه الفكرة عن طريق الاتجاه الذى وجهته فيه الأم . وثبوت الفكرة يؤدى وظيفة هامة ، وهى أن الطفل تصبح له خاصية مميزة يتكلم عنها الناس . ويلاحظ أن كراهية الأطفال والبالغين لكثير من أنواع الطعام ، وحبهم لكثير من الأنواع الأخرى يأتى غالبا عن طريق الايحاء ، بمعنى أن اتجاهات الكبار نحو الطعام

---

(١) راجع ص ٥٧ .

من حب وكراهية قد تخلق فى الطفل اتجاهات مماثلة • ويجب أن نشير الى أن ايحاء السلوك أقوى دائما من ايحاء الكلام ، فرؤية علامات الاشمئزاز التى تبدو على الوجه أقوى أثرا من سماع الألفاظ الدالة عليه •

خلاصة هذا أن الأطفال يتأثرون كثيرا من موقف آبائهم ازاءهم عند تناول الطعام وكذلك من موقف الآباء أنفسهم ازاء الطعام •

الشره :

ومن المشكلات التى يندر أن يشكو منها انسان مشكلة الشره ، وهى تبدو بصور مختلفة منها : أن يأكل الانسان أكثر مما يحتمل ، أو أن يزدرد الأكل ازدرادا دون أن يحسن مضغه • وما قلناه عن فقدان الشهوة يمكن أن يقال عن الشره من أنه قد يكون عاما ، وقد يكون خاصا ، وقد يظهر فى مناسبات معينة دون أخرى •• الى غير ذلك •

وعلينا أن نذكر بهذه المناسبة أن الناس يقال عنهم : انهم يأكلون غالبا أكثر مما تحتاج اليه جسومهم • فتناول الطعام لا يحدث عادة لسد حاجة جسمية فحسب ، وانما يحدث لأنه عادة معينة يريد أن يمارسها الفرد فى أوقات معينة • وهذه العادة ينظر اليها بعض الناس على أنها نوع من النشاط اللذيذ المقصود لذاته • ولذا يصبح بعض الناس شغوفا بالأكل ، ينظر اليه كنوع من الهواية التى يصرف فيها ماله وتفكيره ونشاطه •

واذا اتجهنا لدرس حالة شره ، فأول ما يجب أن يتجه اليه الذهن هو درس الحالة الجسمية كالديدان واضطراب الغدد أو غير ذلك • ثم ندرس حياة الفرد الانفعالية • فكما يكون الشره ظاهرة للحرمان ، كذلك يمكن أن يكون ظاهرة للتدليل • فالشخص المدلل لا يمكنه عادة أن يضبط نفسه أمام رغبة من رغباته ، بل يهيىء لنفسه فرص التلذذ الذاتى ، وكأنه فى ذلك يدلل نفسه • ويلاحظ أن أصحاب النزعات « البوهيمية » — على وجه العموم — كانوا أصلا محرومين أو مدللين •

ويكون الشره أحيانا مظهرا من مظاهر النزعات الاعتدائية ؛ ففيه مجال العض والانقضاض والفتك • وكثير من الناس فى حالات الغضب المكتوم يعبرون عن غضبهم هذا بالانكباب على التدخين ، أو السكر ، أو تناول الطعام ، أو ما شابه ذلك •

كذلك يمكن أن يكون الشره دالا على فقدان الشعور بالأمن[1] ؛ فهو يظهر أحيانا فى حالات اليأس ، وفقدان حب الغير ، والشعور بالاكتئاب المصحوب بالحاجة الحادة الى التفريج عن النفس عن طريق الأكل والشرب • وكثير من الناس يزداد وزنه بسبب الافراط فى السكر والأكل والشرب والنوم بعد فقدان زوجاتهم أو أزواجهن ، وقد يكون الأكل فى هذه الحالات وفى غيرها نوعا من النشاط اللذيذ يتلهى به الفرد عن مشكلاته الأخرى •

كذلك يمكن أن يرجع الشره الى ضيق الميول ، وسعة وقت الفراغ ، والملل •

أما أصحاب مدرسة التحليل النفسى فقد ينظرون الى الشره على أنه تثبيت لمرحلة اللذة الذاتية المرتبطة بالفم (Oral Auto-erotic Fixation) غالبا ما يرجع فى أصله الى مشكلات مرتبطة بعملية الرضاعة •

القىء :

من المشكلات التى ترتبط عادة بتناول الطعام مشكلة القىء ولبحث حالة القىء يعرف أولا ان كان متكرر الحدوث أو عارضا ، ويعرف ان كان مرتبطا بمناسبة معينة أم عاما ، وبعد أن تحدد المشكلة تفحص الناحية الجسمية أولا ، ثم تدرس الحياة الانفعالية وتدرس المناسبات التى يظهر فيها القىء •

---

(١) فى بعض الأحيان يزدرد بعض الأطفال ما أمامهم من طعام حتى ينتهوا منه بسرعة ليتناولوا طعاماً آخر يحبونه ويخشون من أن يجهز عليه .
كذلك يبطىء أحيانا بعض الأطفال فى أكل ما أمامهم لكى يطيلوا مدة تلذذهم به لا سيما ان كانوا يحبونه حبا شديدا •

وكثيرا ما يحدث أن يكون القيء ناشئا من ارغام الطفل على تناول طعـام لا رغبة له فيه[1] ، وهذا الارغام يؤدى الى ثورة نفسية مكبوتة غالبـا ، ويعقبها عادة قيء . وقد يحدث القيء — كما يحدث أى عرض جسمانى — على أساس « الهستريا » التحويلية ؛ أى أن التقيؤ يقوم بجذب انتباه الغير ، أو بتخويف الكبار ، أو يكون تعبيرا عن عقدة نفسية أساس انفعالها التقزز أو الخوف وما الى ذلك .

كذلك يمكن أن يحدث التقيؤ بالايحاء أو بالمشاركة الوجدانية . فبعض الأطعمة قد توحى للطفل بمواد أخرى تشمئز منها نفسه ، وقد يتقيأ الطفل لأنه رأى غيره يتقيأون . وقد يكون الايحاء فى حالة التقيؤ ذاتيا أو فرديا أو اجتماعيا ، وقد يكون ايحاء صيت أو اجماع ، ويمكن ايراد أمثلة كثيرة لبيان مختلف هذه الحالات (ص ٥٧) .

ويشبه التقيؤ ترجيع الطعام ، وهو قاصر غالبا على صـغار الأطفال . ويرجع لوضع اليد فى الفم أو ابتلاع بعض الهواء فى أثناء الرضاعة ، ويمنع بأن يترك الطفل نائما على ظهره بعد الرضاعة بضع دقائق . هذا الا اذا بدأ فعلا فى الترجيع فيحسن رفعه حتى يتخلص من الطعام الذى يرجع . ولترجيع الطعام غير هذه الأسباب البسيطة أسباب طبية لا يمكننا التعرض لبحثها هنا .

خاتمـة :

يتبين من كل ما تقدم فى هذا الفصل وجوب الاهتمام بتغذية الأبناء مع وجوب التخلص من القلق . ويجب أن نذكر أن مناسبة تناول الطعام فرصة ملائمة لما يسمى بالتعلم العرضى (Concomitant Learning) ففيها يتعلم الطفل

---

(١) مارى فتاة أمريكية عمرها سنتان ونصف ، جلست مع أمها الى مائدة الطعام . وكان المنزل على ربوة مرتفعة ،وفى أثناء جلوسهما قامت زوبعة شديدة جدا شعرا بها شعورا واضحا . وفى أثناء تناول الطعـام قدم للطفلة قرع ، فرفضت أن تأكله ، فنهرتها أمها وأرغمتها ونجحت . وكانت النتيجة أن البنت بدأت تتقيأ ، واستمرت أسبوعين تخاف العواصف خوفا شديدا :

The Mother's Encyclopaedia, p. 273.

اعتماده على نفسه ، ويتعلم التعاون ، وما الى ذلك • واذا أخذنا القلق مثلا ، فالى جانب ما ينشأ عنه من مشكلات عدة ترتبط بالأكل ذاته ما ينشأ عنه من مشكلات أخرى كضعف الثقة بالذات ، وكراهية السلطة ، وما الى ذلك • واذا امتنع القلق أصبح سقوط آكلة من بين الأكلات ينظر اليه على أنه أمر عادى ، وقلت الفرص التى يتخذها الطفل لاثبات ذاته بطرق غير مقبولة • ولا يصح بحال أن تصبح التغذية مسرحا ينصب للطفل ويعرض عليه لمن حوله • فيجب أن يقل من يراقبون الطفل فى أثناء تغذيته • واذا كبر فيحسن أن تنشغل عنه أمه فى أثناء تناوله الطعام ، ولو أنها تكون قريبة منه اذا احتاج اليها الأمر •

ويجب أن يراعي أن الطفل عند تناوله غذاءه يكون منشرحا هادئا ؛ لا مهتاجا ، ولا مشغول الذهن • فلا يصح نزعه فجأة من لعب نشط لذيذ فى نظره هو ليتناول طعامه ، ولا يصح ارغامه على تناول طعام وهو فى حالة غضب أو تضايق ، بل لا يصح ارغامه على تناول الطعام ، أو تناول طعام معين، ما دام يفهم أن قاعدة المواعيد المنتظمة قاعدة محترمة لا يجوز اختراقها •

كذلك اذا أضرب الطفل عن تناول طعامه لأمر ما ؛ فبغاية الهدوء يقابل اضرابه • ويؤجل تناوله الطعام الى الوجبة القادمة[1] • هذه هى القاعدة العامة ولكنها تطبق بشىء من التصرف والحكمة •

---

(١) حدث أن كان طفل انجليزى يلعب مع زملائه على شاطىء البحر ، فعهد اليه اخوانه بحراسة القلعة التى بنوها من الرمال وانصرفوا ، ولما جاء وقت طعام الغداء نادته أمه فقال لها انه مكلف بحراسة القلعة . فقالت له : ولكن الوجبة القادمة لك هى وجبة الشاى اذا انت لم تحضر الآن لتناول طعام الغداء ، فقال : « ليكن » . فتركته وشأنه ، ولم يتناول طعامه الا فى وقت تناوله الشاى؛ أى فى الساعة الخامسة بعد الظهر . فى هذا المثال ضحى الولد تضحية كبيرة فى سبيل وفائه لزملائه وشعوره بواجبه نحو مسئوليته . وكان فى هذا المثال فرصة طيبة لتعويده النظام واحترامه لنفسه وحسن تقديره لها ، ولاسيما أن والديه اظهرا احترامهما لولائه لزملائه . وبمناسبة هذا المثال تلفت النظر الى وجوب التفريق بين الحزم والثبات ؛ والشدة والارغام على الطاعة .

ويسهل احترام قاعدة المواعيد المنتظمة اذا منعت الأكلات الصغيرة التى تتكون من الحلوى وما شابه ذلك . ويحسن التدقيق الشديد فى هـذه النقطة ، اذ أن كثيرا من الأمهات يراعين هذا ؛ ولكن قد يفسد عليهن القاعدة الجـدات أو الخالات أو أمثـالهن من الأعمام أو الأخـوال أو الضيوف أو المضيفين .

ويجب كذلك أن يراعى تقديم الطعام بطريقة شيقة جذابة . وأن يكون فيه مجال للتنويع من يوم الى آخر ؛ وأن يقدم بقدر الامكان فى أوان خاصة بالطفل اذ أن فى هذا فرصة لتفهيمه معنى الملكية ، واحترام الناس لملكيته ، وتعويده احترام ملكية الغير . كما أن فى هذا مجالا صالحا لتعويده الاعتماد على نفسه فى تنظيم أدواته ورفعها ووضعها وغير ذلك . ويجب أن يشجع الطفل على تناول طعامه بغير مساعدة فى أول فرصة ممكنة . وترجع قيمة هذا من ناحية التربية الى أن تناول الطعام عملية يكررها الطفل مرات فى كل يوم . ولذا كان تناول الطعام مجالا صالحا للتربية ، واعتماد الطفل على نفسه فى اطعام نفسه يؤدى الى اعطائه ثقة فى نفسه . مما يجعله لا يتأخر فى استقلاله عن أمه واعتماده على نفسه فى بقية أموره . وقد يعترض على هذا بأن الطفل لا يمكنه أن يستعمل أدوات الأكل . ولكن يرد على هـذا أيضا بأنه لا يتعلم الا عن طريق الممارسة والمحاولة الشخصية وارتـكاب الأخطاء وتصحيحها بنفسه ، وبشىء من ارشاد من حوله له . ويشتق الطفل سرورا عظيما اذا قل ارشاد من حوله له ، وتمكن من كشف أخطائه وتصحيحها بمجهوده الشخصى . ويحسن — اذا احتاج الأمر — مراعاة قدرة الطفل باعطائه أدوات الأكل المناسبة من حيث حجمها ووزنها وسهولة استعمالها ، ويراعى نفس هذا فى المقاعد والموائد بحيث لا تكون الحركات اللازمة شاقة على الطفل ، لأن صعوبة هذه الحركات مما يصرف الطفل عن الطعـام . ويراعى فى تناول الصغار طعامهم مع الكبار ملاءمة طعام الكبار لهم وحاجتهم

الى الاجتماع ، وشعورهم بالسرور من مصاحبة الكبار والتمثل بهم .

ويجب أن يعطى الطفل فرصة تناول طعامه مع صغار من سنه بين آن وآخر ، لأن هذا مما يثير شهوته[1] . ويلاحظ كذلك أن ميل الطفل لنوع معين من الطعام ليس من الضرورى أن يتكون بصورة مباشرة ؛ فلا فائدة من شرح فوائد الخضراوات واللحوم للطفل . ولكن من أساليب تكوين الميل أن يساعد الطفل مثلا فى شراء الطعام أو فى زراعته [2] أو فى تجهيزه ، ويجب ملاحظة شدة قابلية الطفل للتأثر والايحاء مع العلم بأن ايحاء السلوك ، كما قلنا ، أقوى كثيرا من ايحاء الألفاظ .

كذلك يلاحظ أن قابلية الأطفال لتناول الطعام وسهولة هضمه واستمرائه تتوقف على نشاطهم ومرحهم ، وسرورهم وانتظام غذائهم ، وانتظام نزهتهم ، وخروجهم للفسحة فى الهواء الطلق ، وتتوقف كذلك على جـو المنزل ، وشعورهم بمركزهم منه ، وتتوقف كذلك على جو المدرسـة وشعورهم بالنجاح فيها .

---

(١) ونشير هنا الى التجارب الطريفة التى أجراها كاتز (Katz) على الدجاج ، فبرهن على ان الدجاجة تأكل مع غيرها أكثر مما تأكل بمفردها ، وأنها تأكل ، اذا قدم لها الأكل بكميات صغيرة تتلو كل منها الأخرى أكثر مما لو قدم الأكل دفعة واحدة بكمية كبيرة From D. Katz: Animals and Men)

(٢) عالجت احدى الأمهات عدم ميل ابنتها الصغيرة للخضراوات بأن شجعتها على مساعدتها فى زراعة بعض الخضراوات فى حديقة المنزل . فقامت بوضع البذور وريها وتعهدها وملاحظتها يوما بعد يوم . وما نضجت هذه الخضراوات حتى قطفتها ثم تناولتها طعاما بشىء غير قليل من الشغف .

From The Mother's Encyclopaedia, pp. 244-246.

المراجع

Adler : Guiding the Child.

Blanton : Child Guidance.

Beatz & Bott : The Management of Young Children.

Boenheim : Practical Child Psychotherapy.

Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

Hutchinson : Motives of Conduct.

Kanner : Child Psychiatry.

Patri & Angelo : Child Training.

Shaffer : Psychology of Adjustment.

Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الرابع عشر

المشكلات المتعلقة بالنوم

مقـدمة:

عند دراستنا لمشكلات الأطفال والناشئين والبالغين يهمنا عادة معرفة كمية النوم ونظامه ؛اذ أن كثيرا من المشكلات قد ينتج مباشرة من الاجهاد الجسمى والعصبى الذى لا سبيل الى التغلب عليه الا عن طريق النوم • وكثير من حالات الانقباض ، ونوبات الغضب ، والكسل ، وضعف القدرة على التركيز ، وانعدام الاستقرار ، وكثرة الوقوع فى الخطأ ، وفقدان التوازن الحركى ، وما الى ذلك ، قد يرجع عند الصغار والكبار الى قلة النوم أو سوء نظامه أو اليهما معا • ويلاحظ أن حالات الأطفال العصبية من تهتهة ، ومص أصابع ، وقرض أظافر ، وما الى ذلك تزداد سوءا فى الأيام التى لا ينـامون فيها نوما جيدا كافيا •

ويدعى بعض الناس أحيانا أنهم لا ينامون اطلاقا ، ولكن هذا غير ممكن • فهؤلاء الناس ينامون نوما خفيفا متقطعا لا يكادون يشعرون به • وقد دلت التجارب على أن الانسان لا يمكن أن يواصل حياة عادية اذا ترك النـوم مدة تزيد على ثلاثة أيام أو أربعة ؛ حيث تبدأ حالات انقباض و (هلوسة) ، وفقد للتوازن ، وفقد شديد للقدرة على التذكر وما الى ذلك • وقد أجريت تجارب على الحيوان فثبت أن الكلاب تموت اذا لم تنم بضعة أيام •

ونظرا لأهمية النوم الحيوية ، ولشدة غرابته كظاهرة ؛ اتجه لبحثه كثير من العلماء ، وأجروا حوله التجارب ، ووضعوا النظريات • ولا يمكننا فى

هذا المجال أن نتعرض لهذه البحوث الفسيولوجية والكيميائية والهستولوجية والسيكلوجية ، وانما نكتفي بالاشارة الى نظرية «كلاباريد»[1] ، الذى يرى أن النوم ليس نتيجة لحلول التعب ، وانما هو وظيفة حيوية يقوم بها الكائن الحى ليقى نفسه من حلول التعب • فالنوم فى رأى « كلاباريد » هو صمام الأمن • هذه هى النظرية البيولوجية المقبولة ، وهى تفترض كذلك أن النوم من خصائص الكائنات الحية الراقية ، ذات المجموع العصبى المركزى •

تدل هذه المقدمة على القيمة الحيوية للنوم ، وعلى أن النوم تهمنا دراسته من النواحى الوقائية والعلاجية ، ويهمنا بنوع خاص أن يكون الناشىء فيه عادات صالحة •

الحاجة الى النوم عند الأطفال :

يلاحظ أن الطفل الصغير ينام كثيرا جدا ، اذ لا يستيقظ بعض صغار الأطفال الا للتغذية ؛ ولكن مدة النوم عند الأطفال تقل تدريجيا الى أن تصل الى حدها الأدنى وهو ثمانى ساعات تقريبا عند البالغين ، ولا يتجاوز عادة هذا الحد الأدنى الا فى مرحلة الكهولة • وحاجة الطفل الى النوم الكثير حاجة طبيعية ، فعملية النمو السريع التى تبطىء تدريجيا بتقدم الطفل فى عمره ، تستنفد منه مجهودا كبيرا يستغل فى عملية الهدم والبناء اللازمين لأنسجة الجسم ، ولابد له من تعويض هذا المجهود فى أثناء النوم ؛ باراحة نفسه راحة تكاد تكون تامة • ويخطىء من يعتقد أن الطفل لا يبذل مجهودا فى أثناء ساعات يقظته ، فملاحظة الطفل تدلنا على أنه دائب الحركة ، لا ينقطع نشاطه ، فهو يجرى ، ويمشى ، ويقذف ، ويتأمل ، ويفكر ، ويمرن عضلات يديه ورجليه وأعضاء نطقه ، وهذا كله مما يساعده على فهم العالم المحيط به ، ويؤدى الى كسب مهارة عقلية وحركية تمكنه من حسن التعامل معه والملاءمة له ، وبذلك يصير أكثر شعورا بالأمن فيه ، وأجرأ على تناوله ، وتكييفه

---

(1) Quoted by Coriat : Abormal Psychology; pp. 88-96.

لرغباته وحاجاته . هذا كله يستنفد منه مجهودا كبيرا ، لا يشعر به فى أثناء بذله له ؛ اذ أنه يصرف أغلب هذا الجهد فى صورة لعب لذيذ . وهذا المجهود الذى يبذله لابد — كما قلنا — من تعويضه عن طريق الغذاء والراحة .
وحيث ان النمو يقل تدريجيا بتقدم العمر ، وكذلك النشاط التلقائى الذى أشرنا اليه يقل أيضا مع تقدم السن ، فيحل محله عمل جدى محدود ؛ فان الحاجة الى النوم نفسها تقل كلما كبر الطفل ، ولكنها لا يمكن أن تنعدم . ففى الشهر الأول ينام الطفل عشرين ساعة تقريبا(١) ، ثم ينخفض ما يحتاجه من ساعات النوم ، الى أن يصل الى اثنتى عشرة ساعة فى سن الرابعة ، والى ما يقرب من تسع ساعات أو عشر فى دور المراهقة ، ثم الى ما يقرب من ثمانى ساعات عند اكتمال النمو(٢) .

وهناك بين الأطفال كما بين الكبار فروق فردية ، فلا يجوز تقنين ساعات النوم أو مواقيتها أو ظروفها تقنينا محدودا جامدا ، كما لا يجوز ترك الأمور بغير تنظيم . فنوع من النظام يقتصد مجهودا كبيرا بالنسبة للأمهات ، وله أثره الحسن فى صحة الأولاد . وبعض الفروق الفردية التى أشرنا اليها لا يمكن تعليله ؛ اذ أن بعض الأشخاص بطبيعتهم يحتاجون لساعات نوم أقل أو أكثر مما يحتاج اليه الشخص المتوسط الذى من نفس العمر ؛ ولو أن عدد ساعات النوم يتوقف أيضا على حالة الشخص الجسمية من حيث الصحة العامة والتغذية ، وعلى الحالة النفسية من حيث الهدوء أو الاضطراب . ويتوقف كذلك على الظروف التى ينام فيها الشخص من تهوية ، ورطوبة ، وحرارة وسكون ، وما الى ذلك .

---

(١) D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

(٢) واليك بياناً تقريبياً لعدد ساعات النوم اللازمة فى كل عمر من الأعمار :

العمر بالسنوات	٢ – ٣	٣ – ٤	٤ – ٥	٥ – ٦	٦ – ٧	٧ – ١٢	١٢–١٦	البالغون
ساعات النوم فى أثناء الليل	١٢–١٤	١١ ١/٢–١٣	١١–١٢ ١/٢	١٠ ١/٢–١٢	١٠–١١ ١/٢	٩ ١/٢–١١	٩–١٠ ١/٢	٨–١٠
ساعات الراحة فى أثناء النهار	٢	١ ١/٢	١/٢	١/٢	١/٢	١/٢	١/٢	١/٢

نظـام النـوم :

يتناول نظام النوم مسائل عديدة بعضها خاص بمواعيده ، وبعضها خاص بأمكنته ، وبعضها خاص بحالة الشخص الجسمية والعقلية . ويمكن أن نقول : ان الشخص اذا كان فى حالة شبع دون امتلاء ، واذا كان خاليا من الأوجاع والهموم ، وكان فى حالة عقلية هادئة غير متوترة ، وكذلك اذا كانت الظروف المحيطة عادية من حيث الهدوء والتهوية والراحة . وما الى ذلك فانه يمكنه أن يحصل على نوم مفيد اذا كانت مدته كافية[1] .

ويحتاج كل شخص كما قلنا ، الى عدد معين من ساعات النوم فى كل أربع وعشرين ساعة . ويجب أن يكون قسط غير قليل من هذه المدة فى أول الليل . كذلك يجب أن يحصل كل فرد على فترة راحة كاملة فى أثناء النهار . وهذه الفترة يحسن أن تكون قبل تناول طعام الغداء . ويرى البعض أن تكون هناك مرة أخرى قبل تناول طعام العشاء .

وهناك عدد من المبادىء يتعلق بعضها بالظروف التى ينام فيها الطفل . فهل يحسن أن تهيأ ظروف الراحة التامة والهدوء التام للنوم ، أو يخشى أن يتعود عليها الطفل ، بحيث اذا جدت عليه ظروف أخرى فقد قدرته على النوم ؟ للاجابة عن هذا نذكر أن الانسان فى حالة الضوضاء أو ارتفاع درجة الحرارة أو عدم ملاءمة الظروف بأى صورة أخرى فانه قد ينام ، وفى أثناء نومه يحدث ما يسمى تكيفا سلبيا (Negative Adaptation)وبه يبذل الانسان مجهودا اضافيا لمنع أثر هذه المؤثرات الخارجية ، ولذا نجد أن من ينام بحالة جسمية وعقلية طيبة فى ظروف طيبة يحتاج لساعات نوم أقل ممن ينام فى ظروف غير مريحة . ولكنا نذكر هنا أيضا أن القدرة على بذل هذا

---

(١) أما دراسة الأحداث المجرمين والمشردين فانها تكشف عن بيوت لا يمكن بحال من الأحوال أن ينام فيها الطفل نوما مفيدا .

المجهود الاضافى يجب أن تكون موجودة الى حد ما عند كل شخص ، حتى يستعملها ان جدت ظروف لا تكون فى الحسبان •

ولا يمكننا التعرض هنا لكل قواعد نظام النوم[1] ، ولكن يهمنا معرفة اتجاهات الآباء نحوه • وأول هذه الاتجاهات أن نظام النوم لا يجوز أن يفرض على الطفل بروح الارغام ، لأن ارغام الطفل وتحديه فيما يتعلق بالنوم ، يترتب عليه عادة انتصار الطفل وقد يترتب عليه تعويده المعاندة وربما ينتج عنه كراهية الوالدين • ثم ان الارغام نفسه يخلق فى الطفل مقاومة ، ولو غير ظاهرة ، وبذلك ينعدم التراخى اللازم قبل النوم • بالاضافة الى ذلك لا يجوز أن يستعمل النوم أداة من أدوات التهديد ، لأن أقل ما فى هذا ، أنه يوحى للطفل بفكرة أن النوم أمر يجب تفاديه وتجنبه • ويجب أن يكون موقف الآباء نحو النوم موقفا طبيعيا هادئا ، ولا يجوز أن يكون النوم موضوعا يكثر ما يدور حوله من النقاش ، خصوصا على مسمع من الأطفال •

ويحسن بالطفل أن ينام فى سرير مستقل من أول الأمر • ويجب على العموم ألا ينام فى غرفة والديه بعد سن السنة والنصف ، لا سيما أن كثيرا من حالات الاضطراب النفسى تنشأ من مشاهدة الاتصـــال الجنسى بين الوالدين فى سن مبكرة ، والأطفال فى هذه الحالة كثيرا ما يدعون النوم • واذا كان الأطفال مختلفى الأعمار فيحسن أن يذهب للنوم صغارهم أولا ، ولا يرسلون جميعا فى وقت واحد حتى لا يحدث احتكاك بينهم •

ويحسن أن تراعى حالة الطفل قبل نومه ، فيكون هادئا مسرورا ، وليس من الحكمة مفاجأة الطفل بمنعه من اللعب ثم ارساله للنوم • بل يحسن انذار الطفل ، واعطاؤه مهلة كافية ، كأن يقال له انه بعد عشر دقائق مثلا

---

(١) لاستيفاء هذا الموضوع يحسن قراءة كل ما يتعلق بالنوم فى الكتابين الآتيين :

D. A. Kennedy : « The Management of Babies, » The Family Book.
Len Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

سينام ، فليدبر أمر نفسه لايقاف لعبه فترة ، ويبدأ بالاستعداد لنومه •

ويلاحظ أن كثيرا من الأطفال يخافون الانتقال من حالة اليقظة الى حالة النوم ، لأن النوم والظلام كثيرا ما يرتبطان فى ذهن الطفل بأمور مخيفة ، ولأن كثيرا من الآباء يتركون المنزل بعد نوم الأطفال دون علم الأطفال أنفسهم بذلك ، ولأن الانتقال من حالة اليقظة المعروفة الواضحة الى حالة النوم الغامضة غير المفهومة يخيف ، بحسب ما لاحظنا على بعض الأطفال فى سن تقع تقريبا بين الثانية والرابعة[1] • لهذا كله يحسن قدر الامكان تفادى كل ما يجعل النوم مخيفا أو مكروها حتى يتمتع به الطفل كما يجب •

ويحسن أن ينام الطفل بمجرد ذهابه الى فراشه أو بعد ذهابه اليه بمدة قصيرة ، فان لم يحدث هذا فليؤجل ميعاد نومه نصف ساعة مثلا ، على أن يعوض له ذلك النقص فى وقت آخر • وتعديل بسيط مثل هذا — اذا احتاج الأمر اليه — تكون له فى العادة نتائج طيبة • كذلك يحسن أن يقوم الطفل مباشرة بعد استيقاظه لأن بقاءه مدة طويلة فى فراشه بعد استيقاظه يعطيه فرصة للجلبة أو لأحلام اليقظة ، وفى مثل هذه الأوقات التى تقضى فى الفراش فى حالة اليقظة تبدأ عادة ممارسة العادة السرية •

ومن حالات العيادة حالة ولد فى الخامسة والنصف له مشكلات عدة منها التبول ، والعناد ، وحك عضو التناسل الى درجة الادماء ، وغير ذلك من المشكلات ؛ ولكن من مشكلاته أيضا أنه يصحو مبكرا جدا ويصيح ، ويغنى ، ويخرب الى أن يزعج كل من فى المنزل ؛ ولكن أمكن توجيه أهله الى ارساله مبكرا الى فراشه ، وكان ذلك من أسباب سهولة التغلب على هذه العادة • وأمكن كذلك توجيه أهله الى ما يجب أن يتبع معه من تنظيم النشاط ، وتحسين المعاملة ، وتوضيح بعض ما كان غامضا بالنسبة للطفل من حيث

---

(١) شغلت مشكلة الدخول فى حالة النوم والخروج منها الى حالة اليقظة أذهان الفلاسفة والعلماء قديما وحديثا ولم يصلوا الى أجوبة شافية .

العلاقات المختلفة الموجودة بين أفراد المنزل • وذلك لأن انفصال أم الولد عن أبيه قبل أن يولد الولد ، وكتمان ذلك عنه ، وتعويده مناداة جده على أنه أبوه ، ومناداة أمه لجده فى نفس الوقت على أنه أبوها ، أوقع الولد فى ارتباك شديد • ويغلب أن يكون هذا — بالاضافة الى الأثر الناشىء من حالة أمه — بعض ما يفسر جزءا من مشكلاته •

بعض المشكلات العــادية :

ومن المشكلات الهامة نقص قدرة الطفل على الانتقال من حالة اليقظة الى حالة النوم الا بمساعدة خارجية ، كأن تحمله أمه على كتفها ، أو فى حجرها ، أو تهزه ، أو أن تنام الى جانبه ، أو أن يضع أصابعه فى فمه • وأعرف أن طفلا كان الى سن الخامسة لا ينام الا اذا جلس فى حجر أمه ووضع أصبعه فى فمها • وخير طريقة ازاء هذه المشكلات هى منع ظهورها بتاتا من أول الأمر، لأن تثبيتها يجعل من العسير التغلب عليها أو على مشتقاتها المتنوعة العديدة بتقدم السن • وصعوبة التغلب عليها ناشئة من ارتباطها بالنوم ، فنظرا لأهميتها للانتقال من حالة اليقظة الى حالة النوم ، فانه يصعب جدا ضبطها والتحكم فيها •

ومن أخطاء الأمهات حمل الطفل وهزه لأقل صوت يخرج من فيه • مع أن صراخ الطفل ليس كله صراخ ألم ، فبعضه مجرد تمرين لعضلات الصوت ، وبعضه صراخ احتجاج ، وبعضه صراخ ألم • فمواجهة الصراخ تكون بازالة أسبابه لا بمحاولة ايقافه ايقافا ظاهريا مؤقتا • وبعض الأمهات يحملن الطفل لا لسبب الا بقصد التسلى به • ولا يجوز أن تنظر الأم للطفل كدمية جىء بها لتسليتها الخاصة ، وانما يجب أن تنظر اليه كفرد له كيانه الخاص به • والأمهات اللواتى يكثرن من حمل أبنائهن والالتصاق الجسمانى بهم هن فى العادة الأمهات اللواتى لم يكون ميولا أو هوايات أو لا يشعرن بحب أزواجهن أو من حولهن ، فلا يجدن اللذة لأنفسهن الا فى أبنائهن • وهؤلاء يصعب عليهن جدا تربية أبناء يعتمدون على أنفسهم • وفى كثير من الأحوال ينال

الطفل ما يناله من حمل وهز واكثار من الضم •••• الى غير ذلك ، وعندما تصل سنه الى الرابعة أو الخامسة ، وتجد الأم أن الطفل قد كبر ، ولم يعد كالدمية كما كان من قبل ، أو تجد الأم أنها أنجبت طفلا آخر به مجال أصلح ممن قبله للتعبير عن انفعالاتها المكبوتة ، تحدث صعوبات كثيرة من الطفل الكبير ، ويقال عنه علنا عندئذ : انه صار ثقيلا غير مقبول بعد أن كان خفيف الروح • وقد يبدأ عندئذ يخرب ، أو يثور ، أو يقلق فى نومه ، أو يظهر بغير ذلك من المشكلات العديدة الناشئة من أنه لا يرغب فى التنازل عن امتياز معين بعد أن ناله وتمتع به زمنا ، وصار بطريقة ضمنية حقا مكتسبا فى نظره •

وقاعدة عامة حكيمة هى أن يسأل الآباء أنفسهم ان كانوا يريدون استمرار أسلوب المعاملة الذى ينتهجونه مع طفلهم الى أن يصل الطفل الى مرحلة اكتمال النمو أم لا • فاذا لم يريدوا استمرارها الى اكتمال النمو ، فلا يجوز الالتجاء اليها فى أى عمر مهما كان صغيرا ، بدعوى أنه يمكن الاستغناء عنها مع تقدم السن • ولا يجوز تجريبها ، الا اذا كانت ضرورية لهذه المرحلة ، ويسهل تحرير الطفل منها بالتدريج مع النمو •

ويلاحظ أن فى تعويد الأطفال ألا يناموا الا اذا كان الكبار قريبين منهم مجالا طيبا لاثبات ذاتية الأطفال بصورة لا مبرر لها ، ولاخضاع الكبار لارادتهم ، مما يؤدى حتما — ان عاجلا أو آجلا — الى احتكاك ارادة الطفل مع ارادة الكبار • ويمكن بسهولة أن نستنتج ما قد يؤدى اليه هذا الاحتكاك عند نفاد صبر الآباء •

ومن أخطاء الوالدين اقلاق راحة الطفل فى أثناء نومه لأسباب تافهة • فلا يجوز فى حالة حضور الضيوف متأخرين فى أثناء الليل أن يزعج الطفل من نومه ، ليراه الضيوف • وقد يكون الدافع أنانيا من جانب الأم ، أو جانب الضيوف ، أو كليهما ، كحب سماع كلمة ثناء ، أو حب المفاخرة ، أو غير ذلك • ومثل هذا يحدث من بعض الآباء اذا لم يروا أبناءهم طول النهار

لانشغالهم ، فيوقظونهم ليتسلوا بهم ، وقد يحضرون لهم معهم بعض أدوات الاغراء كاللعب والحلوى وغير ذلك • وهذا يستثير الأطفال ويهيجهم ، ويجعل النوم عسيرا عليهم بعد ذلك • ولا يجوز اقلاق الطفل ليلا بعد أن ينام ؛ اللهم الا اذا كان قد استوفى مدته من النوم •

وفى حالات كثيرة نجد الطفل تكثر طلباته عند النوم ؛ فهو يريد أن يتبول ، أو يشرب ، أو يقول لأمه كلاما أو غير ذلك ، وهذا فى العادة معناه أن الطفل يعتمد اعتمادا كبيرا على شخص معين ، ويساوره شعور بالقلق خوفا من أن يتخلى عنه هذا الشخص مما يترتب عليه فقد امتياز معين • وعلى وجه العموم يكون معناه أن الطفل غير شاعر بالأمن الكافى ، فيتلمس الطرق التى قد تشعره به • وفى هذه الحالة علينا أن ندرس ظروفه ، لنرى ما يكون قد أدى الى هذه الحالة • فربما كان السبب أن خادمة تركت المنزل ، بعد أن تعلق بها الطفل تعلقا شديدا لا يقدره الكبار فى الغالب ، ويجب قدر الامكان ألا تهيأ الظروف بحيث يلتصق الطفل بأناس يحتمل جدا أن يختفوا من بيئته • وربما كان السبب أن فى ذهن الطفل احتمالا غامضا بأن والديه سيتركان المنزل بعد نومه دون أن يصارحاه بذلك ؛ أو يروضاه على ألا يخاف النوم بمفرده أحيانا ، وربما كان السبب أن والدته عودته أن ينام فى حضنها ثم تتركه بعد اغفائه فيقوم ولا يجدها الى جانبه ••• الى غير ذلك من مئات الأساليب التى تقلل من شعور الطفل بالأمن أو بالثقة فيمن حوله ، والتى يرتبط كثير منها فى ذهن الطفل بالنوم •

ويشبه كثرة طلبات الطفل عند النوم تأرقه ، من حيث الأسباب التى تؤدى اليه ، ولهذين النوعين من المظاهر أسباب أخرى ، كالتخويف بالقصص المزعجة وبأساليب التخويف والتهديد المختلفة ، وما الى ذلك •

ولعل أهم أسباب التأرق فى أجزاء الليل المختلفة هى الرغبات المكبوتة ، ومعروف أن الذات العليا أو الضمير اللاشعورى عنصر كابت يقع عادة فى

نزاع مع الـ « هى » ، ولذا ينسب التأرق أحيانا الى يقظة الضمير (خوفا من طغيان النزعات) ، أو الى الاحساس بالذنب ، أو الى الخوف من الوقوع فى الخطأ ؛ ومن أسباب التأرق الهموم والرغبات المعلقة غير المشبعة ؛ ومن حالات هذا النوع حالة طالب فى سن الثامنة عشرة يشكو من أنه يتبلد ذهنه آخر النهار ، ويصير غير قادر على الفهم أو المناقشة ، ويشعر بحاجته الى النوم ، فاذا ما ذهب الى سريره تبدأ أفكار كثيرة فى الظهور ، ويصبح غير قادر على النوم ساعات طويلة ، بل يستمر غالبا طول الليل ، لا هو بالنائم ولا هو باليقظ ، الى أن تدوخ رأسه من كثرة الأفكار ، وتتلخص حالته فى أن لديه شعورا بالنقص ظهر بوضوح بعد وفاة أخيه الأكبر الذى مات بعد وفاة والده ، وسبب شعوره بالنقص أنه يشعر بعدم قدرته على سد الفراغ الذى حدث بوفاة أخيه . وهناك أسباب أخرى لشعوره بالنقص منها شدة صغر جسمه ، وعدم نجاحه فى مغامرات صغار الشبان ، سواء فى تكوين الأصدقاء ، أو فى شهرته بينهم بما يناسب مقدرته ، أو فى قدرته على محادثة البنات دون وقوع فى الاضطراب ، ومن مصادر مشكلاته أيضا مبالغة أمه فى العطف عليه مبالغة أفقدته ثقته فى نفسه ، فهى تقضى له كل طلباته ولا ترغب فى بعده عنها ، واذا خالفها أصابها المرض ، وأشعرته أنه السبب فى مرضها . فأمه تسيطر عليه سيطرة شديدة بنوع من الضعف الذى تظهره ، حتى أصبح الولد ضعيفا جدا أمام ضعفها . ولكنه ممزق بين خضوعه لضعفها ، ورغبته فى التخلص من هذا الخضوع . ووصلت به الحال الى أنه يتمنى الموت بسبب ما هو فيه ، ويشفق على أمه أن يؤدى بها ذلك الى الحزن والمرض . والذى يقض مضجع الولد هو الأفكار ، وأحلام اليقظة ، وخيالات ترتبط بما عنده من رغبات مكبوتة ، وصراعات نفسية عنيفة معقدة . وترجع كل هذه المظاهر فى هذه الحالة الى أسباب أخرى أعمق من هذه بكثير يرجع تاريخها الى سنى الطفولة الأولى ، ولا يمكن الافاضة فى بسطها فى هذا المقام .

التقلب والمشى والكلام فى أثناء النوم :

ويشبه الأرق النـــوم المصحوب بالتقلب ، وكثرة الحركة ، والمشى ، والكلام والصياح وبعض هذه المظاهر قد تحدث فى صغار الأطفال ، وكثيرا ما تكون عرضية لايجوز أن يعلق عليها كبير أهمية . فكل شخص يغير وضعه فى أثناء النوم . والشخص العادى يغير وضعه حوالى ٣٥ مرة فى الليلة الواحدة ، وذلك ليعطى كل جزء من أجزاء جسمه فرصة كافية للاسترخاء والراحة . ولكن يجب توجيه الاهتمام اذا تكرر التقلب والمشى والكلام وما الى ذلك بدرجة غير عادية . ويجب اذ ذاك أن ندرس الحالة أولا من ناحية الأسباب الجسمانية كسوء الهضم ، أو الامساك أو الافراط فى الأكل قبل النوم ، أو بعض اضطرابات الغدد كالغدد الدرقية ، أو وجود الديدان ، وأن ندرس كذلك نوع الغطاء ونوع الفراش ونوع التهوية وما شابه ذلك . واذا تأكدنا أن هذه الأسباب لا ترجع اليها مظاهر النوم المضطرب فلنبحث عن احتمال فقدان الطفل شعوره بالأمن ، أو اختفاء شخص معين عزيز على الطفل عن طريق الوفاة أو السفر أو الطلاق أو ما شابه ذلك . وطبيعى أن اضطرابات الأطفال كاضطرابات الكبار تكون ممنوعة من الظهور فى أثناء النهار ، وذلك لانشغال الفرد بمجرى الحياة العادية من عمل ولعب ، وهــذا نوع من الكبت . وتجد النزعات المكبوتة فرصة طيبة للظهور فى أثناء الليل فى الأحلام ، وتكون هذه المظاهر وهى التقلب ، والمشى ، والكلام ، وغيرها أجزاء من الأحلام . والحالة النفسية الأساسية التى ترتبط عادة بهذا النشاط فى أثناء الليل هى الخوف ، ولو أن هناك أنواع نشاط أخرى يكون قد عاش فى جوها الفرد فى أثناء النهار ، ولكنه لم يعش فيها بحيث يشبع رغبته اشباعا كاملا منها فيعيش فيها فى أثناء الليل . فاذا شاهد أحد الأولاد مباراة فى كرة القدم ، وكانت له رغبة فى اللعب يمنع من تحقيقها ، فانه قد يحلم بالليل أنه يلعب . وقد يأتى ببعض الحركات المصاحبة لذلك كالرفس مثلا . وكان أحد الطلبة فى مصر فى أثناء ثورة ١٩١٩ يقوم بالليل فى سريره ويخطب ويهتف .

وكان هذا الطالب يتمنى العظمة والشهرة والقدرة على الخطابة ، ولكن والده كان يقيد حركاته وسكناته ، وكان يمنعه من الاشتراك فى نشاط الحركة الوطنية وما فيها من خطب وهتافات ومظاهرات وغير ذلك . ومن بين الحالات التى درسناها حالة شاب يجلس فى سريره مفتوح العينين كأنما يراقب شيئا والمرجح من دراسة تاريخ حياته ، أن عاملا مهما فى ذلك ، هو أنه كان أحيانا يرى حدوث العملية الجنسية بين والديه مما جعله يفزع ويهم لمراقبتهما . واستمر معه هذا الى أن كبر وتزوج .

ومن الحالات النادرة ، حالة غلام كان يقوم بالليل ، ويلبس ملابسه ويخرج من غرفة نومه ويفتح الأبواب ويمشى ، وكان يقطع ما يقرب من الميلين ، الى أن يصل الى المقابر حيث دفن والده ؛ وهناك يركع ويتلو عليه أدعيته وصلواته ، ثم يعود الى منزله وينام فى سريره[١] . وحالة أخرى لبنت كانت تقوم من سريرها وتذهب للمطبخ وتوقد « شمعدانا » وتمسك به وتمشى الى الباب الرئيسى للمنزل وتقف « بالشمعدان » فى يدها وظهرها ملصق بالباب . وكان محور حالة هذه البنت أنها كانت تخاف اللصوص ، فكانت بعملها هذا كأنها تحرس المنزل منهم[٢] .

ومعظم حالات النوم المضطرب بأنواعه تكون فى الأطفال عرضية ولكن اذا تكررت بحيث يحتاج الأمر لدراستها بطريقة مستفيضة ، فليتجه البحث بعد استيفاء الناحية الجسمية الى الحياة الانفعالية للفرد ، والبحث عما هو مكبوت عنده من نزعات يراد تحقيقها بطريقة مشبعة .

ومن أنواع الاضطراب الشائعة فى النوم التبول ، لاسيما بعد انتهاء المرحلة التى يجب أن يكون قد وصل الشخص فيها الى المقدرة على ضبط الجهاز البولى . ونظرا لشيوع هذه المشكلة سنفرد لها بحثا خاصا .

(١) D. Thom: Everyday Problems of the Everyday Child; p. 81.

(٢) من حالات احدى العيادات السيولوجية بلندن عن لسان الدكتور هاملتون بيرسون (Pearson) الاختصاصى النفسانى بمعهد علم النفس الطبى بلندن .

المراجع

Blanton : Child Guidance.

Blatz and Bott : The Management of Young Children.

Boenheim : Practical Child Psychotherapy.

Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

Hutchinson : Motives of Conduct in Children.

Kanner : Child Psychiatry.

Kennedy : The Management of Babies : The Family Book.

Patri, Angelo : Child Training.

D. Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الخامس عشر

التبول اللاإرادى

مقـدمة :

كثيرا ما نجد بعض الأطفال يتبولون فى أثناء نومهم بالليل فى سن كان ينتظر منهم فيها أن يكونوا قد تعودوا ضبط جهازهم البولى والاستيقاظ لتفريغ ما تجمع فى مثانتهم من بول • وسن ضبط الجهاز البولى تختلف من طفل الى آخر اختلافات كبيرة يرجع بعضها الى حساسية الجهاز البولى ، والى حجم المثانة وسعتها • وسن ضبط هذا الجهاز تقع بالتقريب فى الثالثة من العمر ، ولو أن بعض الأطفال يضبطون قبل سن الثانية بكثير[1] • واذا استمر الطفل يتبول وهو نائم الى ما بعد الرابعة ، فعلى الآباء أن يفكروا جديا فى الأمر • وفى بعض الحالات ينجح الطفل فى ضبط نفسه فى سن مبكرة • ولكن لسبب عارض ، قد يحدث أن يتبول الطفل وهو نائم فى سن متقدمة ، بعد أن يكون قد مر فى سنوات عديدة دون أن يحدث منه ذلك • ومن هذه الأسباب العارضة الاصابة بالبرد العادى أو كثرة أخذ السوائل قبل النوم كمص القصب ، أو ما شابه ذلك • وقد يكون السبب العارض انفعاليا • مثال ذلك أن طفلا كان قد نجح فى تكوين عادة ضبط الجهاز البولى من سن الثانية ، وأريد ازالة لوزتيه وزوائده الأنفية لتضخمها تضخما شديدا فى سن السابعة ، وفى مساء اليوم الذى تقرر فيه اجراء العملية

(١) وهناك حالة لبنت تمكنت من ضبط نفسها فى الشهر الرابع من عمرها ، وقد ذكرتها الدكتورة اليس هتشنسون فى كتابها Alice Hutchinson : Motives of Conduct in Children p. 155.

تبول فى أثناء نومه • وواضح أن التبول اللاارادى فى هذه الحالة مرتبط بحالة الخوف الطارئة على ذهن الولد •

وعلى هذا فعلى الآباء ألا يعيروا حادثة واحدة من حوادث التبول من الاهتمام ما قد يثبتها فى ذهن الطفل ، ويشعره بالذنب ، وبالنقص ، وبالذلة بسبب هذا الحادث المفرد •

ولكن الذى يجب أن يسترعى الاهتمام التبول المتكرر فى أثناء النوم بعد سن الرابعة أو الخامسة • وقد يستمر بعض الناس هكذا الى سن العشرين • وقد يستمر البعض الى ما بعد ذلك •

الأسباب الجسمانية وعلاجها :

الواجب الأول فى دراسة حالات التبول هو الفحص الجسمى الدقيق الشامل ، فقد يكون هناك أسباب جسمية عامة كفقر الدم ، أو الاضطرابات العصبية العامة، أوانتشار «التوكسينات» فى الجسم لوجود بؤرة «للتوكسين» (Septic focus) يجب البحث عنها ومهاجمتها ، وقد يكون هناك أسباب جسمية محلية كائنة فى الجهاز البولى كالكليتين ، أو المثانة ، أو مجرى البول • وقد تكون الأسباب الجسمية المحلية مما يؤثر فى الجهاز البولى كالتهاب المستقيم مثلا • ويبالغ بعض الناس فى أهمية الأسباب الجسمية دون غيرها • ويبالغ آخرون فى أهمية الأسباب النفسية دون غيرها • ولكننا ندعو الى ضرورة الاهتمام بهما معا ،وندعو كذلك الى ضرورة التثبيت من علاج ما يحتمل وجوده من عوامل جسمية • ويمكن تقسيم العوامل الجسمانية التى يجب فحصها فى التبول الى ما يأتى :

١ — حالة البول ووجوب معرفة ما اذا كانت درجة حموضة البول عالية ، أو اذا كان هناك التهاب فى حوض الكلية (Pyelitis) أو التهاب فى المثانة (Cystitis) أو التهاب فى الحالب أو وجود حصوات فى أى جهة من الجهات (الكلية أو الحالب أو المثانة) •

٢ — حالة التهاب مجرى البول المعروفة فى الذكور باسم (Urethral Inflammation) وفى الاناث باسم (Vulvo Vaginitis)

٣ — كثرة التبول (Polyuria) وقد يكون هذا متسببا من مرض السكر (Diabetes) بنوعيه • وأحدهما ينشأ من اختلال افراز بعض أجزاء الغدة النخامية ، واسمه (Diabetes Insipidus) ، والثانى ينشأ من عدم كفاية الأنسولين الذى تفرزه الغـدد الموجودة فى البنكرياس واسمه (Diabetes Mellitus)

٤ — التهابات المستقيم (Proctitis)

٥ — الديدان المعوية والبلهارسيا والانكلستوما •

٦ — عدم التحام العـامود الفقرى فى أجزائه السفلى واسمه (Spina Bifida Occulta)

٧ — الامساك وسوء الهضم •

٨ — تضخم اللوز والزوائد الأنفية •

٩ — الحالة العامة كالانهاك العصبى وفقر الدم ونقص « الفيتامينات » وما الى ذلك •

ويجب علاج الحالة الجسمانية التى يحتمل أن تكون أحد العوامـل الأصلية أو المساعدة التى تؤدى الى التبول علاجا حاسما عند بدء ظهورها • ومن الجائز أن يستمر التبول حتى بعد علاج العامل الجسمانى بحكم العادة • فيجب بعد ذلك العمل على تكوين العادات اللازمة للتغلب على البول فى أثناء النوم •

ومن الحالات التى أرسلت الى العيادة السيكلوجية ، ولد عمره ثلاث عشرة سنة كان يتبول وهو نائم ، وكان ضعيفا شاحب اللون ، واتضح أنه مريض بالبلهارسيا ، والتهاب فى قناة مجرى البول ، وكان يسـعل صباحا ومساء ، وعنده بعض التواء فى العامود الفقـرى • وكان الولد بالقسم الداخلى فى احدى المدارس ، وأمكن علاجه من الكثير مما كان به من الأمراض مما حسن فى صحته العامة ، ومكنه من بذل جهد مثمر • وأمكن عمل الترتيب اللازم لاعطائه الطعام المغذى المناسب ، وأرشد الى عـدم

الاكثار من المواد الحريفة أو الشديدة الملوحة ، أو الحلاوة ، حتى لا يضطر الى كثرة شرب الماء • وأمكن عمل الترتيب اللازم لزيادة الأغطية المقررة له ، وتشجيعه على الاستيقاظ حوالى الساعة الحادية عشرة ليذهب الى دورة المياه ، وزيادة تشجيعه بعد نجاحه فى محاولاته ، وجعل الجو المحيط به جوا طبيعيا ازاء مشكلته ، الى أن تحسنت حالتـه الجسمية والنفسـية تحسنا واضحا •

وهناك حالة أخرى لولد أرسل فى سن السابعة والنصف الى العيادة لما عنده من تهتهة ، وتبول ، وبعض حركات عصبية • واتضح بفحصه أنه شره وضعيف البنية ، اذ أن وزنه أقل من العادى بالنسبة لطوله وسـنه بمقدار خمسة كيلوجرامات تقريبا ، واتضح كذلك أن عنـده احتقانا فى اللوزتين ، وأن لديه زوائد أنفية متضخمة • وبتحليل البراز وجدت به بويضات وديدان «الأكسيروس» (Oxyuris) وكان واضحا بدراسة ظروف الحالة من الناحية الاجتماعية أن أول وأهم ما يحتاجه هو العلاج الجسمانى • وقد تعاونت الأسرة مع العيادة تعاونا كاملا ، فأزيلت اللوزتان والزوائد ، وعولج من « الأوكسيروس » ، ونصحنا الأسرة أن ينام الطفل بمفرده — اذ كان ينام مع أخت له كانت تتبول أحيانا — وألا يذهب للمدرسة حتى يتقوى جسمه وذلك بأن يلعب اللعب الكافى ويتغذى • وبالفعل تحسنت حالته كلها ، فقلت حركاته العصبية وقلت تهتهته • وللحالة ظروف وأعراض أخـرى غير ما ذكرنا •

الأسـباب النفسية :

وفى بعض الأحيان يرجع التبول الى عوامل نفسية أهم عنصر فيها هو عنصر الخوف ، سواء أكان قائما بذاته أو داخلا فى تكوين انفعالات مركبة • وقد يكون الخوف قائما بذاته ، كما فى الخوف من الظلام ، أو من الحيوان ، أو من التهديد ، أو بعد سماع قصة مزعجة ، أو غير ذلك • وقد يدخل

الخوف فى تركيب انفعال آخر كالغيرة ، فمن الانفعالات الداخلة فى تركيب الغيرة خوف الشخص من فقد امتياز معين فقدانا نهائيا • ففى حالة مجىء مولود جديد فى الأسرة ، قد يهتم به الوالدان ويهملان من قبله ، فتبدو على هذا مظاهر الغيرة بصورة أو أكثر من صورها المتعددة ، ويصحبها فى ذهن الطفل خوف من أنه فقد اهتمام والديه به الى الأبد • ويصحب هـذا أيضا شعور بالنقص ، وكثيرا ما يصحب الغيرة من مولود تبول ، أثناء النوم •

وليس من السهل ارجاع حالة التبول الى عامل عائلى واحد ، كظهور مولود فى الأسرة ، أو تفضيل أحد فى الأسرة على صاحب الحالة ، أو وفاة عزيز ، أو غير ذلك بل نجد عادة أنه يترتب على تغير الجو الذى يسود البيئة التى يعيش فيها الطفل فقده ثقته بنفسه ، وخوفه على مركزه فى الحـال أو الاستقبال ، مما يسبب له أحلاما مزعجة فى أثناء الليل ، يصحبها أحيانا فقدان القدرة على التحكم فى ضبط عضلات الجهاز البولى •

لنأخذ حالة توضح ما نقول ، وهى لولد فى سن الثامنة كان يتبول فى أثناء نومه مرات عديدة فى كل ليلة ، وقد بدأ ذلك عقب وفاة والد الطفل وهو فى سن الرابعة ، أى بعد أن كان قد قطع مرحلة طويلة فى ضبط نفسه من التبول • وبدراسة الحالة وجدنا أن الحالة الصحية طيبة وخالية من جميع الأسباب الجسمانية التى يحتمل رجوع الحالة اليها • وأن الأسرة كانت حالتهـا المالية فوق المتوسط ، وكان الوالد شابا ناجحا جدا فى عمله ، وكان كل من الوالد والولد متعلقا بالآخر تعلقا شديدا • فكان الوالد يأخذ ابنه معه فى نزهاته ، وفى الحفلات الكثيرة التى يدعى اليها • وكان الولد لحيويتـه وجمال شكله وذكائه ولباقته موضع فخر والده ، وموضع التفات أصدقائه • فكان الوالد بذلك مرتبطا فى ذهن الولد برباط جميل سار • مات الوالد فجأة ، وشاهد الولد بعض ما يصحب الوفاة من أمور مزعجة غير عادية • وبذلك حدث انقلاب فجائى فى مجال حياة الطفل ، ويلاحظ أن الأم كانت

أقل تعلقا بالابن من الوالد ، وكانت أكثر تعلقا بابنتها الصغرى منها بالولد ، وبعد وفاة الوالد حصل هبوط شديد فى مستوى موارد الأسرة مما اضطرها إلى تغيير مستوى معيشتها تغييرا كبيرا جدا • فقد أخذت الأم أولادها وسكنت مع أمها فى مسكنها الذى لم يكن يتسع أصلا الا لها ولابنتها الأخرى وابنها • ومع ذلك رتب المنزل لاخلاء غرفة للولد وأمه وأخته • وبعد مدة قصيرة تضايقت الجدة من الأولاد ومن ميلهم الى الحركة واللعب والصياح ، الأمر الذى لم تعتده فى سنواتها الأخيرة • فكانت تعلن سخطها وتضايقها على مسمع من الأولاد ، ونظرا لأن الولد أكثر نشاطا واقلاقا من البنت ، كان يخصه من سخط جدته النصيب الأكبر ، وما وصل الطفل الى سن السادسة حتى بدأ يحدث فى مجال حياته تغيير جوهرى آخر وهو أن أمه بدأت تفكر فى الزواج ، وكان الولد غير راض بهذا الزواج • وعدم رضائه قد يكون بعضه بوحى ممن حوله من جدة وخال وخالات وأقارب ، وبعضه قد يكون لأنه كان يحس احساسا غامضا أنه يمكنه أن يحل محل الوالد بعد وفاته ، فكان يريد أن يحتفظ بهذه المكانة • وبعضه قد يكون راجعا لأن نفسه تأبى أن يحل شخص غريب محل أبيه • وبعضه قديكون راجعا لما يسمعه من أن زوج الأم يجعل جو المنزل عادة غير سائغ لأولاد من زوج آخر • خلاصة الأمر أن الولد كان كارها لهذا المشروع وكارها لأمه [1] وبالتالى أصبحت أمه تكرهه[2] وكانت تؤلب أخته الصغيرة عليه لدرجة أنها كانت تطلب منها أن تبصق فى وجهه اذا هو غاظها ، ولهذا أصبح مركز الطفل فى مجال حياته ينتقل بسرعة من سيىء الى أسوأ ، فبعد أن فقد الولد أباه ، لم يجد فى أمه ولا جدته عوضا ، بل بالعكس ، وجد فيهما خصما على حد تقديره • وأخذت هذه الخصومة تزداد ، وبذلك ازدادت مخاوفه وازداد ضعف ثقته ببيئته زيادة كبيرة •

---

(١) ، (٢) دلنا على وجود هذه الكراهية أساليب التعامل المتبادلة بين الولد وأمه ، وأغلب الظن أنها كانت غير شعورية •

لوحظ الولد فى أثناء نومه ، وكان يتقلب وينام نوما مضطربا ، وكان عند تبوله فى أثناء نومه يصيح ويشتم موجها شتائمه لنساء، وكان تبوله مصحوبا بشبه كابوس شديد ، وكان من أحلامه أن يحلم بمصارعة الثعابين ، التى كانت تعضــه وتغلبه على أمره • ولعــل الثعبان كان فى أحلامــه رمزا لخطيب الأم •

حاولت العيادة الحصول على تعاون الأم فى المساواة فى المعاملة بين الولد والبنت ، وفى بذل جهد فى معاونة ابنها على تكوين عادة الاستيقاظ ، وفى تحسين مركز الولد بتحسين مجال حياته • والوصول به الى شعوره بحب والدته وتقديرها له ؛ ولكن الأم لم تتعاون مع العيادة بالمرة ، وكانت تريد أن تعالج ما عند ابنها دون أن تبذل هى من جانبها أى نوع من المجهــود أو التضحية • فكانت تريد دواء تعطيه لابنها ليتناوله حتى يشفى ما به • أما أن يطلب منها بذل جهد ما ، فهى تفضل عليه أن يستمر ابنها فيما هو فيه •

ومعظم الحالات الأخرى يرجع فيها السبب الى أن مجال حياة الطفل يفقده الشعور بالأمن ، فتصبح حياته قلقة ، ويبدو قلقه هذا فى مظاهر متعددة لا يخرج التبول فى أثناء النوم عن كونه واحدا منها • فحالات التبول تظهر معها التهتهة أحيانا وأحيانا يكون معها الجبن وضعف الثقة بالنفس ، ويظهر معها أحيانا الميل الشديد الى التخريب ونوبات الغضب والميل الشديد الى المعاندة كما فى الحالة التى فصلناها •

ويلاحظ فى حالات كثيرة أنه ليس من السهل تحديد السبب أو مجموعة الأسباب التى يرجع اليها التبول فى أثناء الليل • ففى احدى الحالات التى وردت للعيادة وهى حالة تلميذ بالقسم الداخلى بمدرسة ابتدائية كان فى الثالثة عشرة من عمره • وقد أرسل للعيادة لخموله الدراسى الشــديد ، ولتبوله فى أثناء الليل ، وكان الولد ضخم الجسم سمين الصدر والردفين ، مما يشعر باحتمال اضطراب فى افرازات الغدة النخامية ، ولا ســيما أنه

متأخرا بعض الشيء فى النمو الجسمى ، وقد أدت ضخامته وغرابة شكله وسلوكه الى استهزاء التلاميذ به ، وأغرتهم باثارته ، وهو قليل الاستقرار ، كثير الحركة ، كثير الكلام يميل الى العمل المدرسى اليدوى كالرسم والأشغال ، ولا يميل الى العمل العقلى • وهو مرح لا يشعر بالمسئولية ، ولا يعرف ما له وما عليه • وهو يهمل نفسه كثيرا ، ويتهيج اذا أثاره زملاؤه • والداه متوفيان ، وقتل أخوه بعد وفاتهما وأصبح الولد فى هذه السن المبكرة وحيدا ، ولا يوجد على قيد الحياة من أقاربه سوى خاله وابن عم أبيه •

وهو بالاضافة الى هذا كله مصاب بالبلهارسيا ، وعنده زوائد أنفية ، وهو يميل كثيرا الى أكل الأشياء الشديدة الحلاوة • هذا الولد لديه مجموعة من العوامل الجسمانية والاجتماعية التى يصح أن يترتب عليها التبول فى أثناء الليل • ويجب عدم البدء بأى نوع من أنواع العلاج الأخرى الا بعد التأكد التام من أن جميع الاحتمالات الجسمانية التى يصح أن يرجع اليها التبول قد أزيلت • فالواجب الأول هو علاج البلهارسيا ، وازالة الزوائد الأنفية ، وبحث حالة الغدة النخامية ، وعلاج ما قد يكون بها من نقص باعطاء مستخلص بعض الغدد اللازمة مثلا • بعد هذا كله يمكن أن يمرن على عادة الاستيقاظ فى الأوقات المناسبة للتبول ، ثم تعالج نواحى النقص الاجتماعية الأخرى ما أمكن • ولم تتمكن العيادة من تطبيق الخطوات السابقة الذكر لانتقال الولد من القاهرة الى الاسكندرية وانقطاع صلته بالعيادة •

ومن أهم أسباب التبول اعتماد الطفل على أمه ، أو حاجته للالتجاء اليها • ففى كثير من حالات التبول نلحظ أن الطفل يعتمد كثيرا على أمه ؛ فهى تطعمه ، وتلبسه ، وتقوم له بكل صغيرة وكبيرة ، والتبول هنا قد يكون حيلة لا شعورية تساعد على تحقيق ما تشتاق اليه نفس الطفل مما تعوده • ويلاحظ أيضا أن الحالات التى يكون فيها الأب قاسيا على الطفل يكون الطفل فيها فى حاجة الى الالتجاء الى الأم ، والتبول قد يأتى

بأمه قريبة منه • ونجد فى الحالة التى شرحناها بالتفصيل فى (ص ٢٨٣) أن العامل الهام هو أن فقد الأب ربما زاد فى حاجة الطفل الى أمه ، وقد كانت الأم بالاضافة الى كل ما تقدم لا تتركه يعتمد على نفسه فى شىء ، حتى أنها كانت هى التى تجيب عن الأسئلة التى نوجهها اليه ، ووصل به الأمر أنه — وهو فى ســن الثامنة — لم يكن يعرف كيف يلبس حذاءه ولا قميص نومه ، وربما كان هذا الاعتماد على الأم عاملا آخر يتدخل فى حدوث تبوله •

وربما كان اعتماد الطفل على أمه تفسيرا مقبولا لما يلاحظ فى حالات عديدة من تبول الطفل الأخير أو الشبيه بالأخير ، أو الوحيد ، أو الشبيه بالوحيد • وربما أمكن أحيانا أن يفسر بنفس الطريقة تبول الطفل الذى يمرض كثيرا وهو صغير ، فينال من أمه عناية زائدة ثم يشفى بعد ذلك ، ويكبر ، ثم يبدأ يفقد هذا الامتياز وهو لا يقوى على فقده • من هذا كله تتبين قيمة تحرير الطفل من اعتماده على أمه فى جميع أموره بما فى ذلك التبول وغيره •

وفى ضوء ما تقدم نرى أن التبول اللاارادى يمكن النظر اليه — فى عدد غير قليل من الحالات — كتعبير لاشعورى من النوع الذى سميناه النكوص (ص ١٣١) — أى الرغبة اللاشعورية للرجوع الى حالة الطفولة التى يتمتع فيها الطفل برعاية الأم • وقد وجد بعض الباحثين أن أكثر من ٥٠٪ من حالات التبول اللاارادى التى ترسل الى العيادة السيكلوجية فى أوروبا فقد الطفل فيها عطف أمه ورعايتها وعنده حاجة شديدة اليهما •

مصاحبات التبــول :

للتبول فى أثناء النوم مصاحبات بعضها نتائج للتبول نفسه ، وبعضها نتائج للأسباب التى تنتج عنها التبول • ولعل أبرز هذه هى النتائج المحسوسة ؛ اتساخ الفراش وتعرضه للتلف وتلويث هواء غرفة النوم ، التى تكون عادة قليلة التهوية غاصــة بالنائمين ، ومن هذه المصاحبــات كذلك الأعراض

السيكلوجية التى تنتج من الشعور بالنقص ، أو فقدان الشعور بالأمن •
وهذه الأعراض اما أن تكون من نوع الشعور بالنقص ، أو فقد الشعور بالأمن ، كالفشل الدراسى ، والشعور بالذلة ، والخجل ، والميل الى الانزواء ، والتهتهة ، والنوبات العصبية ، والاستمناء ، وغير ذلك ؛ واما أن تكون الأعراض تعويضية كالعناد ، والتخريب ، والميل الى الانتقام ، وكثرة النقد ، وسرعة الغضب ، وغير ذلك • ويصاحب التبول — فى كثير من الحالات — النوم المضطرب ، والأحلام المزعجة ، وتدهور الحالة العصبية • ويبدو أن هذه الأحلام هى مجرد مصاحبات للتبول وليست سببا له • وقام أحد الباحثين بدرس أنواع الشخصية فى حالات التبول فوجد بعد استثناء حالات الضعف العقلى وما يشبهها أنه يمكن تقسيم أصحاب الحالات الى نمطين اثنين • أحدهما النمط العصبى الهائج الزائد النشاط ، وثانيهما النمط الليمفاوى الخامل القليل النشاط • والنوع الثانى يكون عميقا فى نومه ، ويغلب أنه لا يحس بامتلاء مثانته • أما النوع الأول فيغلب أن يكون العامل الأساسى عنده هو اضطراب حياته الانفعالية بسبب اضطرابه فى مجال حياته •

ويحدث التبول أحيانا عند المراهقين مصاحبا لبعض الأحلام الجنسية • ويبالغ بعض أتباع فرويد فيعتبرون أن نشاط التبول شبه جنسى ، فبعضهم يتكلم عن التلذذ الجنسى للمجارى البولية (Urinary Sexuality or Urethral Erotism) ، وهذا الرأى قليل الأنصار •

ومن الملاحظ أن النجاح فى علاج حالة التبول تنقشع معه كثير من مصاحباته ، لأن الذى يعالج عادة ليس هو التبول فقط ، وانما هو المجال الذى يعيش فيه الطفل والذى يترتب على صفته العامة فقد الشعور بالأمن ، والذى يكون التبول فيه عرضا واحدا من مجموعة غير صغيرة من الأعراض • وتزول مع حالة التبول فى كثير من الأحيان نتائجه المباشرة كالشعور بالذلة ، والخجل ، والتأخر الدراسى ، والميل للوحدة ، وما شابه ذلك •

العلاج والوقاية :

سبق أن ذكرنا أنه يجب التأكد أولا من سلامة الجسم من كل ما يحتمل أن يكون عاملا فعالا أو عاملا مساعدا فى عملية التبول . ولهذا يجب فحص حالة الجسم العامة والمحلية فحصا دقيقا ، ويجب تحليل البول والبراز والدم لهذا الغرض . ويبالغ بعض المعالجين أحيانا فى علاج الناحية الجسمية بمحاولة اعطاء أنواع من الحقن أو توسيع مجرى البول أو تنظيف المثانة ... وغير ذلك وكان الأطباء الى ما يقرب من ربع قرن مضى يعتقدون أن المشكلة جسمية صرفة ، ولكنهم بدأوا يرون فى السنوات الأخيرة أنها يمكن فى غالب الأحيان أن تكون ذات أصل سيكولوجى .

ويجب أن يتجه الذهن بعد استكمال الفحص الجسمى الى تحسين حالة البيئة التى يعيش فيها الطفل . فيجب أن يعيش الطفل مطمئنا ، ولذلك يعالج ما قد يكون بين الوالدين من خلاف ، وتعالج طريقة معاملة الوالدين للطفل ، ويعالج كذلك ما قد يكون هناك من غيرة أو فشل دراسى .. أو ما الى ذلك .

ويلاحظ أن الوالدين — عند مواجهتهما للتبول — يقعان عادة فى كثير من الأخطاء . ويؤدى بعض هذه الأخطاء الى تثبيت المشكلة ، أو الايحاء بشدة أهميتها وصعوبة التخلص منها ، أو الايحاء بثبوتها فى طبيعة الطفل لدرجة لا يفيد معها بذل أى مجهود ازاءها . ومن هذه مثلا أن يعلن الآباء أن الطفل يشبه فى تبوله فى أثناء نومه بعض أقربائه ، مما قد يوحى بأن المشكلة وراثية وبألا أمل فى التخلص منها ./كذلك قد ينسب الآباء المشكلة الى سبب جسمانى ، فيهملون العلاج النفسى ، وقد يغفلون عن السبب الجسمى رغم أهميته فيصعب على الطفل اذ ذاك تكوين العادات اللازمة للتغلب على مشكلته لأن السبب جسمانى صرف كالتهاب المجارى البولية أو غير ذلك . ومن أخطاء الآباء أن يعلنوا أن الطفل سيتغلب على مشكلته هذه بعد نموه نموا كافيا ، وبذلك يكفون أنفسهم مئونة بذل الجهد فى مساعدة الطفل للتغلب على مشكلته .

ويجب التنبيه الى ضرورة عدم اذلال الطفل ، وعدم ضربه وتوبيخه أو معاملته بالغضب ، أو لصق وصمة به ، أو اعتباره بائسا مسكينا ... الى غير ذلك . فهذه كلها أساليب من شأنها أن يتعود الطفل توقع الشر ويفقد القدرة على ضبط المثانة بسبب الخوف والاحساس بالنقص ، ولكن يجب أن يعامل بالعطف والارشاد العاديين ، على ألا يبالغ الآباء فى العطف فيشتطون فى مراعاتهم شعور الطفل الى حد أنهم يخفون مثلا معالم التبول قبل أن يشعر بها الطفل نفسه بأن يغيروا له ملابسه أو فراشه قبل أن يستيقظ من نومه ، وهذه المبالغة فى مراعاة احساس الطفل توحى له بخطورة المشكلة وأهميتها ، وصعوبة التغلب عليها .

ويراعى فى معالجة حالة التبول أن يشعر الطفل بضرورة معالجتها ، وأن علاجها أمر بسيط يتوقف نجاحه كله عليه شخصيا ، وأن المشكلة خاصة به وليست مشكلة أمه أو أبيه ، ولو أن العـلاج يحتاج فى أول الأمر الى مساعدة الكبار المحيطين بالطفل ، كايقاظه فى ساعة معينة من الليل تقع غالبا حوالى الحادية عشرة تقريبا . وأكبر صعوبة تقابلها العيادة أنها لا تحصل عادة على المعونة الكافية من الكبار المحيطين بالطفل . فالأمهات لا يردن عادة أن يبذلن المجهود الكافى . ولا صبر لهن على التطبيق المنتظم المتكرر لقاعدة معينة جديدة . وكثيرا ما كن يقلن انهن طبقن كل التعليمات التى أعطيت ، ولا فائدة ، ولا نتيجة . وبالاستقصاء الدقيق يتضح أن التعليمات لم ينفذ منها شىء قط . فاذا أمكن التأكد من معاونة الأمهات ، كانت عملية غرس فكرة فى الطفل عن مقدرته على التغلب على صعوبته عملية سهلة يقوم بها الاختصاصى النفسانى .

ويمكن تلخيص عوامل نجاح معالجة حالات التبول فى : المواظبة ، والدقة فى تنفيذ النظام الذى تضعه العيادة ، وفى وجود الاهتمام الكافى من جانب الطفل والأم وفى الثقة بالنجاح . وهذه الثقة فى النجاح تزداد عادة

بالنجاح نفسه والشعور بمقداره ، ويأتى هذا كله بعد التأكد من ازالة الأسباب الجسمية أو العوامل الانفعالية الناشئة عادة بدورها من مجال حياة الطفل .

ويصح أن نضيف هنا بعض القواعد التى يجب أن تراعى بوجه عام مع كل طفل وبنوع خاص مع الطفل الذى تكون لديه حالة تبول فى أثناء النوم :

١ — اتباع نظام دقيق جدا لمواعيد التبول وتنفيذ هذا النظام من الأشهر الأولى[1] .

٢ — تعويد الطفل نهارا ضبط نفسه مدة كافية ، وذلك بالمباعدة بين أوقات ذهابه للتبول نهارا ، ويمكن الناشىء بعد تمرنه أن يتبول مرة كل أربع ساعات أو خمس . ومع ذلك يجب تعويد الطفل تلبية الحاجة للتبول فى الوقت المناسب ، لأن حبس البول مدة طويلة جدا يفقد المثانة قدرتها الطبيعية على حجز البول .

ويجب تعويد الطفل الاستيقاظ ليلا وذلك بايقاظه ايقاظا تاما لهذا الغرض بعد أول ذهابه للنوم بساعة ونصف تقريبا ، ثم يوقظ مرة أخرى بعد ذلك بأربع ساعات أو خمس ، ويمكن كل أم أن تكتشف الوقت المناسب لايقاظ طفلها . ويجب تعويد الطفل التبول قبل نومه مباشرة .

٣ — استيفاء الشروط الصحية المعروفة للتغذية ، واللعب ، والنوم ، من حيث الكمية والنوع والمواعيد .

٤ — منع أكل الأشياء التى تتطلب شرب كميات كبيرة من الماء ، كالمواد الحريفة أو الشديدة الملوحة أو الحلاوة .

---

(١) هذا النظام يمكن الاطلاع عليه فى اى كتاب من كتب تربية الأطفال مثل :
ا — دستور الطفل للدكتور مصطفى الديوانى — الفصل الخامس .
ب — Alice Hutchinson : Motives of Conduct in Children pp. 154, 170.
جـ — G. Aubyn : The Family Book.
د — L. Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

٥ — منع تناول السوائل بكميات كبيرة قبل النوم •

٦ — منع جميع المهيجات المحلية فى الأجهزة البولية وما حولها ومنع مسببات الامساك •

٧ — مساعدة الطفل على التغلب على مايجعل عملية التبول صعبة • وهذه الصعوبات قد تكون فى الملابس ، فيجب أن تكون الملابس بحيث يسهل حلها عندما تظهر الحاجة الى ذلك • وقد تكون الصعوبة فى المكان المخصص للتبول كبعده أو اظلامه أو اظلام الطريق المؤدى اليه ، أو فى عدم ملاءمته لأمر ما ، مما قد يدفع الطفل اذا هو استيقظ للتبول فى أثناء الليل الى تأجيل عملية تفريغ البول الى الصباح وبذلك قد تفرغ مثانته رغم ارادته •

٨ — اذا كان الطفل يخاف الظلام فليكن فى غرفة نومه ضوء بسيط جدا أو (بطارية) أو اناء خاص للتبول ، أو فليصاحبه أحد الكبار المحيطين به الى دورة المياه •

٩ — زيادة ساعات النوم والراحة للطفل الذى يتبول فى أثناء النوم ؛ اذ يكون هذا النوع من الأطفال عادة منهك الأعصاب • ولزيادة ساعات الراحة ، — خصوصا فى القيلولة — أهمية أخرى وهى أنها تقلل من عمق النوم بالليل • لأن هذا العمق فى النوم يجعل الاستيقاظ أمرا عسيرا • وأغلب الذين يتبولون فى نومهم ليلا لا يوقظون عادة الا بصعوبة كبرى •

١٠ — توفير ما يؤدى الى اشباع الطفل حاجاته الأولية من أمن وتقدير وعطف وحرية ••• وما الى ذلك •

التبول فى أثناء اليقظة :

وتوجد بعض حالات للتبول فى أثناء اليقظة ، ولو أن هذه العادة عرضية ، وقليلة الوقوع ، وتحدث غالبا فى المواقف التى ينشغل فيها ذهن الطفل انشغالا كبيرا باللعب أو المشاجرة أو المناقشة أو غير ذلك • ويظل الطفل

يؤجل عملية افراغ مثانته الى أن تأتى اللحظة التى لا يقوى فيها على ضبط نفسه ، ويكون الوقت اذ ذاك غير كاف للذهاب الى المكان المناسب لعملية التفريغ . وبعض الأطفال ينسون أنفسهم ، وينصرفون للعبهم ، فتتفرغ مثانتهم ، ولا يتنبهون الا فى لحظة وقوع الحادث . وواجبنا فى هذه الحالات أن نتحدث الى الطفل ، ونفهمه ما يجب عمله بمجرد الشعور بالحاجة الى التفريغ ، ونفهمه أنه ان تكرر منه هذا فانه ربما لا نسمح له باللعب مع أصدقائه ، ذلك اللعب الذى ينسيه أداء هذه العملية ، ويكون هذا فى العادة كافيا لمعالجته .

ويحدث هذا نفسه أيضا فى تلاميذ المدارس الأولية والرياض عند أول ذهابهم اليها وعدم تقديرهم لبعد دورات الميـاه عن حجرات الدراسـة ، ولتحرجهم أحيانا من طلب الخروج من الفصل ، وغير ذلك من الأسـباب العادية البسيطة التى يسهل معرفتها ، ويسهل التغلب عليها اذا قدرت وحسب لها حسابها .

وقد يرجع التبول فى أثناء اليقظة للغيرة ، أو الخوف ، أو عدم الشعور بالأمن . وقد حدث مرة أن كانت أم ومعها طفلها الوحيد ، وعمره ثلاث سنوات ، وكان قد تعود أن تحمله أمه على كتفها ، وأن تجلسه فى حجرها ... الى غير ذلك . وبينما هم فى منزلهم اذ جاءتهم سيدة زائرة ومعها ابنتهـا فى سن السنة ونصف السنة . وكما هى العادة أخذت الأم ابنة السـيدة الزائرة ، وحملتها على كتفها ، ولاعبتها وداعبتها . وكان ابن سيدة البيت واقفا ، فبدت عليه علائم الغيرة ، وأخذ يشد أطراف ملابس والدته وأظهر علامات الضجر . فأنزلت الأم ابنة السيدة الزائرة ، ثم حملت ابنها . وفى الحال تبول وهو على كتف أمه ، وهذا موقف قد يكون فيه غيرة ، وخوف ، ونكوص ، وانتقام من الأم ... الى غير ذلك .

ومن حالات التبول فى أثناء اليقظة وفى أثناء النوم على حد سواء ، حالة

لبنت فى السابعة من عمرها حولت الى العيادة السيكولوجية ، لعنادها وبذاءة ألفاظها ووقاحتها ومخالفتها كل أمر وتدللها على كل من حولها • واتضح أن هناك أمرا آخر لم يذكر فى الشكوى وهو تبول البنت (على نفسها) فى حالتى النوم واليقظة ، وبدراسة الحالة اتضح أن البنت تعيش مع جدها لأبيها فى ضاحية من ضواحى القاهرة ، وجدها هذا متزوج بخالتها التى لم تكن تنجب أطفالا الا ماتوا فى الأسابيع الأولى من عمرهم ، فقد وضعت ما يزيد على عشر مرات (خمسة بنين • وثلاث بنات ، وبضع سقطات) • أما والد البنت وأمها وبقية أولادهما فانهم يعيشون فى بلدة بعيدة عن القاهرة • وهؤلاء الأولاد عددهم جميعا أربعة بينهم ثلاثة ذكور تتراوح أعمارهم بين الخمس السنوات والسنة الواحدة ، وكانت البنت التى نحن بصددها هى أولى أخواتها وأنثاهم الوحيدة •

وظهر أن زوجة الجد أو خالة البنت تسيطر على الجميع ، فكلمتها هى المسموعة من الوالد • وهى بالرغم من قوتها ضعيفة للغاية مع البنت ، فهى تدللها ، وتجيب كل ما يمكن تصوره من طلباتها ، وتستجدى رضاءها حتى تبقى معها ولا تطلب العودة الى أمها وأبيها • ويظهر أن البنت وقعت فى صراع عنيف بين أن تمكث مع خالتها حيث يمكنها أن تتمتع بكل ما تريد متى شاءت ، وأين شاءت ، وكيف شاءت ، وبين أن تذهب الى مكانها الطبيعى مع أمها ، وأبيها ، واخوتها ، وحيث يمكنها أن تلعب ، وتتسلى ، وحيث يوجد بعض النظام والضبط • يظهر أن البنت وقعت فى هذا الصراع ، وكان من نتائجه أنها أصبحت مزعجة من كل ناحية فهى تغنى ، وترقص ، وتنظر فى المرآة الساعات الطوال ، وتأكل ما تشاء دون مراعاة للكيف أو الكم ، أو الوقت المناسب ، وتذهب للمدرسة متى تشاء • وهى تعاند ، وتخرب وتصرخ ، وتشتم الجميع من الجد الى أصغر خادم فى المنزل بأقذر الألفاظ • وتقطع الزرع ، وتفتح صنابير المياه لتغرق الحديقة كلها ، وتكسر الأشياء

عمدا • وتصر على طلبات فى أوقات يستحيل تنفيذها فيها ••• الى غير ذلك • وقد اشتكت منها الروضة مرارا وتكرارا • وهى بالاضافة الى كل هـذا تتبول نهارا وليلا • آرسلت البنت الى أطباء اختصاصين ، ولم يجدوا بها ما يبرر عصبيتها وتبولها الا بعض الامساك • وقد نصحنا الجد بوجوب ارسالها الى أبويها ، فتنهد الرجل وقال ان زوجته ستموت كمدا اذا هى أرغمت على مفارقتها ، ولم يكن هناك سبيل الى ارغامها فى نظره • ونصحناه أيضا بوجوب تنظيم حياة البنت فى منزل أبيها • والى أن يتم نقلها هناك نصحناه بوجوب منع الأكلات الصغيرة بين الأكلات الرئيسية لأن هذه هى التى تقلل ظاهريا من شهيتها وتدفعها لكثرة شرب الماء • ولكن فى الزيارة الثانية للعيادة لاحظنا أن جيوب البنت محشوة بأنواع الحلوى ، فلما وجهنا نظر الجد أقسم بأن هذا قليل جدا ، ولم يدفع فيه أكثر من قرشين اثنين ، اذ تعلقت البنت ببائع الحلوى فى الترام فاضطر ألا يقهر رغبتها • وبعـد زيارات طويلة متتالية وافق الجد على ارسال البنت الى أمها وسافرت فعلا • ثم انقطعت أخبارهم عنا زغم تكرر كتابتنا لهم •

ويتلخص علاج حالات التبول فى أثناء اليقظة فى أساسه فى اعادة تنظيم مجال حياة الطفل حتى تزول أسباب قلقه ، وحتى يتعود عدم التسويف اذا ما شعر بالحاجة الى التبول •

خاتمـة :

يتبين من كل ما تقدم أن التبول اللا ارادى يكون فى الغالب نتيجة لمجموعة عوامل جسمية ونفسية ، غير أن أهم عامل يجب أن تتجه اليه بعد استيفاء درس جميع النواحى الجسمية هو توفير الأمن للطفل • وقد لوحظ أن علاج التبول يؤثر فى حالة الشخص النفسية والجسمية أثرا واضحا ، كما أنه يتأثر بهما الى حد بعيد ولم يتسع المجال للافاضة فى مختلف البحوث والآراء التى ظهرت عن صلة العوامل الجسمية بالتبول ، ولا عن كيفية التحكم الارادى فى عضلات المثانة ، ولا عن أثر الخوف فى هذه العضلات ،

كذلك لم نستوقف رأى بعض أتباع « فرويد » عن أن التبول نوع من النشاط الجنسى ، فقد رأينا كثيرا من أتباع « فرويد » الآخرين لا يأخذون بهذا الرأى . وهناك بحوث حديثة غير مستوفاة عن صـــلة التبول بطابع شخصية الطفل وصلته بطابع شخصية الوالدين ، وصلته بطابع البيئة ، وصلته بدرجة عمق النوم ، وصلته بطابع الأحلام ، وصلته بنشاط الغدد ؛ ولكن هذه البحوث تعتبر ضئيلة القيمة فى هذه المرحلة التى وصلت اليها من الناحية العملية .

ولهذا نكتفى بأن نقول : ان على الأمهات تعويد أطفالهن العادات الملائمة للتبول من سن مبكرة جدا . فاذا تم لهن هــذا فان الحياة الصحية من الناحيتين النفسية والجسمية كفيلة باحتمال عدم حدوث التبول اللاارادى ويلاحظ أن حدوثه مرة أو مرات قليلة متباعدة لا يجوز أن نعلق عليه أى أهمية . ولكن اذا كان حدوثه مصاحبا فى هذه الحالات لنوبة نفسية معينة مثلا ، فيجب علاج هذه النوبة والاكتفاء بذلك .

ويشبه التبول اللاارادى التبرز اللاارادى ، ولكن حالاته نادرة جدا اذا قيست الى حالات التبول ، فهى تكاد لا تتجاوز ٤٪ منها . ولعل هذه الندرة ترجع فقط الى أن ضبط البراز أسهل من ضبط التبول . ولكن الظاهرتين تتفقان فيما عدا ذلك اتفاقا يكاد يكون تاما من حيث النتائج والأعراض والأسباب وأساليب العلاج والوقاية .

المراجع

Aubyn : The Family Book.

Blanton : Child Guidance.

Blatz and Bott : The Management of Young Children.

Boenheim : Practical Child Psychotherapy.

Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

Hutchinson : Motives of Conduct.

Kanner : Child Psychiatry.

Patri : Child Training.

Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل السادس عشر

الحركات العصبية : مص الأصابع وقرض الأظافر

مقـدمة :

من طبائع الأطفال كثرة الحركة ، والميل الى اللعب ، وندرة تركيز الانتباه فى أمر واحد لمدة طويلة . ويلاحظ أن الطفل لا يستقر نشاطه الا فى حالة واحدة ، وهى انشغاله بأمر سار لذيذ يركز فيـه كل اهتمامه وانتباهه . هذه كلها ملاحظات عادية يستفيد منها الانسان بأنه اذا لاحظ أن طفلا ما قليل الاستقرار ، فليتدبر ما يصح أن يركز فيه الطفـل انتباهه ؛ وبذلك يصير الطفل سعيدا مستقلا ، ويصير الكبير قادرا فى بعض الأحيـان على الانصراف عنه والتفرغ لعمله . واذا كان هذا الذى يشغل الطفل عملا ايجابيا له نتيجة يشعر الطفل بقيمتها بالنسبة له كان فيه خير وقاية للطفل من تعود الاستغراق فى أحلام اليقظة ، وكان فيه خير تدريب على وضع بذور الميل نحو النشاط المنتج وبذل الجهد .

ولكن يلاحظ أن عدم استقرار طفل معين قد يكون بصورة عامة بارزة يختلف فيها عن أغلب الأطفال وقد يأخذ عدم الاستقرار صورة خاصة فى حركة معينة كرمش العين، أو هزالكتف، أو «فرقعة» الأصابع ، أو اتيان حركة بالأنف أو بالفم أو مص الأصابع ، أو الشفاه ، أو اللسان ، أو قرض الأظافر ، أو عض الأقلام ، أو تنظيف الأنف بالأصابع أو عصر حبوب الوجه ، أو اللعب بخصلة من الشعر ، أو حك الرأس أو اللعب بالأعضاء التناسلية .. أو غير ذلك من مئات الحركات الخاصة التى تكون بؤرة يتمركز فيهـا النشاط العصبى غير الموجه .

العصبية العامة وانعدام الاستقرار :

اذا لوحظ انعدام الاستقرار أو العصبية العامة فى طفل ما فيجب دراسته أولا من نواحيه الجسمية والوراثية ، فيصح أن ندرس ما اذا كان لدى الطفل حالة جسمية يصح أن يتسبب عنها عدم الاستقرار ، أو العصبية العامة ، ومن هذه الحالات الديدان ، وما يقلل من كفاية التنفس كتضخم اللوز أو الزوائد الأنفية وسوء الهضم والاضطرابات الغددية ؛ وبالجملة كل ما يؤثر فى الصحة العامة أثرا سيئا • وأما من حيث الناحية الوراثية فكثيرا ما نلاحظ عدم الاستقرار • أو العصبية العامة فى عدد من أقارب الطفل نفسه ، وفى هذه الحالة يحتمل أن يكون الطفل قد ورث خصائص عصبية ساعدته على تكوين صفة العصبية أو عدم الاستقرار • ومن أمثلة ذلك حالة لبنت فى سن السابعة أرسلت للعيادة بسبب التبول اللاارادى نهارا وليلا ، ووصفتها الأسرة بأنها عصبية ، فهى تغضب ، وتبكى لأتفه الأسباب ، واذا غضبت فانها تثور وتضرب نفسها ، وتخبط برأسها الحائط، وترفس برجلها ، وبالجملة يكون كل جسمها فى حالة اضطراب عند غضبها ، وهى تغضب فى أغلب المناسبات • والبنت لا تعتمد على نفسها ، وهى قليلة الثقة بها ، وأمها هى التى تطعمها وتلبسها ، وتقضى لها كل لوازمها •

وتوصف الأم بأنها عصبية المزاج ، وتصاب أحيانا بتشنجات • والوالد كذلك عصبى وهو يصاب بنوبات انقباض شديدة ويشعر بضيق الحياة وباليأس • ويصل به الأمر فى النوبات التى تصيبه الى أن يبكى بكاء شديدا لغير سبب ، الا أنه يبكى سوء حظه — على حد قوله •

وللوالدة أخت مصابة بالشلل ، ولها أربع أخوات ، لكل منهن طفل أو طفلان ؛ أحدهما أو كلاهما مصاب بضعف فى النطق أو تهتهة أو ضعف عام • أما جدة البنت فانها شديدة القلق والخوف قليلة الاستقرار •

وقد حضرت البنت الى العيادة السيكلوجية مع أمها وجدتها ، فكانت الأم ترتدى ملابس ذات ألوان عديدة متضاربة • ففى الرداء الواحد اجتمعت ألوان الأحمر القانى الى جانب الأصفر الفاقع ، والى جانبه

البنفسجي الباهت ، وبقرب هؤلاء جميعا لون أسود لامع • وحتى اللفافة (السيجارة) التى دخنتها الأم كان ما بها من تبغ ملفوفا فى ورق أحمر قان غير مألوف • أما الجدة فكانت تنتقل بسرعة من سؤال الى آخر • فسألت عن الطب الروحانى ، والتنويم المغناطيسى ، وعن الحياة الخاصة الداخلية لكل عضو من أعضاء العيادة • ولا يمكن الجزم فى هذه الحالة بأن هناك استعدادا عصبيا موروثا على الرغم من كل ما ذكرنا ، ولكن هناك احتمال الوراثة • ويلاحظ أن مصادر الوراثة والبيئة قد تكونان فى هذه الحالة حلقة متصلة الأجزاء يقوى كل منهما عمل الآخر • وهذا ما يجعل نسبة الحالة لأحدهما دون الآخر أمرا غير سهل[1] •

ومن مصاحبات العصبية العامة وعدم الاستقرار فى عدد غير قليل من الحالات ضعف العقل أو الغباء • ويظهر أن المتأخرين فى ذكائهم أقل من غيرهم استعدادا لتوجيه نشاطهم وتوحيده وضبط حركاتهم وتنسيقها • لذا نجدهم متأخرين فى النمو الحركى • وقد يستمر تأخرهم هذا الى أن يكبروا • ونظرا لعدم قدرتهم على مسايرة زملائهم ممن فى سنهم فى لعبهم وحركتهم ونشاطهم ، تجدهم يتضايقون ويتصفون بالعصبية وتزداد عادة حالتهم سوءا على سوء •

ومع استثناءات قليلة جدا نجد كل حالات الضعف العقلى التى ترسل للعيادات السيكلوجية تتصف بضعف القدرة على التركيز ، أو بالعصبية العامة ، وعدم القدرة على الاستقرار • ويتصف كثير منها فوق ذلك بالرعونة فى الحركة • ولو أن هذه الرعونة لا يخلو منها بعض العاديين والأذكياء • وتكون هذه الحالات الأخيرة مصحوبة بالانطواء النفسى (Introversion).

ومن أهم الأسباب السيكولوجية فى عصبية الأطفال ، وعدم استقرارهم شعور الطفل بالبؤس الناشىء من الشعور بعدم تحصيل المستوى الذى تشتاق نفسه اليه (Lack of achievement) أو الناشىء من الشعور بعدم توافر القدرة أو توافر الفرصة لتحصيل مثل هذا المستوى ، وقد يشعر الطفل

(١) راجع الفصل الثانى •

بهذا ان كان متأخرا ، كما قلنا ، فى قدرة عقلية أو حسية أو جسمية كحالة التأخر العقلى ، أو العمى ، أو الصمم ، أو البكم ، أو ضـعف البصر ، أو السمع ، أو صعوبة النطق ، أو العرج ، أو العسر ، أو ما شابه ذلك من مئات الحالات • ولو أنه يندر لصاحب الحالة أو لمن يعيشون معه أن يقرنوا عصبية الشخص وعدم اسـتقراره بعاهته أو ضعفـه من الناحية العقلية أو الحسية أو الجسمية ، وينتج مثل هذا أيضا ان كان الطفل أقل فى الجمال أو خفة الروح من غيره ممن يوازنون به باستمرار كالاخوة أو الأقارب ، أو الزملاء • وكثيرا ما يحدث هذا بين الاخوة بنوع خاص ، فيوجه الآباء والأقارب والمعارف انتباههم لطفل دون آخر ، فتنتج حالة عصبية أو عدم استقرار عند الطفل الذى لا ينال التقدير ، وبذلك يحرم الطفل اشباع حاجة نفسية أساسية • وربما ينشأ هذا دون شعور من صاحب الحالة •

وبالجملة فكل مجال يشعر فيه الطفل بالشقاء — خصوصا ان كان المجال مستمرا ، بمعنى أن الطفل يقضى فيه جزءا كبيرا من وقته كل يوم كمجال المنزل أو المدرسة مثلا — يحتمل جدا أن ينتج عنه عصبية وعدم استقرار • والمجال الذى يشعر فيه الطفل بالشـقاء هو الذى تقف فيـه العراقيل دون تحقيق حاجاته الأساسية التى سبق أن ذكرناها ، وهى الحاجة الى الحرية واللعب والحركة ، والحاجة الى السلطة الضابطة غير المتذبذبة الحازمة الخالية من الضعف ، والحاجة الى العطف والشعور بحنو من حوله نحوه وعطفهم عليه وحبهم له ، والحاجة الى النجاح عند انمـاء مهاراته وكفاياته بأنواعها المتعددة •

ولتوضيح ما تقدم نأخذ حالة تلميذ فى سن التاسعة والنصف ، وهو الابن الوحيد لوالديه ، وقد أحيل الى العيادة لتأخره الدراسى ، وضعف بنيته • وباجراء اختبارات الذكاء عليه اتضح أن ذكاءه فى مستوى ذكاء ولد متوسط عمره احدى عشرة سنة • ومعنى ذلك أن لديه من المقدرة العقلية الطبيعية ما لا يبرر تأخره ، بل بالعكس ، كان ينتظر منه تفوق باهر • وتصفه والدته بأنه مهمل جـدا فى ملابسه ، وغير منتظم فى قضـاء حاجاته

المختلفة ، اذ قلما يضع شيئا فى موضعه • لايميل الى استذكار دروسه بمفرده • يميل الى الرسم وقص الورق ويصرف فراغه كله فى هذا • وأمه تقرر وتعلن دائما أنه لم يرسم مع كل هذا رسما مقبولا قط • يصرف كثيرا من وقته بمنزل جدته لأمه • وجدته تعطيه النقود والحلوى والأكلات الصغيرة التى تفسد عليه بالطبع انتظام مواعيد الأكلات الرئيسية ، وينام على سرير منفرد فى نفس الحجرة مع والديه[1] • وينام عادة نوما هادئا ، الا اذا نام بجانب والدته ، فانه يكون اذ ذاك على جانب كبير من القلق •

والمعاملة المنزلية فى مجموعها متغيرة جدا ، فالوالدة شديدة قاسية كثيرة النقد للولد • والوالد ضعيف لين لا يهتم بشكوى الوالدة من ابنه ، ويخاف أن يجرح احساسه ، ويصل خوفه هذا الى أنه يتردد ويتلعثم فى أثناء حديثه مع ابنه ، على حين نجد أن ابنه أحيانا يتحداه • ولا يضرب[2] الوالد ابنه أبدا ، وانما الذى يقوم عادة بهذه المهمة هى الوالدة • وقد ضربته ضربا مبرحا عندما اطلعت ذات مرة على نتيجة عمله فى المدرسة • مع هذا كله يتدخل أبوه فى نشاطه ، فالولد مغرم بتأليف القصص الصغيرة ، ووالده يرى أن هذا لا يتمشى مع المناهج التقليدية للمدارس المصرية ، وفيه مضيعة للوقت ، فيمنعه بكل وسيلة من هذا • يضاف الى كل ما تقدم قلق الجميع على صحة الولد ، اذ أنه ضعيف من صغره ، ولعل من أسباب القلق على الولد أن أخاه الذى يكبره بأربع سنوات مات وهو فى سن السادسة •

وقد أجمع كل مدرسيه على أنه مشتت الانتباه شارد الذهن ، وينشغل بمعاكسة جيرانه ، وقد وصفه أحد المدرسين بأنه فى الفصل لا يستقر على حال من القلق ، فهو يزحف مرة عن يمينه ، وأخرى عن يساره ، يتطلع الى هذا والى ذاك من زملائه ، ويعبث فى أثناء ذلك فيما أمامه من الأدوات • فاذا لم يجد أمامه ما يعبث به أخذ شيئا من درجه أو من جاره لهذا الغرض ،

---

(١) راجع فصل المشكلات المتعلقة بالنوم •

(٢) ليس معنى هذا اننا نشجع الضرب •

ويتمادى فى ذلك اذا لم ينبه • وهو قليل الصبر على مواصلة عمله ، ولا يميل الى اتقانه ، وحركاته دائما عصبية •

وقد ضربه والده مرة واحدة وهو فى حالة غضب عصبية عند ما كثرت الشكوى منه ، وبعد أن ضربه تولاه النـدم الظاهر • ووصلت الحال بالوالد أخيرا أنه لا يمكنه ضرب الولد اطلاقا ؛ ولـكنه مع ذلك يوصى المدرسة دائما بوجوب ضربه بشدة ، وواضح ما فى هذا من تناقض عجيب•

فهذه حالة طفل فقد السلطة الضابطة الحازمة فى المنزل ، وفقد كثيرا من الشعور بالأمن لشدة ما يحيط به من القلق ، ويعوزه كثير من التمتع بالحرية وربما كانت هذه كلها عوامل قوية فى احداث ما عنده من عدم الاستقرار •

وهناك ظاهرة أخرى فى معاملة هذا الولد نفرد لها حادثة معينة لنبين دلالتها ، وخلاصتها أنه كان قد ادخر من نقوده مبلغا من المال فاقترضه منه والده به ليستعين به فى سفره الى جهة ما على أن يرده له بعد عودته • ولكنه لم يرده اليه وقد مضى عليه أربع سنوات ، وقد يظن الوالد أن الحادث تافه ، وأن على الطفل أن يعلم أن كل ما يملكه الوالد فهو له • ولكن المهم عند الطفل فى الواقع شعوره بالملكية واشباع هذا الشعور اشباعا حسيا ، ولروح العدالة المتعلقة بحق الملكية أهمية كبرى فى اشباع الحاجة الى الأمن •

ويتلخص علاج هذه الحالة بعد العناية الصحية بها فى تحويل الجو المحيط بالطفل فى منزله الى جو ثابت المعاملة يتوافر فيه العطف والحزم والعدالة والحرية وحسن التوجيه ، ويجب أن يتوفر فيه النشاط مع الهدوء من جانب الوالدين ومن جانب الطفل نفسه •

مص الأصابع :

ومن الحركات الخاصة التى تلفت النظر مص الأصابع ، وكثيرا ما يظهر منذ الأسابيع الأولى[1] ، وقرض الأظافر الذى يظهر فى العادة متأخرا قبل

(١) يقال ان كثيرا من الأطفال يمصون أصابعهم وهم فى بطون أمهاتهـم كما جاء عن Minkwoski and Levy فى كتاب : Kanner : Child Psychiatry

السنة السابعة تقريبا • وفى الأشهر الأولى يمكن النظر الى مص أصابع اليد أو الرجل كأنه عملية عادية يقوم بها كل طفل تقريبا ، ويشتق منها لذة ، وفى اجرائها شىء من المهارة • فمن المهارة بالنسبة للطفل الصغير تحريك يده أو رجله ووضعها فى فمه دفعة واحدة دون أن يخطىء الهدف • وفى التمرن على هذا شىء من التمرن على التوافق العصبى العضلى •

ولكن الخطورة فى استمرارها ، والاصرار عليها عند التقدم فى السن • وبعض الأطفال يظلون يمصون أصابعهم الى سن الثانية عشرة • ورأيت ذات مرة فتاة فى حديقة عامة جالسة شـاردة الذهن تمص أصابعها وهى مستغرقة فى ذلك استغراقا شديدا ، وكان يبدو أن عمرها لا يقل عن السادسة عشرة • وضرر الاستمرار فى هذه العادة يتلخص فى أمر واحد ؛ وهو أنها أسلوب لنشاط لا يؤدى الى نتيجة ايجابية ملموسة • ومعنى ذلك أنها نوع من العمل غير المنتج يقوم الطفل به ويتعود عليه • ولهذا كان مص الأصابع عاملا مساعدا يسهل معه الاغراق فى أحلام اليقظة ، شأنه فى ذلك شأن جميع الأعمال التكرارية غير المنتجة •

ويلاحظ أن الطفل الصغير عند ممارسته مص الأصابع يكون سعيدا ، ويمارسها على فترات • وأما الطفل الكبير فيبدو عليه وهو يمارسـها أنه غير سعيد • وتجده يكب عليها باستمرار ، مثـله فى ذلك مثل المدمنـين لتعاطى المكيفات • وتزداد فترات ممارستها لمن اعتادها عند اعتلال صحته ، أو عند عدم تحقيق رغباته ، أو عند محاولته حل مشكلة صعبة ، أو عند عدم الرغبة فى النوم • ويكون عادة عند ممارستها بعيدا عن الصلة بهذا العالم الواقعى •

ويقوم الطفل بتخبئة عملية مص الأصابع ، خصوصا اذا حذره أبوه منها • ويستر عمله هذا عادة بأساليب مختلفة ؛ من أكثرها شيوعا تخبئة اليد التى توضع فى الفم باليد الأخرى ، ويظن الطفـل أول الأمر أن الكبار لا يرونه • وبعض الأطفال يلجئون لهذه الحيلة قبل نهاية السنة الأولى وتثبت الحيلة عندهم فتصبح عادة •

وهناك عدة اعتقادات فيما يختص بآثار مص الأصابع ، وأغلبها مشكوك فى صحته ، منها أنه يؤثر فى شكل الأصابع ، ويشوه الفم وسقف الحلق ، ولكن هذا فى العادة لا يحدث • ويعتقد بعض الآباء كذلك أن مص الأصابع فى الطفولة مقدمة لعادة الاستمناء فى المراهقة ؛ وليس هناك ما يبرر الجزم بهذا ، وان كان هناك بعض الاحتمال فى صحته ؛ لا سيما أن كليهما نوع من التلذذ الجسمانى الذاتى الذى لا يعطى نتيجة ايجابية ويصحبه استغراق شديد فى أحلام اليقظة • ويعتقد من يفسرون كتابات «فرويد» تفسيرا ضيقا أن مص الأصابع عملية جنسية (Sexual) فى صميمها • هذه كلها اتجاهات قد تزعج بعض الآباء • ولكن ما يزعج الآباء أكثر من كل هذا ، أن مص الأصابع ظاهرة قبيحة المنظر يشمئز منها الناس ، ويصحبها السرحان ، وهو شبيه فى ظاهره بالبله •

ومص الأصابع فى ذاته ليس مهما ، الا أنه دليل على حالة عقلية يجب الاهتمام بها ، وهو يبدأ عادة فى السنة الأولى مرتبطا بالتغذية • فاذا كانت التغذية غير كافية أو بعيدة الفترات ، أو لاتستوفى شرطا هاما من الشروط الضرورية ، فانه يحتمل أن يلجأ الطفل معها الى مص أصابعه[1] • وهذا نشاط يشغل الطفل ، ولو أنه لا يؤدى الى نتيجة ايجابية • ويترتب على ممارسته أن الطفل يحتمل أن يلجأ اليه كلما قابلته صعوبة ، أى أنه أسلوب قابل للانتشار من موقف الى مواقف أخرى ؛ ففى مواقف الغيرة أو الشدة ، أو الحرمان ، أو ماشابه ذلك ، يحتمل أن يركن الطفل الى ملجئه الذى تعوده وهو مص الأصابع • ومعنى ذلك أن يقنع الطفل بنشاط لا يؤدى الى نتيجة • وهذا الأسلوب الذى يواجه به الطفل مشاكله أسلوب سلبى انسحابى يبعد صاحبه عن مواجهة الواقع • ولذا كان مص الأصابع دليلا يصح أن تتنبأ به عن احتمال ظهور الصفات النفسية السلبية فى الكبر ، كالميل الى العزلة والانكماش ، والخجل ، وقلة الجرأة الاجتماعية فى الحديث أو فى حصول المرء على حقوقه ومحافظته عليها ، وقلة الميل الى الصراحة ، وشدة

(١) حقيقة أن الطفل كثيرا ما يترك غذاءه ليمص أصابعه ، ولكن هـذا لا يحدث الا بعد ثبوت العـادة .

الميل للتكتم ، وضعف روح المخاطرة واعتبـاره كل أمر من أموره سرا خاصا لا يجوز اطلاع أحد عليه ، وشدة الحساسية ، وسرعة التأثر ، وغير ذلك من الصفات التى يدخل كثير منها تحت صفات الشخصية المنطوية على نفسها (Introvert) وهذه الصفات السلبية ليست نتائج لمص الأصابع وانما هى فى الغالب مصاحبات له .

ولا يجوز أن يقتصر علاج مص الأصابع على الظاهرة نفسها ، وانما يجب أن يتجه كذلك — بعد التأكد من علاج الحالة الجسمانية التى قد تساعد على وجود الحالة العصبية — الى معرفة سبب شقاء الطفل فندرس علاقة الطفل بوالديه واخوته ومدرسيه وزملائه ، ومبلغ تحقق حاجاته الأولية فى ميادين حياته المختلفة من منزل ومدرسة وعمل ومجتمع ، وبعد دراسة كل هذا يعدل مجال حيـاة الطفل بما يحقق هدوءه ونشاطه وسـعادته ويجب أن يعود الطفل شغل يديه فى عمل شائق منتج . ومن الأساليب الطيبة التى تقترح أن يشغل الطفل بلعب فيه مجال لتركيب قطع بعضها مع بعض لتكوين شىء معين ، أو يشغل باستعمال آلة موسيقية يشغل فيها يده أو فمه أو كليهما ، أو يشغل فى مساعدة الأم فى عملها (كادارة آلة الخياطة ، أو حل كرات الصوف ، أو لفها ، أو المساعدة فى قص أو تقطيع أو تنسيق . وما الى ذلك) أو أى عمل يدوى يشغل فيه يديه ويشعره بأنه يؤدى مساعدة حقيقية لغيره مما يشعره عادة بقيمته فى نظر نفسه .

واذا أمكن ضمان تعديل مجال حياة الطفل الذى يعـالج من مص الأصابع ، وأمكن كذلك تعويده اشغال يديه فى عمل منتج ؛ فمن الجائز — ولو أنه ليس من الضرورى — أن يتفق مع الطفل على طريقة تذكره ، فى حالة النسيان بوجوب الاقلاع عن هذه العادة ، والطرق كثيرة منها وضع صبغة المر على أصابع اليد ، وما شابه ذلك من الأساليب التى يعرفها أغلب الناس . ولكنهم يخطئون عادة بالاقتصار عليها مما يجعل الضرر الناشىء منها أكثر من فائدتها ، ويجب أن نؤكد هنا أن هذه الطريقة وأمثالها تستعمل كأساليب للتذكير فقط ولا يجوز أن تستعمل كعقوبات . ويجب — بقدر

الامكان — آن تصدر فكرتها من الطفل بعد اقتناعه بقبح العادة ووجوب اقلاعه عنها وشعوره بالحاجة الى ما يذكره بذلك فى حالة النسيان •

قرض الأظافر :

كل ما قيل عن مص الأصابع يمكن أن يقال عن قرض الأظافر ، الا أن الانفعال المصاحب عادة لقرض الأظافر أو عض الأصابع هو انفعال الغضب • والحالة النفسية فى قرض الأظافر حالة توتر وغضب ، أما فى مص الأصابع فهى حالة استسلام وخضوع وانسحاب ، والذى يقرض أظافره يفعل ذلك بشدة وبكثرة اذا واجهته صعوبات ، فنلاحظ مثلا أنها تظهر من صاحبها أكثر عندما يسأل أو يختبر • وما قيل فى علاج مص الأصابع يقال فى قرض الأظافر وهو حسن التغذية ، وتنظيم النزهة ، وتحسين الصحة ، وشغل اليدين بطريقة شائقة منتجة • واشباع حاجات الطفل فى ميـــادين حياته المختلفة بطريقة تجعله قانعا مسرورا من نفسه •

اللزمات العصبية (Tics) :

وهناك مجموعة من الحركات العصبية تتم بشىء من المفاجأة والسرعة والتــكرار وعدم تدخــل الارادة ؛ كرمش العــين ، أو تحريك الأنف أو جوانب الفم ، أو تحريك الكتف ، وما شابه ذلك ، وتتميز هذه الحركات بأنها تتناول مجموعة كاملة من العضلات ، وأنها تحدث بتكرار منتظم فى غالب الأحيان •

وتبدأ هذه الحركات عادة بسبب تهيج محلى ، وبعد زوال التهيج تستمر الحركة فى الظهور بين آن وآخر ، فبعد الاصابة ببعض التهابات العين مثلا قد تظهر لزمة رمش العين بين آن وآخر • وأحيانا تكون الحركة دالة على اتجاه نفسى كالغضب أو الخوف أو التقزز •

ويحسن مع معالجة الأسباب المحلية اهمال الظاهرة من جانب الوالدين ومن يحيطون بالطفل اهمالا تاما ، لأن الانتباه اليها والتهيج من حدوثها يثبت ذهن الطفل عليها ، ويؤدى عادة الى تثبيتها ، ويحسن مع هذا مراعاة روح العلاج الذى سبق أن ذكرناه فى هذا الباب •

ولتوضيح ما تقدم نأخذ حالة لتلميذ فى سن السابعة عشرة ، بدأ من سن الخامسة عشرة يقوم — بين آن وآخر ، على الرغم من ارادته — بحركة عصبية فى الرقبة والعينين وجانب الفم . وذكاء هذا الولد فوق المتوسط . وله مركز ممتاز جدا فى الأسرة ، اذ أنه الذكر الأول بعد بنتين . وبقى الذكر الوحيد مدة سبع سنوات . ولهذا تمتع وحده بتدليل شديد من أمه واختيه ووالده مدة سبع سنوات . ونشأ حساسا رقيقا لا يتحمل مهاجمة أو أذى . فهو لهذا لا يحب الرياضة البدنية لعنفها ، ولأنها تضطره للاحتكاك بغيره من الأولاد . يفضل أن يشغل وقت فراغه بالذهاب الى الخيالة ، وهو من النوع الهادىء الجاد المغلق القليل المرح القليل الاختلاط ، وتنطبق عليه كل صفات الانطوائيين . بدأت لديه حركات الرقبة عندما كان يلبس ياقات من النوع المقوى ، ثم استمرت اللازمة بعد ذلك . أما حركة الفم فانها بدأت من وقت أن تعدى عليه تلميذ فضربه فى جانب فمه بسن الريشة وتقيح الجرح الذى ظل ظاهرا مدة طويلة . وبدأت الحركات العصبية ، بعد أن كانت مقتصرة على الرقبة ، تنتشر الى الفم والعينين . ولعل اتجاه والديه نحوه يتضح من المثال الآتى : وهو أن الولد كثيرا ما يشكو من لوزتيه ، ونصحه الأطباء بوجوب استئصالهما ، والوالدان يرفضان رفضا باتا خوفا عليه . يشفق الوالدان على الولد ويعتبرانه عصبيا مسكينا ، وعرضاه بالفعل على أطباء الأعصاب ، فشخصه أحدهم بأن عنده « نيوراسثينيا » ومثل هذا التشخيص العلمى يساعد على تثبيت الحالة وزيادة شدتها وتركيزها . ومما ساعد على تثبيت الحركات العصبية عند هذا الطالب معاكسة التلاميذ له وشدة انتباههم لحركاته واطلاقهم عليه أحيانا بسببها اسم مجنون .

يبدو من هذه الحالة كيف أن التكوين الأول قد يهيىء صاحبه لتكوين الحركات العصبية عند مجىء الظرف المناسب . وهذه الحركات غالبا ما تثبت وتصبح عادة بفعل التكرار وبفعل توجيه الانتباه اليها .

ومثال آخر : حالة ولد فى سن الثامنة أرسل الى العيادة لبطء شديد فى

تفكيره ، ولخموله العام ، ولأنه يحرك أنفه حركة عصبية شديدة ، ويتحرك معها كل وجهه تقريبا • واتضح ببحث الحالة أن الولد فى المدرسة سلبى خامل كثير السرحان • وأما فى المنزل فهو مخرب عنيد ، يطاع ولا يطيع • وهو الولد الأول ، وأبوه رجل عصبى قلق ، يتدخل فى كل شئونه بشىء من الضعف ، والأم عصبية كثيرة النقد، قليلة التحمل لضوضاء الأطفال وحركاتهم • وسواء فى المسكن أو فى الحى الذى تعيش فيه الأسرة لا يوجد مجال للعب الأطفال أو فسحتهم •

وقد تحسنت حالة الولد كثيرا بتوجيه الأب الى عدم الالتفات الى الحركة العصبية وبذلك تلاشت تقريبا ، ولم تزل تماما لارتباطها بتهيج محلى بسبب الزوائد الأنفية المتضخمة عند الولد • ومما زاد فى تخفيف الحالة تقليل ضغط والديه عليه ، والتخفيف من تدخلهم فى كل صغيرة وكبيرة من شئونه ، وادخاله مدرسة نجحت فى تخليصه من سلبيته ، وانطوائه على نفسه • وصار أكثر جرأة وأقدر على الاختلاط •

ومما يدل على قلق الوالد وشدة التفاته لابنه أنه قال بعد تحسن الولد : ان حركة الأنف قد زالت تقريبا ، ولكن حركة خفيفة أخرى بدأت تظهر حول العين ، فنبهناه الى وجوب الانصراف التام عن كل هذا • فقال : انه يخشى أن يكون عند الولد ضعف فى بصره أو فى سمعه لأن شهادته فى المدرسة تدل كذلك على بعض التأخر • وقال كذلك : ان وجوده فى هذه المدرسة الجديدة وتخفيف رقابة والده عليه قد يقلل من احترام الولد لأبيه ، لأن حبه لمدرسيه آخذ فى الازدياد •

كانت عبارات الوالد المتكررة تساعدنا من ناحية على فهم اتجاهه وتساعدنا كذلك على توجيهه أولا بأول ، مما أدى الى نتائج طيبة يرجع الفضل فيها الى اهتمام الوالد ودقته فى تنفيذ التوجيهات ، ولكن يلاحظ أن أهم ما يتجه اليه الذهن فى مثل هذه الحالة الأخيرة هو وجوب انشغال الوالدين عن مراقبة حركات الطفل ، ووجوب انشغال الولد نفسه عن هذه الحركات ، وتوجيه نشاط الطفل العقلى والبدنى توجيها لذيذا منتجا ،

وتهدئة الجو المحيط بالطفل فى كل من المنزل والمدرسة تهدئة لا تؤدى الى الخمول ، وانما تؤدى الى استثمار نشاط الطفل الزائد لصالح حياة عقلية وبدنية صحيحة .

خاتمـة :

كان عدد الحالات التى قمنا بدراستها فى الحركات العصبية بأنواعها قليلا لا يسمح برسم صورة صحيحة عن كل ما يقع منها . ولهذا لم نشر الى النوبات الصرعية واللاصرعية ولا الى الخوريا (Chores) ولا الى الرعونة ولا الى كثير من أنواع اللزمات العصبية . ولكن يتبين مما أشرنا اليه من حالات أن أهم ما تتطلع اليه فى كل من الوقاية والعلاج هو توطيد الهدوء النفسى للطفل ولوالديه ولعلاقته بهما وللجو المحيط به بوجه عام . وقد لوحظ فى الحالات العصبية أن الجو المحيط فى المنزل يتميز بالتوتر والقلق وبعض العصبية والنشاط الزائد غير المنظم . وهذه الصفات نجدها عادة فى الطفل وفى والديه : أحدهما أو كليهما . وقد ظهرت عدة نظريات لتفسير هذه الظواهر ، بعضها آت من ميدان الطب ، ويرجعها الى انعدام التوافق العصبى ، والى اختلال فى المراكز المخية المحلية . وبعضها آت من ميدان التحليل النفسى ، ويربط بين هذه الظواهر ، ومشكلات الأطفـال الجنسية ، فتعتبر «ميلانى كالاين»[1] أن جميع هذه الظواهر العصبية ترجع الى ملاحظة الأطفال (باستراق السمع أو بمحاولة الرؤية) لوالديهم فى أثناء العمليات الجنسية أو ما يرتبط بها ، وأصحاب الخبرة فى علاج الأطفال العصبين يكتفون عادة بالرأى الذى أثبتناه ، ويرون أن الحقائق العلمية لا تبرر تعميم رأى أصحاب التحليل النفسى .

ومن القواعد الهامة سواء فى العلاج أو فى الوقاية هى كما قلنا : تهدئة الطفل وما يحيط به من علاقات ولا يجوز أن نفهم التهدئة على أنها وصول الى مرتبة الخمول ، بل بالعكس ننصح — كما أشرنا — بانماء الهوايات ، وبالرياضة البدنية ، وبتنظيم العمل ، وبتنظيم الراحة ، وما الى ذلك . أما

(1) Quoted by Boenheim. op. cit. p. 124.

العلاج فيتلخص اتجاهه فى ازالة عوامل القلق والهياج ، وفى تمرينات خاصة[1] لكل نوع من الاضطراب على أنه يخشى من هذه التمرينات ، ما أشرنا اليه من احتمال تثبيت الانتباه على هذه اللازمات ، فيجب تفادى هذا بالأساليب الشاملة الأخرى التى تبعد الانتباه عنها • ويصاحب هذا العلاج تمرن على الاسترخاء التام فترة من الزمن فى كل يوم •

(١) ينصح « بوينهيم » مثلا فى لازمة رمش العين بتمرينات معينة للتمرن على فتح العين واقفالها بانتظام وللتمرن على ضبطها مفتوحة أو مقفلة مـــدة قصيرة • ذلك مع وجوب اقصاء الانتباه عنها فى غير أوقات التمرين بأساليب أخرى Boenheim, op. cit. p. 127.

المراجع

Blatz and Reginald : A Study of Tics in Preschool Children.
Blatz and Bott : The Management of Young Children.
Boenheim : Practical Psychotherapy.
Cameron : The Nervous School Child.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
Patri : Child Training.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل السابع عشر

صعوبات النطق

مقدمة :

سبق أن تكلمنا عن الحركات العصبية بما فيها من مص الأصابع ، وقرض الأظافر ، ورمش العين • وغير ذلك • وهناك نوع من الحركات العصبية له أهمية خاصة وهو المتعلق بالنطق • وعملية النطق لها مكانة كبيرة فى حياة الانسان ، ويشبهها عند الحيوان اخراج الأصوات • ومعروف أن الأصوات عند الحيوان تؤدى له وظائف حيوية هامة ، فبالأصوات يحدث النداء الذى يترتب عليه تجمع أفراد النوع الواحد بعضهم مع بعض ، بقصد الوقاية من الخطر المحدق • وبوساطة الأصوات تدعو الحيوانات بعضها بعضا للاجتماع الجنسى وحفظ النوع • وبها تتحقق على وجه العموم أنواع الحياة الجمعية عند الحيوان بغاياتها المختلفة • ولهذا نجد أن نوع الصوت وتنغيمه يختلف عند الحيوان الواحد باختلاف حاجاته ، التى يدعو تحققها الى وجود طرف آخر • فالذين يهتمون بتربية الحيوانات المنزلية يعرفون فى القط مثلا صوت الاستجداء لطلب الطعام ، وصوت التخويف والتحدى عند الشجار ، وصوت الفزع والاستنجاد عند احداق الخطر ، والصوت الدال على الاطمئنان والسرور عند الشعور بالدفء والشبع والراحة ، وصوت الانتصار عند الفوز بالفريسة ، وصوت نداء الأنثى عندما يحل موسم الاجتماع الجنسى ، وصوت تلبية الذكور لصوت الأنثى فى هذه الحالة ، وصوت نداء القطة الكبيرة لصغارها ، وصوت سرورها لوصولهم ، الى غير ذلك من أنواع الأصوات التى يرتبط تنوعها بتنوع الحاجات التى يعبر عنها الصوت •

ونرى من هذا أن وظيفة الصوت الاتصال بآخر اتصالا يصح أن يساعد على تحقيق حاجة نفسية • كذلك النطق عند الانسان ؛ فهو يعبر عن حاجة يراد تحقيقها بالاستعانة بكائن حي آخر يغلب أن يكون انسانا مثله •

فكأن عملية النطق عبارة عن نشاط اجتماعي يصدر عن الفرد وتتدخل فيه عدة توافقات عصبية دقيقة مركبة ، يشترك في أدائها مركز الكلام في المخ الذي يسيطر على الأعصاب ، وهذه تقوم بتحريك العضلات التي تقوم باخراج الصوت • وكذلك تشترك الرئتان ، والحجاب الحاجز ، فتقوم الرئتان بتعبئة الهواء ، وتنظيم اندفاعه • وبمرور الهواء على الأوتار الصوتية ، وداخل الحنجرة ، والفم ، والتجويف الأنفي ، تحدث تشكيلات مختلفة من الأصوات • وكذلك تساعد تغييرات أوضاع اللسان والشفتين على زيادة التنويع في الأصوات • ويحتاج النطق السليم الى مران طويل جدا يبدؤه الطفل عادة منذ ولادته ، فهو يبدأ بالصراخ ، ثم الضحك والمناغاة ، ثم يسمع نفسه ويسمع من حوله ، ويبدأ يجرب تشكيلات مختلفة من الأصوات ، ثم يبدأ يقلد من حوله الى أن ينجح في اخراج الألفاظ وفي الكلام • وهذه عملية طويلة شاقة يبذل فيها الطفل جهدا كبيرا ، ويتعاون فيها السمع والبصر وأجهزة النطق — الأصلية منها والمساعدة •

ويتضمن النطق — كما قلنا — نشاطا لفرد يقصد به الاتصال بالغير ، ومن هذا تبدو أهمية الكفاية الحركية للسان واندفاع الهواء وتنسيق الحركات كلها تنسيقا يؤدي الى النطق الصحيح • وتبدو أيضا أهمية الحاجة النفسية المراد التعبير عنها ، وضرورة مطابقة الاخراج التعبيري لما هو موجود في النفس ، وكذلك قيمة ثقة المرء في قدرته على التعبير • ويلاحظ أن جزءا غير قليل من هذه الثقة يشتق من الاتجاه الذي يأخذه المخاطب عادة نحو المتكلم في أثناء سير الحديث •

لهذا كله كان النطق أهم وسائل الاتصال الاجتماعي ، وكانت له قيمته الممتازة في نواحي نمو الفرد المختلفة سواء في ذلك نمو تفكيره أو طابع شخصيته بوجه عام •

بعض الحالات :

يتلخص وصف أعراض صعوبات النطق فى أنها اختــلال فى التوافق الحركى بين أعضاء النطق المختلفة . ونظرا لكثرة أجزاء هذه الأعضاء ، ولتنوع أساليب نشاطها ، ولتعدد التشكيلات المختلفة لها ، فان صعوبات النطق كثيرة ، وتختلف فى شدتها ونوعها باختلاف درجة الاضطراب ، ونوع العضو البارز فيه . لذلك نجد بعض الصعوبات مثلا مرتبطا بتشوه الأسنان أو بانشقاق الشفة العليا ، أو بوجود الزوائد الأنفية ، أو غير ذلك . وتعددت تبعا لتعدد أنواع صعوبات النطق أسماء هذه الصعوبات فهناك التمتمة ، والتأتأة ، والعقلة ، والحبسة ، واللثغة ، والخنة ، والرتة وغير ذلك . وأما كلمة تهتهة ، فانها كلمة دارجة أصبحت تستعمل الآن لكل أنواع صعوبات النطق[1] .

ويلاحظ أن نوعا من أنواع صعوبات النطق يحدث عادة لكل انسان ففى المواقف التى يفاجأ فيها الانسان ، ويرغم على التكلم فى أمر يعرف عنه ولا يريد لأمر ما أن يتحدث فيه ، فانه قد يتعثر اذ ذاك عند النطق . ويمكننا أن نقول : ان الانسان يتعثر فى نطقه فى الأحوال العادية لأسباب ثلاثة : أولها الخوف ، ولذا كانت خير طريقة يعبر بها الممثل على المسرح عن الخوف هى طريقة التعثر فى النطق ، وثانيها : أن يكون اللفظ قاصرا عن الأداء ، وبذلك يضيع وقت فى البحث عن الألفاظ المناسبة ، وثالثها : أن يكون تدفق الأفكار أسرع من تعبير الانسان عنها لعجز أســاليب تعبيره بسبب قلة المحصول اللغوى مثلا . والسببان الأخيران يمكن مشاهدة أثرهما بوضوح وفى أبسط صورة عند محاولة الكبير التكلم بلغة أجنبية لا يتقنها تماما ، فهو يتعثر اذ ذاك ، بينما لا يتعثر عند التكلم بلغته العادية . ويمكن مشاهدته كذلك فى الأطفال فى سن الثالثة والرابعة تقريبا .

ولأجل أن تتبين أسباب العى المختلفة يصح أن نعرض بعض الحالات :

(۱) هذه الظاهرة الخاصة بتعدد مصطلحات صعوبات النطق والميل الى استعمال واحد منها دون الأخرى ليست قاصرة على اللغة العربية ، وانما هى موجودة فى اللغات الأجنبية أيضا .

أولى هذه الحالات لولد فى سن العاشرة أرسله والده للعيادة لصعوبة شديدة فى النطق • وقد فحصت فى أول الأمر حالة الولد من النـــواحى الجسمانية للتأكد مما اذا كان هناك مرض عضوى يمكن أن يكون عاملا أصليا أو عاملا مساعدا فى وجود العى ، وقد قام بفحصه المتخصصون فى الأمراض العصبية ، وفى أمراض الأنف والأذن والحنجرة ، وفى الأمراض الباطنية ، ودلت كل هذه الأبحاث على أنه ليس هناك أى مرض جسمانى يصح أن يكون سببا مباشرا للعى • ولو أنه ظهر أن لديه تقيحا فى اللوزتين ونصحت الأسرة بازالتهما وبالفعل أجريت له العملية اللازمة لذلك ، وكان لها أثر ظاهر من حيث التحسن العام •

وقامت العيادة كذلك بدراسة الولد من الناحية النفسية ، فتبين أن ذكاءه فوق المتوسط بكثير ، وأنه يتعثر فى النطق اذا شعر بأنه مراقب وبأن أخطاءه ستوضع موضع النقد • ويصاحب النطق عادة حركات عصبية يقوم بها بيديه وبأجزاء وجهه المختلفة •

والولد هو الذكر الأول الوحيد ، وله ثلاث أخوات كلهن أصغر منه ، وكلهن يجدن الكلام • الوالدان متعلمان تعليما جيدا ، وحالتهما المادية طيبة ، وهما على وفاق تام • والأم تخاف الظلام ، وأما الوالد فانه هادىء فى الظاهر ، غير أنه فى الواقع قلق على ابنه ومستقبله ، ويهتم بأمره ويلاطفه ويعامله بعطف زائد • غير أن الوالد نفسه سريع الكلام ، ويبدو كأن لديه بقايا عى قديم • وللولد جد من أمه ، وهو شديد الخوف من أمور كثيرة ، وللولد كذلك قريب من ناحية أمه متأخر جدا فى ذكائه وتصرفاته عامة • أما الولد نفسه فانه رقيق هادىء حساس سريع التأثر ، محب للدقة والنظام ، حريص جدا على ارضاء والديه ومدرسيه ، شديد الخجل ، ميال الى العزلة والعمل الفردى •

وكانت ولادته عسرة واستعملت فى ذلك الآلة الخاصة بالولادة ، مما أدى الى تمزق بسيط فى أربطة العنق ، ومما جعل رأسه تميل فى ناحية دون الأخرى مدة طويلة من الزمن • وكانت الرضاعة والفطام والمشى وما الى

ذلك كلها طبيعية . وفى سن الثانية غمس الولد فجأة ذات مرة فى الماء البارد فذعر ذعرا شديدا وصرخ صراخا مؤلما طويلا ، وصار منــذ ذلك الوقت كثير البكاء ، فكان يبكى أحيانا من أول اليوم الى آخره . ولما كبر أرسل الى روضة الأطفال ، وفى يوم من الأيام ، وهو فى سن السادسة ، كان عائدا من الروضة فنبح عليه كلب كبير ، وجرى وراءه ، وحــدث كذلك أن أصيبت أخته الصغرى فى حادث تصادم وذعر لهذا الحادث ذعرا شديدا وكانت لديهم قبل هاتين الحادثتين خادمة مصابة بالتعثر فى النطق ، وكان قد بدأ يقلدها ، وهذا هو مبدأ تعثره فى الكلام ولكنه استمر فيه بعد ذلك الى الوقت الحاضر .

وأما معاملة الولد فى المنزل فنظرا الى أنه الذكر الوحيد والأول . فقد ووجد عناية فائقة ؛ كان مدللا فى صغره من الوالدين ومن جميع الأقارب . وكانت تجيب الأم له كل طلباته ويكاد يعتمد عليها فى كل صغيرة وكبيرة ، وهى تخاف عليه خوفا شديدا . أما الأب فانه يلاحظ ابنه ملاحظة دقيقة حتى انه يلاحظ مثلا أنه فى يوم كذا مرت عشرون دقيقة أو نصف ساعة دون أن يتعثر الولد فى نطقه . وهذا النوع من الملاحظة يمكن تسميته بالملاحظة القلقة . ويعطف الوالد كما قلنا على ابنه عطفا مبالغــا فيه ، ويستثير همته ، ويستحثه ، ويشجعه على الاهتمام بعمله ، والتخلق بالرجولة ويظهر أن الولد قد بالغ فى هذا مبالغة شديدة من سن مبكرة ، ترتب عليها أن الولد لم يتمتع كثيرا بما يتمتع به الأطفال من لعب ومرح وعدم حمل المسئولية . ومما يدل على صحة هذا أنى كنت أحدث الوالد ذات مرة على مسمع من الطفل قائلا : انى أحب أنْ يلعب الولد قليلا فقال الوالد بصورة جدية « ولكن ولدى لا يحب اللعب مطلقا ؛ وانما يحب المذاكرة والعمــل الجدى » وبصعوبة كبيرة أمكن اقناع الوالد بوجوب تشجيع الولد على الاشتراك فى نوع من اللعب .

وأما حالة الطفل فى المدرسة فانها طبيعية جدا ، الا أن المدرسين والتلاميذ يرتكبون بعض الأخطاء فى تصرفاتهم معه ، فيحدث أحيانا أن

يعيره بعض التلاميذ ، ويحدث كذلك أن يناديه أحد المدرسين بلقب ينتمى الى العى • ومن أمثلة أخطاء المدرسين أن عقدت العيادة لهم اجتماعا خاصا بهذا الولد للمناقشة فيما يجب عليهم اتباعه نحوه ، وفى صباح اليوم التالى دخل أحدهم الفصل ، وناداه وأبلغه بصوت مرتفع يسمعه بقية الأولاد أنه أضاع بالأمس ساعتين من الزمن فى اجتماع خاص بما عنده من عى ، وانه سيعمل جهده لمساعدته • وكان لهذا الحادث أثر مؤلم جدا فى نفس الولد وهدم كل ما كانت قد وصلت اليه العيادة من نتائج ملموسة •

ويمكن تلخيص الحالة بأنها حالة توتر عصبى شديد ناشىء من احساس الولد بضعفه وعدم ثقته بنفسه لأنه يعامل من والدته التى تجيب كل طلباته ، ووالده الذى يبالغ فى ملاطفته ، معاملة يشعر معها أنه مخلوق ضعيف • ومع احساس الولد بضعفه هذا ، فان والده وأهله جميعا يستثيرونه لبذل مجهود عظيم لا يتناسب مع طفولته من ناحية ، ولا مع احساسه بضعفه من ناحية أخرى ، ويظهر أن هناك عنصرا وراثيا متدخلا فى استعداد الولد للضعف العصبى الذى يساعد على ظهور العى متى توافرت الظروف الملائمة لذلك • ويتبين احتمال وجود هذا الضعف العصبى الوراثى مما ذكرناه آنفا عن الأقارب • ومن الأسباب التى ساعدت على نجاح حالة التوتر فى تأثيرها فى الولد — بالاضافة الى ما قد يكون هناك من ضعف عصبى وراثى — احتمال وجود ضعف عصبى ناشىء من الصدمات المتكررة التى أصابته ، وهى عسر الولادة وحادثة غمسه فى الماء البارد ، وحادثة الانزعاج من الكلب ، وحادثة الانزعاج من صدمة أخته ، وتشرب الخوف من الظلام من والدته وجده ••• الى غير ذلك • أما تقليده للخادمة فليس فى رأينا سببا أساسيا • وكل ما فى الأمر أن الخادمة ظهرت كعامل ملائم ومساعد للحالة النفسية الناتجة من مجموع العوامل الوراثية ، ومجموع الصدمات السابقة ، ومن مجموع الاتجاهات المتخذة نحوه من والديه وأقاربه وزملائه ومدرسيه ، ويمكن تصوير حالة الولد بأن العى ذاته يشعره بالضعف ، والعوامل المتعددة الأخرى تشعره كذلك بالضعف ، وفى نفس الوقت تستثير بعض هذه العوامل همته فيزداد التوتر ويزداد العى ، وتزداد الحالة سوءا •

ومما يدعم صحة هذا الاستنتاج أن الولد — وهو فى حالة عدم توتر داخلى — يتكلم بطلاقة فهو لا يتعثر فى أثناء اللعب ولا يتعثر عادة مع زملائه ، ولكنه يتعثر بشدة مع والديه ومدرسيه . ويقول والده : ان الولد يتكلم فى أثناء أحلامه بطلاقة غريبة واذا قرأ شيئا بصوت مرتفع فانه لا يتعثر الا اذا أحس أحدا قريبا منه . ومما يدعم هذا الرأى أيضا أن الولد بقى يتحاشى مقابلة والده وجها لوجه مدة طويلة ، لأن المدرسة أرسلت للوالد تبلغه أن الولد ضعيف فى اللغة الانجليزية . فكان لهذا يحرص على أن يخرج من المنزل مبكرا فى الصباح قبل أن يستيقظ والده من النوم ، وكان الوالد فخورا جدا بشدة تألم ابنه من نفسه وخجله منه .

ويلاحظ أن احساس الولد بضعفه هو الذى أدى فى الغالب الى جعل الولد سلبيا منكمشا قليل الاختلاط شديد الحياء ، شديد الخجل والخوف ، قليل الثقة بنفسه قليل الكلام ، خاملا ، حساسا سريع التأثر ، يحرص على شعور الناس وعلى فكرة الناس عنه حرصا لا يصدر عادة من الصغار مثله . وحساسيته وخوفه من النقد أديا الى جعله دقيقا فى عمله وفى ملبسه . ويحتمل جدا أن تكون دقة الولد مع نفسه ، ورقابته لها طول الوقت ، عاملا مهما فى احداث التوتر وتثبيت العى .

واتجه العلاج أولا للناحية الجسمية باستئصال اللوزتين . ثم اتجه للناحية النفسية بتعويده التكلم وهو فى حالة تراخ ، مما أعطى الولد ثقة كبيرة فى نفسه . وقد أكدنا على الوالدين وجوب تخفيف المراقبة ، ومنع القلق ، وتعويد الولد الاعتماد على نفسه . وقد اشترك فى معسكر صيفى قامت به العيادة ، واشترك فى ناد ليتمكن فيه من اللعب وحسن قضاء الوقت ، وليتمكن من النمو الاجتماعى المتزن . وقد تحسن بالفعل تحسنا كبيرا ، ولو أنه كان ينتكس بعض الشىء بسبب المرض أو الاجهاد أو رجوع الوالدين الى ما تعوداه معه من معاملة . وقد تقدم الولد — بسبب نموه ، وتحسن صحته ، وكسبه ثقته فى نفسه — تقدما محسوسا أساسه أنه بذل بنفسه جهدا كبيرا شجعه عليه ما رآه من قدرته على التكلم السلس فى بعض المواقف .

وهناك حالة ثانية تختلف عن سابقتها فى نوع شخصية صاحب الحالة . فبينما نجد صاحب الحالة الأولى حساسا منكمشا هادئا منقبضا قليل الجرأة ميالا للعزلة نجد صاحب هذه الحالة محبا للسيطرة ميالا للنقد والسخرية والتهكم كثير الكلام مرحا محبا للاتصال بالغير .. الى غير ذلك. وهو تلميذ فى سن الحادية عشرة ، ذكاؤه فوق المتوسط ، وهو الأخ الأكبر لخمسة اخوة . وهو كما قلنا يميل الى بسط سلطانه على اخوته ، شديد الخيال ويظهر هذا فى رسومه وقصصه ونكاته ، ويميل فى رسومه الى تشويه صور الناس بدرجة بالغة .

كان الولد يعيش فى القاهرة مع عمه وجدته فقط فى بيت ممل بالنسبة له كطفل يريد أن يلعب أحيانا ولا يجد من يلعب معه . والوالد على درجة كبيرة من الكفاية والذكاء والمرح ، الا أنه قلق جدا على مستقبل أولاده . ويعتقد أن الزمن تغير كثيرا فما دام هناك أولاد ينالون الشهادة الابتدائية فى سن تسع سنوات فستكون المنافسة فى المستقبل شديدة جدا ، ولذا تشعر معه أنه مسوق الى دفع أولاده لسرعة التحصيل والتعلم . وهو يفعل ذلك بشىء كبير من القلق . الوالد متغير فى معاملة أولاده فهو يدللهم تدليلا شديدا الى سن معينة ، فاذا جاوزوها وبدءوا سن التعلم انقلب الى شخص شديد صارم يقوم لأولاده بوظيفة المدرس رغم كثرة مشاغله ، ويتخلل تدريسه لهم ضربه اياهم بشدة وعنف . والوقت الذى يقوم فيه بالتدريس لأولاده هو الوقت الذى يكون قد أنهكه فيه العمل . وقد لوحظ أن الوالد اذا سأل أحد أبنائه سؤالا ولم يجب فى الحال فانه ينهره بشدة مزعجة وبذلك يتعثر الولد . وأما الأم فانها سيدة عادية فى كل شىء ، الا أنها كثيرة النقد لأولادها . وهى تعلن أنها تحب البنات ولا تحب البنين . وينال صاحب الحالة بالطبع شيئا غير قليل من تفضيل اخوته عليه .

وكانت ولادة صاحب الحالة طبيعية ورضاعته طبيعية الى أن جف لبن الأم فى الشهر الرابع من عمره . وكان المشى والكلام والتسنين وعادات المأكل والمشرب والتبول والتبرز طبيعية الا أن الولد أصيب بـ « البارانيفود »

فى سن الثالثة ، وبعد شفائه منه قل كلامه ، وضعفت قدرته على التعبير عن مطالبه ، وصار كثير البكاء لغير سبب ظاهر ، وكانت أمه تضربه لبكائه ضربا شديدا وبدأت التهتهة فى ذلك الوقت •

أرسل الولد لمدرسة بنات فى سن الرابعة والنصف ، وكان هو الولد الوحيد بها ، وكان متضايقا من هذا الوضع ، ولكنه أبقى بها رغم أنفه سنة ونصف سنة • وبعد اتمام تعليمه فى المدرسة الابتدائية أرسل الى القاهرة ليعيش مع جدته وعمه • وقام عمه بتشديد الرقابة عليه لدرجة بالغة حتى لا يكون ملوما ، وكان الولد يعمل كل شىء تقريبا ضد ما يرغب •

ويمكن تلخيص الحالة فى أن مرض الولد بـ « الباراتيفود » ربما يكون قد أضعف صحته العامة ضعفا جعله حساسا شديد التأثر • ولو كان قد عومل فى ذلك الوقت برفق وصبر ، وحجز فى البيت مدة كافية لاسترد صحته تماما قبل ارساله للمدرسة • ثم ان ذهابه لمدرسة البنات — وهو لا يحب البنات لأنهن مفضلات عند أمه على البنين — كان مصدر ألم مستمر له • كذلك معاملة والده المتقلبة من اللين الى الشدة ، وقلق الوالد على تعليم أولاده ، وتعجله اياهم فى الكلام ودفعهم فى التعليم دفعا فيه شىء من العنف ، كل ذلك كان له أثره فى الولد ، خصوصا أنه الأكبر ، وقد كان نصيبه من كل ذلك أوفر من نصيب أى واحد من اخوته •

ولم نصل مع هذا الولد الى نتيجة مرضية لعدم كفاية ما حدث بينه وبين العيادة من اتصال ، ولو أن المعاملة التى عومل بها فى معسكر العيادة — الذى سبقت الاشارة اليه — أدت معه الى نتائج طيبة ، ولكنها لم تدم لانقطاع صلته بالعيادة بعد ذلك •

التشخيص والعلاج :

وليس من السهل فى الحالتين السابقتين أن نحدد سببا واحدا تنسب اليه التهتهة ، فهناك مجموعة عوامل ، بعضها جسمى ، وبعضها يرجع الى المعاملة ، وبعضها يرجع الى الوراثة ، وبعضها يرجع الى التقليد ••• تتضافر كلها فى احداث الحالة أو فى المساعدة على بقائها بعد حدوثها •

ويغلب على الظن أن العامل الأساسى هو القلق أو الخوف المكبوت • وهذا القلق أو الخوف ينشأ اما بالتأثير فنجد الوالدين أحدهما أو كليهما على درجة من القلق • وقد ينشأ مما يحدث للطفل من حوادث التخويف أو المعاملة غير الحكيمة • ويترتب على حالة القلق النفسى اما خجل وانزواء وعزلة وقلة جرأة ، وما الى ذلك من الصفات السلبية التى شاهدناها فى الحالة الأولى • واما أن يترتب عليه تعويض نفسى فتنشأ الجرأة والمرح والنقد ، وما الى ذلك من الصفات الايجابية التى شاهدناها فى الحالة الثانية•

ويتلخص علاج مثل هذه الحالات فى اعطاء الطفل ثقة فى نفسه ازاء الكلام خاصة وازاء مجالات حياته بنوع عام • أما أسلوب اعطاء الثقة فى النفس فانه أسلوب طويل يحتاج الى زمن والى صبر من كل من المعالج وصاحب الحالة •

ويصح أن نورد باختصـار حالتين أخريين لنوضح أثر عامل القلق أو الخوف وأثر العوامل الأخرى الى جانب هذا العامل :

أما الحالة الأولى فهى لولد فى سن الثانية عشرة عنده تعثر فى النطق ، وهو فى السنة الثانية الابتدائية ، ومستواه العقلى يوازى مستوى ذكاء ولد متوسط عمره ٨ $\frac{1}{2}$ سنة — أى أنه متأخر فى ذكائه عما ينتظر لسنه — والولد خامل شاحب اللون قليل الابتسام ، وعنده كبرياء مصطنع يحاول أن يغطى به ما لديه من نقص • ثم هو مع ذلك يميل أحيانا للانزواء • وهو سريع الغضب ، ولكنه يكظم غضبه ، فاذا ضربه أحد معلميه — وهذا كثيرا ما يحدث — فانه لا يبكى مطلقا • والولد يخاف أباه بدرجة بالغة • أما الأب فانه رجل عصبى يتعثر فى النطق ويعتقد أن التعثر فى النطق أمر تافه لا يجوز اعارته أى اهتمام ، لأنه هو أيضا يتعثر فى النطق ومع ذلك صار — بحسب رأيه فى نفسه — رجلا عظيما •

ويلاحظ أن كل فرد فى الأسرة عنده نوع معين من أنواع الشذوذ : فالأب يتعثر فى النطق ، والأم عصبية جـدا ، وبنتهما غير متزنة ، والولد الكبير عصبى ويتعثر فى النطق ، وقد تأخر فى ضبط عضلات الجهاز البولى ،

والولد الذى يليه شديد الخنف ، وعيناه ليستا باتساع واحـد • والولد ، الذى نحن بصدد حالته ، مع شدة خوفه من أبيه معجب به اعجابا شديدا[1] • والعلاقة بين الأم والأب سيئة جدا ، ولكن الأب نجح فى اشباع أنانيته باستعمال القوة ، ورغم سعته يضيق على أسرته تضييقا شديدا ويمتع نفسه خارج المنزل • كل هذا قد يدل على أن احتمال الوراثة عن كل من الأب والأم ، وكذلك تقليد الأب ربما اشتركا فى تكوين التهتهة • وأما حالة التوتر فقد تكون ناتجة من حالة التناقض النفسى الظاهرة فى اعجاب الولد بأبيه وخوفه الشديد منه فى نفس الوقت ، ومن سوء العـلاقات فى الجو المنزلى •

وبذلك قد تكون التهتهة فى هذه الحالة نوعا من العصبية الموروثة التى أخذت اتجاها معينا وتبلورت فى شكل معين بفعل البيئة بما فيها من تقليد وتخويف واقلاق •

وهناك حالة أخرى لطالب عمره ثمانية عشرة عاما قد بدأ يتعثر فى النطق بعد حادثة وقعت له وهو فى سن الخامسة ، وهى أنه دخل دورة المياه وأقفل عليه الباب ولم يتمكن من فتحه وعجز أيضا من فى الخارج عن ذلك فلم يتمكنوا من فتحه • وذعر الولدذعرا شديدا • وهو الأصغر فى الأسرة وليس له سوى أخ واحد والعلاقة بين والديه بها شىء غير قليل من الخلاف مما يقلل من الشعور بالأمن فى جو المنزل (حالة ص ١٢٩) •

عوامل ظهور صعوبات النطق :

يبدو مما تقدم ومن دراسة مختلف أنواع الحالات أن صعوبات النطق تشترك فيهـا عوامل جسيمة وعوامل نفسية ويمهد لظهورها طريقـة نمو الشخص وتكوينه • وهذه يشترك فيها عوامل بعضها وراثية وبعضها بيئية • والعامل النفسى الأساسى فى التهتهة هو التوتر النفسى المصاحب للقلق أو الخوف أو فقدان الشعور بالأمن أو الشـعور بالنقص • وقد وجـد « بيرت »[2] أن ٦٢٪ من الحالات التى درسها وعددها ٩٧ يوجد بها العامل

---

(1) Identification and Ambivalency

(2) C. Burt: The Backward child.

الوراثى لاستعداد عصبى عام ، وأن فى ٢٣ ٪ من هذه الحالات الأخيرة لم يكن الأطفال قد اتصلوا بآبائهم اطلاقا ، حتى يقال : ان التهتهة انتقلت اليهم عن طريق التقليد •

ووجد « بيرت » كذلك أن ٣١ من حالاته بها زوائد أنفية و ١٩ منها بها تضخم فى اللوز و ١٣ منها بها أسنان فاسدة ، وبين أن العامل الجسمانى اذا وجد فانه يكون عاملا مساعدا فقط •

وقدلاحظ كل من « بيرت [1] وبوم ورتشاردسن [2] » أن الأعمار الملائمة لظهور التهتهة هى سن الخامسة ، والسابعة أو الثامنة ، ثم الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، ويعلل هـذا بأن سن الخامسة هى سن بدء الذهاب للمدارس • أما سن السابعة أو الثامنة فهى سن الانتقال الى مرحلة جدية من التعليم ، وأما سن الثالثة عشرة فهى سن بدء مرحلة أخرى من مراحل التعليم ، وأهم من ذلك أنها سن بدء دخول المراهقة بصعوباتها النفسية المعروفة •

وقد لاحظ « بونهيم »[2] أن عددا غير قليل من حالات التهتهة يظهر فى السنة الثانية من العمر ، وهذا هو سن بدء تعلم الكلام وبدء اتقان التوافقات الحركية اللازمة له ، ويحتمل معها أن أى اضطراب انفعالى فى ذلك الوقت يؤدى الى اختلالها •

وقد لوحظ أن التهتهة فى البنين أكثر منها فى البنات ، وهذا الفرق يرجع الى فروق طبيعية فى كفاية أجهزة النطق وسرعة نضجها ، وقد يرجع الى أن الضغط التعليمى على البنين أكثر منه على البنات • كذلك لوحظ أن التهتهة أكثر انتشارا فى المدن منها فى الريف ، وهذا يرجع الى أن الأعصاب أكثر تعرضا للاجهاد فى المدن منها فى الريف •

مصاحبات التهتهة :

يلاحظ أن الطفل الذى يتعثر فى النطق يكون عنده شعور مكبوت بالنقص بسبب التهتهة ، فتجده يميل أحيانا الى الذلة والانكسار والانزواء ،

---

(1) Boome and Richardson: The Nature and Treatment of Stammering.

(2) Boenheim : Child Psychotherapy.

ويتصف عادة بالصفات التى سبق أن ذكرناها فيمن يمصـون أصابعهم • ويحدث أحيانا مع هذا محاولة لتعويض هذا الشعور فيبدو الولد جريئـا يحاول الاكثار من الحديث ويعوض تهتهته بأن يحكى قصصا مثيرة اذا أمكنه • وقام بعض الباحثين بتقسيم حالات التهتهة الى أنماط ، فوجدوا أن هناك نمطين : أحدهما وهو الغالب يتصف بأنه خجول ، جبان معتكف ، منعزل يميل للوحدة ، شديد الحساسية ، شديد الانفعالية • ويكون هذا النوع هزيلا نحيفا (Asthenic)(ص ٣٤) • وأما النوع الثانى ، وهو قليل ، فتجده جريئا ، متسرعا ، مندفعا فى أفعاله وفى كلامه • ولكن يخرج كلامه وتصدر منه أفعاله كالمقذوفات بشىء من السرعة والانطلاق • ويكون هذا النوع حسن الصحة سمينا لا نحف فيه • ويصاحب التهتهة عادة حركات عصبية عامة أو خاصة تنطلق فيها الطاقة المكبوتة • والتهتهة تؤدى عادة وظيفة دفاعية للشخص ، فالناس لا يوجهون اليه أسئلتهم بحجة أنه يتهته ، ثم انه قد يظن أنه يقنع من حوله بأن المسألة ليست صعوبة فى الفهم وانما هى فقط صعوبة فى التعبير ، وهى لهذا تؤثر أثرا سيئا فى الناحية التعليمية ، اذ لا يشترك صاحبها فى النشاط التعليمى الجمعى الاشتراك اللازم • وهى قد تؤثر كذلك فى الناحية الصحية ، فالذى يتعثر فى النطق تجده عادة هزيلا شاحبا ، ولعل هذا يرجع للجهد العصبى الضائع فى مجرد التوتر النفسى • أما النوع غير الهزيل فهو نادر كما بينا •

ويتأثر الذى يتعثر فى النطق بالمعاملة التى يلقاها ممن حوله • فان كان غيره يهزأ منه فان هذا يزيد شعوره بنقصه ، وان كان يعطف عليه ، فان عطفه يذكره بعاهته • ولهذا نجد الاحتمال كبيرا فى أن صعوبات النطق تجعـل الشخص شاعرا بنقصه شعورا مباشرا ، وشعورا مشتقا من مسلك الناس نحوه • ويترتب على هذا نوعان من السلوك كثيرا ما يجتمعان فى حالة تهتهة : نوع يدل على الخوف من الغير والانكماش منهم ، ونوع قد يدل على نقمته على الغير وكراهيته لهم • فأحيانا قد نجد التلميذ الذى يتعثر فى نطقه منكمشا فى المدرسة ، وان قام بنشاط فهو نشاط فردي فى الغالب ،

وقد نجده فى المنزل ناقدا لاخوته مشاكسا لهم • ومن أمثلة هذين النوعين من السلوك ، ما بدا من حالة طالب أشرنا اليه ضمن حالات التهتهة ، فبينما كان هذا الطالب منكمشا هادئا قليل الكلام كتب مرة فى كراسة الانشاء نقدا مرا للمدرسة التى كان يتعلم فيها اذ ذاك ، وحلل المجتمع والحكومة القائمة فى ذلك الوقت تحليلا يعتبر جريئا جدا (حالة ص ٣٢٢) •

المدرسة والتهتهة :

وتكون المدرسة فى بعض الأحيان مسئولة عن ظهور التهتهة عند بعض الأولاد ، وكثيرا ما تكون المدرســة جوا صالحا لتثبيت التهتهــة وزيادة وضوحها • ولعل سبب ذلك هو أن جو المدرسة يعيش فيه الطفل مــدة طويلة • ولحياته فيه أهمية خاصة بالنسبة لحفظ كرامتــه فى نظر نفسه ، وبالنسبة لمستقبله وشعوره بالأمن عند النظر اليه ؛ فان كان جو المدرسة يشعره مثلا بالفشل العقلى لعدم ملاءمة العمل له، أو لسعة الفارق بينه وبين زملائه فى الكفاية ، أو يشعره بالفشل فى اللغات بنوع خاص ، أو بالفشل الاجتماعى ، فان هذا يزيد حالة الخوف وحالة التوتر • واذا ظهر هذا الشعور بالفشل فى المدرسة فان المنزل عادة يزيده تدعيما مما يزيد الحالة سوءا على سوء • ومما يساعد على ظهور التوتر فى العلاقات بين المدرس وتلميذه شدة الاهتمام بالامتحانات وما تحدثه من قلق وما يترتب على ذلك من ارهاب وعقاب وارهاق بالعمل وتوتر عام فى الجو المدرسى كله •

ولكن من الأخطاء المعروفة فى الموضوع الذى نحن بصدده اطلاق الأسئلة على التلاميذ اطلاقا سريعا والالحاح فى طلب الاسراع فى الاجابات ، أو ارغام الطفل على سرعة الاجابة وهو فى حالة خوف أو غضب ، أو ارغامه على التزام الصمت فى الحال اذا كان يصرخ من ألم ، أو يبث شكوى ، أو يدفع عن نفسه ظلما ، أو ما شابه ذلك •

كذلك من الخطأ تعليم الأطفال لغات متعددة جديدة فى وقت واحد ، أو ما يحدث أحيانا من القفز فى تعليم اللغة القومية الصحيحة دون مراعاة للصلة بينها وبين اللغة الدارجة ، ولا لوجوب التدرج من هذه الى تلك •

والتلميذ الذى يتعثر فى نطقه تثبت عنده هذه الصعوبة اذا هزأ به اخوانه أو مدرسوه أو اذا أظهروا أنهم منتبهون للتهتهة أو متوقعون لحدوثها .

وقد لوحظ فى أحيان كثيرة أن طفلا أو طفلين يتهتهان تبدأ بهما فرقة دراسية معينة فى أول العام الدراسى قد تنتشر العدوى منهما الى عدد من الأطفال . ففى مدرسة مصرية كان فى فصلين خمسة أولاد يتهتهون من مجموع الأولاد وهو ستون ، وفى نهاية العام الدراسى زاد عددهم الى سبعة عشر ولدا . وربما يبدو أن هذه الزيادة وقدرها ٢٠٪ زيادة كبيرة ، لولا أن «بيرت» أيضا يذكر أن بين خمسين طفلا فى مدرسة ما ارتفع العدد من طفل واحد الى تسعة أطفال فى خلال السنة الدراسية ؛ أى أن الزيادة حدثت بنسبة ١٦٪ والعدوى بالتقليد لا تحدث الا اذا كان هناك أسباب كافية مهيئة لذلك .

علاج التهتهة :

تعالج بعض أمراض التهتهة فى الخارج فى مراكز خاصة لذلك ، لأن علاج التهتهة وصعوبات النطق بوجه عام يحتاج الى وقت طويل جدا فى كثير من الأحيان ، ولأن جو المدرسة العادى يعرقل تقدم العلاج ، اذ فيه يشعر الطفل بأنه أقل ممن حوله مهما كانت الطريقة التى يعامل بها .

ولكن كثيرا ما ينجح علاج بعض حالات التهتهة فى الجهات التى لا توجد فيها مراكز للعلاج والتى يمكن المعلم فيها تنفيذ تعليمات الاختصاصى المشرف على العلاج . وبعد بحث الحالة من نواحيها المختلفة يجب أن يتجه العلاج أولا الى الناحية الصحية فتقوية صحة الطفل — حتى فى النواحى التى ليس لها بصعوبة النطق علاقة مباشرة — تسهل العلاج الى درجة كبيرة . أما العلاج من الناحية النفسية فأهم ما فيه اعطاء المعالج ثقة فى نفسه . وقد لاحظنا أن الفرد الذى يتهته يتكلم عادة بسهولة وهو فى حالة تراخ (Relaxtion) . فاذا أمكن احداث حالة التراخى فى المريض ، وجعله يتحدث وهو فى هذه الحالة ، فان هذا يعطيه ثقة كبيرة فى نفسه . وفى أثناء تحدث المريض وهو فى حالة تراخ يمكن كشف بعض العوامل التى تسبب التهتهة ، وهذا يؤدى عادة الى تحسنه .

ومن أساليب انماء الثقة فى النفس أن يعود الشخص الذى يتكلم أحيانا فى مجتمع مدرسى أو غير مدرسى بأن يحضر حديثه تحضيرا جيدا ، لأن التهتهة فى كثير من الأحيان تكون فى مثل هذه المواقف العامة • ومن يهاب الكلام فى هذه المواقف العامة فليعد نفسه جيدا وليكتب ما يريد أن يقوله اذ أن هذا يساعد أولا على تحديده وثانيا على حفظه مما يجعله واثقا من نفسه قليل العرضة للتعثر •

فكأن العلاج يعتمد فى أساسه على الايحاء ، وعلى حل مصادر التوتر ومصادر المشكلات الانفعالية ، وعلى توجيه المريض توجيها يقلل من هذا التوتر • هذا التوجيه يعدل قدر الامكان اتجاه عقل المريض نحو الحياة ، ويعدل مجال حياته فى المنزل والمدرسة من حيث الفرص التى تعطى ، وسياسة التقدير ، وملاءمة العمل لاستعداد الشخص ، وغير ذلك من القواعد التى تضمن تحقيق الشعور بالأمن ، والثقة بالنفس ، وتضمن بعبارة أخرى توافر شروط الصحة النفسية المعروفة •

وبجانب تحسين الصحة العامة وتعديل مجال حياة الطفل وحل مصادر التوتر عنده ، لابد من تناول العمليات الآلية والمهارات اللازمة للنطق ، فيعلم صاحب الحالة طرق التنفس والاخراج والتنغيم وغير ذلك ، مما يتعلق بعلم حركات الكلام واخراجه •

ومن الخطأ أن يقتصر العلاج — كما يحدث أحيانا — على أن يعود الطفل صرف ذهنه عن عملية النطق بالقيام بحركة معينة كالضرب على جانب فخذه أو التوقيع بقدمه على الأرض أو غير ذلك • هذه الحركات لها أساس من الصحة ، وهى أنها تسحب كثيرا من الطاقة العقلية الموجهة لعملية النطق ذاتها ، فتنتج حالة تراخ متعلقة بها يسهل معها اخراج الكلام • ويمكن فهم هذا جيدا اذا علمنا أن انتباه المريض فى أثناء الكلام يكون عادة موزعا بين الفكرة ، وحركات النطق • وأما فى السليم فان الانتباه يتركز فى الفكرة ، وأما حركة النطق فانها تحدث بطريقة آلية صرفة • لهذا كان محتملا أن الانتباه الجزئى لحركة جديدة يحرر أجهزة النطق من تركيز الانتباه فيها •

ولكن وجه الخطأ فى هذا أن العــلاج ينصب على العرض دون السبب الأصلى • وما دام السبب الأصلى موجودا دون معالجة فان الانتكاس محتمل الظهور فى أى وقت •

خاتمة :

يتبين من دراسة هــذا الموضوع ودراسة سابقه أن صــعوبات النطق والحركات العصبية بوجه عام ليست مجرد اختلالات محلية خاصة بالمواضع التى تظهر فيها ، فصعوبة النطق ليست خاصة بالنطق فى ذاته • بدليل أن الذين يتعثرون فى النطق يتكلمون بطلاقة عندما يغنون ، أو يلعبــون ، أو يحلمون ، أو يتحررون من الخوف أو الرقابة ، وبدليل أن الأشخاص العاديين يتعثرون فى النطق أحيانا عندما يريدون التكلم مع الغير وهم فى حالة خوف ، أو فى حالة انفعالية أخرى يبرز فيها عنصر الخوف •

فالنطق نظرا لأنه أداة الاتصال الاجتماعى ، يعتريه الاختلال بحيث يترتب عليه صعوبة هذا الاتصال • ولم يتفق العلماء اتفاقا تاما بشأن العامل الأساسى المسئول عن صــعوبة النطق ، واختلفوا فى أى ظاهرة أخرى من ظواهر الشذوذ ، فبينما يرى البعض أنه يرجع لاختلال المراكز العصبية ، يرى البعض الآخر أنه يرجع لضعف التوافق بين سهولة التعبير وسرعة التفكير • واختلف كذلك علماء النفس المحدثون فيرى المحللون النفسيون منهم أن أساس التهتهة قلق مكبوت مرتبط أصلا بالشكوك والمخاوف المتعلقــة بالمسائل الجنسية • ويذهب « دنلاب »[1] الى أن التهتهة تحدث مع الألفاظ البذيئة أو ما يرتبط بها بأى رباط • ومدى هذه الألفاظ واسع للغاية • فهناك فى نظره كبت مرتبط باللغة الجنسية • ويرى آخرون أن القلق أو الخوف لا يخرج عن كونه عاملا مساعدا على جانب كبير من القوة ، ولا يفسر فى نظرهم صعوبات النطق فى جميع الحالات ، وبذلك يدخلون التقليد والوراثة والتأخر فى نضج أجهزة النطق ، وما الى ذلك •

ولكن الجميع اتفقوا ، رغم اختلافهم فى التفسير ، على طريقة العلاج •

(1) K. Dunlap: Journal of Abnormal Psychology, 1917.

فقد أجمعوا على أن التحليل النفسى وحده غير كاف للعلاج • فقد قرر بريل (Brill) أنه عالج ستمائة حالة تهتهة ، ولجأ الى طريقة التحليل فى تسع وستين حالة منها ، ولم ينجح الا فى أربع حالات ، وحتى هذه الحالات الأربع يقول عنها بنفسه : ان نجاحه فيها قد لا يكون راجعا اليه • ويلاحظ أن بريل من أكبر أنصار التحليل النفسى • وقد دعم رأيه فى ذلك الكثيرون[1] •

ويتلخص العلاج فى اعطاء الطفل ثقة فى نفسه بجعله يتحدث وهو فى حالة تراخ وبتمرينه تمرينا متدرجا على الكلام ، ويشترط أن يكون التمرين بما يناسب كل حالة على حدة • ويسبق التمرين على النطق عادة تمرينات على التراخى • ويجب بجانب هذا كله ، أن يدرس مجال حياة الطفل فى المنزل والمدرسة دراسة جيدة ، وأن تعالج هذه المجالات المختلفة بما يعطى الطفل شعور الهدوء والقوة والثقة بالنفس ، وبمـا ينمى شخصيته من جميع نواحيها •

معنى ذلك أنه الى جانب علاج العرض تعالج الشخصية كلها بنواحيها المختلفة • ويرى البعض أنه يجب الانصراف عن تركيز ذهن الطفـل فى الأعراض ، ولكن اذا اقتصر العمل على احداث هذا التركيز على القـائم بالعلاج دون غيره من والدين ومعلمين ، فان النتيجة النهائية تكون عادة فى صالح الطفل • وقد ثبت من خبرة المجربين أن الاقتصار على علاج الشخصية عامة دون الاتجاه الى العرض نفسه لا يؤتى ثمرات مؤكدة •

---

(1) Hollingworth : Abnormal Psychology; P. 440.

المراجع

Blanton : For Stutterers.
Boenheim : Practical Child Psychotherapy.
Boome and Richardson : The Nature and Treatment of Stammering.
Burt : The Backward Child.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
Lewis : Infant Speech.
Patri : Child Training.
Seth and Guthrie : Speech; Its Development and Disorders.
Stinchfield : Speech Disorders.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
Ward : Defects of Speech.

الفصل الثامن عشر

الخوف وضعف الثقة بالنفس

الخوف العادى والشاذ :

لاحظنا من دراسة ما تقدم من مشكلات السلوك ، سواء فى ذلك التهتهة أو التبول اللاارادى أو الحركات العصبية أو النوم المضطرب أن عاملا هاما يدخل فى أغلب أنواعها وهو عامل الخوف • ويرى كثير من المشتغلين بالعلاج النفسى أن الخوف لا يقتصر فقط على بعض هذه المشكلات ؛ وانما يوجد فى كل حالات اضطراب الشخصية سواء فى ذلك حالات الصغار أو حالات الكبار • فالخوف بصورة اما صريحة واما مقنعة يظهر — بحسب رأى ألرز (Allers) — فى مشكلات السلوك بمختلف أنواعها [1] •

ويرى فرويد أن الخوف أو القلق أساس جميع الحالات العصبية ، غير أن الخوف يرتبط فى رأيه بالمسائل والمواقف الجنسية وما يتعلق بها [2] •

وسواء أخذنا بهذه الآراء أو لم نأخذ فموضوع الخوف جدير بالدراسة ، لا سيما أن الخوف حالة يحسها كل انسان فى أثناء حياته • ونعلم أنه من الطبيعى للكائن الحى — سواء فى ذلك الانسان أو الحيوان — أن يخاف فى بعض المواقف التى تهدده بالخطر أو يصح أن تهدده به فاذا واجهتنى فجأة سيارة فى الطريق ، فلابد أن أشعر بالخوف ، واذا جرى خلفى كلب كبير وهو

---

(1) R. Allers says: « There is no case of characterological anomaly either in children or in adults, no case of dissociation, as in neurosis, no case of difficult upbringing, or of childish shortcomings, in which open or variously disguised fear does not lruk ». The Psychology of Character; p. 115.

(2) S. Freud in his Introductory Lectures on Psychoanalysis; p. 336, says. « It remains incontestible that for the average human being anxiety is closely connected with sexual restrictions ».

ينبح، فلابد أن أشعر بمثل هذا الشعور • فالخوف حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعر بها الانسان فى بعض المواقف ، ويسلك فيها سلوكا يبعده عادة عن مصادر الضرر • وهذا كله ينشأ عن استعداد فطرى أوجده الخالق فى الانسان والحيوان ، ويسمى كما قلنا غريزة • ولا بد أن يكون الخالق قد أوجد هذا الاستعداد الغريزى لحكمة تتعلق بصالح الكائن الحى • فالخوف هو الذى يدفعنا لحماية أنفسنا وللمحافظة عليها • فاذا كنا لا نخاف النار مثلا فقد تحرقنا ، واذا كنا لا نخاف الحشرات والحيوانات الضارية فقد تقتلنا ، واذا كنا نخاف الجراثيم فقد تفتك بنا • وهناك كذلك الخوف من الزلل ، وخوف الانسان على سمعته •• وما الى ذلك • ومن الطبيعى أن تقترن الحالة الشعورية الانفعالية — وهى الخوف — بالسلوك الملائم وهو الخلاص من الخطر • والحالات التى يفصل فيها بين الخوف والخلاص ويكتفى فيها بالشعور الانفعالى تعتبر حالات غير صحية •

فالخوف أمر طبيعى معقول ضرورى يؤدى الى حماية الفرد مما يجوز أن يسبب له ضررا • وجميع الطرق الوقائية التي نتخذها لوقاية أنفسنا عوادى الطبيعة ، أو المرض أو سخط المجتمع أو غير ذلك تدل على نوع من الخوف نسميه الحذر أو الحيطة ، ويصح أن نسميه الخوف الواقى ، ومما لا شك فيه أنه فى درجاته المعقولة صفة طيبة يجب الاتصاف بها •

واذا تأملنا أدركنا ان كان الخوف فى وقت ما حالة طبيعية أو شاذة • وحيث ان الشاذ هو ما يشذ عن المألوف أو يخرج عنه ، فالخوف الكثير المتكرر الوقوع لأية مناسبة يكون شاذا ، وكذلك تضخم الخوف فى موقف ما تضخما خارجا عن النسبة المعقولة التى يتطلبها هذا الموقف عادة يعد أمرا شاذا • فاذا وجدنا طفلا فى السابعة يخاف هبوب الهواء ، أو يخاف الصراصير أو القطط ، أو يخاف الظلام نعد هذا أمرا غير عادى • واذا وجدنا طفلا فى الثالثة يخاف الظلام قليلا نعد هذا أمرا عاديا ، ولكنه اذا خافه لدرجة الفزع والجزع ، ووصل فى انفعاله لدرجة ينقلب فيها اتزانه فلا شك أننا نعد هذا أمرا غير عادى • فكأن تضخم الخوف فى موقف ما تضخما خارجا عن الحد

المعقول ، وكذلك تكرر الخوف تكررا خارجا عما هو مألوف يعد أمرا شاذا يحتاج الى تأمل وفحص وعلاج •

وكذلك يمكننا أن نأخذ نقيض الخوف ، فانعـدام الخوف فى شخص ما أمر غير عادى ، وهو نادر للغاية ، ويغلب أن يكون سببه قلة الادراك • وذلك كالطفل الذى يكون فى سن الثانية ويرى لأول مرة فى حياته عقـربا تجرى قد يظنها (كما حدث بالفعل) لعبة لطيفة يحسن امساكها واللعب بها • والسبب فى ذلك أن الطفل لا يدرك خطر هذا الكائن المتحرك غير المألوف • وكثيرا ما يحدث أن يكون الطفل ضعيف العقل (Mentally Defective) فيقوم بأعمال تدل على عدم ادراكه مواقف الخطر أو الضرر • ومن أمثلة ذلك أن طفلا ضعيف العقل قفز ذات مرة من الطابق الثانى فى منزله الى الطريق العام • ونفس هذا الطفل أصيب فى رأسه بجرح كبير سال منه دم غزير لأنه كان يلعب ويمثل خروفا وأخذ يناطح درج سلم من الحجر مرات متوالية •

نرى مما تقدم أن لدينا خوفا معقولا من حيث درجته ، ومبلغ تكرره ، واكتمال حلقاته من انفعال وسلوك • ولدينا خوف شاذ من هذه النواحى الثلاث • والخوف الطبيعى المعقول مفيد لسلامة الفرد • وأما ما عدا ذلك فهو ضار بشخصية الفرد وسلوكه • وقد لاحظنا فى الفصول السابقة أن الخوف قد يكون من مظاهره الانكماش ، وعدم الجرأة ، والتهتهة ، وغير ذلك من الخصال المعطلة عن النمو •

انواع المخاوف :

يقسم « فرويد » [1] المخـاوف الى قسمين كبيرين : الأول ويسميـه المخاوف الموضوعية أو الحقيقية • والثانى ويسميه المخاوف العامة أو غير المحددة • والنوع الأول يرتبط فيه الخوف بموضوع معين محدد ، كالخوف من الحيوان أو من الظلام أو من الموت ••• أو غير ذلك • أما النوع الثانى فلا يرتبط فيه الخوف بأى موضوع • فحالة الخوف تكون كأنها هائمة عائمة لا تستقر على موضوع ما • وصاحب هذه الحالة الأخيرة متشائم

(1) Frend; op. cit P. 333.

حزين يتوقع الشر والرعب وسوء الطالع فى أى لحظة وفى أى شىء • ويسمى فرويد هذه الحالة باسم القلق العصبى (Anxitey Neurosis)• أما المخاوف الموضوعية فيقسمها فرويد الى ثلاث مجاميع ، بحسب ما يتوقعه الشخص العادى منها من خطر • فالنوع الأول يكون فيــه عنصر الخطر بارزا ، كالخوف من الثعــابين أو من النار • والنوع الثــانى فيه عنصر الخطر ؛ ولكن وقوع هذا الخطر يرجع للصدفة المحضة ، كالخوف من السفر فى قطار أو باخرة ، أو الخوف من دخــول زحام خشية انتقال مرض اليــه كالتيفوس ، أو الخوف من التلوث(Misophobia) والنوع الثالث ليس فيه عنصر الخطر اطلاقا ، كالخوف من الخنافس والصراصير ، والخوف من صعود الأماكن المرتفعة (Acrophobia) والخوف من السير فى مكان متسع كالميادين والحدائق (Agoraphobia) ،و الخوف من الأماكن المقفلة (Claustrophobia) الى غير ذلك •

ويقسم آخرون المخاوف بحسب واقعيتها ومثيراتها الى قسمين : أحدهما المخاوف الحسية أو الواقعية ، وثانيهما المخاوف الوهمية أو الذاتية أو غير الحسية •

مخاوف الاطفال ومصادر تكوينها :

ومن المفيد من الناحية العملية التربوية أن نقسم مخاوف الأطفال — وهى التى تهمنا — بحسب موضوعاتها الى حسية وغير حسية • فموضوعات الأولى يمكن الطفل ادراكها بحواسه المختلفة بخلاف موضوعات الثانية ؛ اذ لا يمكن الطفل ادراك حقيقتها • فمن النوع الأول الخوف من (الشــحاذ أو العسكرى) مثلا ، أو من بعض أنواع الحيــوان كالحصان أو القــرد أو الصرصور أو غير ذلك • أما النوع الثــانى فهو المخاوف غير الحسية كالخوف من الموت ، و الخوف من جهنم ، أو العفاريت ، أو الغيلان ، أو غير ذلك • ويمكن أن يضاف الخوف من الظلام والخوف من النوم فى حالة صغار الأطفال الى النوع الثانى • وسواء أكانت المخاوف حسية أو غير حسية فان الطفل — شأنه كشأن غيره — يخاف على العموم من الأمور الغريبة عنــه

غرابة كبيرة ، ويخاف كذلك من الأمور التى ترتبط فى ذهنه برباط الخوف .

من هذا تتبين بساطة الخطة التى يمكن اتباعها للوقاية من الخوف وعلاجه ، وهى توضيح الغريب وتقريبه من ادراك الطفل ، ثم ربط مصادر الخوف بأمور سارة محببة بدلا من ربطها بأمور تثير الخوف فحسب . فان كان الطفل يخاف الكلاب مثلا فيصح أن نساعده على تربية كلب صغير فيطعمه ويتعهده ويحميه ويلاعبه ويلاحظ نموه يوما بعد يوم .... الى غير ذلك ، ثم يصح أن نوجه ذهنه الى دراسة أنواع الكلاب ومزايا كل نوع وعاداته ، وأن نجمل له غرفته بصور لطيفة لهذا الحيوان . وبعبارة أخرى نجعله يدرك الكلاب وخصائصها ادراكا واضحا يربطها فى ذهنه برباط جميل وينمى اهتمامه بها وشوقه اليها . ويجب علينا كذلك أن نوقفه على مدى ما يجب أن يتبعه ازاء هذا الحيوان من حرص واحتياط .

ومن الأمثلة الواقعية أن طفلة فى الثالثة من عمرها كانت تخاف الخيل خوفا شديدا ، وتكرر منها الخوف بدرجة تلفت النظر . وبتحليل الموقف من وجهة نظر الطفلة أمكن الظن بأنها قد لاحظت أن وسائل النقل فى مجموعها هادئة قليلة الجلبة ، أما الخيل فانها عندما تدب بأرجلها تحدث صوتا عاليا ، فطبيعى أن تخاف الطفلة . وفى ساعة من ساعات هدوئها سألت والدتها (لماذا يفعل الحصان هكذا ؟) . وبالمناقشة اتضح أن الطفلة تريد أن تعرف الصوت أو مصدره . وكانت الأم قد فهمت ما تقصده ابنتها فقالت لها (لأنه لابس جزمة حديد) . فسألت البنت (ولماذا يلبس الجزمة الحديد ؟) . فقالت لها (لتحفظ أرجله) ، وحدث بعد ذلك أن ركبت البنت مركبات تجرها الخيل وكانت تنصت لصوت (الجزمة الحديد) ، ثم أبدت رغبتها فى رؤية (جزمة الحصان) ورأتها بالفعل ، وكان هذا مصدر سرور عظيم لها . ثم ظلت مدة تقلد حركة الخيل وتقلد أصواتها . وأصبح ركوب المركبات ، ورؤية الخيل ، والاقتراب منها ، أمورا محببة الى نفسها . وأدت هذه الطريقة الى زوال عنصر الغرابة ، وربط الموضوع فى ذهن الطفلة برباط الاهتمام والشوق واللذة . هذه حالة عادية يعرض مثلها كثير للآباء ويتبين منها كيف

أن خوفا نراه بسيطا ربما يكون مؤلما للطفل • والاحتمال كبير فى أنه قد يرسخ ويقوى بسوء التوجيه ، ومع ذلك يمكن بسهولة محوه وتحويله الى مصدر تعليمى قيم للطفل نفسه •

وبهذه المناسبة أشير الى أن بعض الآباء أو بعض الخدم يكتشفون غالبا خوف الطفل من أمر معين كالحصان أو الكلب أو القرد ، ويستغلونه اما لتسليتهم الخاصة أو لدفع الطفل للقيام بعمل معين ، أو الاحجام عن عمل آخر • أما تخويف الأبناء للضحك والتسلية من جانب الكبار فهذا أمر متكرر الوقوع ؛ فخوف الطفل من القرد مثلا قد يكون مثارا للضحك عند الكبار من اخوة وخدم وأحيانا من الآباء أنفسهم وما دام الأمر مصدرا للضحك والتسلية فلا غرابة أن يندفع بعض الكبار فيه لسرورهم الخاص على حساب تألم الصغار وانزعاجهم • وليس هناك أقسى من أن يجلس الوالد أمام ابنه ويثير خوفه ، والولد يصرخ والوالد يضحك • ومن المحتمل جدا أن يكون لتكرار مثل هذه المواقف نتائجه السيئة من حيث علاقة الطفل بوالده ، وفى شخصية الطفل وفى سلوكه بوجه عام •

ومما يقوى الخوف فى نفوس الأطفال استثارته لحفظ النظام أو لدفع الطفل لعمل معين ، أو منعه من القيام بلعب أو ضوضاء أو غير ذلك • فكثيرا ما يخوف الطفل ليقلع عن اللعب والحركة ليهدأ جو المنزل حتى يتمكن الوالد مثلا من النوم ، أو تركيز انتباهه فيما يشغله • وفرق بين أن يقلع الولد عن لعبه ونشاطه خوفا من العقاب ؛ وأن يفعل ذلك ليؤدى خدمة لوالده • وما دام المقصود هو هدوء الجو ، فيمكن توجيه الطفل للعب فى مكان آخر ، أو لنوع من اللعب أكثر هدوءا أو غير ذلك • والمهم أن يكون هناك تفاهم مع الطفل • وقد يظن أن الصغير لا يدرك المقصود فى مثل هذه المواقف ، والواقع أنه يدرك أكثر مما نظن • ويرى بعض الآباء والمدرسين أن أساليب التخويف والعقاب تنجح دائما أكثر من أساليب التفاهم فى الحصول على سلوك طيب من الأطفال • ولكن ليست العبرة بالسلوك الطيب وانما العبرة بالسلوك الدائم الذى يستمر مع الشخص طول حياته بعد انفصاله عن منزله

وعن مدرسته . والعبرة كذلك بالسلوك التلقائي المقصود لذاته ، وليست بالسلوك الذى يؤتى خوفا من عقاب الوالدين أو المدرسين وتوبيخهم .

وكثيرا ما يهدد الطفل الصغير فى مثل الأحوال التى أشرنا اليهـا بأن يقال له : « اذا لم تكف عن كيت وكيت فسيأخذك العسكرى أو الشحاذ أو الزبال أو القرد ، أو سنضعك فى الغرفة المملوءة بالفيران » . وتكون النتيجة أحد أمرين : اما أن الطفل لا يقلع عما يفعل ، ولا توقع عليه العقوبة ، فيكتشف بذلك ضعف الوالدين وعدم تحقيقهم لوعيدهم ، ويدرك مبلغ قوته عليهم تبعا لذلك ، واما أن يصدع بالأمر ، ويهدأ ، ويشل نشاطه ، ويشب جبانا خضوعا لغير سبب معقول . والنتيجة وبال فى كلتا الحالتين .

وقد قال لى طفل جرىء ذات مرة : « لقـد حبستنى المدرسة فى غرفة الفيران » . فدهشت وقلت له : « اذن ستقلع عما فعلت » . فضحك وقال : « لا ، لأنى عندما حبست قتلت جميع الفيران ، ولا مانع عندى من أن أحبس فى الغرفة مرة أخرى » ويبين هذا المثال مبلغ احترام الطفل الجرىء لهذا النوع من أساليب حفظ النظام ، ومبلغ استعداده للتمادى فى عبثه . وهذه النتيجة التى يكشف فيها الطفل خطأ من حوله من الكبار ، ويواجه فيهـا المواقف مواجهة صريحة جريئة — رغم ما فيها مما لا يروق أصـحاب الأساليب التقليـدية للتربية — خـير من النتيجة الأخـرى وهى الجبن والانكماش ، وضعف الشخصية .

ومن أخطاء الآباء المعروفة أنهم لاستثارة الخوف فى أبنائهم قد يربطونهم بأمر لم يقصد به أن يكون مخيفا ، وانما قصد به أن يكون مفيدا ، فالطبيب مثلا وهو انسان يقوم بخدمات انسانية واجتماعية مفيدة لمن يتصل به يستعمل اسمه فى كثير من الأحيان أداة للتخويف ، وكذلك الدواء والشرطى والمعلم والمدرسة . وهذه الموضوعات المختلفة التى يجب أن ترتبط فى ذهن الطفل بفائدتها وقيمتها الحقيقية . تستعمل أحيانا — كما قلنا — وسائل للعقاب أو لاستثارة الخوف فينقلب معناها فى ذهن الطفل فتصبح مصدر خوف له ، وتقل مقدرته على الاستفادة منها . فأحيانا يعاقب الطفل بأن يرغم على النوم ،

أو على المذاكرة ، أو بأن يعطى دواء ، أو توضع فى عينيه قطرة ، أو ما شابه ذلك . هذه كلها أشياء يجب أن تكون محببة للأطفال وأن يربوا على الاقبال عليها من تلقاء أنفسهم ، ولا يجوز أن تصبح رموزا للارهاب ووسائل للتخويف والعقاب .

ولعل أشد مثيرات الخوف ذات الأثر الثابت هى خوف الآباء أنفسهم ؛ فحالات الخوف كغيرها من الحالات الانفعالية تنتقل من فرد الى آخر بالتأثير . وهذا ما سبق أن سميناه المشاركة الوجدانية . ويدخل معها فى حالة صدور الخوف من شخص كبير عامل آخر وهو عامل الايحاء . ومن الأمثلة التى توضح ذلك أن معلمة كانت تلقى درسا فى روضة من رياض الأطفال عن الضفدعة ، وكانت هى تخاف الضفادع ، ولكنها تشجعت وأخذت معها ضفدعة فى صندوق صغير ، ولما فتحته قفزت الضفدعة ففزعت المعلمة وصرخت فصرخ كثير من الأولاد ، ورفض معظمهم بعد ذلك أن يقربوا الضفادع . هذه حالةخوف انتقلت الىالأطفال عن طريق التأثير ، فحالة الفزع انتقلت الى الأطفال بفعل المشاركة الوجدانية ، وبفعل ايحاء سلوك شخص له مكانته فى نظر الأطفال وانتقلت معها فكرة أن الضفدع حيوان مخيف .

وكثيرا ما يحدث أن يبدى بعض الآباء والأمهات خوفا وقلقا على أبنائهم ، وتنتقل هذه الحالة عادة الى الأبناء فيصبحون بذلك قلقين على أنفسهم . فاذا جرح الطفل جرحا صغيرا ، أو وقع على الأرض ، أو ارتفعت درجة حرارته تجد الأم تذعر وتظهر — بسخاء شديد — كل علامات الخوف من جرى وارتباك واصفرار الوجه وغير ذلك . ينتج عن هذا أن الطفل نفسه يذعر ، وبعد أن كان لا يشعر بأى ألم أو بألم قليل يمكنه تحمله ، يصيرعادة غير قادر على تحمل الألم . وفى العادة نجد الأسرة التى يقلق فيها الآباء على أبنائهم ينمو الطفل فيها وهو سريع التأثر ، شديد الحساسية لأقل ألم ، شديد الاهتمام بنفسه ، فاذا أصابه جرح صغير تألم وبكى وبالغ فى الاهتمام به ، واذا أصابه صداع خفيف اعتكف ، واذا شعر بارتفاع فى درجة حرارته نظر الى وجهه فى المرآة ليرى مبلغ صفرة لونه ، وتأمل لسانه ليرى ما قد

يكون عليه من علامات ، وجس نبضه ، وقاس درجة حرارته . وبهذه الطريقة يتضاعف مظهر المرض الخفيف الذى قد يكون لديه . ونجد عادة أن أسرا بمجموعها من هذه النوع تكون عادة سريعة التأثر ، كثيرة المرض ، وأفرادها مفرطون فى العناية بأنفسهم . ويغلب أن يكون هذا هو نوع الجو الذى تتكون فيه حالات الرعب من المرض (Hypochondria) .

وأعرف طفلا نشأ هذه النشأة بكى بكاء شديدا فى يوم ما وجرى الى أمه يقول لها ان رجله قد جرحت . فنظرت الأم الى الجرح المزعوم ، فاذا به لون أحمر وليس بجرح . وسببه أن الطفل كان يلبس جوربا جديدا أحمر اللون وابتل بالماء فترك أثرا أحمر على ساقه . فاذا لم يكن هناك جرح ولا ألم فمن أين ينشأ الخوف والتألم ولماذا الصراخ ؟ نشأ هذا من أن الطفل شديد الخوف على نفسه ، لأن من حوله شديدو الخوف عليه . وهناك من هـذا النوع أمثلة واقعية كثيرة منها أن فتاة احمر ذراعها وسبب هذا الاحمرار ذعرا شديدا . وفكرت بسببه فيما قد يتبع هذا الاحمرار من نتائج غـير محمودة . هذا مع العلم بأن السبب الحقيقى بسيط للغاية ، وهو جلوسها فى الشمس فترة طويلة . وحتى عندما ذكر لها ذلك لم يزل خوفها وظلت قلقة على نفسها يومين كاملين حتى زال أثر الشمس زوالا تاما . نشأت هذه الفتاة فى نوع الجو الذى نحن بصدده . وفى العادة نجد الخوف من الآلام الجسمانية ، والخوف من الأمراض ، والتعرض فى كثير من الحالات للأمراض «الهستيرية» ، ويمركز المرء حول نفسه» ، وخوفه عليها من كل طارىء خارجى، سببه امتلاء الجو المنزلى بالقلق والخوف على من فيه . ومن المهم أن تتذكر أن الخوف على من فى المنزل يكون فى العادة اسقاطا للخوف على الذات .

فلتكن اذن خطة الآباء والأمهات اذا أصاب أبناءهم شىء ما أن يكونوا عمليين فيلتزموا الهدوء ، ويضبطوا انفعالاتهم ويقللوا من جزعهم ، ومن كل ما يركز انتباه الطفل على ما أصابه من مرض أو غير ذلك وليقوموا بعمل ايجابى هادىء لتخفيف الاصابة وعلاجها .

ومما يساعد على اثارة الخوف عند الأطفال تشاجر الكبار ، كتشاجر

الأب والأم ، أو كثرة صخب الأب وغضبه . ولهذا كله تأثير سيىء لأنه قد يزعزع ثقة الطفل بوالديه ، وكثير من حالات الاضطراب العصبى فى الكبر تنشأ من تزعزع ثقة الطفل بالعلاقات التى بين والديه .

وهناك نوع من الخوف فى غاية الخطورة وهو الخوف من المسائل المجهولة غير الحقيقية أو التى لا يمكن للطفل ادراكها ادراكا حسيا ، كالغول وجهنم والموت . والخوف من مثل هذه الأمور يكون عادة أعمق أثرا فى حياة الطفل من الخوف من المحسوسات . والواجب هو عدم اثارتها اطلاقا واذا كانت موجودة فيجب البحث عن سبب تكوينها ، وازالتها من أساسها ، مع شرح حقيقتها — قدر الامكان — بما يلائم عقل الطفل ، أو السماح له على الأقل بالتحدث فيها وعدم كبتها باعطاء الموقف الصحيح ازاءها .

الخوف من الموت :

ومن أمثلة هذا النوع الخوف من الموت . ويصاب كثير من الأطفال به بدرجات مختلفة ، ويكون سببه أحيانا أن يعيش الطفل مع كبار يخاف أحدهم الموت بشكل بارز ، وقد يكون سببه أن يموت للطفل قريب أو رفيق له به صلة شديدة . والسبب الأصلى لهذا أن موت القريب المهم يهز فى الطفل ثقته فى بيئته التى يحتمى بها وينتمى اليها هزا عنيفا ، فتصبح دنياه فى نظره خلوا من الأمن . فكما ماتت جدته مثلا يصح أن يموت أبوه أو أن تموت أمه فى أى لحظة ، أى أن بيئته تصبح خلوا من القاعدة الثابتة ، مضطربة ، أو عرضة للاضطراب والانقلاب . وهذا يؤدى الى اضطرابه . وهناك سبب أصلى آخر هو أن موت القريب يهز ثقته فى نفسه فيشعر أنه يصح أن يموت هو فى أى لحظة . والسبب الثالث هو أن الموت ظاهرة غريبة غامضة فى ذاتها وليس من السهل على الطفل — بل على الكبير — أن يتصور نفسه فى حالة الموت ، أو فيما يحدث لجثته بعد الموت رغم معرفته الأكيدة بتعرضه له . ولهذا يطرد الناس هذه الفكرة عن أذهانهم ، بل لا يدخلونها فيها فى غالب الأحيان . ومن أهم أسباب خوف الأطفال من الموت ما يحاط به الموت مما يأتيه الكبار عادة من بكاء فردى وجمعى وغير ذلك مما تقضى به بعض

التقاليد ، فخوف الأطفال من الموت ليس كله خوفا طبيعيا وانما أغلبه مشتق من خوف الكبار وسلوكهم ازاءه •

وللحصول على بعض الوقاية للأطفال من هذا النوع من الخوف ، يحسن أن يكون بالمنزل أو فى خبرة الطفل المتكررة بعض الحيوانات • ولابد أن يموت بعض هذه الحيوانات فيدرك الطفل الموت بذلك ادراكا طبيعيا هادئا خاليا مما يحيط بموت الانسان عادة من انفعالات ، ومن محاولات لتخبئة الموت وظواهره من ناحية ، وتجسيمها من ناحية أخرى • ويحدث أن يسمع الطفل بوفاة جار ليس له به قرابة فيسأل والدته أسئلة عن الموت ومعناه وميعاد حدوثه •• الخ ، ويندفع الى السؤال بدافع الرغبة فى الاطمئنان • وهذه فرصة ذهبية للتحدث الهادىء مع الطفل عن الموت ، لأن الخوف من الموت يكون أسوأ أثرا اذا كانت الخبرات الأولى بالموت ترتبط فى ذهن الطفل بصدمة شديدة حادة تتعلق بقريب أو عزيز • ويحسن — قدر الامكان — ألا يحاط الموت بما يحاط به من تقاليد تثير فى الأطفال رعبا شديدا دون أن ندرك ذلك غالبا • واذا لم يكن هناك بد من متابعة هذه التقاليد ، فيحسن ابعاد الطفل عن جوها الى أن تنتهى • على أنه من الخطأ الفاحش ، اذا مات للطفل قريب محاولة التمويه عليه وعدم ايقافه على الحقيقة بمختلف الأساليب ، وذلك لأن التمويه والتغيير الفجائى يكونان مصحوبين بجو غير عادى يثير شكوك الطفل وحيرته • والحيرة أشد أثرا فى نفس الطفل من الصدمة الناشئة عن المواجهة المؤلمة للواقع •

الخوف من الظلام :

يمكن أن يكون خوف الأطفال من الظلام أمرا طبيعيا كما يمكن أن يكون غير طبيعى • ويجب أن يتجه العلاج منه بتعويد الطفل النوم فى الظلام ، وألا يكون بتعويده النوم فى مكان مضاء • وخوف الطفل من الظلام يكون عادة لارتباط الظلام فى ذهنه بالعفاريت أو ما شابهها مما يثيره الكبار • ولكن قد يكون الخوف من الظلام — كما قلنا — طبيعيا • وذلك لأن الطفل فى صغره له خيال قوى وخبرة ضئيلة ، ولأن الظلام نفسه يساعد على

ظهور الخيالات والأشباح • فالظلام فى ذاته لا يثير خوفا غريزيا فطريا وانما يخيف لما يستثيره فى الأطفال عادة بطبيعته من عناصر مخيفة ، وذلك لأنه ان كان الظلام حالكا فانه يكون فى ادراكه مجردا من الحدود والنهايات • وان كان الظلام جزئيا فان ما به من مرئيات يسهل أن تتحول فى نظر الطفل الى أشباح غريبة • فالطفل قد يقوم من نومه غامض الشعور والادراك ، وجو الغرفة يكون وسطا بين النور والظلام ، فيرى المشجب مثلا فى ركن الغرفة وفى أعلاه طربوش وعليه سترة فيخيل اليه أنه رجل • وربما هب الهواء وهز ذراعى السترة ، مما يساعد على وضـوح الصورة المتكونة للرجل فى خياله • واذا كان لدينا طفل يخاف الظلام فيمكن أن ينام فى غرفة بها ضوء ، ويقلل الضوء ليلة بعـد أخرى ، ولا مانع من أن يحتفظ بمصباح (سهارى) ، ولا مانع من (بطارية) يحفظها تحت وسادته ليضىء بها اذا شعر بالحاجة لذلك ، ثم يفهم الطفل بالدليل المحسوس وبالمناقشة أن الظـلام لا يدعو لكل هذا الخوف • ومن أهم العوامل التى تساعد على زوال الخوف من الظلام أن يكون الكبار أنفسهم ممن لا يخافون الظلام • ويصح ألا يعود الطفل الظلام فجأة وانما يعود بالتدريج • ويجب أن يراعى لوقاية الطفل أو علاجه من الخوف من الظلام نوع القصص التى تحكى له قبل النوم مباشرة ، فيجب أن تنتقى بحيث تخلو بقدر الامكان من عنـاصر الازعاج ، ويجب كذلك أن تمتنع استثارة الخوف عند الأطفال وهم فى الظلام ، لأن مجال الظلام يصعب على الأطفال تحديد موقفهم فيه ، خصوصا اذا اضطربوا •

القلق والخوف العام :

ونلاحظ فى بعض الناس قلقا أو خوفا عاما ، فنجد شخصا يخاف أى نوع من المخاطرة ويخشى مقابلة من لا يعرف ، ويخشى التكلم فى مجتمع ، ويخاف الامتحان • وهو يشك فى مقدرة نفسه فى كل خطوة من خطوات حياته • واذا درسنا حياة هذا النوع من الناس — وهو موجود بدرجات مختلفة — نجد أن من حوله من الكبار كانوا يحذرونه باستمرار أو ينتقدونه باستمرار

أويتبعون معه غير ذلك من الأساليب المسببة للقلق. وليس معنى هذا أن التحذير المستمر أو النقد المستمر لا يؤدى الا الى القلق ، وانما يحتمل أن يؤدى اليه أوا لى نقيضه . فهو اما أن يضعف ثقة المرء بنفسه ، أو ثقته بالناس فيقف منهم موقف المتحدى .

واجب الآباء ازاء مواقف الخوف :

ومن القواعد الوقائية الهامة التى يجب أن تراعى أنه اذا حدث لطفل ما حادثة مزعجة فلا يجوز أن تترك الطفل ينساها لأنه ينساها غالبا بفعل الكبت ، وبذلك تصير فى حالة لاشعورية ، ولكن أثرها لا ينتهى اذ يحتمل أن تصير مصدرا للاضطرابات النفسية . وقد حدث أن طفلا صرخ صراخا شديدا للغاية ، كله ذعر وخوف ، وظهر أن السبب فى ذلك أنه كان قد رأى قطته تأكل أولادها . هذا الحادث ربما كان يترك أثرا دائما فى نفس الطفل لولا أن من حوله عالجوا المسألة بكثير من الحكمة . وكان من أسئلته التى سألها فى ذلك الوقت : « هل كل أم تأكل أولادها ؟ » والظاهر أن الطفل خيل اليه أنه كما أن القطة الكبيرة أكلت أولادها ، فمن المحتمل ألا يكون هناك ما يمنع من أن الأم البشرية قد تأكل هى أيضا أولادها ، وعلى ذلك فقد تأكله أمه فى يوم من الأيام ، ولكن أفهمه من حوله اذ ذاك أن القطة الشرسة فقط هى التى تأكل أولادها . ثم ان الموضوع لم يترك لينسى ، بل كان من حوله يتحدثون معه فيه من آن لآخر ، ويطلبون منه أن يصف طريقة القطة عند أكلها لأولادها الى غير ذلك من التعليقات حول الحادث . وكان من المحتمل أن يقوم الكبار المحيطون بالطفل بالاستهزاء من خوفه من الحادث التافة فى نظرهم ، ويضحكون على سؤاله ، أو يجيبونه كذبا بأن كل أم تأكل أولادها الى غير ذلك ، مما يثبت آثار الخوف فى نفسه .

وعلى العموم ، فليتذكر الآباء والأمهات أن الخوف يتكون غالبا بالاستثارة والتكرار . فالقاعدة العامة اذن هى منع الاستثارة . وعليهم أن يتذكروا أن فهم الشىء على حقيقته وتكوين عاطفة طيبة نحوه من أهم العوامل التى يجب اقامتها لتعمل ضد الخوف .

ومن أهم القواعد التي يجب توكيدها أن الخوف ينتقل بالايحاء والمشاركة الوجدانية ، ولنتذكر أن ايحاء السلوك أقوى من ايحاء الألفاظ • فاذا أردت لأطفالك ألا يخافوا الدواء مثلا ، فلا معنى لأن تظهر علامات التألم وأنت تأخذ الدواء ، أو فى الوقت الذى تعطى فيه الطفل دواء ثم تطلب منه التجلد ازاءه • فعليك أنت أولا ألا تخاف هذه الأشياء ، وان كنت تخافها فلترض نفسك على تحملها ، واذا استحال عليك ذلك فاستر خوفك عن أطفالك • ومن الوسائل السهلة التطبيق التشجيع الجمعى ، فتعطى مثلا طفلا شجاعا دواء تحت تأثير التشجيع أمام آخرين ، ثم تعطى الآخرين دواءهم بعد ذلك تحت تأثير التشجيع أيضا ، وبالتكرار تجد أن هذه الأشياء تنفذ بسرعة وسهولة ، وعلينا أن نتذكر فى مثل هذه المواقف ما يحسه الأطفال من نشوة عند التغلب على الخوف •

ويجب على الآباء أن يروضوا أنفسهم على عدم القلق على أبنائهم ، أو أن يخفوا عنهم قلقهم ان كان خارجا عن ارادتهم ، وأن يقللوا من التحذير والمبالغة فى النقد وأن يمتنعوا عن الاستهزاء بالأطفال والسخرية بهم •

وعلى الآباء أن يتذكروا كذلك أن أغلب أخطائنا فى تربية الطفل سببها أن المرء ينسى ما كان فيه من عالم الطفولة بسرعة وسهولة • فعالم الأطفال عالم دقيق الحس سريع التأثر ، شديد الانفعال ، قليل الادراك ، نادر الخبرة ، ضئيل الحيلة • وهذه من أهم العوامل التى تسهل احتمال نمو الخوف بصورة غير سوية •

ضعف الثقة بالنفس :

ويرتبط بموضوع الخوف ارتباطا شديدا صفة كثيرة الشيوع وهى ضعف الروح الاستقلالية فى الأفراد • ويكون هذا دالا فى الغالب على فقد الأمن أو وجود الخوف • ومن مظاهر هذا الضعف التردد ، وانعقاد اللسان فى المجتمعات والتهتهة واللجلجة ، والانكماش ، والخجل وعدم القدرة على التفكير المستقل ، وعدم الجرأة ، وتوقع الشر وزيادة الخوف وشدة الحرص ، وتضييع الوقت بعمل ألف حساب لكل أمر — صغيرا كان

أو كبيرا — قبل البدء فيه حتى لا يخرج منحرفا قيد شعرة عن الكمال .
ومن الغريب أن من مظاهره كذلك التهاون والاستهتار وسوء السلوك والاجرام .

وهذه الصفات كلها يجمعها أو يجمع ما وراءها ما يسميه الناس عادة شعورا بالنقص أو ضعف ثقة بالنفس أو جبنا .. أو ما الى ذلك . ولا شك فى أن هذه الخصلة الهدامة للرقى المفككة للشخصية ، انما تتكون عادة فى السنوات الأولى من حياة الطفل ، ويغرسها فى نفسه أعز الناس اليه وأقربهم الى قلبه ، وهما الوالدان .

الثقة عند الطفل الصغير :

وأول ما نلاحظه أن الطفل الصغير العادى يعيش عادة فى جو كله أمن واطمئنان . فحاجات الطفل كلها مشبعة ورغباته مجابة . فاذا صرخ فان الأم تهرع اليه لترضعه ، أو لتغير له الملابس أو لتدفئه فى حالة البرودة ، الى غير ذلك مما يحتاج اليه . فالطفل الصغير عادة لا يرفض له طلب ، ولذا نجده يبدو كأنه يتحكم فى دنياه ، فهو يأمر ويصرخ ولا يصبر حتى تحضر له أمه فى تأن وهدوء ، وانما يرفس ويصرخ بعنف والحاح الى أن يجاب طلبه ؛ فكأن نفس الطفل تشعر بشىء كثير من الاطمئنان الى من حوله والثقة بهم ، وكأنه يشعر شعورا ضمنيا بأن من المسلم به ألا يرفض له طلب بحال من الأحوال .

ولكن يلاحظ أن الطفل قرب السنة الثانية يتعلم المشى والكلام ، ويزداد نشاطه ، وتكثر حركته ، ويكون مملوءا ثقة بنفسه وتزداد رغبته فى اللعب والصياح والحركة ، ويتضاعف شوقه للمس الأشياء وفحصها . وهو لا يعرف منعا ولا زجرا . ولكن ازدياد النشاط عنده لا يجد من الكبار عادة تشجيعا ولا قبولا . فالحركة واللعب ولمس الأشياء وفحصها — خصوصا ان كانت مما يملكه الكبار ويقدرونه — تجد معارضة ومقاومة . فكلما لمس شيئا منعه الكبار ، وكلما صاح ضربوه ، وكلما فعل ما لا يروقهم زجروه .
والمنع والضرب والزجر وما الى ذلك كلها أمور جديدة بالنسبة للطفل فى

هذه السن ، فلم يكن يألف منها شيئا من قبل ، ولم يكن يعرف غير السعادة ، والرضا والطمأنينة • وأما الآن فهذا كله يقل ، أو ينعدم ، ويحل محله اضطراب نفسى ، وقلق داخلى ، وشعور بفقد السند ، وفقد ما كان عنده من قوة يسخر بها من حوله لقضاء مصالحه واجابة مطالبه •

فكأن هذا الانتقال الفجائى فى المعاملة — وهو يحدث عادة حوالى السنة الثانية من حياة الطفل ، ويحدث دون قصد سيىء من الوالدين ، بل قد يحدث وفيه قصد التوجيه والتأديب والتربية — هو الذى ينقل الطفل من الامتلاء بالثقة الى فقدها ، ومن الايمان بالقوة الشخصية الى التشكك فى وجودها • فيجب أن تكون القاعدة الأساسية أن الانتقال فى المعاملة من السنتين الأوليين الى ما بعدهما — بنوع خاص — يجب أن يكون انتقالا تدريجيا ، وأن يعطى الطفل الفرص الكافية لتصريف ما عنده من النشاط فى جو تتوافر فيه العوامل المحققة لحاجات الطفل النفسية من تقدير وعطف ونجاح وحرية وتوجيه وشعور بالأمن والاستقرار •

بعض العوامل الطبيعية للشعور بالنقص :

ويلاحظ كذلك أن مجموع الظروف المحيطة بالأطفال تجعلهم عادة يشعرون بشىء غير قليل من النقص ، فالطفل بطبيعة طفولته نظرا لصغر جسمه ، ونظرا لضعفه ، ونظرا لاعتماده على والديه ، ونظرا لقصور ادراكه يشعر بأن أمه وأباه بنوع خاص مخلوقان قويان عظيمان ، وبالتالى يشعر بأنه فرد ضعيف • ولذا نلاحظ أن نفس الطفل تشتاق للكبر ، وتتعطش للنمو وكسب القوة • فهو يقلد أمه وأباه فى كل أمر تقريبا ، لأنه يريد أن يكبر مثلهما ، وهو يفرح لأى ظاهرة عنده من مظاهر النمو ، فاذا شعر مثلا بأنه صار قادرا على أن تصل يده الى الصنبور أو الى مزلاج الباب بعد أن كان غير قادر على ذلك فان هذا الشعور يكون مصدرا عظيما للنشوة والفرح ؛ فكأن ضعف الطفل وقوة من حوله يشعرانه بقلته ونقصه وضعفه • ولكن يتضاعف أثر هذا العامل الطبيعى بفعل بعض التغيرات الحادثة فى مجال حياته كتكرار الحوادث التى تقع بفعل القضاء والقدر أو بفعل معاملة الوالدين •

العصور الجسماني والعقل :

وقد يكون لدى الطفل بالاضافة الى ضعفه الطبيعى الذى يشترك فيه مع بقية الأطفال نقص جسمانى خاص به كالحول ، أو العرج ، أو العسر ، أو النحافة ،أو البدانة ، أو فرط القصر ، أو فرط الطول ، أو تشوه جسمانى معين ، أو غير ذلك . ويجب فى هذه الحالات أن يكون موقف الكبار مع الصغار موقفا عاديا ، كأن الطفل ليس به شىء غريب اطلاقا ، فلا تجوز الموازنة ، ولا تجوز السخرية ، ولا يجوز العطف الزائد . فالعطف الزائد من شأنه أن يركز انتباه الطفل على عاهته ، بل يجب أن يكون سلوك الكبار من هذا الطفل كسلوكهم مع أى طفل آخر ، فأى سلوك غير السلوك العادى يصح أن ينتج لنا شخصا منكمشا ، راكدا ، متباعدا ، منزويا ، غير ميال للنشاط ، أو شخصا ناقما ، ثائرا ، يتجه فى كثير من الأحيان بنقمته وثورته ضد المجتمع وأنظمته وآدابه ، وتقاليده . هذا كله من ناحية الشعور بالنقص المتكون من الضعف الجسمى ، وأهم ما يراعى فيه أن حساسية الطفل لنقصه أو لموقف الكبار نحو نقصه الجسمى ، حساسية كبيرة للغاية ، فليكن موقفنا الوقائى ازاء الصحة النفسية للطفل أن نضمن أولا صحة الطفل الجسمانية ، وأن نساعده على أن يشعر بقوته وصحته شعورا معقولا معتدلا .

وهناك نوع آخر من الشعور بالنقص ، وهو الشعور بالنقص العقلى أو بالضعف العقلى ، فمن الجائز أن يتأخر الولد عن زملائه فى المرحلة الدراسية كأن يجد نفسه فى سنة دراسية كل أطفالها أصغر منه فى السن . ووجوده فى هذه البيئة قد يشعره بالبؤس ويفقده احترام نفسه وتقديره اياها . ومن الجائز أن يكون سبب التأخر هو كثرة تنقلات الوالدين من جهة الى أخرى ، وبالتالى كثرة تنقل الطفل من مدرسة الى أخرى ، وارتباكه فى تحصيله العقلى تبعا لذلك . فاذا حدث هذا التأخير ، وكان المعروف أن ذكاء الطفل يسمح له بالتقدم فيحسن مساعدته حتى يصل الى المستوى المناسب له ، ثم يترك بعد ذلك ليشق طريقه بنفسه . ويحسن أن يقف الطفل على الأسباب التى أدت الى تأخره ، فكثيرا ما تغيب هذه الأسباب عن ذهن الطفل بل عن ذهن

الوالدين أنفسهم . ووقوف الطفل والوالدين والمعلمين على عوامل تأخر الطفل يجعلهم أقدر على التحكم فيها . ومن الجائز أن يتصف الطفل بقصور حقيقى فى استعداده الادراكى . وفى هذه الحالة لا يجوز وضع الطفل فى عمل دراسى أكثر مما يتحمله مستواه الادراكى ، لأنه سيشعر دائما ازاءه بضعفه وعجزه وعدم مقدرته .

ومن أحسن ما يقوى فى الطفل ثقته بنفسه نجاحه وشعوره بالنجاح ، فاذا قام بعمل ونجح فيه فهذا هو أحسن حافز له على مواصلة العمل والنشاط ، فاذا كنت تكلفه عملا ما فمن الجائز أن يكون العمل صعبا جدا فييأس أمامه ، ويظن أنه ضعيف ومن الجائز أن يكون العمل سهلا جدا لا يشعر الطفل معه ببذل المجهود ، أو بلذة النجاح ، وينشأ عنده احتقار للعمل أو شعور بالغرور . فيحسن أن يكون العمل الذى يكلفه عملا أعلى من مستواه بحيث يتحدى قواه العقلية ونشاطها ، وبحيث يهيىء له فرصة للنجاح ، وبالتالى فرصة احترام نفسه لنجاحه . وهذا هو نوع النشاط الذى يحفزا لى الاستمرار فى النشاط بعد ذلك .

أثر الموازنات :

ومما يثبط همة الطفل أن نحط من قيمته بالموازنة . فكثيرا ما يوازن الآباء بين طفل وطفل آخر بقصد تحميس الطفل المتأخر الى العمل والنشاط وهذا النوع من الموازنات يأتى غالبا بأسوأ النتائج .

ومن بين الحالات التى عرضت لنا حالة ولد متوسط الذكاء وله أخت تصغره سنا وتفوقه ذكاء ، وكان الوالدان يوازنان علانية بينهما موازنة تشعر البنت بأنها قد بلغت الذروة وتشعر الولد بأنه قد هبط الى الحضيض . وهكذا ثبطت همة الولد ، وانكمش فى نفسه ، وتراخى فى عمله ، وتشجعت البنت ، وتقدمت فى عملها ، وكلما ازدادت الموازنة زاد الولد تألما ، وزاد انحرافا عن عمله ، وزادت البنت نشاطا وتحمسا فى عملها . فاذا نظرنا لهذا الولد وجدنا أن كل ما حوله يفقده شعوره بالقوة فهناك توبيخ الوالدين ، وهناك رسوبه ونجاح أخته . وهذا كله يترك فى الطفل آثارا يترتب عليها شعوره بعدم الجدارة ، وبنقص الكفاءة ، وبعدم القدرة على العمل .

وكان الولد يعمل فى الظاهر أحيانا ويستذكر ، ولكنه يقول أنه يستذكر ولا يفهم ، وانه اذا جلس يستذكر يتشتت فكره ، ويطير عقله ، ويشرد انتباهه مما أمامه . وعقل الولد فى هذه الحالة مقسم بين قوتين : احداهما الرغبة فى النجاح والتفوق ، والأخرى شعور خفى يستولى عليه ، ويمزق جهوده ، ويشعره بأن الاخفاق أمر لابد منه . والولد فى كل هذا مخلوق بائس يرغب ويعجز عن تحقيق رغبته ، ويعقد النية ولا يقوى على تنفيذها . وهو لايدرك سر القوى الخفية التى تعمل بداخله ، والتى هى من غرس الجو المنزلى المحيط به ، والتى تجعله غير قادر على العمل . وبالاضافة الى هذا فان الأب والأم لا يسمحان له بالاشتراك مع بقية الأسرة فى الحديث أو الفسحة ، أو المجالسة ، أو غير ذلك . وكل هذا بالطبع يزيد فى شعوره بنقصه وعدم جدارته .

وطفل آخر له أخ أصغر وأذكى منه بكثير . ذكاء الأكبر أقل من العادى بدرجة ضئيلة . بدأت الموازنة بين الأخوين بتشجيع الوالدين للأصغر وتقريبه منهما . والعطف عليه ، واقصاء الأكبر والاكثار من توبيخه وضربه وحرمانه من كل امتياز . كل هذا اذا أضيف الى شعور الطفل باخفاقه الدراسى ، لا يربى فيه شعورا بالقوة ، بل يهدم فيه كل ما يمت للشعور بالقوة بصلة . وخير لوالد هذين الطفلين وأمثالهما أن يدرك أن الاخوة يختلفون فى قواهم العقلية ، وأن الواجب توجيه كل للتعليم الذى يلائم قواه العقلية . فاذا اتجه الأصغر للتعليم الثانوى المعروف يصح أن يتجه الأكبر للتعليم الصناعى ، مع احترام نوعى التعليم فى نظر كل من الطفلين .

ويجب أن تكون القاعدة هى عدم الموازنة ، وأن يستبدل بالنقد والتوبيخ والزجر وما الى ذلك تشجيع الطفل واشعاره بما فيه من النواحى الطبيعية وابراز هذه النواحى بصورة عملية محسوسة . وليس من المعتاد أن تكون الموازنة دائما صريحة . فقد تكون ضمنية ، اذ يكون جو المنزل أحيانا بحيث يشعر بالمحاباة ، وتقريب طفل وابعاد الآخر ، واظهار علامات الحب وعلامات الاستلطاف لطفل دون الآخر . فالمساواة فى المعاملة قدر الامكان شرط أساسى لاعادة الثقة فى البيئة المحيطة ، واعادة الثقة فى الذات .

ويحدث أحيانا أن يكون هناك طفل يعادل مستوى ذكائه مستوى ذكاء

طفل آخر أكبر منه في السن بكثير • هذا الطفل يجد نفسه غير قادر على التعامل مع من يساوونه ذكاء لأنهم عادة أكبر منه جسما وأقوى بأسا ، ويجد نفسه كذلك غير قادر على التعامل مع من يساوونه سنا ، لأنهم أقل منه ذكاء ولهذا تضعف ثقته بنفسه ، لأن الثقة بالنفس — خصوصا في هذه السن الصغيرة — تكون مبنية على المقدرة الجسمية • وهذا ما يؤدي الى شعور المتفوقين في ذكائهم بالحساسية وضعف الثقة بالنفس رغم التفوق العلمي • وتعالج هذه الحالة في الخارج أحيانا بافراد فصول خاصة للمتفوقين في ذكائهم •

اعتماد الطفل على نفسه وعلى غيره :

ولعل من أكبر أخطاء الآباء أنهم لا يتركون الأطفال يفكرون لأنفسهم ، أو يعملون لأنفسهم • فبعض الآباء يتدخلون في تفكير الطفل وحديثه وعمله ولعبه بمناسبة وبغير مناسبة • وواجبنا أن نترك الطفل يكسب كثيرا من خبراته بنفسه ، فنتركه يلعب ، ويتسلق ، ويجري ، ويقفز ، ويفحص عن الأشياء ، ويجرب •• الى غير ذلك • ولكن الآباء كثيرا ما يخافون على الطفل ، ويمنعونه من عمل هذا ولمس ذاك بقصد حمايته • ولكنهم بهذه الحماية التافهة يفقدونه صفات استقلالية هامة لنأخذ مثلا عاديا وهو رغبة الطفل في الدق ، أو في القص • ومعروف أن الطفل تشتاق نفسه لمثل هذا النوع من النشاط ، فيعمد الآباء الى ابعاد (الشاكوش) أو المقص عن الطفل ، ومنعه من اجراء تجاربه ، وكسب خبراته ، خوفا عليه من أن يجرح أصبعه • ولكن حتى اذا جرح الطفل نفسه ، فهذا يكون مدعاة لتعليمه الطرق الصحيحة لاستعمال هذه الأدوات • وجرح صغير في الأصبع يستمر أثره يومين أو ثلاثة أقل أثرا في تكوين الطفل من جرح كبير دائم يتناول ثقته بنفسه ، ويضعف أهم ركن من أركان شخصيته •

وبعض الآباء لا يتركون الطفل الصغير يطعم نفسه ، أو يلبس نفسه • وحجتهم في ذلك أنهم اذا أطعموه فانهم يوفرون على أنفسهم بعثرة الطعام ، واتساخ الملابس ، ولكن الطفل اذا أطعم نفسه ، أو ألبس نفسه فانه يكسب مهارات يدوية بسرعة كبيرة ، ويكسب عادات الأكل الصحيحة في زمن قصير • ويشعر بالاضافة الى ذلك بمقدرته وقوته التي زادت عنها في أيام الطفولة الأولى ويوفر كثيرا من وقت أمه في المستقبل •

وبعض الأمهات يذهبن فى مساعدة أبنائهن الى حد بعيد جدا ، فالى سن السابعة أو الثامنة يلبسن أطفالهن الملابس • وأعرف أما من نوع هذ النوع كانت لا تترك لابنها (وكان فى سن السابعة) شيئا يعمله قط ، فهى تلبسه ، وتطعمه ، وتوصله الى المدرسة • ولما قوبل الطفل وسئل عن اسمه تبرعت بالاجابة عنه • هذا الطفل يشعر شعورا خفيا بضعفه الشديد ، ويشعر بحاجته دائما الى المعونة ، وبالاضافة الى ما تقدم فان الولد له أخت تجد من الأم معاملة حسنة جدا ، فالأم تقول : ان البنت حسنة ، وأنها تسمع الكلام ، الى غير ذلك وأما الولد فانها تصفه بجميع الصفات السيئة ؛ فالى جانب أنها تشعر بضعفه بعدم تركه يعمل شيئا لنفسه ، تشعره أيضا بعدم جدارته بموازنته بأخته موازنات سيئة • فالنتيجة أن الولد شذ فى سلوكه من نواح عدة ، بحيث أصبح من الصعب علاجه الا اذا أقلعت الأم عن خطتها فى كثرة المساعدات وفى التفرقة فى المعاملة بينه وبين أخته (حالة صفحة ٢٨٣) •

ومن نوع المساعدة التى تفقد الطفل ثقته بنفسه ارسال خادم أو غيره لحراسة الأولاد عند ذهابهم للمدرسة وايابهم منها الى سن متقدمة ،وكذلك الدروس الخصوصية فى بعض الحالات ، واعطاء النقود ثم الاشراف على انفاق كل مليم منها ، والتفكير للطفل فى نوع التعليم الذى يجب أن يتعلمه ولون الحلة التى يلبسها ، والصديق الذى يختاره لنفسه •• الى غير ذلك مما يبالغ فيه الآباء أحيانا مبالغة كبيرة ، ويترتب عليه اما تكوين أفراد ضعفاء جبناء مترددين ، أو تكوين أشخاص ثائرين متمردين ميالين للتحكم والاستبداد ، أو تكوين أفراد يجمعون بين هذين الاتجاهين المتناقضين • وتأخذ ثورة الفرد ضد هذا النوع من المعاملة أبرز صورها عادة فى دور المراهقة والسنوات الأولى من البلوغ •

السلطة الوالدية :

يفرض الآباء على الأبناء أحيانا سلطة جائرة • والشغف بالسلطة يكون فى الغالب مظهرا من مظاهر الضعف المستتر • فيتحكم الكثير من الآباء فى الطفل ويشعرونه بأنه لا حول له ولا قوة بجانب سلطتهم وقوتهم ، ويرغم الطفل اذ ذاك على اطاعة الوالد دون أن يفكر أو يتردد ، أو يتأمل • فيطلب

الوالد من الطفل اطاعته من أجل مجرد الطاعة ، لا لغاية أخرى أهم منها • وكذلك ترى الكبار يسخرون من الصغار ويستهزئون بهم وبقوتهم العاجزة وتفكيرهم القاصر ، ويجعلون من ضعف الطفل وعدم اكتمال نموه مصدرا لسرورهم وتسليتهم كل هـذه الأموز من - آثار للاحسـاس بالضعف الطبيعى ومن سلطة جائرة ، وطلب للطاعة العميـاء ، وتهكم واستهزاء — تفقد الطفل أهم سلاح يجب أن نسلحه به وهو الثقة بالنفس • والى كل ما تقدم نضيف جفاء الكبار ، وعدم اظهارهم عطفهم • ويبالغ بعض الآباء فى مخاصمة الأبناء ومقاطعتهم ، أو ابداء اهمالهم اياهم ، فيحدث أحيانا أن نجد الوالد مثلا يتحـدث الى شخص آخر ، ثم يجىء الصغير يطلب من الوالد شيئا ، فيهمله اهمالا تاما ، وربما لا يدرك وجوده • ويحدث غالبا أنه ينهره ويبعده ويزجره ولا يستمع له •

ليس معنى هذا أننا نريد أن يربى الطفل على مقاطعة الناس فى أحاديثهم ، وانما معناه ألا يهمل باستمرار ، فيشعر على الأقل أننا نحس وجوده • وأما تكرار اهماله وعدم اقامة أى اعتبار لوجوده فانه يشعره بأنه ليس جديرا بالالتفات اليه ، ويشعره بأنه مخلوق حقير أو على الأقل بأنه ضعيف عديم القوة • هذا النوع من المعاملة لا يسهل على الطفل تكوين عاطفة احترام الذات ، وهى المركز الذى تنمو حوله الشخصية نموا متزنا •

ومن أخطر مظاهر السلطة الوالدية تذبذبها ، مما يزعزع ثقة الطفل بها وقد يترتب على هذا اضطراب ثقة الطفل بنفسه •

العلاقات بين الوالدين :

ومن أهم العوامل التى تجب الاشارة اليها الجو المنزلى نفسه • فاذا كان الجو المنزلى مليئا بالمحبة والعطف والهدوء والثبات يكون الطفل فى الغالب مطمئنا على نفسه • ويلاحظ أن شعور الطفل بقوته وثقته بنفسه وظهوره بمظهر الاستقرار والثبات يعكس صورة منزل تسوده العلاقات الطيبة • وأما الاضطراب المنزلى والمشاجرات والمنازعات بين الآباء فانها من أقوى العوامل التى تؤدى الى فقدان ثقة الطفل بنفسه • نتيجة لفقدانه اطمئنانه الى الجو المنزلى •

وقد يقول قائل : ومن يدرى الطفل بما بين والديه من نزاع ؟ ولكن الطفل حساس للغاية فهو يلتقط ما فى جو المنزل بنوع غريب من الالهام يطلق عليه المشـاركة الوجدانيـة والايحاء • فليكن جو المنزل متصفا بالطمأنينـة والثبات والاتزان، ولتكن سلطتنا مع الطفل مشبعة بروح الحرية والصداقة[1] دون أن تفقد شيئا من الحزم فى التوجيه •

وقد تصل العلاقات بين الوالدين الى درجة أن يتعلق كل منهما بالآخر تعلقا يهمل معه الأولاد • وينسى بعض الآباء واجبهم الى حد أنهم يتغازلون أحيانا أمام أطفالهم • وكثير من الاضطرابات العصبية ينشأ بسبب هذا النوع من المواقف •

التربية والروح الاستقلالية :

لا يقصد بوجود الطفل فى حضانة والديه مدة طويلة أو قصيرة الا أمر واحد ، وهو وجوده فى جو آمن يحميه فى أثناء مراحل النمو الأولى ؛ ولكن لا يجوز أن تصل الحماية الى الحد الذى يجعله غير قادر على الاستقلال بنفسه • ويمكن النظر الى نمو الطفل على أنه سلسلة من الانفصـالات أو الاستقلالات • فالطفل يقضى شهوره الأولى شديد الالتصاق بأمه ، ثم ينفصل عنها انفصالا جزئيا ليتصل ببقية أفراد الأسرة ، ويساعده فى ذلك المشى والكلام ، ثم ينفصل عن أفراد الأسرة انفصالا جزئيا ليتصل برفقائه اتصالا جزئيا ، وتزداد صلته برفاقه تدريجيا الى أن يصل الى دور المراهقة ، حيث تبلغ هذه الصلة أعلاها ، ويصبح شديد الولاء لمجموعة معينة من الناس ، ثم ينفصل عن هؤلاء انفصالا جزئيا ليتصل بالمجتمع الأكبر • فيكون معنى التربية الاستقلالية هو تكوين شخص يعتمد على نفسه فى الفكر والعمل ، ويتصل بالمجتمع ويشعر بمسئوليته نحوه وبحقوقه عليه ، وينسجم مع المجتمع بحيث لا يتلاشى فيه ، بل يحتفـظ بفرديته ، ويشـعر بالأمن الشخصى ، ويتصف بروح الاقدام ، والمخاطرة ، والشعور بالثقة بالنفس • والثقة بالنفس لا يقصد بها الغرور ، فالغرور هو تقدير المرء لنفسه تقديرا أعلى من الحقيقة ، ونقيضها احتقار الذات ، وهو تقدير المرء لها تقديراً أقل

---

(١) راجع الباب الثـانى : فصل « الطفل ووالداه » •

من الحقيقة • وأهم أسلوب يساعد على تقدير المرء لذاته حق قدرها هو التفاعل الكافى مع العالمين المادى والاجتماعى تفاعلا عمليا يترتب عليه وضعه فى المكان اللائق باستعداده ، ويترتب عليه اقناعه بصحة هذا الوضع •

ويلاحظ أن ما يصدر من الآباء من مظـاهر الحب ، والافتخار ، والخوف ، والغضب والنقد والموازنة ، والتشجيع والتثبيط وغير ذلك ، يمكن أن تكون كلها مظاهر طبيعية اذا بدت بدرجات معقولة • ولكنها قد تصل كلها أو بعضها الى درجة من القوة بحيث تهزم معها الأغراض التى ترمى اليها • وهذه الأغراض هى أن يكون الطفل مسلحا من النواحى الجسمية والعقلية والخلقية أو الاجتماعية حتى يصـير مؤهلا للنضال مع زملائه فى الحياة بحيث لا يتقبل محاباة ولا يخاف فشلا ؛ أى أن الغايات التى يجب العمل على تحقيقها هى التحرر من الوالدين أو من يشابههما • وبعض الأطفال لا يتحررون من آبائهم مدة الحياة • وقد سبق أن أعطينا من ذلك أمثلة عديدة (راجع فصل الطفل والوالد) •

مظاهر ضعف الثقة بالنفس :

من مظاهر ضعف الثقة بالنفس الجبن والانكماش ، والتردد ، وتوقع الشر ، وعدم الاهتمام بالعمل ، والخوف منه ، واتهام الظروف عند الاخفاق فيه • وأحيانا يكون من مظاهره التشدد ، والمبالغة فى الرغبة فى الاتقـان للوصول الى درجة الكمال • وهذا الاندفاع للكمال يدل عادة على ما تحته من خوف من نقد الآخرين • ومن مظاهره كذلك أحلام اليقظة ، وسوء السلوك ، والمبالغة فى التظاهر بطيب الخلق ، والحالات العصبية ، والمرضية كالتهتهة ، والتبول ، وبعض حالات الشلل ، وغير ذلك • معنى هذا أن ضعف الثقة بالنفس — مع اختلاف العوامل التى تؤدى الى ظهوره — قد يؤدى الى أساليب انسحابية أو سلبية كالكسل أو الانزواء أو الجبن وما الى ذلك • وقد يؤدى الى أساليب تعويضية كالنقد والسخرية والتحكم والتقنع بالوقار المصطنع وما الى ذلك • وقد تظهر هذه الأساليب السلوكية بنوعيها فى صور مرضية •

خاتمة :

قد يسأل سائل : وما العلاج ؟ والجواب عن هذا أننا أوضحنا مجموع القوى المؤثرة فى الفرد والتى يترتب عليها ضعف الثقـة بالنفس ، ويكفى الوقوف على هذه العوامل لتعديل موقف الوالدين والمربين تعديلا يترتب عليه معاملة الناشىء المعاملة المؤدية الى تعود الثقة بالنفس أو على الأقل الى عدم فقدانها ، ولكن ليس من الجائز أن نقدم أساليب خاصة يتبعها الآباء لمعالجة الناشئين الذين يتصفون بضعف الثقة بالنفس .

المراجع

Adler: Guiding the Child.
Allers: Psychology of Character.
Blanton: Child Guidance.
Blatz and Bott: The Management of Young Children.
Burnham: The Wholesome Personality.
Chaloner: The Mother's Encylopaedia.
Dodge: The Craving for Superiority.
S. Freud: Introductory Lectures on Psycho-analysis.
G. Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth.
F. Howard: Mental Health.
Hutchinson: Motives of Conduct.
Kanner: Child Psychiatry.
H. Lane: Talks to Parents and Teachers.
Miller: Advances in Understanding the Child.
Miller: The Growing Child and Its Problems.
Neill: The Problem Child.
Ponsonby: The Application of Psychology to Everyday Life.
Roback: Overcoming Self Consciousness.
Russell: On Education.
Shaffer: The Psychology of Adjustment.
Thom: Everyday Problems of The Everyday Child.

الفصل التاسع عشر

الكذب

من المشكلات التي تتصل بالخوف اتصالا وثيقا مشكلة الكذب ، ويرى بعض الباحثين أن الكذب الحقيقي عند الأطفال لا ينشأ الا عن خوف ، والغرض الأساسي منه حماية النفس • ونظرا لشيوع الكذب وأهميته البالغة تتجه لدراسته قائما بذاته • ويرجع الاهتمام بهذا الموضوع الى أسباب عدة : أولها : أن الكذب يستغل في العادة لتغطية الذنوب والجرائم الأخرى ، وثانيهما : وجود علاقة كبيرة بين خصلة الكذب وخصلتي السرقة والغش • وقد وجد الباحثون في جرائم الأحداث بنوع خاص أن من اتصف بالكذب يتصف عادة بالسرقة والغش • ولا غرابة في هذا اذا علمنا أن هذا الخصال الثلاث تشترك في صفة واحدة وهي عدم الأمانة • فعلى حين أن الكذب هو عدم الأمانة في وصف الحقائق ، نجد أن السرقة هي عدم الأمانة نحو ممتلكات الآخرين ، وأن الغش هو عدم الأمانة في القول أو الفعل بشكل عام •

ولنبدأ أولا بتحديد معنى الصدق ومعنى الكذب • فكثيرا ما يشكل علينا الأمر فيما اذا كنا نعتبر الشخص كاذبا أو صادقا • ويخيل الينا لأول وهلة أن الصدق هو مطابقة القول للواقع • ولكن كثيرا ما يحدث ألا يكون القول مطابقا للواقع ، ومع ذلك نعتبر الشخص صادقا ، كقول القدماء مثلا بأن الأرض مسطحة ، وكقولهم أحيانا : ان الشمس تدور حولها وغير ذلك • وكثيرا مايحدث أن يكون القول مطابقا للأصل ، ولكنا نعتبر أن الشخص كاذب ، كقول بعضهم : ويل للمصلين ، ثم الوقوف عند ذلك •

ويهمنا في الصدق أن تكون النية متوفرة لمطابقة القول للواقع مطابقة تامة • ويلاحظ في الكذب توفر النية لعدم المطابقة والتضليل • ولا ضرورة

للتوسع فى هذا فهو بحث طويل ، ويحسن أن نترك الكلام فيه الى آكاذيب الأطفال • ونحن نعلم أن الأطفال كثيرا ما يكذبون • فليس بغريب على الطفل أن ينكر أمام والديه فعلة قد آتاها ، كما اذا كسر آنية أو خرب شيئا ثمينا مثلا • ولكن الغريب أن يتألم الآباء لهـذا أشد الألم ، ويقلقون له وينزعجون ، معتبرين أن الكذب فاتحة لعهد تشرد واجرام فى تاريخ حيـاة أطفالهم •

وقد جرت العادة أن ينصب الآباء على الأبناء بالتقريع والاذلال والتشهير والضرب اعتقادا منهم أنهم بذلك يصلحون أبناءهم ، ويقطعون دابر الكذب منهم • ولكن أغرب من هذا أن تأتى هذه المعاملة بعكس ما يتوقع منها من نتائج ، فيصر الأطفال عادة على صحة كلامهم ، ويتفننون فى اخفاء الحقائق وتزييفها •

الاستعداد للكذب :

وقبل التوغل فى الموضوع يجب أن تتذكر أن الأمانة فى القول أو فى غيره خصلة مكتسبة وليست فطرية ، وهى صفة تتكون فى المرء عن طريق التقليد والتمرين وغير ذلك من طرق التعلم المختلفة • ويجب أن تتذكر أيضا أن الكذب ما هو الا عرض ظاهرى ، والأعراض لا تهمنا كثيرا فى ذاتها ، وانما الذى يهمنا هو العوامل والدوافع النفسية والقوى التى تؤدى الى ظهور هذا العرض •

وهناك استعدادان يهيئان الطفل للكذب : أولهما قدرة اللسان ولبقاته ، ولعل هذا يوافق ما كانت جداتنا يقلنه عن بعض الأطفال على سبيل المزاح ، فكن يعتبرن أن الطفل الذى يخرج فى الأسابيع الأولى لسانه ويحركه يمنة ويسرة سيكون فى مستقبل حياته قوالا كذابا • وثانى هذين الاستعدادين خصوبة الخيال ونشاطه •

فخصوبة الخيال هى التى دفعت طفلا صغيرا لم يتجاوز الثالثة من عمره لأن يقول بأن برغوثا كبيرا خرج من كتاب أخته وطار اليه ليلسعه ، وذلك بعد أن كان قد رأى صورة مكبرة لبرغوث فى كتاب للمطالعة كانت تقرؤه

أخته . وما ذكره الطفل نفسه عن أنه رأى قطة ذات قرون ، وكان هذا بعد احضار أهله خروف العيد فانتزعت مخيلته قرون الخروف وركبتها على رأس قطته ، وصار يقول باسما منشرحا بأنه رأى قطة ذات قرون . وادعى طفل آخر بأنه رأى رجلا ذا أنفين ، وأنه رأى فانوس الشارع يطرح موزا ، الى غير ذلك من الأمثلة المتعددة المألوفة التى تظهر فى ألعاب الأطفال المصحوبة بالخيال ، والتى تسمى باللعب الايهامى ، والتى يمثلون فيها آباء وأمهات وعرائس وفرسانا ولصوصا وغير ذلك .

الكذب الخيالى(١) Imaginative or Playful Lie :

يسمى هذا النوع من الكذب بالكذب الخيالى ، واذا حكمنا على الطفل الذى يصدر منه هذا النوع من الكلام بأنه كاذب ، كان ذلك كحكمنا على الشاعر ، أو الروائى أو المسامر بأنه كاذب فى المادة التى يأتينا بها بمساعدة خياله الخصب ولسانه الذلق .

ومما يريح نفوس الآباء والمدرسين أن يعلموا أن هذا ليس الا نوعا من أنواع اللعب يتسلى به الأطفال . وعند كشف هذه القوة الخيالية الرائعة يحسن توجيهها ، والاستفادة منها ، ولتوضيح معنى الاستفادة نأتى بالمثال الآتى : —

كانت هناك بنت صغيرة اعتادت أن تجلس الى والديها ، وتقص عليهما حكايات عجيبة وتدعى بأنها حقيقة . وكانت تسترسل فى حديثها استرسالا مشوقا جذابا يملك تفكير المستمعين وانتباههم ، فأخذها والدها الى احدى العيادات النفسية الشهيرة فى لندن لمعالجتها من هذا النوع من الكذب . فلما درس المتخصص النفسى حالة هذه البنت وجد أنها على مقدار عظيم من الذكاء ، وأنها رائعة الخيال ، طلقة اللسان ، فأشار على والديهـا بأن يفسحوا لها مجال التأليف والتمثيل . وبعد مدة قصيرة نبغت فى التمثيل

---

(١) التقسيم الذى فى هذه الدراسة هو فى اساسه تقسيم الأستاذ سيرل بيرت . وقد ادخلنا عليه تعديلا طفيفا ، وقد نشره بيرت فى كتابه :
C. Burt ; The Young Delinquent; p. 376.

والأدب نبوغا ظاهرا ، فألفت عددا من الروايات وقامت باخراجها على مسرح المدرسة وكان هذا فاتحة لمستقبل باهر لها •

واذا لم تتح للطفل فرصة توجيه هذه الملكة وانمائها ، فلا داعى للقلق والاهتمام بعلاج هذا النوع من الكذب ، فالزمن وحده كفيل بذلك ولكن قد يفيد اذا نحن سألناه بطريقة لطيفة بين حين وآخر ان كان متأكدا من صحة ما يقول ، واذا نحن جعلناه يحس من نبرات صوتنا ، بأننا نحب هذا النوع من اللعب ، ونشاركه فيه مشاركة فعلية فنبادله قصة بقصة ، وخيالا بخيال • ونشعره أيضا بأن هذه القصص مسلية ، ولكنها مخالفة للواقع •

ويقرب من هذا النوع الى حد كبير نوع آخر يلتبس فيه على الطفل الخيال بالحقيقة ولذلك فهو يسمى الكذب الالتباسى •

الكذب الالتباسى Confusional Lie :

وسببه أن الطفل لايمكنه التمييز عادة بين ما يراه حقيقة واقعة ومايدركه واضحا فى مخيلته • فكثيرا ما يسمع الطفل حكاية خرافية ، أو قصة واقعية ، فسرعان ما تملك عليه مشاعره ، وتسمعه فى اليوم التالى يتحدث عنها كأنها وقعت له بالفعل •

ومن هذا النوع ما وقع حديثا من أن طفلا شديد الخيال فى الرابعة من عمره رأى فى غرفة الزائرين شيخا معمما مستدير الوجه ، واسع العينين ، عريض الجبهة فذهب الى جده وأبلغه أن « الشيخ محمد عبده » ينتظره فى غرفة الزائرين • واتضح أن جد الولد كان قبل ذلك بأيام قلائل يصف الشيخ فى مجلس من مجالسه لبعض زائريه وكان الطفل يستمع فارتسمت فى ذهنه بعض الأوصاف ، فلما جاء الزائر قال الولد أن هذا هو «الشيخ محمد عبده» •

وكثيرا ما يحدث أن يقص الطفل قصة عجيبة ، ولو تحقق الوالدان الأمر ، لعرفا أنها وقعت للطفل فى حلم • ومن هذا النوع أن بنتا فى الرابعة قامت من نومها تبكى بالفعل ، وتقول : ان بائع الثلج المقيم فى آخر الشارع ذبح خادمتها فى منتصف الطريق ، ووصفت بشىء من التطويل كل ما رأته فى الحلم • ولم تفرق الطفلة بين الحقيقة والحلم فقصت كل هذا على أنه حقيقة ، وكان ضروريا اذ ذاك توضيح ما جرى للطفلة •

وهذا النوع من الكذب يزول عادة من تلقاء نفسه اذا كبر الطفل، ووصل عقله الى مستوى يمكنه فيه أن يدرك الفرق بين الحقيقة والخيال • وليس معنى ذلك أن تتركه حتى يزول من نفسه ، فشيء من الارشاد مع مراعاة مستوى عقل الطفل يفيد فائدة كبيرة من الناحيتين الانفعالية والادراكية •

ويمكن أن نسمى هذين النوعين من الكذب ، بالكذب البرىء ، وننتقل منهما الآن الى أنواع أخرى •

الكذب الادعائى :

من أمثلته أن يبالغ الطفل فى وصف تجاربه الخاصة ، ليحدث لذة ونشوة عند سامعيه ، وليجعل نفسه مركز اعجاب وتعظيم • وتحقق كل من هذين الغرضين يشبع النزوع للسيطرة • ومن أمثلة ذلك أن يتحدث الطفل عما عنده فى المنزل من لعب عديدة أو ملابس جميلة ، والواقع أنه ليس عنده منها شىء • أو يفاخر بمقدرته فى الألعاب أو فى القوة الجسمية دون أن يكون له فيها أية كفاية وكثيرون من الأطفال يتحدثون عن مراكز آبائهم وكفايتهم ، وصداقتهم لحاكم البلد بل سيطرتهم عليه ••• الى غير ذلك مما يخالف الواقع عادة • وأمثلة هذا النوع كثيرة لا حصر لها •

فهذا الكذب الموجه عادة لتعظيم الذات وجعلها مركز الانتباه والاعجاب ينشأ عادة من شعور الطفل بنقصه • وتعظيم الذات عن طريق الكذب ، طريقة لتغطية هذا الشعور بالنقص ، واذا سلمنا بهذا علمنا أن هذا الكذب الادعائى قد يتسبب فى بعض الحالات عن وجود الطفل فى بيئة أعلى من مستواه فى ناحية ما ، وعلمنا أن نفسه تتوق للوصول الى هذا المستوى ، وأنه ان لم يتمكن من الوصول اليه بالطرق الواقعية الحقيقية ، فانه يحاول ذلك بطرق بعيدة عن الحقيقة مخالفة للواقع يخترعها من مخيلته • وبعبارة أخرى قد يتسبب الكذب الادعائى من عدم مقدرة الطفل على الانسجام مع من حوله ، ومن ضيق البيئة التى يعيش فيها كالمنزل مثلا ، بالنسبة للبيئة التى تضطره ظروفه لها كالمدرسة ، أو من كثرة الاذلال والقمع الواقعين عليه ممن حوله من الذين لا يريدون له الظهور •ففى مثل هذه الأحوال يحسن

أن نكشف النواحى الطيبة فى الطفل ، ونوجهها لتنبت نباتا حسنا ، ونشعره حقيقة بأنه وان كان يقل عن غيره فى ناحية ما ، فانه يفوقهم فى نواح أخرى كثيرة ، فيتمكن الطفل بذلك من أن يعيش فى عالم الواقع بدلا من أن يعيش فى عالم خيالى واه ينسجه لنفسه . وبهذا ترتد للطفل ثقته ويزول عنه احساسه بنقصه .

ومن أنواع الكذب الادعائى أن الطفل يدعى المرض ، أو يدعى أنه مضطهد مظلوم أو سيىء الحظ الى غير ذلك ، وهذا ليحصل على أكبر قسط ممكن من العطف والرعاية . ويحدث هذا عادة من الطفل الذى لم يحصل من والديه على العطف الكافى ، والذى وجد بالتجربة أنه يحصل على قسط وافر منه فى حالة المرض أو المسكنة .

هذا النوع من الكذب ، المعروف بالكذب الادعائى ، يجب الاسراع الى علاجه فى حالة الصغر ، والا نما مع الطفل وزاد حتى أصبح ديدنا له يصاحبه فى غدوه ورواحه . وهذا ما يسمى عند العامة (بالمعر) وكثير من الناس يتحدثون عن رتبهم ، أو كفاياتهم أو أوسمتهم أو شهاداتهم ، وعن أسفارهم وأبحاثهم ، وجلائل أعمالهم وخدماتهم . ونحن على ثقة من أنهم لم يؤتوا شيئا ولم يقوموا بشىء .

الكذب الغرضى او الانانى :

وقد يكذب الطفل رغبة فى تحقيق غرض شخصى ، ويسمى هذا النوع بالكذب الغرضى أو الكذب الانانى . ومن الأمثلة الشائعة لهذا النوع أن يذهب طفل لأبيه مطالبا اياه ببعض النقود مدعيا أن والدته أرسلته لاحضارها منه لقضاء بعض حوائج المنزل ، والواقع أن الطفل كان يريدها لنفسه لشراء بعض الحلوى . ومثال آخر من طفل — سبق أن أشرت اليه — كان يرسم على حيطان الحجرات بالفحم الذى يشترى فى المنزل للتدفئة ، فأحضر له والده سبورة ليرسم عليها ، فيشغل بها عن الكتابة على الجدران أو التخطيط على أثاث المنزل . وفى يوم ذهب الى والده طالبا قطعة من الطباشير فأخرج له أصبعا وأعطاه نصفه فقط . ولما كان يريد الحصول على أصبع الطباشير

كاملا أخذ النصف الذى أعطاه اياه والده وخرج من حجرة الوالد ؛ ثم غاب فترة قصيرة وعاد يقول ان قطعة الطباشير قد فقدت ، فخرج معه والده وبحث عنها فوجدها مخبأة خلف السبورة فأخرجها له وقال له انها لم تفقد ، فقال الطفل ولكنها لا تكتب . فى هذه الحالة كذب الطفل مرتين ؛ وكان غرضه من هذا الحصول على نصف الأصبع الآخر . ولعل الدافع للكذب الغرضى أو الأنانى هو عدم توافر ثقة الطفل بالكبار المحيطين به ، نتيجة عدم توافر ثقته فى والديه لكثرة عقابهم له ولوقوفهم فى سبيل تحقيق رغباته وحاجاته .

الكذب الانتقامى :

وفى أحيان كثيرة يكذب الأطفال ليتهموا غيرهم باتهامات يترتب عليها عقابهم أو سوء سمعتهم ، أو ما يشابه ذلك من أنواع الانتقام . ويحدث هذا كثيرا عند الطفل الذى يشعر بالغيرة من طفل آخر مثلا ، أو عند الطفل الذى يعيش فى جو لا يشعر فيه بالمساواة فى المعاملة بينه وبين غيره . وكثيرا ما يحدث هذا النوع من الكذب من فتيات فى دور المراهقة ، فتكذب الواحدة منهن متهمة فتى بمحاولة التقرب منها والتحبب اليها . وقد تدل أمثال هذه الحوادث على أن الفتاة تقوم بعملية لا شعورية من النوع الذى سميناه اسقاطا (Projection) والذى يترتب عليه سرورها لأن لديها — حسب ما ترى — من الجاذبية الجنسية ما يحرك الشبان نحوها . وقد تكذب الواحدة منهن لأنها ترغب فى الانتقام من الفتى لعدم قيامه ازاءها بما كانت تتمناه منه . وقد يحدث مثل هذا من البنين .

ويجب أن يكون الآباء والمعلمون فى غاية الحرص ازاء هذا النوع من الاتهامات ، اذ أنها تكون فى كثير من الأحيان على غير أساس كاف من الحقيقة .

الكذب الدفاعى :

ومن أكثر أنواع الكذب شيوعا الكذب الدفاعى ، أو الكذب الوقائى ، فيكذب الطفل خوفا مما قد يقع عليه من عقوبة . وظاهر أن سبب الكذب هنا هو أن معاملتنا للطفل ازاء بعض ذنوبه تكون خارجة عن حد المعقول .

وقد يكذب الطفل ليحتفظ لنفسه بامتياز خاص لأنه ان قال الصدق ضاع منه هذا الامتياز • مثال هذا الطفل الذى يسأل عما بيده فيقول : انه شيء حريف (يح) والواقع أنها حلوى • وكالطفل الانجليزى الذى سئل مرة عما اذا كان يعتقد فى (بابا نويل) (Father Christmas) ، فقال انه بالطبع لايعتقد فى هذه الخرافة ، فقيل له : ولم لاتجاهر بهذا أمام أمك وأبيك؟فقال انه يخشى أن يفقد شيئا من عطفهما عليه ويحرم من هـدایاهما له فى عيد الميلاد • ومن أمثلة هذا أيضا ماحدث معى منذ زمن ، ذلك أنى كنت خارجا للتنزه ، فطلبت من ابن أخى وكان اذ ذاك فى سن الثالثة أن يستعد ليخرج معى ، فذهب ليستعد ، وما مرت دقيقتان حتى عاد الى قائلا : (المشمش طلع ياعمى وأنا شفته) فلأول وهلة لم أدرك ما يقصده فسألته : (مشمش ايه اللى طلع ؟) ، فقال : (المشمش ، علشان أروح وياك) وحتى بعد هذا لم أفهم ما يقصده ، ولكن بعد الاستفهام وجدت أنه كان قد قال للخادم فى فرح وسرور :(أنا رايح أتفسح مع عمى) ، فقال له الخادم : (يه •• ؟ ده لما يطلع المشمش (، فتركه وأسرع الى قائلا : ان المشمش قد ظهر ، وأنه رآه بالفعل • فهنا كذب الطفل لأنه يخشى أن يحرم من الخروج معى ان هو قال الحق • ولـكن مثل هذه الحوادث لا توقفنـا على صلة الكذب ببقيـة الشخصية• ولبيان هذه الصلة يجب القيام بدراسة تفصيلية لاحدى الحالات•

لنأخذ حالة أخرى لولد عمره « ١٤ » سنة ، وهو متأخر جدا فى فصله بالسنة الثالثة الابتدائية ويتبول ليلا فى فراشه • وهو كثير الكذب ، اذ أنه لا يصرح لوالديه بكل ما يفعل • فبعد انصراف المدرسة يذهب الى المنزل فى ساعة متأخرة ، ويقدم أعذارا يتضح من البحث أنها غير صحيحة •

والولد ثانى اخوته ، وهو كسلان فى أداء واجبه ، يميل الى الافراط فى اللعب ، ولكنه هادىء مطيع مسالم ويقبل فى الظاهر على كل ما يفرض عليه • أخوه الأكبر لم يواصل تعليمه ، ويتحدث عنه الجميع فى المنزل حديثا مشينا ، ولو أنه يتمتع بقسط كبير من الحرية فهو يخرج للفسحة وللخيالة دون أى تقيد • وأما صاحب الحالة فانه يحرم من الخروج للنزهة ، ويقضى الأجازة الأسبوعية فى المنزل خوفا عليه من الترام والعربات والبحر وغير ذلك •

ولا يسمح له بالذهاب مع أخيه الأكبر الى الخيالة التى لا يذهب اليها فى نظر والديه الا المفسدون الأشرار •

والوالد رجل عادى فى الظاهر ، ولكن الأم متشددة جدا • وبلغ من تشددها أن كوت ابنها بالنار فى جانبه لتبوله فى أثناء الليل فى فراشه • والحالة الصحية للولد فى حاجة الى بعض العناية •

والذى يعنينا فيما نحن بصدده عن هذه الحالة أحد أعراضها وهو الكذب وسببه كما يبدو — الشعور بالنقص ، والرغبة فى وقاية النفس من السلطة الجائرة فى المنزل • ويلاحظ أن الولد كان يكذب فى المنزل على حين لا يكذب قط فى المدرسة • ويلاحظ أن العوامل التى أدت مع أحد الأولاد الى الكذب والمخادعة ، أدت هى نفسها مع أخيه الى التمرد والخروج عن الطاعة ويمكن القول بأن الأول تكيف بالضعف والثانى تكيف بالقوة •

وقد عولجت الحالة من الناحية الصحية وعدلت علاقة الولد بوالديه ، وأرشدت الأم الى ما كانت تحتاج اليه كتحديد النسل ، اذ أن من بين أسباب تشددها وعصبيتها ارهاقها بكثرة الأولاد • وأرشدت الأسرة كذلك الى اختيار مسكن تتوافر فيه الاضاءة ، والتهوية ، ودورة المياه الخاصة به والقرب من المدرسة ومن عمل الوالد فى الوقت نفسه ، وأرشدت الأسرة كذلك الولد الى ما يعمل ازاء التبول ، والفسحة ، والتغذية وازاء المذاكرة من حيث تنظيمها وطرق أدائها • وقد نجحت الحالة نجاحا باهرا لحسن استعداد الوالدين ، وشغفهما باصلاح الولد ، واصلاح نفسيهما ولم تتكرر شكوى الوالدين بعد ذلك من كذبه ، ولا من مشكلاته الأخرى •

ومن أنواع الكذب الوقائى كذلك كذب الاخلاص أو الكذب الوفائى (Lie of Loyalty) وفى هذه الحالة يكذب الطفل عادة على أصحاب السلطة عليه كالآباء أو المدرسين ، ليحمى أخاه أو زميله من عقوبة قد توقع عليه ، ويلاحظ هذا فى مدارس البنين أكثر منه فى مدارس البنات ، وفى المدارس الثانوية أكثر منه فى المدارس الابتدائية • ذلك لأن الكذب الوفائى مظهر من مظاهر الولاء للجماعة ، والولاء للجماعة يقوى فى دور المراهقة ، ويكون عادة عند البنين أكثر تبكيرا منه عند البنات •

كذب التقليد :

وكثيرا ما يكذب الطفل تقليدا لوالديه ، ولمن حوله • اذ يلاحظ فى حالات كثيرة أن الوالدين نفسيهما يكذب الواحد منهما على الآخر مثلا فتتكون فى الأولاد خصلة الكذب • وفى احدى الحالات كان من شكاوى الوالدين كذب الطفل ، واتضح أن أمه كانت توهمه بأنها تريد أن يصحبها للنزهة ، ثم يكتشف أنه يؤخذ للطبيب • وأن والديه يخرجان ليلا ويتركانه بعد أن يوهماه بأنهما ناما معه فى المنزل •

الكذب العنادى :

وأحيانا يكذب الطفل لمجرد السرور الناشىء من تحدى السلطة ، خصوصا ان كانت شديدة الرقابة والضغط قليلة الحنو • وقد أشار «توم»[1] الى حالة تبول لا ارادى وكانت الأم من النوع الشديد الجاف ، فكانت تقول للطفل انه لا يجوز له أن يشرب قبل النوم • ولكن الولد رغبة فى المعاندة فكر فى أن يقول انه لا بد أن يغسل وجهه قبل النوم • وعند غسله وجهه يشرب كميات من الماء ، وأمه واقفة الى جانبه دون أن تتمكن من ملاحظة ذلك • وكان الولد يشتق لذة كبيرة من استغلال غفلة أمه على الرغم من تشددها فى الرقابة •

الكذب المرضى او المزمن (Pathological Lie or Mythomania) :

وأحيانا يصل الكذب عند الشخص الى حد أنه يكثر منه ، ويصدر عنه أحيانا على الرغم من ارادته • وهذا نلاحظه فى حالة الكذب الادعائى ، لأن الشعور بالنقص يكون مكبوتا ، ويصبح الدافع للكذب دافعا لا شعوريا ، خارجا عن ارادة الشخص • وحالات الكذب المزمن معروفة فى كل زمان ومكان •

لنأخذ حالة توضح هذا النوع وهى حالة لولد أرسل بتهمة التشرد ، وجمع أعقاب اللفائف • والولد عمره ١١ سنة ، وقال ان والدته ماتت وهو فى الثانية من عمره ، وأبوه مات وهو فى التاسعة والنصف ، وان والده كان

---

(1) Thom : Everyday Problems of The Everyday Child ; Ch. XVI.

مزارعا صغيرا فى « شبين الكوم » وليس له أخوة، ذكورا كانوا أو اناثا • وقال انه هو ووالده كانا يعيشان بعد وفاة الأم فى كوخ صغير ، وكثيراً ما كان والده يتركه بمفرده فى الكوخ ليلا • وقد مات أبوه منتحراً باحراق نفسه فى الحقل ، ولم يترك سوى (قفطان) به ١٧٨ قرشا • وأصبح الولد وحيدا فأخذ المبلغ وذهب الى شبين الكوم • ووجده صاحب سيارات اسمه « حسن عويضه » ، فأخذه وعطف عليه ، وكان يستصحبه معه من « شبين الكوم » الى « الاسكندرية » ليعمل لكسب رزقه • وبالفعل أمكنه أن يعمل كصبى كوّاء تابع للجمرك ، ثم نزح من الاسكندرية الى القاهرة ماشــيا على الأقدام ، يستريح قليلا فى كل بلدة • وسبب حضوره الى القاهرة أنه يبحث عن عمه « سالم محمد سالم » الذى يعمل صانع أحذية فى «عزبة الورد» فى جهة « الشرابية » • وعند وصوله الى القاهرة نام الليلة الأولى فى صندوق التليفونات العامة أمام قسم الأزبكية ، واشتغل حمالا فى ميدان المحطة الى أن قبض عليه وأحيل علينا لدراسته •

وضع الولد فى أحد الملاجىء ، وكان يطلب التصريح له بزيارة عمه ، فبعد أول مرة خرج فيها للزيارة جاء شاب الى الملجأ ، وقال انه يريد أن يرى أخاه • واتضح أنه أخ الولد الذى نحن بصدده ، واتضح أن الولد ليس مسلما كما ادعى ، واتضح أن والده ووالدته على قيــد الحياة ، وأن له أخوة كثيرين ، وأن شيئا مما قصه علينا لم يحدث • واتضح كذلك أنه قبض عليه ثلاث مرات قبل ذلك ، وكان يفلت فى كل مرة بحيلة • ويشكو أهله مر الشكوى من أكاذيبه التى لا تنقطع ، وقد تبين كذلك أن الولد هرب من المنزل عدة مرات واتضح من البحث أن الوالدة مريضة من مدة كبيرة ، وهى مقيمة مع أهلها ببلدتهم بسبب مرضها ، وأن الوالد نجار عادى يكد طول يومه ليكسب قروشاً قليلة •

وللولد أخ أكبر عمره يزيد على عشرين سنة ويعمل عند أحد صــانعى الأحذية ، وهو ناجح فى عمله ويتقاضى عليه أجراً طيباً • ويلى الأخ الأكبر أخت تقيم مع والدتها ببلدة أهلهــا ، ثم أخ يزيد على الولد الذى نحن

يصدده بسنة واحدة فقط ، وهو فى عمل ناجح يكسب منه رزقه • أما الولد نفسه فلم ينجح كثيراً ، وكان أخوه الأكبر يضربه ضرباً مبرحاً •

ويلاحظ أن الوالد مشغول جداً ، والولدة مريضة وبعيدة عن المنزل ، والأخ الأكبر فى غاية القسوة على الولد ، ثم ان الولد أقل نجاحا فى حياته من أخيه الأكبر منه مباشرة ، ويلاحظ أن الولد بعده بنتان ثم ولد يصغره بتسع سنوات ، ولذا فقد شغل مركز الذكر الأخير مدة طويلة ، وما زالت بادية عليه آثار التدليل من أمه فى حديثه • يضاف الى كل ذلك أنه فقد عطف أمه بمرضها وبعدها عنه •

لهذا كله يسهل تفسير هربه وكذبه ؛ ويسهل تفسير أنه فى كذبه كان كمن يحقق رغباته فى حلم ، فقضى على اخوته جميعاً ، وعلى والده ثم سافر وخاطر وعمل ونجح ، وتنصل من والديه ومن دينهم ومن دينه ، ومن اخوته ، ولو أنه حاول أن يبرر مسلكه بعد ذلك بأن تغيير دينه كان لأجل ألا يضطهد فى الملجأ وتدل الدلائل على أن هذا غير صحيح تماما • لأنه اذا كان صحيحا فكيف تفسر تكرر كذبه طول حياته وتحت ظروف غير التى ذكرناها ؟ فالغلام مدفوع للكذب دفعا قويا بعوامل لاشعورية خارجة عن ارادته • وقد نصحنا بتوجيهه الى ما يلائمه ، واعطائه فرصة اثبات نفسه فى ألعاب الملجأ ، واشعاره بعطف شخص معين عليه • وقد تقدمت حالته كثيراً جداً •

بعض القواعد العامة :

انتهينا من شرح أهم أنواع الكذب ، ويتبين فى كل نوع ما يدفع عادة اليه ، ويلاحظ أن النوع الواحد لا يظهر غالبا قائما بذاته • فالخبر الكاذب قد يؤدى وظيفة وقائية عنادية فى نفس الوقت • ويلاحظ كذلك أنه لا ترسل للعيادة فى الغالب حالة تكون الشكوى فيها من الكذب وحده ، وانما يكون الكذب عادة عرضا الى جانب الأعراض الأخرى كالسرقة أو شدة الحساسية أو الخوف أو ما يشبه ذلك والقاعدة الأولى للآباء والمدرسين هى أن يتبينوا اذا ما كذب الطفل ان كان كذبه نادرا أم متكررا ، وان كان متكررا فما نوعه وما الدافع اليه ؟ وأن يحجموا عن علاج الكذب فى ذاته بالضرب ، أو الانتهار

أو السخرية أو التشهير أو غير ذلك • وانما يعالجون الدوافع الأساسية التى دفعت اليه • ويغلب أن يكون العامل المهم فى تكوينها هو بيئة الطفل ، كالوالدين أو المدرسين أو أصحاب السلطة على وجه العموم •

ويجب كذلك أن تتجنب الظروف التى تشجع على الكذب ، فمثلا اذا كان لدينا طالب نعهد فيه هذه الخصلة ، فلا نجعله المصدر الوحيد للشهادة فى حادثة ما لأن هذا يعطيه فرصة لانطلاق عادة الكذب ، وتثبيتها بالتكرار والتمرن • وزيادة على ذلك فلا يصح أن يعطى الكاذب فرصة الافلات بكذبه دون أن نكشفه لأن النجاح فى الافلات بالكذب له لذة خاصة تشجع على تثبيته واقترافه مرة أخرى ، بل تشجع أيضا على الاسترسال فى سلسلة من الأكاذيب المقصودة التى تصدر عن نفس هادئة مطمئنة ، وان أردت ألا يفلت الكاذب بكذبه فسلح نفسك أولا بالأدلة القاطعة ولا تلصق به التهمة وأنت فى شك ، لمجرد أنه تعثر في حديثه مثلا ، أو ظهرت عليه علامات أخرى للاضطراب فى أثناء مناقشته • وعليك أن تأخذ أقواله بشىء من الثقة والتقدير ، وحاذر أن تظهر أمامه بمظهر الشك أو التردد سواء فى حديثك أو حركاتك • يلاحظ كذلك أنه لا يجوز فى الأحوال العادية ايقاع العقوبة على الطفل بعد اعترافه بذنبه ؛ فالاعتراف له قدسيته ، وله حرمته • ومن شأن ايقاع العقاب على الطفل — بعد أن نحمله على قول الصدق والاعتراف ضد نفسه — أن يقلل من قيمة الصدق ومكانته فى نظر الطفل • وعلى العموم فمن الخطأ الفاحش أن نعمد الى ارغام الطفل على الاعتراف ، لأن الطفل الذى يأتى ذنبا ، كأن يسرق ، أو يخرب ، ينتظر منه عادة أن يكذب • والواقع أن الكذب أسهل الذنوب اقترافا وأولها حضورا الى ذهن الطفل ، والكذب كما نعلم يساعد على تغطية كثير من العيوب والذنوب • من هذا نشعر أن الطفل الذى يعترف بذنبه يمكن اصلاحه ، وأما من يصر على الانكار فلا يجوز أن نبدأ باستجوابه ، لأن هذا نتيجته الاسترسال فى الكذب ، والتفنن فيه ومما يجب على الآباء والمدرسين تذكره باستمرار أن الطفل

لا يسر بما عنده من أسرار الا لأصدقائه ومحبيه • وأما أصحاب السلطة كأبيه وناظره ومدرسيه فانه يخاطبهم عادة بشيء من الحرص والخوف • فالاعتراف والصدق والصراحة كلها امتيازات خاصة لا يحبوها الطفل الا لأخلائه وخلصائه ، ولا يتقدم بها الا لمن تطمئن اليهم نفسه ونرى أنه لضمان الصدق والصراحة ، يجب أن يحل التفاهم والأخذ والعطاء مقام القانون ، والعطف والمحبة محل السلطة والشدة ، وأن نحجم عن العقوبات التى لا تتناسب مع الذنوب ، وألا نوقع بعضها الا اذا أدرك الطفل ادراكاً تاما أنه أذنب ، واذا اقتنع بأنه يستحق العقاب • فالعقوبات التى تجرى على غير هذا المنوال تهدم الأغراض التى ترمى اليها،فهى تفقد الطفل توازنه، وشعوره بأمنه وسلامته فى بيئته وتدفعه الى تغليف نفسه بأغلفة الكذب والغش لوقاية نفسه من أصحاب السلطة ، ومن البيئة المستبدة القاسية • فليفهم المهيمنون على تربيــة الأطفال أن الكذب نوع من التكيف لبعض الخصائص فى بعض البيئات ، وأهمها خصائص هؤلاء المهيمنين •

واذا كان الأطفال يكذبون ، كما قلنا ، فى أحيان كثيرة لتغطية نقص يشعرون به ، فعلينا أن نكثر لهم من الأسفار والرحلات ونواحى الميول والنشاط والهوايات ، فكل هــذه تعطى الطفل نواحى حقيقية يظهر فيها ويتحدث عنها • وفى حالة الخياليين البالغين ليس هناك ما يمنع من تشجيع الخيال عن طريق دراسة الشعر والأدب • وأما فى حالة الخياليين قبل سن المراهقة فلا تنصح — وفقا لرأى « بيروت Burt »[1] — بالقصص الخيالية الخرافية ، ولا برؤية أغلب أشرطة الخيــالة ، وانما بالاستزادة من الانشــاء الشفهى المبنى على المشاهدات الدقيقة والتفكير المنظم • واذا علمنا أن قول الصدق يتطلب مقدرتين هما صحة الادراك ، ودقة التعبير ، رأينــا أنه فى الامكان تدريب الطفل فى هاتين الناحيتين ، وهذا يكون عن طريق اتبــاع

(1) C. Burt : The Young Delinquent; p. 396

المشاهدات ، والقياس ، والقيام بعمل التجارب ، وتدوين نتائج كل هذا بمنتهى الدقة . وينتهز المدرس هذه الفرصة لتعويد تلاميذه الدقة فى الملاحظة والدقة فى التعبير فى جميع ضروب الحياة ، وبهذه الطرق يتعود التلميذ الصدق فى صورة بسيطة ، وهى جعل القول مطابقا للواقع مع توفر النية . ومثل هذا يمكن أن يقوم الوالد بتدريب ولده عليه بسهولة .

يضاف الى كل ما تقدم وجود انصاف الكبار المحيطين بالطفل بالصدق بأنواعه فلا غش ، ولا كذب ، ولا تجسس ، ولا اختلاق أعذار ولا تفادى للمواقف وكذلك يتحتم وجوب احترام الصدق وتقديره . ويجب ألا تلفظ بوعد للطفل الا اذا كنت قادرا على تنفيذه بالفعل — متى وعدت — مهما كلفك ذلك .

العوامل المدرسية التى تشجع على الكذب :

وألخص الآن بعض ما يشجع على الكذب فى المدارس . وأول ذلك العقوبات وما يصاحبها من شدة وصرامة ، فهى تنفر التلميذ من المدرس وتدفعه الى تغليف نفسه لوقايتها منه . ومن هذه العوامل الواجبات المنزلية التى تعطى جزافا للطفل . فكل مدرس يعطى فى العادة التلميذ واجبا بصرف النظر عما أعطاه اياه المدرس الآخر ، فيذهب التلميذ الى منزله بعد يوم مدرسى طويل بكمية من العمل لا بد له من انجازها فى الجزء الصغير الباقى من النهار ، فيضطر التلميذ الى طلب مساعدة شخص آخر ثم يقدم ما أنجز فى اليوم التالى على أنه من عمله الخاص ، وتبالغ بعض المدارس ، وحتى الرياض أحيانا ، فى كمية ما يعطى للأطفال من واجبات . وعامل آخر هو عدم تناسب العمل الذى يكلف به الطفل مع مقدرته ، مما يضطره الى استعمال حيل للتخلص من الظهور بمظهر العجز . وكذلك عدم تناسب البيئة مع مستوى الطفل كوجود طفل فقير فى وسط غنى ، أو طفل غبى فى وسط أذكياء .

ومن العوامل المهمة التى تدفع المدرسين لدفع التلاميذ لعمل ما لا يلائمهم من حيث الكم أو الكيف ضغط الامتحانات وما اكتسبته من قوة وقدسية •

ومن أخطاء المدارس أحيانا عرض بعض الأعمال فى المعارض على أنها من أعمال التلاميذ ، وتبرير ذلك بأن جزءا منها من أعمال التلاميذ ، ويكون الواقع أن ما قام به التلاميذ من التفاهة بحيث لا يبرر عرضه على أنه من عملهم ، والتلاميذ يشعرون عادة فى قرارة أنفسهم بهذا ، ويتعودون الكذب والتساهل فيه فى صميم نشاطهم المدرسى ، وذلك عن طريق المثال والممارسة الذاتية •

خلاصة :

ويمكن تلخيص ما تقدم فى أنه اذا نشأ الطفل فى بيئة تحترم الصدق ، ويفى أفرادها دائما بوعودهم ، واذا كان الأبوان والمدرسون لا يتجنبون بعض المواقف بأعذار واهية كادعاء التغيب والمرض • وبعبارة أخرى : اذا نشأ الطفل فى بيئة شعارها الصدق قولا وعملا ، فطبيعى جدا أن ينشأ أمينا فى كل أقواله وأفعاله • وهذا اذا توافرت له أيضا عوامل تحقيق حاجاته النفسية الطبيعية من اطمئنان ، وحرية وتقدير وعطف وشعور بالنجاح واسترشاد بتوجيه معقول • اذا توافر هذا كله فان الطفل لا يلجأ الى التعويض عن نقص ، أو التغليف ضد قسوة أو الانتقام من ظلم ، أو غير ذلك من الاتجاهات ، التى تجد فى أنواع الكذب صورا مناسبة للتعبير عن نفسها •

المراجع

Adler : Guiding the Child.

Allers : The Psychology of Character.

Blanton : Child Guidance.

C. Burt : The Young Delinquent.

Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

Hartsborne and May : Studies in Deceit.

Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.

Hutchinson : Motives of Conduct.

Kanner : Child Psychiatry.

J. Larson : Lying ; Its Detection.

Miller : Advances in Understanding the Child.

Patri : Child Training.

Russell : On Education.

Thom : Everyday Problems of The Everyday Child.

الفصل العشرون

السرقة

حالة فى السرقة :

ولد عمره أربع عشرة سنة قام بسرقة كتب زملائه بالمدرسة فضبط وقام ناظر المدرسة — بخلاف ما يتوقع منه — بتسليمه لرجل الشرطة ، وهذا حوله الى نيابة الأحداث ، التى رأت أن تستأنس برأى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة أحداث القاهرة • وقام المتخصص النفسى بالمكتب بدراسة الولد دراسة وافية اتضح له منها أن ذكاءه عادى ومستواه الدراسى يتفق مع كل من عمره ومستوى ذكائه ، اذ أنه كان فى السنة الثانية الثانوية • أما الوالد فان دخله لا يزيد عن ثلاثة جنيهات فى الشهر ، والرجل شغوف الى حد بعيد جدا بأن يعلم أولاده • والولد هو الابن الأكبر ، والذكر الوحيد ، وله أخت واحدة تتعلم مجانا فى مدرسة أميرية مثل أخيها • وقد بلغ من شدة قلق الوالد على تعليم أولاده ، أنه يشرف بنفسه على مذاكرتهم ، ويضرب ابنه ضربا مبرحا ، ويأتى له بالاضافة الى ذلك بالمدرسين الخصوصيين غير الأكفاء للقيام بضربه وتعليمه ، ووصل شغف الوالد بالتعليم الى أنه علم زوجته القراءة والكتابة الى أن أتقنتهما ، وقد كانت أمية عندما زوج بها • والرجل يندب حظه لأن تعليمه اقتصر على نيل الشهادة الابتدائية فقط • ويتحدث دائما عن كفايته ورجاحة عقله ، ومقدرته ، وأنه لو كان قد تعلم لكانت حالته غير ماهى عليه الآن • فالرجل مدفوع بعنف ، ليحقق فى ابنه

ما لم يتحقق له فى نفسه[1] والولد يكره والده من غير شك لمعاملته الشديدة له ، والأم ضعيفة لا حول لها ولا قوة •

لما وصل الولد الى سن الرابعة عشرة وبدأ فى دور البلوغ أخذ يتفتح ذهنه للمستوى الاجتماعى الذى يتعلم فيه • ووجد أنه لا يأخذ مصروفا كافيا يجعله يظهر أمام اخوانه كما يظهرون ، فهم يلبسون الملابس الأنيقة ويدخنون اللفائف الفاخرة الى غير ذلك • فبدأت يده تمتد الى كتب اخوانه ، فيسرقها ، ويبيعها فى محلات بيع الكتب القديمة ، ويستغل ثمنها فى الظهور مثل اخوانه • ومن الغريب أنه شكا لادارة المدرسة غير مرة من أن كتبه تسرق منه • ولعله كان يبيعها ثم يشكو لتبعد الشبهة عنه • ولكنه ضبط فى هذه المرة متلبسا بفعلته • وقد يكون واضحا أن الولد يسرق مندفعا الى التعويض عن شعور بالنقص ناتج من موازنة نفسه بزملائه • وهذا الشعور بالنقص كان من الممكن تعويضه بالتفوق الدراسى ، كما يحدث عادة من الأولاد الفقراء ، العاديين منهم والأذكياء • ولكن الولد كان متأخرا جدا فى الفصل بين زملائه ، فكأنه لم يجد لما عنده من النقص الا هذا المخرج ، وهو السرقة من زملائه •

ولكن الشعور بالنقص الاجتماعى مع عدم التفوق الدراسى ، وعدم التفوق الرياضى لا يكفى لتفسير السرقة • واذا رجعنا لتاريخ حياته نجد أنه الولد الأول ، وأنه كان مدللا تدليلا شديدا جدا فى أول حياته ، فكانت كل طلباته تجاب • فلم يتعلم اذ ذاك كيف يقاوم رغباته الخاصة • وكان

---

(١) وربما كانت هنا فى نفس الوالد عوامل لا شعورية أخرى أكثر خفاء وأشد عمقا مما ذكرنا • فالوالد ، لما أصابه ناقم على الحياة • وقد يحول بحيلة عقلية لا شعورية ، نقمته الى ابنه وكثيرون من الآباء يعاملون أبناءهم عامة والابن الأكبر بنوع خاص كما لو كانوا سبب اخفاقهم وشقائهم ومحنتهم • الى غير ذلك • وتجد فى هذه الحالة مظاهر الاسقاط والتحويل والتبرير وما الى ذلك • وهناك احتمالات أخرى كالنزوع الى تعذيب الذات النابع من احساس مكبوت بالخطيئة (Repressed Sense of Guilt) • وهذا الاحساس المكبوت بالخطيئة بدوره له تفسيره فى طريقة تكونه •

المستوى الاقتصادى للأسرة لا بأس به ، فكان هناك بعض الرخاء ، وكان دخل الوالد لأمر ما أكبر مما هو عليه الآن ، وكان الولد هو الطفل الوحيد. أما الآن — وقد زاد عدد الأطفال ، وكبروا ، وزادت مطالبهم ، وفى الوقت نفسه انخفض الدخل ، وارتفعت تكاليف المعيشة ارتفاعا باهظا (بسبب الحرب التى نشبت عام ١٩٣٩) ، وبدأ الوالد يشتد على ابنه لتوتر فى نفسه من حالة الغلاء ، ولتوتر فى نفسه من تراخى ابنه — فالولد ينتقل تدريجيا من حالة تمتع ذاتى وتقدير ممن حوله الى حرمان وعـدم تقدير وتضييق وعقـاب وايلام • وقد جاءت هذه التغيرات كلها فى وقت تنزع فيـه النفس نزوعا شديدا الى التقدير الاجتماعى ، واتسـاع الأفق ، والسيطرة ، وهو وقت المراهقة والبلوغ •

وبعد كشف حوادث السرقة أدى الولد امتحانا آخر العام ورسب فيه ، وما كاد يعلم بالنتيجة ، حتى وقع تحت سلسلة من التعذيبات أجراها عليه الوالد ، فهرب ولم يظهر مدة تزيد على شهرين • وله فى أثناء ذلك ، وبعد ذلك ، عدد من التصرفات العنيفة ، والمخاطرات التى تدل على كراهيته لوالده وثورته عليـه وميله الشـديد الى البعد عنـه ، مما لا تهمنا تفاصيله فى هذا المقام •

حالة أخرى فى السرقة :

فتاة عمرها اثنتا عشرة سنة تشتغل بالخدمة فى أحد المنازل ، واتهمت بحق بسرقة ملابس ومصوغات ممن تعمل معهم • وبدراسـة الحالة اتضح أن ذكاء البنت أقل من العادى • ولكنها لا تعتبر ضعيفة العقل • فمستوى ذكائها يعادل مستوى ذكاء شخص عادى عمره يقع بين ثمانى وتسع سنوات • وتتصف البنت بشىء من عدم الثقة بالنفس ، والجبن ، وشدة الحساسية ، وسرعة التأثر ، اذ أنها تبكى لأقل سبب ، واتضح بالدراسة أن الأسرة التى تعمل البنت فى خدمتها مكونة من سـيدة وزوجها ، وليس لديهما أولاد

ولا خدم آخرون . وهما سكيران ، ويشربان الخمر معا فى منزلهما الى أن يفقد كل منهما صوابه . وفى هذه الحالة يصير البيت بخزاناته وصواوينه المفتوحة تحت تصرف البنت ، اذ تصير الرقابة عليها قليلة جدا . ونظرا لجبن الفتاة ، وضعف ذكائها ، فانها يسهل وقوعهـا تحت تأثير شخص آخر . يلاحظ كذلك أن والدى الفتاة منفصلان بالطلاق ، وأن الأب تزوج بغير الأم وليس له بالبنت أية علاقة . والأم كذلك — وهى فى الخمسين من عمرها — تزوجت برجل أصغر منها سنا بعشرة أعوام ، وهو رجل متعطل كسلان كان يطمع فى بعض ما لديها من النقود ، وهى ضعيفة أمامه ، فهى تعمل وتكسب وهو لايعمل شيئا ، ويصرف كثير من وقتـه فى التنزه والجلوس على المقاهى ، وتدل الدلائل على أن الأم تستغل البنت للسرقة حتى تغدق على زوجها وترضيه ، وللبنت — على غير ما كان ينتظر — مكانة لا بأس بها عند زوج الأم .

خلاصة الحالة أن الفتاة نظرا لقلة ذكائها ، ولجبنها ، يسهل اغراؤها . وهى مكروهة من أبيها ومقربة من أمها بقصد استغلالها . وترغب البنت فى المحافظة على الصلة بينها وبين أمها ، وهى الصلة الوحيدة الباقية بالنسبة اليها . ويهم الصغار بنوع خاص أن يكون هناك من يشعرون بالانتماء اليه. وقد نجحت الفتاة فى تحقيق هذا عن طريق السرقة .

السرقة والاستعداد لها :

يتبين من دراسة الحالتين السابقتين أن السرقة ليست حدثا منفصلا قائما بذاته وانما هى سلوك يعبر عن حاجة نفسية . ويمكن فهم هذا السلوك فى ضوء دراسة شخصية الطفل وطريق تكونها ، والوظيفة التى تؤديها السرقة لها . فبينما نجد السرقة فى الحالة الأولى وسيلة لاثبات الذات ، نجدها فى الحالة الثانية وسيلة لحماية الذات .

ولا بد من فهم وظيفة السرقة ومكانتها من تكوين الشخصية قبل الاتجاه

نحو علاجهـا ، والسرقة وما يضادها وهى الأمانة ليست صـفات فطرية طبيعية ، وانما هى صفات مكتسبة • وللسرقة أسسها الطبيعية فى الانسان وهى الميل للتملك والاستمتاع بالقوة ، اذ أن السرقة هى الاسـتحواز على ما يملكه الآخرون بدون وجه حق ، ونظرا لأن السرقة ذنب اجتماعى فان المجتمع يعطيها أهمية كبرى • بخلاف الصفات الشخصية السيئة كالتدخين أو العادة السرية ، فانها لا تهم المجتمع كثيرا لأنها لا تتناول فيما ينسب اليها من ضرر أشخاصا آخرين بطريقة مباشرة • أما السرقة والكذب والاعتداء والتشنيع ، وما الى ذلك فانها تعتبر صفات سيئة للغاية لأن الضرر الذى تتضمنه يؤثر فى الآخرين تأثيرا مباشرا •

وهناك مهارات عقلية وجسمية تسـاعد على السرقة ، اذا توافرت لدى الشخص الرغبة فيها • ومن هذه المهارات ، سرعة حركة الأصابع ، وخفة الحركة عامة ، ودقة الحواس من سمع ، وبصر ، والقوة الميكانيكية ، ووفرة الذكاء العام ، ودقة الاستنتاج والملاحظة •• وما الى ذلك • ففى كثير من الحالات كان صاحب الحالة يفتح أقفالا معقدة بقطعة من سلك ، ويقطع جيبا لمسافر بموسى دون أن يحس المجنى عليه ، أو يخطف سلعة معينة ويفر هاربا جريا ، أو راكبا دراجة ، أو غير ذلك من مئات الحيل والمهارات التى يلجأ اليهـا السارق • وكثيرا ما تجتمع لباقة الحديث ، وبشاشة الوجه ، وحسن التسلية والتظاهر بالأدب الجم والميل للمساعدة مع هذه المهارات فتجعل عملية السرقة تتم بسهولة كبيرة للغاية • ويهمنا الوقوف على هذه المهارات العقلية والحركية والحسية حتى يمكننا توجيهها فى اتجاهات لصالح صاحبها وصالح المجتمع نفسه •

الشعور بالملكية والمساواة :

وهناك اتجاه عقلى يبدأ من سنوات الطفل الأولى وهو عدم التمييز ، أو عـدم الاهتمام بالتمييز بين ما يملكه وما لايملكه • وفـكرة التمييز

بين ما للفرد فيه حق وما ليس له فيه حق ليست سهلة • فالطفل يعيش عادة فى منزل كل ما فيه ملك للكبار ، فليس له ما يعده ملكا له ، وأحيانا يغلق الأمر عليه ، فلا يعرف ان كانت لعبة معينة ملكا له أو لأخته • والآباء بشرائهم لعبة واحدة لجميع الأطفال أو ألعابا مختلفة يلعب بها كل الأطفال ، دون تمييز ، يظنون أنهم يعلمونهم الايثار بدلا من الأثرة • والواقع أنهم يركبون تفكيرهم • فالطفل يشعر بالحاجة للملكية شعورا تلقائيا فى سن مبكرة جدا ، اذ يبدأ يشعر بها أحيانا خلال الفترة الأخيرة من السنة الأولى •

ويجب أن يشجع الشعور بالملكية من وقت ظهوره ، ولكن لا يجوز أن يبالغ فى تشجيعه الى أن تتكون الأنانية والجشع للتملك ، ولا يجوز أن يهدم بحيث لا يجد الطفل فرصة لفهم حقوقه وحقوق غيره •

واذا أردنا أن يحترم الطفل ملكية غيره وجب أن نبدأ نحن باحترام ملكيته • فيجب — بقدر الامكان — أن يكون للطفل ملابسه الخاصة التى لا يجوز أن تستعمل له ولغيره بدون تمييز ، ويكون له مكان خاص بالنوم ، وكرسى خاص يجلس عليه حين يأكل ، واذا أمكن فليكن له أطباقه ، وملاعقه ، ومنشفته وغير ذلك • ويسهل احضار هذه الأشياء بألوان مختلفة بحيث يسهل على الطفل التفريق بين متعلقاته ومتعلقات غيره • ويحسن أن يكون للطفل أدوات لعبه المختلفة ، وبعض الكتب والمجلات القديمة ذات الصور الجذابة • وفى الأسر التى بها أطفال ذوو أعمار متقاربة ، تحدث أحيانا مشاحنات يحسن ترك الأطفال للفصل فيها بأنفسهم ، واذا تدخلت الأم فلتفصل بالعدل ، فكل طفل يستعمل حقه ، ولكن يصح أن يعطى الخيار فى أن يترك لعبته لأخيه أحيانا ، ولا بد من حدوث هذه المنازعات قبل أن يتعلم الطفل الأخذ والعطاء • والتعاون يجىء متأخرا عن تعلمه الملكية واعتزازه بها • فلا يجوز أن تتسرع فى تعليم الطفل التعاون خوفا من تعوده الأنانية ، اذا ترك الطفل ليعطى — من تلقاء نفسه وبدون تدخل خارجى — لعبته

الخاصة به لأخيه أو لصديقه مدة من الزمن فانه يشتق من هذا التطوع لذة كبرى لا يجوز أن نحرمه من التمتع بها •

وانماء الشعور بالملكية ثم اتباعها فى الوقت المناسب بانماء روح التعاون والأخذ والعطاء مهم فى تكوين الذات Ego Formation وفى التكوين الخلقى الاجتماعى على وجه العموم[1] •

ويلاحظ أن تمييز الفرد بين حقوقه وحقوق غيره ، أو اهتمامه بهذا التمييز ، يبدأ فى المنزل ، وينتقل مع الطفل الى المدرسة ، ثم الى المجتمع الأكبر • ففكرة الأمانة أو عدم الأمانة يمكن تكوينها بحيث تصبح فكرة عامة تبدأ بدورها فى السنوات الأولى من حياة الطفل • ويجب أن يقوم الوالدان بتفهيم الطفل ما يجب عمله فى المناسبات التى يمكن أن تسمى اعتداء على ملكية الآخرين • افرض مثلا أن شخصا له مكتبة جذابة أو ساعة ، أو غير ذلك • وأراد الطفل أن يتناول الكتب ، أو الساعة ليلعب بها ، فليكن هناك اتجاهات : الأول تفهيم الطفل بمنتهى الهدوء والحزم أن هذه أشياء ليست ملكا له ، ولا يجوز له اللعب بها • والاتجاه الثانى الذى يؤخذ فى نفس الوقت هو مراعاة أن الطفل تكون له متعلقات خاصة به ، شبيهة الى حد ما بالتى ينزع الى اللعب بها ، فيكون له كما قلنا ، بعض الكتب التى لايحتاجها الوالدان والتى يكون بها بعض الصور لكى يلعب بها ، وقد تتمزق منه فيعلم كيف يحافظ عليها •

وفى احدى الحالات ، وجدنا أن الولد عنده حقيقة أشياء كثيرة جدا ، منها مجموعة طوابع بريد منسقة تنسيقا جميلا • ولكن يحفظها الوالد فى صوانه الخاص به خوفا من ألا يحافظ عليها الولد رغم أن سنه اثنتا عشرة سنة • وهذا هو موقف الوالد من سائر ممتلكات الولد من طوابع وكتب وصور وهدايا وغير ذلك •

(١) راجع فصل «تكامل الشخصية» وفصل «اللاشعور» •

وفى حالة أخرى أخذ الوالد كمية من النقود كان الولد قد ادخرها ، ولم يردها اليه • فلا عجب أن كان الولد لا يحترم ملـكية والده بنوع خاص ، وقد ينتقل عدم احترام الملكية فى مثل هـذه الحالات الى خارج المنزل (حالة ص ٣٠٢) •

ففكرة الأمانة كفكرة الصدق تكتسب عن طريق الممارسة الشخصية ، والاقتداء بالمثال ، والتعلم عن طريق الفهم والموازنة والارشاد • والمنزل هو البيئة الأولى لتعلم فكرة الأمانة • ولكن ليس معنى غرسها فى المنزل أن تضمن فاعليتها بعد ذلك فى محيط المدرسة أو المجتمع • فهذه الفاعلية تتوقف على ظروف المدرسة وظروف المجتمع ، من تحقق الأمانة فى قادتهما والقائمين بالأمر فيهما ، ومن مبلغ شعور الفرد بالأمن والعدالة الاجتماعية، والاطمئنان على تحقق الحاجات الأولية •

الدوافع للسرقة :

فى كثير من الحالات تكون الدوافع للسرقة دوافع مبـاشرة ظاهرة • فكثيرا ما يسرق الطفل لسد رمق • ويلاحظ أن أطفالا كثيرين جدا يعيشون عيشة الكفاف ، أو يعملون بأجور زهيدة لا تكفى الحيوان الصغير بله الانسان ، فيسرقون • ومن هؤلاء من يسرق نقودا أو أدوات أو سلعا ، ومن هؤلاء من يخطف الأطعمـة المعروضة على العربات ، وفى المحـال التجارية ، وغير ذلك • وقد وجدنا فى بعض الحالات أولادا يسرقون لسد رمق أم مقعدة عاجزة عن أى عمل ، وعدد من الاخوة الصغار ، وذلك يكون مثلا بعد وفاة الأب وتشغيل الولد بأجر لا يزيد يوميا عن قروش لا يتجاوز عددها عدد أصابع اليد الواحدة ، وكنا نجد عادة أن هذا النوع من الحالات أسهلها علاجا •

وفى بعض الحالات تحدث السرقة لاشباع ميل ، أو عاطفة ، أو هواية ،

كميل بعض الأولاد لركوب الدراجة ، أو للخيالة ، أو لفتاة معينة ، أو لمجرد الصرف على هواية معينة ، كالتصوير وتربية الحمام ، وغير ذلك • وهذه أيضا حالات لا يتعسر عادة علاجها •

وتحدث السرقة كذلك ليستعين المرء بما يسرق على التخلص من مأزق معين • مثال ذلك : الولد الذى كان يذهب للمكتب ليحفظ القرآن ، ولم يكن له أى ميـل لحفظه ، فأغراه العريف بأنه اذا سرق له بعض كتب والده فانه يعفيه من التسميع ، ولا يبلغ شيخ المكتب ، وبذلك ينجو من عقاب صارم فلم يتأخر الولد عن سرقة الكتب وتقديمها رشوة للعريف •

وقد يسرق الطفل من منزله ليعطى زملاءه بالمدرسة مثلا ، لأنه كشف أن سياسة اعطاء الحاجيات المادية هى الوسيلة الوحيدة التى تجعله مقبولا فى جماعة زملائه •

ولكن يلاحظ أن هذه الدوافع ظاهرية فقط • فالولد الذى يسرق الكتب ليعطيها رشوة للعريف كان متأخرا فى دراسته من أول الأمر ، وكان والده يقسو عليه بعد تدليل ، وكان يوازن بينه وبين اخوته موازنة تحط من قدره • ففقدانه عطف والديه بعد أن كان يتمتع بعطف كبير كان هو العامل الهام فى تكون الاستعداد للسرقة • نرى من هذا أنه يجب البحث عن عوامل أخرى غير الدوافع الظاهرية للسرقة • وفى العـادة نجد بعض العـوامل اللاشعورية المتكونة نتيجة علاقة الطفل ببيئته ، ونتيجة التغيرات الطارئة على هذه العلاقات •

وهناك سرقة للانتقام ، وسرقة لتعويض شعوره بالنقص ، وسرقة بسبب فقد العطف • ففى كثير من الحالات نجد الطفل يسرق من شخص معين كوالده أو والدته • ويمكن تفسير السرقة فى بعض هذه الحالات بأن الطفل كان حائزا لعطف الوالد مثلا ثم فقد هذا العطف ، فالسرقة منه تشعره بأنه يستحوذ على شىء بدل هذا العطف • نجد طفلا — مثل هذا — يسرق من والده نقوده وكتبه ويضع يده فى جيوبه ليطلع على ما فى جيبه ويعرف ما فيـه من أسرار ويقرأ خطاباته •• الى غير ذلك • كذلك المحب الذى

يتشكك فى أنه ربما لا يحصل على كل عطف معشوقته ، كثيرا ما يسرق منها شيئا يكون بمثابة رمز للحب المفقود [1] • وفى هذا النوع من الحالات نجد أن الشخص لا يسرق الا من شخص معين ، وأحيانا يسرق نوعا معينا من الممتلكات ، ويمكن فى العادة تفسير هذا التخصص اما على أساس الرمزية (symbolism) أو على أساس الوظيفة • ففى غالب الحالات التى درسناها ، ووجدنا فيها أن الطفل يسرق من والده ، وجدنا أيضا أن لدى الولد كراهية مستترة للوالد • فتفسر السرقة هنا على أنها انتقام ، أو على أنها تعويض للعطف المفقود ، أو على الدافعين مجتمعين •

واذا كان الدافع للسرقة متجها نحو شخص معين فقد ينتقل الى أشخاص آخرين ، فالسرقة من الأب قد تنتقل الى سرقة من أصحاب السلطة على وجه العموم • والسرقة من الأخ قد تنتقل الى سرقة من الزملاء ، وذلك بتحويل الدوافع نفسها من الموضوع الأصلى الى موضوعات مشابهة له • ويمكن أن يكون التحويل أوسع انتشارا وأقل تخصصا مما ذكرنا ، فبعد أن كان يسرق الطفل من والده فقط صار يسرق من أى انسان •

لنأخذ حالة تبين السرقة من شخص معين ، وهى حالة ولد كان يساعد والده فى عمـله التجارى • ذهب الولد الى أحد عمـلاء والده ، وكان جالسا فى أحد المقاهى وقال له ان والده يطلب منه ثمن بضاعة أخذها فى ذلك الوقت الى المنزل • وكان الثمن خمسة وعشرين قرشا الا قليلا • أخذ الولد النقود واختفى ، وانكشفت حقيقة المسألة بعد أن رجع الرجل الى منزله • ثم أبلغ الوالد الذى طلب منه ابلاغ الشرطة • واتضح أن الولد هو أكبر أبناء الأسرة ، وأن الرجل فى منتهى القسوة والشدة • وهو متعسف فى تمسكه بالدين حتى خرج بذلك عن المعقول خروجا كبيرا • وقد أحاط نفسه بكل الرموز التقليدية للتدين ،و اتخذ « السنية » ، مذهبا له ، وكان يشغل وظيفة يكتسب منها ، فاستقال منها لأنه كان يشعر أنها لا تطابق الدين • واتخذ التجارة فى أبسط صورها وسيلة للرزق • ومن شدة قسوته

---

(١) هذا ما يسمى بالفيتيشية Fétichisme



صورة ظهر ووجه صاحب الحالة المشروحة فى صفحة« ٣٨٩ » وترى على رجليه وذراعيه ووجهه وظهره ورقبته آثار الضرب والكى والتقييد فى الأغلال

أن الولد اذا أتى ذنبا صغيرا فانه يربطه بالأحبال ربطا وثيقا ، ويتركه ملقى على الأرض ، ثم ينهال عليه ضربا ، ويترك فى جسمه آثارا واضحة — كما يتبين فى الصورة المقابلة — وكان فى بعض الأحيان يتركه موثوقا بالأغلال ثلاثة أيام متتاليات ، ويقــذف له برغيف من العيش وكوب ماء فى مواعيد الأكل •

بعد أن قابلنا الولد ، ودرسنا الحالة جيدا من كل نواحيها ، اتضح أن السرقة لم تكن الأولى ، فقد كان كثيرا ما يسرق من والده • وظهر عنــد مقابلتنا لكل منهما على انفراد شدة التجافى ، فقربنا ما بينهما ، وأفهمنــا الوالد خطأه ، واتفقنا مع الولد على حسن السير ؛ ونظمنا علاقة الولد بوالده من حيث الانفاق ، ومن حيث الثقة التى يجب أن يضعها الوالد فى ولده • الى غير ذلك • وقد نجحت الحالة نجاحا كبيرا بموالاة توجيه الولد والوالد وأخذهما بالنصيحة والتوجيه والاشراف والمتابعة •

وقد يكون العامل الأصــلى لتكوين الدافع للسرقة هو ما يطرأ على الشــعور بالأمن والشعور بالاستقرار من نقص ناشىء من تغيير فجائى فى معاملة الوالدين ، أو من تفكك روابط الأسرة ، أو ما يشابه ذلك •

لنأخذ مثالا لهذه حالة تلميذ فى سن الرابعة عشرة يهرب من المدرسة يوميا تقريبا ، ويسرق كل ما يمكن أن تصل اليه يده مما خف حمله وغلا ثمنه • هذا على الرغم من وفرة ما يصل الى يديه من نقود ، وعلى الرغم من حسن استعداده للعمل الدراسى • وبمتابعة تاريخ هذه الحالة وجدنا أن والديه انفصلا بالطلاق وهو صغير السن جدا • ثم تزوج كل من والديه بعد ذلك وأنجب كل منهما له اخوة غير أشقاء • وقامت الجدة منذ طلاق الوالدين باحتضان الولد ، ولم تدخر وسعا فى اجابة جميع مطالبه ، وبالغت فى العطف عليه عطفا كبيرا فى شىء غير قليل من الضعف والتساهل والقلق • ولما وصل الولد الى دور المراهقة لم يكن يعرف بالطبع كيف يقاوم كل ما يطرأ على ذهنه من نزوات • واتصل به أولاد آخرون وفتحوا له آفاقا جديدة للاستمتاع بالهروب والفسحة والتدخين والذهاب للخيالة وغير ذلك •

وأغروه بالسرقة ، بل علموه أساليبها ، حتى برع فيها وصار الولد يشعر الآن بعدم القدرة على الاستقرار عند جدته أو والدته أو والده . ولا يشعر أن واحدا من هؤلاء يمكنه أن يطمئن معه الى الجو الذى يعيش فيه . أما المدرسة فلم تكن من التشويق بحيث تصرفه عما يطرأ على ذهنه من نزعات ، ولم تكن بحيث تشبع فيها نواحى القوة التى تتوق اليها نفس المراهق . نتيجة كل هذا هروب من المنزل والمدرسة وعدم استقرار وبحث عن اللذة والسرور وسرقة لتحقيق كل هذا .

ويحدث أحيانا أن تبدأ السرقة بصورة مصغرة كسرقة الحلوى ، أو سرقة السكر ، أو سرقة النقود . وقد يكون الدافع بسيطا وهو الحاجة الى الحلوى أو الحاجة الى تجريب عمليات البيع والشراء أو غير ذلك . وقد يكون لموقف الوالدين نحو الطفل فى السرقة الأولى أثر فى تثبيتها . فيتفنن الوالدان فى تخبئة ما يخافان عليه مثلا ، ويتفنن الطفل فى أساليب الوصول الى هذه الأشياء . ويلاحظ أن المبالغة فى تخبئة الأشياء تغرى الطفل بمحاولة الوصول اليها ، واذا نجح الطفل فى ذلك ، فانه يشتق لذة كبرى من انتصاره على الكبار المحيطين به ثم تتكرر سرقاته ، ويتكرر تكوينه لميول وعادات يشبعها عن طريق السرقة كالتدخين ، أو الظهور الاجتماعى ، أو الاشباع الجنسى ، أو غير ذلك . وبهذا تثبت السرقة وتصير عادة راسخة ، كما نراها عند بعض الأشخاص ، وسبب رسوخها أنها طريق سهل سريع تتحقق به شهوات ورغبات لا يقوى الفرد على مقاومتها ، ولا سيما بعد تعود اشباعها .

دراسة حالات السرقة :

عند دراسة أية حالة من حالات السرقة يجب أن نعرف : أهذه السرقة عارضة أم متكررة ؟ أصاحب الحالة يسرق أشياء معينة أم كل الأشياء . فبعض الأولاد يسرق مصابيح الترام ، وبعضهم يسرق مصابيح الاشارات الأرضية فى الشوارع ، وبعضهم الآخر يسرق الملابس المنشورة للتجفيف فى حدائق المنازل أو فوق سطوحها ، وبعضهم يسرق

مواقد (الغاز) فقط • ويدلنا نوع السرقة — ان كان موحدا بمثل هـذه الصور — على اتجاه عقلى منظم ، اما من تلقاء نفسه ، واما تحت تأثير زعيم لعصابة مثلا ، أو يدل على اتصاف السارق بمهارة معينة فى اتجاه خاص • وعلينا كذلك أن نعرف أهذه السرقة انفرادية أم جمعية • فكنا نجد فى كثير من الحالات أن الولد يسرق ضمن عصبة من الأولاد الآخرين ، فثلاثة تلاميذ باحدى المدارس نظموا أنفسهم تنظيما محكما لسرقة بعض الأدوات التى يمكن خلعها من عربات السكة الحديدية • وكانوا يبيعون ما يسرقون لتاجر معين كان يمدهم بالنقود لهـذا الغرض • وعلينا أن نعرف كذلك فى السرقة الجمعية ، ما اذا كان السارق تابعا أم متبوعا • وفى كثير من الحالات كنا نجد أن شخصا من الأقوياء المتعطلين (البلطجية) يدفع بعض الأولاد للسرقة تحت اغراء • وبعد مرة أو مرتين يستمر بدفع الأولاد تحت التهديد • وكثيرا ما يحدث هذا مع خادمات المنازل الصغيرات السن ، الساذجات العقل • فأحد الباعة المتجولين هدد خادمة بالقتل اذا لم تسرق له من سيدتها بعض النقود ، ووصل ما سرقته فى احدى المرات الى عشرة جنيهات • وأحد باعة الثلج كان يهدد خادمة فى سن الحادية عشرة بالاعتداء الجنسى عليها اذا لم تسرق له ما يريده • وعلينا أن نتبين كذلك المادة المسروقة ، وطريقة السرقة ، وما يدل عليه كل هذا من ذكاء أو غباوة • فبعض الناس يسرقون أشياء كبيرة ظاهرة ، ذات ألوان براقة ، يتحتم ضبطهم بها • وبعضهم يسرقون ما خف حمله وغلا ثمنه فى ظروف لا يمكن ضبطهم فيها اطلاقا •

وعند دراسة حالة السرقة لابد من محاولة الوصول للوظيفة التى تؤديها السرقة ، أى أنه لابد من دراسة الدوافع الظاهرة والعوامل المستترة التى تؤدى الى السرقة • وبالاضافة الى كل ذلك لابد من دراسة أنواع المهارة الجسمية كسرعة اليدين ، وخفة الحركة ، وسرعتها ، والقدرات العقلية كالذكاء العام والقدرة الميكانيكية ودقة الحواس ، وكذلك المهارة الاجتماعية كالقدرة على الزعامة وخفة الروح ولباقة الحديث وترتيب المواقف وغير ذلك • وتساعدنا دراسة هذه المهارة على حسن دراسة الشخص وحسن توجيهه توجيها صالحا •

بعض القواعد العامة :

اذا امتدت يد الطفل الصغير الى شيء لا يحق له أن يأخذه فعلمه بغاية الهدوء أنه يجب عليه أن يستأذن قبل أخذ شيء ليس له ، ثم علمه بهدوء أيضا ما له فيه حق وما ليس له فيه حق ، ولا تنفعل ، أو تسخط ، أو تعاقب ، أو تؤنب ، أو تصف الولد بأنه لص — ولو عن طريق المزاح — فانك بذلك قد تعلمه لأول مرة فى حياته معنى كلمة لص • ومن الجائز أنه يجد بعض اللذة فى هذا العمل فيستمر فيه لأن فيه بعض الجرأة ، أو لأن فيه انتصارا على الكبار ، أو لأن فيه وسيلة سهلة لاشباع لذاته الأخرى التى لا يجد سبيلا آخر لاشباعها • لهذا يجب أن تتأمل لتعرف الرغبة التى دفعته الى السرقة لتشبعها بالطريق السوى — قدر الامكان — ولتعلمه شيئا عن ضبط رغباته وتحكمه فيها •

وعليك أن تبذل جهدك لخلق شعور بالملكية عند الطفل ثم عوده كيف يحافظ على ما يمتلكه ، وكيف ينظمه ويهتم به • فيكون للطفل (دولاب) صغير مثلا يجمع فيه ممتلكاته ومقتنياته من صور الى طوابع بريد الى أقلام الى غير ذلك • ويمكن أن يعلم كيف ينظم هذه المقتنيات ويحسن عرضها ، ويفخر بها • كذلك يصح أن يعطى الطفل عندما يصل الى العمر المناسب مصروفا منظما ، ويعلم بين آن وآخر كيف ينفق وكيف يدخر • وأما الخدم ومن يشابههم فيجب ألا توضع فى طريقهم المغريات التى هم محرومون منها كالحلوى والنقود وما يشبههما •

ويراعى فوق ما تقدم أن الطفل لا يسرق قط ممن يشعر بصداقته له وغطفه عليه • فلتكن معاملتنا للأطفال — كما بينا مرارا وتكرارا — متجهة نحو العطف فى غير ضعف ، والحزم فى غير عنف •

المراجع

Adler : Guiding the Child.

Allers : The Psychology of Character.

Blanton : Child Guidance.

C. Burt : The Young Delinquent.

Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.

Hartsborne and May : Studies in Deceit.

Hutchinson : Motives of Conduct.

Kanner : Child Psychiatry.

J. Larson : Lying; Its Detection.

Miller : Advances in Understanding the Child.

Patri : Child Training.

Russell : On Education.

H. Smith : Psychology of Crime.

Thom : Everyday Problems of The Everyday Child.

الفصل الحادي والعشرون

الميل إلى الاعتداء والتشاجر ونوبات الغضب

مقدمة :

يدخل الكثير من أنواع المشكلات التى درسناها — تفصيلا أو ايجازا — تحت نوع يمكن أن نسميه النوع السلبى أو الانسحابى ، أو كما يسميه « بيرت »[1] النوع الضعيف ، ومن هـذه التهتهة والانزواء والحركات العصبية .. وما الى ذلك . ويدخل الكثير مما ذكرناه أيضا تحت نوع يمكن أن نسميه النوع الاعتدائى أو الايجابى ، أو كما يسميه « بيرت » النوع القوى ، ومن هذه قرض الأظافر وبعض أنواع السرقة وبعض أنواع الكذب الادعائى وجنون العظمة .. وما الى ذلك . وتتميز هذه الأنواع الايجابية عادة بطابع معين تستحق أن تدرس من أجله دراسة خاصة قائمة بذاتهـا .

ويلاحظ هذا الطابع المعين فى الميل للاعتداء والتشاجر والانتقام والمشاكسة والمعاندة ، والميل للتحـدى والتلذذ من نقد الآخرين وكشف أخطائهم واظهارهم بمظهر الضعف أو العجز ، والاتجاه نحو التعذيب والتنغيص وتعكير الجو والتشهير واحداث الفتن والنوبات الغضبية بصورها المختلفة المعروفة . فكل هذه الحالات ومشابهاتها يصاحبها فى العادة الحالة الانفعالية المعروفة بالغضب بدرجاتها المختلفة . والغضب فى صوره المتعددة ودرجاته المتفاوتة تظهر آثاره ومظاهره للآباء والمعلمين بكثرة فى حياتهم اليومية . وليست المشكلة قاصرة على الأطفال وحدهم ، وانما تظهر عادة فى جميع

---

(١) يقسم بيرت فى كتابه (The Subnormal Mind) جميع الحالات العصبية الى قسمين : أحدهما يمكن أن يسمى عصاب الضعف (Asthenic neurosis) والثانى يمكن أن يسمى عصاب القوة (Sthenic Neurosis)

الأعمار ولا سيما الأعمار التى تحدث فيها تغيرات أساسية فى حياة الفرد •
فهى تظهر فى السنة الأولى عند الفطام ، وتظهر عند مجىء مولود جديد فى
الأسرة ، وعند الانتقال من حياة الحضانة المنزلية الى المدرسة ، وعند دور
المراهقة والبلوغ • وسواء ظهر الاستعداد البارز للغضب فى الأدوار الأولى
أو المتأخرة ، فبذوره توجد عادة من سنى الطفولة الأولى •

والغضب حالة نفسية يشعر بها كل انسان ، ولكن الفرق بين فرد وآخر،
هو أن المواقف المثيرة للغضب تختلف من فرد الى آخر ، وكذلك تختلف
أساليب التعبير عن الغضب من فرد الى آخر اختلافات بينة — سواء فى نوعها
أو فى درجتها — وكذلك تختلف فى ترددها وشدتها من شخص الى آخر
اختلافات واسعة المدى • فالمواقف التى تثير الغضب عند تلميذ ما قد تكون
تقدم زميل عليه فى الدراسة ، وقد تكون عند آخر الازدراء بملبسه ، وعند
ثالث اظهار الاحتقار لقوته الجسمية •• الى غير ذلك • وأما أساليب التعبير
عن الغضب فقد تكون بتهشيم السبب المثير نفسه بالاعتداء عليه بالأساليب
البدائية من ضرب وعض ، وقد تكون بالاعتداء على ممتلكاته أو ما يتصل
به وذلك بالتدمير والاحراق والسلب ، وقد تكون كذلك باظهار الغضب دون
اعتداء ملموس على الشخص المقصود بالاعتداء ، وانما باللجوء الى
التهديدات والشتائم والنقد وما الى ذلك • هذه كلها أساليب مباشرة
للاعتداء وهناك أساليب غير مباشرة ينتمى معظمها الى أساليب الضعف التى
سبق أن أشرنا اليها ، ومن هذه السرقة والكذب والهروب والاستغراق فى
النوم •• وما الى ذلك •

وحيث ان استعداد الانسان للغضب فى مواقف معينة استعداد فطرى
الأصل — أى أنه موجود بالطبيعة — فموقفنا نحو الغضب يجب أن يكون
موقف تعهد وتوجيه وانماء فى الاتجاه الصالح ، ولا يصح أن يكون موقف
استئصال بحال من الأحوال • فالنزوع للغضب والمقاتلة ليس أمرا يغرس
أو ينزع وانما هو ناشىء عن مصدر ثابت للطاقة لا يمكن القضاء عليه •
ولا شك أن لانفعال الغضب وغريزة المقاتلة قيمة حيوية كبرى لحياة الفرد •

وغاية نشاط هذه الغريزة التغلب على مافى بيئة الكائن الحى من عوامل تقف دون تحقيق الغايات الحيوية الأخرى • ولها — كما لبعض الغرائز الأخرى — وسائلها وأسلحتها • ومن هذه القرون والفم والأسنان والعضلات والأطراف والأشواك والحمة •• وما الى ذلك ولها عند الانسان بعض هذه الأسلحة ، ولكن ما يضاف اليها ما ينتجه عن طريق الحيلة والاختراع • وقد وصل حتى الآن الى حرب الأعصاب والقنبلة الذرية وأساليب المناورات السياسية الدولية ، وصار عنده مدى واسع جدا من أساليب المقاتلة •

ونظرا لفطرية هذا الاستعداد فانه يخضع غالبا لقوانين الوراثة المعروفة ؛ ولكن نظرا لأنه صفة نفسية ، فانه يخضع أيضا لأثر البيئة خضوعا كبيرا • لذا نجد أن أثر الوراثة يختفى فى أغلب الحالات — وان كان يتضح فى بعضها — وقد عرفت بعض الأمم والقبائل بميلها للمقاتلة أكثر من غيرها • ونعلم أن البنين على وجه العموم أشد ميلا للمقاتلة من البنات ، مما جعل البعض يميل الى اعتبار المقاتلة صفة ذكرية • ويتضح الميل للمقاتلة كذلك فى أصحاب مهنة دون مهنة أخرى • وهذه الصورة المختلفة من أساليب توزيع المقاتلة بين مجاميع الناس يعطى أدلة فى اتجاه أثر الوراثة ، كما يعطى أدلة فى اتجاه أثر البيئة • وقد دلت دراسة بعض الحالات الفردية الشاذة على أن أثر الوراثة بارز فيها بصورة واضحة لا تحتمل الشك[1] • ويتأثر الغضب بعوامل بيئية أو مادية مختلفة ، كالتقاليد والمثل والمعاملة ودرجة الحرارة الجوية ونوع التغذية وبعض المشروبات • • وما الى ذلك •

ويرجع الكثير من قيمة هذه الغريزة الى حدة الانفعال المصاحب ، والى كمية النشاط العظيمة التى يمكن اطلاقها عن طريقها • وتشترك فى هـذا النشاط أغلب أجزاء الجسم وأجهزته وغدده وعضلاته • • وما الى ذلك • ولذا كانت غريزة المقاتلة عظيمة القيمة فى خدمة أغراض الغرائز الأخرى كالجنسية والملكية والطعام والسيطرة •• وما الى ذلك • وهى تنشط لخدمة الحاجات والميول الفطرية والمكتسبة بمختلف أنواعها ، وبذلك تصير المقاتلة

---

(١) مثال ذلك حالة ابرين الواردة فى كتاب C. Burt. op. cit, p. 434

ضرورية أحيانا لصون الشرف والسمعة والكرامة والمال • • وما الى ذلك • وحيث أنها قوة ضرورية للتغلب على الصعاب فهى تفيد فى نزعات التجريب والمخاطرة والتفوق وكسب الثقة بالذات • وهى قوة تستغل لتقدم المجتمعات ومحاربة ما فيها من أمراض جسمانية وخلقية • وهى من العوامل الهامة التى تعطى العلماء والمكتشفين قوة تغلبهم على ما يتعرض أعمالهم من مصاعب ومقاومات • وهى من المصادر التى ساعدت على اخضاع الطبيعة بقواها وثروتها للانسان •

نرى مما تقدم أن النزعات الاعتدائية بمختلف أنواعها صادرة عن استعداد راسخ فى طبيعة الانسان ويمكن أن يتجه نشاطها اتجاها هدميا ضارا • ويمكن أن يتجه اتجاها مفيدا لكل من الفرد والمجتمع ، وقد قال « مكدوجل »[1] : ان غريزة المقاتلة لعبت دورا أكبر مما لعبته أى غريزة أخرى فى تطور التنظيم الاجتماعى •

دراسة حالات :

ولكى نفهم أصل النزعات الاعتدائية الشاذة وصورها وأساليب توجيهها ندرس بعض الحالات • ومن الحالات التى يمكن اعتبارها كلاسيكية حالة « جرى Jerry [2]» وهو غلام فى السابعة والنصف قتل زميلا له باغراقه عمدا فى النهر • كان « جرى » يلعب مع زميله هذا قرب النهر ، وأراد أن يأخذ منه لعبة كانت فى يده ، فرفض هذا الزميل، وأصر «جرى» على طلبه، وصمم الزميل على الرفض ، ثم شتم «جرى» وعيره بأنه لا أب له ، فهاج «جرى» وما كان منه الا أن دفعه فى النهر ، فتشبث المجنى عليه بحافة النهر ، فركله برجله ، وما زال به حتى أغرقه ، واستراح منه • لا يكفى هذا الحادث وحده لتفسير الجريمة • فنحن اذا درسنا تاريخ الولد نجد أنه ابن سيدة فقيرة ولدته سفاحا ، وعاش الولد مع أمه عيشة الكفاف • وكانت أمه تعمل بالخدمة المتقطعة فى المنازل ، ولذا كانت تتركه بغير نظام بلا رقيب وبلا غذاء فى غالب الأيام • وكانت المدرسة التى كان يذهب اليهـا الولد بعيـدة عن مسـكنه • فبعـد

---

(1) Wm. Mc. Dougall: Social Psychology; Ch. 5, p. 240.

(2) C. Burt: The Young Delinquent. Ch. 1.

المدرسة وضعف رقابة أمه عليه شجعاه على الهروب من المدرسة فى كثير من الأحوال ٠ بذلك صار متأخرا فى دراسته ، عرضة للتشرد ٠ وكان الأولاد يعرفون أنه طفل غير شرعى مما كان يدفعهم الى تعييره بذلك ، ومما جعل الولد يحس بالنقص الشديد والنقمة البالغة على من حوله ٠ تراكمت آثار هذه الظروف وظلت مكبوتة فى نفسه الى أن جاء حادث اللعبة مثيرا له فانفجر الحقد المتراكم من الماضى بالصورة التى ذكرناها ٠

لم يذكر « بيرت » ما تم لهذا الولد من علاج ٠ لهذا نشرح احدى الحالات التى درسناها وعالجناها بنجاح ، وهى حالة لولد فى الثانية عشرة من عمره ، يعيش فى حى المذبح — أحد أحياء القاهرة — وكان مصدر الرعب لكل أهل الحى ، فهو يخطف ويسرق ويضرب ولا يبالى ٠ وبلغ من قوته أنه كان يسرق اللحم من الجزارين — وهم قوم عتاة جبابرة — وبلغ من عنفه أن رجال الشرطة كانوا يعملون له ألف حساب ، فاذا قبض عليه خطأ وأرسل الى القسم فسرعان ما يطلق سراحه ، ولا سيما أنه يرشدهم أحيانا الى تجار الحشيش ومهربيه ٠ ولكن حدث ذات مرة أن قبض عليه وهو يسرق صندوق زجاجات (غازوزة) من عربة فى أثناء سيرها فى شارع خيرت — أحد شوارع القاهرة — ثم أرسل الى القسم ومنه الى النيابة ثم الى مكتب لدراسة الأحداث ٠ واتضح أنه حوكم قبل ذلك مرتين : احداهما لسرقة دراجة والأخرى لسرقة موقد (غاز) ٠ وعندما بدأنا بحث حالة الولد عانى الباحث الاجتماعى كثيرا جدا ، فكان فى الغالب لا يعثر عليه ، وعندما يجده يعتدى عليه ، أو يهرب منه ، وعندما تمكن من استدراجه ليسير معه اشتبك فى الطريق العام فى عدة مشاجرات ، وتكرر هذا مرات عدة حتى يئس من بحث حالته ٠ وأخيرا نجح فى أن يصل به الى المكتب ، وما كاد يغفل عنه قليلا حتى فر الولد هاربا ، ثم عاود المحاولة ، وبعد مرات عدة تمكن الولد من أن يثق أن ضررا ما لن يلحقه ، وبأن المتخصص النفسانى والمتخصص الاجتماعى سيعملان لصالحه ٠ وفى احدى مقابلات الولد قال له الاختصاصى النفسانى : « اننا لا نريد أن نضطرك لمقابلتنا فان أردت فلصالحك ، وان لم ترد فلك كامل الاختيار فى عدم الاتصال بنا » ٠ مثل هذا الاتجاه

السلبي (في الظاهر) جعل الولد لا ينظر الى الاختصاصي النفساني نظرات عدائية ، بل اطمأن اليه واستمع لكلامه وجلس بهدوء ليؤدي ما أجراه عليه من اختبارات • وهكذا واصلنا العمل معه بهدوء وتدرج الى أن ألحقناه بمؤسسة تسير مع أمثاله على أساس استعدادهم • وبالفعل صار من أحسن أولاد المؤسسة ، والتحق بالعمل ، ونبغ في النواحي الرياضية نبوغا كبيرا وصار غيورا جدا على سمعة « الأسرة » التي ينتمي اليها في المؤسسة ومهتما بسمعة المؤسسة كلها وصار من قادة الأولاد في المؤسسة •

وبدراسة حياة الولد اتضح أن أباه رجل شرير مدمن لتعاطي المخدرات ، وكان ينتهز فرصة الاظلام في أثناء الغارات الجوية فيصطحب ابنه للسرقة من الجيران ، وعلى الرغم من اعتدال مكاسبه فانه لم يكن يعطي ابنه نقودا ، بل كان يشجعه على الخطف والسرقة ليحصل على قوته • وقد تركت الأم زوجها وابنها اشمئزازا من سلوكهما ، وعاشت مع أهلها منذ مدة بعيدة • وينام الرجل وابنه اما على طوار واما في مدخل منزل يملكه بالاشتراك مع أخيه • فالولد صار هو وأبوه منبوذين من الأم • ووالده يقربه اليه بالقدر الذي يتمكن معه من استغلاله ، ويشعر الولد بنقمة عامة على المجتمع ، وهو متوثب دائما للانتقام والاعتداء •

ومن العجيب أننا بعد أن تولينا توجيه الولد الى الحياة الجديدة صار ميالا الى حياة العمل والكسب الشريف ، اذ ألحقناه بعمل « ميكانيكي » وهو العمل الذي يلائم استعداده الجسمي والعقلي والخلقي ، وصار كثير النقد لوالده الذي يسلك في نظره سلوكا سيئا للغاية • ووالده الآن في السجن لسرقة ارتكبها •

نرى من هذه الحالة أن مصادر النزعات الاعتدائية يمكن تحويلها من المسالك السيئة المضادة للمجتمع الى المسالك المقبولة في المجتمع • وذلك عن طريق وضع الولد في بيئة اجتماعية تعطيه التقدير والأمن ، وتزوده بنشاط اجتماعي صالح ، وعن طريق اعطاء الفرصة لنزعاته القوية للظهور دون انماء للأنانية ، ومع مراعاة انماء الشعور بالمسئولية الاجتماعية • وليس هنا مجال التفصيل في هذه الناحية •

حالة فى نوبات الغضب لطفل فى سن الخامسة :

هذا ولد فى سن الخامسة شديد المعاندة والرغبة فى الاتلاف ، عنيف جدا فى تصرفاته • اذا لم يجب الى ما يطلب فانه يعبر عن غضبه بنوبات يصرخ فيها بشدة ، ويرتمى على الأرض ، ويرفس الى أن يجاب طلبه ، وهو يعيش مع أمه فى بيت جده ، لأن الوالدة انفصلت عن زوجها بالطلاق عندما كانت حاملة ذلك الابن • فالولد يعيش فى منزل متعدد السلطات ؛ فهناك سلطة الجد ، وسلطة الجدة ، وسلطة كل من الأخوال ، وسلطة الأم • ولذلك انعدمت وحدة السلطة الضابطة أو الهيئة الموجهة ، وعرف الولد كيف يستغل نواحى الضعف الكامنة فى جو الأسرة لمصلحته • يضاف الى ذلك أن الولد نفسه مرتبك ، ولا يشعر بأنه ينتمى الى والد كبقية الأولاد • ويشعر فى الوقت نفسه شعورا ضمنيا بأن هناك غموضًا كبيرا حوله وحول مستقبله من حيث اطمئنانه على استمرار بقائه مع أمه ، أو عدم بقائه معها • فالولد يعيش فى جو يشعر بأنه لا يفهمه اطلاقا ، ويمكنه مع ذلك أن يصل فيه الى كل رغباته • وقد ساعد ارتفاع ذكاء الولد على سهولة كشفه لخصائص هذا الجو فى سن مبكرة ؛ اذ أن مستوى عقل الولد وهو فى الخامسة يساوى مستوى عقل طفل فى سن السادسة والنصف •

وللولد مشكلات أخرى عديدة تعتبر كلها نتائج لمركزه ممن حوله ، حيث انه يعيش فى جو غامض غير مفهوم ، ولا يمكنه أن يطمئن اليه تمام الاطمئنان ومع ذلك فهو جو ضعيف فى مجموعه بالنسبة اليه ، يخضع من فيه عادة لاجابة طلباته • فتهييج الطفل ونوبات غضبه فى هذا الجو تساعده على اجابة طلباته ، وينم تهيجه فوق ذلك عن نقمته على هذا الجو وعدم اطمئنانه اليه (حالة ص ٢٧٠) •

حالة غضب ومعاندة لتلميذ فى السادسة عشرة :

وتلميذ فى سن السادسة عشرة تصيبه نوبات عصبية شبيهة بالصرع ، ذكر عنه والده فوق ذلك أنه عنيـد ، لا يهتم برأى والـديه ، كثير الزجر والمشاكسة لاخوته ، منصرف عن مذاكرة دروسه مما أدى الى تأخره الدراسى

تأخرا كبيرا • وقد اتضح بدراسة الحالة أن هذه الاتجاهات وغيرها ظهرت كلها فى مرحلة التعليم الثانوى ، أى فى دور المراهقة • ويلاحظ أن الولد يريد أن يثبت وجوده بالأسباب التى يؤدى أغلبها فى نفس الوقت الى اثارة الغيظ فى والده ، وبذلك تصير وسائل اعتدائية غير مباشرة بجانب وظيفتها فى اثبات الذات ، وهذه الأساليب هى :

١ — عصيانه لوالديه •

٢ — التدخين •

٣ — المشاجرة وتقديم الشكوى لرجال الشرطة عمن يخطئون نحوه مهما كان الخطأ تافها •

٤ — بطاقته التى وضعها بجانب بطاقة والده على صندوق البريد •

٥ — الخروج مع أصدقائه الى ساعة متأخرة جدا من الليل •

٦ — استقبال ضيوفه وأصدقائه أيا كانوا فى المنزل فى أى وقت يشاء وبغض النظر عن رأى بقية من فى المنزل فى ذلك •

٧ — رغبته فى أن يكون له فى حركة المنزل صوت مسموع لا يقل عن صوت والده •

٨ — كتابته مذكرات خاصة عن نفسه •

٩ — خروجه من المدرسة فى أى وقت شاء وبغير استئذان •

ويلاحظ أن والده رجل عنده بعض العصبية ، وهو كثير النقد لابنه هذا ولا سيما أنه ابنه الأكبر وكان يركز فيه كل آماله • يفرض الوالد بعض القيود على ابنه ولو أن بعضها قيود معقولة ، ولكنه يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى حياته ، ويهمه أن يكون رأيه هو المتغلب فى النهاية ، والوالد فوق كل ذلك يتهيج على ابنه لدرجة تخرجه أحيانا عن حدود صوابه • وهو يخشى ألا يكون هناك أمل فى اصلاح حال ابنه ؛ اذ أنه يرى أنها لابد أن تكون وراثية • ويستند فى ذلك الى بعض الأدلة غير القوية • هذه الحالة تعتبر حالة ثوران أو عدم استقرار ، وهى وان كانت لا تتميز بنزعاتها الاعتدائية المباشرة ، غير أن ما بها من النواحى الاعتدائية يظهر مع غيرها من النواحى

الأخرى • وبذلك نرى أن النزعة الاعتدائية فى هذه الحالة والحالات السابقة لا تخرج عن كونها عرضا واحدا من مجموعة أعراض للشخصية كلها • مثلها فى ذلك مثل أى سلوك مشكل •

أسباب الغضب فى الحالات الشاذة :

ومما يكثر ظهوره عند الأطفال ما يسمى بنوبات الغضب ، وهى تظهر بأسلوبين : أسلوب ايجابى مصحوب بالثورة ، أو الصراخ ، أو الضرب ، أو الرفس ، أو الرجم بالحجارة ، أو دفع الأبواب ، أو اتلاف الأشياء ، أو ما يشبه ذلك • وأسلوب سلبى مصحوب بالانسحاب أو الانزواء أو التجهم ، أو الاضراب عن الكلام أو الأكل ، أو ما يشبه ذلك • أما الأسلوب الأول فهو أسلوب الظاهريين ، أو المنبسطين (Extroverts) وأما الثانى فهو أسلوب الباطنيين أو المنطوين (Introverts) • وهذا النوع الثانى الهادىء فى ظهوره — وان كان مريحا للآخرين — أضر بالشخص من النوع الأول ؛ اذ أنه يصحبه كبت لانفعال الغضب ، قد يتبعه — بعد مدة قصيرة أو طويلة — اغراق فى أحلام اليقظة التى قد يتصور فيها نفسه منتصرا أو مظلوما أو مقصودا بالظلم من غيره ، أو غير ذلك ، أو قد يتبعه انفجار أو تحويل [1] (Transfer) ، وأما النوع الأول فمن مميزاته على الأقل أنه يعطينا فرصة لفهم الشخص ، ودراسة سلوكه الظاهر غير المكبوت • ومن مميزاته أيضا شعور الشخص بشىء من الراحة ، بعد تعبيره عن انفعاله بصورة ظاهرة •

وتظهر نوبات الغضب أحيانا اذا كانت السلطة الضابطة متغيرة ، فاذا طلب طفل من أمه مثلا أمرا ما وامتنعت ، ثم صرخ فأجابت طلبه ، فانه يغلب أن امتناعها بعد ذلك فى فرصة أخرى يؤدى الى صراخه • وكثيرا ما يحدث أن تتنبه الأم الى أن الولد قد يتغلب عليها اذا لم تصمد فتصر على الامتناع ، ويصر هو على رفع صوته فى الصراخ ، وقد تستمر الحال الى أن تجيب الأم طلبه • وهذه طريقة من الطرق التى تنشأ بها نوبات الغضب • فالطفل يدرك حدود السلطة فى بيئته • لذا نجده قد يصرخ مع أمه ، ولا يصرخ مع

(١) راجع عملية التحويل صفحة (١٣٤) •

أبيه • أو يصرخ مع أمه فى حضور جدته ، أو خالته لأنه يضمن اذ ذاك شفيعا له به خبرة سابقة • بذلك تصير نوبات الغضب بدرجاتها المختلفة سلاحا يستعمله الطفل بالمقدار الكافى فى الظرف المناسب • وتصل أحيانا نوبات الغضب الى درجة شديدة كاحتقان الوجه ، واحتباس الكلام ، أو الاغماء أو القىء ، أو كثرة البكاء ، وغير ذلك • والاغماء فى مثل هذه الحالة يكون أسلوبا عقليا لاشعوريا يصدر من الطفل للحصول على حاجة مادية أو معنوية • فمما يترتب عادة على الاغماء ، أن الأسرة كلها تجتمع ذعرا حول الطفل ، وكل فرد منها يقوم بنصيبه فى مساعدته ، وينظر اليه نظرة ملؤها الخوف والحنان والتأثر • وهكذا يصير الاغماء وسيلة تؤدى غالبا الى اهتمام الأسرة به ووضعه فى مركز عناية كل فرد منها •

هذا النوع من الاغماء نعرفه فى الحالات التى تشبع حاجاتها كلها ، وتدلل فى أول الأمر ثم تعامل بالشدة فى المراحل المتأخرة • ولذا فاننا نجدها عادة فى الطفل الأول ، أو فى الحالات التى يعيش أصحابها فى جو تتذبذب فيه المعاملة بين أساليب الشدة وأساليب التراخى الصادرة من شخص واحد ، أو فى الجو الذى تتعدد فيه أساليب مختلفة لسلطات متعددة كسلطة الأم والأب ، أو سلطة هذين مضافا اليها سلطة الأجداد والخالات ومن يشابههم •

ومن أسـباب نوبات الغضب والعنف فى السلوك الشـعور بالخيبة الاجتماعية ، كتأخر التلميذ فى دراسته أو اخفاقه فى التقرب من والديه أو معلميه ، ولذا نجد أن الشعور بالغيظ والحنق والتعبير عنهما كثيرا ما يكون حادا واضحا فى حالات الغيرة • كذلك يؤدى الى نفس النتائج شعور الطفل بظلم يقع عليه من المحيطين به من مدرسين أو آباء أو اخوة • وأشد حالات الشعور بالظلم ما كان بجانبها شعور الشخص بمحاباة ذوى السلطة لغيره ، اذ أن جزءا كبيرا من الشعور بالظلم هو فى الواقع شعور نسبى • ويضاف الى ما تقدم الشعور بفقد الاطمئنان الى البيئة المحيطة •

ومن أهم أسباب الغضب أيضا تقييد الحرية سواء فى ذلك حرية الحركة

الجسمية أو اللعب الحر عند الصغير • ويخطىء بعض الآباء فى أنهم يتدخلون كثيرا فى ألعاب الأطفال ليحلوا لهم مثلا لغزا استعصى عليهم حله أو غير ذلك مما يحرمهم لذة المحاولة الذاتية والنجاح الذاتى • ومن أسباب الغضب كذلك تقييد حرية التعبير عن الرأى ، وتقييد اثبات الذات ولا سيما عند المراهقين والكبار ، ويدهش كثيرا من الآباء ميل أطفالهم الى المعاكسة والمشاكسة بعد بدئهم حياتهم الدراسية ، والسبب فى ذلك هو أن جو المدرسة — بكل أسف — جو مقيد فى العادة لحرية الحركة ، وحرية التعبير عن الفكر ولا يسمح فيه باثبات الذات اثباتا كافيا • والطفل لا يمكنه فى الغيرة أن يثور مباشرة على السلطة القائمة فى هذا الجو ، فيقوم دون أن يقصد أو يشعر بعملية تحويل للثورة أو الغضب الى أشخاص أو أشياء لها بمصدر السلطة بعض العلاقة ، وتكون العلاقة قائمة على وجه شبه بعيد ، وأحيانا لا تكون هناك علاقة ظاهرة اطلاقا • فعند عودة الطفل الى المنزل يغضب على أمه أو على اخوته ويكون كثير المطالب قليل الصبر كثير النقد شديد التدقيق لغير سبب جوهرى شديد الغضب • ومثل هذا ينطبق على كل جو يسوده الضغط والتقييد سواء أكان جوا اجتماعيا عاما أو مجالا اجتماعيا محدودا •

ولا يجوز الخلط هنا بين تقييد الحرية ووجود المقاييس الضابطة ، فالطفل فى حاجة الى توجيه لمعرفة الحسن والردىء مع عدم تقييد حريته بارغامه على اتباع نظام معين محدود التفاصيل •

وليس من الضرورى أن يتم دائما تقييد الحرية بالطرق العنيفة من جانب السلطة ، فقد يتم بطرق تبدو غاية فى الضعف • وقد شوهد هذا فى عدد غير قليل من الحالات • ومن أمثلته أن شابا ، وهو فى سن السابعة عشرة أو أكثر ، كان اذا خرج مع أصدقائه للتنزه بكت أمه ، وبدا عليها الشقاء • وفى ذات مرة مرضت الأم أسبوعا لأن ابنها خالفها ، وسهر فى الخارج مع أصدقائه الى ما بعد التاسعة مساء • وكانت النتيجة فى هذه الحالة بالذات أن الولد كره البقاء بالمنزل كرها شديدا ، وخشى الخروج منه

خوفا على أمه التى يقول انه يحبها حبا جما • وبهذا وقع فى صراع عقلى عنيف بين نزعتين متناقضتين هما : تشوقه لاثبات ذاته ، وحرصه على ارضائه لأمه • نتيجة هذا أنه كان ينفجر أحيانا فى أمه وأحيانا يدخل غرفته ويحبس نفسه فيها ، ويصرخ بصوت مرتفع • وقد صار مضطربا قليل الاستقرار ، يفكر أحيانا فى الانتحار ، قليل القدرة على تركيز جهده فى أعماله الدراسية • وحالات كثيرة من المرض العصبى والعقلى منشؤهما السيطرة بالضعف من جانب الأمهات والآباء[1] •

وقد يكون الغضب عند الأطفال صورة من الغضب عند الآباء وقد تحدث هذه الصورة اما بالتقليد والنقل ، واما تحدث كرد فعل على غضب الوالدين وما ينتج عنه لأتفه الأسباب ، فبعض الآباء يغضب ان لم يجد طعامه معدا فى اللحظة التى يريده فيها ، أو ان فقد زرار قميصه فى أثناء لبسه فى الصباح أو ان قطع رباط حذائه فى أثناء شده له • وهكذا تجد بعض الآباء متوثبين للغضب فى كل لحظة • كذلك غضب الأطفال مع اخوتهم أو مع الخدم قد يكون صورة ظهرت عن طريق التقليد أو الرغبة فى الانتقام منشؤها غضب الآباء معهم • وفى الحالة الثانية يكون الغضب متسببا من كثرة مشاجرات الوالدين أنفسهم مما يهز ثقة الطفل بالجو المنزلى ، ويجعل الطفل متحزبا مع أحد الوالدين ضد الآخر[2] وبذلك يصير ناقما على الجو المنزلى كله ، أو على جزء منه ، وقد تنتقل معه هذه النقمة الى الجو الخارجى فى علاقته بالمجتمع عامة أو ببعض أجزائه كالزملاء أو المرءوسين أو الرؤساء أو السلطة الحاكمة أو القانون نفسه •

ومن العوامل التى تساعد على تهيّج الأشخاص وتعرضهم لنوبات الغضب

---

(١) هذه هى نفس الحالة (ص ٢٧٤) ، ويلاحظ أن النزعات الاعتدائية تتجه نحو أمه فلا تجد منفذا فترتد عليه ، ومثل هذه الحالات كثير فى حالات الانتحار وما هو أخف من ذلك من حالات عقاب الذات (Self Punishment) ومجاهدة النفس (Asceticism) •

(٢) يتحزب الطفل عادة للشخص الذى يميل اليه ، وقد يعتقد هو أنه مظلوم أو ضعيف • ويكون الطفل غالبا فى جانب الأم ، ويترتب على انقسام جو الأسرة بهذه الصورة مشكلات عديدة •

حالتهم الجسمية ، فأى نقص عام أو محلى يؤدى الى اضعاف قدرة الشخص على السيطرة على موقف ما قد يجعل الشخص هائجا متوثبا • فبعض الأطفال ، لعدم قدرتهم على المشى أو الكلام أو الرؤية أو اللعب أو ما الى ذلك قد تجدهم فى حالة توثب واستعداد للغضب والهيجان •

مشاجرات الاخوة :

لانكون مبالغين ان قلنا : ان كل أسرة بها أكثر من طفل واحد لابدأن يحدث فيها شىء من النزاع والتشاجر• فمن الأمور العادية أن يقوم أخ بتعيير أخته مثلا بلون شعرها أو ضخامة قوامها أو غير ذلك • كذلك يحدث أن تعير الأخت أخاها بأمور مختلفة • ويتشاجر الاخوة مثلا عند تسابقهم لعمل ، أو لعب ، أو الحصول على امتياز معين من أى نوع كان • كما يجوز أن ينال طفل ما عقابا سببه له طفل آخر مثلا ، فيقوم هذا الطفل الآخر باثارة المعاقب ، فيثير غيظه بكلمات معينة أو بتعبيرات معينة يرسمها على وجهه ، مما يهيىء الجو لشجار من النوع العنيف • كذلك يحدث أحيانا أن يرغب الأخ الأكبر فى فرض سلطته على الأصغر فيتهيج الأصغر لهذا ، ويلجأ لوالديه • وكما جرت العادة قد يكون الأصغر معززا من الوالدين • يحدث بعد ذلك — على سبيل المثال — أن يخرج الأخوان معا — أصغرهما فى حراسة الأكبر — لقضاء مهمة معينة ، ويريد الأكبر أن يسير الأصغر حسب هواه ، والأصغر يمانع ، فيستعمل الأكبر سلطته ، وينهر أخاه ويدفعه ، وانما يفعل ذلك بشىء من الخوف وعدم الاسترسال فيه ، لأن الأصغر مسنود من الوالدين • فتجد اذ ذاك أن الأصغر يتشاجر بعنف وشدة لنفس السبب — وهو أنه معزز من الوالدين — ولذا تتجدد المشاجرات بين الاخوة ، ويكون لموقف الوالدين بعض الاثم فى اتجاه المشاجرات ودرجة عنفها • ويحدث أحيانا أن يشعر الأخ الأول والثانى أن الثالث مدلل من الوالدين فيتحدان ضده ، ويكثران من التشاجر معه • وأحيانا يتفق الأول والثالث ضد الثانى مثلا لأن الثانى ممتاز عنهما لخفته أو لجمال شكله ، أو لشدة ذكائه ، أو لرقة صحته التى جعلت الوالدين يغدقان عليه عناية لم يشعر الآخران بمثلها • وهكذا من التشكيلات الأخرى العديدة •

ويتشاجر الاخوة اذا اعتدى أحدهم على مايعتبره الآخر ملكا له ، أو على ما يعتبره أنه ليس ملكا للمعتدى • فالطفل يتشاجر مع أخيه اذا لعب هذا فى كتبه أو أدواته ، أو ملابسه ، أو اذا لعب فى كتب والده مثلا : الى غير ذلك •

ونجد على وجه العموم أن الاخوة الذين لا يتشاجرون قل أن نسمع عنهم • ومجرد اجتماع طفلين أو أكثر فى مكان واحد يقيم فى العادة مسرحا لمنازعات تختلف فى نوعها وموضوعها ، ودرجة عنفها اختلافات كبيرة • وهذه المنازعات قد تطول وقد تقصر ، وتتخللها عادة معاهدات للصلح لا يراعى فى تنفيذها أى نوع من الدقة •

ويتألم الآباء عادة من مشاجرات أبنائهم ، وسبب ذلك أن صوت هذه المشاجرات قد يصل الى مسمع الجيران ، وبذلك يتـولاهم الخجل ؛ اذ يظنون أن الجيران ربما يرمونهم بالخيبة فى تربية أبنائهم • ومما يزيد الآباء تألما عنف الأبناء أحيانا فى هذه المنازعات ، اذ أن المشاجرات بين الاخوة تصل أحيانا الى درجات يخيل الى الوالدين معها ، أنه لو أتيحت الفرصة لأحدهم ، فلا مانع عنده من أن يفتك بالآخر • ويعتقد الآباء اذ ذاك أن مثل هؤلاء سيشبون على كراهية بعضهم لبعض ، وسينشئون غير قادرين على حسن معاملة الناس • ولكن الأمر أهون من هذا بكثير ، فكل الاخوة — ولا سيما المتقاربين منهم فى العمر — لابد أن يتشاجروا • وتقل عادة هذه المشاجرات كلما تقدم الأطفال فى السن • وليس معنى هذه المنازعات كراهية الأخوة بعضهم لبعض ، فكثيرا ما يحدث أن يتشاجر أخوان ، فاذا تدخل غريب للاصلاح بينهما ، فغالبا ما يتضامنان ضد هذا التدخل ، ولا يرضيان به مهما نبل غرضـه وحسنت نيته •

ومن البحوث التى أجريت فى الخارج على الأطفال دون الثامنة من العمر بحث خلص منه القائم به الى النتائج الآتية :

١ — استعداد الذكور للتشاجر أكثر من استعداد الاناث له •

٢ — الاستعداد للتشاجر يقل عادة بالتقدم فى السن •

٣ — الاستعداد للتشاجر يكثر بين الأطفــال الذين تربط بعضهم ببعض روابط الصداقة •

واذا أخذنا بهذه النتائج ، وتذكرنا أن الأولاد عموما يفوقون البنات فى الميل الى النشاط والعنف والشدة والسيطرة واثبات الذات ، وجدنا أن الشجار قد يدل على الميل الى التمسك بالحق والمثابرة والشدة ، وغير ذلك من الصفات اللازمة لنجاح المرء فى الحيــاة • ويمكن أن يكون الشجار مع حسن التوجيه مقدمة لأمر آخر يكسبه المرء بالخبرة الشخصية وهو القدرة على ضبط النفس ومجاهدتها ومكافحة الصعاب •

وطبيعى جدا أن الأطفال باجتماعاتهم تختلف رغباتهم ، وتختلف طرقهم فى الحصول عليها ، وتتعارض هذه الرغبات • وهذا يؤدى الى الاحتكاك الدال على النشاط والحيوية ، ويمكن أن يترتب على كل هذا أن يتعلم الطفل كثيرا من أساليب التعامل ، ومعنى الحق ، ومعنى الواجب ، وأساليب الأخذ والعطاء • ولهذا يكون التشاجر أحيانا دليــلا على عدم اكتمــال النمو الاجتماعى ، ولكنه يصح أن يؤدى اليه اذا أحسن توجيهه •

يضاف الى كل هذا ، ما سبق أن قلناه فى أسباب الغضب ، فمن الجائز أن يكون التشاجر بين الأخوة دالا على غيرة ، أو اخفاق اجتماعى ، أوشعور بظلم الكبار ، أو غير ذلك مما يجب على الآباء أن يبحثوا عنه ليزيلوا أسبابه بادىء ذى بدء •

بحث حالات الغضب والتشاجر :

أول مايجب الاتجاه اليه — اذا كثر الشجار وظهرت ثورات الغضب — دراسة الحالة الجسمانية ، فقد يكون التوثب وسرعة الغضب ناشئا عن اختلال فى مصادر النشاط فى الجسم ، كازدياد فى افرازات الغدة الدرقية ، أو الغدتين فوق الكلويتين ، أو الغدد التناسلية ، أو ما يشبه ذلك ، مما قد يحــدث والشخص غير مهيأ للقيام بالنشاط الكافى لتصريف الطاقة المتدفقة فيه • وقد يكون السبب هو تسمم الجسم عن طريق مباشر أو غير مبــاشر ، بسبب الامساك ، أو التعب الشديد ، أو الاصابة بالبرد العادى ، أو قلة النوم ،

أو سوء التغذية ، أو غير ذلك من الأسباب الجسمانية العديدة[1] . ويمكن فى بعض الحالات ارجاع التعرض للغضب الى عاهة أو نقص جسمى يتسبب عنه عجز فى القدرة ، أو تعيير من الآخرين ، أو عطف زائد منهم ، مما قد يجعل صاحب العاهة شاعرا بعاهته ناقما على نفسه وناقما على من حوله .

ويلاحظ عادة أن أطفال المدارس يرهقون أحيانا بالعمل . سواء أكانت تسميه المدرسة عملا دراسيا أم رياضة بدنية . ثم يذهب الطفل الى منزله محملا بواجبات منزلية ، وقد تضاف الى هذا دروس خصوصية ، وبذلك يحرم الطفل من الاستجمام ، ومن اللعب الحر ، ومن التنزه الضرورى لكل انسان . فعلينا اذن أن نبحث حياة الطفل المدرسية ، وعمله الدراسى من حيث نوعه وكميته ودرجة ملاءمته لقواه العقلية والجسمية ، وأن نعرف علاقة الطفل فى المدرسة بزملائه ومعلميه . وعلينا أن نبحث كذلك فى علاقة الطفل بوالديه وعلاقة كل منهما بالآخر ، وأن ندرس أصدقاء الطفل خارج المدرسة ، ونوعهم ، ودرجة ملاءمتهم له ، وكيف يقضى وقته معهم ، وأن نعرف كيف يشغل وقت فراغه ، ونوع هواياته . وذلك لأن الطفل كلما كان مشغولا بهوايات ، وبعمل لذيذ ، كان أقرب الى الهدوء منه الى الغضب . ويجب أن نعرف الكثير عن حياته الانفعالية فربما يكون هناك ما يدعو الى الغيرة ، أو القلق ، أو ضعف الثقة بالنفس ، أو الانشغال بمسائل جنسية أو غير ذلك . وعلينا أن ندرس نظرته الى مستقبله فالمستقبل المظلم غير الآمن قد يكون صاحبه بسببه قليل الصبر كثير الغضب .

يضاف الى كل هذا وجوب النظر الى احتمال وجود عوامل وراثية ، فغريزة المقاتلة وما يصاحبها من نشاط الغدد اللازمة لها ، قد تكون موروثة بنسبة عالية من جيل سابق ، يصير الفرد معها أقل قدرة على تكييف نفسه للمشكلات التى تقابله .

وعلينـــا بالجملة أن ندرس فى نوع المشكلات التى نحن بصددها كل

---

(١) فى الكبار يكون الاستعداد لسرعة الغضب متأثرا أحيانا بتصلب الشرايين وارتفاع ضغط الدم .

ما يمكن أن يقلل من شعور الفرد بالسعادة فى الحاضر والماضى والمستقبل من عوامل جسمية وعقلية واجتماعية مختلفة •

بعض القواعد العامة :

وزيادة على ما تقدم عن دراسة الحالات العادية أو الشاذة يجب مراعاة ما يأتى :

١ — لا يجوز الاكثار من التدخل فى أعمال الأطفال ، أو تحديد حركتهم ، أو ارغامهم على الطاعة لمجرد الطاعة ، وانما يكون التدخل بمقدار ما سبق أن أشرنا اليه (ص ١٧٠) •

٢ — لا يجوز اظهار الأطفال بمظهر العجز أو الاستهزاء بهم ، والسخرية منهم ، أو اذلالهم أو كبتهم أو تخويفهم أو العمل على تهدئتهم بالعنف والشدة • فالسماح لهم بالتعبير عن انفعالاتهم العنيفة أحيانا أمر صحى •

٣ — لا يجوز اغتصاب ممتلكات الأطفال ، أو تخريب أدواتهم خصوصا فى ساعة غضب •

٤ — لا يجوز الظهور أمام الأطفال بمظهر الضعف ، والقلق ، ولا بمظهر الاهمال لهم ، وعدم الاهتمام بهم •

٥ — لا يجوز أن يسمح للطفل أن يحصل على ما يريده بطريق الصراخ ، ولا يجوز محايلته أو تدليله فى هذه الحالة •

٦ — يحسن عدم توجيه انتباه الطفل اذا قام بثورة غضب لسبب غير معقول •

٧ — يجب أن نضبط أنفسنا قدر الامكان أمام الأطفال ؛ بل يجب أن يتعود الآباء الانشراح لاسيما عند عودتهم من العمل •

٨ — لا يجوز استثارة الأطفال لتسلية أنفسنا • ولا يجوز اثارة غضبهم بمنع امتياز معين عنهم ثم التنازل لهم خوفا منهم أو عليهم •

٩ — لايجوز مناقشة سلوك الطفل مع غيره على مسمع منه •

١٠ — لا يجوز اثارة الغيرة بين الأطفال ولا يجوز الاكثار من الموازنات العلنية بينهم ولا خلق جو يشعر بالتفريق بينهم •

١١ — يجب أن يكون الطفل مشغولا فى وقت فراغه بنشاط لذيذ منتج كلعب أو هواية أو عمل أو غير ذلك • وأن تعطى له فرصة اللعب العنيف أحيانا ، ويجب أن تكون التربية لوقت الفراغ — بمعنى التوجيه لاستغلال وقت الفراغ استغلالا حسنا — غرضا هاما من أغراض التربية •

١٢ — يجب أن يكون جو المنزل جو عطف وهدوء وتقدير وعدل وثبات فى المعاملة •

١٣ — يجب أن يوجه نشاط الناشىء لخدمة المجموعة التى ينتمى اليها وللنواحى الخلقية وللنواحى الابتداعية الايجابية •

خاتمة :

وبعد ازالة الظروف الخاصة التى أشرنا اليها فيما تقدم ، ومراعاة القواعد السابقة الذكر ، يحسن معالجة الطفل — ان كان من النوع العنيف — بشغله فى عمل يحتاج الى جهد كالحركة واللعب الذى يتطلب تحريك الجسم كله كالقفز، والجرى ، ولعب الكرة مثلا • والألعاب الجسمية العنيفة أفضل لهذا النوع من الأطفال من الألعاب العقلية • واذا ظهر على الطفل ميل عام بارز للمشاجرة فيحسن ادماجه مع جماعة من الأطفال يساوونه فى القوة حتى يناضلهم ويناضلوه ، فينتصر أحيانا ويغلب على أمره أحيانا أخرى • واندماج هذا النوع من الأطفال فى الفرق الرياضية له أحسن الأثر اذا تم تحت اشراف مستنير •

وعند تشاجر الاخوة بعضهم مع بعض يجـدر بالآباء تركهم يحلون مشكلاتهم بأنفسهم ، واذا تدخلوا فليكن تدخلا موجها هادئا خاليا من التحيز يترتب عليه تعليمهم كيفية حل مثل هذه المشكلات بأنفسهم اذا ظهرت بعد ذلك فى مناسبة أخرى •

وعلى الآباء والمعلمين أن يتريثوا فلا يقابلوا غضبا بغضب ، اذ يحتمل أن يكونوا هم مصدر المشكلة كلها • فعليهم أن يدرسوا دائما تصرفاتهم مع أبنائهم فى مثل هـذه الحالات وعليهم أن يصـلحوا من أنفسهم أولا والا تعذر عليهم اصلاح أبنائهم •

المراجع

Blanton : Child Guidance.

Blatz and Bott : The Management of Young Children.

Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.

Goodenough : Anger in Young Children.

Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.

Hutchinson : Motives of Conduct.

Kanner : Child Psychiatry.

Lane : Talks to Parents and Teachers.

Neill : The Problem Child.

Ponsonby : The Application of Psychology to Everyday Life.

Shaffer : The Psychology of Adjustment.

Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الثاني والعشرون

التخريب

ميل الأطفال الى الفحص والتخريب والحركة :

لأجل أن نتفهم ميل أغلب الأطفال الى اتلاف الأشياء يجب أن نبحث بعض القوى الفطرية التى تهيىء الطفل لذلك . وسبق أن عرفنا أن من بين هذه القوى ما نسميها غريزة الاستطلاع وغريزة الحل والتركيب . وهذه الغرائز تظهر فى ميل الأطفال الى العمل والتجريب والكشف وسؤال الكبار . ويقوى ظهور هذا الميل أن الطفل حديث العهد بهذا العالم ، ومحتوياته غريبة بالنسبة اليه ، ولابد له من معرفتها حتى يشعر نحوها بأمنه وسلامته ، لا سيما اذا اضطر للتعامل معها .

وأول ما يشعر الطفل بالشوق الى معرفته وادراكه هو العالم المادى . فهو يريد أن يلمس الأشياء ، ويحملها ، ويقذفها ، ويعضها ، ويمر بيده عليها الى غير ذلك فاذا أعطيت طفلا فى السنة الأولى من حياته كرة صغيرة ملونة ، فانه — كما قلنا — يتأملها ويعضها ثم يقذفها ، فتعطيها له ، فيقذفها مرة أخرى، ومرة ثالثة ، وهكذا . وهذا تحقيق لنزعة التجريب أو ادراك خواص الكرة عن طريق القيام بالتجارب والملاحظات . فالطفل يدرك بطريقته هذه وزن الكرة وشكلها وألوانها ويدرك ارتدادها فى الأرض ، ويدرك المسافة التى يلقيها فيها وهكذا ، وفوق كل هذا يشعر بقوته ومقدرته على العمل . لهذا يكرر القيام بتجاربه مرات عدة . ويذكرنا تكراره لتجاربه نوعا ما بما يفعله العالم الذى يتبع المناهج الصحيحة للبحث العلمى ، والذى لا يقطع بنتيجة الا بعد أن يكرر تجاربه ومشاهداته مئات المرات .

واذا أردنا أن نصف الطفل فى هذه الحالة — وهو فى معمله الصغير —

قلنا : انه يلعب • وعنصر اللعب — أو بعبارة أخرى عنصر الشعور باللذة والسعادة — ضرورى لاستمرار الطفل فى هذه التجارب وانهماكه فيها • هذا اللعب هو الذى يكسب الطفل خبرة سريعة واسعة المدى يدرك بها خواص العالم المادى • فسرعان ما يدرك الفرق بين الساخن والبارد والكبير والصغير، والناعم والخشن ، والأسود والأبيض والحاد وغير الحاد ، وغير ذلك من الصفات الظاهرة بالنسبة الينا ، والتى لا يكسبها الطفل الا عن طريق المحاولات الحسية العديدة والتجارب الشخصية الطويلة •

ومما نلاحظه من هذا النوع ميل الأطفال الى اللعب بالماء مثلا ؛ فما مصدر هذا الميل ؟ مصدره أن العناصر المألوفة التى يتعامل معها الطفل هى الأجسام الصلبة ، فهو يمسك تفاحة أو كرة أو مفتاحا ، فيجد أنه يستقر فى يده • ويمسك بالماء فيجد أنه يزول من يده • وهذه خبرة جديدة أو موضوع جديد يستحق البحث والفحص • ماذا يفعل ؟ يلعب بالماء ، فاذا وجد اناء ماء فانه يضع يده فيه ويحركها ، واذا وجد الماء نازلا من صنبور فانه يحاول أن يمسك به ، والطفل كله مرح وسعادة وضحك وهو يحاول أن يمسك بالماء والماء يفلت من يده • فهو فى هذا المعمل الخاص يدرك الفرق بين الأجسام السائلة والأجسام الصلبة • وكان طفل صغير فى الثالثة من عمره يلعب بالرمل والماء فكان يملأ كوزا من الماء ويصبه فيسيل الماء فى كل مكان ، ثم يملأ أكواز الرمل ويصبها فتتكون فى شكل قوالب ، ثم سأل أمه عن سر تكوم الرمل وعدم تكوم الماء ، وهو سؤال بديع جدا فى الفرق بين الأجسام السائلة والصلبة ، أو فى مبادىء الطبيعة • وهذا بعينه يحدث عند استعمال الطفل للصابون ، وملاحظته لفقاقيعه ، واستعمال أنبوبة مفتوحة من طرفها لنفخ هذه الفقاقيع وتكبيرها وتصغيرها وتطييرها — أحيانا فى الظل وأحيانا فى الشمس — ومشاهدة الألوان المتعددة الناتجة عن انكسارات الضوء فيها • فالطفل اذن يميل بطبيعته الى اللعب والتجريب الحسى ، وبهذه الطريقة يكسب كثيرا جدا من الخبرة الحسية والمهارة الحركية •

يرى الطفل ساعة والده مثلا ، وهذه فى نظره جسم مستدير براق غريب ،

لا تتاح له فرصة لمسه الا لحظات صغيرة من وقت لآخر • وفى هذه اللحظات التى يسمح له فيها بذلك يلعب بها لعبا مقيدا محدودا لا يكفى لاشباع نفسه • وعقل الطفل وحواسه تتعطش لكسب الخبرة وهضمها كما يتعطش جسمه لتناول الطعام وهضمه[1] ، فيمسك الساعة ويقلبها بين يديه ، واتماما للتجربة قد يقذفها على الأرض ، فان تهشمت فقد يصيح فرحا لنجاح التجربة (فى نظره على الأقل) • ولكن سلوك والده ازاء ذلك يكون فى العادة سلوكا غريبا فى نظره • ففى الحال يقطب الوالد جبينه ، وقد يصيح صيحة الغاضب ، فينهر الطفل أو يضربه • هذا السلوك يثير دهشة الطفل ، ويشعره بأن هذا العالم كله ظلم وقسوة وجور • الطفل أراد أن يمسك الساعة ليفحصها ويفهمها ، وقد قذف بها وتكسرت ، فأدرك خبرة جديدة ، وشعر بقوته ، واشتق من كل هذا لذة كبيرة • فلماذا الانتهار ولماذا الضرب ؟ بطبيعة الحال يضرب الوالد ابنه لأن الساعة ثمينة ، ولكن الطفل لا يدرك شيئا من هذا • وقيمة الساعة فى نظره قد تساوى ، أو لا تساوى قيمة أتفه لعبة من لعبه • وما فعل الطفل هذا الا بسبب الدوافع الطبيعية المتدفقة عنده التى تنشط للتعبير عن نفسها ، وترمى الى الاتصال بالعالم الخارجى وفهمه ؛ فاذا بهذه الدوافع تقابل من البيئة بالعقبات الشديدة القاسية • ولكن هذه العقبات لا تقتل ما عند الطفل من دوافع ونزعات ؛ فرغبة الطفل فى لمس الأشياء واللعب بها لا تختفى ؛ وانما ينفذها متسترا خائفا ، ويكون سلوكه اذ ذاك مصحوبا بشىء من الرعونة ، ومن سوء فهم الأشياء وقيمتها ، فيتلف الطفل بذلك أشياء كثيرة • ومن تحليل هذه الأمثلة ندرك أن ما يسمى فى العادة اتلافا أو تخريبا ، أساسه غالبا حب استطلاع طبيعى ينفذه الطفل بطريقة تجريبية حسية ، ويصحبه غالبا سوء تقدير لقيم الأشياء وبعض الرعونة لعدم اكتمال النمو ، وشىء من الخوف والتستر نتيجة سوء معاملة الوالدين • وتلك القوة التى تدفع الطفل للبحث والتجريب ، والاستطلاع ، والتى يريد الوالد أن يخمدها — ولن يقوى على اخمادها — هى من أكبر الوسائل التى

(١) ذلك لاشباع الحاجة للنمو العقلى والحاجة للنمو الجسمى — راجع موضوع الحاجات النفسية •

خلقها الله لصالح الانسان من حيث نموه وتعلمه وكسبه القدرة على فهم البيئة والتأثير فيها وحسن التكيف معها .

وكذلك الطفل يرى والده يقوم بحركات بسيطة حين يكتب مثلا ، فيترك آثارا سوداء على ورق أبيض . وهذه تجربة غريبة بالنسبة للطفل ، فتشتاق نفسه للامساك بالقلم واجراء نفس الحركة والنظر الى النتيجة . اذا تنبه الوالدان لهـذا الشوق وأدركا قيمته فانهما قد يعطيانه ورقا وقلما ليخط ما يشاء ، وان لم يكن هذا فلوح (اردواز) أو سبورة وأما اذا لم يعط الولد فرصة لهذا ، فانه قد يخطط خفية فى كتب والده ، وكراساته ، ويتلفها أشد اتلاف . أو كما حدث من طفل أعرفه أخذ قطع الفحم . وشوه بها الحيطان والأبواب والأثاث .

وطفل آخر يرى والدته تستعمل المقص ، وتقـوم بحركات بسـيطة تؤدى الى قطع الأشياء وتمزيقها وهذه أيضا عملية جذابة للغاية ؛ فماذا يفعل الطفل ؟ تشتاق نفسه لاجراء التجربة بنفسه ، فيمسك بالمقص ، فاذا لم يلاحظ ويوجه فقد يقص كتابا ثمينا أو مجلة محفوظة أو مفرشا أو ما يشبه ذلك . وأما اذا لوحظ ومنع ، فهو فى الغالب يقوم بالعمليـة سرا . والنتيجة فى الحالتين وبال على الوالدين لما سيحدث من اتلاف ، ووبال على الطفل لما سيلاقيه من عذاب وعقاب . أما اذا عرف الوالدان قيمة هذا الشوق الى القص ، وقيمة التجربة الحسية والحركية التى يكسبها الطفل من قيامه به ، فانهما قد يوجهانه الى قص الجرائد القديمة ، أو الخرق البالية الى أن تشبع نفسه من هذه التجربة الجديدة ويتجه لغيرها من التجارب الطبيعية .

نرى مما تقدم أن ما يسمى فى العادة تخريبا لا يكون مقصودا لذاته ، وانما يحدث عرضا فى أثناء النشاط الطبيعى للطفل وهذا النشاط الطبيعى — الذى نسميه لعبا ، أو حلاوتركيبا أو استطلاعا — يشبع حاجات نفسية ملحة ويحقق غايات حيوية للطفل وهى نموه وتعلمه بمعانيهما الواسعة . غير أن الطفل فى أثناء هذا النشاط ، لا يكون فى العادة قد استكمل التناسق الحركى أو التوافق العضـلى الذى يسـاعده على تناول الأشـياء وفحصها دون

اتلافها ، ولا يكون كذلك قد أدرك قيم الأشياء على نفس المستوى الذى يدركها عليه الكبار المحيطون به • اذا أدركنا هذا علمنا أن واجبنا هو أن نعطى الأطفال الفرص الكافية لكسب هذا النوع من الخبرة دون أن تظهر مشكلة تعارض القيم التى أشرنا اليها •

بعض الظروف التى تعارض ميل الطفل الى اللعب :

يلاحظ أن سكان المدن الكبيرة صارت أغلب بيوتهم وشوارعهم غير صالحة للعب الأطفال ، فقد حدث فى البيوت — وبخاصة فى المدن — تطور كبير أساء الى الأطفال أكثر مما أساء الى الكبار • فالمنازل — كما عهدناها قديما — كانت متسعة ، كبيرة الغرف ، كبيرة الأفنية قليلة الأثاث • وكان الأطفال يشعرون فى هذه المنازل بالحرية والمرح • وكانت تكثر فى المنازل الحيوانات والطيور التى يلعب معها الطفل ، ويكسب من اتصاله بها خبرات عدة كلها على جانب كبير من الأهمية • واذا لم يكن بالمنزل فناء فقد كان فى أعلى المنزل سطح متسع تربى فيه الحيوانات وتكثر فيه أدوات اللعب • وكان فى كل ذلك فرص لتوجيه النزعات الغريزية المختلفة توجيها سليما بعيدا عن مواقف التحرج التى يخشاها الآباء عادة ؛ وخاصة فيما يتعلق بالثقافة الجنسية • أما فى الوقت الحاضر فقد حلت العمارات فى المدن الكبيرة محل البيوت المعروفة • وصار المسكن الحديث عبارة عن أربع غرف تقريبا ، وكل غرفة منها مزدحمة بالأثاث القابل للكسر ، وغير القابل للمس أو النقل ، وتوجد فوق ذلك عشرات الأدوات البراقة الجذابة التى يسهل كسرها ولا يجوز للطفل لمسها ، وليس للطفل عادة مكان للعب أو الحركة ، فان دخل غرفة ما فهو مقيد مراقب ، واذا تسلق كرسيا ضرب ، واذا أمسك بزهرية منع • وهكذا صار الطفل غريبا فى منزله ، وصار ثقيلا على أمه وأبيه • وزيادة على ما تقدم فالطفل لا يمكنه أن ينزل الى الشارع فهو صاخب بالحركة ملىء بالخطر ، ولا يمكنه أن يذهب الى أعلى العمارة فهو ملىء بالخدم ولا يؤمن عليه معهم •

فيجب على الأقل أن تخصص كل أسرة غرفة للطفل ، أو على الأقل ركنا للأطفال يفعلون فيه ما يشاءون من لعب وحركة وتجريب وتخريب

وتمثيل ... وغير ذلك. ويجب أن يتعود الأطفال أن يستعملوا لهذه الأغراض غرفتهم دون أى جزء آخر من المنزل ، ويزود الأطفال فى غرفتهم هذه بما يناسب سنهم من أدوات النشاط ، فيعطون الجرائد والمجلات القديمة ، ليقصوها فى شكل زخارف ، أو لقص صورها ولصقها فى شكل مجموعات . ويعطون سبورة و « طباشيرا » وصلصالا ، وصندوقا خشبيا مملوءا بالرمل النظيف وبضعة مكعبات وبعض العلب الفارغة ، وغير ذلك مما لا يكلف كثيرا ويساعد على خلق مجال كبير لنشاط لذيذ منتج واسع المدى . واذا انشغل الأطفال بنشاط لذيذ يلائم سنهم وقواهم العقلية والجسمية كانوا أقرب الى الهدوء منهم الى القلق والغوغاء ، وأمكن الآباء اذ ذاك أن يتحملوهم ، بل يشاركوهم نشاطهم .

ازاء هذا التغير فى طرق المعيشة يتحتم العمل الجدى على اقامة منشآت للأطفال — بل مدن للأطفال ، كما حدث فى سويسرا نتيجة للحرب العالمية الثانية — حيث يتمكنون من تصريف نشاطهم تصريفا مفيدا لنموهم وشعورهم بالسعادة . ولهذا قطعت الأمم الأوروبية أشواطا بعيدة فى تنظيم الحدائق العامة للأطفال وتزويدها بكل ما يهيىء للنشاط المنظم المفيد [1] . وقطع بعضها أشواطا بعيدة كذلك فى انشاء أندية خاصة للأطفال ودور للحضانة . ومما يجعل انشاء مثل هذه المؤسسات ضروريا قلة عدد الأطفال فى الأسرة الواحدة وشعور الأطفال بالحاجة الملحة للعب والتعامل مع أطفال آخرين وكذلك انشغال الأم الحديثة بالعمل اما داخل المنزل أو خارجه ، وعدم صلاحية المساكن الحديثة لنشاط الأطفال بحال من الأحوال .

عوامل التخريب :

عرفنا مما تقدم الأسباب العادية المباشرة والظروف العامة التى يمكن أن يعزى اليها الاتلاف على وجه العموم ، وتفيدنا معرفتها فى دراسة الحالات الفردية . ولكنا عند دراستنا لطفل مخرب ، كثيرا مانجد أن التخريب ناشىء من زيادة النشاط الجسمى زيادة بارزة ، مع عدم توافر المسالك المنظمة

(١) أثبت الأستاذ « بيرت » فى كتابه (The Young Delinquent) أن جرائم الأحداث فى لندن تزيد حيث تقل مساحات الحدائق العامة التى يسمح للأطفال فيها باللعب ، وتكثر حيث تقل مساحات هذه الحدائق .

لتصريف هذا النشاط • ففى بعض الحالات نجد اختلالا فى الغدة الدرقية أو فى الغدة النخامية • مثال ذلك حالة كان الولد فيها ناميا جدا وعنده جميع أعراض زيادة النشاط فى بعض افرازات النخامية • بالاضافة الى هذا كان متأخر الذكاء جدا • والواقع أن جسمه ونشاطه كانا فىمستوىجسم ونشاط ولد كبير السن لا يقل عمره عن عشرين سنة بينما عقله فى مستوى عقل طفل عمره عشر سنوات • فلم يكن له من الذكاء ما يعينه على توجيه نشاطه توجيها يتفق ومظهره • كان مخربا جدا ، اذ أتلف كثيرا من أثاث المنزل الفاخر • وكان كثير التخريب والتكسير للأدوات الدقيقة الموجودة فى المنزل • وفى حالة أخرى كان الولد متأخرا فى ذكائه ، اذ أنه كان فى الثانية عشرة من العمر ، وذكاؤه كان فى مستوى ذكاء ولد عادى عمره أربع سنوات وكان الولد موفور النشاط نحيف الجسم حاد التقاطيع ، له عينان براقتان غير مستقرتين فى محجريهما • ولما أجرى عليه اختبار (Basal Metabolism Test) وجد ما يدل على ازدياد نشاط غدته الدرقية وكان الولد شديد التخريب الى حد يصعب تصوره • وسبب ذلك أن لديه نشاطا كبيرا لا يتمكن مع ضعف عقله من حسن استغلاله • ومما زاد الحالة سوءا أن الأسرة تعيش فى مسكن ضيق مملوء بالأثاث الفاخر فى جهة مزدحمة جدا بالمبانى المتراصة بعضها بجوار بعض • والجهة خالية من الحدائق العامة التى يصرف فيها الأطفال عادة كثيرا من نشاطهم • وقد لاحظنا أن أغلب المتأخرين جدا فى الذكاء اذا كانوا نشطين فانهم يكونون عادة مخربين ، لا سيما اذا كانوا من أسرة متوسطة أو غنية ، واذا كانوا يقطنون معهم فى المدينة •

نلاحظ كذلك فى بعض الأحيان كثرة حوادث الاتلاف من الخدم وهم فى دور المراهقة ، حيث يزداد نشاطهم العام بنشاط غددهم الجنسية ، ويزداد نموهم • ويتميز دور المراهقة كما قلنا ، ببعض الرعونة فى الحركة وبعض النقص فى التناسق الحركى • وتكثر الحوادث فى المراهقين بنوع خاص اذا كانوا أقل ذكاء من العاديين •

فمن الواجبات الأولى عند فحصنا حالات التخريب الشاذة أن ندرس ما يمكن أن يكون هناك من الأسباب الجسمية التى يصح أن يترتب عليها تهيج عام • هذا التهيج أو العصبية أو نفاد الصبر •• أو ما الى ذلك قد يكون

نتيجة مباشرة للحالة الجسمية أو نتيجة غير مباشرة لها • فضعف الحيلة الناشيء عن قصور جسمى قد تنشأ عنه نزعات هدمية تخريبية •

وقد يظهر التخريب نتيجة لعوامل انفعالية مكبوتة ، كما تظهر الأعراض العصبية المعروفة ، كقضم الأظافر ، أو التبول اللاارادى ، أو ما الى ذلك • فأحيانا نجد واحدا أو أكثر من العوامل الآتية وهى : الغيرة أو كراهية السلطة الضاغطة غير المعقولة ، أو الشعور بالنقص أو غير ذلك • وبذلك يصير التخريب مظهرا من مظاهر الانتقام أو اثبات الذات •

ومن أمثلة ذلك حالة لبنت فى سن السابعة كانت مخربة جدا ، فكانت تفتح صنابير الحديقة حتى تغرقها اغراقا • وكانت أحيانا تقطع الأزهار فى الحديقة — وهى كبيرة — من أولها الى آخرها • وتتلف الزرع اتلافا واضحا • وقد خدشت ظاهر (البيانو) بقطعة من الصفيح • هذه كلها لا تخرج عن كونها نماذج قليلة لسلوكها • وكانت لها فوق ذلك مشكلات أخرى سبق أن أشرنا اليها •

والبنت تعيش بمنزل خالتها التى تزوجت بجدها لأبيها ، وليس للجد والخالة أطفال •فتعلقت الخالة بالبنت وأحبتها وأخذتها من أمها •فيحتمل أن يكون التخريب أسلوبا لا شعوريا للانتقام من الخالة باتلاف ممتلكاتها ، ويحتمل أن يكون مظهرا لعصبيتها وتضايقها لفصلها عن اخوتها ، ولأنها تعيش فى جو غير طبيعى بالنسبة لها ، اذ هو خال من الأطفال ، بعيد عن والديها • ويحتمل أن يكون السببان مجتمعين هما اللذان يرجع اليهما هذا السلوك (حالة ص ٢٩٣) •

وكثيرا مايحدث التخريب بصورة عامة فيتجه لممتلكات الشخص أو ممتلكات غيره بدون أى تفرقة ، أو يحدث بعد تحويل الانفعال المصاحب له أن تجد تلميذا يخرب ممتلكات اخواته فى البيت بعد عودته من المدرسة التى كانت تضيق عليه طول النهار • وكثيرا مانجد تلاميذ يخربون فى المدرسة مثلا ، وبالبحث نجد أنهم تعساء فى المنزل اما لعدم التوافق بين الوالدين ، أو لعدم وجود الأم بسبب الوفاة أو الطلاق ، أو لسوء المعاملة التى يلقاها فى المنزل ، أو ما يشبه ذلك •

ولتوضيح ما تقدم نلخص احدى حالات الدكتور «توم»[1] ، وهى لبنت كانت فى العاشرة من عمرها • حالتها الصحية جيدة ومستوى ذكائها وتحصيلها فوق المتوسط ، وسلوكها فى المدرسة حميد • وقد أرسلت له بسبب ميلها الشديد الى التخريب والعناد ، ففى أثناء الشتاء تفتح صنابير المياه الباردة فى خزان المياه الساخنة ، أو تفرغ الخزان مما به من مياه ساخنة ، وأتلفت (البيانو) ، وكسرت ألواحا (اسطوانات) موسيقية ثمينة ثم أخفتها ، وكانت تعبث بكل ما فى المنزل من أثاث ، وتعبث بالمنزل نفسه فتتلف حيطانه وأنابيب مياهه •• الى غير ذلك • وبدراستها وجد أنها البنت الكبرى لخمسة أخوة ولم يظهر سلوكها بهذه الصورة الا بعد وفاة أمها • والوالد رجل مشغول جدا فى عمله ، وقد حاول بكل ما فى وسعه أن يهيىء أسباب الراحة لأولاده بعد وفاة زوجته • ولكن يلاحظ أن الزوجة كانت قد بذلت جهدا كبيرا حتى تمكن الوالد من توفير المال اللازم لبناء البيت وتأثيثه • فكانت تعمل بنفسها حتى تستغنى عن الخدم ، وكانت تحرم نفسها من الغذاء والملبس ، ومن شراء الدواء حتى تدخر شيئا من المال لبناء البيت • وبعد أن بنى البيت كانت قد مرضت واشتد عليها المرض ، وبعد أن انتهى الوالدان من تأثيثه ماتت الأم •

وكانت الأم تبالغ فى تضحيتها لدرجة جعلت الأولاد يشعرون بجسامة هذه التضحية ، وصار البيت بعد وفاة الأم مرتبطا فى ذهن البنت بفقد والدتها • فكأن البنت بسلوكها كانت تنتقم من البيت الذى تكرهه كراهية مكبوتة ، ويدعم ذلك الاستنتاج اقتصار سوء سلوكها على المنزل دون المدرسة •

كانت هذه احدى الحالات التى بذل فيها المعالج جهدا كبيرا ، ولكنه لم ينجح لعدم تمكن الوالد من تنفيذ جميع التعليمات التى أعطيت له • ونعتقد أن نجاح الحالة كان ممكنا لو أن الدكتور «توم» لجأ الى طريقة التحليل النفسى ، وهى طريقة لا تتفق مع مبادىء المدرسة التى ينتمى هو اليها •

---

(1) D. Thom: Everyday Problems of the Everyday Child, p.185

ومن حالات محكمة الأحداث التى قمت بدراستها بضع حالات من هـذا النوع نجد فيها مثلا أن الأم قد ماتت أو مرضت فتزوج الأب بغيرها ، فيقوم الحدث بمحاولة احراق المنزل ، أو باتلاف بعض الأشياء لا سيما ما تملكه زوجة الأب • وهذا النوع من السلوك كان يصدر غالبا من الفتيات ، كما فى حالة الدكتور «توم» السابقة الذكر • ولعل الانفعال الأساسى غيرة مكبوتة •

التدمير وعقاب الذات :

رأينا فيما تقدم أن التخريب يمكن أن يكون عرضيا فى أثناء لعب الأطفال وحركتهم وكشفهم للعالم المادى وكسبهم للمهارات الحركيـة المختلفة ، ويمكن كذلك أن يكون مقصودا للتجريح أو للانتقام • وتكون دوافعه أحيانا شعورية وأحيانا لا شعورية • ويلخص بعض علماء النفس هـذه الاتجاهات فى أن التخريب يكون للمخاطرة والبحث عن الخبرة ، ويحدث أحيانا أن يكون التخريب بدافع لاشعورى نحو الانتقام ، وفى هذه الحالة يترتب عليه شعور باللذة والارتياح •

وهنـاك اتجاه ثالث لم نشر اليـه وهو التدمير الذى يتجـه للذات أو لممتلكاتها أو ما يشبه ذلك • فيلاحظ أن بعض الناس يقطعون كراساتهم ، ويتلفون ملابسهم ، كأنهم يفعلون ذلك عمـدا ، ويصل بعضهم فى عض أصابعهم لدرجة الادماء ، وبعضهم يأكلون المواد الحريفة بكثرة كأنمـا يعذبون أنفسهم • فهناك ميل عند بعض الأشخاص الى تعذيب الذات أو عقابها يبدو فى مظاهر متعددة منها ما ذكرناه ، ومنها تبديد الممتلكات وتبديد النقود والاسراف الشديد • ومنها ركوب المخاطرات بصورة لا يمكن أن ينجو الواحد منها الا عن طريق الصدفة ، كالاسراع الشديد فى قيادة العربات والدراجات ، وفى عبور الشوارع وما الى ذلك ، ومنها تعـذيب الجسم ومجاهدة النفس ، ومنها الانتحار نفسه أحيانا •

هذا الميل الى تعذيب الذات يكون — كما قلنا — من بين أعراضـه اتلاف الممتلكات • ومنشؤه اما شعور مكبوت بالخطيئة ، أو كراهية للذات • وتنشأ الكراهية للذات عادة من كراهية السلطة • وهذه الكراهية للسلطة

لا يمكن عادة مواجهتها والتعبير عنها ، فيعكسها الشخص على نفسه فيكره نفسه ويقضى عليها اما قضاء جزئيا أو قضاء تاما •

لهذا نرى أن التخريب يكون أحيانا من مظاهر النزعات الاعتدائيـة الموجهة ضد الغير أو ضد الذات ويكون خارجا عن ارادة الشخص خروجا يكاد أحيانا يكون تاما •

ونلخص كل ما تقدم فى أن التخريب فى حالاته العرضية والمقصودة قد يكون لكسب المهارة وكسب الخبرة المصحوبين بسوء تقدير القيم وبانعدام التوافق الحركى ، وقد يكون لكسب اللذة ، وقد يكون للبحث عن الألم • وهذا البحث عن الألم لاشعورى خارج عن تحكم الارادة • ويلاحظ أن العنصر اللاشعورى ليس هو الألم نفسه ، وانما هو الرغبة فى ايلام الذات • ونرى بذلك أيضا أن كثيرا مما قيل فى التدمير يمكن أن يضم الى الفصل السابق الذى يبحث فى النزعة للاعتداء •

خاتمة :

يتبين مما تقدم أن التخريب فى ذاته لا تهمنا دراسته فى كثير ولا فى قليل فهو لا يخرج عن كونه عرضا لعلة أخرى • وانما المهم هو الدوافع ومصادر النشاط التى تؤدى الى ظهوره ووظيفة هذا النشاط • فاذا تبينا أن مصدره الثورة على البيئة فعلينا ازالة أسباب هذه الثورة من أساسها فى كل من البيئة والشخص • وان كان مصدره الميل للمعرفة فعلينا أن نوجه هذا الميل وجهة تفيد الطفل ، ولا تتعارض مع رغبتنا فى المحافظة على ما نملك • واذا تبينا أن مصدره ازدياد النشاط الجسمى ، وعدم تكافئه مع المستوى العقلى ، فعلينا أن نشغل الشخص فى عمل يحتاج الى جهد جسمى أكثر مما يحتاج الى جهد عقلى • وعلينا أن نذكر الآباء بأنهم فى محاولة جعل أولادهم هادئين ساكنين قليلى الحركة ، قد يسلبونهم مفاتيح المعرفة ، وأساليب التعلم ، ويسلبونهم وسائل انماء روح العمل ويحولون بينهم وبين تحقيق ذاتياتهم والثقة بأنفسهم •

فيجب أن يقوم الآباء باعطاء أبنائهم — كما ذكرنا — فرصة النشاط المنتج • وبذلك ينمو تناسقهم الحركى ، وينمو فهمهم للعالم المحيط بهم ،

ويزيد استقرارهم ، ويقل تخريبهم ، ويزيد انتاجهم • ويجب أن يفكروا مليا قبل اختيار اللعب لأطفالهم • وخير الألعاب هى ألعاب الحل والتركيب التى تختار لتناسب السن • وكثير من اللعب الخاصة بالحل والتركيب التى تباع فى الأسواق تلائم الكبار أكثر مما تلائم الأطفال • وأما اللعب الميكانيكية فهى لا تسمح عادة للطفل بنشاط كاف الا ان خربها • واللعب الميكانيكية يفرض فيها عادة ادارتها ، ثم تركها تجرى ، والتسلّى برؤيتها • وعملية التسلى — ولو أنها ليست فى نظر علماء النفس سلبية صرفة — أقل فى الايجابية من عملية النشاط التى تبرز فيها فاعلية الطفل • فلتكن اللعب اذن على وجه العموم مما يسمح بحركة الطفل ونشاطه وفاعليته على مدى واسع يتوافر فيه الانتاج المحسوس •

ومن الخطأ أن يوضع تحت تصرف الطفل لعب كثيرة • فهذا يقلل من قيمتها ويزهده فيها بسرعة ، ويجعله مهملا فى استعماله اياها • فاذا كثر عدد اللعب ، فيصح أن يعطى لعبة أو اثنتين فى الوقت الواحد ، وأما الباقى فيحفظ • ويصح أن يستبدل بما معه ما هو محفوظ ثم يعود اليه مرة أخرى ان شاء • وبذلك تحتفظ اللعبة باشتياق الطفل اليها • ويلاحظ أن للطفل عادة فى اللعبة الواحدة فى كل مرة وجهة نظر جديدة ؛ لا سيما اذا تباعدت الفترات التى تعطى له فيها •

واذا لوحظ فى بعض الأطفال ميل الى الألعاب العنيفة فيجب اعطاؤهم كل فرصة لهذا حتى يمكن دراستهم عن طريقها ، ويمكن توجيههم توجيها منتجا ، وحتى يقل — نوعا ما — ضغط الدوافع وحالات التوتر التى تجعل هذا العنف ملحا فى غير الوقت المناسب •

ونكرر هنا ما سبقت الاشارة اليه ، وهو أن الغرض من معالجة موضوع التخريب بهذه الطريقة ليس امدادا للآباء بأساليب محدودة لمعالجة أطفالهم ؛ وانما المقصود خلق اتجاه فى معاملة الأطفال ينبنى على فهم علاقة تصرفات الأطفال ببيئاتهم • وفى ضوء هذا الفهم يمكن أن يتجه الآباء والمربون اتجاها سليما •

المراجع

Blanton : Child Guidance.
S. Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hutchinson : Motives of Conduct in Children.
Kanner : Child Psychiatry.
Lane : Talks to Parents and Teachers.
Miller : Advances in Understanding the Child.
Miller : The Growing Child and its Problems.
Neill : The Problem Child.
Patri : Child Training.
Russell : On Education.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الثالث والعشرون

الغـــيرة

معنى الغيرة

سبق أن أشرنا الى الغيرة كأحد العوامل الهامة فى كثير من المشكلات ، فذكرناها عند التكلم عن التخريب ونوبات الغضب والنزعات الاعتدائية والتبول اللاارادى وضعف الثقة بالنفس ... وغير ذلك . والغيرة كما نعلم ليست سلوكا ظاهريا ، وانما هى حالة انفعالية يشعر بها الفرد ، ولها مظاهر خارجية يمكن الاستدلال منها أحيانا على الشعور الداخلى ، وفى غالب الأحيان لا يكون هذا سهلا ، لأن الشخص فى العادة يحاول أن يخفى الغيرة باخفاء مظاهرها قدر جهده .

ولعل كل واحد قد شعر فى وقت ما بالغيرة شعورا خفيا أو حادا . وهناك أناس يتعرضون لهذا الشعور أكثر من غيرهم . وهو شعور مؤلم ينتج عادة من خيبة الشخص فى الحصول على أمر محبوب ، كشخص أو مركز أو قوة أو مال ، ونجاح شخص آخر فى الحصول عليه . لهذا نجد أن انفعال الغيرة انفعال مركب من حب تملك ، وشعور بالغضب لأن عائقا ما وقف دون تحقيق غاية هامة . ولا يعترف الفرد عادة بالغيرة ، وسبب هذا ما تتضمنه من الشعور بالنقص الناتج من الاخفاق . بل كثيرا ما تكبت الغيرة لأن النفس الشعورية لا تقبل ألم الخيبة ولا شعور النقص .

اذا طبقنا ما تقدم على الغيرة فى موقف ما كغيرة زميل من آخر تفوق عليه ، نجد أن من يشعر بالغيرة يشعر بعدم حيازته ، أو بعدم قدرته على حيازة المركز الذى ناله زميله ، ويكون مع شعوره بالخيبة والضعة شاعرا بالغيظ من نفسه ، أو من زميله ، أو منهما معا . ويكون عنده شوق —

وان كان خفيا — للحصول على ما نال الزميل ، ويقوم صاحب الغيرة عادة باتهام الزميل أو اتهام الظروف أو اتهام سوء الطالع ... أو ما الى ذلك .

والغيرة نشعر بها عادة دفعة واحدة ، فهى انفعال مركب له خصائصه ، وهو ليس مجموعا حسابيا للانفعالات الثلاثة التى ذكرناها ، مثل الغيرة فى ذلك مثل المثلث الذى لايمكن أن يوصف بأنه مجموع ثلاثة مستقيمات ، ومجموع زاويتين قائمتين وانما هو مثلث به صفة المثلثية ، وهى صفة ليست موجودة فى المستقيمات ، ولا فى الزوايا ، ولا فى رءوس المثلث .

كذلك انفعال الغيرة لا يعتبر أنه غضب مضاف اليه حب تملك ومضاف الى هذين شعور بالنقص ، وانما هو أكثر من ذلك . هذا مع امكان ذكر بعض عناصره كما فى حالة المثلث .

ونظرا لتعقد الغيرة نجد أن مظاهرها متعددة يختلف بعضها عن بعض اختلافات بينة ، ولكنها مع اختلافها هذا فقد يفصح كل منها عن مركب من مركبات الغيرة . فمن مظاهر الغيرة الغضب بمظاهره المختلفة من ضرب ، أو سب ، أو هجاء ، أو تشهير ، أو نقد ، أو مضايقة ، أو تخريب ، أو ثورة ، أو عصيان ، أو ما يشــبه ذلك . ومن مظاهرها كذلك الميــل للصمت ، أو التجهم ، أو الابتعاد ، أو الانزواء ، أو الاضراب عن الأكل ، أو فقــد الشــهية ، أو التسليم ، أو النــكوص ، أو الشعور بالخجل ، أو شــدة الحساسية ، الى غير ذلك من مظاهر الشعور بالنقص . وقد تبدو الغيرة فى محاولة الطفل الحصول على ما فقده بمختلف أساليب التحايل . ومن هذا النوع أن يقوم الأولاد أحيانا بتقبيل المولود وملاطفته حتى يحتفظ الأكبر بمركزه عند أمه . وبعض الأولاد يتخلقون بأحسن الخلق حتى يرضوا الكبار الذين بدءوا ينصرفون عنهم أو يميلون لغيرهم . وقد يكون السلوك تعويضا للشعور بالنقص ، وذلك بمحاولة الظهــور بمختلف الأساليب . وكثيرا ما يكون للغيرة مظاهر جسمانية ، كنقص الوزن والصداع والشعور بالتعب . وهذا التنوع الــكبير فى أساليب الغيرة من ســلوك سلبى الى ايجابى ، ومن سلوك ردىء الى سلوك طيب ، يجعل كشف الغيرة أمرا صعبا .

ومما يزيد فى صعوبة كشف الغيرة كبتها أو تحويلها • فمظاهر الغيرة بدل أن تتجه نحو المولود ، قد تتجه نحو أى شىء آخر فى المنزل • ومن الحالات التى ذكرها الدكتور « توم » فى كتابه الذى أشرنا اليه أن بنتا مرضت لها أخت فانصرفت الأم عن بقية من فى المنزل الى الأخت ، فقامت البنت بعمليات تخريب عنيفة موجهة نحو حديقة المنزل وأثاثه دون أن يشعر بها أحد •

الغيرة والثقة

ويلاحظ أن كل حالة غير تتضمن درجة من ضعف ثقة المرء من حيث مركزه فى البيئة ، ويعبر عن هذا بطريقة أخرى وهى ضعف ثقة المرء بالبيئة • لنأخذ غيرة الأزواج كمثال ، فان كان أحد الزوجين على ثقة تامة بالآخر ، فان احتمال ظهور الغيرة يكون قليلا • كذلك الأمر اذا كان المرء شديد الثقة فى نفسه • ونجد أن الموقف الواحد يؤدى مع بعض الأزواج الى غيرة شديدة ومع بعضهم الآخر الى غيرة خفيفة ، أو الى لا شىء ، فكأن نوعا من الخوف الاجتماعى أو من قلة الثقة بين الطفل ومن حوله يكون عاملا مساعدا على ظهور الغيرة فى الموقف المناسب • وهذا بعينه ينطبق على جميع أنواع العلاقات بين الأطفال والكبار مثلا ، أو بين الرؤساء ومرءوسيهم ، أو بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ، أو بين الأفراد والحكومات ••• أو غير ذلك • فالنقص الناشىء من موقف الغير نحو الشخص وضعف الثقة بالنفس — الذى يمكن ارجاعه آخر الأمر عادة اما لنقص ذاتى أو لخيبة متكررة أو لموقف الغير نحو الشخص — يجعله فى العادة متهيئا للشعور بالغيرة عند اجتماع الظروف الكافية لذلك •

وأقسى أنواع الغيرة هو ما ينشأ عن شعور بالنقص مصحوب بشعور بعدم امكان التغلب عليه ، كنقص فى الجمال أو نقص فى القدرة الجسمية أو الحسية أو العقلية • لهذا نجد أن المعرضين للغيرة معرضون للشعور بالنقص ، كما أن المعرضين للشعور بالنقص معرضون أيضا للشعور الشديد بالغيرة • وتكون كل من الغيرة والشعور بالنقص حلقة متصلة الأجزاء يؤثر كل جزء منها فى الآخر •

كيف تنشأ الغيرة

لعل أهم أسباب الغيرة أن يشعر الشخص بحقه فى امتياز معين (اجتماعى فى العادة) ، أو أن يحصل عليه بالفعل ، ثم يفقده كله ، أو يفقد جزءا منه ،

ليحصل عليه شخص آخر . فالذى يشعر بأنه يستحق شهرة معينة ، ولا يحصل هو عليها ، وانما يتمتع بها شخص آخر ، يشعر بالغيرة . والاستعداد للغيرة فى الكبار ينشأ فى سنى الطفولة الأولى . وتظهر الغيرة فى حياة صغار الأطفال فى سنواتهم الخمس الأولى عن طريق المصادفة ، أو عن طريق التنشيط المقصود من الكبار المهيمنين عليهم .

ويلاحظ أن الطفل فى أول حياته تجاب له عادة كل طلباته ، ويسترعى فى العادة انتباه الجميع ، ويسلم بعد مدة قصيرة ، بأن كل شىء له ، وكل جهد له ، وكل انتباه له . ولكن الذى يحدث هو أن العناية التى كانت تستغرق كل جهد الكبار قد تنحسر عنه فجأة أو بالتدريج كلما نما . وقد تتجه هذه العناية الى مولود آخر أو الى شخص آخر فى الأسرة . هذا التغير قد يترتب عليه فقد الطفل ثقته فى بيئته ولا سيما فى أمه ، وفقده الثقة فى نفسه تبعا لذلك ، اذ يشعر بأنه غير مرغوب فيه . وبذلك يبدأ شعوره بالقلق ، وشعوره بالكراهية لبيئته ، والميل للانتقام منها أو الابتعاد عنها ، أو شعوره بالنزوع الى سلوك يترتب عليه جلب العناية اليه مرة أخرى ، كالبكاء ، أو التبول اللاارادى ، أو المرض .

وكلما كبرت الامتيازات التى تعطى لطفل ما ، زادت الغيرة عند انقاصها منه واعطائها لطفل آخر . ولذلك كان الطفل الذى يتمتع بامتياز معين ، هو أكثر الناس استعدادا للشعور بالغيرة ، وذلك كالطفل الأول أو الأخير أو الوحيد ، أو الذكر الأول أو من يشبه ذلك من الأطفال الذين يحتلون مركزا يعطيهم فرصة التمتع بامتياز واضح .

كذلك يغار الطفل أحيانا اذا وجهت الأم الى والده عناية فائقة . وذلك لأن الطفل فى سنواته الأولى كان يتمتع — كما يبدو له — بعناية أمه كلها ، ثم يلحظ أن الوالد يأخذ كثيرا من هذه العناية ، فتبدو عليه علامات الغيرة ، واضحة أو غير واضحة . ويحدث أحيانا أن يتغيب الوالد عن المنزل مدة طويلة ، وبمجرد عودته تنصرف الأم اليه بكلياتها وجزئياتها فيغار الطفل . والغيرة من الأب سببها أنه ينازع الطفل المركز الذى يرغب فيه لنفسه عند

الأم • والسبب فى أن غيرة الأخ من أخيه أكثر ظهوراً من غيرته من أبيه يرجع الى الكبت الناشىء عن التقاليد الاجتماعية ، والصراع بين حب الوالد (الذى يطعم ويكسو) من ناحية ، والغيرة منه من ناحية أخرى • ويمكن أن تدخل الغيرة من الوالد تحت النوع النـاتج عن الشعور بالنقص المصحوب بشعور بعدم امكان التغلب عليه •

وتدل دراسة الحالات على أن كثيرا من الحالات الشاذة التى تتصف بالقلق والاضطراب الجنسى والتعرض للغيرة الحادة يرجع ما بها من اضطراب الى الغيرة مما يلمسونه من المواقف الجنسية بين الوالدين • وهذا يحدث بنوع خاص عند الأطفال الذين ينامون مع أمهاتهم ، والذين يلحظون أحيانا ما يحدث بين الوالدين من مغازلة أو اتصال جنسى يعتقد الوالدان أنهما غير ملحوظين فيه ، لأن الأطفال عادة يتغافلون أو يتناومون فى هذه المناسبات

وتحدث الغـيرة كذلك من الموازنة الصريحة أو الضمنية ، ونقصد بالضمنية أن الجو نفسه يوحى بالموازنة ، وبتفضيل واحد على الآخر • تؤدى هذه الموازنات سواء فى المنزل أو فى المدرسة الى الاشعار بالنقص ، واضعاف الثقة بالنفس لدرجة تجعل الشخص عرضة لهذا الشعور • وتقوم الموازنات عادة حول جمال الخلقة أو القدرة العقلية أو القدرة الاجتماعية ، أو ما الى ذلك مما قد لا يجد الطفل لنفسه حيلة فى التغلب عليه •

بعض الحالات

حالة لطفل وحيد — سبق أن أشرنا اليها — كان واقفا بجانب أمه وزارهم بعض الضيوف ، فحملت الأم ابنتهم لتقبلها ، فما كان منه الا أن صرخ ، وشد ملابسها ، فحملته فتبول عليها فى الحال • والتبول هنا يحتمل أن يكون انتقاما للغيرة تم غالبا بحيلة لاشعورية •

وحالة أخرى لبنت فى السادسة والنصف ، بقيت وحيدة مدة خمس

سنوات ، ثم ولد لأبويها طفل ذكر • والأب رجل هادىء يدلل البنت تدليلا شديداً ، وأما الأم فانها سيدة ضعيفة لا سلطة لها على أولادها ، وهي تترك أغلب العناية بأولادها للوالد ، وحالتها العصبية سيئة • تتصف البنت بشدة الحساسية ، وتشتت فى الانتباه ، وتأخر فى الدراسة على الرغم من ارتفاع ذكائها ، وهى تحلم بالليل أحلاما مزعجة بصوت مرتفع ، وتدور أغلب أحلامها حول أخيها ، ويصفونها بالغيرة والحقد فى المدرسة والمنزل • ومن المحتمل جدا أن يكون أساس مشكلة البنت غيرتها من أخيها •

وحالة أخرى لطالب فى الدراسة العليا عمره أربع وعشرون سنة لا ينجح فى كل عام الا فى امتحان الدور الثانى ، وشعر فى احدى المرات بتوعك قبل الامتحان ، فقرر ألا يدخله • يلاحظ أن المرض هنا ربما كان حيلة دفاعية من حيل اللاشعور وظيفتها حمايته من دخول الامتحان • وقد نجح جميع من دخلوا الامتحان اذ ذاك فتألم الطالب جداً ، ولم يقو على مقابلة من تقدموا عليه ، وظهر عليه بعد ذلك عدم الاهتمام بالدراسة ، ولم يذهب الى كليته ، وصار شغله الشاغل أن يردد : «وما قيمة التعليم؟» ، «ان زملائى أصبحوا أحسن منى ؟ » ، وصار شديد التبرم والحنق ، شديد الاحتقار للناس أجمعين ، يعلن أن معاشرة الناس لا قيمة لها لسوء خلقهم ، وانحطاط عقلياتهم • وخير له أن يبتعد عمن يعرفهم ، ويعيش بمفرده بعيدا عن هذا العالم • يلاحظ من هذا أنه يسقط شعوره بالخيبة على الناس ، أما هو فانه أرقى الناس جميعا ، وأحسن منهم عقلا وخلقا ، وهم لا يستحقون معاشرته اياهم • وحتى التعليم نفسه لا قيمة له • فهو لا ينسب انعدام القيمة لنفسه ، وانما ينسبه للتعليم ، وهذا أيضا اسقاط • ثم صار كثير التدين ، يكثر من الذهاب الى مسجد سيدنا الحسين ، ويطلب أن تقرأ عليه الأوراد المختلفة ، ولعل فى تدينه بحثاً عن الشعور بالطمأنينة الذى لا يشعر به فى حياته الواقعية وفى علاقته بعالم الناس والعمل • وهذا الطالب هو

الابن الوحيد لوالديه ، ويحب دائما أن يكون قريبا من أمه ، الى حد أنه يقضى وقته دائما معها ، ولا يتركها الا قليلا . واذا جاءهم ضيوف فهو لا يجالسهم ، وانما يلازم أمه الا اذا اضطرت لمقابلة الضيوف ، وفى هذه الحالة ينتظرها على مضض الى أن تفرغ منهم .

وبعد حادثة الملحق التى أشرنا اليها ترك (البنسيون) الذى كان يسكنه فى القاهرة ، واستأجر (شقة) واستحضر معه أمه وأباه ليعيشا معه فى القاهرة . وبذلك تركا مصالحهما وتكبدا نفقات اضافية باهظة ، ومع كل ذلك لم يقو على الذهاب الى كليته . وفى مرة جلس معه أبوه يرجوه ، ويتوسل اليه أن يذهب الى الكلية ، والولد يقول انه لا يقوى على مواجهة من نجحوا وكانوا معه ، وأخيراً بكى الولد وترك المنزل ، وبكى الوالد وظل يبكى زمناً طويلا .

يعتقد الوالدان أن « عين السوء » قد أصابت نجلهما . معنى ذلك أن ابنهما كامل من كل ناحية و « عين السوء » هى المسئولة عما هو فيه ، مما يترتب عليه أن الولد ينسج حول نفسه فكرة عظيمة جداً ، ويتهم كل من حوله بسوء النية وسوء الخلق . وبلغ من شدة اعتقادهما فى الخرافات أن وقعا فى شباك محتال يدعى أنه يحول النحاس الى ذهب ، وباعا فى هذا السبيل أربعة أفدنة من عقارهما الذى لا يتجاوز أربعة وعشرين فدانا فى مجموعه .

وهناك حالة أخرى شبيهة بالحالة السابقة كان الولد فيها شبيها بالوحيد، اذ أنه كان الذكر الأول ، وبعده عدة بنات وعدة وفيات ثم ولد . وكان الوالد يشتغل بحرفة تدر مالا كثيراً ، الا أن المجتمع لاينظر اليها نظرته الى حرفة راقية ، وكانت الأم تشعر لهذا بالنقص . ثم أرادت أن تربى ابنها فى المدارس العادية ، وكانت مشغوفة بأن يعوض لها فى نظرها النقص الذى

تراه فى زوجها • صحب هذا احتقارها واحتقار الولد بعد نموه للوالد • نشأ الولد مدللا معظما محترما ، وكان اذا رسب فى امتحان بالمدرسة تعتقد الأم أن المدرسين يقصدون رسوبه ، وكانت تعلن هذا وتعلن أمثاله من التصريحات حول زملائه فى اللعب ، وزملائه فى المدرسة ، وبذلك نشأ الولد وعنده فكرة عظيمة جداً عن نفسه • ولم يقطع فى تعليمه الا سنتين من التعليم الثانوى ، واشترك بعد ذلك اشتراكا مشرفاً فى عمل من الأعمال الوطنية • وعزا كل خيبته بعد ذلك الى تضحيته فى سبيل الوطن • وبذلك زادت فكرته عن نفسه عظمة على الرغم من خيبته فى الدراسة التى لم يحاول اعادة مواصلتها • بعد ذلك شغل وظيفة حكومية ولكنه كان يقضى كل وقته فى محاربة المؤامرات التى يتوهم أن أغلب زملائه يدبرونها ضده • وبقى طول حياته متألما أشد الألم ؛ وخاصة كلما رأى غيره — ممن هم فى نظره أقل منه — يتفوق •

الغيرة عند الطفل الوحيد

يتبين مما سبق أن الطفل الوحيد ينشأ بين أبويه وليس معه أطفال آخرون يغتصبون امتيازاته ، وينمو محاطاً بكل أنواع الرعاية ، فينشأ بفكرة أنه مركز كل انتباه ، وينشأ أنانيا اذ لم يتعود من الحياة أخذاً وعطاء ، وحقا وواجبا • فالحياة كما نشأ فيها أول الأمر كلها أخذ ، وليس فيها عطاء ، وكلها حقوق وليس فيها واجبات • فاذا خرج الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد عن دائرة والديه للعب مع الآخرين ، فانه يصدم ، لأن الأطفال لا يدعونه يأخذ ولا يعطى ، ويعتدى ولا يعتدى عليه • فيحدث مثلا أن يضرب أو تخطف لعبته ، فيجرى عادة الى أمه باكياً وهذه تضمه اليها ، وتسب الأولاد الآخرين ، وتفهمه أنه رقيق الطبع ، حسن الخلق ، وأنه من طينة راقية غير طينتهم • وأما الآخرون فانهم على درجة كبيرة من الشراسة ، وسوء التربية ، وخير له ألا يلعب معهم ، وأن يمكث الى جانبها •

وبنفس الطريقة يخرج الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد الى المدرسة فيجد أن المعلمة لاتفرده بالتدليل ، بل أنها تعامل الجميع معاملة واحدة تقريباً • واذا غلبه زملاؤه فى لعب أو درس أو غير ذلك ، فهو كما تعلم من أمه له حسناته ونواحى رقته التى لا يعلمها أحد غيره هو وأمه • وهذا يكبر ، ويخرج الى الحياة ويجد أن مجال التمتع بامتيازاته معدوم ، ويقابل الخيبة بزيادة اعتقاده فى عظمة ذاته ، وزيادة اعتقاده فى سوء حظه فىالحياة ومؤامرات الناس حوله ، وأثر عين السوء وما يشبه ذلك وهكذا تصاحبه تلك الحال طوال حياته ، وتخلق له من المشكلات ما يظهر أثره فى ميدان الحياة الزوجية ومع أولاده وفى مهنته •

وهذه الحالات كلها يصحبها الانفعال المركب المسمى بالغيرة ، وهو — كما قلنا — مكبوت فى غالب الأحيان ، ولذا لا يسهل دائما تشخيصه • وسلوك الطفل الأخير من هذه الناحية يشبه فى حالات كثيرة سلوك الطفل الوحيد أو الشبيه بالوحيد • ويلاحظ أن الغيرة التىيشعر بها الطفلالوحيد، أو الشبيه بالوحيد عند خروجه للمدرسة أو للحياة أقسى وأشد من أى نوع من أنواع الغيرة التى تحدث داخل الأسرة •

الغيرة من المولود

يحسن بالوالدين تنظيم الحمل والولادة بحيث تكون الفترات الواقعة بين طفل وآخر لا هى بالقصيرة ولا بالطويلة ، أى أنها لا تكون قصيرة بحيث تحرم الطفل الموجود فعلا من النمو الكافى ، ولا تكون طويلة بحيث يتمتع الطفل الموجود بامتيازات يصعب عليه التنازل عنها فيما بعد • ونعتقد أن فترة طولها من سنتين الى ثلاث أو أربع سنوات فترة معقولة • ويجب عند الحمل اعداد ذهن الطفل الموجود لما يتوقع حدوثه ، فقبل الولادة بمدة كبيرة ، يجب أن يقلل من الالتصاق بالأم ، ويجب اعداد ذهنه كذلك بأن تفهمه الأم بأنه سيكون له أخ صغير يلعب معه ، ويرعاه •

وكثير من الأطفال يلاحظون ظاهرة الحمل ، وقد ينزعجون للتغير الظاهر غير المفهوم . ويظن الآباء اذ ذاك أن الغيرة بدأت قبل حادث الولادة ، وبعض الأطفال يسألون الأم عن سبب التغيير الظاهر ، فيجب على الأم أن تجيبه بهدوء بأنه يوجد بداخلها طفل صغير سيكبر ثم يولد بعد أن ينمو نموا كافيا . ويكتفى الأطفال عادة بما يقال لهم اذا كان معقولا صريحا يلائم عقولهم . ويصح أن تكمل هذه المحادثات بمحادثات أخرى ومشاهدات عن التوالد عند الطير والحيوان ، وتكون هذه المحادثات جزءاً أساسياً من التربية الجنسية اللازمة لصحة الفرد النفسية [1] . وبعد أن يولد الطفل لا يجوز اهمال الكبير واعطاء الصغير عناية أكثر مما يلزمه ، فيجب ألا يعطى المولود الا بقدر حاجته ، وهو لايحتاج الى كثير . والذى يضايق الطفل الأكبر عادة كثرة حمل المولود وكثرة الالتصاق الجسمى ، الذى يضر بالمولود أكثر مما يفيده .

فواجبنا اذن تهيئة عقل الطفل الى حادث الولادة وكذلك يجب فطامه فطاما وجدانياً تدريجياً قدر الامكان ، فلا يحرم حرمانا فجائيا من الامتياز الذى سيغدق مثله على أخيه .

الغيرة بسبب الموازنة

نعلم بطبيعة الحال أن الأطفال يولدون باستعدادات مختلفة من حيث الذكاء أو النواحى المزاجية . وينشئون مختلفين اختلافات تكون أحيانا شاسعة . ويوازن الطفل نفسه عادة بغيره من اخوته من حيث الجنس (ذكر أو أنثى) أو من حيث السن (كما بين الصغير والكبير . فالأصغر يغار أحياناً من الأكبر لمجرد أنه أكبر منه) ، أو من حيث المقدرة ، أو من حيث الجمال الطبيعى ، أو غير ذلك . ولكن الخطأ هو فى اهتمام الآباء

(١) انظر كتاب « قصة الحياة فى جمع الأحياء » للدكتور القوصى والدكتور طنطاوى .

والمدرسين وأصدقاء الأسرة والمجتمع عامة بابراز هـذه الفروق واشعار الأطفال بأنها مهمة فى نظر غيرهم • وتختلف درجات ابراز هـذه الفروق اختلافات كبيرة ، وتختلف تبعا لها النتائج المترتبة عليها من غيرة ، وحقد ، وغرور وغير ذلك •

فيجب على الآباء أن يقلعوا عن الموازنات الصريحة ، وعن خلق الجو الذى يشعر بالموازنة ويجب اعتبار كل طفل شخصية مستقلة لهـا مزاياها واستعداداتها الخاصة بهـا ، فاذا نجح طفل فى عمل ما فيكفى أن يشجع عرضا ، ولا يوازن بغيره • وكل طفل — مهما خاب — له ناحية طيبة يمكن كشفها وابرازها ، والاعتزاز بها • وبذلك يمكن أن يزول الشعور بالخيبة المؤدى الى الشعور بالذلة والنقص •

ومنعا للموازنات بين الأخ وأخيه أو التلميذ وزميله ، يمكن الموازنة بين الطفل ونفسه فى أوقات مختلفة • فان تقدم فى وقت ما عما كان عليـه فى وقت سابق ، فهذا كاف لتشجيعه ، واذا كانت المدرسة أو الأسرة تعنى بالهوايات ، فيحسن أن يكون لدى الأولاد هوايات مختلفـة كالموسيقى والتصوير ، وجمع الطوابع ، وجمع عجائب الطبيعة من الحفريات ، وأنواع البيض ، وغير ذلك • وبذلك يتفوق كل فى ناحيته ، ويوازن نفسه بنفسه• وان اختار الأطفال هوايات متشابهة ، فيجب الامتنـاع عن الموازنة التى تقلل من قيمـة بعضهم ، مما يجعلهم يكفون عن نشـاطهم ، ويفقـدون اهتمامهم به •

وتخطىء بعض الأسر بأن تعامل الابن معاملة تختلف اختلافا تاما عن معاملة البنت ، مما يخلق الغرور فى الأبناء ، ويثير حفيظة البنات ، وينمى عندهن غيرة تكبت وتظهر أعراضها فى صور أخرى فى مستقبل حياتهن ، ككراهية الرجال عامة وعدم الثقة بهم وغير ذلك من المظاهر ، ومما يجعل الولد أيضا معرضا للغيرة عند خروجه للحياة •

وبعض الأسر يخطىء فى اغداق امتيازات كبيرة على الطفل العليل كما حدث بالفعل فى حالة معينة من احضـــار علب (الشيكولاته) ، والملابس الحريرية ، واللعب واعطاء النقود ، وغير ذلك مما لاعلاقة له بعلاج المرض نفسه • وهذا يثير الغيرة فى الاخوة الأصحاء • وتبـــدو مظاهرها فى تمنى المرض ، وكراهية الطفل المريض ، أو غير ذلك من مظاهر الغـــيرة الظاهرة أو المستترة • ويستنتج من هذا أنه لا يجوز اعطاء الطفل أى امتياز أكثر من العناية التى يتطلبها المرض ، وان كان المرض شديد الوطأة طويل المدة يتطلب امتيازات كثيرة بارزة ، فيجب أن يحرر الطفل تدريجياً من هـــذه العناية مع خروجه التدريجى من حالة المرض • وعلى هذا يجب ألا يعطى الطفل فى أى وقت من الأوقات امتيازاً يصعب عليه التنازل عنه فيما بعد ، أو يشعر معه غيره من أخوته بالظلم والتحيز البالغ •

خلاصة ما تقدم أنه يجب مهما كانت الفروق العرضية أو الدائمة بين الأخوة أو الزملاء ، فلا يجوز استثارة الموازنات مما يؤدى الى الغـــيرة • وهذا لا يمنع بالطبع من اجراء مباريات بين تلاميذ المدارس من آن لآخر مما يحفزهم لبذل الجهد ، ويخلق الفرصة أحيانا لتعويد التلميذ تقبل الخيبة المؤقتة بصدر رحب •

خاتمة :

يصح أن نلخص صفات الذى تغلب عليه الغيرة لنبين مبلغ الضرر الذى قد يحدثه الآباء والمدرسون باستثارة الأطفال بالموازنة الصريحة أو الضمنية فالغيرة شعور مؤلم جدا يجعل صاحبه قلقا ، ناقما ، تعبا لا يستريح لنجاح غيره ، وتجده فوق ذلك قليل التعامل مع الناس ، لا يسهل انسجامه معهم ، ولا يميل الى التعاون أو الأخذ والعطاء ، أنانيا يهتم بحقوقه أكثر مما يلتفت لواجباته يميل أحيانا الى الانزواء والى نوع من الهجوم بالتشاجر أو النقد أو التشهير أو الايقاع بغيره• ويشعر عادة فوق ذلك بأنه مظلوم مضطهد سيىء

الحظ ، وأن الناس يعملون عادة ضده ، مما يجعله قلقا مبالغا فى الحذر من الناس والبعد عنهم •

وفى بعض الحالات ينتحل الشخص الغيران سلوكا طيبا ، ولكنه مع ذلك تجده يتصف ببعض الصفات السابقة الذكر •

ويلاحظ أن الأساس فىالغيرة فىأغلب الحالات — كما بينا — هو القلق والخوف وضعف الثقة بالنفس ، مما يجعل من الواجب الاتجاه دائما الى زيادة هذه الثقة بالنفس من مختلف النواحى زيادة تخفف من النقص وتقلل من صدمة الخيبة وتزيد من الأخذ والعطاء ، وتزيد من القدرة على التعاون الاجتماعى • واذا تم هذا ، تم كسر الحلقة المفرغة التى تربط بين الغيرة وضعف الثقة •

وننبه الى وجوب اهتمام الآباء بالطفل الذى لا تظهر عليه الغيرة اطلاقا، اذ يحتمل أن يقوم الطفل بكبت الغيرة والتظاهر بمظهر الانشراح وعدم الاهتمام وما الى ذلك • والغيرة المكبوتة أشد خطرا على النفس من الغيرة الصريحة ، فالنوع الأول يزيد معه التوتر ويزيد معه القلق ان عاجلا وان آجلا •

كذلك لا يجوز أن يبهر الآباء ما يقوم به بعض الأطفال من المبالغة فى اطاعتهم ، وتقليدهم ، ومسايرة آرائهم ، والعمل على ارضائهم ، والاعجاب بهم ، والتظاهر بالحب لهم ، الى غير ذلك • ولا يجوز لهم أن يقربوا مثل هذا النوع على حساب النوع الآخر صاحب الرأى الجرىء الحر • هذا الموقف من الآباء كثير الانتشار ، وهو سبب من أسباب غرس بذور الغيرة والحقد بين الأخوة ، وتنشئة بعض الأولاد على النقمة على السلطة والمجتمع عن طريق التحويل من النقمة على الوالدين وبعض أفراد الأسرة •

ويجب أن نشير هنا الى أننا أغفلنا اغفــالا تاما رأى مدارس التحليل النفسى فى الغــيرة ، وهو الرأى الذى يرجع الغيرة كلهــا الى الاتجاهات الجنسية المثلية [١] (Homosexual tendencies) وهو رأى لا يوافق عليه الكثيرون من أصحاب المدرسة الحديثة ، وقد اكتفينا هنا بعرض ما اتفقت عليه الآراء اتفاقا تاما .

---

(1) a) Flugel: Men and their Motives
b) Flugel: Psycho-analytic Study of the Family
c) McDougall: Abnormal Psychology.

المراجع

Blanton : Child Guidance.
Blatz and Bott : The Management of Young Children.
Chaloner : The Mother's Encyclopaedia.
Flügel : Men and Their Motives.
Flügel : Psycho-analytic Study of the Family.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Kanner : Child Psychiatry.
McDougall : Abnormal Psychology.
Miller : Advances in Understanding the Child.
Neill : The Problem Child.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.

الفصل الرابع والعشرون

التأخر الدراسى

مقـــدمة

كثيرا ماتتقدم الشكوى من الآباء أو المدرسين عن بعض تلاميذ المدارس لتأخرهم فى الدراسة • ويحدث فى بعض الحالات أن نكشف مبالغة من جانب الآباء ، فبعضهم يشكو من أن درجات ابنه فى السنة الأولى الثانوية ضعيفة ، وبالبحث نجد أن عمر الولد احدى عشرة سنة فقط • وتكون حجة الوالد اذا عارضت فكرته ، أن هناك أولادا ينالون الشهادة الابتدائية فى عمر أقل من عشر سنوات • وينسى الوالد فى ذلك أمرين : أولهما أن الآباء يدفعون أحيانا بأبنائهم دفعا فى المدرسة ويكون هذا الدفع غالبا على حساب صحتهم ، واضعاف حيويتهم ، وخروجهم فى مستقبل حياتهم بأفق ضيق • ويكون له فى أغلب الحالات رد فعل سيىء على دراستهم نفسها فى مرحلة التعليم الثانوى أو العالى • وكثير منهم يقفون فى الطريق ولا يتمون تعليمهم • والأمر الثانى الذى ينساه الوالدان هو أن هناك فروقا شاسعة فى استعدادات الأفراد ، اذأنه ثبت أن ذكاء الأطفال قد يختلف اختلافات شاسعة من طفل الى آخر • ويمكن باستعمال مقاييس الذكاء تحديد مستوى الذكاء الذى يسمى بالعمر العقلى [1] •

---

(١) لدراسة موضوع الذكاء وأساليب قياسه وبعض نتائج تطبيقية فى المدارس المصرية يقرأ كتاب قياس الذكاء للأستاذ « اسماعيل القبانى بك » من مطبوعات معهد التربية •

ونظرا لقلة شيوع استعمال مقاييس الذكاء ، فان الآباء والمدرسين فى مصر مثلا يحكمون عادة على تأخر التلميذ فى دراسته اذا كان عمر الولد أكبر بكثير مما ينتظر لمثله من نفس مستواه الدراسى ، فاذا تكرر رسوب تلميذ عمره فوق السادسة عشرة فى السنة الرابعة الابتدائية فانه يعتبر متأخرا دراسيا ، ولكن يحدث أحيانا أن يتمكن الأب من النظر الى المسألة من ناحية أخرى ، وهى درجة ملاءمة المستوى الدراسى لاستعداد الطفل ، اذ يجوز أن يكون عمر التلميذ ستة عشر عاما ، ولكن استعداده العقلى لا يؤهله الا للسنة الرابعة الابتدائية •

تحديد معنى التأخر الدراسى

ولكن ما تقدم يعتبر كله تقديرا وصفيا تخمينيا ، وقد تقدمت البحوث فى بعض البلاد مما أدى الى امكان تحديد معنى التأخر الدراسى • وأول خطوة فى هذا الاتجاه هى قياس الذكاء •

ويقاس الذكاء بمقاييس مقننة (Standardised Tests) ، اذا طبقت على طفل ما نصل منها الى معرفة مستوى ذكائه أو عمره العقلى • فاذا كان عمر الطفل الزمنى عشر سنوات ، وعمره العقلى ثمانى سنوات ، فمعنى ذلك أن مستوى ذكائه هو مستوى طفل متوسط الذكاء عمره الزمنى ثمانى سنوات• أى أن ذكاء هذا الطفل أقل من العادى بسنتين عقليتين •

كذلك اذا قسنا ذكاء طفل آخر عمره ثمانى سنوات، ووجدنا أن مستوى ذكائه ست سنوات عقلية ، يكون معنى ذلك أن مستوى ذكاء هذا الطفل يساوى مستوى طفل متوسط الذكاء عمره الزمنى ست سنوات ، وبذلك يعد متأخرا فى الذكاء بمقدار سنتين عقليتين

وواضح أن الطفل الثانى أكثر تأخرا من الطفل الأول ، اذ أن تأخرا مقداره سنتان فى الثامنة أكبر نسبيا من نفس المقدار من التأخر فى العاشرة • لهذا يحسن حساب ما يسمى نسبة الذكاء ، وهى عبارة عن نسبة العمر العقلى الى العمر الزمنى ، ويضرب الناتج فى ١٠٠ للتخلص فقط من الكسور •

أى أن نسبة الذكاء = $\frac{\text{العمر الزمني}}{\text{العمر العقلي}}$ × ١٠٠

وواضح أن الشخص المتوسط الذكاء تكون نسبة ذكائه ١٠٠ ؛ وأما من تزيد نسبة ذكائه على ١٠٠ فهو فوق المتوسط ، ومن تقل عن ١٠٠ فهو دون المتوسط ، ويعين البيان الآتى نسب الذكاء المختلفة[1] :ـــ

اذا كانت نسبة الذكاء من ٧٠ الى ٨٠ كان الشخص غبيا جدا .

واذا كانت نسبة الذكاء من ٨٠ الى ٩٠ كان الشخص دون المتوسط .

» » » » » ٩٠ » ١١٠ » » متوسط الذكاء .

» » » » » ١١٠ » ١٢٠ » » فوق المتوسط .

» » » » » ١٢٠ » ١٤٠ » » ذكياً جداً .

» » » » » ١٤٠ فما فوق » » عبقرياً .

وأما الخطوة الثانية لتحديد معنى التأخر الدراسى فهى قياس المستوى الدراسى باستعمال المقاييس الدراسية المقننة ، ويسمى ما تقيسه المستوى التحصيلى (Educational Age) أو العمر التحصيلى ومعنى العمر التحصيلى بالنسبة للدراسة كمعنى العمر العقلى بالنسبة للذكاء . فاذا وجدنا أن تلميذا عمره الزمنى عشر سنوات وعمره التحصيلى سبع سنوات مثلا ، كان مستوى تحصيله فى الدراسة يساوى مستوى تحصيل طفل متوسط عمره سبع سنوات . وهذا الطفل يعد متأخرا ثلاث سنوات تحصيلية عما ينتظر له بالنسبة لعمره الزمنى . ولكن يجوز أن استعداده العقلى لا يتمشى مع عمره الزمنى ، أى أنه يجوز مثلا أن يكون عمره العقلى سبع سنوات مثلا ، وبذلك لا يعد متأخرا فى مستوى تحصيله عما ينتظر له بالنسبة لمستواه العقلى . وفى هذه الحالة يعتبر عاديا من حيث التحصيل .

---

(١) كتاب الأستاذ القبانى بك فى قياس الذكاء ص ٤٩ .

لهذا نشأت فكرة حساب النسبة التحصيلية ، وهى نسبة العمر التحصيلى الى العمر العقلى ، ويضرب الناتج فى ١٠٠ لنفس السبب السابق الذكر فى حساب نسبة الذكاء .

أى أن النسبة التحصيلية = $\frac{\text{العمر العقلى}}{\text{العمر التحصيلى}}$ × ١٠٠

فاذا أمكننا أن نعرف هذه النسبة التحصيلية لتلميذ ما ، ووجدنا أنها أقل من ١٠٠ بدرجة واضحة ، حكمنا عليه بالتأخر الدراسى ، ووجب علينا دراسة العوامل التى أدت الى ذلك ومعالجة الحالة .

وفى العادة لا تزيد النسبة التحصيلية (بخلاف نسبة الذكاء) عن ١٠٠ ، الا فى حالات نادرة ، وهى حالات التلاميذ الذين يرهقون أنفسهم بالمذاكرة ، أو الذين يساعدون كثيرا بدروس خصوصية . ولكنها فى أغلب الحالات تكون ١٠٠ ، وكثيرا ما تقل عن ١٠٠ . وقد دلت بحوث « برت Burt » على أن هذا النقص عن مائة يحدث بنوع خاص عند الأغبياء وضعاف العقول ، اذا أنه وجد فى جميع حالاتهم تقريبا أن المستوى الدراسى أقل من المستوى العقلى [1] ، ولعل من العوامل المؤثرة فى هذا الشعور بالنقص المصاحب عادة للقصور العقلى ، وهذا الشعور بالنقص يجعل مستوى انتاجهم أقل مما ينتظر لهم حسب مستواهم العقلى .

ولو كان المستوى الدراسى لا يتوقف الا على مستوى الذكاء ، لكانت النسبة التحصيلية دائما ١٠٠ ؛ ولكن التحصيل يتوقف على وجه العموم على عوامل أخرى كالظروف المحيطة بالتلميذ وحياته الوجدانية وما عنده من دوافع مختلفة .

وليس من السهل علينا فى مصر فى الوقت الحاضر أن نحدد بالدقة درجة التأخر الدراسى ، ولذلك أسباب عديدة منها عدم توافر الاختبارات المقننة

(1) C. Burt : The Backward Child p. 35

التى تقيس المستوى التحصيلى ، ومنهـا عوامل أخرى تدخل فى التنظيم العام للتعليم ، كتفاوت الأعمار فى الفرقة الدراسية الواحدة تفاوتا كبيرا ؛ ففى بعض الأحيان نجد فى السنة الرابعة الابتدائية تلاميـذ عمرهم عشر سنوات ، ونجد آخرين يقرب عمرهم من سبع عشرة سنة • فتصعب الموازنة بين تلميذين كهذين من حيث درجة تأخرهما الدراسى [1] • يضاف الى هذا نظام الامتحانات الذى عود بعض التلاميذ وبعض المدرسين الوصول الى حيل خاصة تمكن من حفظ المعلومات بصورة تكفى لوضعها يوم الامتحان على الورقة المخصصة لذلك • وبذلك تقل قيمة التحصيل الدراسى بمعنى كسب قوة معينة ، نتيجة لفهم المواد الدراسـية وهضمها وحسن تطبيقها والكفاية فى استعمالها •

بعض حالات فى التأخر الدراسى

وسنعرض الآن بعض الحالات التى عرضت على العيادة السيكلوجية بمعهد التربية للمعلمين بسبب التأخر الدراسى ، وقد بينا مع كل حالة نوع التأخر كما وصفته المدرسة أو كما وصفه المنزل • وبينا السنة الدراسية ، والعمر الزمنى والعمر العقلى • ومن موازنة هذين أحدهما بالآخر وبالسنة الدراسـية ، يمكننا أن نتبين على وجه التقريب درجة التـأخر الدراسى الظاهرى من مقارنة السنة الدراسية بالعمر العقلى • وقد أثبتنـا كذلك بعض العوامل الأخرى — غير الذكاء — التى نعتقد أن لها دخـلا كبيرا فى التأخر الدراسى •

(١) والصـعوبة فى هـذه الحالة صعوبة احصائية أكثر منها صـعوبة سيكولوجية •

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	العمر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
١	تأخر دراسي عام	٤ – ابتدائي	١١ ½ سنة	١٣ سنة	ضعيف التذكر مشتت الانتباه . زيادة سريعة مطردة في الوزن . الوالد شديد التضييق على ولده يتدخل في أتفه المسائل الخاصة به .
٢	تأخر دراسي عام	٣ – ابتدائي	١١ سنة	٩ سنوات	الجو المنزلي كله قسوة ، وشدة ، وإشراف مما جعل الولد بائساً كثير السرحان
٣	تأخر دراسي عام	١ – ابتدائي	٨ سنوات	٨ ½ سنوات	انتباه الولد مشتت ، وهو غير محبوب من زملائه . وله أزمات انفعالية بسبب وفاة والده الذي كان يدلله ، وشدة إخوته معه .
٤	تأخر دراسي عام	١ – أولى	٥ ½ سنوات	٤ سنوات	الظروف كلها عادية في الظاهر .
٥	تأخر دراسي عام	٣ – ابتدائي	١٠ ½ سنوات	٩ ½ سنوات	معاملة المنزل له متقلبة جداً . أنيميا شديدة .
٦	تأخر دراسي عام	٣ – ابتدائي	١١ سنة	١٠ سنوات	ضعف صحي عام وسمنة شديدة وروماتزم بالغشاء المبطن للقلب نتيجة لبعض النزلات الروماتزمية العضلية .

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	العمر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
٧	تأخر دراسي عام	٣ ــ ابتدائي	٩ سنوات	١٠ سنوات	تغيب كثيراً بسبب المرض ويمكن معرفة معاملة والديه له من أنهما حولاه قصداً من مدرسة الى أخرى يضرب فيها التلاميذ ضرباً شديداً حتى يعامل هو بنفس الطريقة
٨	تأخر عام	٣ ــ ابتدائي	١١$\frac{1}{2}$ سنة	١١$\frac{1}{2}$ سنة	قلة اهتمام بالعلوم المدرسية التي يقول إنها مملة ، وميل للعب ، يسخر كثيراً من المدرسين .
٩	تأخر عام	٣ ــ ابتدائي	٩$\frac{1}{2}$ سنوات	١١ سنة	ضعف صحي : تقلب شديد مع ضعف زائد من جانب الوالد . الولد قليل الاستقرار والتركيز .
١٠	تأخر عام	٣ ــ ابتدائي	١٢$\frac{1}{4}$ سنة	٨ سنوات	ظروف تبدو كلها عادية.
١١	تأخر عام	٢ ــ ابتدائي	٨$\frac{3}{4}$ سنوات	٨$\frac{3}{4}$ سنة	حريته مقيدة : يأخذ دروساً خصوصية باستمرار ويعامل معاملة جافة من والديه
١٢	٤ تأخر عام خصوصاً في اللغات	٤ ــ ابتدائي	١٢ سنة	١١ سنة	ضعف سمعي والتهابات في مناطق التنفس مصحوبة بكثرة إفراز البلغم الذي ربما

رقم	نوع التأخر المقدم فى الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					يرجع اليه ما عنده من هبوط عام فى الحيوية وضعف فى القدرة على التركيز وبذل الجهد ، سوء إشراف من الوالدين .
١٣	تأخر دراسى عام	٢ ـ ثانوى	١٧ سنة	ذكى جداً	هروب من المدرسة ، وانشغال بالسرقة وتنظيم العصابات ، والمسائل الجنسية وشرب الخمر . يعتقد أن أحداً لم يكن عظيما بسبب التعليم ويضرب مثلا بهتلر وغيره. وحيد والديه وتوفيت والدته بعد مرض ألزمها الفراش سنوات عدة .
١٤	تأخر عام	٤ ـ ثانوى	١٦ ١/٢ سنة	١٣ ١/٣ سنة	لم يعتمد على نفسه فى حياته قط الى حد أن استحمامه كانت تقوم به والدته الى سن السادسة عشرة (١)
١٥	تأخر عام	٢ ـ ابتدائى	٩ ١/٤ سنوات	٩ ١/٢ سنوات	الولد متوسط فى ذكائه ولكنه يقارن فى المنزل دائماً باخوته الذكور والإناث وعندهم جميعاً

(١) هذا التلميذ وصل الى السنة الرابعة الثانوية رغم ان ذكاءه أقل من المتوسط بكثير وهذا يدل على أن الامتحانات فى مدارسنا لا يمكن بحال أن تعتبر مقاييس مضبوطة للمستوى التحصيلى .

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	العمر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					تفوق كبير فى الذكاء ، مما جعل الولد منزوياً خاملا قليل النشاط على الرغم من أنه فى الحقيقة متوسط الذكاء
١٦	تأخر دراسي عام	٣ ــ ابتدائى	١٥ سنة	١٠¼ سنوات	ظروفه كلها تبدو عادية.
١٧	تأخر عام	٢ ــ ثانوى	١٤½ سنة	فوق المتوسط	للولد مركز ممتاز ، وقد دلل كثيراً فى صغره وانتابته فى صغره أمراض كثيرة ، لم يعتمد على نفسه قط فى أى عمل ، قليل التركيز يميل الى اللذات الحسية من أكل ونواح جنسية وما يشبههما .
١٨	تأخر عام	١ ــ ثانوى	١٤ سنة	أقل من المتوسط	ضعف البصر ، وانحطاط ظروفه الاقتصادية وانحلال جو الأسرة بعد وفاة والده فجأة .
١٩	تأخر عام	٣ ــ ابتدائى	١٥ سنة	٩ سنوات	ظروفه كلها تبدو عادية
٢٠	تأخر فى الحساب	٢ ــ روضة	٦½ سنوات	٤½ سنوات	ظروفه كلها تبدو عادية .
٢١	تأخر دراسي عام	٤ ــ ابتدائى	١٤ سنة	١١½ سنة	ضعف فى جميع العمليات الأولية من ضرب وقسمة الكسور الاعتيادية والعشرية

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					كانت كثيرة التغيب بسبب المرض .
٢٢	تأخر دراسى عام	٢ ــ ابتدائى	٩ ½ سنوات	٨ ½ سنوات	حرية الولد مقيدة جداً ولم يعود أن يستقل بنفسه فى عمله .
٢٣	تأخر دراسى عام	٢ ــ ثانوى	١٤ سنة	متوسط	المستوى الاقتصادى للمنزل منحط جداً ، والوالد فى غاية القسوة والقلق على تعليم ابنه ، كانت النتيجة تأخر وسرقة وتدخين
٢٤	تأخر دراسى عام	١ ــ ثانوى	١٣ ½ سنة	١٣ ½ سنة	الوالدة توفيت والوالد لا يكاد يكون له بابنه إلا صلة الانفاق عليه فى مدرسة داخلية ، والولد كثير النسيان والسرحان ، وأخيراً يهمل تنظيف نفسه لدرجة ظاهرة
٢٥	تأخر دراسى عام	٣ ــ ثانوى	١٦ ½ سنة	متوسط	نوبات عصبية بدأت مع المراهقة ، وسوء علاقته بوالديه لدرجة تؤدى الى الاحتكاك المستمر ، انشغاله بالمسائل الجنسية وإفراطه فى الاستمناء .

رقم	نوع التأخر المقدم في الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمني	العمر العقلي	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
٢٦	تأخر عام وبنوع خاص في اللغات	٢ – ثانوى	١٧ سنة	متوسط	يشترك مع أخيه في صفة عدم الاكتراث بالتعليم. يقول إنه يؤمن من خبرته ببعض أقاربه بأن المركز والمستقبل في الحياة لا يتوقف على التعليم وبذل الجهد المدرسي وإنما يتوقف على عوامل أخرى لا تكسب في المدرسة
٢٧	تأخر عام وبنوع خاص في اللغات	٣ – ابتدائى	٩½ سنة	٩½ سنوات	ضعف عام في المطالعة ، والده شغوف جداً بتعليمه وبخاصة لخيبة أخيه الأكبر
٢٨	تأخر عام	٤ – ابتدائى	١٦¾ سنة	٩½ سنة	ظروفه كلها تبدو عادية .
٢٩	عدم رغبة في المذاكرة	أولى عال	١٨ سنة	ذكى جداً	ينظر الولد للمستقبل فيجده غير براق له بوجه خاص ويجد أن اخوته الذين سبقوه نجحوا جميعاً ، وخرجوا للحياة ، أما هو فما زال أمامه أربع سنوات على الأقل ويشعر أنه غير مهيأ عقلياً ومزاجياً للمهنة التى يعد لها ، ويشعر الولد بالفارق الكبير جداً بين التعليم الثانوى والعالى ، إذ كان كل شىء يقدم

رقم	نوع التأخر المقدم فى الشكوى	السنة الدراسية	العمر الزمنى	العمر العقلى	بعض العوامل المختلفة المساعدة على التأخر
					له فى التعليم الثانوى مهضوماً وكانت هناك صلة بين التلميذ والمدرسة ، وكان التلاميذ قليلين فى الفرقة الواحدة والكتب قليلة وصفحات كل كتاب قليلة

العلاقة بين التأخر الدراسى والتأخر العقلى

واذا فحصنا الجدول السابق نجد فى حالات التأخر العقلى أن التأخر الدراسى أقل مما كان ينتظر من التلميذ لما لديه من تأخر عقلى . وذلك لأننا لو حسبنا العمر الدراسى للتلميذ على أنه العمر المتوسط للفرقة الدراسية التى هو فيها فاننا نجد فى الغالب أن الفرق بين العمر الزمنى والعمر الدراسى أقل من الفرق بين العمر العقلى والعمر الزمنى .

فاذا اعتبرنا أن العمر المتوسط على وجه التقريب فى السنوات الأولى والثانية والثالثة والرابعة الابتدائية هو ٨ سنوات ، ٩ ١/٢ سنوات ، ١١ سنة ، ١٢ ١/٢ سنة على التوالى [١] ، واذا أخذنا من الجدول السابق جميع حالات المتأخرين عقليا من حالات تلاميذ المدارس الابتدائية ، فاننا نحصل على النتائج الآتية :

رقم الحالة	٢	٥	٦	١٠	١٢	١٦	١٩	٢١	٢٢	٢٨
مقدار التأخر الدراسى بالنسبة للعمر الزمنى بالسنوات	صفر	١/٢	صفر	١ ١/٤	١/٢	٤	٤	١ ١/٢	صفر	٤ ١/٤
مقدار التأخر العقلى بالنسبة للعمر الزمنى بالسنوات	٢	١ ١/٢	١	٤ ١/٤	١	٤ ٣/٤	٦	٢ ١/٢	١ ١/٤	٧ ١/٤

(١) وهذه الاعمار محسوبة على وجه التقريب من الرسوم البيانية الواردة فى كتاب قياس الذكاء للأستاذ اسماعيل القبانى بك ص ٨٥ .

فبالموازنة بين التأخر العقلى والتأخر الدراسى كل منهما بالنسبة للعمر الزمنى ، نجـد أن التأخر الدراسى فى هـذه الحالات أقل مما كان ينتظر بالنسبة لما عند التلميذ من تأخر عقلى .

ومن الغريب أن هذه النتيجة تخالف ما وصل اليه الأستاذ (Burt) (١) من نتائج مع التلاميذ الانجليز ، اذ أنه وجد أن التأخر الدراسى أكبر فى العادة من التأخر العقلى فى حالات الأغبياء . ولعل السبب فى ان نتائجنا جاءت مخالفة لما كان ينتظر هو ماسبق أن أشرنا اليه من أن التلاميذيدفعون دفعاً بالدروس الخاصة مما يرهقهم ويزيد شعورهم بالخيبة . ولعل هناك مجموعة أسباب أخرى ، وهى أن التلاميذ أحيانا ينقلون من فرقة الىأخرى أعلى منها بناء على عوامل أخرى غـير المستوى التحصيلى ، وذلك كنقل التلميذ رغم ضعفه الى فرقة أعلى حتى لا يفصل من المدرسة .

طريقة بحث حالات التأخر الدراسى

يتبين من الجدول السابق (ص ٤٥٠) أنه لابد لفحص حالات التأخر الدراسى من فحص نواح متعددة ، حتى يمكن أخذ صورة حقيقية للعوامل المختلفة المؤثرة سواء فى ذلك العوامل الأصلية والعوامل المساعدة .

فيجب التأكد أولا مما اذا كان التأخر الدراسى عاما فى جميع المواد الدراسية أو خاصا بمادة أو بمجموعة معينة من المواد ، ذلك لأنه يحدث أحيـانا أن يكون التأخر عاما فى جميع المواد ، ويحدث أن يكون فى مادة دراسيةواحدة . ويجبالتأكد أيضا مما اذا كان التأخر حديثا أو مستديما .

ونجد عادة أن العوامل المؤثرة يمكن أن تقع تحت الأقسام الآتية :

---

(١) (C. Burt: The Backward Child) لعل هذا الاختلاف يرجع فى الأصل الى اختلاف المقاييس . فبينما اعتمد «بيرت» فى الوصول الى نتائجه على مقاييس التحصيل المقننة ، اعتمدنا نحن على الفرقة الموجود بها التلميذ وهذه كثيرا ما لا تدل دلالة صحيحة على المستوى التحصيلى .

(ا) عوامل عقلية عامة كالتأخر فى الذكاء أو التأخر فى القـدرة على القراءة بسبب عدم اتقان أسسها • اذ أن القراءة تدخل فى العلوم المدرسية بمختلف أنواعها • أو عوامل عقلية خاصة كالقدرة على التذكر أو احدى القدرات الخاصة التى يلزم وجودها بنسبة كبيرة للتقدم فى مادة دراسية معينة كالقدرة اللغوية أو القدرة الهندسية ، أو غير ذلك •

(ب) اتجاهات عقلية وعوامل وجدانية عامة كضعف الثقـة بالنفس والخمول ، أو اتجاهات عقليـة وعوامل وجدانية خاصة ككراهيـة مادة دراسية معينة لارتباطها فى الذهن بموقف مؤلم من جانب المدرس أو الزملاء ، أو غير ذلك من الحالات الوجدانية المختلفة التى قـد تنشأ داخل الفصل أو خارجه •

(حـ) عوامل جسمانية عامة تؤدى الى نقص عام فى الحيوية ، فتقلل من مقدرة الشخص على بذل أقصى جهده • من ذلك « الأنيميا » والاصابة بنزلات البرد المتكررة والأمراض الطفيلية « كالانكلستوما » وغير ذلك • وكذلك عوامل جسمانية خاصة كضعف السمع العام (الصمم) أو الخاص (المتصل ببعض الأصوات دون غيرها) أو ضعف البصر بأنواعه المختلفة وما يشبههما •

(د) عوامل بيئية تنشأ فى المدرسة أو فى المنزل أو خارجهما ومن أمثـلة ذلك ما يأتى :

١ — كثرة تنقل التلميذ من مدرسة الى أخرى بسبب تنقل الوالد من بلدة الى أخرى ، مما يترتب عليه اضطراب التلميذ بين طرق تعليمية مختلفة ، وضياع لبعض أجزاء المنهج • وكذلك انتقال الطالب انتقالا فجائيا بالنسبة اليه من نوع من التعليم الى نوع آخر كما يحدث عنـد تنقل التلميذ بين مدارس أجنبية وأخرى مصرية •

٢ — كثرة تغيب التلاميذ عن المدرسة لأسباب قوية أو تافهة •

٣ — هروب التلاميذ من المدرسة لقلة جاذبية العمل بها ، ولوجود مغريات أخرى خارج المدرسة كالخيالة ، أو تأليف عصابات ، أو الجرى وراء المسائل الجنسية ، أو ما يشبه ذلك .

٤ — علاقة الطفل بوالديه واخوته وزملائه ومدرسيه وعلاقة والديه أحدهما بالآخر ، وفكرتهما عن التعليم وأهميته ، وما ينشأ عن ذلك من اتجاهات عقلية وحالات وجدانية تؤثر فى التلميذ أحيانا بطريق مباشر وأحيانا بطريق غير مباشر .

٥ — مقدار شعور التلميذ بقيمة العمل المدرسى خصوصا بعد سن المراهقة .

٦ — طريقة استغلال التلميذ لوقت فراغه .

٧ — تنقلات المدرسين بعد بدء الدراسة من فرقة دراسية الى أخرى بسبب تغير الجداول .

٨ — درجة ملاءمة المواد الدراسية وطرق التدريس لاستعداد التلميذ ومستوى تحصيله .

٩ — الجو المدرسى العام (راجع الفصل الحادى عشر)

١٠ — ملاءمة جو المنزل واستعداده للعمل الهادىء المنتج .

وليس من الممكن فى هذا المقام أن تتكلم بالتفصيل عن هذه النواحى كلها .

مصاحبات التاخر الدراسي

لاحظنا فى الجدول السابق (ص ٤٥٠) أن هذه الحالات ليست حالات تأخر دراسى فحسب ، وانما توجد معها مشكلات أخرى كالهرب وشرود الذهن والاعتداء ، وغير ذلك من المشكلات التى قد تكون مصاحبة فقط للتأخر الدراسى ، وقد تكون مسببة له ، وقد تكون ناتجة عنه .

وقد لاحظنا فى حالات جرائم الأحداث العديدة التى فحصناها ، والتى

كان الأحداث فيها من تلاميذ المدارس أنهم كانوا متأخرين جدا فى الدراسة. وكان هؤلاء أحيانا ينظمون أنفسهم فى شكل عصابات للسرقة من عربات الترام أو عربات السكة الحديدية أو السطو على المنازل أو غير ذلك . وكانوا يتصلون بأحد الباعة ليكون بمثابة مصرف لمسروقاتهم يبيعونها له .

والتلاميذ الذين يلبون أول داع للخروج على النظام ، والذين يكونون مصدر اضطراب فى حياة المدرسة هم فى العادة المتأخرون دراسيا . ولا يخرج مسلك التلاميذ الذين من هذا النوع عن أنه تعويض للشعور بالنقص الذى يسببه لهم الاخفاق الدراسى . وهذا الشعور بالنقص أو الشعور بعدم تحصيل المستوى المنتظر لهم ينتج أساسا من موازنتهم بزملائهم الناجحين . كذلك يمكن تفسير هذا المسلك ضد النظام المدرسى بأن التلاميذ يعتبرون أن المدرسة عائق فى سبيل تحقيق ذاتياتهم تحقيقا يجلب لهم السرور ، ولذلك فهم يثورون ضد المدرسة .

وفى المراحل المتقدمة يفقد التلميذ ثقته فى نفسه ازاء نوع المستقبل المترتب على النجاح المدرسى . وربما لا يجد ما يشعره بالاطمئنان من هذه الناحية فتتسبب عنده أنواع من التألم واليأس ، وما يتبع ذلك من مشكلات نفسية .

ونجد فى المراحل الأولى من التعليم أن التأخر الدراسى يصحبه اغراق فى أحلام اليقظة ، لأنها الطريق الوحيد للتخلص من صعوبات الدرس ، وفى أغلب حالات التأخر الدراسى نجد سلوكا يحتاج الى اصلاح كالاستكانة ، والاغراق فى أحلام اليقظة والشعور بالخجل والنقص . وأحيانا نجد التلميذ يمارس عملا آخر يجد فيه بعض السلوى كالتدخين أو الاستمناء أو متابعة المسائل الجنسية ، وأحيانا أخرى نجد محاولات للنقد أو المشاكسة أو التسلط أو كشف عيوب الناس أو الثورة على النظام ، وأحيانا نجد أنواعا من الحركات العصبية العامة أو الخاصة .

لذلك وجبت دراسة درجة ملاءمة الدراسة للتلميــذ من أول الأمر ؛ لا سيما أن التأخر الدراسى قد يكون قليــلا فى أول الأمــر ، ولكنه فى العادة يتضخم أثره كلما تقدم الطفل فى الدراسة ، اذا هو لم يعالج . فاذا فرضنا أن تأخراً قليلا فى قدرة الطفل على المطالعة أو الحساب وجد فى سن الثامنة ، فان أثر هذا التأخر يتضح ويزيد كلما تقــدم الطفل فى مرحلة التعليم الأولى أو الابتدائى ، ذلك لأن الدراسات التالية تترتب عادة على ما يسبقها ، ولذا يجب التيقظ — كما قلنا — لأى نوع من التأخر الدراسى وتداركه من أول الأمر بطرق الفحص العلمية .

المراجع

Board of Education : The Backward Child.
Burt : The Backward Child.
Craig : School Life and Mental Instability.
K. Frazer : The Backward Child.
Gruenberg : Guidance of Childhood and Youth.
Hamley and Others : The Backward Child.
Hutchinson : Motives of Conduct.
Hildreth : Psychological Problems.
Miller : The Growing Child and its Problems.
Sayles : The Problem Child at School.
Shaffer : The Psychology of Adjustment.
Symonds : Mental Hygiene of the School Child.
Thom : Everyday Problems of the Everyday Child.
Valentine : The Difficult Child.

الفصل الخامس والعشرون

المشكلات الجنسية

أنواع المشكلات الجنسية

تتجه بعض الآراء فى الوقت الحاضر الى أن المشكلات الجنسية هى أساس كل مشكلات السلوك الأخرى ، ذلك لأن الغريزة الجنسية فى نظر أصحاب هذه الآراء هى مصدر الطاقة البشرية . فالتوالد والتكاثر هما أهم ظاهرة فى الطبيعة ، وكل ظاهرة أخرى فى الحياة انما تعمل فى خدمة هذه الظاهرة الأساسية . والغريزة الجنسية فى الانسان تحوطها قيود وتقاليد شديدة ، تجعلها خاضعة للكبت ، مما يظهر أثره فى أنواع السلوك الشاذ بدرجاته المختلفة .

ويتجه الرأى السائد الى أن الغريزة الجنسية ، وان كانت شديدة الأهمية فى حياة الانسان ، الا أنه توجد الى جانبها دوافع غريزية أخرى ، كالسيطرة والهرب والوالدية وغير ذلك . ولما كانت الغريزة الجنسية أكثر الدوافع الغريزية خضوعا للكبت والمقاومة ، فهى أكثرها تعرضا للشذوذ فى مظاهرها .

وتتلخص مشكلات الغريزة الجنسية فى أنها قد تحيد من حيث الموضوع الذى يستعمل للتعبير ، فبدلا من أن يكون التعبير متجها نحو الجنس الآخر فى ظروف توافق عليها التقاليد ، فانه يتجه نحو الأفراد من نفس الجنس كما يحدث فى اللواط ، والسحاق ، أو يتجه نحو موضوعات مادية ، أو نحو المومسات ، أو نحو الذات ، كما يحدث فى الاستمناء . وقد تكون المشكلة فى درجة التعبير من حيث الميل الى الافراط الجنسى ، أو الصدوف عن المسائل الجنسية صدوفا قد يصحبه التقزز والاشمئزاز ، أو مجرد عدم الرغبة .

واذا استثنينا اختلال افرازات الغدد التى تعمل فى النشاط الجنسى وبعض الصفات التناسلية التى يترتب عليها الافراط أو الصدوف، نجد أن المشكلات الجنسية ترجع غالبا لنتائج الخبرة ، ونتائج التربية الأولى وتدخل العقد وآثار الصراع ضمن هذه النتائج .

الناحية الجنسية فى مراحل النمو المختلفة

وجه فرويد وأنصاره نظر الباحثين الى أن الغريزة الجنسية توجد فى الطفل منذ ولادته ، غير أن مظاهرها فى الطفولة تغاير مظاهرها فى المراهقة واكتمال النمو . والطفل فى نظر فرويد وأتباعه يشتق فى سنواته الأولى لذة من الامتصاص بالفم ، ومن التبول والتبرز ، كما يشتق لذة من أجزاء جسمه المختلفة . وهــذه اللذة فى نظر فرويد لذة جنسية ذاتية (Auto-erotism) وتدخل بعد ذلك فى مركبات التلذذ الجنسى المعروف عند الكبار . وفى الوقت نفسه يرى بعض الباحثين الآخرين أن هــذه الأنواع من التلذذ ضرورية للطفل ، لقيمتها الحيوية بالنسبة اليه .

ونحن نسلم بأن الطفل يشتق فى أول حياته لذة ذاتية ، ســواء أكنا نعتبرها جنسية أو غير جنسية[1] . وقد يحدث تثبيت اللذة فى صورة مص الأصابع أو قضم الأظافر أو اللعب بالأعضاء التناسلية ، وقد يستمر هذا التثبيت الى آخر الحياة .

وبعد المرور فى دور اللذة الحسية الذاتية تأتى مرحلة يعجب فيها الطفل بنفسه ويقف ساعات أمام المرآة ، ويهتم بجماله الخاص ، ويسمى فرويد وأنصاره هــذه المرحلة مرحلة عشق الذات أو النرجسية (Narcissism) ولكن يمكننا أن ننظر اليهــا كمرحلة اهتمام الفرد بذاته ، ونمو فرديتــه (Ego Formation) . وتأتى بعد ذلك مرحلة يهتم فيهــا الطفل بالعالم الخارجى اهتماما بارزا ، ويستقر فيها نموه الجسمانى ويزيد نشاطه واتصاله

---

(١) راجع رأى هادفيلد (ص ٧١) .

بالعالم الخارجى زيادة كبيرة ، ويسمى أنصار فرويد هذه المرحلة بالدور الكامن (Latency Period) ويعتبرونها دور كبت للنزعات الجنسية التى تبدو بعض مظاهرها قبل ذلك .

وتظهر عند المراهقة نزعة لاختلاط البنين بعضهم ببعض ، والبنات بعضهن ببعض . ويحتقر البنون البنات لضعفهن ، ويحتقر البنات البنين لخشونتهم وربما كان سبب هذا الانفصال حداثة الاحساس الجنسى ، وبدء النظر الى الجنس الآخر نظرة جديدة تجعل كلا منهما حذرا من الآخر .

وفى سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة يبدأ كل من الجنسين يهتم بالآخر ويبحث عنه . ويسمى أنصار فرويد المرحلة التى يهتم فيها الفرد بأفراد جنسه « مرحلة الجنسية المثلية » (Homo-Sexuality)، ومرحلة اهتمام الفرد بأفراد الجنس الآخر « مرحلة الجنسية الغيرية » (Hetero-Sexuality) ويرى فرويد وأتباعه أيضا أن الطفل منذ بدء ادراكه لوالديه وبسبب اشتقاق كثير من لذته عن طريق الرضاعة ، واللمس والحمل ، والربت ، والدغدغة ، يربط فى ذهنه والديه بهذه المواقف كمصادر للذة أو للحب ، أو مصادر لعدم اللذة ، أو الكراهية . وتنشأ بحسب رأى المحللين النفسيين من مثل هذه المواقف العقد المعروفة باسم عقدة أوديب (Oedipus Complex) وعقدة الكترا (Electra Complex) . ويرى فرويد أن هذه العقد طبيعة فى نمو الأفراد بحكم الصلة بينهم وبين الوالدين . ومع أننا نسلم بأثر علاقة الوالدين بالأطفال ، وأثر هذا فى نمو علاقتهم الجنسية المستقبلة ، الا أننا نرى أنه يمكن الاستغناء عن مثل هذه التفسيرات كما سنرى فيما بعد .

وكل ما يمكن أن يقال هو أن اللذة الذاتية موجودة منذ الطفولة ، وقد تمر هذه اللذة ، وقد تثبت متصلة بالنشاط الجنسى أو بمظاهر أخرى غير جنسية كالتدخين وما اليه . ثم يأتى نمو الذاتية أو الفردية ثم يتجه جل

الاهتمام الى كسب المعرفة ، وكسب المهارة التى تؤدى الى حسن التعامل مع البيئة المادية والاجتماعية ، ويدخل فى هذه البيئة المحيطة بعض عجائب الطبيعة بما فيها من ظواهر النمــو ، والتــوالد ، والوظائف الجسمية المختلفة ، وبدء المخلوقات ، وتكونها ونهايتها ، وغير ذلك مما يتصل بالمسائل الجنسية اتصالا وثيقا • ثم يأتى بعد ذلك دور المراهقة والبلوغ بما فيه من نزعات جنسية جديدة قد يكون الفرد مهيأ لمقابلتها عن طريق الخبرة السابقة بمعناها الواسع • وقد تأتى فجأة فتحدث صدمات نفسية عنيفة • ومما يزيد فى أثر هذه الصدمات العوائق والتقاليد التى تقوم فى وجه التعبير عن هذه النزعات •

بعض الحالات

ولأجل أن نفهم كيفية ظهور المشكلات الجنسية ، نأخذ حالة شخص وصل الى العقد الرابع من عمره • وتتلخص مشكلته فى أنه لا يمكنه أن يجتمع اجتماعا جنسيا طبيعيا بمن يتزوجها مما يؤدى عادة الى الانفصال • هذا مع أنه يمكنه أداء هذه العملية بسهولة مع المومسات ، ولكنه حاول مع من تزوجهن فأخفق اخفاقا تاما • وبدراسة تاريخه وجد أنه ينحدر من أسرة محافظة متدينة ، لا تشير الى المسائل الجنسية أو ما حولها بأى اشارة، بل تستنكر هذه الموضوعات استنكارا شديداً • نشأ الولد فى هذا الجو ، لا على احترام أمه فحسب ، بل على ما يقرب من تقديسها ، مما جعله يرى فى زوجته صورة الأم التى بلغ من أمر تقديسه لها أنه أخفق مع زوجتــه اخفاقا تاما • ولكن كان يمكنه مع ذلك الاجتماع بالمومسات ولعل هــذا لبعد الشبه فى ذهنه بينهن وبين أمه • ومما زاد مشكلة الرجل أن نصحه أحد الناس فى سن البلوغ المبكر بوجوب الاتصال الجنسى ، حتى يقى نفسه شر الجنون ، فاتصل بالمومسات ، وبذلك كانت الصورة الأولى التى ارتبطت فى ذهنه بالاشباع الجنسى هى صورة المومسات • ومما يؤيد هذا

الاستنتاج أنه كان كثيراً ما يحلم بالليل أنه يجتمع اجتماعا جنسيا بأمه أو بأخته أو بزوجته • وكانت تتحول فى الحلم صورة من يجتمع بها أحيـانا من الزوجة الى الأم أو الأخت أو العكس • قد يدل هذا على شدة حب الولد لأمه وأخته واحترامه لهما ، وعلى ادراكه لاشعوريا وجـه الشبه بينهما وبين زوجته ، وعلى ما يتمناه من الصلة الجنسية الناجحة مع زوجته التى تشتق صورتها فى ذهنه من أمه • ومما زاد فى تعقيد الحالة أن حدثت له وهو صغير خبرة جنسية مع ولد آخر فى مثل سنه ، وقد كان موقفـه فى هذه الخبرة سلبيا غير ايجابى ، وقد جعله هذا الأمر شديد الشغف فى مستقبل حياته باثبات رجولته مع الخوف من الاخفاق • وزاد الحالة تعقيدا فوق ذلك أن خطيبته الأولى لم تكن تميل اليه ، وكان يعلم ذلك بنفسه ويشعر به شعورا واضحا •

وهذه حالة أخرى لفتى يدمن العادة السرية ادمانا شديدا ، ولا يوفق فى علاقاته الاجتماعية ، ولا سيما حين يتحدث مع فتاة أىّ حديث ولو كان عاديا ليس وراءه أى مقصد سيىء • واتضح من دراسة حالته أن كانت له محاولات جنسية فى سن السادسة مع صغار الفتيات بقصد اللعب والتجريب • وقوبلت محاولاته بالاشمئزاز والاستنكار والتعبير المستمر من الوالدين ، فنما عنده شعور بالخطيئة ، ترتب عليه فى مستقبل حياته تشدده مع نفسه ، وشعوره بحقارتها ، واعتقاده باحتقار الناس له ، وميله للابتعـاد عنهم • وترتب عليه أيضا سلوك تعويضى فيه تعسف فى التدين ، والنظافة ، والأناقة لكنه كان فى نفس الوقت لا يقوى على مقاومة الرغبة الجنسية ، فلا يجـد وسيلة للتعبير عنها الا فى الاستمناء باليد • ويشعر الولد بالغيرة من والده الذى تزوج بعد وفاة والدته بفتاة صغيرة السن ، وكان الفتى اذ ذاك فى أول دور المراهقة • والغيرة فى هذه الحالة مكبوتة كبتا تاما •

وحالة ثالثة لفتى شغل ذهنه ليل نهار بالمسائل الجنسية ، يحلم بها فى

يقظته أحلاما يقول انها جميلة ، فيدبر فى عقله الحيل للوصول الى الفتيات الجميلات ، ويحلم بها فى أثناء نومه أحلاما مزعجة ، تشمئز منها نفسه أشد الاشمئزاز • وكان لا يقوى على القيام بمحادثة ولو كانت بريئة مع أية فتاة ، ولا يقوى على مناقشة أية مسألة جنسية مع أى انسان • ومع شدة اشمئزازه من المسائل الجنسية ، واعتبارها مسائل قذرة ، فانه أحيانا يتكلم عنها كأنها أمور شبه مقدسة ، بل انها فوق البحث العلمى ، وفوق المعرفة الصحيحة • وهو شديد الاحتقار لنفسه يرى أنها قذرة ، وضيعة ، رغم نضج عقليته ، واتقانه نظم الشعر على الرغم من صغر سنه • مات أبوه وتركه صغيراً فعنيت أمه به وباخوته عناية وصلت بها الى أقصى حدود التضحية • وترتب على ذلك أنها لم تترك لهم صغيرة أو كبيرة يفكرون فيها بأنفسهم ، مما جعلهم يكبرون ملتصقين بها معتمدين عليها كل الاعتماد• والأم تحزن أشد الحزن ، بل يصيبها المرض أحيانا اذا خالف أحدهم أمرها ، أو حاول أن يثبت وجوده ، كما يثبت الشبان وجودهم ، مما جعل الفتى واخوته يخضعون لأمهم ، ويستسلمون لضعفها • وكان الأب رجلا ضعيفا من الناحية الجنسية ، وكان لهذا قاسيا مع الأم • والقسوة كثيرا ما تظهر للتعويض عن ضعف جنسي • وكانت الكراهية بينهما مستحكمة ، وكان ذا تاريخ طويل فى المسائل الجنسية لا يتسع له هذا المقام •

نشأ الولد كارها للمسائل الجنسية ، يشمئز منها ، محبا لأمه يعطف عليها ، ولكن يود التحرر من سلطانها ، فلا يقوى ، ومع ذلك فكان أحيانا يتطلع للمسألة الجنسية ويراها مقدسة فى نظره ، ولعل ذلك لشعوره الغامض بارتباطها بأمه وبوجوده • وأمه تتأفف جداً من هذه المسائل • فعندما كانت تغسلهم وهم صغار ، كانت تتناول كل جزء من أجزاء جسمهم ؛ ولكنها حين تصل الأجزاء الاخراجية والتناسلية تكف يدها وعليها علائم التأفف ، فتأمر أولادها أن يغسلوها بأيديهم • كانت الأم شديدة المحافظة والمراقبة

والدقة مع نفسها ومع أولادها . وقد كان لها مع ذلك من صغر سنها ، وجمال شكلها ، ووفرة ذكائها ما يفسح لها الفرصة فى مجال الزواج ؛ ولكنها كانت تقابل عروض الزواج برفض حاسم ، وكانت كذلك تقابل أية اشارة الى أية مسألة جنسية من جانب أولادها بعاصفة من الانفعال والمرض .

لهذا كله نشأ الولد متناقضا فى الشعور ازاء المسائل الجنسية ؛ فبينما تجده يقدس الأمور الجنسية ويحترمها احتراما شديداً تجده يحتقرها ويستقذرها . فحينا تجده مشغوفا بها منشغل الذهن ليل نهار بأحلام وخيالات تتعلق باشباع الناحية الجنسية ؛ فهو يدبر فى ذهنه الحيل لذلك ، وحينا آخر تجده منصرفا عنها يخافها وتتقزز نفسه منها ، وهكذا تجده ممزق النفس فى اتجاهات مختلفة ، مما أنهك قواه وشتت مجهوده الذهنى، وجعله متناقضا فى اتجاهاته وأفكاره وأقواله عصبيا مبعثر الذهن على الرغم من شدة ارتفاع ذكائه .

هذا الولد مصاب بحالة قلق عصبى أساسها الحياة الجنسية فى الأسرة ، وأساسها موقف الأم من العالم الجنسى عامة ، وهذا الموقف من شأنه أن يخيف الناشىء من العالم الجنسى ، مع أنه عالم تدفع الطبيعة البشرية الى دراسته وفحصه والوقوف على أسراره .

وهناك حالة لفتاة جاوزت العقد الثانى من عمرها بدأت تعتكف ولا تتصل بالناس وتقضى وقتها فى نوم وانقباض وشرود ذهنى وبكاء . وكتبت كثيراً مما يجيش بصدرها من آمال وآلام فى صورة شعر أو نثر . ونعتقد أن أساس المشكلة هنا جنسى ، اذ اتضح بدراسة الحالة أن بين الأم والأب شقاقا مستمرا ، مع تعاظم من ناحية الأم ، وشعور من ناحيتها بسوء الطالع لتزوجها من رجل تعتبره أقل منها مكانة وثروة وعقلا . وبذلك نشأت أمام البنت صورة لما قد تتوقعه فى المستقبل من شقاء فى الحياة الزوجية ، ان هى تزوجت . يضاف الى ذلك أن البنت تعطف على الأب ، والأم تشعر بهذا مما ترتب عليه اضطهاد الأم للبنت . وللبنت أخت أخرى

أصغر منها ، مانعت الأسرة فى زواجها الى أن تتزوج الكبرى ، مما جعل البنت تشعر بخطيئتها نحو أختها الصغرى ، اذ أنهـا ترى نفسها عائقا فى سبيل زواجها • والبنت فوق ذلك على درجة كبيرة جـدا من الذكاء ، والنشاط ، والحساسية ، ولا تجد منفذا لكل هذا لأنها قابعـة فى البيت ليل نهار ، بحكم تقاليد الأسرة •

وخلاصة الحالة أن المستقبل الطبيعى للبنت — وهو الزواج — صار فى نظرها بعيد التحقق • وان تحقق فصورة زواج أمها لا تغرى البنت بتوقع الخير من زواجها • ومن ثم كانت لا تتوقع خيرا على أى حال • وتتعقد صورة الحالة النفسية هنـا بالعلاقة المنزلية الداخليـة بينها وبين الوالدين والاخوة ، وبين أفراد الأسرة جميعاً ، والأسرة التى تنتمى اليهـا الأم ، وتلك التى ينتمى اليها الأب الى غير ذلك •

وفى عدد من الحالات نجد أن سبب الشذوذ الأصلى هو المثال الذى يكشف فى الأب أو الأم أو كليهما ، وقد يكون هذا المثال ظاهراً ، لا محالة للتخفى فيه ، وقد تكون معه محاولة للتستر • لكنه يصل عادة ، وعلى أى حال الى علم الطفل ، كما يصله عادة ، فى نفس الوقت تحـذيرات وقيود شديدة مرتبطة بالمسألة الجنسية • ففى الأسرات التى يتصف أربابها بسوء السلوك ، كثيراً ما يصحب سلوكهم محاولة تستر يشتد معهـا الآباء على الأبناء بدرجة غير عادية ، مما يخلق صراعاً نفسيا شديدا بين الرغبـة فى اشباع النزعة الغريزية التى تشـجعها الأمثلة الواقعيـة ؛ والخوف أو الاشمئزاز أو غير ذلك مما يغرسه الآباء أنفسهم • ومن ثم نجد تذبذبا ، وعدم استقرار فى الاتجاه الجنسى ، تصحبه نوبات من ممارسة العـادة السرية ، أو الاجتماع بالمومسات ، أو الاجتماعات الجنسية الشـاذة ، أو ما يشبه ذلك • ويبحث الفتيان والفتيات عن اللذة الجنسـية لشغفهم باستطلاعها ، وقد تثبت لديهم بحكم الممارسة والتعود • ويبحث بعضهم

عن الاتصال الجنسى للحاجة الى العطف ، ولذا نرى مع بعض الحالات أن تفكك روابط الأسرة عامل أساسى يتبعه أحيانا فقد الطفل لعطف أسرته • ويقع كثير من الفتيات فى حبائل الشبان ، ان كن يعشن مثلا مع زوجات آبائهن أو أزواج أمهاتهن ، اذ أن نفورهن من الجو الجاف أو القاسى يسهل لهن الوقوع فى جو آخر يبدو أكثر عطفاً وأكثر حنواً • والعلاقة الجنسية يشعر فيها الشخص عادة بنوع من عطف الفاعل ، أو على الأقل بنوع من اللذة الجنسية يطغى على الألم أو الشقاء النفسى [1] •

وكنا نجد فى بعض الحالات طفلا ذكرا ، وسيم الوجه ، تعيس النفس — بسبب سوء معاملة والديه له ، أو لجفاف جو المنزل ، أو لتفكك الروابط العائليـة بسبب التشـاحن أو الطـلاق أو غير ذلك — يقع فريسـة لآخرين فيستغل استغلالا جنسيا مفرطا • ونجد هذا أحيانا فى المؤسسات التى يعيش فيها الناشئون بالقسم الداخلى • وهناك قد تتخذ المسألة الجنسية أداة للتخويف • ويقع بعض الأولاد فيها بسهولة جريا وراء العطف والحماية ، أو هربا من التهديد بالضرب أو تشويه السمعة • ونعلم كذلك أن العلاقات الجنسية من نوع اللواط والسحاق وما يشبه ذلك ، تكثر حين يكبر العائق بين اختلاط الجنسين ، وتكثر كذلك حين توجد حاجة ملحة للعطف • ولعل هذا يفسر ما يحدث فى السجون والملاجىء من اتصالات جنسية تقع عادة على مدى واسع •

نرى مما تقدم أن المشكلات الجنسية كغيرها من المشكلات توضع جل بذورها عادة من السنوات الأولى بسبب انعدام استقرار الجو المنزلى أو

---

(١) يلاحظ أن فقد السعادة قد تعوضه اما سعادة أخرى أو لذة حسية • ولذلك يبحث تعساء النفس أحيانا عن شرب الخمر ، أو الاغراق فى التدخين ، أو الشره فى الأكل ، أو الاستمناء ، أو غير ذلك من اللذات الحسية التعويضية التى سبق أن أشرنا اليها فى الفصل الثالث عشر (ص ٢٥٨) •

قلة استقرار العلاقات بين الوالدين وموقفهما من المسائل الجنسية ومقدار ما يوضع عليها من قيود غاشمة . ويتأثر السلوك الجنسى كذلك بالظروف الحالية والآمال المستقبلة ، كما يتأثر بعوامل أخرى كامنة فى كل من الأسرة والمجتمع .

الاستمناء

ومن العادات التى يذعر لها الآباء والمدرسون ما يسمونه بالعادة السرية أو الاستمناء ، وهذه العادة أكثر انتشارا بين المراهقين من البنين منها بين البنات . وتعلل « شرلوت بهلر[1] » ذلك بأن الحاسة الجنسية عند البنين محلية ومركزة فى الأعضاء التناسلية ، ولكنها فى البنات عامة وموزعة على مساحة كبيرة من سطح الجسم .

وقد يبدأ اللعب بالأعضاء الجنسية فى سنى الطفولة الأولى عن طريق اللعب العادى أو الرغبة فى الكشف العادى لأجزاء الجسم أو أى دافع سطحى بسيط . وقد يشتق الطفل من هذه الملامسة لذة كما يشتقها من أى جزء آخر من أجزاء جسمه ولكن يحدث أحيانا أن يلفت الكبار نظر الطفل الى ما يعمل بقصد صرفه عنه ، فتكون النتيجة أن يتجه ذهن الطفل اليه ويكسب فى نظره أهمية بالغة ، وذلك لما يظهره الوالدان أمامه من علامات الانزعاج والتألم ، والرغبة فى منعه من الاستمرار فى هذا النوع من اللعب .

وقد وصل المنع فى احدى الحالات الى ربط يدى الطفل ورجليه الى جانبى السرير حتى لا يحدث احتكاك من أى نوع . مما ركز اهتمام الطفل بأشد صورة ممكنة فى العضو التناسلى وزاد من أهميته فى نظره ، ومما وجه انتباه الطفل كذلك الى قبح العضو ، وقذارته ، وارتباطه فى ذهنه بارتباطات قد يكون لها أثر سيىء فى مستقبل حياته .

---

(1) C. Buhler: From Birth to Maturity.

ومما يساعد على تثبيت اللعب الجنسي عند صغار الأطفال عدم شعورهم بالسعادة لسبب من الأسباب ، أو شعور عام غامض لديهم بحالة القلق وعدم الارتياح وحسرة الطفل على نفسه ، وافراطه تبعا لذلك فى تحصيل نوع من اللذة شبيه بمص الأصابع يصير سلواه فى شقاء نفسه ، وهذا النوع من اللذة قد يكتشفه — كما قلنا — عن طريق الصدفة فى أثناء اللعب وكشف العالم المحيط به وموقف الناشىء من اللذة الجنسية فى هذه الحالات شبيه بما سبق أن ذكرناه عن الشره أو التدخين .. أو ما الى ذلك .

ولذلك يجب العمل على أن ينشغل ذهن الطفل ببعض الميول والهوايات العملية التى يشعر مع تحقيقها بالانتاج الملموس . وبذلك يتجه الى الابتداع والانتاج والعمل اليدوى كمصدر للسرور ، بدلا من أن يتجه الى أجزاء جسمه المختلفة كمصادر للذة أو لمجرد السلوى . كما يجب أن تراعى القواعد البسيطة التى قد تساعد الطفل على وقايته من الاستمناء كاتساع الملابس ، والنظافة المحلية ، ومنع المهيجات بأنواعها المختلفة ، والتمتع بالفسحة ، والهواء الطلق ، ومنع كل ما يترتب عليـــه الشعور بالوخم ، والميل الى النوم ... وما الى ذلك .

ويجب عند علاج الاستمناء عند الأطفال أن نلاحظ أنه اذا كان يصاحبه انفعال واستغراق كان راسخاً عميق الأصل ، وان كان لا يصاحبه انفعـــال واستغراق ، فهو لعب عادى ، بسيط سريع الزوال . ويراعى عند العـــلاج كذلك عدم تناول العرض الظاهرى فقط ، وانما ينبغى تناول أسبابه ، والظروف التى تساعد على ظهوره ، فنغير منها حتى ينصرف الطفل عن هذه العادة . على أن جزءاً من العلاج يتجه الى الأغراض نفسها . فيمكن تشجيع الناشىء على الاقلال التدريجى من هذه العادة حتى تزول . ويمكن اقناع الناشىء بالسرور المترتب على النجاح فى ضبط النفس .. الى غير ذلك .

والاستمناء فى دور المراهقة عند البنين بنوع خاص وسيلة يتخلص بها المراهق من حالة التوتر النفسى الناشىء من النزعة للتعبير الجنسى وعـدم القدرة على اشباعها • ويلاحظ أن أكثر النشء ميلا الى ممارسة العادة هم أكثرهم شقاء ، وأكثرهم فراغا ، وأكثرهم عجزا عن ملء فراغهم بانتاج يجلب احترامهم لأنفسهم ، واحترام غيرهم لهم • وقد لوحظ أن القردة نفسها لاتمارس الاستمناء الا فى حالة الحبس وعدم توافر الفرص للنشاط الحر الوسع المدى •

والاستمناء مضر ولا شك ، غير أننا نبالغ عادة فى تصوير درجة اضراره بمن يمارسه مبالغة تجعل أثر ضرره فى الناشىء أثرا مضاعفا • وقد نسبوا فى الماضى كل ضرر يمكن تصوُّره للاستمناء ، فنسبوا اليه السل ، وفقر الدم ، والجنون ، وضعف البصر ، وفقـدان القوى الجنسية والأمراض الروماتزمية ••• وغير ذلك •

وتنشأ بعض أضرار الاستمناء نتيجـة الشعور باللذة التى يكتسبها المراهق من العملية نفسها ، لا سيما حين يركن اليها لتخلصه مما يشعر به من توتر جسمى ونفسى • ونتيجة سماعه الكبار يعلنون أضراره ، ومخالفته للخلق والدين ، وغير ذلك • فيحدث عند المراهق صراع بين الرغبـة فى الممارسة ؛ وتأنيب الضمير ، فيتكون عنده شـعور بالخطيئة واحساس بحقـارة نفسه ، وقذارتها ، وعـدم لياقتها باحترامه ، أو احترام غيره • وتتكون الى جانب هذا الشعور رغبة ملحة فى الممارسة ، مما يمزق نفسه ويشتت قواه فى اتجاهات مختلفة لكل منها قوته البالغة • فلاتجاه الغريزة الجنسية قوة كبيرة ، ولاتجاه التقاليد والأخلاق وما الى ذلك قوته البالغة•

ومن أضرار الاستمناء أنه ينشط افرازات الغدد التناسلية مما يزيد فى الحاجة اليه بعد ممارسته ، ومما يسهل تكوُّن العادة ، ورسوخها ، فتصير مستندة — بجانب العوامل الأخرى — الى حاجة فسيولوجية جسمية ،

يترتب عليها احتمال الافراط فيها ، ويلاحظ أن وسيلة الاستمناء نفسها غير طبيعية من حيث الوضع العام ، بل من حيث المثيرات المحلية ، اذ أن درجة خشونة هذه المثيرات ، ودرجة حرارتها ، وشكلها عامة ، تختلف عنها فى المثيرات الطبيعية • وهذا يجعل من يمارس العادة السرية بكثرة قليل القدرة بعد زواجه على الاتصال الجنسى الطبيعى ، وذلك لسبق تعوده ممارسة المسألة الجنسية فى جو يختلف اختلافا جوهريا عن الجو الطبيعى ، سواء فى خصائصه المحلية أو العامة ، وبذلك قد يكون ادمان الاستمناء فى المراهقة سببا من أسباب عدم توافر السعادة الزوجية فى المستقبل • ومع ذلك كله فانه سبب تمكن ازالته ، وتمكن معالجته •

ويعزى الى الاستمناء أنه أسهل الطرق لمواجهة الصعوبات الجنسية الذاتية وكثرة الالتجاء اليه تؤدى الى الاكتفاء به ، والشعور بالاكتفاء بالذات لتحقيق الملذات • وهـذا يجعل النشء بعد اكتمال نموه أقل جرأة على الاتصال بالجنس الآخر ، وأميل الى العزلة ، والابتعاد ، والسلبية ، وأميل الى اتباع أسهل الطرق لاشباع اللذة الجنسية ، بدلا من الطرق الطبيعية التى تتطلب جرأة ، ومخاطرة ، وعملا ايجابيا • والذين يميلون للاستمناء أميل للاتصاف بأغلب خصائص الانطواء النفسى • وبالاضافة الى ما ذكرنا من أسباب للاستمناء ، فاننا نؤكد أنه مظهر لأسلوب عام للسوك ، ظهر نتيجة المعاملة الأولى ، فاذا تذكرنا أن الاستمناء هو اتباع أسهل الطرق وأقصرها لاشباع اللذة الجنسية الملحة ، التى لا يقوى المراهق على مقاومتها ، وحرمان نفسه منها ، تذكرنا أيضا أنه قـد يكون نتيجة لأن ظروفه الأولى كانت تشبع فيها كل ملذاته دون أى عائق ، أو لأنه كان محروما فنما مشغوفا بنوع من اللذة يسعى وراء البحث عنه بأية طريقة ، أو لأنه كان يعامل بقسوة جعلته ينمو جبانا ، قليل الجرأة ، يتبع أسهل الطرق لتحقيق رغباته ، أو لأى عامل آخر يترتب عليه الشعور بالشقاء وفقدان الأمن •

وعلى العموم فالاستمناء — كأية مشكلة أخرى — لا يظهر قائما بذاته، وانما هو جزء من أسلوب السلوك العام ، ولا يجوز أن يعالج بمفرده ؛ وانما يعالج تبعا لمعالجة الشخصية كلها •

تلخيص المشكلات الجنسية وأسبابها

يتبين من كل ما تقدم أن المشكلات الجنسية بأنواعها المختلفة ، مرتبطة بنمو الفرد ، وعلاقته ببيئته الأولى ، وخبراته المشتقة من هـذه البيئة • اذ يقف الطفل غالبا فى أول حياته من أعضائه التناسلية موقفا بريئا ، ولـكن الآباء قد يكون عندهم اتجاه الاستقذار ، والخوف ، والشعور بالجرم نحو اللعب الجنسى العرضى ، فيتأثر الأبناء بذلك فى الاتجاه غير الصحى •

وقد يحدث تثبيت على الأب ، أو الأم بسبب التدليل ، وميل الآباء أو الأمهات الى حمل الأطفـال ولمسهم والتمسح فيهم والاسراف فى تقبيلهم وضمهم اليهم بشره ، واشتقاق اللذة من هذا كله ، مما يثير الأطفال ويجعلهم ميالين أحيانا الى اشتقاق اللذة من اللمس وما اليه • وقد يترتب على هذا — كما قلنا — تثبيت على الأم أو الأب ، فيترتب عليه انحراف فى الاتجاه الجنسى ، وهذا أحد التفسيرات التى تعطى لتكوين الأساس للنزعة الجنسية المثلية (Homosexuality) ، أو التعبيرات الشاذة للنزعة الجنسـية الغيرية (Heterosexuality)

وأما اهمال الأطفال ، وعدم اشباع حاجاتهم الطبيعية الى العطف ، فقد يترتب عليه رغبة الطفل فى الانتقام والايذاء ، حتى يشعر الناس بوجوده • وهذا أحد الآراء التى تعطى لتفسير نزعة حب التعذيب أو السادية(Sadism) وقد يفضل الطفل المهمل فى بعض الأحيان أن يضرب ويؤذى ، لأن الضرب والايذاء فى نظره مصدر للذة ، لأنه نوع من الاعتراف بوجوده • وهذا أحد تفسـيرات ظهور الميل الى حب العـذاب أو ايذاء الذات أو المـاسوكية (Masochism) • وقد تتخذ السادية عند اكتمال النمو ميلا الى ايذاء المحبوب

وضربه ، حتى يتم الاستمتاع الجنسى ، أما الماسوكية فقد تتخذ عند اكتمال النمو اتجاها الى أن يضرب الشخص ويعذب من محبوبه ، حتى يتم الاستمتاع الجنسى .

ولا يمكننا أن ندعى أن هذا حصر للمشكلات الجنسية ، فهناك البرود الجنسى ، والفوران الجنسى ، والاستهتار والاستسلام الجنسيان ، والبغاء ، والتصرف الجنسى المصحوب بجرائم[1] ، وغير ذلك مما لا يسهل حصره فى صفحات قليلة كهذه .

وقد لاحظنا فى دراسة حالات البغاء الجنسى بأنواعه أنها ترتبط بالانحطاط النفسى المعنوى . وهذا الأخير قد ينشأ عن فقدان العطف الناشىء عن انحلال الاسرة أو ما يشبهه .

فالمشكلات الجنسية كغيرها من المشكلات — التى سبق الكلام عنها — تنشأ عن طريق التربية الأولى للطفل وصلته بمجال حياته فى مختلف أدوارها . فعن طريق التربية الأولى ، ومركز الفرد فى مجال حياته ، والتغيرات الطارئة على هذا المركز تتكون عند الطفل اتجاهات نفسية عامة تتخصص بفعل الظروف الحالية من استثارة وتقليد ، وبفعل الحالة الجسمية والمزاجية ، وما الى ذلك . ولعل ما تقدم كله يدلنا على شدة الحاجة الى دراسة التربية الجنسية .

---

(1) J. Paul De River: The Sexual Criminal

المراجع

Adler: Guiding the Child.
Blanton: Child Guidance.
Buhler: From Birth to Maturity.
C. Burt: The Young Delinquent.
Chaloner: The Mother's Encyclopaedia.
De River, J. Paul: The Sexual Criminal.
Gruenerg: Guidance of Childhood and Youth.
Gruenberg: Parent Education.
Hollingworth: The Psychology of Adolescence.
Howard: Mental Health.
Kanner: Child Psychiatry.
Meagher: A Study of Masturbation.
McDougall: Character and Conduct of Life.
N. Haire: Encyclopaedia of Sexual Knowledge.
Neill: The Problem Child.
Neill: The Problem Parent.
Shaffer: Psychology of Adjustment.
Stekel: The Homosexual Neurosis.
Thom: Everyday Problems of the Everyday Child.
Thom: Normal Youth.
Van De Velde: Ideal Marriage.
Waters: Youth in Conflict.
Weatherhead: The Mastery of Sex.

الفصل السادس والعشرون

التربية الجنسية

لايفكر الناس عادة فى أن هناك مشكلة جنسية يمكن أن تحل عن أى طريق منظما كان أو غير منظم ، مقصودا كان أو غير مقصود . ويرى البعض الآخر أن يتركوا أولادهم يتعلمون ما يتعلمونه من المسائل الجنسية بأنفسهم، فيرون ألا يكون هناك جهد ايجابى من ناحيتهم كآباء أو معلمين أو مرشدين فى هذا الاتجاه . ويرى آخرون ألا يتركوا هذه المسائل للطبيعة ، بل يرون وجوب الحيلولة بين الناشىء ؛ وكل ما يمكن أن يوحى بالمعرفة عن المسائل الجنسية ، فلا يصح أن يرى ما يحدث مثلا بين الحيوان من اجتماع جنسى. وبذلك تصير المسائل الجنسية فى نظر الطفل سرا شائنا ، ولغزا مغلقا . وقد يبقى جاهلا بكل ما فيه ، الى أن تتدفق فيه الأحاسيس الجنسية فجأة تدفقا عنيفا ، والى أن تظهر عليه علامات البلوغ الظاهرية ، مما قد يزعجه ويزيد من تنحيه عن المعرفة أو التوجيه . ويترتب على هذا التدفق الجنسى المصحوب بالجهل وبالخوف ، وبالشعور بالقذارة أغلب المشكلات الجنسية المعروفة فى دورى المراهقة والبلوغ . وفى الحياة الزوجية يترتب عليه أغلب أنواع الشقاء الزوجى . وتترتب عليه أيضا مشكلات أخرى تظهر نتيجة لتعقد المشكلة الجنسية ، كجنون التدين وحالات « السيكاستينيا » (وكانت تسمى الى عهد قريب بالنيوراستينيا) ، و « الهستيريا » و « الملانكوليا » وغير ذلك .

يضاف الى ما تقدم أن تطور المدنية فى الاتجاه الذى نألفه يزيد فى

الضغط والتقييد والاستثارة فى نفس الوقت لنشاط الناشئين من الناحية الجنسية • وهذا يجعل الموقف مليئا بالصعوبات التى تلح فى طلب الحل فى اتجاه التربية الجنسية •

ويقصد بالتربية الجنسية اعطاء الطفل الخبرة الصالحة التى تؤهله لحسن التكيف فى المواقف الجنسية فى مستقبل حياته • ويترتب على اعطاء هذه الخبرة أن يكسب الطفل اتجاها عقليا صالحا ازاء المسائل الجنسية والتناسلية• ومن الواضح أن تكوين الاتجاه العقلى لا يقتصر على اعطاء المعلومات والتفسيرات التى تنير هذا الميدان أمام الناشىء • فالمعلومات الجنسية بمفردها غير كافية لتكوين هذا الاتجاه العقلى الذى لا ينمو الا عن طريق الاحتكاك المستمر بين الناشىء ، وبيئته الاجتماعية من آباء ومعلمين وزملاء من الجنسين • كذلك لابد من كسب خبرة مشابهة عن طريق الملاحظة الحسية وغير الحسية لحياة النبات وحياة الحيوان بأنواعها المختلفة[1] • هذا الاحتكاك المستمر يؤدى الى كسب المعرفة بنوع خاص ، ويؤدى بوجه أوسع الى كسب الاتجاه العقلى ، ولذا كان من الضرورى الاعتماد على التعليم والتقليد والايحاء والتوجيه •

ولهذا كله وجب أن نضع فى متناول الطفل مصادر الخبرة الشخصية ، وأن تتصف — نحن الآباء والمعلمين — بالاتجاه العقلى الصالح الذى نرغب أن يكسبه الطفل منا عن طريق الامتصاص أو التقليد والايحاء • ووجب كذلك أن نستنتج أن التربية الجنسية أوسع بكثير من التعليم الجنسى وأنها لا تقتصر على سن معينة بل تبدأ من السنوات الأولى فى حياة الطفل •

---

(١) انظر « قصة الحياة فى جميع الاحياء » للدكتور القوصى والدكتور طنطاوى •

موقف الطفل من المسائل الجنسية

ويجب أن يكون موقف الطفل الأول من المسائل الجنسية كموقفه من جميع المسائل الأخرى • والطفل لحداثته فى هــذا العالم ، ولضرورة حسن تكيفه معه ، لابد أن يكسب خبرة عن البيئة المحيطة به ، فيفحص الأشياء ، ويلعب بها ، ويشتق منها خبرة واسعة ، وبمجرد نمو قدرته اللغوية يكمل وسائل بحثه بالأسئلة التى يوجهها لمن حوله عامة ، ولوالديه بنوع خاص ؛ وهو يثق عادة فى قدرة والديه وصدقهما ثقة مطلقة •

ومما يتجه اليه ميله للبحث ، وشغفه لاستطلاع جسمه ؛ فكما يضع يده فى فمه ، وكما يعض أصبع رجله وهو مستلق على ظهره ، قد تمتد يده الى بقية أجزاء جسمه ومن بينها أعضاؤه التناسلية والاخراجية ، ولذا كان اللعب فى الأجزاء التناسلية عند الأطفال فى غالب الأحيان كأى نوع من أنواع اللعب ، ولا سيما ان كان مجردا من حالة الانفعال والاستغراق الشديدين اللذين يحدثان نادرا •

وحين يتقدم الطفل فى السن ، يبدأ فيلاحظ الفروق بين مختلف الناس من ذكور واناث ومن كبــار وصغار ، ومن انسان وحيوان ، كمــا يلاحظ ويدقق فى الفحص عن أوجه الشبه والفروق ، فيسأل أسئلة تتعلق بمنشئه ، ومنشأ اخوته ، ومنشــأ والديه ، وغير ذلك من الأسئلة الــكثيرة • وميل الطفل لاستطلاع المسائل الجنسية ميل نقى يتجه الى المعرفة الخالصة •وقد قال « برترند رسل »[1] فى هذا الصدد : ان هذا الميل للاستطلاع الجنسى ليس له لون أو طابع معين فى دور الطفولة الأولى ، ولــكنه جزء من الميل للاستطلاع العام الذى يتصف به الطفل• وقالت « الدكتورة لوراهاتون»[2] فى هذا أيضا : ان الاستطلاع الجنسى واللعب الجنسى يتخذان صورة الاتجاه

(1) B. Russell: On Education. p. 199.
(2) L. Hutton: Co-education, British Journal of Medical 1939, I, pp. 62-71.

العام للكشف أو النزوع للمخاطرة • ويجب معاملة اللعب الجنسى على أنه لعب ، لا على أنه سلوك سيىء ، لاسيما أنه يحدث مجردا عن الانفعال الجنسى • وانما يعقد الموقف ويخلق الانفعـال تدخل الكبار وموقفهم تجاه هـذه المسـائل • ومن ثم يبـدى الطفل زيادة الشغف بالبحث عن طريق الخبرة الحسية وعن طريق الأسئلة عن هذا العالم الذى يقع كله فى خبرته بيئة موحدة الأجزاء ، لا فرق فيها بين المسائل الجنسية وغير الجنسية • ويدهشه بالطبع أن بعض هذه الأسئلة يجد صـدراً رحباً من الوالدين ويجـد بعضها الآخر سخرية أو غضباً أو صمتا أو تحرجا أو انفعالا من أى نوع ، مما يوحى الى الطفل بغرابة المسـائل الجنسية واختلافها بصـورة جوهرية عن غيرها من المسائل •

وقد قام الباحثون المختلفون أمثال «بياجيه Piaget» ، وغيره ببحث أسئلة الأطفال فوجدوا أنهم يسألون من تلقاء أنفسهم قبل سن التاسعة أسئلة تبين الاهتمام بالأجزاء الجسمية ووظائفها ، وبالأعضاء التناسلية والفروق بينها ووظائفها ، والاهتمام بالعمليات الاخراجية وبأصل الحياة وعمليات النمو ، والفروق بين الصغار والكبار ، والذكور والاناث ، والانسان والحيوان من حيث تركيب الجسم وحكمة الفروق ، وأوجه الشبه ، وغير ذلك • ويسأل الأطفال أسئلة من النوع الآتى : —

من أين يأتى الأطفال ؟ ولماذا كان لأمه ثدى ، وليس له مثله ؟ وعندما تكبر البنت لتصل الى سن أمها ، فكيف يكون اذ ذاك شكل الأم وحجمها ؟ وعند ما كانت الأم صغيرة مثله ، فأين كان هو نفسه وكيف ولدت أمه ؟ وتسأل البنت هل سيكون لها شارب مثل أبيها ؟ ولم لا ؟ •

ويرى كثير من الباحثين مثل «الدكتورة هتشنسون» ، و«برتراند رسل» أن عبء التربية الجنسية يجب أن يقوم به الآباء • ويرى «رسل» وغيره فوق ذلك أن محور التربية الجنسية هو الاجابة الصريحة عن أسئلة الطفل ، والاتجاه العلمى الخاص الهادىء عند الاستماع لها ، والاجابة عنها •

موقف الآباء من الأطفال فى المسائل الجنسية

نعلم أن الأبناء يمتصون الاتجاهات من آبائهم عن طريق الايحاء ، والأم بحكم كثرة تعاملها مع الطفل لا بد أن يكون نشاط الأعضاء التناسلية والاخراجية ميدانا لهذا التعامل • فاذا كانت تظهر اشمئزازها الشديد عند غسل ابنها أو مسحه ، أو توقع عليه عقوبة شديدة اذا حاول أن يراها عارية ، فان هذا يوحى اليه بما يجب عليه اتخاذه ازاء المسائل الجنسية من تحرز واشمئزاز • واذا رأى التجهم ، والصمت ، والتحرج ان سأل أى سؤال يتعلق بالناحية الجنسية ، فانه قد يتجه الى كتمان كل ما يجيش بخاطره عنها • والطفل فى كل هذا ربما لا يدرك الفروق الدقيقة بين مواقف والديه ازاء المسائل الجنسية وموقفهما ازاء المسائل غير الجنسية ، ولكنه مع ذلك يتأثر بهذه الفروق مهما كانت دقيقة •

ويترتب على ذلك أن يزداد شغف الطفل بالمسائل الجنسية ، ويشعر بأهميتها ، وضرورة الاندفاع لبحثها ، كما يشعر فى نفس الوقت بأنها تتصف بكثير مما يتصل بالجرم والخطيئة والقذارة والخوف • يضاف الى كل ذلك أنه يعلم بطريقة ضمنية أو صريحة ما يحدث بين والديه ، كما يعلم أن المسائل الجنسية هى التى أدت الى وجوده فى الكون ، وبذلك يقع بين أمرين : أحدهما شدة الشغف بأمر تدل كل الدلائل على أنه مهم شائق مرغوب فيه• وتنشأ أهميته بسبب ارتباطه بلغز الوجود ، وبسر العلاقة بين والديه ، وبما يحاط به من الخوف والتستر • وثانى هذين الأمرين أن المسألة الجنسية التى يشغف بالبحث عنها مسألة شبه اجرامية قذرة مخيفة شائنة وبذلك تصبح المسألة الجنسية فى نفسه سراً هاماً ، لذيذا ، قذرا ، شائنا ، وتبقى بسبب ذلك مصدرا للتناقض فى الاتجاهات النفسية •

ولعل هذا يدلنا على ما يجب أن يكون عليه موقف الآباء ازاء الأعضاء التناسلية والاخراجية والمسائل الجنسية • ومن ثم يكون موقفا طبيعيا ،

هادئا ، مجردا من الانفعال ما أمكن ، وبذلك لا يوحى سلوك الوالدين بما يجعل من العسير على الطفل أن يحقق نزعاته الجنسية تحقيقا تحفه السعادة عند ما يكبر • ويجب على الآباء أيضا أن يعنوا بالآثار والخبرات الجنسية الأولى للطفل لتكون صحية وصحيحة ما أمكن • كما يجب عليهم أيضا أن يشبعوا شغف الطفل بالاستطلاع أولا بأول ، اذ أن هذا الاشباع مما يهدىء من حدة الشغف ، ومما يضمن حصوله على معلوماته واتجاهاته العقلية من مصادر طيبة • وان لم يشبع الطفل هذا الشغف — كما ذكرنا — فقد يحصل على معلوماته من زملائه أو من الخدم أو السوقة والأشرار •

وواجب الآباء أن يجيبوا عن أسئلة الأطفال اجابة صريحة صحيحة ، هادئة تلونها الروح العلمية الخالصة ، وأن يجيبوا عن هذه الأسئلة بما يلائم مقدرة الطفل على فهم الاجابات •

ويجب أن يكون موقف الآباء من أسئلة الأطفال ، ولعبهم وشغفهم بالاستطلاع موقفا ثابتا ، سواء أكانت هذه الأسئلة متصلة بالعالم المادى أو الاجتماعى ، أم كانت تتصل بجسمه وأجزائه ، ووظائفه ، وخصائصه ، والفروق بين جسمه من هذه النواحى وجسوم غيره من الانسان والحيوان•

ويرى البعض أن الفيلسوف العالمى « برتراند رسل » [1] قد تطرف فى رأيه حيث قال : انه يجب أن يسمح للطفل من أول الأمر أن يرى والديه واخوته وأخواته عراة كلما حدث ذلك بصورة طبيعية اعتيادية غير مقصودة• ولايجوز أن يكون هناك اظهار للتحرج ازاء رؤيتهم عارين • لأنه يكفى أن يعلم الطفل بعد ذلك من ملاحظة مايجرى من آداب التستر أمر واجب • ويترتب على ذلك — فى نظره — أن يكشف الطفل فى الحال الفروق بين أمه وأبيه ، ويوازن بينهما ، ويعرف كذلك الفروق بين الاخوة الذكور والأخوات الأناث• وسواء

(1) B. Russell: On Education p. 170.

أكنا نوافق على هذا الرأى أم لا نوافق فان « رسل » يرى أنه متى كشف الموضوع الى هذا الحد فانه يفقد قيمته كموضوع يشغف الطفل بالبحث فيه. ومثل السر المعروف فى ذلك مثل الصندوق المفتوح لا يسترعى انتباهاً ولا يغرى بالفحص . وكل سؤال يتقدم به الطفل فى هذا الدور (السنوات الأولى) يلزم أن يجاب عنه بما يلائمه ، كما يجاب عن أى سؤال يرتبط بأى موضوع آخر .

ويخطىء الآباء حين يلتزمون الصمت ازاء أسئلة أبنائهم ، لأن الصمت ليست له نتائج سلبية فحسب ، بل انه يوحى بأفكار ايجابية ، تتضمن خطورة الموضوع ، ووجوب معاملته كسر شائن . ولذا كان الصمت مؤديا الى نفور الأبناء من الآباء ، والى بحثهم عن المعرفة من مصادر غير مرغوب فيها اطلاقا كالخدم مثلا .

التربية الجنسية للآباء

يتبين مما تقدم أن من أولى الواجبات أن يتربى الآباء التربية الجنسية الصالحة . وقد قامت « مسز جرينبرج » [1] بهذه التجربة فى أمريكا منذ أكثر من ثلاثين سنة . وهى ترى أن الآباء — بحكم تأثيرهم الأول والمستمر على الطفل من جميع نواحيه — لهم أهمية خاصة من حيث وظيفتهم فى التربية الجنسية للأطفال . ومن رأيها أنه ليس من الضرورى أن يصل الآباء الى نهاية المعرفة والخبرة الفنية فى التربية الجنسية ، اذ يكفى أن يتمكنوا من معالجة المسائل الأساسية الأولى . وطريقة تربية الآباء تربية جنسية ، هى اشتراكهم فى حلقات للدراسة الجمعية ، واستماعهم لأحاديث المتخصصين ، واعطاؤهم فرصة المناقشة ، وتبادل الرأى والخبرة ، مما له أثر من حيث التنوير ، ومن

(1) Gruenberg: Discussing the Work of the Home: Towards A New Education (N. E. F. p. 244).

حيث تهدئة الحالة النفسية • وللمناقشات أثرها القيم بالنسبة للآباء الذين يمنعهم التردد والخجل عادة عن المناقشة الحرة الصريحة ، اذ يجرءون — تحت ظروف حلقات الدراسة الجمعية — على التكلم والمناقشة مما يســاعد على تخليصهم من كثير من النزعات المكبوتة ، ولو تخليصا جزئيا • وترمى هذه الحلقات أيضا للوصول الى سلوك جنسى طيب قد يؤدى الى توطيد دعائم السعادة الزوجية • ولا بد أن يتوافر فى محيط الطفل ازاء الأمور الجنسية مستوى راق وجو يشعره بالسعادة الزوجية ، كى يتكون لديه اتجاه جنسى صحيح •

ويتلخص برنامج التربية الجنسية بالنسبة للآباء ، فى درسهم المبادىء الأولية ، للتشريح وعلم الحياة ، وأسس الصحة الجنسية ، والفروق الفردية بين الذكور والاناث فى مراحل النمو المختلفة ، والخصائص العقلية والجسمية للطفل فى مراحل النمو المختلفــة ، وما يجب اتخــاذه ازاء نزعات الطفل ، ووجوب معاملة هذه النزعات كلها — ومنها النزعة الجنسية — على قدم المساواة ، ومراعاة أن النزوع الجنسى ليس فى ذاته شرا أو خيرا ؛ انما الخير والشر فى طريقة توجيهه وأساليب ممارسته • كذلك عليهم أن يعلموا شيئا عن التربية الخلقية والاجتماعية ، وحكمة التشريع ، والتقاليــد ، والآداب الزوجية والتناسلية ، وأن يعرفوا أسس الاجابة عن أسئلة الأطفال والمراهقين والبــالغين ، وأن الأساس فى التربيــة الجنسية هو الموقف العلمى المستقر الهادىء الخالى من الخوف من جانب الآباء •

وقد وجدت مسز « جرينبرج » (1) أن هــذه الدراسات والمناقشات الجمعية تخلق بالفعل الاتجاه الوجدانى والعلمى الصحيح فى الآباء ، ولها بالتالى أثرها فى الأبناء •

---

(1) Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth p. 236.

قواعد عامة للتربية الجنسية

وهنـــاك أسئلة عديدة تتعلق بالتربيـــة الجنسية يمكن أن نلخص أهم اتجاهاتها فيما يأتى :

١ — هل تترك التربيـــة الجنسية لمحض الصدفة ؟ أو يبذل فى اتجـــاه تحقيقها جهد مقصود ؟

٢ — هل يقوم بها الوالدان أو الأطباء أو المدرسون ؟

٣ — واذا قام بها المدرسون مثلا فهل تعطى بطرق فردية أو بطرق جمعية؟

٤ — هل تعطى التعاليم الجنسية قائمة بذاتها مستقلة عن كل ما حولها أو تعطى جزءا من معلومات أخرى ؟

٥ — فى أى سن تبدأ التربية الجنسية ؟

وقد سبق أن أجبنا عن بعض هذه الأسئلة فى ثنـــايا ما تقدم ، وقررنا ألا نترك التربية الجنسية للصدفة ، لأن المسائل الجنسية شـــائقة وهامة ، ويسعى الطفل الى معرفتها — ان أخفيت عنه — من الخدم والزملاء . ويحتمل أن يقدم له هؤلاء معلومات خاطئة ، ملونة بلون مثير على غير الصورة التى تتوخاها . ويتلذذ عادة بعض الأطفال من تعليم من يجهلون من زملائهم شيئا عن هذا السر . ونظرا لأنه سر شـــائن ، فهم يعلمونهم اياه بشىء من التكتم ، ممـــا يزيد الأمر خطورة فى نظـــرهم . والطفل الذى يقف موقف المعلم ، يستعمل سيطرته ؛ فيلجأ الى وسائل التعذيب العقلى والمنع والتكبر والترفع والمبالغة والاختـــلاق وغير ذلك . ويمهد أحيانا بعض الأطفـــال المراهقين لبعضهم الآخر فرصة الحصول على خبرة جنسية حقيقيـــة ، تحت ظروف تترك عادة أسوأ الآثار النفسية وراءها .

ونظرا لمعاملة الزملاء للمسائل الجنسية كأنها سر عظيم فانهم يميلون الى التندر بها فى اشاراتهم ، و أحاديثهم ، ونكاتهم ، ورسومهم فى دورات المياه ، وغير ذلك .

لهـذا يجب أن نعمل على اعطاء المعلومات بطريقـة صحيحة فى المنزل والمدرسة ، وأن تعطى بحيث لا تصبح سرا شائنا ، أو لغزا عظيم الشأن ٠ وقد اختلف الباحثون فى كيفية اعطاء هذه المعلومات ؛ أتعطى بطريقة فردية أم جمعية ؟ وان كان بعض أئمة علماء النفس ، أمثال « شتيكل[1] Stekel » وغيره يرون الاقتصار على الطريقة الفردية ٠ قال «شتيكل» فى هذا الصدد : ان التعليم الجمعى فى المدارس يسبب مشكلات نفسية عديدة (Enlightenment en masse in schools, starts countless traumas)

ولكن مع ذلك يتجه أغلب الرأى الآن نحو التعليم الجمعى ، مع اعطـاء الفرصة لاجابة الأفراد عن مشكلاتهم فى جلسات فردية خاصة ، انهم أرادوا ذلك ٠

والذين لايرضون عن التعليم الجمعى يقولون : ان التلاميذ ليس لديهم الاستعداد للاستفادة فى وقت واحد من هذا التعليم ، ويقولون : ان لكل تلميذ تاريخه الخاص وخبرته ومشكلاته الخاصة ٠ ويرى بعض هؤلاء أن من مآخذ الطريقـة الجمعية أنهـا تقلل من قدسية الموضوع ، وتسـهل التحدث فيه ٠

غير أن التعليم الجمعى يتميز عن الفردى فى ناحية هامة : فالطفل الخجول قد يقل خجله فى حالة التعليم الجمعى ، حين يرى زميلا له يسأل سؤالا ، فيجاب عنه اجابة علمية خالية من التحرج ٠ ولا يحتمل أن يحدث هذا فى الجلسة الانفرادية ٠ واذا كان الطفل تلميذا فى مدرسة ، فقد تتأثر نفسه اذا استثناه معلمه بهذا التعليم الفردى ٠ يضاف الى ذلك أن التعليم الفردى قد يشعر بأن الموضوع على درجة كبيرة من الخطورة ، ولهـذا أثر سيىء محتمل الوقوع ٠

---

(1) Quoted by Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth p. 236.

وكانت الأسر فى انجلترا وأوروبا تلجأ الى طبيب العائلة لـكى يعطى الناشىء ما يلزمه من اسـتشارة جنسية . وفى هـذا خطر كبير لأن الطبيب — وان توافرت لديه المعرفة — قد لا تتوافر لديه أساليب الشرح والتوضيح. ثم ان الطفل ربما ينظر الى الموضوع كأنه مرض أصيب به ، وربما ينظر اليه كأمر فى غاية الخطورة ، لمـا يرى فى عيادات الأطباء من آلات ، وأدوات ، وغير ذلك . وبالاضافة الى كل هذا ، فلا يمكن الطبيب عادة أن يوفر الوقت الكافى للناشىء فى موضوع واسع متشعب النواحى كهذا . والاتجاه الى هذا الرأى يحرم الطفل عادة من فرص استغلال التعليم الهادىء البطىء ، الذى كان يجب أن يبدأ قبل ذلك بمدة طويلة ليستمر سنوات . ويوجه هذا الرأى جو الأسرة الى زيادة التكتم ، وتحويل المسئوليـة من أنفسهم الى الطبيب نفسه . وهذا الاتجاه — وان ظهر فى أوروبا من زمن بعيد — فى سبيله الآن الى الزوال لعدم صلاحيته .

نرى من كل ما تقدم ، أن التربية الجنسية يجب أن تبدأ فى المنزل وتستمر فى المدرسة وتؤدى بالأساليب الجمعية والفردية وبالروح العلمية الصحيحة الهادئة ، ويتفق الرأى على أن تعطى المعلومات الجنسية لا كمعلومات أو دراسات مقتطعة ، قائمة بذاتها ، وانما تعطى كأجزاء متناسقة ومتكاملة مع دراسات أخرى . وقد قال فى هذا الصدد « الدكتور ادسون » رئيس لجنة الصحة المدرسية فى الولايات المتحدة ، ان الخبرات الطويلة قد دلت على أن الدراسات الجنسية القائمة بذاتها تفصل المعلومات الجنسية عن غيرها من المعلومات وتحملها شحنة انفعالية كبيرة وتجعل من الصعب هضمها وتمثيلها فى السلوك اليومى للطفل [1] .

---

(1) Long and varied experience of schools has demonstrated that the so-called « Sex Courses» tend to isolate and emotionalise materials, making it difficult to incorporate them into the everyday conduct of the child.

New Education Fellowship; Towards A New Education p. 242.

ولذلك وجب أن تعطى الدراسات الجنسية بالمدرسة ضمن دروس مشاهدالطبيعة ، وعلم الأحياء ، والصحة ، والتشريح . وفى السنوات المتأخرة تعطى الأمراض السرية ، والصحة الاجتماعية ، والأخلاق التناسلية ، والجنسية وحكمة التشريع الاجتماعى للزواج ، وقواعد تكوين الأسرة تكوينا صحيا .

أما عن سن بدء التربية الجنسية فلا شك أنه يجب أن يبدأ منذ السنة الأولى بتكوين اتجاه عام لدى الطفل ازاء المسائل الجنسية . وعندما يبدأ الطفل أسئلته ، يلزم أن يجاب عنها فى حينها بما يلائم مقدرته على الفهم . ويجب على العموم أن يلم كل ناشىء ، ذكرا كان أو أنثى ، قبل سن المراهقة بجميع المعلومات الأساسية فى هذا الموضوع ، اذ لا تكون الحالة الانفعالية بعد هذه السن ملائمة لتقبل المعلومات بسهولة . ويجب أن تعطى الخبرة والمعلومات فى كل مرحلة بالطريقة التى تلائمها . وان كان أغلب الباحثين لايحدد سنا معينة يتم قبلها الالمام بالتعاليم الجنسية ، غير أن جميعهم ينصحون بعدم التأخر الى بدء المراهقة ، وبوجوب البدء المبكر متى جاءت الفرصة . بل يرى « رسل » وجوب اعطاء الطفل جميع المعلومات اللازمة قبل سن العاشرة ، حتى ان كان غير شاعر بالحاجة الى الاستفسار عنها من غيره .

بعض المحاولات فى التربية الجنسية

دأبت بعض الهيئات العلمية والتعليمية فى انجلترا وأمريكا على نشر مايجب اتباعه ازاء التربية الجنسية ، ومن هذه نشرة قامت باعدادها « الدكتورة بياتريس وب » للمجلس البريطانى للصحة الاجتماعية ، ومن رأيها أن مهمة شرح المعلومات الجنسية ينبغى أن تقع كلها على عاتق الأم ، على أن يساعدها الأب فى هذه السبيل . ولا يجوز أن يوكل الى الطبيب شىء من هذا العمل . غير أن المدرس يمكنه أيضا أن يتولاه بعد الاتفاق مع الوالدين . وترى أن

يبدأ التعليم الجنسى بالرد على الأسئلة التى يوجهها الطفل ، ويحسن التبكير بالرد كلما أمكن ذلك • ويجب أن تشمل المعلومات التى تعطى له حقائق عن التلقيح والتوالد فى النبات والحيوان ، وبعض الحقائق عن التغييرات التى تحدث فى النمو ، وبعض قواعد الصحة العامة ، والأخلاق والتقاليد المتعلقة بالجنس والتناسل ، وحكمة هذه الأخلاق والتقاليد • وبينت المؤلفة ،ماسبق أن بيناه ، فقالت : ان الموضوع لايجوز أن يعامل كلغز ، ولايجوز أن نعتبر أنه لايهم الأطفال الا بعد وصولهم الى المرحلة التى يحتاجون فيها للناحية الجنسية احتياجا مباشرا ، اذ أن ترك الطفل الى ذلك الوقت المتأخر يوقعه فى يد من يتطوعون لاعطائه معلومات وخبرات مشوهة •

وأهم ما يراعى عند اعطاء التعاليم الجنسية — فى نظرها — هوالاتجاه العقلى العام للوالد أو المدرس وايجاد رأى عام نحو هذه المسائل [1] •

وقد قامت هيئة المؤتمر السنوى للصحة الاجتماعية بأمريكا بنشر ما قررت أنه النقط المتفق عليها نهائيا فى التربية من حيث الصحة الاجتماعية ونلخص أهم هذه النقط — كما أوردها « جرنبرج » — فيما يأتى :—

١ — يقصد بالتربية الجنسية جميع المسائل التربوية التى يترتب عليها اعداد الناشئين لمقابلة جميع مشكلات الحياة التى يكون مركزها الغريزة الجنسية ، والتى تظهر بصورة من الصور فى خبرة كل انسان عادى •وتشمل هذه المشكلات مدى واسعا جدا من خبرة الانسان : أبسطها المسائل الأولية المتعلقة بالصحةالجنسية الشخصية ، وأعقدها المشكلاتالجسميةوالاجتماعية والنفسية التى تتعلق من قريب أوبعيد بالسعادة الزوجية وحياة الأسرة بوجه عام •

---

(1) B. Webb: The Teaching of Children as to the Reproduction of Life: British Social Hygiene Council.

(2) Gruenberg: Guidance of Childhood and Youth p. 243.

٢ — لا يجوز أن يكون هناك دراسات قائمة بذاتها تسمى الدراسات الجنسية ، ولا يجوز أن يكون هناك أجزاء من المناهج الدراسية فى المدارس أو الكليات تسمى الدراسات الجنسية .

٣ — تقدم التربية الجنسية فى المدارس ضمن دراسات أو موضوعات أخرى . وحيث ان التربية الخلقية الجنسية لاتخرج عن أن تكون جزءا من التربية الصحية أو الخلقية وجب أن يكون التوجيه الجنسى والدراسات الجنسية — المقصود بها تكوين اتجاهات عقلية صحية وعادات طيبة ومثل عليا — جزءا لايتجزأ من المنهج التعليمى والتربوى العام .

٤ — تدل الدراسات السيكولوجية على أن التوجيه الجنسى للانسان ، وتدبير سلوكه الجنسى يجب أن ينبنى على أساس الاختيار الذاتى الحر ، المبنى على الادراك والمعرفة وبمعنى آخر يجب أن تكون هناك ضوابط ارادية للدوافع والرغبات الغريزية التى تستثيرها أنواع المغريات والمثيرات المحيطة ، وتقويها ذكريات الماضى المتراكمة من أيام الطفولة .

٥ — ترمى التربية الجنسية الى اعطاء الناشىء أسسا للضوابط الارادية للسلوك ومن هذه الأسس : احترام الرأى العام المتعلق بالمسائل الجنسية ، وتذوق الآداب الجنسية وتقديرها ، ومعرفة النتائج القانونية والاجتماعية والطبية ، والشعور بالمسئولية الشخصية والاجتماعية ، وتقليد بعض الأشخاص المثاليين ، والتعفف الرقيق المناسب بدلا من الخجل والرعونة اللذين كنا نلاحظهما قديما ، أو الوقاحة التى نلاحظها الآن ، واحترام الأنوثة والرجولة ، وتكوين عادات ضبط الذات ، ومعرفة العلاقات العامة بين المسائل الجنسية والحياة ، وانماء وسائل الترفيه العقلى والجسمى لا كوسائل لاعلاء الغريزة الجنسية ، بل كوسائل لابدالها ، والعلم بجزاء الامتناع والتعفف عند الناشئين ، ودراسة الأدب الذى يصور الحب فى أسمى الصور وأرقاها .

٦ — تدل الدلائل عى أن الآباء لا يعرفون ان كانت هناك وقاية كافية ضد معرفة أولادهم للمسائل الجنسية بأسوأ الوسائل • فمن المؤكد أن كل طفل تقريبا سيصل الى المعلومات الجنسية على أقصى تقـدير فى السنوات الأولى من بلوغه من مصـادر غير مرغوب فيها ، ويترتب على هـذا فساد الصحة ، وانحطاط الخلق • والطريق الآمن الوحيد هو خلق اتجاه صحى فى عقل الناشىء بتعليمه بالتدريج ، وأولا بأول ، كل ما يتعلق بما يخطر على باله من المشكلات الجنسية •

٧ — تجمع التربيـة الجنسية بين أوجه من التربية الخلقية والتربيـة الصحية ، ولذا لايمكن اكتمالها بكل عناصرها فى وقت واحد ، فهى عمليـة تدريجية بطيئة تشمل العناية الصحية والتوجيه والتعليم وحسن المثـال • وهـذا يضع على المنزل جل مسئولية التربية الجنسية المبـاشرة فى المراحل السابقة للمراهقة • ولهذا يجب اعداد الآباء ، وكل من لهم صلة بالطفل عن طريق النشرات ، والمحاضرات ، والمناقشات ، ليعدوا أنفسهم لتعليم النشء وتوجيههم فيما يختص بالمسائل الجنسية •

وقد عنيت بايراد هذه النقط بالتفصيل لسبب هام ، وهو ما يقع فيـه الكثيرون ممن يقومون بعلاج الشبان علاجا نفسيا ، اذ يوجهونهم أحيانا الى اتباع الحرية فى ممارسة المسائل الجنسية ، مما يترتب عليه الوقوع فعلا فى مشكلات نفسية أخرى أعقد بكثير مما كان لديهم •

ومن أمثلة ذلك أن عرض أحد الشبان نفسه على أحد المعالجين النفسيين فقال له القائم بالعلاج — على خلاف ما يتفق مع المبادىء الأولية فى العلاج النفسى — انه يشكو من كبت فى الغريزة الجنسية ، وأفهمه أن التقاليـد والآداب الجنسية وغير ذلك انما هى من عمل الانسان ، وليس لها فى ذاتها قيمة • حاول الشاب بناء على هذا أن يشبع نزعته الجنسية ، ثم كف بعـد

مدة عن ذلك ، اذ تولاه الاشمئزاز والتقزز وزيادة الكبت • وكان اتجاهه العقلى أنه كان كشاب صغير لا يمكنه أن يتمتع بحرية جنسية فى نظام تقاليدنا الحاضرة الا مع فتاة منحطة الخلق ، وهذا يبعث فيه الاشمئزاز مما زاد فى اضطرابه فى ذلك الوقت ، وجعله يتردد بين شدة التدين والانكباب على الاستمناء وادمان شرب الخمر • ووصل به الأمر الى تعاطى الحشيش وأنواع المسكيفات وانصرف عن عمله ، وكانت تنتابه حالات شديدة من الانقباض وضيق الصدر وبقية أعراض القلق العصبى •

التربية المختلطة :

وقد قامت بعض المدارس بتجارب فى التربية الجنسية ، ورأى بعض النظار [1] أن التربية المختلطة وهى تعليم البنين مع البنات ضرورية للتربية الجنسية فى جميع مراحل التعليم • فان كان يراد بالمدرسة أن تكون صورة من المجتمع ، فيجب أن تكون صورة حقيقية منه • وحيث أن البنين والبنات يختلطون فى المجتمع ، فيجب أن يختلطوا قبل ذلك تحت ظروف المدرسة خاضعين لبعض التوجيه ، وفى هذا اشباع لحاجات الفرد الحالية ، واعداد له فى نفس الوقت لمواجهة المواقف المستقبلة •

وترى الدكتورة « هاتون » [2] وهى تعتمد على ملاحظاتها القائمة على التحليل النفسى أن التعليم المختلط يزيد عادة من النزعات الاستقلالية للبنات، اذ يحررهن من اعتمادهن على أمهاتهن ، ويجعلهن كذلك أقل قلقا ، وأكثر هدوءا • وللتعليم المختلط — فى نظرها — أثر طيب فى البنين أيضا ، فهو يجعلهم أكثر دقة وحزما مع أنفسهم • فهى بذلك تؤيد التربية الجنسية فى التعليم المختلط من حيث تكوين الاتجاه العقلى العام •

---

(1) T. Blewitt: The Modern Schools' Handbook.

(2) I. Hutton: On Coeducation: British Journal of Medical Psychology Vol. XVI 1936, 62—71.

ويلاحظ أن مدى الحرية المعطاة فى التربية المختلطة يختلف من مدرسة الى أخرى بدرجة محسوسة ، ومن المدارس التى قطعت فى الحرية المعطاة شوطا بعيدا «دار تجنتون هول Dartginton Hall » ، ويقول ناظرها الاستاذ « كرى Curry [1] » : اذا كان الطريق الوحيد للاعداد للحياة فى المجتمع هو ممارسة الحيــاة الاجتماعية ، وجب أن تكون البيئة أبعـد ما يكون عن الجو الصناعى ، ويجب أن يباح للأطفال مواجهة نوع المشكلات التى سيقدر لهم مواجهته فى مستقبل حياتهم ، لهذا وجب جعل التعليم مختلطا ، ولــكى يجىء تطبيق التعليم المختلط بأحسن النتــائج ، يجب أن تزول كل الحواجز الصــناعية بين الجنسين ، ويعتقد ناظر المدرســة أن أساليب الوقاية والتحفظ التى أقيمت بالمدارس التى تمارس التعليم المختلط تؤدى الى نفس الأخطار التى يراد تجنبها من اقامة هذه العوائق . واذا كان من بيدهم السلطة يعتقدون أن اجتماع البنين مع البنات اجتماعا منفردا لا بد أن يؤدى الى أسوأ ما يمكن تصوره من نتائج ، فان سبب ذلك هو أن انفراد البنين بالبنات يصحبه فى هذه الحالات جو صناعى ملىء بخوف كل منهما مما عساه يحدث ، وبذلك يصير هذا الاجتماع من الخطورة بمكان ، لهذا كله فان مدرسة « دار تجنتون» تسير بحيث لايوجد فيها أى قوانين أو نظم حول علاقة البنين والبنات بنوع خاص ، فالبنون والبنات يعيشون فى نفس البيوت (houses) على نظام الأسرة ، وتوجد بين أعضاء هيئة التدريس الذين يعيشون بالفعل معهم وبينهم روح الصداقة العميقة ورفع الكلفة رفعا تاما ، مما يضمن وقوف المعلمين على كل ما يمكن أن يحدث ، ومما يضمن التوجيه المقبول اذا احتاج اليه الأمر .

(1) Curry: Dartginton Hall: The Modern Schools' Handbook pp. 62, 63.

ويعترف ناظر المدرسة بأن علاقات الحب فى مدرسته المختلطة لا بد أن تنشأ ، لكنه يؤكد أيضا أن التربية الانفعالية الجنسية لا تتم الا اذا واجهناها أولا فى ظروف خاضعة للارشاد والتوجيه الصحيح .

وهناك مدرسة أخرى وهى مدرسة « سمرهل » وناظرها « نيل » [1] ، وقد قطعت شوطا أبعد من المدرسة السابقة فى مدى الحرية التى تعطى للتلاميذ من الجنسين فى اختلاطهم وأحاديثهم ونكاتهم . فناظر المدرسة يسمح للأولاد — ان أرادوا — أن يتحدثوا فى المسائل الجنسية علنا وبحرية تامة ، حتى يشبعوا منها وتزهدها نفوسهم ويملوها ، ويترك لهم الحرية التامة فى اختلاطهم بعضهم مع بعض ، ولكنه يستغل الرأى العام فى مدرسته ، ويستغل قيمة سمعة المدرسة فى نظر هذا الرأى العام لتكوين المستويات الخلقية اللازمة لتوجيه سلوك تلاميذه . ومن أمثلة ذلك : أنه قبل فى مدرسته فتاة وفتى أتى كل منهما من مدرسة أخرى من المدارس العادية ، فتكونت بينهما فى الحال صداقة . وبدأ ينفرد أحدهما بالآخر بطريقة مثيرة للشبهة . فقال لهما الناظر الأستاذ « نيل » انه من الناحية الخلقية لايهمه شخصيا مايفعله كل منهما مع الآخر ، غير أن سلوكهما هذا سيسىء حتما الى سمعة المدرسة كلها ، واذا هما أنجبا باختلاطهما هذا طفلا فان المدرسة لايمكنها أن تتكفل به (هذا تهكم) ، ولكن النتيجة الحتمية الخطيرة فى هذه الحالة هى انتهاء حياة هذه المدرسة والقضاء عليها قضاء تاما . واسترسل قائلا لهما انهما يظنان خطأ أن مايفعلانه يسمى حرية ، وانهما لحداثة عهديهما بالمدرسة لايكنان فى نفسيهما شعورا بالاخلاص لها . واستمر نيل يخاطبهما بهذه اللهجة الحازمة المملوءة بالثورة والغضب مما يدل بطبيعة الحال على أن الحرية فى هذه المدرسة ليست كما يظن بعض الناس مطلقة بلا حدود ، وانما يحددها — كما قلنا — الرأى العام فى

(1) A. S. Neill : Summerhill ; The Modern Schools' Handbook.

المدرســة . ووصلت الحرية حقيقة فى هــذه المدرسة الى درجة الرقص والسباحة المختلطة للبنين مع البنات . وكانت تسير المدرسة فى الظـاهر على قاعدة الحرية التامة ، ولكن التلاميذ كانوا يضعون دستور المدرسة وقوانينها فى ضــوء خبراتهم ومشكلاتهم . وكانوا يعدلون من هــذه القوانين والتعليمات على ضوء مايستجد من المشكلات . وبذلك جاءت كل قوانينهم ونظمهم عن اقتناع ذاتى تام . وذلك فى جميع المسائل صغيرها وكبيرها سواء فى ذلك المسائل الجنسية وغير الجنسية .

والفرق بين مدرسة « نيل » ومدرسة « دارتنجتون » : أن الأولى أكثر حرية من الثانية ، وأن تقاليد المدرسة يضعها المجتمع المدرسى تبعا للحاجة الطارئة . ومدرسة نيل قوامها الصراحة التامة فى المسائل الجنسية ، فهى تناقش فيها علنا وبكل صراحة . فلا سر ، ولا غموض ، ولا اســتقذار ، ولا قداسة . وتكون هذه المدرسة مثالية حقا لو أن المجتمع له تقاليــده ومبادئه الدينية والخلقية ، وله قوانينه ومثله ونظمه الثابتة التى يجب أن يخضع لهــا التلاميذ . فيجب مع استمتاع التلاميــذ بالحرية أن نوجههم الى تقدير هــذه التقاليــد ، وفهم الحكمة منها . ويعترف « نيل » بأن الناشئين لايمكنهم أن يضبطوا أنفسهم بغير دين أو أخلاق ، ولكنه يريد من التلاميذ أن يكونوا مستويات سلوكهم — كما قلنــا — بأنفسهم فى المدرسة . وهذه فى رأينا مرحلة قد تكون طويلة ، ولا نضمن انسجـام نتائجها مع المستويات الكائنة فعلا فى المجتمع .

ومن مدارس التعليم المختلط الأكثر تقيدا من المدرستين الســابقتين مدرسة « بدالس Bedales » ويقول ناظرها : ان الناحية الجنسية وما يجب ازاءها فى دورى الطفولة والمراهقة لها مشكلات تظهر فى كل مدرسة . وتظهر هذه المشكلات بنوع خاص فى مدارس التعليم المختلط . وأساس معالجتها الصراحة التامة ، وفهم حاجات الطفولة والمراهقة ، والعطف على

الناشئين ازاء هذه الحاجات • وهو يعطى فى مدرسته الدراسات الجنسية ضمن الدراسات العادية بالمدرسة • فهى جزء من التشريح ، وجزء من علم الحيـاة • وفى السنوات الأخيرة من المدرسـة تناقش الصحة الشخصية والاجتماعية المرتبطة بالناحية الجنسية • وهذا يكفى فى رأى ناظر المدرسة، اذ أنه يعنى فى المدرسـة بالتعبيرات الوجدانية عناية كافيـة فى التمثيل ، والموسيقى ، والشعر ، والفن التصويرى • ويضاف الى ذلك ، الجهـد المشترك الذى يقوم به البنون مع البنات فى كثير من أعمال المدرسة ، وفى الدراسات الاجتماعية ، والخدمات الاجتماعية للأسر المجاورة للحى الذى به المدرسة • وتدريب التلاميذ على العمل المشترك بين الجنسين يعودهما الاشتراك فى نشاط يهمهما دون أن يشغل ذهنهما بالمسائل الجنسية •

ويرى « لين هاريس » [1] وهو ناظر لمدرسة ناهضة بانجلترا اسـمها مدرسة « سان كرستوفر » أن يعلم البنون مع البنات ، وألا يجبر أحد الجنسين على اتباع نظام معين تكون فيه الخواص الجنسية هى الخواص الأساسية • ويراعى فيمن يقومون بالاشراف على بيوت الطلبة أن يكونوا سعداء فى حياتهم الزوجية ، وأن يشتركوا هم وزوجاتهم فى الاشراف الفعلى والسكنى مع الطلبة والطالبات • ويرى « لين هاريس » أن اشباع الاستطلاع الجنسى وتوجيهه يجب أن يبدأ فى البيت ، ويستمر فى المدرسة ، وألا تعطى معلومات صريحة قائمة بذاتها ، وانما تعطى أجزاء متكاملة مع التربية المستمرة خلال الحياة المدرسية ، وتعالج المسائل الجنسية بتعاون الآباء والمدرسين ، حتى يمكن توحيد وجهات النظر ، وضمان استمرار الوجهة الصحيحة • أما التعليم الجنسى فانه يدخل ضمنا فى مشاهد الطبيعة وعلم الحيـاة وعلم الصحة •

---

(1) Lynn Harris: St Christopher School: The Modern Schools' Handbook.

وأما « بول روبرتس Paul Robert [1] » ناظر مدرســة « فرنشام هيتس » وهى من المدارس الحديثة ، فانه ينفذ التعليم المختلط ، والتعليم الجنسى ، ويسير على أساس أن حرية التكلم فى المســائل الجنسية تزهد نفوس التلاميذ فيها • ويرى أن ما يتعلق بالمسائل الجنسيــة يجب أن يفصل فيه البنون عن البنات ، وأن يعطى لمجموعات صغيرة ، وأن تعطى فيه أحيانا الفرصة للمناقشات الفردية • ويبدو « بول روبرتس » فى كل هذا أميل الى أساليب المحافظين من زميليه السابقين « نيل » و « كرى » •

وتتجه بقية المدارس الحديثة الى العنــاية بالمسائل الجنسية عنــاية كبيرة ، ويختلفون اختلافات بسيطة فى درجة الحرية المعطاة ، أو الأسلوب المستعمل ، أو غير ذلك •

تجارب فى التعليم الجنسى

نعلم مما تقدم أن التعليم الجنسى على الرغم من عظم أهميته لايخرج عن كونه جزءا من التربية الجنسية العــامة ، وقد اتفقت الآراء بين المربين ونظار المدارس الحديثة — كما بينا — على أن تعطى معلومات جنسية كاملة للنــاشئين على فترات مختلفة فى حيــاتهم ، وأن تعطى ضمن علوم أخرى كمشاهد الطبيعة ، أو التشريح ، أو الصحة أو علم الحيــاة ، أو غير ذلك •

وكان المتبع الى عهد قريب أن يكتفى بأن يدرس الأطفــال عمليات التلقيح والتكاثر فى النبات ، ثم يتركون ليستنتجوا البــاقى بأنفسهم • ويلاحظ أن الاقتصار على دراسة النبات أو الاكتفاء بمد هذه الدراسة الى الأسماك والضفادع عديم الفائدة ، بل قد يضر ؛ اذ أنه قد يثير مشــكلات فى ذهن التلميذ لايمكنه التفوه بها أمام معلمه أو والده •

---

(1) Paul Roberts: Frensham Heights School: The modern Schools' Handbook.

وقد قام الأستاذ « سمث » [1] ناظر احدى مدارس مقاطعة « الينواس» بأمريكا بتجربة فى اعطاء دراسات جنسية للتلاميذ،ومن رأيه أن تكون الناحية الجنسية جزءا متكاملا مع الدراسة ، لا يمكن فصلها عنها ، وأن تعالج بطريقة طبيعية كما تعالج مواد الدراسة الأخرى . فالتلاميذ فى السنوات الدراسية الخمس الأولى يقومون فى المدرسة بتربية الدواجن والأسماك وغيرها ، وملاحظة هذه الكائنات ، ومناقشة مايحدث لها . كل هذايعطى الطفل فكرة أولية صحيحة عن أصل الحياة ، وفكرة التكاثر ، وفكرة الأسر عند الحيوان ، وغير ذلك . وفى السنوات الدراسية السادسة والسابعة يتعلم التلاميذ بطريقة منظمة كثيرا من أجزاء الحيوان ، ووظائفها ويدخل ضمن هذه الدراسات الجهاز الهضمى ، والتنفسى ، مع الموازنة دائما بين الانسان والحيوان . وفى السنة الدراسية الثامنة يتعمق التلاميذ فى علوم الحياة أكثر من ذى قبل ، ويقومون بالتشريح العملى . وفىالسنة التاسعة ينتقل التلاميذ الى دراسة الأجنة ، ودراسة التطور ، وبذلك يستعملون المعلومات المتعلقة بالتشريح والوظائف والعمليات الجنسية . وبعد ذلك — أى عندما يكون التلاميذ فى سن السادسة عشرة تقريبا — يدرسون شيئا عن الصحة الجنسية الفردية ، والصحة الجنسية الاجتماعية، والتقاليد والآداب الاجتماعية المتعلقة بالناحية الجنسية ، فيدرسون البغاء ، والانتاج غير الشرعى ، والأمراض التناسلية وغير ذلك . ثم ينتقلون بعد ذلك الى الجامعة مزودين بالكفاية من التربية الجنسية ، التى تتوقف الى حد كبير على نوع جيد من التعليم الجنسى .

وينفصل البنون عن البنات فى بعض الدروس فى هذه المدرسة من السنة الدراسية الثامنة ، أى بالتقريب من سن ١٣ الى ١٨ .

---

(1) P. D. Smith: Towards A New Education; Ch. 5.

وقد قام اثنان [1] من الباحثين فى « ويلز » باجراء تجربة تعليمية فى التربية الجنسية فى المدارس ، بدأت سنة ١٩٢٩ بعد موافقة السلطات التعليمية المحليــة عليها • وهى تعتبر من التجــارب الفريدة فى نوعها من هــذه الناحية ، ومن حيث الروح العلميــة التى أجريت بها ، واتساع نطــاق اجرائها فى المدارس الأولية المختلفة • وقد وصل عدد هذه المدارس الى ٩٢ مدرسة ، ووصل عدد التلاميــذ الذين خضعوا للتجربة الى ١٦ ألف تلميذ تقريبا • وقد بدأت التجربة بعمل استفتاء للآباء ، وعقد المؤتمرات لهم • وكانت نتيجة هذا أن وافق ٩٣ ٪ من الآباء على أن تقوم المدرســة بواجب التربية الجنسية ، وأما الذين لم يوافقوا على ذلك ونسبتهم ٧ ٪ فبعضهم يرى أن يقوم الوالدان بهذا الواجب ، وبعضهم يرى وجوب عدم التعرض للمسائل الجنسية اطلاقا • وفريق يرفض التعرض لها فى المنزل أو فى المدرسة على أسس يرى هو أنها دينية • وفريق رابع التزم الصمت ولم يبد سببا ما • ويعتقد القــائمون بالتجربة والمدرسون الذين ســاعدوهم فى اجرائها ، أن الحياة الجنسية الخاصة لهذا الفريق الرابع من الآباء محرجة الى حد أنهم لا يتعرضون لابداء أى سبب ، ويحتمل أن يكون لديهم كبت شديد خاص بالمسائل الجنسية •

وبعد فحص ردود الآباء وافقت السلطات المحلية على بدء التجربة ، وهى اعطاء أحاديث بالفصول الدراسية تبدأ بحديث عن الصحة الجسمية والنمو ، وحديث أولى بسيط عن أثر التفكير فى السلوك ، ثم الانتقال الى الغدد وشرح قيمتها فى النشــاط ، والنمو بوجه عام مع تبسيط كبير • فشرحوا الغدة الدرقية ، والنخامية ، والغدتين فوق الكلوتين ، والغــدد الجنسية • وبنفس الطريقة العلمية الهادئة التى شرحوا بها وظائف الغدد ،

---

(1) Tucker and Pout: Sex Education in Schools.

انتقلوا الى شرح الوظائف الجنسية الثانوية للغدد التناسلية مع التكلم عن التشريح التناسلي ، وتناولوا بعض القواعد الصحية العامة التي تتناول وجوب لبس الملابس الواسعة التي لا تضغط على هذه الغدد ، ووجوب النظافة المستمرة حتى لا تتهيج هذه الغدد ، وغير ذلك . وأحاديث البنين تختلف عن أحاديث البنات ، وتعطى لكل فريق على حدة ، ويقوم رجل باعطاء أحاديث البنين وسيدة باعطاء الأحاديث الأخرى . بعد هذا تبدأ أحاديث فى علم الحياة متعلقة بالتكاثر والتلقيح ، والنبات ، وما فيه من الأعضاء التشريحية التي تقوم بهذه الوظائف كالميسم ، والقلم ، والمبيض ، والبويضات ، وحبوب اللقاح . ثم يحدث الانتقال بعد ذلك الى تكاثر الأسماك ، وبعض مظاهر الحماية والوقاية التي يقوم بها السمك الكبير نحو صغاره حتى يكبر ، ويستقل فى حياته . ثم ينتقلون بعد ذلك الى الطيور ثم الحيوانات الثديية ، ثم الانسان . ويبين فى هذه الأنواع الأخيرة نمو الجنين داخل الرحم الذى يشبه فى وظيفته المبيض فى النبات . ويسمون الرحم بالعش (Nest) لأنه شبيه بعش الطير الذى يحفظ فيه البيض الى أن يفقس . أما الحديث فى حالة البنات فانه يضاف اليه شيء عن العادة الشهرية ، ودلالتها ، ووجوب العناية الصحية ازاءها .

ويشار فى الأحاديث التالية لذلك ، الى أهمية الذكر فى الانسان ، وطريقة وضعه للخلايا الذكرية داخل الرحم ، حيث يقابل الحيوان المنوى البويضة الأنثية ويتم التلقيح ويبدأ النمو ، ويشار الى بعض القواعد الصحية الواجب مراعاتها أثناء الحمل حتى ينمو الجنين نموا حسنا [1] .

ومن أهم الأحاديث مايلى ذلك عن التقاليد الجنسية ، ووجوب مراعاتها ، والحكمة فى ذلك .. الى غير هذا .

---

(1) Tucker and Pout (Ibid) p. 115.

وكانت تتخلل هـذه الأحاديث أسئلة يلقيها الأطفال على القـائمين بالتجربة حول هـذه المسائل ، ومن أمثلة الأسئلة المتعلقـة بموضوعنا ما يأتى : —

أيخرج الجنين من السرة أم من مجرى البول ؟

لماذا يلد بعض النساء والبعض الآخر لا يلد ؟

لماذا يولد بعض الأطفال ميتا ؟

ماطول المدة اللازمة لانجاب توأم ؟

هل يمكن أن تلد المرأة مهما كانت عجوزا ؟

هل يمكن أن تلد المرأة دون أن تتزوج ؟

ما وظيفة الوالد فى انجاب الأولاد ؟ وما الذى يفعله بالضبط لذلك ؟ لماذا لايلد الأطفال ؟

وبعد انتهاء التجربة وجه أصحابها الى معلمى المدارس التى أجروا بها تجاربهم استفتاء لاستيضاح رأيهم فى التجربة . وكان أكثر من ٩٠ ٪ من المعلمين يؤيد التجربة بالطريقة الجمعية التى أجريت بها . كما يؤيد ترتيب الأحاديث وتسلسلهـا ، وكذلك فكرة قيـام اختصاصى من خارج المدارس — لا من أعضاء هيئة التدريس — باعطائها . ومما لاشك فيـه أن نجاح التجربة يرجع بعضه الى مهـارة القائمين بها ، وبعض صـفاتهم الشخصية الخاصة . وهذا ينطبق على كل نوع من أنواع التربية والتعليم، بل على كل عمل فنى من هـذا النوع . ويرجع نجاح التجربة أيضـا الى موقف القائمين بها ازاء المسائل الجنسية ، والاتجاه العقلى العلمى الهادىء الذى يمكنهم مواجهة التلاميذ به . ويرجع أيضـا الى نوع المصطلحات والألفاظ التى استعملوها .

وهذا كله لا يعفينا من أن تتذكر دائما وجوب مراعاة الفروق الفردية فى السن والمزاج والتربية الأولى ، والنظرة الاجتماعية العامة الى الموضوع ، ونظرة البيئة الخاصة اليه وغير ذلك .

ويقول وليام براون (W. Brown) تعليقـا على هذه التجربة : ان أحسن من يقوم بالتربيـة الجنسية الوالدان ، ولـكن حيث ان أغلب الآباء يعوزهم الوقت والرغبة والمعرفة الجنسية والمزاج الخاص ، فيجب النظر فيما يمكن عمله فى المدرسة للوصول الى التربية الجنسية اللازمة .

ويلاحظ أننا لم نشر فى هذا الباب الى التربيـة الجنسية فى مصر ، وكيف يجب أن تكون ، ولكننا اقتصرنا على ما يعمل فى الخارج ، حتى يتبين ما يمكن عمله عندنا مع مراعاة ظروفنا وتقاليدنا الاجتماعية ، ولكن على أى حال يمكننا أن نلمس فى الفصلين السابقين أهمية المشكلة ومدى انتشارها وتغلغلها ، وندرك كذلك الحاجة الملحة الى وجوب العمل من جانب القائمين بأمر التعليم فى هذا الاتجاه الجديد .

المراجع

قصة الحياة فى جميع الأحياء : للدكتور القوصى والدكتور طنطاوى

B. Webb : The Teaching of Children as to the Reproduction of Life.

Bennett : The Sex Education of Children.

Hutton : Co-education; British Journal of Medical Psychology, 1936.

Tucker and Pour : Sex Education in Schools.

Russel : On Education.

Schweintiz : How a Baby is Born.

T. Blewitt : The Modern Schools' Handbook.

Valentine : The Psychology of Early Childhood.

ثبت بالمصطلحات

الواردة فى هذا الكتاب ومرادفاتها [1]

قدرة	Ability
التفريغ الانفعالى (المقصود فى التحليل النفسى)	Abreaction
النسبة التحصيلية ($\frac{\text{العمر العقلى}}{\text{العمر التحصيلى}} \times ١٠٠$)	Accomplishment Quotient
النسبة التحصيلية	Achievement Quotient
مكتسب	Acquired
التملك (غريزة)	Acquisition (Hoarding)
الخوف من المرتفعات	Acrophobia
تكيف (تلاؤم)	Adaptation
تكيف (تلاؤم)	Adjustment
بلوغ (بعد المراهقة)	Adolescence (See Puberty & Maturity)
قشرة الكظرية	Adrenal Cortex
الكظرية (الغدة فوق الكلوية)	Adrenal Gland
الأدرنالين	Adrenalin
لب الكظرية	Adrenal Medulla
نزعات اعتدائية	Aggressvie Tendencies
الخوف من الأماكن المفتوحة المتسعة (كالميادين أو الصحارى ..)	Agoraphobia
التناقض الوجدانى	Ambivalency
الهدم الحيوى	Anabolism (See Katabolism & Metabolism)
علم النفس التحليلى	Analytic Psychology (See Psycho-Analysis)

---

(١) ملحوظة : رأينا أن نذيل الكتاب بثبت المصطلحات التى استعملت فيه وعددها ٣٠٠ تقريبا ، وقد استعمل أغلبها بنجاح منذ عام ١٩٣٤ وقد روعى عدم التقيد بايراد كلمة واحدة للمصطلح الواحد • وروعى كذلك عدم التقيد بالترجمة الحرفيـة للمصطلح ، اذ ثبت لنـا بالخبرة أن من الخـير أن يترجم المصطلح بحسب معناه لا بحسب تركيبه اللاتينى • وقد اعتمـدنا فى ايراد ترجمة هذه المصطلحات على ما أفدنا من التجريب بالاستعمال • على أننا أفدنا كذلك من خبرة زملائنا وتلاميذنا ومن سبقونا من الأساتذة •

Anger .. .. غضب
Anorexia .. .. فقدان الشهوة (للطعام)
Anxiety .. .. قلق
Anxiety Equivalents .. .. المعادلات القلقية
Anxiety Hysteria .. .. الهستريا القلقية
Anxiety Neurosis .. .. القلق العصبى
Appetite (See Needs & Instincts) .. .. شهوة
Asceticism .. .. مجاهدة النفس
Assertion .. .. السيطرة (غريزة)
Association ترابط (لا تداعى)
Association by Contiguity .. .. الترابط بالاقتران
Association by Similarity .. .. الترابط بالتشابه
Asthenic Type (See Athletic & Pyknic) .. .. .. النوع الهزيل
Athletic Type .. .. النوع الرياضى
Auto-erotism .. .. الجنسية الذاتية
Auto-Sexuality .. .. التلذذ الجنسى الذاتى
Auto-suggestion .. .. ايحاء ذاتى
Behaviour .. .. سلوك
Censor (Resistance) .. .. رقيب (مقاومة)
Character .. .. خلق
Choleric (See Temperament) .. .. صفراوى (مزاج)
Chorea .. .. الخوريا
Chromosomes .. .. الكروموسومات (الصبغيات)
Chronological Age .. .. العمر الزمنى
Claustrophobia .. .. الخوف من الوجود داخل أماكن مغلقة
Coeducation .. .. التعليم المختلط (التربية المختلطة)
Complex .. .. عقدة
Complex/Electra .. .. عقدة الكترا
Complex/Father .. .. عقدة الأب
Complex/Homosexual .. .. عقدة الجنسية المثلية
Complex/Inferiority .. .. عقدة النقص
Complex/Mother .. .. عقدة الأم
Complex/Oedipus .. .. عقدة أوديب
Conation (See Will) .. .. نزوع (انظر ارادة)

Concommitant Learning	التعلم العرضى (التعلم المصاحب)
Condensation	تكثيف
Conflict/Mental	صراع نفسى
Congenital (See Hereditary)	ولادى (أنظر وراثى)
Compensation	تعويض
Construction	حل وتركيب (غريزة)
Constructive Method	المنهج الانشائى
Contra-suggestibility	القابلية للايحاء العكسى
Contiguity	الاقتران
Contiguity/Spatial	الاقتران المكانى
Contiguity/Temporal	الاقتران الزمانى
Conversion Hysteria	الهستريا التحولية
Coordination	توافق
Correlation/Coefficient of	معامل الارتباط
Correlation/Partial	الارتباط الجزئى
Curiosity	الاستطلاع (غريزة)
Customs (See Habits)	تقاليد (انظر عادات)
Cycloid	المتقلب
Cystitis	التهاب المثانة
Dementia Praecox	الجنون المبكر
Destructiveness	التخريب (التدمير)
Disintegration	الانحلال
Dissociation	الفصل (فى اللاشعور)
Dramatisation	التمثيل (التقنع)
Dream	حلم (رؤيا)
Dream/Day	حلم اليقظة
Educational Age	العمر التحصيلى
Educational Quoient	النسبة التعليمية($\frac{\text{العمر التحصيلى}}{\text{العمر الزمنى}}$ × ١٠٠)
Ego	الـ « أنا » أو الذات
Egocentrism	ذاتية المركز
Elaboration	التعديل فى الأحلام
Emotion (See Feeling)	انفعال (انظر وجدان)
Emotion/Complex	انفعال ثانوى (مركب)

Emotion/Derived .. .. انفعال مشتق
Emotion/Primary .. .. انفعال أولى
Emotion/Secondary .. .. انفعال ثانوى
Enuresis (See Incontinence) .. .. التبول اللاارادى
Epilepsy .. .. الصرع
Epileptic Fits .. .. النوبات الصرعية
Extrovert .. .. المنبسط
Extroversion .. .. الانبساط النفسى
Faculty .. .. ملكة
Fear .. .. خوف
Feeling (See Emotion) .. .. وجدان
Food-seeking .. .. البحث عن الطعام (غريزة)
Fugue (See Wandering) .. .. النسيان التجولى
Functional .. .. وظيفى
Genes .. .. جينات (مفروض أنها حوامل الصفات الوراثية)
Genetic Method .. .. المنهج التتبعى
Genius .. .. عبقرى
Gland/Adrenal (supra-renal) .. الغدة الكظرية (الغدة فوق الكلوية)
Glands/Parathyroid .. .. الغدد جارات الدرقية
Gland/Pineal .. .. الغدة الصنوبرية
Gland/Pituitary .. .. الغدة النخامية
Gland/Thymus .. .. الغدة التيموسة (الصعترية)
Gland/Thyroid .. .. الغدة الدرقية
Glands/Sexual (Gonads) .. .. الغدد الجنسية
Gluttony .. .. الشره
Glycogen .. .. نشا حيوانى
Gregariousness .. .. الاجتماعية (غريزة)
Habits (See Customs) .. .. عادات
Happiness (See joy & Pleasure) .. .. سعادة
Harmony .. .. توافق
Health/Mental .. .. الصحة النفسية
Hereditary (See Congenital) .. .. ورائى (انظرولادى)
Heroworship .. .. عبادة البطولة
Heterosexuality .. .. الجنسية الغيرية

Heterosuggestion	الايحاء الغيرى
Homosexuality	الجنسية المثلية
Hormones	هرمونات
Hygiene/Mental	علم الصحة النفسية
Hypocondria	توهم المرض
Hysteria	الهستيريا
Id	ال « هى » (النزعات)
Identification	تقمص
Imagination	خيال
Imitation	تقليد
Impulses	الدوافع
Inborn (See Innate)	ولادى
Incontinence (See Enuresis)	التبرز اللاارادى
Inhibition (See Repression & Suppression)	الكف
Innate (See Inborn)	فطرى
Innervation	استثارة عصبية
Insight	بصيرة
Instinct (See Repression & Suppression)	غريزة
Instinctive behaviour	سلوك غريزى
Instinct of combativeness (pugnacity)	غريزة المقاتلة
Instinct/Escape	غريزة الخلاص (الهرب)
Integration	تكامل
Intelligence Quotient	نسبة الذكاء (العمر العقلى / العمر الزمنى × ١٠٠)
Interest	ميل (استعداد) ـ اهتمام (عملية)
Introversion	الانطواء النفسي
Introvert	المنطوى
Jealousy	الغيرة
Joy (See pleasure and happiness)	سرور
Katabolism (See Anabolism & Metabolism)	البناء الحيوى
Lalling	لثغة (قلب الراء لاما)
Latency Period	دور الكمون
Latent Content (In Dreams)	المحتويات الباطنة (في الأحلام وهى ليست كامنة)
Libido	الطاقة الحيوية

Lie of loyalty .. .. الكذب الوفائي
Lie or revenge .. .. الكذب الانتقامي
Lie of vanity .. .. الكذب الادعائي
Lisping .. .. لثغة (قلب السين ثاء)
Lyingconfusional .. .. الكذب الالتباسي
Lying/exculpatory .. .. الكذب الدفاعي
Lying/excusive .. .. الكذب الدفاعي
Lying/imaginative .. .. الكذب الخيالي
Lying/Pathological .. .. الكذب المزمن
Lying/selfish .. .. الكذب الأناني
Manifest/content .. .. المحتويات الظاهرة (في الأحلام)
Manual skill .. .. المهارة اليدوية
Masochism .. .. الماسوكية (حب العذاب)
Masturbation .. .. استمناء (جلد عميرة ـ العادة السرية)
Maturity (See Adolescence) .. .. اكتمال النمو (الرشد)
Mechanism/unconscious .. .. حيلة لاشعورية
Melancholia (Temperament) .. .. سوداوي (مزاج)
Memory .. .. ذاكرة
Mental Age .. .. العمر العقلي
Mentally Defectives .. .. ضعاف العقول
Metabolism (See Anabolism & Katabolism) .. التغاير الحيوى(الهدم والبناء)
Migraine .. .. صداع مزمن
Misophobia .. .. الخوف من التلوث
Mood .. .. حالة مزاجية
Moral defect .. .. النقص الخلقي
Moral sense .. .. احساس خلقي
Motives (See Impulses) .. .. دوافع
Nail Biting .. .. قرض الأظافر
Narcissism .. .. النرجسية (عشق الذات)
Need for Adventure .. .. الحاجة للمخاطرة
Need for Affection .. .. الحاجة للحب والمحبة
Need For Being Loved .. .. الحاجة للمحبة
Need For Control .. .. الحاجة للضبط (التوجيه)
Need For Freedom .. .. الحاجة للحرية

Need For Growing Up	الحاجة للنمو
Need For Loving	الحاجة للحب
Need For Recognition	الحاجة للاعتراف (التقدير)
Need For Security	الحاجة للأمن
Need For Success	الحاجة للنجاح
Needs/Psychological	الحاجة النفسية
Negative Adaptation	التكيف السلبى
Neurasthenia (See Psychasthenia)	الضعف العصبى (نيوراستينيا)
Neurosis	مرض عصبى
Non-Epileptic Fits	النوبات اللاصرعية
Normal	عادى (متوسط)
Old Maid's Insanity	جنون العوانس
Organic Changes	التغييرات العضوية
Organic Inferiority	نقص عضوى
Ouvert Action	الفعل الظاهر
Parasympathetic	الباراسمباتوى
Parental instinct	غريزة الوالدية
Perception	الادراك الحسى
Perceptual Consciousness	الشعور الادراكى
Personality	الشخصية
Perversion	قلب
Phobias	مخاوف
Phlegmatic (Temperament)	بلغمى (مزاج)
Play	اللعب
Pleasure (See joy & happiness)	لذة
Polyuria	كثرة البول
Positive Method	المنهج الايجابى (الانشائى)
Pre-conscious (Pcs)	ما قبل الشعور
Preventive Method	المنهج الوقائى
Proctitis	التهاب المستقيم
Propensities	قوى (استعدادات)
Projection	اسقاط (الصاق)
Psychasthenia	سيكاستينيا (تحل هذه الكلمة الآن محل نيوراستينيا)
Psychiatry	علم النفس الطبى

Psychic Inferiority	نقص نفسى
Psycho-Analysis	التحليل النفسى
Psycho-Neurosis	عصاب نفسى
Psycho-Pathology	علم الأمراض النفسية
Psycho-Somatic Medicine	علم الطب النفسى الجسمى
Psychosis	مرض عقلى
Psycho-Therapy	العلاج النفسى
Puberty	المراهقة
Pyelitis	التهاب حوض الكلى
Pyknic Type	النوع الممتلىء القصير (السمين)
Questionnaire Method.	طريقة الاستفتاءات
Random Movements	الأفعال العشوائية
Rationalisation	تبرير
Reaction	رد الفعل
Realism	الواقعية
Reality	الواقع
Re-education	التعليم المجدد
Reflex Actions	الأفعال المنعكسة
Reflex Actions/Conditioned	الأفعال المنعكسة الشرطية
Regression	نكوص (تراجع)
Relativity	نسبية
Relaxation	تراخ
Relaxation Exercise	تمرين تراخ
Religious Mania	جنون التدين
Remedial Method	المنهج العلاجى
Repression	كبت
Repulsion	النفور (غريزة)
Resistance (See Censor)	مقاومة (رقيب)
Sadism	السادية (حب التعذيب)
Sanguine (Temperament)	دموى (مزاج)
Schizoid	المائل للانطواء
Self Abuse (See Masturbation)	استمناء
Self Punishment (See Masochism	عقاب الذات
Self Realisation	تحقيق الذات

Sense of Guilt	الاحساس بالخطيئة
Sentiment	عاطفة
Sentiment/Master	عاطفة سائدة
Sentiment/Self Regarding	عاطفة اعتبار الذات
Sentiment of Self Respect	عاطفة احترام الذات
Septic Focus	بؤرة توكسينية
Sexual Aberrations	الحيودات الجنسية
Sexual Abnormality	الشذوذ الجنسي
Spina Bifeda Orculta	تأخر التحام العمود الفقرى
Spontaneity	التلقائية
Stammering	عي ــ حبسة ــ عقلة
Standardisation	التقنين
Stuttering	فأفأة ــ تمتمة
Sublimation	تسام ، اعلاء ، تصعيد
Submission	الخنوع (الخضوع)
Substitution	ابدال
Suggestibility	القابلية للايحاء
Suggestion	الإيحاء ــ الاستهواء
Super Ego	ال « أنا » العليا ــ الذات العليا
Suppression	قمع
Surprise (See wonder)	الدهشة
Symbolism	رمزية
Sympathetic Induction of Emotion	الانفعال بالتاثير المشاركة الوجدانية
Sympathetic Nervous System	المجموع العصبي السمبتاتوى
Sympathy	المشاركة الوجدانية
Taboos	المحرمات
Temper (See mood)	طبع
Temper Tantrums	نوبات غضبية
Temperament (See mood)	مزاج
Tendencies	ميول ــ نزعات ــ اتجاهات
Thumb Sucking	مص الأصابع
Thyroxin	الثروكسين
Tics	اللازمات
Tongue Sucking	مص اللسان

Transference	تحويل
Trauma/psychic	الاصابة النفسية
Trial and Error	المحاولة وحذف الاخطاء
Truancy	عروب
Twins/identical	التوائم المتحدة
Unconscious (Ucs)	اللاشعور
Urethral Erotism	التلذذ الجنسى للمجارى البولية
Urethral Inflammation	التهاب مجرى البول (للذكور)
Urinary Sexuality	التلذذ الجنسى للمجارى البولية
Vagrancy	تشرد
Vulvo Vaginitus	التهاب مجرى البول (للاناث)
Wandering (See Fugue)	التجول
Weaning/Psychological	فطام نفسي
Will (See Conation)	ارادة (أنظر نزوع)
Wonder (See Surprise)	عجب (أنظر دهشة)

للمؤلف

١ — أسس علم النفس — مكتبة النهضة المصرية

وهى أساس لما يلقى من المحاضرات فى علم النفس على طلاب معاهد التربية .

٢ — قصة الحياة فى جميع الأحياء (مع الدكتور أحمد طنطاوى) — مكتبة النهضة .

كتاب فى التربية الجنسية وضع مخصوصا ليقرأه الناشئون فى دور المراهقة وقبيلها .

٣ — الاحصاء فى التربية وعلم النفس (مع الدكتور حسين محمد حسين) — مكتبة النهضة .

كتاب يبحث فى الأساليب الاحصائية الحديثة وتطبيقها فى ميادين التربية وعلم النفس .

٤ — الادراك المكانى Visual Perception of Space (Cambridge University Press, London)

بحث تجريبى أدى الى الكشف عن العامل المكانى وهو أساس للغدات العقلية المؤهلة للتفوق فى المهن الهندسية .

٥ — اللغة والفكر (مع آخرين) — توريدات المعارف .

يبحث فى سيكولوجية اللغة وطرق تدريسها وينتهى بتقرير عن تجربة الطريقة الكلية (الجملية) .

٦ — القراءة العربية (مع آخرين) — توريدات المعارف .

كتاب لتعليم مبادىء القراءة يقوم على تطبيق طريقة الجملة — وهى

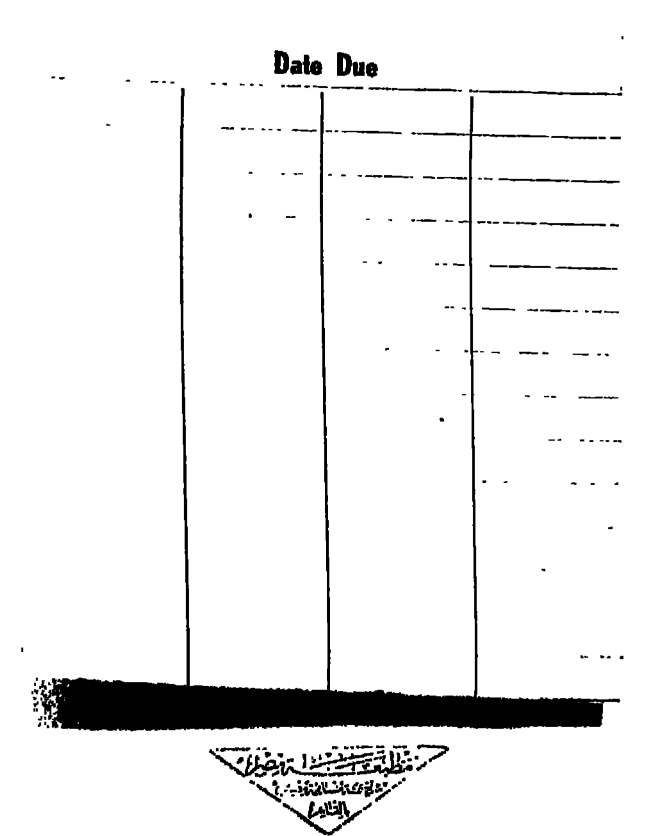
مبنية على أحدث البحوث السيكولوجية المعروفة باسم « الجشتالت » .
وهناك مرشد للمعلم فى كتيب مستقل يبين طريقة استعمال الكتاب .

٧ — تيسير النحو (مع آخرين) للسنة الثالثة الابتدائية والخامسة الأولية — عيسى البابى الحلبى وشركاه .

كتاب يقوم على الأسس التى أقرتها اللجنة الدائمة لترقية اللغة العربية وقرارات المؤتمر الثقافى العربى الأول .

٨ — أسس الصحة النفسية .

٩ — الاختبارات الحسية للذكاء .


Date Due

